دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أوربا العصور الوسطى

الجزء الثانى



أوربا العصور الوسطى

الجزء الثانى
النظم والحضارة

تأليف
دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

طبعة مزيدة ومنقحة



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

عاشور ، سعيد عبد الفتاح

اوربا العصور الوسطى ج٢

تأليف / سعيد عبد الفتاح عاشور

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٩ .

٤٦٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم

١ـ النظم والحضارة

أ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٨٠٩٩

ردمك : ٠ ـ ١٤٦٤ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم غلاف : ماستر جرافيك

الناشـر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

يعتبر تاريخ القرون الوسطى من أشد عصور التاريخ تعقيداً وتنوعا وأهمية. فدراسة هذه الحقبة من التاريخ التى أمتدت ألف عام تتناول تشكيلة ضخمة من الشعوب والنظم والحضارات، وهى تشكيلة تعبر عن جانب هام من جوانب تطور التاريخ البشرى، فضلاً عما تحويه من كثير من أصول الحضارة الحديثة. ذلك أن القرون الوسطى تمثل العصر الذى بدت فيه بوضوح مظاهر الاختلاف بين الشرق والغرب. وبين بلاد الشمال وبلاد حوض البحر المتوسط، وبين القديم والجديد، وبين التيارات الدينية والدنيوية، وبين الأفكار المثالية والحقائق الواقعية. هذا إلى أن توسط مركز القرون الوسطى من الناحية الزمنية، وارتباطها الشديد بالعصور القديمة من ناحية وبالعصور الحديثة من ناحية أخرى، جعل لها مكانا بارزاً فى تطور التاريخ البشرى الذى امتاز بالاستمرار واتصال حلقاته.

على أن كثيراً ممن يفتقرون إلى حُسن الإدراك وعمق المعرفة، ينظرون إلى العصور الوسطى فى أوربا نظرة تختلف كثيراً عن نظرتنا هذه، فيرمونها بالجمود والمحافظة، بل بالظلمة الموحشة والجهل المطبق. فهم لايرون فى العصور الوسطى إلا بربرية القوط وهمجية الوندال وأشباههم من شعوب الجرمان، ولا يريدون أن يربطوها إلا بتزمت الكنيسة وفوضى الحروب والإغارات واستبداد الحكام والأمراء. ومن الواضح أن هذه النظرة تتجاهل ظاهرة التفاوت الحضارى بين مختلف أنحاء أوربا، والتغيرات الاقتصادية الهامة التى ألمت بالمجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، وأثر تدفق التيارات الجديدة التى تحمل العلم والمعرفة من الشرق، هذا فضلا عما فى هذه النظرة من تنكر صريح لما حدث فى العصور الوسطى. من حركات استهدفت إحياء الحضارة القديمة وابتكار عناصر حضارية جديدة ميزت تلك العصور وأعطتها طابعا حضاريا خاصا بها.

ومن المعروف أن الحضارة الأوربية بلغت ذروتها فى الأزمنة القديمة على عصر الإمبراطورية الرومانية، وإذا كانت هذه الإمبراطورية أدركت أقصى اتساعها على

عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م)، إلا أن مظاهر الإعياء والضعف أخذت تبدو عليها منذ القرن الثالث نتيجة لعوامل متباينة داخلية وخارجية، حتى انتهى الأمر بتقسيمها إلى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥، ثم بسقوط الإمبراطورية الغربية على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ . ويعتبر إنحلال الإمبراطورية الغربية ثم سقوطها مظهراً أساسيا للمحنة الكبرى التى مرت بها الحضارة الأوربية فى الغرب منذ أواخر القرن الخامس. عندما اشتد ضغط أعداء الإمبراطورية على أراضيها، ولاشك فى أن هذه الكارثة التى حلت بالغرب الأوربى على أيدى الجرمان تركت أثرا عميقا فى مستقبل التاريخ الأوربى، كما أنه من الممكن اتخاذ الظروف التى أمست فيها أوربا غداة سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب نقطة ارتكاز تبدأ منها دراسة تطور الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى(١) .

ولو أن هؤلاء الجرمان الذين أغاروا على الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وأسقطوها، اندمجوا مباشرة فى محيط أهالى البلاد الأصليين من الرومان، لخف هول المصاب الذى نزل بالحضارة الأوربية ولكن الذى حدث بالضبط هو أن الجرمان الذين دخلوا الإمبراطورية الرومانية وأقاموا ممالك جديدة داخل حدودها استمروا - فى معظم الحالات - يعيشون فى ظل قوانينهم ونظمهم القبلية التى ألفوها من قبل، محتفظين بكيانهم الجرمانى وسط المجتمع الرومانى المنحل. والأمر الذى جد فقط هو أن الجرمان أصبحوا مسيطرين على أراضى الإمبراطورية ومواردها، فى حين أمسى أهالى البلاد الأصليين - حتى فى إيطاليا نفسها - طبقة من المحكومين الخاضعين لسادة البلاد الجدد من الجرمان. وهكذا ظل الجرمان أمدا طويلا تفصلهم عن الرومان فوارق خطيرة فى الجنس والعقيدة واللغة والحضارة، الأمر الذى جعل الممالك الجرمانية الناشئة لا تقوم على أسس ثابتة تكفل لها الاستمرار والبقاء، وبالتالى تيسر للحضارة الأوربية الصحوة وتكفل لها الانتعاش. ولم يكن للناس من عزاء وسط هذه الظروف القاسية سوى النظر إلى الماضى، إلى مجد الإمبراطورية وعظمتها؛ تلك الإمبراطورية التى كونت وحدة حضارية ضخمة قوى من روابطها انتصار المسيحية وازدياد نفوذ الكنيسة ازديادا جعل منها القوة الوحيدة التى تستطيع المحافظة على

(1) Eyre: European Civilisation. vol. p. 5.

تراث الحضارة الرومانية، فى وقت أوشك ذلك التراث أن يندثر ويضيع فى غرب أوربا وجنوبها. وبعبارة أخرى فإن انهيار صرح البناء السياسى للإمبراطورية الرومانية فى الغرب لم يصحبه إنهيار الحضارة الرومانية، لأن الكنيسة احتضنت هذه الحضارة وضمنت لها البقاء والاستمرار.

على أن تفكير المعاصرين فى مجد الإمبراطورية الرومانية لم يقتصر فى العصور الوسطى على الجانب السياسى فحسب، وإنما تناول الجانب الحضارى أيضاً. فعظمة الإمبراطورية الرومانية بنظامها ومدنها وطرقها وتجارتها وعلمها وأدبها وفنها، ظلت ماثلة فى العقول حتى أصبحت آمال الطموحين فى تلك العصور لا تقف عند إحياء نظام الإمبراطورية السياسى وهيبتها فى شخص إمبراطورها فحسب، بل أيضاً إحياء مجدها الحضارى وتراثها العلمى والأدبى والفنى. ولعل هذا الشعور هو الذى جعل فترة الظلام الذى اكتنف أوروبا منذ أواخر القرن الخامس لا تستمر طويلا، وإنما تخللتها صحوات ووثبات حضارية قد يطول مداها أو يقصر، وقد يشتد بريقها ويتسع نفوذها أو يضعف ويضيق، حسب الظروف التى أحاطت بكل منها.

وفى هذا الكتاب الذى يمثل الجزء الثانى من مؤلفى «أوربا العصور الوسطى» رأيت أن أعطى المشتغلين بتاريخ تلك العصور صورة عامة للأوضاع الحضارية لغرب أوربا وما يرتبط بها من نظم وتيارات فكرية. وقد رأيت أن أقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول خصصته للنظم والحياتين الاجتماعية والاقتصادية، والقسم الثانى خصصته للحياة الفكرية والفنون وما يرتبط بذلك من أوضاع التعليم والنشاط التشريعى والأداب والعلوم، أما القسم الثالث والأخير فقد عالجت فيه الحركات الحضارية التى شهدتها أوربا فى العصور الوسطى وصدر الحديثة، وتشمل ثلاث حركات: النهضة الكارولنجية، والنهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، والنهضة الإيطالية فى ختام العصور الوسطى ومستهل الحديثة.

* * *

وإذ أقدم اليوم هذا الكتاب فى ثوبه الجديد، لا يسعنى سوى أن أدعو الله أن يفيد منه المشتغلون فى حقل الدراسات التاريخية المرتبطة بالعصور الوسطى، وأن يجد فيه المعلمون والمتعلمون فى الجامعات العربية المادة العلمية الواضحة التى تمكنهم من فهم روح تلك العصور فهما واعيا.

والله ولى التوفيق

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

القسم الأول

النظم والحياة الاجتماعية والاقتصادية

الباب الأول
النظم الدينية

البابوية ونظمها:

من الثابت أن الفوارق التى يعرفها العالم الحديث بين السلطتين الزمنية والدينية لم يكن لها وجود فى أوربا العصور الوسطى. فالناس فى تلك العصور لم يعتبروا الكنيسة والدولة هيئتين متعارضتين، لأنهم لم يعرفوا سوى مجتمع سياسى واحد، هو المجتمع المسيحى. حقيقة أن هناك قوتان أو سلطتان تتوليان حكم هذا المجتمع، ولكنهما كانتا تحكمان مجموعة واحدة من الناس يربطهم جميعا رباط المسيحية الغربية[١].

ونجد خير مصداق لهذه الفكرة فيما كانت عليه البابوية فى العصور الوسطى. ذلك أن الكنيسة الغربية وجدت فى جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها فى السمو[٢]. وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، ومصدر ولايتها والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها، ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ. هذا فضلا عن كون البابا نائب المسيح،، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة. فالبابا خليفة القديس بطرس فى كرسيه الأسقفى بروما. وهذا الأخير زعيم الحواريين ومقدم الرسل الذى اتخذه المسيح أساسا بنى عليه كنيسته[٣]. وبعبارة أخرى فإن البابوية وجدت سندا قويا فى قول المسيح للقديس بطرس «وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيتك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات[٤]»،.

لذلك لاعجب أن أصبح البابا ـ وهو خليفة القديس بطرس ـ رأس الجهاز السياسى فى أوربا العصور الوسطى، حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء. ومن

---

(1) Eyre: European Civilisation; p. p. 201 - 202.

(2) Powicke: The Legacy of the Middle Ages; p. 48.

(3) Howell- Smith: Thou Art Peter; p. 581.

(٤) إنجيل متى ـ الإصحاح السادس عشر، ١٨ – ١٩.

هنا أخذت البابوية تنظم سيادتها على أسس أقطاعية فعالة شأنها شأن الملوك والأمراء، مما جعل التطابق محكما بين الكنيسة والجهاز السياسى فى غرب أوربا. وقد سبق أن أشرنا إلى نمو البابوية فى أوائل العصور الوسطى(٥)، حتى جاء سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس ليجعل من البابوية القوة الوحيدة التى غرب أوربا التى تستطيع حماية التراث الرومانى وسط الفوضى التى عمت أوربا حينئذ. ذلك أن البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) أخذ يعمل على تقوية نفوذ البابوية السياسى، ويجعل هذا النفوذ حقيقة ملموسة فى مختلف بلاد الغرب بل الشرق المسيحى(٦). وقد تجمعت عدة عوامل لتساعد البابوية على الاستمرار فى تنفيذ هذه السياسة، أهمها الظروف التى سادت إيطاليا من جهة، وانصراف الإمبراطورية البيزنطية إلى مشاكلها الشرقية من جهة أخرى، مما جعل عبء حماية إيطاليا وحضارتها يقع على كاهل البابوية وحدها (٧). ثم جاء الانشقاق المذهبى والسياسى بين الشرق والغرب، وهو الانشقاق الذى نجم عن الخلاف حول تفسير العديد من المسائل العقائدية والدينية مثل مشكلة اللاأيقونية، مما جعل الشعوب الغربية تلتف تدريجيا حول البابوية لتقف موقفا سياسيا مضادا للإمبراطورية* الشرقية، حتى تم إحياء الإمبراطورية الغربية على عهد شارلمان فى ختام القرن الثامن للميلاد. وسرعان ما اتضح مرة أخرى فى فترة الاضطرابات والأخطار المظلمة التى أعقبت تقسيم إمبراطورية شارلمان أن بقاء الحضارة الغربية واستمرارها بات متوقفا على الإصلاح الكنسى فى الغرب، وأن هذا الإصلاح يتوقف بدوره على قيام سلطة كنيسة مركزية قوية تستطيع الصمود فى وجه السلطة الزمنية، ومناضلتها من أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها(٨). وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة فى تاريخها فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وهو العصر الذى يعرف بعصر البابا جريجورى السابع، أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣ - ١٠٨٥). ذلك أن جوريجورى السابع وقف من الإمبراطورية موقفا عنيدا لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية، وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية(٩).

(٥) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(6) Ullmann: The Growth of Papal Government: p. p. 36 - 40.

(7) Eyre: op. cit., p.202.

(8) Idem; P. 202.

(9) Cam, Med. Hist., vol. 6: p.p. 650 - 651.

وقد أدت هذه السياسة ـ كما رأينا ـ إلى دخول البابوية فى صراع طويل ضد السلطة الزمنية[١٠]. وفى هذا الصراع استعمل جريجورى السابع سلاحين روحيين على جانب كبير من الخطورة. حقيقة أن هذين السلاحين لم يكونا جديدين على الكنيسة، ولكن جريجورى السابع استخدمهما فى عنف وقوة وبطريقة فعالة. أما السلاح الأول فهو توقيع عقوبة الحرمان (القطع ـ الشلح) بطريقة فردية شخصية، أى ضد فرد معين مقصود بالذات (Excommunication) وعندئذ يصبح هذا الشخص منبوذا، مطرودا من المجتمع المسيحى (Societas christiana)، فلا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعامل معه سوى زوجته وأولاده[١١]. وأما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الإجماعي (Interdict) التى توقع على مجتمع بأكمله سواء كان هذا المجتمع مدينة أو اقليما أو مملكة بأسرها، وفى هذه الحال تغلق الكنائس أبوابها فى ذلك المجتمع ويضرب رجالها عن تأدية أعمالهم فلا يجد الناس أحدا يقضى مصالحهم المرتبطة بالكنيسة كمراسيم التعميد والزواج والشعائر الجنائزية، فضلا عن انقطاع الروابط التى تربط ذلك المجتمع ببقية العالم المسيحى[١٢].

ولم يلبث نجاح هلدبراند فى برنامجه الإصلاحى أن أدى إلى تحقيق أغراض البابوية فى الهيمنة على الكنيسة الغربية[١٣]، بحيث أن المهمة الرئيسية للبابوية بعد هذا النجاح انحصرت فى تنظيم شئون البابوية والكنيسة جميعا، حتى وصف تاريخ البابوية فيما بين منتصف القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر بأنه «عملية لتحقيق الارتباط والنظام والسيطرة المركزية داخل جهاز الكنيسة»، وبعبارة أخرى فإن جهود الكنيسة من أجل تحقيق سموها جاءت مصحوبة بحركة أخرى داخلية ترمى إلى دعم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة. وكان لهذا الاتجاه الأخير عدة مظاهر أساسية، أولها إصرار البابوية على مكانتها الخاصة داخل الجهاز الكنسى، بوصفها المرجع الوحيد فى شرح أصول العقيدة. وثانيهما نمو التنظيم الكنسى ليحد من سلطان الملوك والأمراء والأقطاعيين وتدخلهم فى شئون الكنيسة[١٤]. والواقع أنه كان لابد من

---

(١٠) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(11) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. p. 299 - 300.

(12) Howell, Smith: op. cit.; p. 632.

(13) Ullmann: The Growth of Papal Government, ps., 2 62, 296 - 297.

(14) Cam, Med. Hist., vol. 6; p.p. 553 - 554.

نمو هذا التنظيم، بعد أن أقام شارلمان إمبراطوريته على أساس ثيوقراطى يضمن للدولة السيطرة على الكنيسة ورجالها، مما هدد نفوذ البابوية وحقها فى الهيمنة على الكنيسة تهديدا خطيرا (١٥). وهنا نجد البابوية تنجح تدريجيا فى جعل الإقليم - لا المملكة - الوحدة الأساسية فى التنظيم الكنسى، كما نجحت أيضًا - بعد متاعب مضنية وجهود طويلة - فى إخضاع رؤساء الأساقفة فى الأقاليم لسلطان البابوية المطلق (١٦). وبذلك تحققت سيادة البابوية على الكنيسة فى غرب أوربا عند نهاية القرن الثانى عشر فى صورة لا تحتمل شكل أو جدلا(١٧).

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكد أن ما وصلت إليه البابوية على عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) من مركز سام، وتنظيمات خاصة بالبلاط البابوى، وسياسة مرسومة ثابتة تجاه السلطة الزمنية، وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية، كل ذلك جاء ثمرة خبرات وتجارب طويلة لايمكن إدراكها إلا بدراسة تاريخ البابوية، وإن كانت هذه الدراسة تعنى فى الواقع دراسة تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى (١٨). والواقع أن المكانة الخاصة الممتازة التى تمتعت بها البابوية داخل الكنيسة، انعكست صورتها بوضوح فيما أصبح لها من نفوذ سياسى، لأن الكنيسة الرومانية لم تكن فى العصور الوسطى هيئة دينية فحسب بل سياسية أيضًا (١٩). وحسب البابا أنه اعتبر نفسه نائب المسيح (Vicar of Christ) ، وعلى أساس هذه العقيدة أصبح هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحى مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها، وإذا كان البابا قد أخذ يعامل ملوك أوربا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها(٢٠)، فإنه من الواضح أن معنى هذه الفكرة إدخال غرب أوربا بأسره داخل نطاق الكنيسة مما أكسب الحكومة البابوية أهمية خاصة عند نهاية القرن الثانى عشر. فالبابا لم يكتف حينئذ باعتبار نفسه زعيما لهيئة مستقلة ممتازة من رجال الكهنوت، وانما اعتبر نفسه رأس العالم

(15) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. p. 87 - 118.

(16) Cam, Med. Hist., .p. 557.

(17) Eyre: op. cit., p. 204.

(18) Powicke: The Legacy, p. 52.

(19) Howell- Smith: op. cit. p. 741.

(20) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. p. 425 - 434.

المسيحى بأجمعه، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى والفكرى والاقتصادى لغرب أوربا، زيادة على الهيئات الدينية[٢١].

وكان البابا يعيش فى بلاط أشبه شيء ببلاط الملوك والأباطرة، أى أنه كان زعيما دينيا ملكيا Sacerdos regalis ، تحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة من موظفين وأمناء وألقاب[٢٢]. ولم يلبث أن أصبح البلاط البابوى مركزا لجهاز ضخم مهمته تنفيذ أطماع البابوية وسياستها. هذا إلى أن البابا عبر عن سيادته بالإكثار من إرسال بعثات من المندوبين البابويين (Legati Missi) إلى مختلف أنحاء الغرب الأوربى[٢٣]. وكان هؤلاء المندوبون على جانب كبير من الأهمية فى العصور الوسطى، إذ صار من صلاحيتهم أن يعقدوا مجامع كنسية إقليمية فى الجهات التى يقصدونها[٢٤]، ويفصلوا فى القضايا الخطيرة التى تستأنف أمامهم، بحيث لا يستطيع أحد - سوى البابا نفسه - أن ينقض قراراتهم[٢٥].

أما المحكمة البابوية فقد غدت على عهد البابا أنوسنت الثالث بمثابة هيئة قضائية عليا تنظر فى جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربى[٢٦]. وقد أخذ عدد القضايا المستأنفة أمام المحكمة البابوية فى ازدياد، حتى صار من الأمور العادية منذ نهاية القرن الثانى عشر أن تستأنف أحكام المحاكم الكنسية الإقليمية أمام المحكمة البابوية[٢٧]. وفى أغلب هذه الأحوال، كان البابا - يساعده بعض الكرادلة - ينظر بنفسه فى القضية، وإن كان فى حالات خاصة يحول القضايا إلى بعض كبار رجال الدين فى البلد الذى أتت منه القضية. وسرعان ما أدى هذا النشاط القضائى إلى اتساع أفق القانون الكنسى، وظهور فئة من القانونيين فى البلاط البابوى ليستشيرهم البابا ويبنى أحكامه على آرائهم[٢٨].

---

(21) Cam, Med. Hist., vol. 6; p.p. 4 - 5, 34.

(22) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 325.

(23) Idem: p. 790.

(24) Cam, Med. Hist., vol. 6; p. 40.

(25) Howell- Smith: op. cit., p. 749.

(26) Eyre: op. cit., p. 205.

(27) Cam, Med. Hist., vol. 6; p. 34.

(28) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 359 - 381.

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إدارى مركزى دقيق، فإن الديوان البابوى سرعان ما غدا أعظم جهاز إدارى عرفه الغرب الأوربى فى العصور الوسطى(٢٩) ذلك أن الحكومة البابوية أخذت تتطور تطورا بطيئا ولكنه متواصلا وتدريجيا، حتى ظهر نوع من التخصص فى البلاط البابوى، بمعنى قيام هيئات وجماعات وأفراد من الموظفين، اختص كل منهم بعمل إدارى معين (٣٠).

وكانت الأوامر والقرارات واللوائح البابوية تصدر عادة فى صورة مراسيم تكتب دائما باللاتينية، وعلى رقائق كبيرة المساحة، على أن يبدأ المرسوم البابوى بعبارة «الأسقف (فلان) خادم خدام الله...»(٣١). وقد انقسمت هذه المراسيم على عهد البابا أنوسنت الثالث إلى قسمين : المراسيم الكبرى Great Bulls والمراسيم الصغرى Little Bulls. أما الأولى فكانت وثائق رسمية ذات طابع معين ثابت وسمات خاصة لا تتغير، وتحوى توقيع البابا ورمزه أو شعاره، زيادة على توقيعات عدد معين من الكرادلة. وتطلبت أهمية هذه المراسيم أن يوكل بإعدادها إلى موظفين مختصين فى البلاط البابوى امتازوا بالمهارة والدقة والكفاية (٣٢). ذلك أن صياغة المرسوم البابوى وإنشاءه كانت تتم وفق قواعد دقيقة تحدد أسلوبه، وألفاظه، وخطه، والكيفية التى يختم بها(٣٣)، بحيث صار من السهل على كتبة البلاط البابوى أن يستكشفوا تزوير أية وثيقة بابوية لا تتوافر فيها القواعد السابقة. هذا فضلا عن أن الرسائل التى صدرت عن الديوان البابوى كانت تنسخ من صورتين، لتحفظ إحداهما فى أرشيف الكنيسة الرومانية(٣٤). وهكذا يمكن بدراسة الوثائق والمراسيم البابوية التى ترجع إلى نهاية القرن الثانى عشر الوقوف على حقيقة هامة، هى أن البلاط البابوى تمسك حينئذ بقواعد الدبلوماسية والمظاهر القانونية، وهو اتجاه لم يكن له مثيل فى أى مكان آخر فى غرب أوربا فى ذلك العصر.

---

(29) Powicke: The Legacy of the Middle Ages; p. 54.

(30) Cam, Med. Hist., vol. 6; p. 32.

(31) Howell- Smith; op. cit.; p. 751.

(32) Ullmann: op. cit., : p.p. 327 - 328.

(33) Cam, Med. Hist., vol. 6; p.p. 32 - 33.

(34) Howell- Smith: op. cit.; p. 758.

وقد وجدت بالبلاط البابوى إدارة مالية قائمة بذاتها للنظر فى شئون الإيرادات والمصروفات(٣٥) . أما عن الإيرادات فكانت هناك عدة موارد تغذى الإدارة البابوية بالأموال اللازمة، أولها الممتلكات الواسعة فى إيطاليا التى حرص حكام الفرنجة منذ شارل مارتل حتى شارلمان على تثبيت حقوق البابوية فيها، وتأييدها فى الدفاع عنها، وبخاصة ضد اللمبارديين(٣٦) . ومن الواضح أن هذه الممتلكات هيأت للبابوية دخلا ثابتا، جعلها من الناحية العملية فى غنى عن أى حاكم علمانى. وفى نفس الوقت أحرزت البابوية حقوقا إقطاعية واسعة عادت عليها عند نهاية القرن الثانى عشر بدخل كبير منتظم. ذلك أنه وجد فى ذلك العصر عدد كبير من الأفراد والهيئات التى دانت للبابوية بضرائب معينة(٣٧). ومن هذه الهيئات بعض المؤسسات الكنيسية والديرية التى أحاطت بها ظروف صعبة جعلتها تدخل تحت حماية البابوية مباشرة مقابل دفع أتاوة منتظمة، بالضبط كما كان الحال بشأن الضرائب الإقطاعية التى كان يدفعها الأقنان للسيد الإقطاعى مقابل حمايتهم والذود عنهم(٣٨). على أن هذه التبعية الإقطاعية للبابوية لم تقتصر على المؤسسات والهيئات الدينية ، وإنما امتدت فى العصور الوسطى إلى بعض الحكام العلمانيين، فظهر من الأمراء والملوك من أحس بضعفه وحاجته إلى حماية البابوية، فسلم أراضيه وممتلكاته للبابوية على أن يعود فيتسلمها من البابا كاقطاع، وفى هذه الحالة يصبح الأمير فصلا إقطاعيا للبابا يتمتع بحمايته مقابل بعض الالتزامات الإقطاعية التى يؤديها الفصل لسيده(٣٩) . هذا عدا الضرائب التى كانت تجمعها البابوية من بعض الأديرة نظير تحريرها من ولاية الأسقفية التى يقع الدير ضمن دائرتها، أو تجمعها من بعض الأسقفيات مقابل تحريرها من ولاية رئيس الأساقفة الذى تقع الأسقفية داخل منطقة نفوذه. وهكذا صار للبابوية ايراد ضخم من هذا الموارد المتباينة، الأمر الذى تطلب سنة ١١٩٢ تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية، لحصر مختلف الهيئات التى تدينها البابوية بضرائب منتظمة

---

(35) Eyre: op. cit., p. 205.

(36) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 52 - 57.

(37) Cam, Med. Hist., vol. 6. p. 554.

(38) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 298.

(39) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 332 - 334.

فى كافة بلدان غرب أوربا، مثل أبوليا وصقلية والبرتغال وبولندا وإنجلترا وغيرها، وبيان المبلغ المستحق على كل منها(٤٠).

وبالإضافة إلى هذه الضرائب التى يمكن إدخالها جميعا تحت اسم «الدخل الخاص»، كان للبابوية مورد عام ضخم على عهد البابا أنوسنت الثالث، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام (٤١). وكانت هذه الضرائب مرتبطة فى تطورها بالحروب الصليبية، بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك إنجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبى(٤٢). وقد أدى تطور هذه الفكرة إلى خطوة جديدة عندما أصدر البابا أنوسنت الثالث أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الأساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية نسبة معينة تبلغ جزءا من أربعين (١/٤٠) من دخل الأسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها وإقطاعاتها. هذا غير الضرائب الأخرى التى أخذت البابوية فى جمعها عن طريق مباشر عند تعيين الأساقفة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة فى مناصبهم، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران(٤٣). وهكذا أخذت تتكاثر الالتزامات التى فرضتها البابوية على العالم المسيحى الغربى بوجه عام والهيئات الكنسية والدينية بوجه خاص، فى الوقت الذى بلغ الصراع أشده بين البابوية والسلطة الزمنية العلمانية لتحرير هذه الهيئات من التزاماتها المالية - وغير المالية - تجاه الحكام العلمانيين. وربما كان السبب فى ذلك أن ملوك أوربا كانوا فى حاجة إلى المال لدعم ملكياتهم الناشئة بينما كانت بابوية القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد ما يعادل دخل كل هؤلاء الملوك مجتمعين(٤٤).

المجامع الكنسية:

تمثل المجامع الكنسية ركنا هاما من أركان التنظيم الكنسى فى العصور الوسطى. والواقع أن انتشار المسيحية، وما صحبه من اتساع نفوذ الكنيسة استلزم عقد كثير من

---

(40) Idem: p. 330.

(41) Cam, Med. Hist; vol. 6. p. p. 554 - 555.

(42) Painter : A Hist of the Middle Ages. p. 298.

(43) Howell- Smith: op. cit; p. 745.

(44) Thompson: op. cit.: vol. 2: p. 648.

المجامع الدينية منذ القرن الرابع، لحل المسائل المعقدة التى صحبت انتشار المسيحية من جهة، ولتنظيم شئون الكنيسة ودعم سلطانها من جهة أخرى(٤٥). وهنا نشير إلى أن الكنيسة لم تكن أول من ابتكر فكرة عقد المجامع أو صاحبة الفضل فى ظهورها، لأنها استمدت هذه الفكرة من سوابق اسرائيلية ووثنية معروفة(٤٦).

وإذا كانت معظم المراجع التاريخية قد ركزت اهتمامها فى المجامع المسكونية الأربعة الأولى، وهى مجمع نيقية سنة ٣٢٥، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، ومجمع أفسوس سنة ٤٣١، ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١، هذا زيادة على مجمع كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) ومجمع بازل سنة ١٤٣١، فإنه من الثابت أن أوربا العصور الوسطى شهدت - عدا المجامع السابقة - عددا كبيرا من المجامع الدينية ذات الأثر العظيم فى التاريخ الأوربى بوجه عام والتاريخ الكنسى بوجه خاص(٤٧). ومن هذه المجامع ما اتخذ طابعا عاما عالميا، فحضرها الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ليتدارسوا سويا المشاكل التى واجهتهم فى مناطق نفوذهم، أو ليبحثوا أوجه الخلاف فيما بينهم، ويزيلوا ما قد يكون هناك من سوء تفاهم، عن طريق الحجة والإقناع (٤٨). وخير مثل لهذا النوع من المجامع، مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣، الذى اجتمع بسبب الخلاف حول تفسير بعض المسائل اللاهوتية، ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة، ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ الذى أدان اللاأيقونية، ثم مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩ الذى قرر إدانة البطريريق فوتيوس وعزله(٤٩). والملاحظ على هذه المجامع السابقة أنها كانت تجمع بين أعضاء الكنيسة فى الشرق والغرب، حتى كان الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، وهو الانشقاق الذى بدأت حوادثه فى القرن التاسع على عهد البطريرق فوتيوس، والذى انتهت ذيوله فى القرن الحادى عشر (سنة ١٠٥٤) بالانفصال التام بين الكنيستين(٥٠). ومنذ ذلك

---

(45) Painter : A Hist of the Middle Ages. p. p. 16 - 17.

(46) Howell- Smith: op. cit; p. 552.

(47) Eyre: op. cit; p. 208.

(48) Cam, Med. Hist vol. 1., p. 165.

(49) Howell- Smith: op. cit; p. 553.

(٥٠) يطلق على هذا الانشقاق الدينى عادة اسم الانشقاق الشرقى أو البيزنطى تمييزا له عن الانشقاق الغربى الكبير الذى نجم عن قيام أكثر من بابا فى الغرب (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب).

الوقت صارت المجامع الدينية التى تعقد فى الغرب لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية، وإن كان لقب مسكونى أو عالمى قد أطلق أيضاً على مجامع اللاتران البابوية (Lateran Councils) ، وهى التى عقدت بالكتدارئية البابوية فى روما سنوات ١١٢٣ ، ١١٣٩ ، ١١٧٩ ، ١٢١٥ ، ١٥١٢ ، وهكذا أحصيت المجامع المسكونية فى تاريخ المسيحية بعشرين مجمعا هى[٥١] .

٣٢٥ مجمع نيقية الأول

٣٨١ مجمع القسطنطينية الأول

٤٣١ مجمع أفسوس

٤٥١ مجمع خلقدونيا

٥٥٣ مجمع القسطنطينية الثانى

٦٨٠ مجمع القسطنطينية الثالث

٧٨٧ مجمع نيقية الثانى

٨٦٩ مجمع القسطنطينية الرابع

١١٢٣ مجمع اللاتران الأول

١١٣٩ مجمع اللاتران الثانى

١١٧٩ مجمع اللاتران الثالث

١٢١٥ مجمع اللاتران الرابع

١٢٤٥ مجمع ليون الأول

١٢٧٤ مجمع ليون الثانى

١٣١١ مجمع فينا

١٤١٤ – ١٤١٨ مجمع كونستانس

١٤٣١ – مجمع بازل (متمم لسابقه)

١٤٣٨ – ١٤٤٢ مجمع فرارا ـ فلورنسا

١٥١٢ – ١٥١٧ مجمع اللاتران الخامس

١٥٤٥ – ١٥٦٣ مجمع ترنت

١٨٧٠ – مجمع الفاتيكان

(51) Howell- Smith: op. cit.; p. p. 551 - 553.

ولم تعترف الكنيسة الشرقية سوى بالمجامع السبعة الأولى فقط على أنها مسكونية.

وبالإضافة إلى هذه المجامع العالمية أو المسكونية، وجد نوع آخر من المجامع الدينية المحلية ذات الأثر المحدود. ذلك أن الأساقفة فى بلد من بلدان غرب أوربا، اعتادوا أحيانا أن ينظموا اجتماعا دينيا يجمع شملهم للنظر فيما يعنيهم من مسائل أو يعترضهم من مشاكل، مثلما حدث سنة ٥٩٧ من اجتماع اثنين وستين أسقفا وخمسة من رؤساء الأساقفة من أسبانيا وجنوب فرنسا فى طليطلة(٥٢). وبتقدم التنظيم الكنسى تطور هذا النوع من المجامع إلى ما يعرف باسم المجامع الإقليمية المنتظمة، فيقوم رئيس الأساقفة فى كل أقليم بدعوة الساقفة التابعين له وغيرهم من كبار رجال الدين للمشاركة فى اجتماع دينى خاص، إقليمى الطابع(٥٣)، ومن الواضح أن هذا النوع من المجامع الإقليمية كان له أثره فى تركيز السلطة الكنسية وتوحيد نظم الكنيسة ومقاومة النزعة الانفصالية فى بعض البلدان الأوربية(٥٤).

وأخيراً يأتى نوع أصغر من المجامع الدينية، هى المجامع الأسقفية التى تتمثل فى دعوة الأسقف الواحد لقساوسة الكنائس التابعين له فى أسقفيته لبحث ما يهمهم من مسائل. وهكذا بلغت المجامع الدينية درجة من الكثرة والتنوع فى أوربا العصور الوسطى، جعلت لها أثراً خطيراً فى الحياة الدينية. وهنا ينبغى أن نستبعد من تفكيرنا الآراء الدستورية الحديثة الخاصة بالغرض من عقد هذه المجامع والمجالس وأهدافها، فلايمتد بنا التفكير إلى أن المجامع الدينية التى عرفها غرب أوربا فى العصور الوسطى كانت تستهدف بأى حال الشورى وتحديد سلطة البابوية أو تقييد نفوذ كبار رجال الكنيسة(٥٥). فالحكومة الكنسية فى غرب أوربا غدت عند نهاية القرن الثانى عشر أشبه شيء بالملكية المطلقة، ومن ثم لم يكن هناك أى مطمع للمجامع الكنسية - سواء كانت مسكونية أو أقليمية أو أسقفية - فى تحديد سلطات البابا أو غيره من كبار رجال الدين، أما الأهداف الأساسية للمجامع المسكونية، فكانت مقاومة ضرب من ضروب الهرطقة التى أخذت تهدد الكنيسة بين حين وآخر، أو الرغبة فى القيام بحركة شاملة لنصرة المسيحية مثل الحروب الصليبية، أو الشعور بضرورة القيام بحركة شاملة

(52) Cam, Med. Hist., vol. 1. p. 164.
(53) Thompson: vol. 2. p. 655.
(54) Cam, Med. Hist., vol. 6., p. 545.
(55) Eyre: op. cit; p. p. 209 - 210.

لإصلاح الكنيسة ودعمها. ومن الواضح أن هذه الأهداف كانت تنتهى - بطريق مباشر أو غير مباشر - إلى تقوية نفوذ البابوية ودعم سلطانها(٥٦) . وهكذا غدت البابوية على عهد أنوسنت الثالث تسيطر على الكنيسة سيطرة تامة، فضلا عن تحكمها فى المجامع الدينية الكبرى تحكما بعيد الأثر. حقيقة أنه ظهرت فيما بعد محاولة لجعل المجامع الدينية تسمو فى إرادتها ونفوذها على البابوية، ولكن هذه المحاولة لم تظهر إلا فى القرن الخامس عشر، أى قرب ختام العصور الوسطى(٥٧) .

ومن الطبيعى أن هذه الأحكام التى أصدرناها على المجامع العامة الكبرى يمكن تطبيقها بنفس الروح ذاتها على المجامع الإقليمية والأسقفية. فالمجمع الإقليمى الذى يجمع بين أساقفة الإقليم الواحد، والمجمع الأسقفى الذى يجمع بين قساوسة الأسقفية الواحدة، لم يستهدفا مطلقا الحد من نفوذ رئيس الأساقفة فى أقليمه أو نفوذ الأسقف فى أسقفيته. لقد كان الغرض الأساسى من هذه المجامع هو التعاون وبحث المسائل التى تهم الدين ورجاله فى الأقليم أو الأسقفية. هذا وإن وجدت بعض حالات قليلة قام فيها رجال الدين المجتمعون فى بعض هذه المجامع باستنكار سلوك أسقف أو رئيس أساقفة، وطالبوا بعزله على أساس تصرفاته غير المقبولة.

أما عن القواعد المتبعة فى دعوة هذه المجامع للانعقاد، ثم فى كيفية تنظيمها ورئاستها، فتتفق كلها مع مبادئ تركيز السلطة فى الكنيسة. وقد ظل الكاثوليك أمدا طويلا يعتقدون فى أن البابوية هى التى دعت كافة المجامع المسكونية، أو على الأقل لم تعقد هذه المجامع إلا بموافقة البابا وتأييده، ولكنهم عادوا فاعترفوا فى القرن الماضى فقط بأن الإمبراطور هو الذى دعا المجامع المكسونية الثمانية الأولى، وأن موافقة البابا سلفا لم تشترط فى عقد هذه المجامع، وإن كانت موافقته على قرارات كل مجمع شرطا ضروريا لإلزام الكنيسة الغربية باتباعها(٥٨) . ولم يلبث القانون الكنسى الذى تم نضجه وجمعه فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر، أن نص على أنه ليس لأحد حق دعوة المجمع الدينى إلا الرئيس الدينى الأعلى للمنطقة أو الدائرة التى يمثلها المجمع. فإذا كان المجمع عاما فالبابا وحده هو الذى يمتلك حق دعوته ورئاسته (٥٩). إما شخصياً وإما

---

(56) Stephenson: Med. Hist., p. 434.

(57) Eyre: op. cit; p.210.

(58) Howell- Smith: op. cit; p. p. 551 - 552.

(59) Thompson: op. cit., vo. 2. p. 645.

عن طريق إنابة من يمثله فى الرئاسة(٦٠) أما إذا كان المجمع إقليميا فإن الأسقف هو الذى يدعو إليه ويقوم برئاسته(٦١) . على أنه يلاحظ دائما أن هذه النظم لم تصل إلى درجة من التحديد والتبلور إلا عند نهاية القرن الثانى عشر، فى حين ظلت الأوضاع الخاصة بدعوة المجامع الدينية فى الشطر الأول من العصور الوسطى أكثر بساطة وأقل تعقيدا، حتى قام الأباطرة بدعوة المجامع الدينية فى كثير من الأحيان واكتفت البابوية بإرسال مندوبين عنها فى هذه المجامع مما أثار فى بعض الأحيان خلافا بين الأباطرة ومندوبى البابوية حول الرئاسة.

التنظيم الكنسى :

استطاعت الكنيسة أن تنشر نفوذها وتقوم برسالتها كاملة عن طريق جهاز محكم البنيان امتدت أطرافه إلى جميع أنحاء العالم المسيحى، جنبا إلى جنب مع الجهاز الإدارى العلمانى، وقد انقسم رجال الدين المسيحى إلى قسمين رئيسيين: رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين تزوجوا واختاروا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين وهؤلاء أطلق عليهم «رجال الكهنوت العلمانيون» (Secular clergy) وأعضاء الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة، وهم الذين عاشوا عيشة دينية منتظمة أساسها العزوبة ومن ثم أطلق عليهم «رجال الكهنوت النظاميون» (Regular clergy) (٦٢). ومنذ بداية القرن الثالث عشر أخذ التقارب يزداد بين هذين الفريقين، فاشترط فى الغرب على القسيس والأسقف ـ مثلهما مثل الراهب ـ أن يحيوا حياة العزوبة الدائمة.

والواقع أن الآراء تباينت حول جدوى تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين ومدى إمكان هذا التطبيق فى صورة عملية. وقد يبدو هذا الموضوع قليل الأهمية بالنسبة لدراستنا، ولكن يجب أن نذكر دائما أن أثر الكنيسة فى البناء الاجتماعى لأوربا العصور الوسطى كان يتوقف إلى حد كبير على مدى النجاح فى تطبيق هذا المبدأ. ذلك أن رجال الكنيسة فى عصرها الأول كانوا متزوجين لعدم وجود فروق واضحة فى ذلك الوقت المبكر بينهم وبين بقية أفراد المجتمع العلمانيين. وقد جاء على لسان القديس بولس نفسه نص يستفاد منه إباحة الزواج لرجال الدين، إذ يقول فى رسالته

(60) Howell- Smith: op. cit; p. 554.

(61) Cam, Med. Hist., vol. 1. p. 164.

(62) Thompson: vol. p. 649.

الأولى إلى أهل كورنثوس «ألعلنا ليس لنا سلطان أن نحول بأخت زوجة كباقى الرسل وأخوة الرب، وصفا[٦٣]»، ولكن إذا كان البعض قد حاول أن يفسر هذا على أساس إباحة الزواج، فإنه ورد فى هذه الرسالة نفسها للقديس بولس ما نصه «وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة. ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها... ولكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر، لأنى أريد أن يكون الناس جميعا كما أنا... ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا...»[٦٤]. ومن هذا يفهم أن بولس حبذ أن يظل الجميع ـ مثله ـ عزابا، لأن الزواج ومعاشرة المرأة يرتبطان بالخطيئة الأولى أو الكبرى التى هوت بآدم من الجنة. فإذا كان الأمر كذلك، فما المقصود بقوله «أن نحول بأخت زوجة» ؟ هنا حاول بعض الباحثين تفسير هذا المعنى فى ضوء العادة التى انتشرت بعد ذلك على نطاق واسع، وهى أن يعيش الفرد عزبا فى صحبة عذراء يعاشرها كأخت وتصاحبه كأخ لتعنى بشئونه وترفع عنه متاعب الوحدة. ولكن هل كان من الممكن أن يقنع رجال الدين ـ بما فيهم بطرس نفسه (صفا) الذى كان متزوجا فى حياته الأولى ـ بهذا النوع من الحياة البريئة والحب العذرى والسلوك الأفلاطونى[٦٥] ؟ يبدو أن بولس أدرك استحالة هذه الحياة البريئة بين رجل وعذراء يعيشان تحت سقف واحد، بدليل أنه عاد فقال فى نفس الرسالة السابقة «ولكن إذا كان أحد يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه إذا تجاوزت الوقت ـ وهكذا لزم أن يصير ـ فليفعل ما يريد، أنه لا يخطئ فليتزوجا، وأما من أقام راسخا فى قلبه وليس له اضطرار، بل له سلطان على أرادته، وقد عزم على هذا فى قلبه أن يحفظ عذراءه فحسنا يفعل، إذا من زوج فحسنا يفعل ومن لا يزوج يفعل أحسن»(*).

ويبدو لنا مما سبق أن المسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة، الأمر الذى لم يأخذ به كثير من رجال الكنيسة فصاروا يتزوجون ويكونون عائلات وروابط أسرية مثل العلمانيين[٦٦]. وقد أدركت الكنيسة منذ وقت

---

(٦٣) العهد الجديد، سفر رسالة بولس الأول إلى أهل كورنثوس، الإصحاح التاسع (٥).
(٦٤) نفس الرسالة السابقة، الإصحاح السابع (١ – ٩).

(65) Howell- Smith: op. cit; p. 364.

(*) العهد الجديد، سفر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح السابع (٣٦ – ٣٨).

(66) Taylor: The Med. Mind. vol 1, p. 354.

مبكر ما ترتب على زواج رجال الدين من خطر لأنه يدفعهم إلى الانصراف نحو مباهج الحياة ومشاغل الأسرة ولذلك حرصت على أن تنص على مبدأ عزوبة رجال الدين فى تشريعاتها وطلبت من جميع القساوسة أن يطردوا من منازلهم من يحللن لهم من النساء، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزوجاتهم، بشرط أن يعاملوهن فى هذه الحالة كأخوات ولا يعاشروهن كزوجات!! ثم كان أن حاول مجمع الفيرا Elvira الدينى الذى عقد فى إسبانيا سنة ٣٠٦ طرد جميع القساوسة المتزوجين من الكنيسة، والقضاء على عادة الاحتفاظ «بأخت زوجة» بعد أن صار من الأمور الشائعة أن ينجب القساوسة أولادا من هؤلاء الأخوات الزوجات! ولكن من الواضح أنه كان من الصعب أو المستحيل تنفيذ هذه الرغبات تنفيذاً عمليا، حتى بعد أن أقرها مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ـ وهو أول المجامع المسكونية فى تاريخ الكنيسة[٦٧]. وهكذا سارت الأمور حتى اشتدت الرغبة فى إصلاح الكنيسة على عصر هلدبراند (جريجورى السابع)، وعندئذ وضع المصلحون مسألة عزوبة رجال الكنيسة على رأس قائمة الإصلاح. والواقع أن البابوية لقيت فى ذلك العصر معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ، ليس فقط من رجال الدين الذين اعتادوا الأوضاع القديمة وألفوا حياة الزوجية، بل أيضاً من بعض بعيدى النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا والزواج العرفى بين رجال الدين. على أن البابوية لم تأبه لهذه المعارضة ومضت فى طريقها جادة، فعقدت مجامع فى روما سنة ١٠٥٠، وسنة ١٠٥٩، وسنة ١٠٦٣، طلبت جميعها من العلمانيين قطع صلاتهم بالقساوسة الذين يحتفظون بزوجات أو محظيات. وأخيرا عقد البابا جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤، أى بعد اعتلائه كرسى البابوية بعام واحد، أصدر مرسوما بتحريم زواج رجال الدين تحريما تاما، وفى تلك المرة عزم جريجورى السابع على تنفيذ هذا القرار بكل ما أوتيه من عزم وإصرار وعناد، حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بطرد زوجاتهم فورا[٦٨] وقد قوبلت هذه القرارات بالمعارضة وعدم الرضا فى مختلف البلاد الأوربية، حتى أنه عقد مجمع فى منشستر بإنجلترا سنة ١٠٧٦ قرر الموافقة على مبدأ منع رجال الدين من الزواج بشرط عدم إجبار المتزوجين منهم فعلا على هجر زوجاتهم. ومع

(67) Howell- Smith: op. cit; p. 367.

(68) Idem: p. 368.

ذلك فإن البابوية لم تهتم بهذه المعارضة، ومضت فى طريقها حتى اتخذت خطوة أخيرة فى مجمع روما سنة ١١٣٩ الذى قرر أنه لايجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة، وأن زواج أى واحد منهم يعتبر غير شرعى، وبناء على ذلك تصبح ذرية رجال الكنيسة أبناء سفاح(٦٩). ولما كان مشروع إصلاح الكنيسة يمثل وحدة مترابطة الأجزاء، فإن نجاح البابوية فى تحقيق مبدأ عزوبة رجال الدين كان مرتبطا إلى حد كبير بركن آخر من أركان تلك الحركة الإصلاحية وهو تحقيق سمو البابوية وسيادتها وسيطرتها على العالم المسيحى الغربى. وهكذا استطاعت البابوية بفضل نجاحها فى تحقيق سيادتها أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الكنيسة تنفيذاً دقيقاً شاملا، حتى غدت أية مخالفة لهذا المبدأ تعتبر منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقا لأحد مبادئ القانون الكنسى الأساسية(٧٠).

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة فى أهمية هذا المبدأ وأثره فى الحياتين الدينية والاجتماعية. ذلك أنه كيف الوضع الاجتماعى لرجال الدين فى أوربا منذ القرن الثانى عشر، وزاد من قوة الرابطة بين رجال الدين بعضهم وبعض من ناحية، وبينهم وبين جمهور المسيحيين من ناحية أخرى، وذلك بعد أن أوشكت حياة الأسرة والروابط العائلية أن تقضى على الرابطة الأساسية التى تربط رجال الدين بعضهم ببعض وبالمجتمع. هذا بالإضافة إلى أن بقاء رجال الكنيسة عزابا جعل لهم مكانة خاصة سامية فى نفوس الأهالى وغير من نظرة الناس إليهم(٧١).

أما عن بناء الكنيسة العام فقد رأينا كيف كانت البابوية على رأس الكنيسة الغربية تحتل المكانة الأولى وتتمتع بالسيطرة التامة على جميع رجال الكهنوت فى الغرب. ويأتى بعد البابا فى الدرجة مجموعة الكرادلة، الذين حدد «الدستور الرومانى Roman Constitution» الصادر سنة ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثانى مهامهم الأساسية(٧٢). ويبدو أن هؤلاء الكرادلة كانوا مجموعة مختارة من كبار الأساقفة (Episcopi cardinales) بدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية، ولكن نفوذهم

(69) Eyre: op. cit; p. p. 216 - 217.
(70) Idem. p. 217.
(71) Ibid.
(72) Howell- Smith: op. cit; p. 746.

أخذ يزداد تدريجيا نتيجة لاتساع دائرة اختصاصاتهم ومهامهم[٧٣]. وهكذا إذا كان البابا قد أصبح ملكا فى بلاطه بروما، فإن الكرادلة كانوا بمثابة الأمراء الذين أحاطوا بزعيمهم وجاءوا بعده مباشرة فى الدرجة من حيث المكانة والنفوذ[٧٤].

وقد انقسم العالم المسيحى الغربى إلى أسقفيات واسعة، يرأس كل منها أسقف يشرف على شئون الكنيسة ورجال الدين فى أسقفيته، ثم انقسمت كل أسقفية من هذه الأسقفيات إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس[٧٥]. على أنه من الملاحظ أن مركز الأساقفة والقساوسة تطور فى العصور الوسطى وفقا لعوامل متعددة، كما يتضح ذلك بالكلام عن كل فريق على حدة.

أما عن الأبرشيات فقد اختارت الأساطير أن تربط نشأة كل منها باسم رجل من رجال الدين - أو غير رجال الدين - ، وإن كان الواقع هو أن الأبرشيات أخذت تظهر وتنتشر تدريجيا فى غرب أوروبا وفقا لحاجات الأهالى وانتشار المسيحية. وكان تأسيس الكنائس المحلية يتم إما بواسطة الأساقفة أو بواسطة الحكام العلمانيين الذين يهبونها للكنيسة. ولكن المهم هنا هو أن مؤسسى هذه الكنائس الجديدة - سواء كانوا من رجال الدين أو العلمانيين - اعتادوا أن ينظروا إلى مؤسساتهم على أنها ملك خاص لهم، وبالتالى أصروا على الإشراف عليها[٧٦]. وهكذا كان قسيس الأبرشية يحيا حياة قلقة فى أول الأمر، إذ توقفت حالته الاجتماعية على شخصيته من جهة وعلى نصيبه الثابت من غلة الحقول التى تتبع أبرشيته من جهة أخرى[٧٧]. أما دخل الكنيسة نفسها فكان يستأثر به مالك الأبرشية أى مؤسسها. ولم يكن ذلك إلا تدريجيا عندما سمح لقسيس الأبرشيه بجزء من هذا الدخل. واستمر الوضع على ذلك حتى تقدمت النظم الإقطاعية فصارت للكنيسة أملاكها الخاصة بها فى كل أبرشية، والتى آلت إليها عن طريق الهبة من السيد الإقطاعى صاحب الأرض. على أنه كان للكنيسة مورد هام آخر أخذ يزداد منذ القرن الثامن، ونعنى به ضريبة العشور التى تلزم جميع الأراضى بدفع عشر إنتاجها لحفظ الكنيسة وصيانتها. وامتازت هذه الضريبة بأنها كنسية بحتة ينتفع بها القساوسة ورجال الأكليروس وحدهم.

(73) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 320.

(74) Cam, Med. Hist., vol, 6, p. p. 4 - 5 p. 43.

(75) Thompson: op. cit., vol 2. p. p. 652 - 653.

(76) Eyre: cit; p. 218.

(77) Cam, Med. Hist., vol. 6, p. 531.

ومن هذا يبدو أن قسيس الأبرشية ظل يحيا مثل الفلاحين المحيطين به، على نصيبه من غلة أراضى القرية. وليس هناك ما يدل على أنه امتاز عن هؤلاء الفلاحين فى مستواه الاقتصادى، إذ كان من الناحية العلمانية يخضع للأمير الإقطاعى الذى تقع الأبرشية فى أراضيه، فى حين خضع فى الجانب الدينى للأسقف الذى يتبعه(٧٨). ومع ذلك فإن قسيس الأبرشية احتل مكانة على جانب كبير من الأهمية فى النظام الكنسى فى العصور الوسطى. ذلك أن مهمة الربط بين الكنيسة من جهة والفلاحين وعامة الناس من جهة أخرى، ألقيت على عاتقه بوصفه عضوا عاملا فى مجتمع القرية فضلا عن كونه ممثل الكنيسة. هذا إلى أن تطبيق مبدأ عزوبة رجال الدين، جعل لقسيس الأبرشية مكانة خاصة قائمة بذاتها فى القرية. لذلك لانعجب إذا أدركت التشريعات الكنسية أهمية هذا العضو، فنصت المجامع المسكونية مرارا على ضرورة مراعاة الدقة فى اختيار قسيس الأبرشية والتأكد من سلامة أخلاقه، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قسا غير متعلم، وأن يتأكد من استقامته وألا يقل عمره عن خمسة وعشرين سنة(٧٩). ومع ذلك فقد ظل قساوسة الأبرشيات فى أنحاء كثيرة من أوربا العصور الوسطى لا يرتفعون كثيرا فى مستواهم الفكرى عامة عن أهالى الأبرشية، فمعظمهم لم يكن على قسط كاف من التعليم، مما أوقعهم فى أخطاء كثيرة أثناء الصلاة والوعظ، دون أن يتنبه مستمعوهم لهذه الأخطاء بسبب جهل الناس باللاتينية. كذلك وجد من هؤلاء القساوسة من عرف بسوء السيرة والإدمان على شرب الخمر، وإن اشتهرت قلة منهم بالصلاح والجد(٨٠).

أما الأسقف فكان الرئيس المباشر للقسيس فى الهيئة الكنسية. وكان للأسقف عادة كتدرائية فى المركز الرئيسى لأسقفيته يتخذها حاضرة له وقاعدة لنفوذه، وسميت بهذا الاسم لأن بها كرسى (Cathedra) الأسقف(٨١). ويثبت الواقع أن الأساقفة تمتعوا بسلطان واسع فى الإشراف على شئون أسقفياتهم وإدارتها وتوجيه القساوسة التابعين لهم، مستلهمين واجباتهم من قول بولس «احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى

---

(78) Thompson: op. cit., vol 2, p. 654.
(79) Eyre: op. cit; p. 219.
(80) Thompson: op. cit., vol 2, p. 654.
(81) Howell- Smith: op. cit; p. 746.

أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه»[٨٢].

ويبدو من آراء كتاب المسيحية الأوائل ـ مثل القديس أرناوس Irenaus والقديس سيبريان Cyprian ـ أن المفروض فى جميع الأساقفة أن يكونوا متساويين تماما، لأن الغرض من وجودهم واحد، ونوع السلطة المزودين بها واحد، مهما تباينت مساحات أسقفياتهم. ولكن الواقع العملى أثبت غير ذلك، إذا تفاوت شأن الأساقفة ونفوذهم تبعا لتباين أهمية مراكزهم الأسقفية[٨٣]. وكان ذلك فى القرن السابع عندما اتضحت ضرورة إيجاد حلقة فى التنظيم الكنسى بين البابوية من جهة وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى، مما أدى إلى قيام أسقفية كبرى فى كل إقليم واسع يرأسها رئيس أساقفة Archbishop ، له حق الزعامة على أسقفيات ذلك الإقليم. فإذا تعدد رؤساء الأساقفة فى الدولة الواحدة، فإن العرف جرى على أن تكون الزعامة لأقدمهم. وهكذا وجد فى إنجلترا العصور الوسطى رئيس أساقفة فى كل من يورك وكانتربورى، يشرف كل منهما على عدد كبير من الأسقفيات التابعة له، ولكن الزعامة الدينية فى إنجلترا كلها كانت للأخير، ومثل ذلك يقال عن رئيس أساقفة مينز فى المانيا ورئيس أساقفة ريمس فى فرنسا. وهنا نلاحظ أن الأخيرة لم تكن أقدم أسقفيات فرنسا، ولكنها وصلت إلى مكانة الزعامة بفضل تشجيع ملوك الفرنجة[٨٤].

وتمتع الأسقف فى أسقفيته بحقوق قضائية وسلطات واسعة باعتباره نائبا عن الباب فى دائرته[٨٥]. وهنا يلاحظ أن الأسقف كان مسئولا أمام البابا عن أعماله، ومقيدا فى إدراته لشئون الأسقفية بالتشريع الكنسى العام وبالأوامر البابوية، وفيما عدا ذلك كانت سلطته مطلقة على القساوسة داخل حدود أسقفيته[٨٦] ولم يكن الأسقف ملزما بدعوة مجمع محلى لإقرار تصرفاته مادامت هذه التصرفات لا تتعارض مع قانون الكنيسة العام. والواقع أن الوظيفة الأسقفية تمتعت بكثير من الضمانات، إذ كان لايمكن عزل الأسقف من وظيفته إلا بأمر البابا وحده. ويتضح نفوذ البابوية على

---

(٨٢) العهد الجديد: سفر أعمال الرسل ـ الإصحاح العشرون، ٢٨.

(83) Cam, Med. Hist., vol 1, p. 167.

(84) Thompson: op. cit., vol 2, p. 650.

(85) Ullmann: The Growth of Papal Government: p. 8.

(86) Med: Hist; vol, 6, p. 528.

الآساقفة فى عهد أنوسنت الثالث من قول رئيس أساقفة كانتربورى «إننى حر فى أن أعتقد ما أشاء، إلا إذا أصدر البابا رأيا مخالفا لرأيى فعندئذ يجب أن أعترف فورا بأننى كنت على خطأ[٨٧]».

على أنه يلاحظ أن سلطة الأساقفة تناقصت إلى حد ما فى الشطر الأخير من العصور الوسطى بعد أن تحررت الأديرة - عقب حركة الإصلاح الكلونية - من سيطرة الأساقفة الذين تقع الأديرة داخل دوائر نفوذهم[٨٨]. هذا إلى أن انصراف كثير من الأساقفة الأغنياء نحو المصالح الدنيوية وانطلاقهم فى التيار الإقطاعى، جعلهم ينصرفون إلى ما هو أجدى عليهم وأنفع لهم[٨٩].

وإذا كانت الوظيفة الأسقفية تمثل ركنا هاما فى نظام الكنيسة الغربية، فإن أثر الأساقفة الشخصى فى تطور المجتمع الأوربى كان هو الآخر خطيرا. ذلك أن الأساقفة أضحوا بعد انتهاء غزوات البرابرة حماة التراث الكلاسيكى القديم، وسرعان ما صار لهم شأن كبير فى توجيه سياسة ملوك البرابرة الذين أقاموا ملكيات قوية فى غرب أوربا، مما جعل أثرهم يبدو خطيرا فى التطور الاجتماعى بين القرنين السادس والثالث عشر[٩٠]. هذا بالإضافة إلى أن الأساقفة صارت لهم ممتلكات واسعة من أراض وعقار وغيرها، الأمر الذى استلزم التفرقة بين وظيفة الأسقف واختصاصاته الروحية (Spiritualia) داخل نطاق أسقفيته، وبين سلطاته واختصاصاته الزمنية (Saecularia)[٩١].

ولم تكن هناك قواعد ثابتة فى أول الأمر تحدد كيفية تعيين الأساقفة فى مناصبهم، ففى عصر الغزوات الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حق انتخاب أسقفهم. على أن ملوك الفرنجة سرعان ما ادعوا لأنفسهم هذا الحق وصاروا يعينون من يختارونه فى الأسقفيات الشاغرة[٩٢]، على الرغم من صيحات الاحتجاج التى صدرت ضد هذا الوضع من مجامع أورليان سنوات ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٤٩، وكليرمونت

(87) Thompson: op. cit., vol 2. p. 648.

(88) Idem. p. 656.

(89) Taylor: The Med. Mind., vol 1, p. p. 488 - 489.

(90) Cam, Med. Hist., vol 6, ps. 536, 545.

(91) Ullmann: The Growth of Papal Government; p. 408.

(92) Cam, Med. Hist., 1, p. 152 & Ullmann: op. cit., p, 48 - 52.

سنة ٥٣٥، وباريس سنة ٥٥٧. وقد غالى شارل مارتل فى هذه السياسة، حتى أخذ ينعم بالوظائف الأسقفية على المخلصين من أتباعه، وبذلك وضع أساس سابقة أتبعها بقية ملوك الجرمان فى غرب أوربا فيما بين القرنين السادس والعاشر. ففى المانيا دأب أوتو العظيم ـ ثم ابنه وحفيده من بعده ـ على التحكم فى شغل الأسقفيات الشاغرة فى الإمبراطورية[٩٣]. وفى إنجلترا جاء وقت أصبح معروفا أن القصر الملكى هو أسهل طريق للوصول إلى كرسى الأسقفية... وهكذا فى بقية بلاد الغرب.

على أنه لم يوجد فى القانون الكنسى ما ينص على حق الملك فى تعيين الأساقفة، مما شجع رجال الدين المصلحين على معارضة هذا التقليد. وقد رأينا كيف وضع (هلد براند) مسألة منع التقليد العلمانى على رأس قائمة إصلاحاته، الأمر الذى أوقع البابوية فى صراع طويل مع الإمبراطورية، وهو الصراع الذى انتهى أخيرا بإقرار حق البابوية كاملا فى تقليد الأساقفة وحرمان الحكام العلمانيين من كل حق فى هذا التقليد[٩٤]. ولكن هذا الحل لم يضع نهاية لمشكلة تعيين الأساقفة، لأنه بقى إشكال آخر هو تحديد الهيئة التى تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك الاختيار ويقلد الأسقف مهام منصبه[٩٥]. وكانت هذه الهيئة غير محددة عند بداية القرن العاشر، إذ تألفت من قساوسة الأسقفية ورعيتها، حتى جاء البابا جريجورى السابع (هلدبراند) فاتجهت سياسته نحو الإبقاء على هذا العنصر الشعبى فى اختيار الأساقفة ليكون قوة مضادة لنفوذ الأمراء والحكام العلمانيين، واكتفى جريجورى السابع بأن يقسم الأساقفة للبابا يمين الولاء والطاعة[٩٦]. على أنه يبدو أن دائرة الاشخاص الذين لهم حق اختيار الأسقف ضاقت بعد ذلك فى القرن الثانى عشر، حتى أصبح هذا الحق مقصورا على القساوسة الذين يرتبطون بالكرسى الأسقفى ارتباطا مباشراً. ثم كان أن تم بعد ذلك ـ فى المجامع البابوية التى عقدت بروما سنة ١١٧٩، وسنة ١٢١٥ ـ تحديد قواعد اختيار الأساقفة، فنص المجمع الأول على ألا يقل عمر المعين فى هذه الوظيفة عن ثلاثين سنة وأن يكون متعلما وذا شخصية تتناسب مع جلال وظيفته[٩٧]. أما المجمع

(93) Fliche: L'Europe Occiuentale., p. p. 121 - 122.

(94) Ullmann: The Growth of Papal Government: p.p. 259 - 261.

(95) Cam. Med. Hist., vol, 6, p. 539.

(96) Ullmann: The Growth of Papal Government: p.p. 290 - 297.

(97) Eyre: op. cit,; p. p. 224 - 225.

الثانى فقد حدد طرق انتخاب الأساقفة، واحتفظ البابا أنوسنت الثالث للبابوية بحق رفض الاختيار إذا كان المرشح غير لائق للوظيفة. بل إن هذا البابا لجأ إلى تعيين بعض الأساقفة بطريق مباشر لإثبات حق البابوية فى اتخاذ مثل هذا الإجراء. وحسبنا ما فعله من رفض مرشح رجال الدين ومرشح ملك إنجلترا لشغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧، واختار لذلك المنصب رجلا ثالثا هو ستفن لانجتون(٩٨).

التنظيمات الديرية:

ظهر الاتجاه نحو العزلة والانقطاع للعبادة فى تاريخ معظم الأديان الكبرى التى عرفتها البشرية، ولكن هذا الاتجاه لم يترك أثرا فى الحياة العامة مثلما ترك فى العالم المسيحى الأوربى فى العصور الوسطى(٩٩).

وقد سبق أن أشرنا إلى ظهور الديرية وانتشارها فى غرب أوربا (١٠٠). وهنا نكرر أن القديس بندكت لم يكن مبتكر النظام الديرى فى المسيحية، وإنما سبق أن ظهر هذا النظام فى بلاد الشرق الأدنى المسيحية وانتشر بين ربوعها، ومنها انتقل بعد ذلك إلى الغرب. وقد أجمعت المراجع على أن مصر هى البلد الأول الذى طبقت فيه المسيحية نظام العزلة والانقطاع للعبادة(١٠١) فعلى ضفاف النيل باشر أقباط مصر نهجين من الانقطاع للعبادة، يتمثل الأول فى الرهبانية الانفرادية المطلقة التى باشرها القديس أنطون، والتى انتشرت بعد ذلك فى مصر والشام، وأسهمت إلى حد واضح فى نشر المسيحية فى الشرق. فى حين يتمثل الثانى فى الديرية الاجتماعية، التى ارتبطت بالقديس باخوم صاحب أول مؤسسة ديرية فى مصر العليا، والذى نجح قبل وفاته سنة ٣٤٨ فى تأسيس تسعة أديرة للرجال وواحد للنساء ضمت جميعها بضعة آلاف من الديرين(١٠٢).

وهذا النوع الأخير من أنواع الانقطاع للعبادة هو الذى قدر له البقاء والاستمرار، فانتشر إلى الشرق اليونانى حيث ظهرت الأديرة الباسلية نسبة إلى مؤسسها القديس

(98) Adams: The Hist. of England., p. 416.

(99) Workman: The Evolution of the Monastic Ideal: p. p. 1 - 5.

(١٠٠) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(101) Workman: op. cit., p. 86.

(102) Howell- Smith: op. cit.; p. 676.

باسل (٣٢٩ - ٣٧٩) أسقف قيصرية فى كابادوكيا. وقد أسس باسل مؤسسة ديرية كبرى قرب قيصرية ضمت ملجئاً ومستشفى ومدرسة لتعليم الصغار. ولم يلبث أن انتشر نظامه، حتى زاد عدد أتباعه قبل وفاته على ثمانين ألفا، كما أصبح هذا النظام بمثابة حجر الزاوية فى الديرية الشرقية. وهنا نلاحظ أن الديرية الباسلية غلب عليها طابع التأمل والعبادة والزهد، فضلا عن قلة العمل وضعف الإنتاج الحضارى، بخلاف ما أصبحت عليه الديرية فى الغرب(١٠٣).

أما فى الغرب فإن الديرية لم تصبح قوة فعالة فى المجتمع الأوربى، إلا على عهد القديس بندكت فى القرن السادس(١٠٤). حقيقة إن غرب أوربا عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعية قبل ذلك العصر، بل منذ سنة ٣٤٠ عندما وصل اثناسيوس إلى روما وبصحبته اثنان من الرهبان فرارا من الاضطهاد الأريوسى. ولكن الديرية لم تصبح عندئذ قوة فعالة ذات شأن كبير فى تطور الحياة الأوربية. وكل ما هنالك هو أن الحياة الديرية انبعثت من روما لتنتشر فى جميع أنحاء إيطاليا بل غاليا وشمال أفريقية(١٠٥).

وعلى هذا الأساس لايمكننا القول بأن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى فى المسيحية، وإن كان هو صاحب الفضل فى التقدم بهذا النظام ووضع القواعد والأسس التى أثرت فى مستقبله، حتى أن حياته تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الديرية ونظمها (١٠٦). ويمكننا إجمال ما فعله بندكت فى أنه اقتبس من النظم القائمة ما هو صالح وما يلائم ظروف البيئة الغربية. وأول طابع للنظام البندكتى هو ما امتازت به الحياة داخل الدير من روح اجتماعية نتيجة لاشتراك مجموعة من الديريين فى حياة منظمة أساسها الاشتراك والتعاون فى العبادة والعمل والنشاط. فالنظام البندكتى ابتعد تماما عن فكرة الرهبانية الانفرادية التى عرفها الشرق، وبذلك غدت الديرية الغربية لاتعرف إلا النظام الاجتماعى التعاونى،

---

(103) Idem., p. 677.

(104) Eyre: op. cit,; p. p. 227 - 228.

(105) Howell- Smith: op. cit.; p. 678.

(106) Workman: op. cit., p. 139.

مما ترك أثرا بعيدا فى المجتمع الأوربى(١٠٧). أما الطابع الثانى للنظام البندكتى فهو أن أعضاء الدير كان عليهم أن يظلوا مدى الحياة مرتبطين بالمجتمع الديرى الذى دخلوه مختارين. وهذا النوع من الاستقرار جعل الدير البندكتى بمثابة مؤسسة مسئولة عن نزلائها حتى مماتهم، فتقوم هذه المؤسسة بالاعتماد على نفسها فى سد حاجاتها ورعاية شئونها دون أن ترتبط بغيرها من الهيئات أو الأديرة الأخرى. وقد تطلب هذا الوضع أن يكون للدير البندكتى رئيس يشرف عليه ويتمتع بالسلطة المطلقة العليا فى إدارة شئون الدير، ويلتزم له بقية الأعضاء بالطاعة العمياء (١٠٨). لذلك نص النظام البندكتى على أن يختار أعضاء الدير رئيسهم، ولهذا الرئيس أن يستشير هؤلاء الأعضاء فى مختلف المسائل التى تهم المجموعة، على أن يكون له وحده الرأى النهائى والقرار الأخير ليصبح المسئول الأول - فى الدنيا والآخرة - عن صالح الدير ومن بداخله من أعضاء (١٠٩).

وهكذا يبدو الفارق واضحا بين الدير البندكتى وبين بقية المنظمات الديرية السابقة. فالدير البندكتى كان مجتمعا صغيرا مستقلا، ربطت أعضاءه رغبة مشتركة فى تكريس أرواحهم وأبدانهم لنوع معين من الحياة. وفى سبيل تحقيق هذه الغاية نبذوا الملكية الفردية نبذا تاما، ودانوا بالطاعة العمياء لرئيس الدير، وعاشوا سويا كأسرة واحدة حتى الممات (١١٠) وهنا نلاحظ أن النظام البندكتى لم يحاول مطلقا أن يجعل من نفسه منظمة عسكرية، وظل دائما أقرب إلى الحياة الاجتماعية المعتدلة. كذلك نلاحظ أن الديرية البندكتية تجنبت التطرف، وظلت بعيدة عن حياة الصرامة والخشونة التى اشهرت بها الرهبانية الشرقية فى وقت ما، بحيث أن الراهب البندكتى كان يحيا حياة لا تختلف كثيرا فى مستواها عن حياته العادية لو قدر له أن يبقى خارج سلك الديرية(١١١). والفارق الوحيد بين الحياتين هو الشعور الدينى الذى سيطر على الحياة الديرية سيطرة تامة. ومع أن العبادة المشتركة تمثل المظهر الأساسى لحياة

(107) Eyre: op. cit; p. 229.
(108) Workman: op. p. p. 146 - 147.
(109) Eyre: op. cit; p. 229.
(110) Workman: op. cit, p. 146.
(111) Eyre: op. cit; p. 230 & Workman: op. cit., p. 150.

الرهبان داخل الدير البندكتى، إلا أن هذا النظام امتاز بمظهر آخر لا يقل أهمية، وهو اشتراك الرهبان فى العمل الزراعى وغير الزراعى، لاعتقاد بندكت فى أن «الكسل عدو الروح»، حتى فاقت الساعات المخصصة للعمل تلك المحددة للعبادة. ولعل خير ما قاله بندكت بهذا الخصوص هو مثله المعروف «العمل عبادة Laborare est orare»(١١٢).

وقد ظل النظام البندكتى يمثل أكبر قوة فعالة فى الحياة الديرية فى العصور الوسطى، بل إنه يمثل ثورة كبرى فى تلك الحياة، ويكفى أن هذا النظام أعرض عن حياة الزهد والتقشف ونبذ مبدأ التطرف فى حرمان الجسد، فى الوقت الذى لم يجعل الرهبان يوجهون كل نشاطهم نحو التأمل والعبادة ويهملون العمل والإنتاج(١١٣). وهكذا جاء هذا النظام ملائما من جميع الوجوه للحياة الغربية فى العصور الوسطى، الأمر الذى أدى إلى انتشاره انتشارا سريعا واسعا فى مختلف أنحاء الغرب الأوربى(١١٤). على أن نجاح النظام البندكتى لا يرجع فقط إلى المزايا العديدة التى امتاز بها بالقياس إلى فوضى الحياة الديرية فى العهود السابقة، وإنما يرجع هذا النجاح أيضًا إلى ارتباط ذلك النظام الديرى بثلاث حركات كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى. أما هذه الحركات التى ربط النظام البندكتى نفسه بها فأولاها حركة نمو البابوية وتطورها، وثانيتها الحركة التنصيرية الواسعة التى قامت بها الكنيسة الغربية، وثالثتها حركة الإحياء الحضارى فى أوربا (١١٥).

على أنه يلاحظ أن الدعامة الأساسية فى التنظيم البندكتى قامت على أساس الاستقلال الذاتى لكل دير، فيكفى الدير نفسه بنفسه ويصبح مأوى دائمًا لأعضائه، يعيشون داخله فى شبه عزلة تامة عن غيرهم. ومن الواضح أن لهذا الاتجاه محاسنه وعيوبه، فهو من ناحية يكفل لأهل الدير قدراً كافياً من حرية التطور، ولكنه من ناحية أخرى يؤدى إلى الحد من نفوذ الحياة الديرية، ويجعل أثرها سلبيا فى المجتمع الإنسانى الكبير (١١٦). هذا إلى أن عزلة الدير البندكتى عرضته فى كثير من الأحيان

(112) Workman: op; p. 156.

(113) Howell- Smith: op. cit; p.`p. 680 - 681.

(114) Cam, Med: Hist., vol. 5, p. 658.

(115) Workman: op. cit; p. 162.

(116) Eyre: op. cit; p. 231.

للانحلال والتدهور، حتى يقال إن اثنين من رهبان دير فارفا Farfa قتلا مقدم الدير سنة ٩٣٦ وفرضا سيطرتهما على الدير حيث عاشا عيشة أقرب إلى الأمراء، فصار لكل منهما زوجته وأولاده وأتباعه الذين ينعمون بخيرات الدير وضياعه(١١٧) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عزلة الدير البندكتى لم تمكنه من حماية نفسه واستقلاله ضد تدخل السلطة العلمانية، لا سيما فى العصر المظلم الذى أعقب تفكك إمبراطورية شارلمان ، أدركنا فى النهاية أن الحياة الديرية فى غرب أوربا أمست عند نهاية القرن التاسع مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج هذه العيوب (١١٨) .

وكان أن تحققت حركة الإصلاح المنشودة فى القرن العاشر، وهى الحركة العظيمة التى عرفت باسم حركة الإصلاح الكلونية، والتى تمثل الدور الثانى فى تاريخ الديرية الغربية، وقد انبعثت هذه الحركة الإصلاحية من غاليا، ثم أدخلت عليها تعديلات كثيرة فى إنجلترا بعد أن أصبح لانفرانك Lanfranc ـ أستاذ ومقدم دير بك Bec المعروف ـ رئيسا لأسقفية كانتربورى فى القرن الحادى عشر (١١٩) . أما الأهداف الأساسية للحركة الكلونية فكانت ترمى إلى فرض قسط أكبر من الرقابة على أهل الدير، ووضع حد للتهاون الذى ساد الحياة الديرية حينئذ، وذلك عن طريق إخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة لإشراف موحد، فضلا عن تحديد أعباء الحياة الديرية تحديدا واضحا(١٢٠) .

وقد نسبت هذه الحركة الجديدة إلى دير كلونى فى برجنديا، وهو الدير الذى قام بدور هام فى عملية الإصلاح الكنسى التى أنقذت غرب أوربا من المصائب التى ألمت به فى أشد سنوات العصور الوسطى حلكة وظلاما(١٢١) . وكان الهدف الأول للزعماء الذين تولوا رئاسة دير كلونى هو إصلاح الكنيسة عن طريق تحريرها من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم. وفى سبيل تحقيق هذه الغاية، استطاع دير كلونى ـ الذى لم يكن يمتاز فى أول الأمر عن غيره من الأديرة البندكتية العادية ـ أن يتزعم شبكة

(117) Workman: op. cit; p. p. 233 - 234.
(118) Howell- Smith: op. cit; p. 684.
(119) Workman: op. cit; p.p. 220 - 223.
(120) Eyre: op. cit; p. 232.
(121) Fliche: L'Europe Occidentale, p.p. 121 - 124.

متـرابطة أو حلفـا متمـاسكا من الأديرة ذات الطابع الخاص [١٢٢]. وأول مميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الكلونية لم تكن هيئات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم دير كلوني ويخضعون له خضوعا مباشرا وبعبارة أخـرى أصـبح دير كلونى بمثـابـة الدير الأم أو الدير الرئيـسى العـام فى هذا التنظيم الجديد[١٢٣] وثمة ميزة أخرى امتاز بها النظام الكلونى، هى أن جميع الأديرة الكلونية نجحت فى أن تحرر نفسها من سيطرة الأسـاقفة المحليين لتصبح المنظمـة الديرية الكلونية تحت سيطرة البابا المباشرة [١٢٤].

أما عن آثار الحركة الكلونية فكانت عظيمة فيما يتعلق بإصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية فى شئونها[١٢٥]. على أن الذى يهمنا فى هذا المقام هو أثر الحركة الكلونية فى الحياة الديرية ونظمها. وهنا نجـد أن هذه الحركـة نفـخت فى الحيـاة الديريـة روحـا قـوية أدت إلى قـيام كـثـير من الأديرة الجديدة، بفضل الشخصيات الممتازة التى تولت رئاسة دير كلونى مثل القديس أودو (ت ٩٤٣) من ناحية، وبفضل حماسة الرهبان الكلونيين من ناحية أخرى[١٢٦]، ولم تلبث هذه الأديرة أن انتشرت فى شمال غرب أوربا وفى إنجلترا نفسها بعد الغزو النورمانى فى القرن الحادى عشر[١٢٧]، بحيث لم يقل عددها عن مائتى دير خضع رؤساؤها خضوعًا مـباشرا لمقدم دير كلونى. ولاشك فى أن هذه الرابطة القوية بين الأديرة الكلونية تركت أثرا عميقا فى الحياة الديرية فى الغرب. ذلك أن النظام الكلونى اهتم اهتماما خاصًا بأن يحيا الديريون حياة زهد، وأن يحذوا جميعهم حذو أهل دير كلونى، فيقللوا من أهمية العمل والساعات المخصصة له داخل الدير، ويضاعفوا عنايتهم بالتعبد. وجميع هذه الاتجاهات كان لها أثر فعال فى الحياة الديرية فى غرب أوربا، حتى فى الأديرة التى لم تدخل دائرة النظام الكلونى[١٢٨].

---

(122) Cam, Med. Hist., vol. 5, p. p. 662 - 664.

(123) Howell- Smith: op. cit; p. 685.

(124) Cam, Med. Hist., 5, p. 667.

(125) Fliche: L'Europe Occidentale, p.p. 124 - 127.

(126) Cam, Med. Hist., vol. 5, p. p. 662 - 663.

(127) Eyre: op. cit; p. p. 232 - 233.

(128) Idem: p. 233.

على أن عوامل الانحلال والفساد سرعان ما تطرقت إلى الحياة الديرية مرة أخرى، فأخذ الديريون يحيون حياة مترفة ويسرفون فى تناول الفاخر من الطعام والشراب، وارتداء الثمين من الملابس، فى الوقت الذى جنحوا إلى حياة البطالة والكسل(١٢٩) . هذا فضلا عن أن النظام الكلونى كانت تكمن فيه نقطة ضعف خطيرة هى إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة التابعة لهذا النظام على كاهل مقدم دير كلونى(١٣٠) . ومعنى هذا التركيز أنه إذا حاد الأخير عن جادة الصواب فإن ذلك يؤدى إلى إنحراف بقية الأديرة الكلونية هى الأخرى عن الطريق السوى، وفعلا حدث ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر، عندما انتهت سلسلة مقدمى دير كلونى المبرزين وظهرت سلسلة أخرى من الرؤساء الضعاف، فانحل دير كلونى نفسه وتبع ذلك إنحلال بقية الأديرة التابعة له(١٣١) .

ولم تلبث تلك الأوضاع أن دفعت فئة من الساخطين الراغبين فى الإصلاح إلى البحث عن حياة أكثر بساطة من حياة الدير الكلونى، مما أدى إلى مولد أنظمة ديرية جديدة . ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولى Comaldoli (١٣٢) الذى اعترفت به البابوية سنة ١٠٧٢ . وفى هذه المنظمة الديرية كان الرهبان يحيون حياة نسك فى خلايا منفصلة يقضون وقتهم فى التأمل ولايجتمعون إلا فى أوقات الصلاة المشتركة(١٣٣) . وهناك نظام ديرى آخر أكثر أهمية ظهر فى القرن الحادى عشر هو الكارثوسيان ـ نسبة إلى صحراء كارتريز ـ حيث أسس برونو الكولونى أول دير من هذا النوع سنة ١٠٨٤ . وقد امتاز هذا النظام الديرى بالصرامة والتطرف فى حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية(١٣٤) . ومهما يكن من أمر هذه المنظمات الديرية الجديدة، ومدى انتشارها وأثرها، فالمهم هو أنها تمثل رد فعل قوى للمبادئ والمثل الكلونية، مما يجعلنا نقرر أن الطابع الغالب على الحياة الديرية فى غرب أوربا طوال القرنين العاشر والحادى عشر كان الطابع الكلونى(١٣٥) .

---

(129) Howell- Smith: op. cit; p. p. 685 - 686.

(130) Cam, Med. Hist., vol. 5; p. 664.

(131) Workman: op. cit, p.p. 236.

(١٣٢) كامالدولى جبل منعزل قرب أرزو Arezzo فى إيطاليا .

(133) Cam, Med. Hist; vol. 5, p. 667.

(134) Thompson: op. cit; vol, 2, p. 667.

(135) Eyre: op. cit; p. 233.

والواقع أن نظام الديرية الكلونية ظلت له السيادة على الغرب الأوربى حتى أوائل القرن الثانى عشر، عندما بدأ الدور الثالث فى تاريخ تطور الحركة الديرية فى غرب أوربا، وجاء هذا الدور الجديد أيضاً وليد رغبة خالصة فى إصلاح الأوضاع القائمة، وهى الرغبة التى انبعثت هذه المرة من دير سيتو Citeaux فى برجنديا(١٣٦). وكان دير سيتو هذا قد تم تأسيسه سنة ١٠٩٨ بواسطة جماعة من الرهبان البندكتيين، الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ. ولم يلبث أن أخذ هذا الدير يرقى ويتقدم بسرعة بفضل العهد أو القانون (Gharta Charitati) الذى وضعه ستفن هاردنج (Stephen Harding) الإنجليزى ثالث رؤسائه. وقد بلغ ذلك التقدم أوجه سنة ١١١٥ عندما التحق القديس برنارد الكبير بذلك الدير(١٣٧).

ويمكن القول بأن هذا النظام الديرى الجديد الذى عرف باسم السسترشيان Cistercian كان محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية. لذلك أصبح مقدم دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة المنظمة الديرية الجديدة - السسترشيان - وله سلطة زيارة الأديرة التى تفرعت عنه لمراقبتها والتفتيش عليها(١٣٨). ومن جهة أخرى فإن رؤساء هذه الأديرة كان لهم حق زيارة الدير الأم - سيتو - وتفقد أحواله. وهنا يلاحظ أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطا ارتباطا مباشرا بالدير الذى تفرع عنه فقط، دون غيره من بقية أديرة المنظمة(١٣٩). وفى كل سنة يعقد مجمع عام فى دير سيتو يحضره جميع مقدمى أديرة هذه المنظمة، ولهذا المجمع سلطة فعالة فى المسائل التى تهم هيئة السسترشيان(١٤٠).

ومن هنا يبدو أن نظام السسترشيان خول لكل دير سلطة محدودة، اختلفت عما تمتع به مقدم الدير البندكتى من نفوذ مطلق، كما اختلفت عما تعرض له مقدم الدير

(136) Cam, Med. Hist., vol. 5, p. 672.
(137) Workman: op. cit; p.p 239.
(138) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 145.
(139) Cam, Med. Hist, vol. 5, p. p. 673 - 674.
(140) Workman: op. cit; p. 243.

الكلونى من تبعية تامة لرئيس المنظمة الأعلى(١٤١) . ولم يلبث نظام السسترشيان أن نما فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوربا بفضل مميزاته الواضحة من ناحية، وجهود القديس برنارد من ناحية أخرى، ولا غرو، فإن هذا القديس (١٠٩١ - ١١٥٣) أضحى فى أواخر أيامه أعظم شخصية فى أوربا، كما كان المستشار والصديق الشخصى للبابا ايوجنيوس الثالث، وأهم القواعد التى اكتملت لنظام السسترشيان على عهد القديس برنارد هى امتياز الحياة الديرية بالبساطة المطلقة، فروعى فى الأديرة السسترشيانية أن تكون متباعدة، وفى مناطق نائية، وألا تكون حقولها آهلة بالأقنان حتى ينصرف الديريون لفلاحة الأرض بأنفسهم. وهكذا أدى الرهبان السسترشيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية باستصلاح الأرض البور وفلاحتها، فضلا عن العناية بتربية الخيول والمواشى(١٤٢) . وقد أحرز هذا الفريق من الديريين شهرة كبيرة فى يور كشير بوجه خاص نتيجة لعنايتهم بأصواف الأغنام، حتى أصبحت تجارة الصوف محور الحياة الاقتصادية فى هذا الأقليم. أما فى برجنديا - حول ديرهم الرئيسى فى سيتو - فقد أصبح السسترشيان يمتلكون أعظم مزارع الكروم وأشهرها. على أن هذا النشاط الاقتصادى وما تبعه من ازدياد ثروة السسترشيان، سرعان ما أدى إلى تغلب الروح التجارية على هذا الفريق من الديريين، حتى انساقوا فى الطريق نفسه الذى انزلقت إليه المنظمات الديرية السابقة، وذلك منذ نهاية القرن الثانى عشر(١٤٣) وهكذا يمكن القول أنه بوفاة القديس برنارد سنة ١١٥٣ انقضى العصر الذهبى لمنظمة السسترشيان ونظامهم الديرى(١٤٤) .

وبعد، فلعله من الواضح بعد هذا العرض السريع لتاريخ الديرية ونظمها فى غرب أوربا، أن الطابع الرئيسى للحياة الديرية يكمن فى أنها نبعت من مصدر واحد هو نظام القديس بندكت . وعن هذا الأصل تفرعت الغالبية العظمى من الأنظمة الديرية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى نتيجة للرغبة فى الأصلاح والتعديل بين حين

(141) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 145.

(142) Workman: op. cit, p.p. 241 - 244.

(143) Idem: p. p. 245 - 246.

(144) Cam, Med. Hist; vol. 5, p. p. 676 - 677.

وآخر(١٤٥). ولاشك فى أن اتساع مجال الحركة الديرية فى أوربا العصور الوسطى وسرعة انتشارها، وتنوع صورها، ترك أثرا واضحا فى جميع مناحى الحياة فى تلك العصور. ذلك أن الديريين صاروا يكونون ركنا كبيرا فى المجتمع الأوربى، حتى غدت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءاً أساسيا من حياة المجتمع الغربى بأكمله. وحسب الديريين أنهم شاركوا مشاركة فعالة فى عملية البناء والإنتاج التى حفظت للحضارة الغربية كيانها بعد غزوات البرابرة منذ القرن الخامس، كما بذلوا جهدا مشكورا فى صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التى ألمت بغرب أوربا فى القرن التاسع. وإذا كان غرب أوربا قد تمتع بنهضة حضارية كبرى فى القرن الثانى عشر، فالفضل الأول فى ذلك يرجع إلى الديريين الذين مهدوا لهذه النهضة بجهودهم ومساعيهم(١٤٦). ففى وسط مظاهر عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى التى سادت غرب أوربا فى السنوات المظلمة، ظلت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد فى المجتمع الغربى، وعن طريقها انتقل التراث الحضارى من السلف إلى الخلف. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الأديرة أمدت المجتمع الغربى «بخميرة حضارية» بين القرنين السادس والثانى عشر(١٤٧). ذلك أنها غدت - بحكم استقرارها وسط مجتمع مذبذب متقلب - مركز العلم والدراسة، مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معانى الكلمة. حقيقة إن المقصود بالعمل الديرى الذى نص عليه نظام القديس بندكت هو الفلاحة والعمل الزراعى، لا النشاط الثقافى والفكرى، ولكننا إذا حاولنا وضع سجل لرجال المعرفة والأدب فى العصور المظلمة، وجدناهم - جميعهم تقريبا - من الديريين. وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة قاطعة، هى أن الأديرة فى غرب أوربا كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة، فضلا عن الفنون، فيما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الحادى عشر، وحسبنا أن جميع كبار المؤرخين فى تلك الحقبة كانوا من الديريين، وعلى رأسهم بدى Bede الذى يعتبر بحق رائد فن التدوين التاريخى (Historiog-raphy) وأبا للمؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى (٦٧٥ – ٧٣٥) (١٤٨). أما التعليم

(145) Taylor: The Med Mind. vol. 1, p. 373.

(146) Eyre: op. cit; p. 238.

(147) Workman: op. cit, p.p. 158 - 162.

(148) Poole: Illustrations of the Hist, of Med. Thought p. p. 17 - 18.

فى ذلك العصر فكان ديريا إلى مدى بعيد، حتى أن برامج الدراسات التى وضعها الديريون فى العصور المظلمة ظلت باقية ليعتمد عليها رجال الجامعات الناشئة فى القرن الثانى عشر. وهنا نشير إلى أن الأديرة البندكتية بوجه خاص كانت بمثابة مدارس عظيمة الأهمية، فدير مونت كاسينو نفسه أضحى فى القرن الحادى عشر مركزا أساسيا لدراسة اللاهوت والعلوم الكلاسيكية، فضلا عن القانون والطب والأدب والنحو(١٤٩). أما دير بك Bec فى غاليا فقد قام بدور فى النشاط العلمى والحضارى يضيق المقام عن شرحه. وإذا كان هذا هو حال الأديرة فى صلب القارة فإن الأديرة الأيرلندية (الكلتية) صارت هى الأخرى فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (سنة ٤٧٦) مركزا للعلوم الكلاسيكية والمعارف اليونانية، ومنها امتد شعاع الحضارة إلى غرب أوربا ليثير ما يعرف باسم النهضة الكارولنجية (١٥٠). وقد ظل الوضع على ذلك حتى نشأة النظام الكلونى، وعندئذ بدأ التعليم فى غرب أوربا ينتقل من أيدى الديريين تدريجيا لانصراف الأديرة الكلونية إلى العبادة وإهمال ماعداها، هذا وإن ظل أثر التعليم الديرى قائما مدة طويلة بعد ذلك. وخلاصة القول أنه لولا الأديرة لتناقص التراث الثقافى الذى خلفته لنا أوربا العصور الوسطى إلى حد كبير، لأن الديريين هم الذين حفظوا ذلك التراث من الضياع، واستمروا يضطلعون بمهمة تعليم غرب أوربا حتى مطلع النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، وعندئذ ظهرت الجامعات الأوربية لتحمل لواء العلم والمعرفة(١٥١).

وهناك ميدان حضارى آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر فى أوربا العصور الوسطى، ذلك أن مهمة نشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية، لم يقم بها كبار الفاتحين من أمثال شارلمان وألفرد العظيم (٨٤٨ - ٨٩٩) وحدهم، وإنما كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش هؤلاء الغزاة وتسير فى ركابها لتنشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية بين الشعوب الوثنية. وحسبنا أن نذكر أن البابا جريجورى الأول (العظيم) صاحب البعثات التنصرية المعروفة - كان راهبا، كما أن الأبحاث الحديثة تميل إلى تأكيد الحقيقة القائلة بأن القديس أوغسطين مبعوث جريجورى

(149) Taylor: The Med. Mind. p. 254.

(150) Workman: op. cit., p.p. 199 - 200.

(151) Adamson: The Legacy of the Middle Ages; p. 258.

العظيم الذى حول إنجلترا إلى المسيحية فى أواخر القرن السادس كان ـ هو ورفقاؤه ـ من الرهبان البندكتيين(١٥٢). هذا زيادة عما قامت به الأديرة الكلتية فى إيرلندا من جهود واسعة النطاق لنشر المسيحية داخل جزيرتهم ثم خارجها منذ القرن السادس، بل إن رسالة هؤلاء الرهبان لم تقتصر على صلب القارة وإنما امتدت إلى جزر فاروى وايسلاند وغيرها من المناطق النائية(١٥٣).

على أنه إذا كان الديريون قد عملوا جنبا إلى جنب مع الجنود فى الذود عن الحضارة الغربية ونشر هذه الحضارة بعيدا بين الشعوب الوثنية، مما طبع حروب العصور المظلمة بطابعها الخاص المميز، فإن الديرية كان لها أثرها أيضاً فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته بلدان غرب أوربا فى تلك العصور(١٥٤). وهنا نلاحظ أن المؤسسات الدينية ـ وبخاصة الديرية ـ كانت من أولى الهيئات التى منحها ملوك الغرب كثيرا من الإعفاءات والامتيازات، حتى امتلكت الأديرة أكبر نسبة من الأراضى الزراعية فى أوربا العصور الوسطى. ولاشك فى أن هذه الثروة المتزايدة التى هبطت على الأديرة جاءت متعارضة مع مثالية القديس بندكت وآرائه، كما أنها كانت العامل الأول فى تحريك الرغبة نحو إصلاح الحياة الديرية بين حين وآخر. على أنه إذا كان الديريون قد استغلوا نفوذهم ومكانتهم للحصول على ملكيات واسعة من الأراضى، فإنه ينبغى ألا يغيب عن بالنا أنهم كانوا فى ذلك يمثلون أقدر الملاك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاية(١٥٥). وبعبارة أخرى فإن عناية الأديرة ـ وبخاصة البندكتية ـ بالعمل كانت فى حد ذاتها عاملا من عوامل التمدن ومظهرا من مظاهر الإنتاج الحضارى والاستقرار السلمى (١٥٦). وتشهد سجلات الأديرة ـ وهى السجلات التى غدت فيما بعد مصدرا نفيسا من مصادر التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ـ على مدى العناية والكفاية التى كانت تدير بها الأديرة ضياعها وممتلكاتها

(152) Workman: op. p.p. 172 - 173.
(153) Idem., p. p. 199 - 201.
(154) Eyre: op. cit., p. 240.
(155) Workman: op. cit, p.p. 155 - 158.
(156) Boissonnade: Life and Work in Med Europe, p. 69.

الواسعة[١٥٧]. حقيقة إن الفلاح أو العامل الزراعى ظل يعانى فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر كثيرا من المتاعب التى يعانيها الفلاحون فى كل مكان، ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع الحكم بأن الديريين فعلوا الكثير من أجل السمو بالعمل الزراعى، وأضفوا على هذا النوع من العمل مكانة خاصة لم تتهيأ له فى العصور السابقة[١٥٨]. هذا زيادة على أن الديريين فى العصور الأولى كانوا ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع بما فيها طبقة النبلاء - فكان منهم نسبة غير صغيرة تمتاز بالعلم وطيبة الأصل. ومثل هؤلاء عندما يمسكون الفأس ويعملون فى الأرض كانوا يضربون لغيرهم من الناس فى البيئات المجاورة مثلا فريدا له أهميته ودلالته فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية.

أما فى الميدان الصناعى، فإن كثيرا من الأديرة أضحت مراكز صناعية روعى فيها التخصص فى العمل، ومن هذه الأديرة دير كوربى الذى كانت به أربع مصانع يدوية صغيرة (ورش)، ودير سانت ركويير الذى قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها[١٥٩].

وهكذا يبدو لنا أن الدور الذى قام به الديريون فى بناء مجتمع أوربى منظم خلال العصور المظلمة أعظم من أن يقدر فى سهولة.

الحياة الديرية أواخر العصور الوسطى:

يمكننا أن نخرج مما سبق بأن مقدم الدير أو رئيسه صار شخصية هامة فى المجتمع العلمانى المعاصر، نتيجة للدور الكبير الذى قامت به الأديرة فى الحياة الاقطاعية من ناحية وللضياع الواسعة التى امتلكتها الأديرة من ناحية أخرى، ذلك أن مقدم الدير غدا بارزا فى الارستقراطية الاقطاعية، أو بعبارة أخرى غدا سيدا إقطاعيا كبيرا بكل معانى الكلمة [١٦٠]. وعلى هذا الأساس اكتسب مقدموا الأديرة مكانة كبيرة فى مختلف الممالك الغربية التى قامت فيها أديرتهم، حتى صار الملوك يهتمون بأمر

(157) Boissonnade: op. cit; p. 86 - 97.

(158) Painter: A Hist of the Middle Ages. p. 149.

(159) Boissonnade: op. cit; p. 104.

(160) Eyre: op. cit; p. 241.

تعيينهم ، كما غدا تعيين هؤلاء الرؤساء محور خلاف وجدل وتنافس بين السلطتين الزمنية والدينية. فإذا تم تعيين مقدم لأحد الأديرة الكبيرة فإنه كان بحكم مركزه وإمكانات ديره يقوم بدور هام فى سياسة الدولة، بل ربما غدا من مستشارى الملك، وعندئذ يزداد النفوذ الديرى فى السياسة العلمانية. وهكذا أخذ يتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية، مبتعدين تدريجيا عن المثل والمبادئ الديرية، مما أدى إلى فساد الحياة الديرية بأكملها فى أواخر العصور الوسطى[١٦١].

هذا بالإضافة إلى أن ازدياد الأراضى التى امتلكتها الأديرة أدى فى القرن الثانى عشر إلى تطور الوضع الاجتماعى لرهبان الأديرة أنفسهم. ذلك أنه جرت العادة فى الأديرة الكبرى أن تقسم ممتلكاتها بين مقدم الدير وبقية رهبانه، مما ترتب عليه تحول الديريين إلى أرستقراطية ممتازة من السادة الملاك دون أن يفتح الدير أبوابه إلا لفئة محدودة فقط، خشية توزيع أراضيه بين عدد كبير من الأفراد. وقد أثار هذا الوضع شعور كثير من المسيحيين المخلصين الذين ساءهم ما صار عليه رجال الدين من ثروة وغنى، مخالفين بذلك تعاليم المسيحية وبساطتها الأولى، الأمر الذى ظهر صداه فى الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر من ناحية، وفى ظهور منظمات الإخوان الرهبان (Frairs) أوالرهبان الفقراء Mendicant Orders من ناحية أخرى[١٦٢].

ويرجع الفضل فى تأسيس منظمات الأخوان الفقراء فى أوائل القرن الثالث عشر إلى اثنين من القديسين، هما القديس فرانسيس والقديس دومنيك[١٦٣]. أما الأول فقد حاول مع أتباعه أن يقتدى بالمسيح فى بساطته، فنبذوا متاع الدنيا بأجمعه، وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر فى أوربا لوعظ الناس وتبشيرهم بالإنجيل، معتمدين على ما يجود به عليهم الخيرون من فتات العيش[١٦٤] ولم تلبث أن نجحت هذه الحركة التى تبلورت فى منظمة الأخوان الفرانسسكان حتى اعترف بها البابا أنوسنت الثالث، ثم كان التصديق على لائحتها سنة ١٢٢٣ . وفى نفس الوقت نشأت منظمة أخرى فى جنوب فرنسا من منظمات الأخوان الفقراء، وهى الهيئة التى أسسها القديس

(161) Idem: p. 242.

(162) Cam, Med. Hist., vol. 6, p. 727.

(163) Workman: op. cit; p. 271.

(164) Idem: p. p. 282 - 288.

دومنيك[١٦٥] وقد حاول دومنيك هذا - وهو أسباني الأصل - أن يقنع الهراطقة في جنوب فرنسا وشمال أسبانيا بالعودة إلى داخل حظيرة الكنيسة الغربية، وذلك عن طريق الوعظ والدعوة [١٦٦]. لذلك اتبع مع أتباعه نفس أسلوب الفقر المطلق، فاستقر جماعة منهم في تولوز سنة ١٢١٦ واعترف البابا (هونريوس) الثالث بهيئتهم بعد قليل[١٦٧].

ولكن لم تلبث هيئات الأخوان الرهبان - وبخاصة الفرانسسكان والدومينكان - أن ازداد نفوذها، وتكاثر مؤسساتها، وتخلت عن مبادئها الأولى في الفقر التقشف [١٦٨]، لتلعب دوراً خطيراً في الحياة الأوربية أواخر العصور الوسطى، ولاسيما فيما يتعلق بالنشاط الفكرى المرتبط بنشأة الجامعات[١٦٩]، فضلا عن النشاط التنصيرى بين المغول في آسيا [١٧٠]، حتى أطلق على القرنين الثالث عشر والرابع عشر «عصر الأخوان الرهبان (الفرير)».

---

(165) Cam, Med. Hist; vol, 6, p. 737.

(166) Eyre: op. cit; p. 243.

(167) Workman: op. cit, p. 276.

(168) Boissonnade: op. cit., p. 244.

(169) Taylor: The Med. Mind.vol, 2, p. 416 - 417.

وانظر كذلك كتاب الجامعات الأوربية في العصور الوسطى للمؤلف.

(170) Painter: A Hist of the Middle Ages, p. 321.

الباب الثانى

النظام الاقطاعى

نشأة النظام الاقطاعى وتطوره:

رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ما كان من قيام إمبراطورية شارلمان العظيمة، ثم تفكك هذه الإمبراطورية فى القرن التاسع. والواقع أنه يمكن تفسير هذا التفكك السياسى فى ضوء التفكك الاجتماعى الذى أصاب جوف الإمبراطورية من جهة، ثم فى ضوء الهجمات الهدامة التى تعرضت لها الإمبراطورية من الخارج من جهة أخرى[1]. أما عن حركة التفكك الداخلى فهى حركة معقدة، جرى العرف على تسميتها التطور الاقطاعى، وهو اصطلاح معقد مبهم بل هو أكثر تعقيدا وإبهاما مما يظن الكثيرون.

ذلك أن التطور الاقطاعى يرتبط ارتباطا قويا بالحياة الأوربية فى العصور الوسطى من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل الدينية، الأمر الذى يجعل علاج موضوع هذا التطور أمرا شائكا عسيرا. ومهما يكن من أمر، فإن النظام الاقطاعى فى غرب أوربا بلغ فى القرن التاسع مرحلة حاسمة واضحة المعالم من مراحل نموه وتطوره، جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه مسئولا عن سقوط إمبراطورية شارلمان[2].

ولكى نفهم نشأة النظام الاقطاعى فى الغرب، يجب أن نذكر أن البناء الاجتماعى لغرب أوربا فى العصور المظلمة جاء نتيجة لتداخل شعوب قبلية - من الحرمان وغير الجرمان - فى محيط سياسى واجتماعى لا يقوم على أسس قبلية. وليس هناك من شك فى أن هؤلاء البرابرة الذين دخلوا الإمبراطورية الرومانية جلبوا معهم كثيرا من عناصر التنظيم القبلى، ولاسيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم. وهنا نلاحظ أن المجتمع القبلى أبعد دائما عن أن يكون ديموقراطيا، لا لأنه يقوم على أساس احترام رئيس القبيلة أو العشيرة احتراما مطلقا فحسب، بل لأن الفرد ذا العصبية القوية فيه

(1) Thompson: op. cit, vol, 1, p. p. 279 - 280.

(2) Eyre: op. cit; p. 100.

يسود دائما ويتغلب على ضعاف العصبية. هذا إلى أن استخدام الرقيق كان أمرا مألوفا عند شعوب الجرمان القبلية، وهذه كلها عناصر لها أهميتها وقيمتها فى التنظيم الاقطاعى(٣).

على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن النظام الملكى يكون دائما ضعيفا فى المجتمع القبلى، لأن القوة الحقيقية فى ذلك المجتمع تكمن فى سلطة زعماء القبائل والعشائر. وإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية ـ كالملكية الميروفنجية مثلا ـ نمت فى غرب أوربا، فإن هذا النمو جاء نتيجة لتأثر هؤلاء الجرمان بروح الاستقرار، والنظريات الرومانية السائدة فى البلاد التى استقروا فيها. ولم يلبث هذا الاستقرار الذى نعمت به القبائل الجرمانية غداة اقتحامها العالم الرومانى أن أثر بدوره فى تنظيمها الاجتماعى، لأن اتساع رقعة البلاد التى حكمها ملوك الجرمان، مع انتشار عوامل الفوضى التى سادت ذلك العصر أدت إلى أفلات الزمام من أيديهم تدريجيا. وهكذا يبدو أنه فى الوقت الذى هيأت بعض الظروف لملوك الجرمان قدرا متزايدا من السلطان والنفوذ، اضطر هؤلاء الملوك ـ تحت ضغط ظروف أخرى ـ إلى التخلى عن هذه السلطة وذلك النفوذ وتفويضهما لمن ينوب عنهم(٤).

وقد يلاحظ القارئ أننا اخترنا فى الأسطر السابقة أن نضرب المثل بملوك دولة الفرنجة عند الكلام عن البذور الأولى للنظام الاقطاعى. والواقع أن هذه الأشارة المقصودة جاءت لأن تاريخ دولة الفرنجة فى غاليا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التى يمكن تسميتها إقطاعية والتى تعتبر جذورا للنظام الاقطاعى(٥). فمن المعروف أن محاربى الفرنجة كانوا من المشاة بوجه عام، وأن اعتاد الملوك والنبلاء أن يمتطوا صهوة جيادهم فى وقت الحرب(٦). واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسع فى نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة فى ميدان الحرب، وعندئذ استكشف أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج إليه الفارس من فرس ودرع وسلاح، فضلا عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر

---

(3) Idem., p. 101.

(4) Idem, p. 102.

(5) Ganshof: Feudalism, p. 3.

(6) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 70

لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال(٧). ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة فى القرن الثامن بحيث لاتفى بكل هذه المطالب، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر، فسجل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء، ثم أعطى كلا منهم إقطاعا يكفى لسد مطالب معيشته، على أن يبقى هذا الاقطاع فى حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية(٨). وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الأرض اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان، وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضى الملكية على الجند، بدأ يتطلع إلى أراضى الكنيسة فوضع يده على بعضها ليوزعها على هيئة قطاعات من الأرض على فرسانه وعن هذا الطريق تمكن شارل مارتل من التغلب على ما واجهه من صعاب، فكون جيشا قويا من الفرسان، استغله فى طرد المسلمين من جنوب غاليا وفى محاربة السكسون فى الشمال. والمهم فى أمر هذا التنظيم الذى وضعه شارل مارتل لجيشه - والذى اقتفى أثره فيه بيبين القصير ثم شارلمان - أنه قام على أساس إقطاعى واضح(٩).

وإذا كانت بذور النظام الاقطاعى قد ظهرت فى دولة الفرنجة فى القرن الثامن فإن الظروف التى تعرضت لها هذه المملكة بوجه خاص وغرب أوربا بوجه عام فى القرن التاسع ساعدت على نمو هذا النظام وتفرعه. ذلك أن الحروب العنيفة التى قامت بين لويس التقى وأبنائه، والتى استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم، كانت فى حد ذاتها كافية لأن تثير جوا من الفوضى أصبحت فيه الكلمة الأخيرة لقوة السلاح وحدها. ثم جاءت الأخطار الخارجية لتزيد من اضطراب الأوضاع ، لأن إغارات الفيكنج والمسلمين والمجريين على غرب أوربا ووسطها فى القرن التاسع، جعلت أهالى القرى والمدن والمؤسسات الدينية لايأمنون على أنفسهم إلا فى ظل القوة المسلحة(١٠). وفى هذه الأوضاع القلقة أصبح لزاما على الرجل العادى الحر أن يختار أحد طريقين، فأما أن يصبح جنديا وإما أن يصبح قنا، لأنه لايستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه ويزود عنه. وهكذا أخذ الملوك وكبار الأمراء وملاك الأراضى يبحثون عن اتباع

(7) Painter: Med. Society, p. 14.

(8) Ganshof: op. cit; p. p. 16 - 17.

(9) Stephenson: Med. Feudalism; p. 11

(10) Thompson: cit., vol, 1. p. 279.

مسلحين يساعدونهم فى التغلب على ما واجههم من أخطار، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضا أكثر من حاجته وحاجة أسرته إلى منح هذه الزيادة - على هيئة اقطاعات - لأتباع له من الجنود(١١). أما صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التى تعرض لها غرب أوربا فى القرن التاسع إلى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الذود عنهم، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى، ثم يعود فيتسلمها منه كاقطاع، وبذلك يصبح فصلا أو تابعا اقطاعيا له. وكان يحتفل عادة بقيام علاقة اقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط، فيركع الفصل أمام سيده الاقطاعى، ويضع يده بين يديه، ثم يقسم على أن يظل تابعا أمينا له، ويؤدى كافة الخدمات والالتزامات الاقطاعية المتنوعة المفروضة على الاقطاع. ويسمى هذا القسم «يمين الولاء homagium». وبعد ذلك يناوله السيد الاقطاعى حفنة من التراب إشارة إلى أنه سلمه الاقطاع فعلا (١٢)، كما يسلم لفصله علما وعكازا وبراءة تثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها، وتسمى هذه العملية «التقليد investitura (١٣)».

وهكذا أخذت تتكون فى القرن التاسع طبقة من السادة الاقطاعيين والأفصال، فصار المحارب أو الفارس الصغير الذى لايمتلك من الأرض إلا قدرا بسيطا فصلا لمالك أكبر - ربما كان كونت الأقليم - فى حين صار هذا الكونت فصلا لمالك أعظم، قد يكون الدوق أو الملك. على أن هذا النظام الهرمى الذى كان الملك فى قمته والفارس العادى فى أسفله، لم يكتمل بناؤه بالصورة التى قد نتصورها فى القرن التاسع، إذا ظل هناك كثير من أراضى الملكيات الحرة (allods) التى لم تدخل ضمن التنظيم الاقطاعى منتشرة فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر(١٤).

وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه لم تكن هناك أية غضاضة فى تلك العصور فى أن يكون الفرد فصلا لغيره، لأن هذا الفصل كان بدوره سيدا لمن هو دونه فى الدرجة، فضلا عن أن هذه التبعية الاقطاعية تعنى أن صاحبها عضو فى طبقة المحاربين،

---

(11) Fliche: L'Europe Occidentale; p. p. 162 - 163.

(12) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 112

(13) Cam, Med: Hist; vol, 3, p. 459.

(14) Ganshof: op. cit, p. 115 & Paintar: Med. Society, p. 16.

وتبعا لذلك يتصف بأخلاق الشجاعة والكرم والمروءة وهى الصفات التى عرف بها فرسان العصور الوسطى[١٥].

ومن الواضح أن عملية التطور الاقطاعى تعنى تنازل السلطة المركزية فى الدولة عن حقوقها وواجباتها، بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوى النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات فى مناطق معينة مقابل شروط خاصة[١٦]. لذلك لاينبغى أن يقتصر تفسيرنا لهذه العملية على جانبها الاقتصادى لأنها تمس فى الواقع جميع أركان النظام السياسى فى الدولة. فإذا أعلن الملك مثلا تنازله عن حق جباية الضرائب فى منطقة معينة لسيد معين، فليس معنى ذلك أن الفلاحين فى هذه المنطقة استراحوا من عبء تلك الضرائب، لأن الذى حدث فعلا هو أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها، ولكن للسيد الذى عينه الملك، وهكذا غدا هذا السيد صاحب السيادة المباشرة وصاحب الحق فى الحصول على الالتزامات المفروضة على أولئك الفلاحين[١٧]. ومثل هذا الوضع يمكن أن يقال عن العدالة والقضاء، لأن تنازل الملك عن حقوقه القضائية فى منطقة معينة من بلاده لفرد من أفصاله، يعنى قيام هذا الفرد بما كان ينبغى أن تقوم به السلطة الملكية فى هذا الميدان، فضلا عن قيامه بجمع الرسوم القضائية من المتقاضين، بمعنى أن الاقطاع كان يمثل أيضاً وحدة قضائية يتمتع فيها السيد الاقطاعى بحقوق قضائية واسعة على أفصاله[١٨]. أما فى الجانب الحربى فإن المنح الملكية الاقطاعية كانت تأتى مشروطة غالبا بأن يقوم الشخص المنعم عليه بمساعدة الملك ومناصرته فى وقت الحاجة ومعنى ذلك أنه إذا كان الملك ينتظر معونة أفصاله الكبار، فإن هؤلاء الأفصال لابد أن يعتمدوا بدورهم على أفصالهم فى الحصول على هذه المعونة[١٩].

وهنا نلاحظ أن الكنيسة قامت بدور كبير فى هذه العملية الطويلة المعقدة. ذلك أن كبار ملاك الأراضى من الديريين ورجال الأكليروس كانوا يتمتعون بمكانة سامية فريدة فى المجتمع ، الأمر الذى أحاط أشخاصهم وممتلكاتهم بمسحة من القدسية.

(15) Stephenson: Med Hist, p. 234.

(16) Fliche: L'Europe Occidentale, p. p. 162 - 163.

(17) Eyre: op. cit; p. 182.

(18) Thompson: op. cit; vol, 1, p. 348.

(19) Ganshof: op. cit; p. 79.

لذلك كان معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الكبيرة، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد، حتى يكتسب هؤلاء الملوك تأييد رجال الدين وعطفهم[٢٠]. ولكن يلاحظ فيما يتعلق بالإقطاعات الكنسية والديرية أنها كانت تعفى فى معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الإقطاعية، ويكتفى بأن تقوم أفراد الهيئة الدينية المنعم عليها بالإقطاع بالدعاء للواهب أو الترحم عليه. هذا إلى أنه كان يحدث فى كثير من الحالات أن يفى مقدم الدير أو الأسقف بالالتزامات العسكرية المفروضة على الإقطاع عن طريق توزيع جزء منه ـ أو كله ـ على أفصال جدد ينهضون بأعباء هذه الالتزامات [٢١].

وكانت أهم مظاهر تطور العلاقات الاقطاعية بين السادة الإقطاعيين وأفصالهم هى تحول الإقطاع إلى منحة وراثية بعد أن كانت هذه المنحة فى أول أمرها مؤقتة أو مرهونة بمدى الحياة. ومن الواضح أن هذه الخطوة جاءت نتيجة طبيعية لتعذر منع ابن الفصل من الاستيلاء على أقطاع أبيه بعد وفاته، وقد حدث عندما أزمع شارل الأصلع السفر إلى روما ليتوج إمبراطورا أن أصدر مرسوما بأنه فى حالة وفاة أحد أفصاله فى غيابه فإن ابن ذلك الفصل له الحق فى الاستيلاء على أقطاع أبيه[٢٢].

وهنا نلاحظ أن الالتزامات المفروضة على الفصل ظلت رهنا بمشيئة السيد الاقطاعى طالما كان الاقطاع غير دائم ولايورث ، أما وقد اتخذ الاقطاع صفة وراثية، فإن هذه الالتزامات اتخذت شكلا ثابتا بموجب عقد عرفى حدد الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله. وثمة ملاحظة أخرى على مبدأ توريث الاقطاع، وهى أن الابن الأكبر وحده كان له حق الاستئثار بوراثة الاقطاع. حقيقة أن الأرض يسهل تقسيمها، ولكن الاقطاع كان وظيفة، والوظيفة لا تقسم. فالاقطاع بمعناه وأهميته الحربية التى تقوم على أساس المسئولية الشخصية، يعتبر وظيفة، ولذلك حرص القانون الاقطاعى ـ بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية ـ على أن ينص على انتقال الاقطاع كاملا فى حالة وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه. ومن الواضح أن الذى كان يورث فى هذه الحالة هو حق الحصول على الاقطاع تحت شروط معينة. فالابن الأكبر

(20) Eyre: op. cit; p. p. 240 - 242.

(21) Stephenson: Med. Hist; p. 237.

(22) Painter: Med. Society, p. p. 16 - 17.

أو الوريث ليس له حق شرعى فى الحصول على أقطاع أبيه، إلا إذا أدى فروض الولاء والتبعية للسيد الاقطاعى[٢٣].

الحقوق والواجبات الاقطاعية:

اختلف النظام الاقطاعى فى نشأته من مكان إلى آخر فى غرب أوربا وفق الظروف والملابسات، ولكنه قام فى جوهره على أساس العلاقة الشخصية التى ارتبطت بحيازة الأرض[٢٤]. ذلك أن المتمتع بالأرض كان يتعهد بالتزامات معينة لسيده الاقطاعى مقابل تعهد السيد بالتزامات أخرى لفصله، وبعبارة أخرى فإن كلا من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات قبل الطرف الآخر. وهنا نلاحظ أن النظام الاقطاعى لم يعترف فى بداية تطوره بملكية الأفراد للأرض ملكية مطلقة، لأن الملك كان - من الناحية النظرية - هو المالك الفعلى لجميع أراضى المملكة، وإن كان الثابت من الناحية العملية أن لكل أرض سيدها حتى قيل «لا توجد أرض بلا سيد Nulle terre sans seigneur»[٢٥]. ومهما يكن من أمر، فإن العلاقة المتتابعة بين السادة الاقطاعيين وأفصالهم لم تتطلب نوعا من الالتزامات الشخصية فحسب، بل ترتب عليها أيضاً حقوق عامة والتزامات سياسية، لأنه إذا كانت الوظيفة الأساسية لحكومات العصور الوسطى هى القيام بأعباء الحرب والعدالة، فإن هاتين المهمتين نظمتا على أساس إقطاعى بحت فى أوربا العصور الوسطى[٢٦]. وتتضح الحقيقة كاملة بشرح الحقوق والواجبات الاقطاعية.

أما السادة الاقطاعيون فكانت لهم حقوق على أفصالهم، وهى حقوق غدت بمثابة مهام أو التزامات ملقاة على عواتق الأفصال وتجب عليهم تأديتها والوفاء بها، فى حدود ما قضى به العرف الاقطاعى. وقد تنوعت هذه الالتزامات المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الأقطاعيين، فظهر منها ما هو حربى، ومنا ما هو مالى، وما هو اجتماعى... إلى غير ذلك من أنواع التكاليف التى نهض بها الأفصال مقابل ما

---

(23) Stephenson: Med. Hist., p. 236.

(24) Ganshof: op. cit; p. XVI.

(25) Eyre: op. cit; p. 247.

(26) Fliche: L'Europe Occidentale, p. p. 166 - 168.

حصلوا عليه من حماية (٢٧).

ومن الطبيعى أن يكون التعاون فى ميدان الحرب هو المحور الأساسى للعلاقات الاقطاعية بين السيد وأفصاله، لأن المهمة الأولى للسيد الاقطاعى كانت حماية أفصاله وأراضيهم، فى حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفصال هو الخدمة فى جيش سيدهم(٢٨). وهكذا غدا المجتمع الاقطاعى يدور حول محور واحد هو الفارس المحارب، فيتعهد الأمير الاقطاعى بالحضور فورا على رأس عدد معين من الفرسان لمساندة الملك متى طلب منه ذلك، وبالتالى يتعهد أفصال ذلك الأمير بمساندته وقت اشتباكه فى حرب مع عدو له(٢٩). ومن السهل علينا أن نكشف مدى ما فى هذا النظام من خطر، لأنه يجعل كل عضو فى المجتمع الاقطاعى يقدم خدماته العسكرية لسيده المباشر، حتى ولو قام هذا السيد بحرب تستهدف مصلحة خاصة أو ضد ملك البلاد، ولم يتم التخلص من هذا الخطر نسبيا إلا فى أواخر القرن الثانى عشر عندما نص القانون فى إنجلترا ثم فى فرنسا على أن يتعاون الفرسان مع أميرهم الاقطاعى فى خدمة الملك، ولا يساعدونه فى أى حرب خاصة(٣٠).

والواقع أنه لم يكن هناك تحديد فى أول الأمر لمدى الخدمة العسكرية التى يؤديها الفصل لسيده، وذلك فى الوقت الذى اشتدت اغارات الفيكنج وغيرهم من الغزاه على غرب أوربا، فسادت الفوضى وعظم الخطر وأصبح لزاما على الأفصال أن يهبوا لحمل السلاح دون قيد أو شرط وقتما يطلب منهم ذلك سيدهم الاقطاعى(٣١). ولكن الأفصال أخذوا - بمرور الوقت - يميزون بين نوعين من الحرب: الحرب الهجومية والحرب الدفاعية. فإذا أغار عدو أو اعتدى معتد على أملاك السيد أصبح لزاما على أفصاله أن يقاتلوا معه حتى يردوا ذلك العدو. أما إذا قام السيد الاقطاعى بحرب هجومية لتوسيع ممتلكاته أو للاعتداء على ضيعة مجاورة أو حصن قريب، فإن الأفصال اتجهوا فى تلك الأحوال نحو تحديد التزاماتهم تجاه سيدهم، وهناك شبه قاعدة عامة حددت الحد

(27) Thompson: op. cit; vol, 2, p. p. 701 - 702.

(28) Painter: Med. Society; p.18.

(29) Stephenson: Med, Feudalism., p.p. 27 - 28.

(30) Eyre: op. cit; p.p. 247 - 248.

(31) Painter: Med. Society; p.18.

الأقصى للمدة التى يخدم فيها الفصل سيده فى حربه الهجومية بأربعين يوما فى السنة[٣٢].

ويرتبط بالخدمة العسكرية التى يؤديها الفصل لسيده قيام الأول بنصيبه فى حراسة قلعة السيد[٣٣]، ولم تكن هناك حصون إقطاعية فى غرب أوربا قبل القرن العاشر، ولكن هذه الحصون أخذت تنتشر منذ ذلك الوقت حتى صار لكل أمير إقطاعى - فى القرن الحادى عشر - قلعة على الأقل، يأوى إليها أفصاله وذووهم وقت الخطر، ويتناوب هؤلاء الأفصال حراستها على مدار السنة. وكان السيد الاقطاعى يولى هذه القلاع اهتماما كبيرا - سواء كانت خاصة به أو بأفصاله - فلا يسمح لأحد من هؤلاء الأخيرين بهدم قلعة أو بناء أخرى إلا بإذن خاص منه. أما المدة التى فرض على الأفصال قضاؤها فى حراسة قلعة سيدهم فقد تراوحت بين ثلاثين وأربعين يوما فى السنة.

وبالإضافة إلى هذه الواجبات الحربية وجدت واجبات أخرى اجتماعية فرضتها طبيعة العلاقات الاقطاعية بين السيد وأفصاله، وكانت هذه الواجبات كثيرة ومتنوعة، أولها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة إلى مقر السيد الاقطاعى عندما يطلب إليه ذلك. وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه هذه الدعوة، أهمها رغبة السيد فى استشارة أفصاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة[٣٤]. ويبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادئ الأساسية التى سادت المجتمع الاقطاعى، إلى درجة أن السيد الاقطاعى كان يجمع أفصاله ليأخذ رأيهم فى اختيار زوجة لنفسه أو لابنه أو زوجا لابنته، هذا فضلا عن استشارتهم قبل الإقدام على حرب خارجية أو المشاركة فى حملة صليبية مثلا. ومن هنا كان لزاما على الفصل أن يقدم مشورته لسيده عند طلبها[٣٥].

على أنه إذا كان للسيد أن يستشير أفصاله قبل الإقدام على عمل هام، فإن الفصل كان ملزما بالحصول على موافقة سيده الاقطاعى قبل أن يزوج ابنته، لأن هذا الزواج قد يترتب عليه انتقال جزء من إقطاع والد الزوجة - أو الاقطاع كله - إلى زوجها. مما

---

(32) Ibid .

(33) Ganshof: op. cit; p. p. 80 - 81.

(34) Stephenson: Med, Feudalism; p.p. 30 - 31.

(35) Painter: Med. Society, p. p. 21 - 22.

يجعل موافقة السيد أمرا ضروريا لازما[٣٦]. فإذا مات الفصل وترك ابنا صغيرا لا يستطيع النهوض بمهام الاقطاع والتزاماته، أو ابنة لم تتزوج بعد، ففى هذه الحالة يعين السيد الاقطاعى أحد أقارب الفصل المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية وينهض بمسئوليات الاقطاع، وقد جرت العادة أن يفضل فى القيام بالوصاية أكبر خال للوريث أو الوريثة نظرا لأنه لايمتلك أى حق وراثى فى الاقطاع، بعكس العم، الذى ربما حاول التخلص من الورثة لتنتقل إليه حقوقهم فى الاقطاع[٣٧]. وفى كثير من الأحيان كان يتولى السيد الاقطاعى نفسه الوصاية على الوريث وأرضه. فإذا كان الوريث ذكرا ظلت وصاية السيد عليه قائمة حتى يبلغ سن الرشد، وإذا كانت الوريثة أنثى صار واجبا على السيد أن يبحث لها عن زوج مناسب يستطيع أن يفى بكافة الالتزامات المفروضة على الاقطاع[٣٨]. ولاشك فى أن السيد الاقطاعى كان يرحب كثيرا بهذه الفرصة الأخيرة، وذلك لأن كل واحد من السادة الاقطاعيين إلتف حوله عادة بعض الفرسان الشباب الذين يتوقون للحصول على إقطاعات خاصة بهم، فلم يكن هناك طريق أمام السيد أيسر من أن يزوج أحد هؤلاء الشبان بإحدى وريثات الاقطاع، وقد غدا هذا الطريق فى الواقع المخرج الوحيد أمام أى فارس بدون اقطاع ليصبح ذا مكانة فى المجتمع الاقطاعى[٣٩].

أما إذا مات الفصل دون أن يترك وريثا يخلفه، فإن اقطاعه ينتقل فى هذه الحالة إلى سيده الاقطاعى عن طريق الاستيراث (Escheat). وعلى الرغم من أن عملية الاستيراث هذه لم تكن شائعة، إلا أنها تكررت كثيرا فى العصور الوسطى[٤٠].

فإذا تركنا الواجبات الحربية والاجتماعية المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الاقطاعيين، فإننا نجد الأفصال أمام عبء ثقيل من الالتزامات المادية أو المالية[٤١]. ذلك أنه صار لزاما على الفصل أن يؤدى لسيده عدة مقررات ومكوس اقطاعية

(36) Idem: p. 24.
(37) Painter: A Hist of the Middle Ages, p. 111.
(38) Ganshof: op. cit., p. p. 128 - 129.
(39) Painter: A Hist. the Middle Ages, p. 111.
(40) Stephenson: Med, Feudalism., p. 24.
(41) Eyre: op. cit; p. 248.

صارت بمثابة حقوق ثابتة للسيد . ومن هذه ضريبة الحلوان (relief) ، وهى أشبه شيء بضريبة الميراث أو التركات فى عصرنا الحديث، وكانت تدفع كلما تولى على الاقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الاقطاع المتوفى، ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لتحديد قيمة المبلغ الذى يدفعه الفصل فى هذه الحالة، وإن دلت بعض الشواهد على أن هذا المبلغ كان يساوى - فى معظم الحالات - دخل الاقطاع عن عام كامل(٤٢) .

وهناك أيضاً ضريبة المعونة (aid)، وهى فى الواقع أموال يقدمها الفصل لسيده فى مناسبات خاصة، ذلك أنه كان مفروضا أن يحصل السيد الاقطاعى على ما يحتاج إليه من نفقات إضافية أو استثنائية من أفصاله، فإذا كان وريث الاقطاع نفسه عاجزا عن دفع ضريبة الحلوان لسيده الأمير الاقطاعى، فإنه لن يجد أمامه فى هذه الحالة غير أفصاله ليجمع منهم المبلغ المطلوب. وإذا أسر السيد الاقطاعى فى حرب، وجب على أفصاله أن يجمعوا الفداء اللازم لإطلاق سراحه. هذا فضلا عن المناسبات السعيدة التى يتكلف السيد الاقطاعى نفقات طائلة فى إحيائها والتى وجب على أفصاله أن يعاونوه فى سد هذه النفقات، مثل تأهيل كبرى كريماته أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارسا(٤٣) . وكان المتبع فى أول الأمر أن يسهم الأفصال فى هذه النفقات بتقديم الخبز والنبيذ، ولكن استيعض بعد ذلك بالمال عن هذه المعونة العينية(٤٤) . أما إذا أزمع السيد الاقطاعى القيام بمشروع باهظ النفقات، مثل المشاركة فى حملة صليبية أو بناء حصن جديد، فإنه لابد من أن يعتمد فى هذه الأحوال على معونة أفصاله، فإذا كان السيد الاقطاعى من رجال الدين - مقدم دير أو أسقف مثلا - فإنه يجد مبررا لجمع المعونة من أفصاله فى الاحتفال بتقليد أحد رجال الدين وظيفة جديدة أو فى القيام برحلة دينية إلى روما مثلا (٤٥) . وهكذا تنوعت المعونة التى يقدمها الأفصال للسيد الاقطاعى، حتى انقسمت هذه المعونة فى القرن الحادى عشر إلى قسمين أساسيين، الأول يشمل المعونة التى يفرضها السيد الاقطاعى على أفصاله كحق ثابت له بمقتضى العرف والتقاليد، والثانى المعونة التى يطلب السيد من أفصاله أن يجاملوه بها

---

(42) Thompson: op. cit; vol, 2, p. p. 702 - 703.

(43) Stephenson: Med. Feudalism; p. 30.

(44) Painter: Med. Society, p23.

(45) Stephenson: Med. History; p. p. 237 - 238.

دون أن يكون فيها شيء من الإلزام(٤٦).

ولم تقتصر الالتزامات ذات الصبغة الاقتصادية التى فرضها العرف الاقطاعى على الأفصال على الحلوان والمعونة، وإنما وجدت ضريبة أخرى هى ضريبة «الضيافة»، ولم تكن هذه الضريبة محددة فى أول الأمر، إذ كان على الفصل أن يكرم سيده وحاشيته فى أى وقت يختار ذلك السيد أن يزور فصله. ولكن ساد الاتجاه - بمضى الزمن - نحو تحديد هذه الزيارات ، فأصبح السيد لايستطيع زيارة فصله أكثر من عدد معين من المرات فى السنة، على ألا يصطحب معه فى هذه الزيارات إلا عددا محددا من الاتباع والخيول. وفى بعض الحالات حدد العرف الاقطاعى ألوان الطعام الذى على الفصل أن يقدمه إلى ضيوفه فى تلك المناسبات(٤٧).

وإذا كان النظام الاقطاعى يعتبر قبل كل شيء تعاقدا بين السيد وأفصاله على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة، فإن هذه الفكرة تستلزم وجود حقوق للأفصال تجاه سادتهم الاقطاعيين، أو بعبارة أخرى واجبات على هؤلاء السادة تجاه أفصالهم(٤٨). حقيقة أن السيد الاقطاعى خرج من هذا التعاقد بنصيب الأسد نتيجة لأنه الطرف الأقوى صاحب النفوذ والسلطان، ولكن هذا السيد كان مقيدا بقواعد وشروط خاصة والتزامات معينة يعيها ويدركها جميع الناس، بحيث لايستطيع أن يتهرب منها دون أن يدفع ثمنا غاليا. أما أهم الالتزامات التى ألقاها القانون الاقطاعى على كاهل السيد فكانت قيامه بحماية أفصاله ورعايتهم وتحقيق العدالة لهم(٤٩). فإذا اعتقد الفصل أن سيده يسيء إليه، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من أنداده، هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الاقطاعية ويتحلل من تبعيته إذا ثبت أن السيد الاقطاعى لاينهض بمسئولياته الأساسية تجاهه(٥٠). وبعبارة أخرى فإن الأفصال كانوا فى حل من عدم التقيد بالعقد الاقطاعى والتنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم، ما دام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود

---

(46) Painter: Med. Society, p. 24.

(47) Stephenson: Med. Feudalism., p. 30.

(48) Eyre: op. cit; p. 247.

(49) Ganshof: op. cit; p .85.

(50) Idem: p. p. 89 - 90.

التى يفرضها عليهم العرف الاقطاعى. وكانت هذه العملية ـ عملية سحب الثقة من السيد الاقطاعى (Diffidatio) وفسخ العقد العرفى المعقود معه إذا أخل بأصول واجباته ـ من المبادئ الأساسية فى التنظيم الاقطاعى، وبمقتضاها تنصل البارونات الإنجليز من ولائهم وتبعيتهم للملك حنا (١١٦٧ - ١٢١٦)(٥١). أما إذا حدث العكس وأدين الفصل بأنه أخل بواجباته والتزاماته تجاه سيده الاقطاعى، فعندئذ كان يحق للسيد أن يحرمه من إقطاعه ويصادره، على أن هذه الحالة كانت قليلة ونادرة، لأن الحكم بحرمان فصل من اقطاعه كان لايصدر إلا من محكمة تتألف من أنداد الفصل المتهم، الذين يجتمعون فى دوار السيد الاقطاعى أو قلعته للنظر فى القضية. ومن الواضح أنه لم يكن من السهل أن يصدر هؤلاء الأفصال مثل هذا الحكم على ند لهم، إذ يخشى كل منهم أن يرى نفسه فى يوم ما فى موقف زميله المحكوم عليه. وهنا نسجل أن الأفصال كانوا فى كثير من الحالات أرجح كفة من سيدهم الاقطاعى، فإذا اتحدوا ضده فإنه يقف فى هذه الحالة مكتوف اليدين لأنهم جنوده والمصدر الوحيد للقوة التى يستند إليها. هذا إلى أن عقوبة حرمان الفصل من إقطاعه كانت من العقوبات التى يصعب تنفيذها، لأن الفصل كان فى هذه الحالة يستميت فى التمسك بإقطاعه ويحاول إلقاء تبعة الخلاف على سيده الاقطاعى، حتى يحل الإشكال فى النهاية بقوة السلاح(٥٢). أما التهمة التى توجه إلى الفصل ولا يرجى له فيها شفاعة أو غفران، فهى أن يعتدى على سيده الاقطاعى فيجرحه أو يقتله، أو يغرى زوجته أو ابنته على المنكر، ذلك أن المفروض فى الفصل أن يحمى سيده الاقطاعى ويذود عنه وعن عرضه، كما يذود عن نفسه وبيته(٥٣).

خصائص النظام الاقطاعى وأثره:

من الثابت أن المجتمعات الاقطاعية تباينت فى خصائصها ومميزاتها نتيجة لمدى تركيز الحقوق والواجبات الاقطاعية(٥٤). لذلك يبدو أنه من الصعب ـ فى كثير من الأحيان ـ إصدار أحكام عامة تشمل جميع المجتمعات الاقطاعية، لاختلاف عدد

(51) Eyre: op. cit; p. 250.

(52) Stephenson: Med. Hist; p. 238.

(53) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 112.

(54) Eyre: op. cit; p. 246.

الأفصال الذين يتبعون السادة الاقطاعيين من جهة، ولاختلاف مدى اتساع دائرة الحقوق والواجبات الاقطاعية من جهة أخرى. ولكن إذا كان من الصعب التعميم فى الأحكام التى نصدرها على النظام الاقطاعى، إلا أنه من الممكن أن نتتبع الخطوط العريضة لذلك النظام عندما وصل إلى مرحلة النضج فى القرن الثانى عشر.

وأول ما نلاحظه على النظام الاقطاعى أنه يعبر عن التطرف فى اعتماد المجتمع على علاقة التبعية الشخصية التى ترتبط بحيازة الأرض، هذا مع ملاحظة أن العلاقات الاقطاعية بين الأفصال وسادتهم إنما هى روابط بين رجال أحرار بعضهم وبعض. فالفصل فى ظل النظام الاقطاعى رجل حر يتمتع بحريته كاملة - مهما كانت درجته فى سلم هذا النظام. وكل ما هنالك هو أنه ارتبط بعقد عرفى مع سيده الاقطاعى بحيث فرض عليه هذا الرباط مجموعة من الواجبات وحقق له فى مقابلها مجموعة أخرى من الحقوق(٥٥).

ولم تلبث أحكام العرف الاقطاعى التى حددت العلاقات الشخصية بين الأفصال وسادتهم أن تبلورت فى شكل قانون ثابت محدد، وذلك فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عندما غدا النظام الاقطاعى بمثابة المحور الأساسى الذى دارت حوله الحياة العامة فى غرب أوربا(٥٦). وكان أن أخذ يظهر هذا القانون الاقطاعى تدريجيا فى كتابات كبار فقهاء الاقطاع مثال جلانيل Glanvill وبراكتون Bracton فى إنجلترا، وبومانوار Beaumanoir فى فرنسا ، وحنا ابلين فى مملكة بيت المقدس الصليبية، وعندئذ صارت القوانين الاقطاعية بمثابة المرجع الأول الذى اعتمد عليه المعاصرون فى حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية(٥٧).

وكانت أهم مشكلة فى القانون الاقطاعى حينئذ، هى مشكلة تعدد السادة الاقطاعيين للفصل الواحد. فعلى الرغم من أنه كان مفروضا فى أوائل العصر الاقطاعى أن يكون للفصل سيد واحد، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلا، لأن زواج رجل من امرأة ورثت اقطاعا يؤدى إلى استحواذه على ذلك الاقطاع، فيصبح فى هذه

---

(55) Ganshof: op. cit; p.p. XV - XVI.

(56) Cam. Med. Hist; vol, 3. p. 458.

(57) Eyre: op. cit; p. 250.

الحالة فصلا للسيد الذى تتبعه أرض الزوجة، فضلا عن تبعيته الأولى لسيده الأصلى. كذلك إذا دخل ابن فى تبعية سيد اقطاعى آخر غير الذى يتبعه أبوه، ثم مات الأب وورث الابن اقطاعه فإنه يصبح فصلا لسيدين فى وقت واحد[٥٨]. هذا إلى أن كثيرا من السادة الاقطاعيين لجئوا إلى شراء صداقة جيرانهم ومعونتهم عن طريق منحهم اقطاعات، فيصبح المقطع فى هذه الحالة فصلا لسيد جديد، علاوة على سيده الأول. وهكذا صار معظم أصحاب الاقطاعات فى القرن الثانى عشر أفصالا لأكثر من سيد واحد، حتى أن كونت شامبنى كان فصلا لكل من ملك فرنسا، ودوق برجنديا، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة، ورئيس أساقفة ريمس، زيادة على عدد آخر من كبار الأمراء الاقطاعيين[٥٩]. ولاشك فى أن هذا التعقيد الذى أصاب العلاقات الاقطاعية أدى إلى كثير من الفوضى فى أوربا، لاسيما عندما يجد أحد الأفصال أن اثنين من سادته الاقطاعيين التحما فى حرب أحدهما ضد الآخر، مما يتطلب منه تقديم المساعدة إلى الطرفين المتنازعين جميعا[٦٠]، وللتخلص من هذا الوضع صار الفصل الاقطاعى لايقدم ولاءه الشخصى إلا لسيد واحد يختصه بكل خدماته الشخصية، فى حين يكتفى بتقديم بقية الالتزامات المادية - غير الشخصية - لبقية سادته الاقطاعيين، إن وجدوا. وهكذا كان كونت أنجو - مثلا - فصلا لملك فرنسا وكونت Blois ، ولكنه اختص الأول بولائه الشخصى، فإذا اشتبك ملك فرنسا مع كونت بلوا فى حرب فإن كونت أنجو كان عليه أن يساعد ملك فرنسا مساعدة شخصية، فى حين يكتفى بارسال معونة مادية لكونت بلوا[٦١].

كذلك يلاحظ على النظام الاقطاعى فى القرن الثانى عشر أنه أخذ يربط عناصر كل مملكة من ممالك غرب أوربا برباط تعاقدى تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة البناء الاقطاعى. ذلك أن الملوك - بغض النظر عن الحقوق الكثيرة التى تمتعوا بها - أخذوا يفرضون حقوقهم الاقطاعية تدريجيا على أفصالهم، ويتمسكون بهذه الحقوق، مما زاد من قوتهم ونفوذهم، وأدى بالتالى إلى نشأة ما يعرف باسم «الملكيات الاقطاعية»[٦٢].

(58) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 113.

(59) Ibid.

(60) Ganshof: op. cit., p. 92 - 93.

(61) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. p. 113 - 114.

(62) Eyre: op. cit; p. 250.

وثمة ملاحظة أخرى على النظام الاقطاعى فى غرب أوربا، هى أن الكنيسة كان لهـا أثر واضح فى تطور هذا النظام، لاسيمـا فيمـا يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين الأمراء الاقطاعيين، وتوجيه نشاط هؤلاء الأمراء وجهة أخرى تتفق وصالح المجتمع المسيحى. من ذلك ما نادت به الكنيسة من تحريم الحروب فى أوقات معينة أطلق عليها «هدنة الله Treve de Dieu» (٦٣). ويبدو أن رجال الكنيسة آمنوا عندئذ بأن هدفا واحدا هو الذى يجب أن يستأثر بجهود أمراء أوربا وفرسانها، ولم يكن هذا الهدف سوى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فى بلاد الشام(٦٤).

وأخيرا نلاحظ أن النظام الاقطاعى أدى إلى وجود وحدات اقتصادية تكفى نفسها بنفسها، فالضيعة الاقطاعية كانت فى حد ذاتها وحدة مكتفية اكتفاء ذاتيا، الأمر الذى عاق تقدم الحياة الاقتصادية فى بلدان غرب أوربا(٦٥).

وبعد، فإنه من حق النظام الاقطاعى علينا أن نؤكد حقيقة هامة، هى أن هذا النظام لايعنى بأى حال الفوضى أو التعنت الاستبدادى فى أوربا العصور الوسطى. فالنظام الاقطاعى كان قبل شيء نظاما تعاقديا قام على أساس ثابت من الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله. وإذا كان كثير من الكتاب قد فسروا النظام الاقطاعى على أنه اصطلاح مرادف للانحلال السياسى ومناقض للسلطة المركزية، فإن هذا الحكم جائر وبعيد عن الحقيقة والتاريخ. حقيقة أن العصر الاقطاعى جاء مصحوبا بتفكك الإمبراطورية الكارولنجية وما تفرع عنها من أقسام وممالك كبرى، ولكن هذا لم يكن مصدره النظام الاقطاعى نفسه. وليس ذنب النظام الاقطاعى أن الملك الفرنسى كان ضعيفا بدرجة لم تمكنه من بسط نفوذه والتمسك بحقوقه حتى فى أراضيه الخاصة (الدومين) (٦٦). وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نقرر أن النظام الاقطاعى جاء حلا وعلاجا وإجراء طبيعيا لمواجهة الفوضى والأخطار التى واجهت أوربا فى القرن التاسع. وبعبارة أخرى فإن هذا النظام كان الوسيلة الفعالة التى توصل

---

(63) Fliche: L'Europe Occidentale, p. p. 184 - 189.

(64) Painter: Med. Society, p. p. 34 - 35.

(65) Eyre: op. cit; p. 251.

(66) Stephenson: Med. Hist; p. 252.

بها الغرب الأوربى لإيجاد نوع من الحكم يفى بحاجات البلاد الحربية والإدارية والقضائية، وسط الأخطار الجسيمة التى ألمت بالمجتمع الأوربى منذ القرن التاسع(٦٧). وهنا نستطيع أن نقرر أن هذا النظام نجح فعلا فى مقاومة هذه الأخطار بقدر الإمكان، وفى تهيئة الوسائل السلمية لحل المنازعات والخصومات. ذلك أن النظام الاقطاعى - كما سبق أن رأينا - كان له جانبه القضائى إلى جوانبه الحربية والاقتصادية، فقامت بتنفيذ القانون الاقطاعى محاكم الملوك ومحاكم السادة الاقطاعيين ونجحت هذه المحاكم فى إقرار العدالة بصورة واضحة، وفى حل المشاكل الناشئة بين السيد وأفصاله أو بين الأفصال بعضهم وبعض (٦٨). أما المنازعات التى نشبت بين أفصال متعددين لأكثر من سيد واحد، فلم يكن هناك سبيل لحلها إلا المفاوضة أو الحرب. وهناك طريق آخر كثر الالتجاء إليه كوسيلة لحل الخلافات القائمة بين اثنين من أفصال السيد الواحد، هو طريق المبارزة أو التقاتل دون تدخل من جانب السيد الاقطاعى، إلا إذا تعرض أحدهما لخطر يخشى منه عدم تمكنه من النهوض بواجباته الاقطاعية.

أما القاعدة التى قام عليها بناء الهرم الاقطاعى فكانت طبقة الفلاحين التى ظلت تشقى لتقدم ثمرة جهودها وكدها للاقطاعيين(٦٩). وعلى الرغم من أن الفلاح المزارع كان أقل تأثرا بتطور النظم الاقطاعية من الفارس المحارب، إلا أن حياته هو الآخر تأثرت إلى حد كبير بنظام الضيعة (manor) وهو النظام الذى تأثر بدوره تأثرا واضحا بالأوضاع الاقطاعية (٧٠). وربما بدا ذلك فى وضوح بدراسة أحوال المجتمع الأوربى فى ظل النظام الاقطاعى.

---

(67) Thompson: op. cit, vol. 2. p. 699.

(68) Eyre: op. cit; p. 249.

(69) Stephenson: Med. Hist, p. 239.

(70) Eyre: op. cit; p. 251.

الباب الثالث

المجتمع الأوربى
فى ظل النظام الاقطاعى

انقسم المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين. أما الطبقتان الأولتان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية، والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية، والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية، فى حين كانت طبقة الفلاحين تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم المحرومين من النفوذ والثروة. وكان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث مكانتها ووظيفتها المعروفة فى المجتمع، فرجال الدين كان عليهم أن يتعبدوا لله ويوفوا بحاجة الناس الروحية، والنبلاء كان عليهم أن يحكموا ويحاربوا، والفلاحون كان عليهم أن يعملوا ليشبعوا بطون الطبقتين السابقتين[1]. وقد سبق أن تعرضنا للوضع الاجتماعى لرجل الدين، ويقى أن نتكلم عن النبلاء والفلاحين.

المجتمع الحربى والفروسية:

يلمس الدارس لأحوال أوربا فى العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتى الفرسان المحاربين والفلاحين المزارعين، ذلك أنه كان من الصعب النادر أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصبح صاحب اقطاع، ولو كان حرا. وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة، ولكنه يظل مع ذلك وضيعا فى نظر الخاصة بحكم أصله، لاسيما أن الفواصل الاجتماعية وشرف المولد لم تكن وحدها العقبات القائمة فى وجه العامة، وإنما وجدت عقبة أخرى تمثلت فى التدريب الذى كان لايستطيع الفلاحون أن يمروا به. فالمفروض فى أبناء النبلاء - إن لم ينخرطوا فى سلك الحياة الدينية - أن يتدربوا تدريباً عسكريا منذ حداثتهم فيتعلمون ركوب الخيل واستخدام السلاح ومبادئ الفروسية، حتى إذا ما شب الواحد منهم انخرط فى سلك بلاط أحد الأمراء الاقطاعيين كتابع صغير (Valet) أو سيد صغير(Damoiseau)

(1) Thompson: op. cit; vol. 2, p. 721.

ليتعلم آداب السلوك فى المجتمع[٢]. وفى بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقى الفتى إلى مرتبة مساعد فارس، وعندئذ يسمح له بالاشتراك فى المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سنا ليتعلم منهم فن الحرب. فإذا أثبت كفايته وصلاحيته، احتفل فى سن العشرين أو الواحد والعشرين بتدشينه فارسا، فيتم ذلك فى حفل كبير أصبح منذ النصف الأخير من القرن الحادى عشر بمثابة «تعميد» آخر للفارس يكتسب به مكانته فى المجتمع الاقطاعى[٣].

وكانت الفروسية تعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك يجب أن يتحلى بهما أفراد هذه الطبقة من المحاربين فى علاقتهم بعضهم مع بعض. فالفارس ينبغى أن يكون شجاعا إلى درجة المجازفة والتهور، ويقاتل وفقا لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه. هذا بالإضافة إلى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد، وإذا انتصر على خصمه عامله معاملة كريمة[٤]. على أنه يلاحظ أن هذا السلوك اقتصر على معاملة الفرسان والنبلاء بعضهم لبعض، وبعبارة أخرى فإنهم لم يشعروا بضرورة اتباع هذا الأسلوب نفسه تجاه غيرهم من أبناء الطبقات الدنيا[٥].

ويمكن أن نخرج من شعر الملاحم Epic Poetry وأغانى المأثر Chansons de geste بصورة واضحة عن حياة النبلاء الاقطاعيين وأحوالهم فى العصور الوسطى. ومن أمثلة هذه الآثار أغنية رولان التى كتبها قسيس نورمانى من وحى الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فى أواخر القرن الحادى عشر[٦]. وتدور قصة هذه الأغنية حول شخص رولان ـ كونت ماركيه بريتون ـ الذى خر صريعا فى ممرات البرانس عند عودة شارلمان من حملته الإسبانية، وما صحب هذه العودة من تعرض مؤخرة جيشه لهجمات جماعة الباسك، وإن كانت الملحمة تصور المسلمين فى صورة الخصم لتبرز رولان فى هيئة البطل الصليبى المدافع عن المسيحية وكيانها[٧].

(2) Stephenson: Med. Feudalism., p.p. 45 - 46 & Cam, Med. Hist, vol 6. p. 802.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 625.

(4) Stephenson: Med. Feudalism., p. 45

(5) Stephenson: Med. Hist: p. p. 239 - 240.

(6) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale, p. 212.

(7) Painter: Med. Society, p. 41.

وترجمع أهمية هذه الأنشودة التى ذاع صيتها من إيرلندا حتى بيت المقدس إلى أنها تمدنا بكثير من المعرفة عن المثل الاقطاعية فى العصور الوسطى. ذلك أن الفكرة الأساسية التى سيطرت على أغنية رولان هى فكرة التبعية الاقطاعية، وارتباط الفصل بسيده وأخلاصه له، فيبدو رولان مخلصاً لسيده شارلمان يحارب من أجله فى الوقت الذى يحارب أيضاً من أجل نفسه ومن أجل الحصول على الشهرة والمغانم. وفى خلال حوادث القصة يبدو رولان قاسيا على خصومه ، شديد الرفق بأصدقائه(٨) .

على أن هناك مصدرا آخر هاما يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن الحياة الاجتماعية للطبقة الحربية فى مجتمع أوربا الاقطاعى. ونقصد بهذا المصدر مطرز بايو Bayeux المحفوظ فى متحف بايو حتى اليوم والذى صنع من أجل تحلية كتدرائية المدينة. ويبلغ عرض هذا المطرز عشرين بوصة وطوله أكثر من مائتين وثلاثين قدما، وهومحلى برسوم ملونة تصف الغزو النورمانى لإنجلترا فى القرن الحادى عشر. وترجع أهمية هذه الرسوم إلى أنها تعطينا صورة واقعية عن الحياة الاجتماعية فى القرن الحادى عشر، سواء فى الملابس أو النشاط الحربى أو العادات المنزلية(٩) .

أما عن الملبس فكان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة، الأولى عبارة عن صدار يربطه حزام من الوسط، والثانية أشبه شىء بسراويل مشدودة على الساقين والفخذين بإحكام. وأحيانا فى حالات البرد أو الحتفالات يرتدى الرجل معطفا يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف. وكان الرجال يقصرون شعور رؤسهم ويحلقون ذقونهم. أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه. وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد. ومن هذا يبدو أن ملابس طبقة المحاربين - حتى الأغنياء منهم - كانت بسيطة(١٠) .

---

(8) Stephenson: Med. Feudalism., p. p. 50 - 51.

(9) Stephenson: Med. Hist; p. 263.

(10) Stephenson: Med. Feudalism; p. p. 61 - 62.

أما رداء الحرب، فكان أيضاً بعيدا عن التعقيد والتأنق، فالفارس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطه من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى أسفل الساق لتقوم مقام الجرموق (الألشين أو التزلك) فى الأزمنة الحديثة[١١]. أما الجزء الأعلى من جسم الفارس فكانت تكسوه صدرة مزردة (hauberk) تتألف من حلقات متداخلة من المعدن[١٢]. ويراعى فى هذه الصدرة أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس من امتطاء فرسه. وأخيراً كان يلبس الفارس على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمل أنف الفارس. هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر، وهو مستطيل الشكل ويبلغ طوله أربعة أقدام تقريبا.

ومن الواضح أن الرداء السابق دفاعى، الغرض منه حماية الفارس وصيانة جسده، ولذلك كان لابد من أن يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحه هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومه. أما هذه الأسلحة فكان أهمها سيف صليبى المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر، ثم حربة يمسكها الفارس بيده اليمنى طولها ثمانية أقدام، هذا عدا البلطة التى كثيرا ما استخدمها الفرسان لاسيما فى إنجلترا وفرنسا[١٣]. ولم يكن من الضرورى أن يتقيد الفارس بلبس الرداء السابق فى حله وترحاله بسبب ثقله، ولذلك جرى العرف على أنه لا يجوز مهاجمة فارس إلا بعد إعطائه فرصة ليرتدى رداءه الحربى[١٤].

أما الفرس الذى يمتطيه الفارس فكان مطهما مزودا بالسرج والركاب واللجام. ولعله من الواضح أن الفرس كان يمثل الجهاز الأساسى للفارس وبدونه لايعتبر الفرد فارسا[١٥]. كما أن المجتمع الاقطاعى ظل ينظر شذرا إلى المحارب الذى يقاتل راجلا[١٦].

ولعل هذه الحقائق السابقة تساعدنا على فهم طبيعة الحروب الاقطاعية. فالخدمة

(11) Thompson: op. cit; vol, 2, p. 714.
(12) Cam, Med. Hist; vol. 6. p. 808.
(13) Stephenson: Med. Feudalism, p. p. 63 - 64.
(14) Painter: Med. Society, p. 32.
(15) Stephenson: Med. Feudalism, p. 41.
(16) Idem, p. 43.

العسكرية كانت تتطلب من فارس العصور الوسطى نفقات باهظة، إذ ينبغى أن يكون لديه طاقم كامل من الملابس الحربية الثقيلة، وفرس مطهم، وتابع أو مساعد بمطيته، وعدد من الخدم، فضلا عن قدر كاف من الطعام يكفى هذه المجموعة وحيواناتها طيلة مدة القتال. وهكذا هيأ هذا النظام للحاكم أو للسيد الاقطاعى جيشا قويا بأقل قدر من النفقات. أما روح النظام فكانت ضعيفة فى الحروب الاقطاعية، إذ اعتقد كل فارس أنه زميل وحليف للقائد أكثر منه مرءوسا له[١٧]. هذا إلى أن الحرب من أجل السيد الاقطاعى كانت لا تمنع الفارس من الحرب من أجل نفسه. والواقع أن الحرب الاقطاعية كانت عبارة عن مناوشات بين فريقين ومحاولة لتدمير أراضى العدو، أكثر منها حربا منظمة بالمعنى الذى نعرفه، وقد دار الجزء الأكبر من هذه الحروب الاقطاعية فى الحصون أو حولها[١٨].

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا الحرب. لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذى قد يعتريهم فى حالة عدم وجود حرب حقيقية. وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تستهدف إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات والدماء. ففى اليوم والوقت المحددين يلتقى فريقان من الفرسان ينتمون عادة إلى بيتين أو إقليمين متنافسين[١٩]. وبعد ذلك تبدأ المبارزة بين الفريقين وفقا لقواعد معلومة ثابتة، حتى ينتهى الموقف بإعلان فوز أحدهما على الآخر، ويحصل الفارس الفائز فى هذه الحالة على نصر معنوى ومادى كبير لأنه علاوة على ما يصيبه من صيت ذائع وشرف عريض، يستولى أيضاً على فرس خصمه وأسلحته أو على مبلغ من المال مقابل هذه الأشياء[٢٠].

أما الحصون الاقطاعية، فكانت فى أول الأمر بمثابة المعاقل التى يلوذ بها أهل المنطقة فرارا من هجمات الأعداء وبخاصة الفيكنج. ولكن هذه الحصون تطورت مع تطور النظم الاقطاعية حتى غدا الحصن الاقطاعى مقر للسيد وحاميته، كما صارت الحصون تشيد منذ نهاية القرن العاشر من الكتل الحجرية الضخمة لتستطيع الثبات فى

(17) Stephenson: Med. Hist., p. 241.

(18) Idem, p. 242.

(19) Painter: Med. Society, p. 28.

(20) Stephenson: Med. Feudalism, p. 74.

وجه المهاجمين. وهكذا صارت الحصون الاقطاعية مسرحا لجزء كبير من النشاط الاجتماعى لطبقة الفرسان فى العصور الوسطى، إذ لم يعد الحصن معقلا فحسب بل أضحى المقر الطبيعى لإقامة الأمير الاقطاعى وأتباعه(٢١).

وكان الطابق الأسفل من الحصن أو القلعة الاقطاعية يحوى الآبار ومخازن الطعام والأسلحة والعدد الحربية الثقلة اللازمة لمقاومة حصار طويل، والطابق الأعلى من القلعة مخصص لقذف السهام وغيرها على العدو المهاجم، فى حين استخدم الطابق الأوسط لإقامة السيد الاقطاعى وأسرته. وفى هذا الطابق الأوسط وجدت قاعة فسيحة وكنيسة صغيرة وعدد من الغرف المنفصلة(٢٢). أما الطعام فكان يطهى فى مطابخ خارجية ثم يحمله الخدم مطهيا إلى الداخل. وهنا نشير إلى أن الأمير الاقطاعى كان يقضى وقت السلم عادة فى التنقل بين ضياعه الواسعة المجهز كل منها بدوار (manor-house) مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة. وعلى الرغم من أن كل دوار كان مزودا عادة بما يكفى من أثاث وحاجيات أساسية، إلا أن الأمير كان يجلب معه عند حضوره إلى إحدى ضياعه، كثيرا من اللوازم الإضافية. هذا إلى أن كثيرا من السادة الاقطاعيين كانوا لايمتلكون حصونا. ومن ثم اتخذوا الدوار مقرا دائماً لهم(٢٣).

ومهما يكن الأمر فإن مركز الحياة المنزلية عند النبلاء الاقطاعيين كان القاعة الكبيرة التى توجد فى الحصن، أو الدوار(٢٤). ومن الواضح أن هذه القاعة كانت جميلة ومريحة بالقدر الذى يتفق ومستويات العصور الوسطى، ففيها شموع للإضاءة ومواقد مكشوفة للتدفئة، وعلى حيطانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ونحوها، فى حين فرشت أرضها بالحصر. وفى هذه القاعة كان يجلس السيد الاقطاعى ليتقبل التبعية والخضوع من أفصاله، أو ليعقد معهم مجلسا قضائيا أو غير قضائى(٢٥). أما سهراته فكان يقضيها فى لعب الشطرنج والاستماع للرواة والقصاص الذين يقومون بسرد الملاحم والمنظومات القصصية القديمة أو التمثيليات الدينية(٢٦). وفى نهاية الليل

(21) Evans: La Civilisation en France, p. 48.

(22) Stephenson: Med. Feudalism., p. 70.

(23) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 57.

(24) Painter: Med. Society, p. 30.

(25) Evans: La Civilisation en France Au Moyen Age, p. 48.

(٢٦) محمد مصطفى زيادة: الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص ٣٢ – ٣٣.

يأوى السيد وأسرته إلى غرفهم المخصصة للنوم، وعندئذ يحضر الخدم والحاشية وسائدهم المصنوعة من القش لينامو فى هذه القاعة حتى الصباح.

أما الطعام والشراب فكانا بعيدين عن الاعتدال. ومن المعروف أن الشراب المفضل فى جنوب أوربا - حيث تكثر مزارع الكروم - هو النبيذ، فى حين تسود الجعة فى الجهات الشمالية. وقد تألف طعام السيد الاقطاعى من لحوم الصيد - الغزال أو الخنزير البرى - مشوية، وبجانبها لحوم الحيوانات المألوفة كالضأن ولحم البقر، هذا عدا الطيور والفطائر والخضر والفاكهة(٢٧). أما فى أيام الصيام - حيث المفروض أن تحتجب اللحوم عن مائدة الطعام - فكانت الصحون تكتظ بالأسماك والبيض. ومن الطبيعى أن يكون الخبز والجبن من الأصناف المألوفة. وعلى العكس كانت الحلوى نادرة، لأن أوربا لم تعرف قصب السكر حينئذ، فاعتمدت فى تحلية الطعام على عسل النحل وحده. أما التوابل المستوردة من الشرق - كالفلفل - فكانت لا تتوافر إلا فى طعام كبار الأمراء(٢٨). والمرجح أن أمراء أوربا وفرسانها لم يعرفوا الكثير من آداب تناول الطعام فى تلك العصور.

وفيما عدا المبارزة، اعتاد الأمراء أن يقتلوا الوقت أيام السلم بالتلهى بالصيد وغير ذلك من وسائل التسلية. لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيوانات الصيد، كما اعتادوا أن يصحبوا معهم نسائهم عند خروجهم للصيد.

أما إذا تطلبت الظروف أن يبقى السيد الاقطاعى داخل منزله أو قلعته، فإنه فى هذه الحالة يقضى شطرا كبيرا من وقته فى معاقرة الخمرة، والمقامرة، ولعب الشطرنج الذى عرفته أوربا عن طريق الحروب الصليبية. ومن الطبيعى ألا يكون لأفراد المجتمع الحربى من الاقطاعيين ولع بالقراءة والاطلاع، بل إن أكثرهم جهلوا القراءة والكتابه، واحتفظوا ببعض الكتبة الذين لا يعرفون أكثر من المبادئ الأساسية لضبط حسابات المزارع والضياع الخاصة بالأمير(٢٩).

---

(27) Painter: Med. Society, p. 30.

(28) Stephenson: Med. Hist, p. 267 - 268.

(29) Stephenson: Med. Hist, p.p. 269 - 270.

المجتمع الزراعى ونظام الضيعة:

ذكرنا أن المجتمع الاقطاعى قام حول ثلاث شخصيات هامة. رجل الدين المتعبد والفارس المحارب والفلاح المزارع. وعلى الرغم من أن الفلاح كان أقل تأثراً بتطور النظم الاقطاعية من الفارس، إلا أن حياته تكيفت إلى حد كبير بتلك النظم وتطورها(٣٠).

وإذا كان النظام الاقطاعى هو الذى حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة، فإن هناك نظام آخر هو النظام السنيورى أو نظام السيادة Seignorial System حدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين والعمال، مع ملاحظة الرباط الوثيق الذى يربط النظامين ويصل بينهما، وهو رباط الأرض(٣١). فالنظام السنيورى الخاص بالفلاحين وتنظيم العلاقة بينهم وبين الملاك الاقطاعيين لايدخل فى صلب التنظيمات الاقطاعية وإنما يأتى على هامشها. ذلك أن النظام الاقطاعى قام على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه، وذلك فى ظل إطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة. أما النظام السنيورى فعلى العكس يمثل علاقة سيد حر يمتلك الأرض بمزارعين مرتبطين بالأرض(٣٢). فالعلاقة هنا بين سيد حر وفلاح خاضع مقيد بالأرض غير حر، لا بين تابع حر ومتبوع حر(٣٣). أما لماذا ارتبط الفلاح أو المزارع بالأرض، فإنما كان من أجل القيام بخدمات معينة ودفع ضرائب معلومة للسيد الاقطاعى المالك. فإذا عجز عن الوفاء بهذه الخدمات والأموال - مهما كانت شاقة وباهظة - فإنه فى هذه الحالة يكون عرضه لأن يلفظه المجتمع الذى يعيش فيه عن طريق الاستبدال أو الطرد أو غير ذلك. وكانت عقوبة الطرد أشدها جميعا وأقساها، لأن معنى طرد الفلاح أو المزارع أنه سيصبح دون سيد يحميه مما يعرضه لأخطار بالغة فى عصر عرف بالفوضى وعدم الاستقرار(٣٤).

والواقع أن الفلاحين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدرا فى أوربا

---

(30) Eyre: op. cit, p. 251.

(31) Painter: Med. Society, p. 43.

(32) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale au Moyen Age, p. 16.

(33) Thompson: op. cit; vol, 2, p. 722.

(34) Idem vol 2, p. 716.

العصور الوسطى. ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا إلى حد كبير فى ظروفهم وأحوالهم، إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما فى أصولهم وفى مدى الحرية التى تمتعوا بها[٣٥]. وتكونت طبقة الفلاحين فى أساسها من الرقيق Slaves والأقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعا، فاختلطوا عن طريق ذوبان الرقيق وانصهارهم وسط محيط الأقنان[٣٦]. ثم كانت فترة الظلام الذى ساد أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية من جهة، والإغارات الخارجية العنيفة التى تعرض لها الغرب من جهة أخرى، مما جعل الضعيف يبحث عن حماية القوى، حتى ولو كلفه ذلك أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل سلامته، مما ساعد على ظهور طبقة جديدة من الأقنان يرجع أفرادها إلى أصل حر، ولكن الظروف التى أحاطت بهم أجبرتهم على قبول ذلك الوضع الجديد. وقد سرد أحد كتاب العصور الوسطى الطرق المختلفة التى أصبح بها الحر رقا، فقال أن أولها استرقاق الفرد عقابا له لعدم تلبيته داعى الحرب، وثانيها أن يهب الفرد نفسه للكنيسة أو للدير ليصبح رقا مرتبطا بهذه الهيئة الدينية. وثالثها البيع إذ تدفع الحاجة فردا إلى أن يبيع نفسه لسيد غنى مقابل مبلغ من المال، ورابعها أن يضطر الضعيف إلى التنازل عن حريته لسيد قوى يحميه من الأخطار التى تهدده[٣٧]. ومهما يكن الأمر، فإن هذه الفئة الجديدة من الأقنان لم تلبث أن اختلطت بفئة الرقيق القديمة لتنشأ منهما جميعا طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضع اجتماعى ثابت فى الحياة الأوربية[٣٨].

وإذا كان النظام الاقطاعى لم يتحدد شكله ويتم تكوينه فى الغرب إلا فى القرنين التاسع والعاشر، فإن الفضل يرجع أيضًا إلى هذين القرنين فى تحديد نظام الضيعة Manorial Regime أو النظام السنيورى. ففى القرنين التاسع والعاشر ازدادت أعداد من فقدوا حريتهم حتى دخلت قرى حرة بأكملها فى دائرة الاسترقاق وأخذت ملكيات صغار المزارعين تتكتل فى أيدى كبار الاقطاعيين[٣٩]. حقيقة أن النظام الضيعى

(35) Cam, Med. Hist; vol 7, p. 719.
(36) Heaton: Economic Hist., of Europe. p. 71.
(37) Coulton: The Med. Scene, p. 26.
(38) Cam, Med. Hist; vol 7, p. p. 719 - 720.
(39) Thompson: op. cit., vol, 2, p. 722.

نفسه قديم، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية بل ربما كلتية أيضا، ولكن الجديد هو أن أوربا العصور الوسطى اتخذت هذا النظام أساسا للحياة الاقتصادية، فى الوقت الذى تلاشت أهمية المدن وضعفت التجارة. فإذا كان الرومان قد عرفوا نظام الضياع، فإنهم عرفوه على أساس اعتماد هذه الضياع على التبادل التجارى مع المدن الزاهرة التى اشتهرت بها الحضارة الرومانية، فتصدر الضياع إلى المدن انتاجها الزراعى وتستورد منها انتاجها الصناعى. أما فى أوربا العصور الوسطى، فقد أصبحت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها لاتربطها روابط تجارية بغيرها، وعلى أهلها أن يعتمدوا على سواعدهم فى كل ما يحتاجون إليه(٤٠).

على أنه يجدر بنا أولا أن نتسائل عن ماهية الضيعة (Manor) التى نقصدها فى هذا البحث. هنا نستطيع القول بأن الضيعة كانت وحدة نظام الملكية الزراعية فى تلك العصور، بالضبط كما كان الاقطاع وحدة النظام الاقطاعى، بمعنى أن الاقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع. وكانت الضيعة أشبه شيء بمملكة أو عالم صغير يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، وتمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى، بحيث يشبع إنتاج الضيعة السيد والمسودين جميعا(٤١). فالضيعة فى أوربا العصور الوسطى كانت تكفى نفسها بنفسها إلى حد كبير، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها، ما عدا بعض الكماليات. كالتوابل التى يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها إذا أراد أن يستخدمها(٤٢). أما الصوف فكانت النساء تقمن بصباغته وغزله فى فصل الشتاء، فى حين قام الرجال بدبغ الجلود وصناعة النعال والسروج. وفيما عدا ذلك كان لكل ضيعة حدادها ونجارها(٤٣). وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت غالبية أقنان الضيعة قد اشتغلوا بفلاحة الأرض، فإن هناك جزءا من هؤلاء الأقنان اشتغلوا بسد حاجيات الضيعة من مختلف المصنوعات اليدوية(٤٤).

---

(40) Pirenne, Cohen, Fccillon: op. cit; p. p. 12 - 13 & Pirenne: Economic and Social Hist., p. p. 8 - 9.

(41) Boissonnade: op. cit; p. 85.

(42) Eyre: op. cit; p. 252.

(43) Coulton: The Med. Scene; p. p. 32 - 33.

(44) Boissonnade: op. cit; p. 179.

وهكذا ظلت الضيعة فى أوربا العصور الوسطى تتبع نظام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، بمعنى أنها ظلت - حتى القرن الثانى عشر على الأقل - فى غير حاجة ملحة إلى شيء من التبادل التجارى مع العالم الخارجي، الأمر الذى ترتب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية فى ذلك العصر(٤٥). هذا مع ملاحظة أن الضيعة لم تكن وحدة اقتصادية فحسب، بل كانت أيضاً وحدة اجتماعية ودينية، فاشترك أهلها فى إحياء حفلاتهم وتزاوجوا - عادة - بعضهم من بعض، كما كانت لكل ضيعة كنيستها وقسيسها(٤٦). وخلاصة القول أن الضيعة كانت الطريق الذى توصلت به الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر للحصول على لقمة العيش(٤٧). كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم إلى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى، فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والإدارية والروحية(٤٨).

ولم يكن نظام الضيعة بسيطا بالدرجة التى قد يتصورها البعض، بل بلغ هذا النظام درجة من التعقيد تجعلنا نكتفى باستعراض معالمه الرئيسية. وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الضيعة قد تألفت فى العادة من قرية وأراضيها، إلا أننا نجد زمام القرية الواحدة - فى بعض الحالات - مقسما بين عدد من السادة الملاك، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص به اسم «ضيعة»، كما نجد فى حالات أخرى تجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة. ولعل هذه الاستثناءات هى التى دفعت بعض الكتاب المحدثين إلى تفضيل اسم «القرية» للدلالة على الوحدة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الريفى فى أوربا العصور الوسطى، بدلا من اسم «الضيعة»(٤٩). أما كولتون فيقول أن القرية كانت الوحدة الإدارية والكنسية فى حين كانت الضيعة الوحدة الاقتصادية. حقيقة أن مصطلحى الضيعة والقرية كثيرا ما يستخدمان فى معنيين مترادفين، ولكننا نجد فى حالات أخرى عديدة أن القرية ضمت داخل زمامها ضيعتين أو أكثر(٥٠).

(45) Painter : Med. Society, p. p. 46 - 47.
(46) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 59.
(47) Eyre: op. cit; p. 252.
(48) Cam, Med. Hist; vol 3, p. 473.
(49) Painter: Med. Society, p. 54.
(50) Coulton: The Med. Scene; p. 24.

وكانت هذه الضياع مملوكة بالواحدة أو بالجملة، فامتلك الدير الفلانى عشرين ضيعة، وامتلكت الأسقفية الفلانية أربعين ضيعة، وامتلك الأمير الفلانى خمس ضيعات. وربما بعدت هذه الضياع - المملوكة لفرد واحد أو هيئة واحدة - بعضها عن بعض خمسين أو مائة ميل، مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على أساس مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بمالك معين، قد يقيم بعيدا عنها فى بعض الأحيان(٥١). ومن الواضح أنه إذا كان المالك يمتلك ضيعة واحدة، فإنه كان فى هذه الحالة يعيش فى دواره القائم بهذه الضيعة، معتمدا على ما تدره ضيعته من إيراد وخيرات. أما إذا امتلك أكثر من ضيعة، فإنه كان يختار إحداها لإقامته، ويعين مشرفين أو وكلاء ينوبون عنه في بقية الضياع. وفى معظم الحالات كان المشرف (bailiff) الذى ينوب عن صاحب الضيعة فى أدارتها يقيم فى دوارها الرئيسى (manor-house) (٥٢).

وكان هذا الدوار يمثل قسطا وافرا من الثراء والترف بالنسبة لمستويات ذلك العصر. وجرت العادة أن تحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن التى يحزن فيها أنتاج الضيعة، فضلا عن الآلات والعربات والعدد المستخدمة فى فلاحة أراضيها(٥٣). وعلى مقربة من الدوار قامت كنيسة محلية ملحق بها منزل قسيسها. وفى كثير من الأحيان كان الدوار والكنيسة هما المبنيان الوحيدان المشيدان من الطوب فى الضيعة. أما الحقل الخاص بالقسيس فيكون بعيدا عادة عن أراضى السيد التى يقوم الأقنان بفلاحتها ، وإن كان الأقنان هم الذين يقومون أيضًا - فى غالبية الأحيان - بفلاحة أرض القسيس(٥٤). ومن مجموع الضياع التى يمتلكها السيد الاقطاعى تألف ما يعرف باسم الدومين، الذى يمثل المصدر الحقيقى لقوته ونفوذه(٥٥).

أما الفلاحون فكانوا يعيشون فى أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها، غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ. واتصفت هذه الأكواخ

(51) Gras: The Lagacy of the Middle Ages, p. 435.

(52) Cam, Med. Hist; vol 7, p. 719.

(53) Stephenson: Med. Hist., p. 259.

(54) Thompson: op. cit; vol. 2, p. p. 723 - 724.

(55) Boissonnade: op. cit; p. 85.

بالقذارة وحقارة أثاثها، الذى تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبى عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة، ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات الثلاثة أرجل، وصندوق، وقليل من الأوانى الحديدية والفخارية(٥٦) . ولم تستخدم أية وسيلة صناعية لإضاءة هذه الأكواخ، لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار السيد صاحب الضيعة، هذا فضلا عن خطر الحريق فى قرية من هذا النوع القابل للاشتعال. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفلاح لم يكن لديه ما يعمله بعد غروب الشمس، فهو لا يعرف القراءة والكتابة، وعليه أن ينهض صباحا مع شروق الشمس ويأوى إلى فراشه مبكرا مع غروبها(٥٧) . وعند طهى الطعام أثناء النهار، كان الدخان يتصاعد من فتحة صغيرة فى سقف الكوخ، ولكن المطر كثيرا ما صار يتسرب من هذه الفتحة ليجعل أرضية الكوخ فى حالة زلقة موحلة. أما فى الصيف فكان يتم طهى الطعام خارج الأكواخ فى مكان عام بالقرية مخصص لذلك، حيث تعلق قدور الطهى فى قضبان عالية فوق النار. وكان الفلاح هو الذى يبنى كوخه ويصنع أثاثه، فى حين تقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام وغزل الصوف وصناعة ما يتدثرون به من ثياب بحيث لم يكن فى حاجة إلى شراء شىء من غيره(٥٨) . وهكذا عاش الفلاحون فى أوربا العصور الوسطى فى ظروف صعبة غير صحية مما أدى إلى انتشار كثير من الأوبئة والأمراض بين حين وآخر(٥٩) .

وكانت الضيعة الواحدة تضم أنواعا مختلفة من الأفراد على درجات متفاوتة من الحرية. واختلفت أعمالهم والوجبات المفروضة عليهم باختلاف درجاتهم. وباستثناء الرقيق الذين قد يكونون بالضيعة، والذين اقتصر عملهم على الخدمة المنزلية داخل دوار السيد الاقطاعى دون أن تكون لهم وظيفة خارجية، حتى أخذوا ينقرضون من المجتمع الأوربى منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر(٦٠)، فإنه وجد داخل الضيعة أحيانا بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون مساحات من الأرض مقابل

---

(56) Idem: p. 98.

(57) Thompson: op. cit; vol. 2. p. 723.

(58) Boiossonnade: op. cit., p. 102.

(59) Eyre: op. cit., p. 254.

(60) Heaton: Economic Hist., of Europe. p. 90.

دفع رسوم معينة، ولهم حرية بيعها أو شرائها(٦١). وكان أهم ما ميز هؤلاء المزارعين الأحرار حقهم فى حمل السلاح، وفى تزويج بناتهم، أو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت دون التقيد بموافقة السيد الاقطاعى، زيادة على حريتهم فى بيع مواشيهم وفق ما تطلبته مصالحهم الخاصة(٦٢). على أن معظم فلاحى الضيعة كانوا من الأقنان المرتبطين بالأرض، والذين يولد الواحد منهم ليجد أباه مرتبطا بأرض معينة فيرتبط هو الآخر بنفس الأرض ولا يستطيع تركها، متحملا ما يفرض عليه من أعباء ومهام شاقة(٦٣). ومهما اختلفت أصول هؤلاء الأقنان فإن تفاوت أنصبتهم من الحرية كان ضئيلا لأنهم كانوا جميعا مقيدين بقيود شديدة تجعلهم غير أحرار(٦٤). فالقن فى الضيعة كان يتحتم عليه حلق شعر رأسه، لأن الشعر القصير أو الطويل من مميزات الأحرار(٦٥)، كما كان لا يستطيع أن يدعى حق الملكية الشخصية، لأن كل ما يمتلكه يعتبر خاصا بالسيد الاقطاعى صاحب الضيعة. ولكن يلاحظ فى الوقت نفسه أن هذا القن لم يكن رقيقا بمعنى الكلمة، لأن سيده كان لا يستطيع التصرف فيه بالبيع مثلا أو أذيته جسمانيا دون ذنب أو محاكمة(٦٦). وعلى هذا نستطيع القول بأن القن لم يكن رقا ولا حرا، وإنما كان بين هذا وذاك، فهو لا يتمتع إلا بقليل من الحقوق المدنية قبل سيده. ولكنه - خارج نطاق علاقته بسيده - يعتبر فى نظر الدولة والكنيسة حرا، له ما للأحرار من حقوق وإرادة، وحرية فى عقد أى إتفاق مع غيره(٦٧). ثم أنه من الخطأ أن نظن أن مصالح الغالبية من أقنان الضيعة كانت تهدر فى سبيل مصلحة السيد الاقطاعى صاحب الضيعة، لأن الواقع هو أن الضيعة تألفت من مجتمع ريفى له حكومة ذاتية وإدارة إقطاعية تنظمه وتسيطر عليه، لتحقق الخير لجميع أهاليه وتنظم أسباب العيش لهم، فضلا عن تزويد السيد الاقطاعى بما يطمع فيه من أرباح(٦٨).

وقد تفاوتت الضياع، واختلفت بعضها عن بعض فى المساحة وعدد السكان،

---

(61) Eyre: op. cit., p. 258.

(62) Heaton: op. cit., p. 91.

(63) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 58.

(64) Stephenson: Med. Hist., p. p. 255 - 256.

(65) Boissonnade: op. cit., p. 99.

(66) Painter: Med. Society, p. 55.

(67) Cam: Med. Hist., p. 479.

(68) Cam: Med. Hist., vol. 3 , p. 474.

فالضيعة الصغيرة ضمت حوالى خمس عشرة أسرة، فى حين ضمت الكبيرة نحو من خمسين أو ستين أسرة. واختصت كل أسرة من هذه الأسر بحصة ثابتة، أو نصف حصة، أو ربع حصة، أو ثمن حصة، تبلغ مائة وعشرين فدانا أو ستين أو ثلاثين أو خمسة عشر. كذلك اختلفت الحقوق والواجبات التى تحققت أو التزمت بها هذه الأسر وفق مساحة حصتها[٦٩]. على أنه يلاحظ أن هذه الأراضى كانت توزع على الفلاحين بشروط وقيود، لأنها فى الحقيقة ملك للسيد الذى يمتلك الضيعة ومن فيها من أقنان. ولذلك سميت (Tenures) [٧٠]. بمعنى القابض أو الممسك لأن الأرض هى التى تمسك بالقن وتربطه بها، وليس هو الذى يمسك بالأرض ويربطها بشخصه[٧١].

على أنه من المهم أن نلاحظ أن الضيعة لم تكن مجرد مجموعة من الأكواخ يتوسطها دوار السيد الاقطاعى، وتحيط بها الأراضى الزراعية والمراعى والغابات. وإنما كانت الضيعة فى حقيقة أمرها اتحادا أو هيئة متعاونة من الفلاحين تعمل سويا فى فلاحة الأرض واستغلالها، وسد كفايتهم من حاصلاتها. فمزارعوا الضيعة الواحدة كانوا يشتركون بعضهم مع بعض فى تحديد موعد حراثة الأرض، وبذر البذور فيها، وجمع المحصول منها، بل فى تقرير أنواع المحصولات التى يزرعونها[٧٢]. وبالإضافة إلى الأراضى الزراعية المقسمة إلى حصص بين الفلاحين، وجدت أرض مشاعة تشمل مراعى لرعى الماشية، ومروجا تهيأ لها طعاما فى الشتاء، فضلا عن الغابة التى يحصل منها أهل الضيعة على ما يلزمهم من أخشاب[٧٣]. ولم تكن هذه الأرض المشاعة مقسمة إلى حصص مثل الأرض الزراعية، وإنما كانت من الوجهة القانونية تابعة للسيد، ومن ناحية العرف حقا مشاعا لجميع أهل القرية[٧٤]. ومع ذلك فقد وضعت عدة قيود تحدد أوقات الرعى ونوع الماشية وعددها، بحيث تتمتع كل أسرة بنسبة مالها من أرض زراعية، وذلك مراعاة للعدالة من ناحية، وضمانا لحماية المرعى من سوء الاستهلاك من ناحية أخرى[٧٥]. وثمة ملاحظة أخرى على توزيع

(٦٩) محمد مصطفى زيادة: الاقطاع والعصور الوسطى ص ١٠٤.

(٧٠) من اللفظ اللاتينى (tenere) بمعنى يمسك.

(71) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 726.

(72) Painter Med. Society, p. 47.

(73) Heaton: op. cit., p. p. 103 - 104.

(74) Painter Med. Society, p. p. 44 - 45.

(75) Cam: Med. Hist; vol. 3 , p. 474.

أراضى الضيعة واستغلالها، وهى أن السيد الاقطاعى كان لايقسم جميع أراضيها الزراعية بين الفلاحين إلا بعد أن يحتفظ لنفسه بمزرعة خاصة (demesne)، تبلغ مساحتها عادة ثلث الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة(٧٦). وتمد السيد الاقطاعى بكل ما يحتاج إليه من ضروريات الحياة(٧٧).

أما الطريقة التى اتبعت فى فلاحة أرض الضيعة، فتمثل دورة زراعية محكمة، تعرف بالحقول الثلاثة (Three Fields) ذلك أن جميع الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يزرع فى الربيع، وقسم يزرع فى الخريف، والقسم الثالث يترك مراحا بغير زرع. وفى كل سنة يحدث تبادل بين هذه الأقسام، فأرض الخريف تترك فى العام التالى مراحة بغير زرع، وأرض الربيع. تزرع فى الخريف، والأرض التى كانت مراحة فى العام السابق تزرع فى الربيع. وهكذا اتبعت أوربا العصور الوسطى نظام الدورة الثلاثية فى الزراعة، لعدم إجهاد الأرض من ناحية والحصول على محصول طيب من ناحية أخرى(٧٨). على أنه يبدو أن نظام الدورة الثلاثية هذا لم يستخدم فى أوربا العصور الوسطى إلا فى المناطق الخصبة الأكثر تقدما، أما غيرها من المناطق فقد شاع فيها نظام الدورتين فتقسم الأرض إلى قسمين، أحدهما يزرع والآخر يترك مراحا بالتناوب(٧٩).

وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها، وبخاصة أيام الحرث والحصاد، لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانات المادية التى تمكنه من العمل بمفرده فى هذين الموسمين(٨٠). فإذا فرض أنه امتلك محراثا فإنه كان لايمتلك الثيران اللازمة لسحبه، ولا سيما أنه كان من العسير شق الأرض الصعبة بالمحراث البدائى المعروف حينئذ، هذا إلى أن الثيران التى عزفتها أوربا العصور الوسطى لم تكن سمانا قوية كالتى نعرفها اليوم، وإنما كانت عجافا هزيلة، بحيث أثارت تغذيتها بالكلأ والحشائش مشكلة دائمة فى ضيعة العصور الوسطى(٨١). لذلك كانت تربط

(76) Painter Med: Society, p. 50.
(77) Boissonnade: op. cit; p. p. 86 - 87.
(78) Heaton: op. cit; p. p. 101 - 102.
(79) Painter: Med. Society, p. 44.
(80) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 61.
(81) Painter Med: Society, p. 45.

جميع ثيران الضيعة - وهى عشرون أو أكثر - فى المحراث، لتعمل سويا فى حرث الأرض، الأمر الذى تطلب من الفلاحين تعاونا واشتراكا فى حرث جميع أراضيهم(٨٢) . وهذا التعاون نفسه كان مطلوبا أيضًا فى وقت الحصاد. لأن الشيلم والحنطة والشوفان وغيرها، كان لابد من تخزينها بسرعة عند تمام نضجها خوفا من تساقط حباتها وضياعها(٨٣) . لذلك كان الحصاد موسم نشاط كبير، إذ يشترك فى العمل بالحقول جميع من بالضيعة من رجال ونساء وأطفال، حتى يتم تخزين الحبوب فى أسرع وقت ممكن. وهنا يصح أن نلاحظ أن هذا النظام الذى سارت عليه الضيعة الأوربية فى العصور الوسطى كان تعاونيا لا شيوعيا، لأنه بعد أن يتعاون جميع فلاحى الضيعة فى إعداد الأرض وزرعها وجمع المحصول، كان هذا المحصول يقسم فى النهاية بنسبة الحصص التى فى حيازة كل أسرة من أسر الضيعة(٨٤) .

أما الماشية الموجودة فى الضيعة من ثيران وخنازير وأغنام وغيرها فكانت المتقدمة منها فى السن تذبح قبل حلول الشتاء، وتقدد لحومها وتملح، ليرسل نصيب الأسد منها إلى دوار السيد المالك. كذلك كان يذبح مالا تدعو الحاجة إلى بقائه من صغار الماشية فى الخريف، فى حين تبقى البقية الباقية لتقضى فصل الشتاء على الدريس والحشائش المجففة التى كثيرا ما كانت تنفد قبل حلول الربيع فتسوء حالة الماشية حتى أنها لا تستطيع السير إلى المرعى فى أوائل الربيع التالى إلا فى صعوبة بالغة(٨٥) .

أما عن العلاقة بين السيد الاقطاعى صاحب الضيعة والأقنان المشتغلين بفلاحة أرضها، فقد حددتها - فى ظل النظام السنيورى أو نظام السيادة - مجموعة من الحقوق والواجبات التى ألقت العبء الأكبر من المغارم على كواهل الفلاحين(٨٦) . وقد اختلفت الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم الاقطاعى من مكان إلى آخر، نتيجة لاختلاف العادات والملابسات، ولكنه يمكن مع ذلك تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

(82) Heaton: op. cit., p. 97.
(83) Thompson: op. cit., vol. I p. 727.
(84) Stephenson: Med. Hist., p. 257.
(85) Painter: Med. Society, p. p. 45 - 46.
(86) Heaton: op. cit., p. 92.

الخدمات، والمقررات، والاحتكارات. أما الخدمات فكان أولها تسخير الأقنان فى فلاحة المزرعة الخاصة بالسيد الاقطاعى (Demesne) فيحرثونها ويبذرون بذورها له بالتناوب(٨٧). ويسمى هذا النوع من السخرة الخدمة الأسبوعية (Week work) لأن المقصود بها أن يرسل صاحب كل حصة فلاحا ليعمل فى مزرعة السيد عددا من الأيام فى الأسبوع يتناسب مع حصته. هذا فضلا عن السخرة الفصلية (Boon - work) التى تفرض على الفلاحين فى مواسم جمع المحصول وحصاده(٨٨). ومن الواضح أن هذه الخدمة الفصلية كانت مصدر متاعب للفلاحين لأنها تفرض عليهم فى الوقت الذى يكونون أحوج إلى ذلك الجهد والوقت لبذله فى جمع محصولاتهم الخاصة(٨٩). وهناك نوع آخر من السخرة كان يفرض على الأقنان عندما يطلب منهم إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر، إلى غير ذلك من الأعمال المرهقة، التى كان السيد الاقطاعى يسخر فيها أقنان ضيعته.

أما المقررات فتشمل عدة مكوس وضرائب، أولاها ضريبة الرأس (Census chefage) التى يتعين على كل قن أن يدفعها سنويا للسيد صاحب الضيعة إما نقدا أو عينا من الزبد والشمع وغيرهما. ويبدو أن هذه الضريبة كانت تافهة وبسيطة، ولكن الغرض الأساسى منها هى أن تظل رمزا للخضوع والتبعية (٩٠)، وهناك مكس آخر (Champart) تقرر على إنتاج الأرض والماشية، ومقداره عشر ذلك الإنتاج. وكانت هذه الضريبة تشمل كل ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر، فضلا عن الماشية والدجاج والبط والأوز والبيض وغيرها(٩١) . وأخيرا تأتى مجموعة أخرى من الضرائب المتفرقة مثل ضريبة الولاية (Tialle) وضريبة «الجبن» يدفعها الأقنان مقابل السماح لهم برعى ماشيتهم فى مراعى الضيعة، وضريبة الأسماك التى يدفعونها مقابل السماح لهم بالصيد فى البركة أو النهر.. إلخ(٩٢).

---

(87) Painter: Med. Society, p. 50.

(88) Cam, Med: Hist., vol. 3, p. 476 & Eyre: op. cit., p. 253.

(89) Heaton: op. cit., p. 93.

(90) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 62.

(91) Heaton: op. cit., p. 95.

(92) Painter: Med, Society, p. 50.

أما الاحتكارات فكانت عديدة، ولابد للفلاحين من قبولها صاغرين. فالسيد صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة، بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة، وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما بإحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ثم يحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها.. كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه القن لسيده إما نقدا أو عينا(٩٣). فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الاقطاعى وحده أن يحتكرها، اعتبر ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه(٩٤).

وفيما عدا الالتزامات السابقة، تعرض الأقنان لأعباء أخرى فى حالة الوفاة أو الزواج أو الوراثة، أو انتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى آخر(٩٥). فالقن كان لابد له من الحصول على موافقة السيد صاحب الضيعة إذا أراد أن يتزوج، فإذا اختار امرأة من نفس الدومين كانت المسألة سهلة وبسيطة، أما إذا رغب فى الزواج من امرأة من دومين آخر - أى تنتمى إلى سيد آخر - فإن السيد الأول كان يخشى فى هذه الحالة أن يفقد القن، ولذلك يعارض فى مشروع الزواج(٩٦). ولما كان من المستحيل منع زواج فرد من المرأة التى اختارها لنفسه، فقد لجأ السادة الاقطاعيون فى القرن الحادى عشر إلى فرض مبلغ كبير من المال (Formarier Formarriage,) على القن الذى يطلب الزواج من خارج الدومين(٩٧). فإذا استطاع القن الوفاء بالمبلغ فإنه يصعب فى هذه الحالة أن يظل هو فى ضيعة وزوجته فى ضيعة أخرى، لاسيما أن الكنيسة نفسها عارضت مبدأ تمزيق الأسرة، ولذلك كانت الزوجة تنتقل إلى الضيعة التى يعيش فيها الزوج مقابل بدل يرسله صاحب الضيعة الأخيرة إلى صاحب الضيعة التى أتت منها الزوجة. أما إذا أراد القن تزويج أحدى بناته، فكان عليه أن يدفع لسيده رسما معينا (Merchet) (٩٨).

وإذا كان السيد الاقطاعى يحصل على جميع الضرائب والمكوس السابقة من

---

(93) Boissonnade: op. cit., p. 96.
(94) Painter :Med. Society, p. 51.
(95) Cam, Med. Hist., vol. 7 , p. 720.
(96) Thompson: op. cit; vol. 2, p. 730.
(97) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 61.
(98) Eyre: op. cit; p. 253. & Heaton: op. cit., p. 95.

الأقنان باعتباره مالك الأرض وحاميها، فإن هناك نوعا آخر من الحقوق القضائية حصل عليها بوصفه نائب الملك فى ضيعته[٩٩] ذلك أن صاحب الضيعة باشر جميع ما كان للملك من حقوق قضائية، كما صارت محكمته تعالج - فى معظم الأحيان - مختلف أنواع القضايا، وتوقع على المذنبين فيها شتى أصناف العقوبات بما فيها عقوبة الإعدام. ومن الواضح أن هذه الحقوق القضائية عادت بفوائد جمه على السادة الاقطاعيين، لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين فى كثير من القضايا الصغرى، فى حين كان السيد يستولى على جميع ممتلكات الشخص الذى يحكم عليه بالإعدام. هذا بالإضافة إلى ما ترتب على مباشرة هذه الحقوق القضائية من ازدياد نفوذ السادة الاقطاعيين وإحكام سيطرتهم على الأقنان[١٠٠].

ويلاحظ أن الأقنان كانوا لايمتلكون - فى ظل هذا النظام - شيئا من الأرض التى يعملون عليها. وبالتالى ليس لهم حق النزول عنها بالبيع أو تقسيمها بين ورثتهم. ومع ذلك فإن ارتباطهم بهذه الأرض كان مدى الحياة ثم صار وراثيا. وقد لجأ السادة الاقطاعيون - عند وفاة أحد الأقنان - إلى فرض ضريبة ميراث (Heriot) على أبنائه وورثته الذين سيحلون محله ويرثونه فى الانتفاع بالأرض، لا فى ملكيتها. وكانت هذه الضريبة غالبا فرسا أو ثورا قويا اعترافا بما للسيد من حق فى المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض[١٠١]. هذا عدا ما كان للسيد من حق فى أن يرث جزءا من تركة قنه المتوفى، أو التركة كلها[١٠٢].

وبعد، فإنه يبدو مما سبق أن القن كان يحيا حياة شاقة مليئة بالمتاعب والآلام فى ظل نظام السيادة أو النظام السنيورى. حقيقة أن العائلة التى تمتعت بثلاثين فدانا - وما يتبعها من حصة فى الغابة والمرعى - استطاعت فى السنوات العادية أن تحيا حياة مستريحة، ولكن الفجوة بينها وبين الجوع لم تكن واسعة، بحيث كان مألوفا أن يتضور الجميع جوعا فى سنى الشدة.

---

(99) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 59.

(100) Painter: Med. Society, p. p. 51 - 54.

(101) Cam, Med. Hist., vol. 3 , p. 478.

(102) Pirenne, cohen, Focillon: op.cit., p. 81.

وكان طعام القن الأساسى يتألف من الخبز الأسمر والبيض وبعض الخضر العادية كاللفت والفول والبازلاء. وربما أسعدته الظروف فى احدى المناسبات بأكل دجاجة أو غيرها من الطيور، ولكن كان لا يستطيع أن يتذوق اللحم والسمك إلا نادرا [١٠٣]. أما شرابه فكان النبيذ أو الجعة. ومع ذلك، فإنه يبدو أن القن ظل قانعا راضيا بحياته، ولاسيما أن هذه الحياة ـ مع ما فيها من ألوان البؤس ـ لم تخل من بعض ضروب الترويح والتنفيس. فإذا حضر إلى الضيعة أحد الحواة أو المهرجين، استبقاه صاحبها، وعندئذ يجتمع الفلاحون فى الدوار للمشاهدة والترويح عن أنفسهم [١٠٤] وهنا نلاحظ أن البارون أو السيد الاقطاعى لم يختلف وقتذاك عن القن فى عقليته اختلافا واضحا، إذ كان ما يدخل السرور على قلب أحدهما كفيلا بإدخال السرور على قلب الآخر[١٠٥].

والواقع أنه على الرغم من قسوة الوضع الذى عاش فيه القن، إلا أنه ـ كما سبق أن أشرنا ـ لايمكن اعتباره رقيقا من الناحية العملية، لأن القانون حفظ له بعض الحقوق تجاه أرضه وتجاه سيده، بحيث أنه لم يكن غريبا إذا شب خلاف بين قن وسيده أن تصدر المحكمة الاقطاعية حكمها فى صالح الأول[١٠٦]. حقيقة أن القن بدأ فى كثير من الحالات عاجزا أمام استبداد سيده، ولكنه استطاع أن يضمن لنفسه فى ظل هذا النظام ـ نظام السيادة (Seignorial regime) نوعا من الحماية لاسيما ضد الخطر الخارجى. وبعبارة أخرى فإن هذا النظام لم يكن جحيما لايطاق، فقد فيه القن كل أمل فى الخلاص، لأنه على الرغم من قسوته وشدته ترك بعض الثغرات والمخارج أمام القن ليحيا حياة أفضل[١٠٧].

ثم كان أن أخذ نظام الأقنان فى الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التى بدأت تجتازها أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر[١٠٨]. وقد بدأت هذه التطورات فى الظهور قبيل الحروب الصليبية، ولكن هذه الحروب عجلت بها نحو

---

(103) Painter: Med. Society, p. 46.

(104) Thompson: op. cit; vol. 2, p. 732.

(١٠٥) محمد مصطفى زيادة: الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص ٣٢.

(106) Eyre: op. cit; p. 253.

(107) Boissonnade: op. cit; p. p. 143 - 144.

(108) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 62 - 63.

الأمام، حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا أرضهم التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة الاشتراك فى النشاط الصليبى. ثم كانت نشأة المدن وتطورها، مما فتح بابا جديدا أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن. ولم يلبث أن استكشف أصحاب الضياع أن نظام الرقيق والأقنان غير اقتصادى(١٠٩)، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين من الأحرار فى فلاحة أرضهم، لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى، وبالتالى يأتون بإنتاج أوفر(١١٠). وهكذا أخذ كبار الملاك يحررون أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة تصدر بها براءة من المالك(١١١). وكان أن ظهرت فى القرن الثانى عشر حركة كبرى لإحياء الأرض البور وتطهيرها واستصلاحها (Grands dêfriche-ments)، نشأ عنها زيادة الأنتاج والدخل، فضلا عن تحسين أحوال المزارعين(١١٢). ذلك أن كبار الأمراء والسادة الاقطاعيين اضطروا إلى عرض شروط مغرية على الفلاحين ليقوموا بإحياء هذه الأراضى وفلاحتها، مما ساعد على هدم النظم القديمة تدريجيا(١١٣). هذا إلى أن النشاط التجارى فى القرن الثانى عشر وما ترتب عليه من التوسع فى استخدام النقود، أدى تدريجيا إلى أن أخذ الفلاحون يدفعون ما عليهم من التزامات نقدا لا عينا، وإن ظلت بعض الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة (١١٤) وإذا كان نظام الأقنان قد ظل قائما فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثالث عشر، إلا أنه كان آخذا حينئذ فى الاحتضار السريع(١١٥).

مركز المرأة فى المجتمع:

أما عن مركز المرأة فى مجتمع أوربا العصور الوسطى فكان ثانويا بحتا، ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هى التى تحكمت دائما فى اختيار الزوجة، إذ كان يراعى فيها - بقدر الإمكان - أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة قدر كبير من الأرض.

---

(109) Coulton: The Med. Scene; p. 23.
(110) Cam, Med. Hist; 7; p. p. 728 - 729.
(111) Painter: Med. Society, p. p. 59 - 60.
(112) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 65.
(113) Painter: Med. Society, p. p. 57 - 58.
(114) Idem, p. 59.
(115) Cam, Med. Hist. vol, 7; p. 727.

وبعد الزواج يصبح مطلوبا منها أن تضع مولودا ذكرا، فإن أخفقت فى هذه المهمة كان من السهل على زوجها غالبا أن يغرى الأسقف بفسخ الزواج(١١٦).

وقد فرض النظام الاقطاعى فى أوربا العصور الوسطى على المرأة أن تكون دائما تحت وصاية رجل، أبوها فى أول الأمر ثم زوجها بعد ذلك. أما الأرملة فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها. حقيقة أنه كان من حق المرأة أن ترث إقطاعا، ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقها فى حكمه إلا عن طريق زوجها. ولعله من الواضح - بعد عرضنا لقواعد النظام الاقطاعى - تفسير هذه الظاهرة فى ضوء عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الاقطاعيين، وهى الحرب(١١٧).

أما الكنيسة، فاتخذت فى العصور الوسطى موقفا متناقضا من المرأة، إذ اعتبرتها من ناحية شريكه آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة، وهى لذلك لا تستحق إلا كل احتقار وامتهان، كما نظرت إليها من ناحية أخرى على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح، وهى لذلك جديرة بكل احترام وتقدير(١١٨). وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية، فإن النظرة الثانية جعلتها تساعد فى نشر فكرة سمو المرأة(١١٩).

على أن الفضل يرجع إلى الطبقة الأرستقراطية فى تطور فكرة تبجيل المرأة فى العصور الوسطى، إذ غدا هذا التبجيل صفة من الصفات الأساسية التى يجب أن يتحلى بها الفارس، حتى قال بعض الكتاب «أن الفارس نصير الله والمرأة»(١٢٠). وتتضح هذه الفكرة واضحة فى أشعار التروبادور، التى تظهر كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل وحبه، وأن المحب لم يستهدف شيئا غير إدخال السرور على قلب محبوبته، فلا يأبه لطعام أو شراب ولا يتأثر بحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها(١٢١).

---

(116) Stephenson: Med. Hist; p. 268.

(117) Painter: Med. Society, p.29.

(118) Crump, Jacob: The Legacy of the Middle Ages, p. 402.

(119) Coulton: Life in the Middle Ages, vol. 4. p. 23.

(120) Crump, Jacob: The Legacy of the Middle Ages; p.p. 405 - 406.

(121) Painter: Med. Society, p. 36.

ومع ذلك، فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زوجها، حتى أن كتاب العصور الوسطى أيدوا حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته. وكل ما فعلته الكنيسة أزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التى يصح للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته!(١٢٢).

ولكن على الرغم من أن المرأة كانت شريكا مغبونا للرجل فى ظل النظام الاقطاعى، إلا أنها احتلت المكانة التالية له مباشرة فى الحصن والضيعة. وبعبارة أخرى فإنها لم تتمتع بحقوق تجاه زوجها، ولكنها تمتعت بكل ما لزوجها من حقوق تجاه غيرها(١٢٣). وهناك أمثلة كثيرة من العصور الوسطى لنساء حملن الرسالة أثناء غياب أزواجهن فى الحرب أو بعد وفاتهم، فقمن بإدارة الضياع والدفاع عنها، أو بجمع الأموال لفدية الزوج الأسير(١٢٤).

وإذا كانت سيدات الطبقة الأرستقراطية والطبقة البورجوازية قد تمتعن بقسط من الراحة والتسلية، فإن الفلاحات وزوجات الأقنان حرمن من هذه النعمة، لأن قسوة الحياة كثيرا ما أجبرتهن على مشاركة أزواجهن فى الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش. لذلك أسهمت الفلاحة بسهم وافر فى الحياة الأوربية فى العصور الوسطى، وقامت فى داخل المنزل بتوفير كل ما احتاجت إليه الأسرة من طعام وشراب وملبس، فعملت فى جز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها، وتربية الدواجن، وصناعة مستخرجات الألبان، هذا كله زيادة على تربية أولادها. أما خارج المنزل فقد أسهمت فى بناء الأكواخ ، وقطع الأعشاب، وجمع المحصول، وتخزينه(١٢٥). ومع ذلك فإن العرف الاقطاعى شمل زوجة القن بشىء من الرعاية، إذ خرجت العادة على إعفائها - وهى فى حالة الوضع - من ضريبة الدجاجة التى عليها أن تقدمها سنويا قبل الصيام الكبير، فضلا عن حصولها فى هذه الحالة على بعض المساعدات المادية(١٢٦).

أما فى المدن فقد اشتغلت المرأة بصناعة الجعة والنبيذ، بالإضافة إلى غزل

(122) Idem: p. 29.

(123) Idem: p. 30.

(124) Stephenson: Med. Hist., p. 268.

(125) Coulton: Life in the Middle Ages; vol, 1. p. 217.

(126) Crump, Jacob: The Legacy of the Middle Ages, p. 428.

الأصواف، ويبدو أن هذه الحرف فتحت بابا للعمل أمام غير المتزوجات من الأرامل والعانسات، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معينة حتى لاينافسن الرجال بسبب رخص أجورهن(١٢٧) . وهناك فريق آخر من النساء أقبلن على الحياة الديرية، وانخرطن فى سلكها لإشباع الناحية الدينية فى نفوسهن ، فضلا عن أن هذه الحياة هيأت لهن قسطا من الثقافة الراقية والعمل المنتج(١٢٨) .

(127) Boissonnade: op. cit., p. 221.

(128) Coulton: Life in the Middle Ages; vol. 4. p. p. 5 - 22 & Crump, Jacob: op. cit; p. p. 412 - 413.

الباب الرابع

المدن والتجارة والنظم المالية

إحياء المدن والتجارة:

كانت المدن بمثابة المكان المختار الذى أخذ الأقنان ينزحون إليه عندما انحل النظام الزراعى القائم على أكتافهم. والواقع أن نشأة المدن فى الشطر الأخير من العصور الوسطى جاءت ثورة بالغة الخطورة، لا فى الميدانين السياسى والاقتصادى فحسب، بل فى الميدان الاجتماعى أيضًا. ولم تكن هناك ثمة علاقة تربط المدينة الأوربية التى ظهرت فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفها العصر الرومانى، والتى بلغت أقصى درجات التقدم والنشاط فى القرنين الأول والثانى للميلاد(١). ذلك أن المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة للأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية، فتناقصت مساحتها، وقلت أهميتها، وذبلت وربما اندثر بعضها. أما ما تبقى منها فلم يعد منذ القرن الخامس مركزا للنشاط الحيوى فى أوربا(٢). وإذا كانت هذه المدن قد احتفظت بشىء من الأهمية فى العصور المظلمة، فمرجع ذلك أنها غدت مراكز أسقفية. وبعبارة أخرى فإن أهميتها صارت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الإدارى(٣). أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد صاروا أقنانا، وإن استمر كثير منهم يعملون كعمال وصناع وبخاصة فى الأديرة. وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين، أكثر من مركز دينى لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى إلا القدر الذى يكفى حاجة الحياة الدينية ورجال الدين وأتباعهم(٤).

ومن الثابت أن الاقتصاد الأوربى اتخذ طابعا زراعيا بحتا منذ نهاية القرن الثامن، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسى للثروة، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات، وبذلك ذبلت التجارة أو كادت تنعدم، بعد أن غدت

---

(1) Painter: Med. Society; p. 63.

(2) Eyre: op. cit; p. 256.

(3) Cam, Med. Hist, vol. 6. p. 507.

(4) Pirenne: Economic and Social Hist. of Med. Europe, p. 5.

الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا(٥) . أما النشاط التجارى الذى وجد فى أوربا بين القرنين الثامن والعاشر، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة، والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية، ثم علي النشاط التجارى الذى قام به الفيكنج فى بحر الشمال والبحر البلطى وسهول روسيا من جهة ثالثة. وربما ساعد على انحطاط التجارة فى تلك الفترة موقف الكنيسة نفسها التى ظلت تنظر إلى الكسب التجارى على أنه غير حلال، وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يجب أن يعيش عليه الإنسان(٦) .

ثم كان أن ظهرت فى العصر الاقطاعى مجتمعات من الأقنان، اختاروا العيش بجوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها(٧) . وقد أدت كثافة هذه المجتمعات فى بعض الجهات، وتمتعها بالسلم والحماية، إلى تمكينها من القيام بنشاط صناعى محدود، حتى أن الأقنان الذين كانوا يعملون صيفا فى فلاحة الأرض أخذوا يشغلون وقتهم فى الشتاء بالنجارة وصناعة الجلود أو الأوانى الفخارية، ليبيعوا إنتاجهم فى أقرب سوق محلى(٨) . وهكذا بدأت هذه المجتمعات الجديدة تعتمد شيئا فشيئا على القرى والمناطق الريفية المجاورة فى الحصول على قوتها وفى تصريف إنتاجها البسيط(٩) . أما النشاط التجارى فإن الفضل فى إحيائه لايرجع إلي هذه المجتمعات بقدر ما يرجع إلى التجار الجائلين وبخاصة اليهود، الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع لبيعها للنبلاء وأتباعهم(١٠) . وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية فى ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودى Judaeus أصبح مرادفا للفظ تاجر Mercator (١١) . وكان هؤلاء التجار فى أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الاستقرار فى منطقة بعينها، ولكنهم أخذوا يستقرون تدريجيا بعد ذلك ليجعلوا من

(5) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 10 - 12.

(6) Idem: p. 29.

(7) Pirenne: Medieval Cities; p. p. 72 - 76.

(8) Cam, Med. Hist. vol, 6; ps. 477, 514.

(9) Pireune: Economic and Social Hist, p. p. 42 - 44.

(10) Cam, Med. Hist, vol, 6; p. p. 509 - 511.

(11) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 15.

بيوتهم مخازن تجارية حقيقية(١٢).

ولم يلبث الأمراء المحليون أن سمحوا لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم، نظرا للفائدة التى تعود عليهم من وراء فرض ضرائب علي تجارتهم من ناحية، وإثارة نوع من النشاط والحركة فى المنطقة من ناحية أخرى(١٣). وكان أن أقام التجار فى القرن الحادى عشر شبه حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان فى الضياع المجاورة(١٤). وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور - سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية، أو خارج سور دير من الأديرة، أو بالقرب من بعض الحصون الاقطاعية - لتنشأ منها مدن العصور الوسطى. كذلك تطورت الحقوق المحدودة التى حصل عليها تجار تلك المجتمعات من الأسقف أو مقدم الدير أو السيد الاقطاعى، لتصبح نواة للعهود والبراءات الإعفائية التى تمتعت بها المدن فيما بعد(١٥).

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتى ٥٠٠- ١٠٠٠ تقريبا تمثل عهدا مظلما فى تاريخ المدن الأوربية، إذ اختفت فيها الحياة المدنية من أوربا وصحب ذلك ذبول التجارة والصناعة (١٦)، فإنه يمكن تلخيص العوامل الرئيسية التى أدت إلى مولد مدينة العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر فى إحياء التجارة، وظهور طبقة التجار، وقيام المجتمعات التجارية البدائية التى سبقت الإشارة إليها (١٧). ومعنى ذلك أن المدينة الأوربية مرت بأدوار شاقة قبل أن تصبح مركزا تجاريا وصناعيا واضح المعالم، لأنها ظلت أمدا طويلا تصور الطابع العام للمجتمع الزراعى الذى ساد العصور الوسطى(١٨). هذا إلى أن سكانها ظلوا قلة صغيرة لا يتصورها العقل، حتى أن المدن الكبرى - مثل مينز وكولونيا فى ألمانيا، وميلان وبافيا فى إيطاليا، وباريس وليون فى فرنسا - لم يزد سكان إحداها فى القرن الحادى عشر على بضعة آلاف نسمة على

---

(12) Idem; p. p. 40 - 41.

(31) Painter: Med. Society; p. p. 72 - 73 & Cam, Med. Hist; vol, 6, p. 516.

(14) Cam, Med. Hist; vol. 6; p. 477.

(15) Pirenne: Economic and Social Hist; p. p. 71 - 74.

(16) Cam, Med. Hist; vol. 5; p. p. 209 - 210.

(17) Cam, Med. Hist; vol, 6; p. 477.

(18) Pirenne: Med. Cities; v. p. 60 - 76.

أقصى تقدير[١٩]. ولسنا فى حاجة إلى القول بأن العامل الجغرافى لعب دوراً هاماً فى نشأة المدن وتطورها، فبعضها مثل البندقية وبيزا استمدت أهميتها من كونها موانئ تطل على البحر، والبعض الآخر ـ مثل كريمونا ـ كانت ملتقى عدة روافد هامه لنهر معين، ونوع ثالث ـ مثل فيرونا وسينا وبولونيا ـ كانت تتحكم فى ممرات أو طرق رئيسية... وهكذا[٢٠]. هذا إلى أن الاقليم بأجمعه كانت له فى بعض الأحيان ظروفه التى ساعدت على نشأة المدن وازدهارها. فإيطاليا تقع عند منتصف الطريق بين الشرق والقسطنطينية من جهة والغرب من جهة أخرى، مما شجع مدنها على القيام بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب. ومثل ذلك يقال عن فلاندرز وشامبنى فى الوساطة بين جنوب أوربا وشمالها[٢١].

ثم كان أن سادت حالة من السلام والاستقرار فى القرن الحادى عشر مكنت التجار من مباشرة نشاطهم، وبالتالى ساعدت على ازدهار المدن. هذا بالإضافة إلى ما كان من حركة الإصلاح الكنسية التى ترتبط فى التاريخ باسم ديركلونى، وما ترتب على كل ذلك من إقبال على إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات. وأخيرا جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملا قوياً إلى العوامل التى أدت إلى تحطيم نظام الضيعة (Manorial-system) وتشجيع التجارة والصناعة، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة والنشاط الاقتصادى[٢٢].

وهنا نلاحظ أن التوسع الإسلامى فى حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع حطم وحدة ذلك البحر وأضعف النشاط التجارى الأوربى فيه، ولكنه لم يقض على ذلك النشاط تماما. ذلك أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية، ترك الباب مفتوحا أمام التبادل التجارى بين المدن الإيطالية ـ وبخاصة البندقية ـ من ناحية، وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى[٢٣]. ومع هذا، فإنه يمكن القول بأن النشاط التجارى فى غرب أوربا انحط إلى أسفل درجاته فى القرن العاشر، وظل على ذلك

(19) Boissonnade: op. cit; p. 203.

(20) Cam, Med. Hist; vol, 5; p. 208.

(21) Idem; p. p. 208 - 209.

(22) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 31 & Cam, Med. Hist. vol. 5. p. 636.

(23) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 19 - 21.

حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر، لتضاعف من النشاط التجارى للمدن البحرية(٢٤)، فظهرت أمالفي وجنوة وبيزة ومرسيليا وناربون وبرشلونه، لتنافس البندقية فى ذلك النشاط. وكان البنادقة بوجه خاص يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق والجوارى من الصقالبة المجلوبين من شاطئ دالماشيا، فضلا عن الأخشاب والحديد، ويستوردون بدلا منها مختلف الحاصلات الشرقية(٢٥).

وعندما تكدست البضائع المستوردة من الشرق فى تلك الموانئ، أخذت تشق سبيلها نحو وسط أوربا وغربها عن طريق السهل اللمباردى وممرات جبال الألب وطريق الراين، مما أثار نشاطا كبيرا فى المدن الواقعة على هذه الطرق. على أن هذا النشاط التجارى فى جنوب أوربا ووسطها صحبة نشاط مماثل فى شمالها، حيث غدا إقليم فلاندرز فى القرن الثانى عشر، مركزا رئيسيا لهذا النشاط ، بفضل أنهاره وموانيه التى جعلته علي اتصال بشمال أوربا ووسطها وجنوبها(٢٦). ومن المعروف المسلم به أن الدافع الرئيسى للنشاط التجارى يرجع إلى وجود مجتمعين أو أكثر ينتج كل منهما نوعا خاصا من المنتجات التى يحتاج إليها غيره، مما يحتم علي كل مجتمع مبادلة الفائض من إنتاجه بما هو فى حاجة إليه من إنتاج المجتمع الآخر(٢٧). وفى ضوء هذا الاعتبار- زيادة على أهمية الموقع الجغرافى- يمكننا أن نفسر انتعاش مدن لمبارديا وفلاندرز فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إذ تقع الأولى بين الشرق والغرب، فى حين تقع الثانية بين الشمال والجنوب(٢٨). وهكذا أخذت تزداد قوافل التجار المسافرين بطريق البر أو النهر أو البحر، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم، وإنما

---

(24) Painter: Med. Society Ps; 64- 69.

(25) Pirenne: Economic and Social Hist. p. 18.

(٢٦) اشتهر إقليم فلاندرز فى العصور الوسطى بصناعة الأجواخ والمنسوجات الصوفية وتجارتها، حتى أن شارلمان لم يجد شيئا يهديه إلى معاصره الخليفة هارون الرشيد أجمل وأثمن من بعض هذه الأقمشة الصوفية التى ينتجها إقليم فلاندرز.

Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit. 36 & The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 122.

(27) Painter: Med. Society P. 66.

(28) Idem, p. p. 66 - 69.

شاركهم اللمبارديون والتسكانيون والبنادقة والجنوية والفلمنكيون والبروفنساليون[٢٩]. كذلك استتبع هذا النشاط التجارى كثرة المعارض والأسواق فى مختلف أنحاء أوربا، بعد أن أضحت الأسواق المحلية الصغيرة لايمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار.

ويحتل القرن الثالث عشر أهمية كبرى فى التاريخ التجارى لأن طرق التجارة القديمة استبدلت بها أخرى جديدة[٣٠]. فاستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ عطل طريق القسطنطينية التجارى، كما أتاحت الحرب الصليبية ضد الهراطقة الألبيجنسيين فرصة لملوك فرنسا للحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط، فدخلت مرسيليا وبرشلونة فى دائرة النشاط التجارى مع الشرق. أما فى شمال أوربا فإن الفرسان التيتون نهضوا بتجارة بروسيا ليتسع نطاقها شرقا على شاطئ البحر البلطى، كما أسسوا موانئ ليباو وميمل وريفال[٣١]. ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبالتالى قطعوا الطريق التجارى بين البحرين البلطى والأسود، فأخذت نوفجرود فى أقصى الشمال تعمل على توطيد علاقاتها التجارية مع موانىء استوانيا وشمال ألمانيا واستفادت فعلا من ذلك[٣٢]. ولم يقف تأثير المغول فى طريق التجارة عند هذا الحد، بل إن استيلاءهم على العراق وبغداد سنة ١٢٥٨ أدى إلى تركيز التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى طريق البحر الأحمر وموانئ مصر المماليكية من ناحية وطريق طرابيزون من ناحية أخرى[٣٣]. ومن الواضح أن هذه التغييرات وغيرها أثرت فى النشاط التجارى للمدن الأوربية الناشئة تأثيرا بالغا ، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية سنويا من بضائع الشرق عن طريق دولة المماليك وحدها مليون دوكات[٣٤].

ويمكن القول بأن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ - وهى السنة التى نجحت فيها

(29) Boissonnade: op. cit; p. p. 162 - 168.
(30) Cam. Med. Hist; vol. 6; p. p. 478 - 479.
(31) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 128 - 129.
(32) Rambaud: Hist. de la Russie, p. p. 126 - 131.
(33) Thompson: op. cit; vol. 2. p. 737.
(34) Boissonnade: op. cit; p. 289.

ثورة كولونيا ضد أسقفها ـ ، وسنة ١١٨٣ ـ وهى السنة التى حصلت فيها مدن الحلف اللمباردى على حقوقها فى الحكم الذاتى من الامبراطور فردريك بربروسا ـ تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى(٣٥). ولم تلبث أن غدت المدن الإيطالية بوجه خاص مثلا أحتذته بقية المدن الأوروبية في بروفانس وحوض الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها. وعلى ذلك فإن نشأة المدن جاءت بطيئة وتدريجية، على الرغم مما نسمع به من ثورات حفلت بها بعض المدن مثل ميلان وكامبراى وكولونيا وغيرها (٣٦). وبفضل هذه الخطوات التدريجية أخذت المدن تنتزع من سادتها الاقطاعيين اعترافات بحقوقها، فازدادت عدد البراءات والعهود الإعفائية التى حصلت عليها تدريجيا (٣٧). ومع أن هذه البراءات تباينت كثيرا فى تفاصيلها، حتى أنه ليصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين، إلا أنها اتفقت جميعا فى روحها، وفى خاتمتها التى تنص على حرية الأرض التى قامت عليها المدينة، وعلى أن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة ويوما واحدا يعتبر حرا(٣٨). وهكذا أخذت قبضة الأمراء تخف عن المدن فى النواحى الإدارية والقضائية والمالية. وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة فى صورة إعفاء، حتى تكتمل جميع هذه الإعفاءات فى البراءة التى تعبر عن حقوق المدينة ودستورها والتى حرصت كل مدينة على حفظها فى أرشيفها.

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التى حصلت عليها المدينة بعد جهد شاق، لم تكن امتيازا عاما تمتع به جميع سكانها، وإنما قصدت بها فئة محدودة فقط من هؤلاء السكان، اختلفت باختلاف ظروف المدينة، فربما كانت مجموعة التجار أو الصناع أو غيرهم(٣٩). وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التى يختار منها محافظ المدينة وموظفوها والتى تتمتع بالامتيازات المدنية كاملة، وفى بعض الأحيان لجأ أفراد هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع فى منح الامتيازات التى يتمتعون بها لغيرهم من

---

(35) Thompson: op. cit; vol, 2, p. 737.

(36) Cam. Med. Hist; vol, 4; p. p. 218 - 219.

(37) Idem: p, 281 & vol. 6. p. 59.

(38) Painter: Med. Society P. 72.

(39) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 48 - 49.

سكان المدينة لا سيما القادرين الأثرياء، فى حين ظلت بقية الطبقات والفئات محرومة من هذه الامتيازات ومن الاشتراك فى الحكم[٤٠]. ولعل هذه التفرقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدينة الواحدة هى السر فى اضطراب تاريخ المدن فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، إذ ظل الصراع مستمرا بين البورجوازية والطبقات الدنيا، وبين أصحاب العمل والعاملين. ومن ذلك أن نقابات التجار والصناع التى بدأت فى شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين، لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم فى رءوس الأموال وفى الأسعار وفى تنظيم الأجور وساعات العمل[٤١].

ولم تكن نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ظاهرة محلية، وإنما اتخذت هذه النشأة طابعا عاما فى غرب أوربا، فبدأت واضحة فى لمبارديا وفلاندرز، ثم أخذت تنتشر بسرعة فى بقية بلاد الغرب. ومن الطبيعى أن تتباين المدن فى تاريخ نشأتها، ولكنها اتفقت جميعا فى العوامل والظروف الأساسية التى صحبت هذه النشأة وأدت إليها[٤٢]. ففى جميع الحالات جاءت نشأة المدن نتيجة لانتعاش التجارة والصناعة، أما التباين بين المدن بعضها وبعض فمرجعة اختلاف الظروف السياسية المحلية، أو تباين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية[٤٣]. وهنا نلاحظ أن عنصر التقليد والمحاكاة كان قوياً واضحا فى نشأة المدن، فتستعير مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمرا وتأخذ عنها نظمها، مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات أو عائلات تضم كل مجموعة أو عائلة المدن المتشابهة فى نظمها أو التى استقت هذه النظم من مصدر واحد[٤٤].

وكانت كل مدينة عندما يتم تأسيسها تحيط نفسها بسور يحدها ويحميها. ولم يلبث أن تطلب نمو المدينة واتساعها قيام ضواحى حولها تسكنها الطبقات الفقيرة، حتى تزداد أهمية هذه الضواحى فيقام سور جديد خارجها بعد هدم السور الأول،

---

(40) Boissonnade: op. cit; p. 205.

(41) Thompson: op. cit; vol, 2. p. 738.

(42) Pirenne: Med. Cities, p. 74.

(43) Cam. Med. Hist; vol. 5. p. 208.

(44) Thompson: op. cit; vol. 2. p. 739.

وتضم الفئات الجديدة من سكان الضواحي إلى صلب المدينة (٤٥). وفى خارج البوابة الرئيسية للمدينة كانت تقام المشانق العمومية لشنق من يستحق الإعدام. كذلك جرت العادة بحفر خندق عميق حول سور المدينة الخارجي، وعلى هذا الخندق يقام جسر متحرك أمام البوابة، يرفع ويدلى حسب الحاجة. وإذا كانت مداخل المدينة متسعة لتسمح للعربات المحملة بخيرات المناطق الريفية المجاورة بدخولها فى سهولة، فإن طرقات المدينة الداخلية نفسها كانت ضيقة لايزيد عرضها على عشرة أقدام أحيانا، كما اتصفت بالقذارة نتيجة لإلقاء القمامة والفضلات من نوافذ المنازل دون اكتراث بمن فى الطريق من المارة(٤٦). ولما كانت هذه المدن تعتمد فى الغالب على مياه الآبار لا الأنهار، فإن الأمراض كانت كثيرة الانتشار فيها ونسبة الوفيات عالية بين سكانها، نظرا لسهولة تلوث مياه الآبار من جهة، وإهمال العناية بالقواعد الصحية من جهة أخرى. فإذا ما أقبل الليل، فإن الظلام الدامس كان يعم طرقات المدينة، وعندئذ يكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، بحيث يصبح الخروج إلى الطريق العام ليلا أمرا محفوفاً بالمخاطر.

وكانت المدن الإيطالية من أولى المدن الأوربية التى قامت برصف طرقها، ومنها انتقل هذا التقليد إلى غيرها من المدن، وإن ظلت الغالبية العظمى لاتحاول رصف طرقها بسبب ارتفاع النفقات(٤٧). ولما كانت مساحة المدينة محدودة بأسوارها العالية، فإن أراضى البناء داخلها صارت باهظة القيمة، مما دفع الملاك إلى انشاء المبانى العالية ذات الطوابق المتعددة، والحصول على إيجارات مرتفعة من السكان(٤٨). وقد لجأت حكومات المدن إلى تحديد ارتفاع المبانى لمنع تكدس السكان من جهة، وحتى لا يصل أى مبنى إلى مستوى يفوق ارتفاع كتدرائية المدينة أو مبناها الحكومى من جهة أخرى. وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يشترك عدة أفراد فى امتلاك مبنى أو منزل أو مسكن واحد، بحيث ينفرد كل منهم بملكية عدة غرف فى المنزل. وهكذا يبدو أن أهم ما ميز منازل المدينة الأوربية فى العصور الوسطى هو اكتظاظها بالسكان، حتى أن الغرفة الواحدة - مع ضيقها - كانت تضم

(45) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 51.

(46) Painter: Med. Society; P. 82.

(47) Ibid.

(48) Thompson: op. cit; vol. 2. p. 740.

أحيانا أكثر من ثلاثة أشخاص. أما سوق المدينة فكان فى ميدانها الرئيسى العام، وهو الميدان الذى تطل عليه أيضاً كنيستها ومبناها الحكومى.

وقد رحبت المدن عادة بنزلاء جدد من الأقنان يسهمون فى توفير الأيدى العاملة اللازمة، ويعيشون فى الضواحى القريبة خارج أسوارها. وشجع على هجرة الأقنان إلى المدن أن الفرد كان يتمتع بحريته كاملة داخلها، فيتخلص من كل أثر للاسترقاق الذى عانى منه فى حياة الضيعة، حتى قيل، «أن جو المدينة يخلق الحرية(٤٩)». ولكن تساهل المدينة فى هذه الناحية كان لا يعنى بأى حال تساهلها فى منح حقوق المواطنة لغير أهلها. فالأفراد الذين لاينتمون إلى المدينة يعتبرون أغرابا أو أجانب، ليس من اليسير عليهم أن يصبحوا مواطنين فيها(٥٠). وقد اشترطت معظم المدن على من يريد أن يتمتع فيها بحقوق المواطنة أن يعيش فيها مائة يوم ويوم، وأن يدفع مبلغا كبيرا من المال، أو يشترى عقارا فيها ضمانا لحسن نواياه، وبعد ذلك يقسم على الولاء للمدينة واحترام نظمها وقوانينها، ويضمنه بعض المسئولين من أهل المدينة حتى لا يخرق قوانينها(٥١). وقبل هذا وذاك يجب أن يثبت أن حالته المالية مرضية، وأنه مستعد لخدمة المدينة والدفاع عنها إذا حاق بها خطر. فإذا تم كل ذلك وحصل على حقوق المواطنة، صار من حقه استخدام مراعى المدينة وصيد السمك فى مياهها، كما تقوم المدينة من جانبها بحمايته وحماية تجارته من المنافسة الأجنبية، وتسمح له بشراء لوازمه بسعر سوق المدينة. هذا كله بالإضافة إلى إعفائه من الخدمات الشخصية وتخويله حق المحاكمة أمام جماعة من زملائه المواطنين، إذا حدث منه ما يستوجب ذلك.

وبعد، فإنه يلاحظ أن مدن العصور الوسطى لم تكن بالاتساع والعظمة وكثرة السكان التى نتصورها. فبالرمو بلغ عدد سكانها نصف مليون فى القرن الثانى عشر، وفلورانسا بلغ سكانها مائة ألف فى القرن الثالث عشر، فى حين زاد سكان البندقية قليلا عن مائة ألف، ومثلها باريس وميلان(٥٢). على أن صغر مدن العصور الوسطى نسبيا لا ينبغى أن يجعلنا نقلل من أهميتها السياسية والاقتصادية، فقد سبق أن رأينا

(49) Pirenne: Med. Cities, p. 193.

(50) Boissonnade: op. cit; p. 201.

(51) Idem; p. 197.

(52) Idem; p. 203.

كيف كانت مدن العصبة الهانزية تنازل الملوك وتحتفظ بأسطول ضخم لمقاومة القرصنة فى بحر الشمال(٥٣) .أما البندقية فقد أضحت فى أواخر العصور الوسطى أعظم قوة بحرية فى أوربا، وصار لها قواعد ومراكز وأحياء تجارية على شاطىء البحر الأدرياتى وفى بلاد الشرق الأدنى. وحسبنا أن البندقية استطاعت أن تحارب بمفردها الإمبراطورية العثمانية (١٤٦٦ - ١٤٧٥)، كما حاربت الإمبراطورية الغربية وأسبانيا وفرنسا(٥٤) .

أما فى الناحية الاقتصادية فإن نشأة المدن فى القرن الحادى عشر، جاءت انقلابا اقتصاديا شاملا، إذ جعلت المدينة من نفسها سوقا مركزيا محليا، يتعارض مع الفكرة التى قامت عليها التكتلات الاقطاعية للضياع، مما ترتب عليه إنهيار نظام الاكتفاء الذاتى للضيعة، وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة ، فيرسل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليباع فيها بدلا من إرساله إلى مقر المالك الاقطاعى(٥٥) . هذا بالإضافة إلى أن اقتصاد المدن استتبع التوسع فى نظام الأجر النقدى بدلا من نظام الخدمة الاقطاعية. حقيقة أن التقدم فى استعمال النقود سار حثيثا، بحيث لم يكن هناك حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية فى غرب أوربا(٥٦) . ولكن الفضل يرجع إلى مدن العصور الوسطى فى ابتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبنس. أما النقود الورقية ـ فى صورة تعهدات أو كمبيالات ـ فيرجع استخدامها فى المدن إلى القرن الثالث عشر حتى عودلت بالنقود المعدنية فى مدينة كومو حوالى سنة ١٢٥٠(٥٧) .

وقد امتازت مدن العصور الوسطى بنوع من التخصص التجارى أملته الملابسات والعوامل الجغرافية. فمدن العصبة الهانزية فى الشمال اشتهرت بتجارة الجلود والفراء

---

(53) Eyre: op. cit; p. 727.

وكذلك انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(54) Lodge: The Close of the Middle, p. p. 512 - 513.

(55) Gras: The Legacy of the Middle Ages; p. 436.

(56) Painter: Med. Society. P. 91.

(57) Gras: The Legacy of the Middle Ages; p. 441.

والشمع والقمح، وهى المنتجات الواردة من روسيا، وبالحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحوم المقددة، وكلها من واردات سكندناوه(٥٨). أما المدن الإيطالية فقد تركز نشاطها الأساسى فى حاصلات الشرق، إذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحرير والبخور والعطور والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصدرها إلي مختلف البلاد الأوربية(٥٩). وأما مدن فلاندرز فكانت بحكم موقعها بين الشمال والجنوب تتجر فى حاصلات الجهتين بالإضافة إلى صناعة الأصواف وغزلها(٦٠).

والخلاصة أن المدينة الأوربية فى العصور الوسطى اشتملت على مختلف العناصر الكفيلة بالتقدم، والتى بشرت بما سوف يتمخض عنه المستقبل من آمال فى خلق نظام اقتصادى جديد. وأهم هذه العناصر هى التنظيم التجارى، والنمو الرأسمالى، وحب المغامرة، والبعد عن تزمت رجال الدين(٦١).

القومونات :

وثمة ظاهرة واضحة فى نشأة المدن فى غرب أوربا، هى تباينها فى مقدار ما حصلت عليه من حريات. فهناك فريق من المدن لم يكتف أهلها بالحريات العادية التى حصلت عليها بقية المدن، وإنما استطاعوا بفضل تضافر مختلف العناصر داخل المدينة أن يحصلوا على سلطة سياسية عظيمة، وهذه المدن هى التى نعرفها باسم القومونات (Communes) (٦٢). وقد ظهرت هذه القومونات أول الأمر فى إيطاليا، وبصفة خاصة فى لمبارديا وتسكانيا، فى الوقت الذى كانت السلطة السياسية فى المدن الإيطالية فى أيدى الأساقفة الذين اعتمد عليهم أباطرة الدولة المقدسة فى توطيد نفوذ الإمبراطورية. ولكن حدث قرب نهاية القرن الحادى عشر أن أخذت العناصر الأساسية من سكان هذه المدن تتبرم من حكم الأساقفة، فاتفق التجار والصناع والنبلاء وغيرهم - فى بعض هذه المدن - على تأليف اتحاد أو تحالف (قومون Commune) الغرض

(58) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 130 - 131.

(59) Pirenne: Economic and Social Hist; p. p. 143 - 145.

(60) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 126 - 127.

(61) Gras: The Legacy of the Middle Ages; p. 460.

(62) Cam, Med. Hist; vol, 5, p. p. 220 - 223.

منه تحطيم نفوذ أسقف المدينة[٦٣] وكان أن ظهر عجز الأساقفة أمام ذلك التحالف المسلح بين مختلف العناصر التابعة لهم داخل المدينة وخارجها، فسلموا لهم بمطالبهم، وسمحوا لهم ـ مجبرين ـ بكل ما يطمعون فيه من نفوذ سياسي، وبذلك ظهرت هذه القومونات فى صورة قوة سياسية عظمى فى إيطاليا. وقد رأينا أثناء الكلام عن النزاع بين البابوية والإمبراطورية كيف حاول الأباطرة إخضاع هذه القومونات فى شمال إيطاليا، وكيف استماتت القومونات بدورها فى الدفاع عن حرياتها واستقلالها، الأمر الذى أدى ـ فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ـ إلى صراع طويل بين الأباطرة من جهة والقومونات الإيطالية من جهة أخرى[٦٤]. وكان أن خرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع فى النهاية، مما حقق لها استقلالا سياسيا تاما [٦٥].

وقد أدى الاستقلال السياسى الذى أحرزته تلك المدن إلى تقدم سريع فى الميادين الاقتصادية والحضارية. ذلك أن أهل القومونات أخذوا يهاجمون أمراء المناطق المجاورة الذين لم يتضامنوا معهم، وأجبروهم على الخضوع لسلطة القومون. وبعد ذلك بدأت المدن الكبرى تسعى لفرض سيطرتها على المدن الصغيرة المجاورة، حتى انتهى الأمر أخيرا بأن دخلت القومونات فى صراع بعضها مع بعض، سببه التنافس السياسى والاقتصادى[٦٦]. هذا إلى أن بعض القومونات أخذت تعمل على تأمين نفسها وإقرار النظام فيها، عن طريق تفويض شئون الحكم فيها لفئة من أفرادها الأقوياء، مما أدى إلى قيام بعض الأسرات التى استبدت بالحكم، والتى ارتبطت أسماؤها بأسماء المدن التى قامت فيها[٦٧].

على أن ظاهرة قيام القومونات لم تقتصر على تسكانيا ولمبارديا فى إيطاليا، وإنما أخذت تمتد هذه الحركة منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز ثم ألمانيا وإنجلترا، حيث اجتمع فى كثير من هذه البلاد التجار والصناع والنبلاء ضد الأساقفة، وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ. وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للحركة القومونية

---

(63) Pirenne: Med. Cities, p. p. 177 - 178.

(٦٤) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(65) Eyre: op. cit; p. p. 345 - 346 & 165 - 166.

(66) Cam, Med. Hist; vol. 5, p. 224.

(67) Stephenson: Med. Hist, p. 322.

فى غرب أوربا امتد بين سنتى (١١٠٠ – ١٤٠٠)[٦٨].

وليس هناك من شك فى أن نجاح هذه الثورات ضد أساقفة المدن إنما يرجع إلى موقف الملوك والأمراء الاقطاعيين الذين رحبوا بإضعاف نفوذ الأساقفة السياسى.

ومع أن اصطلاح «قومون» يعنى المدينة التى ارتبطت عناصر سكانها فى حلف، وحصلوا على استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة[٦٩]. إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التى تمتعت بنفوذ سياسى واسع. على أننا نستطيع أن نحدد القومون بأن المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة، بمعنى أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجى يتحكم فيها. أما التزامات القومون نحو السلطة السياسية العليا فى الدولة - كالإمبراطور أو الملك - فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنويا وقسط معلوم من الخدمة العسكرية[٧٠].

النقابات:

نصت البراءات التى حصلت عليها المدن على حق تجارها فى تأليف نقابات أو اتحادات، فإذا لم تنص البراءة على ذلك فإن السبب يرجع قطعا إلى قيام النقابة فعلا قبل حصول المدينة على براءتها، لأن الذى كان يحدث فى كثير من الحالات هو أن يبدأ التجار بتأليف نقابة لهم لتقوم هذه النقابة بمفاوضة السيد الاقطاعى للحصول على براءة تضمن للمدينة حريتها[٧١].

وهكذا ارتبط تجار المدن فى العصور الوسطى فى هيئة نقابات الغرض منها تنظيم نشاطهم وحماية أنفسهم من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية، ورعاية مصالحهم فى الأسواق البعيدة من ناحية أخرى[٧٢]. ثم كان أن أخذت نقابات التجار هذه فى تنظيم شئون التجارة داخل المدينة ذاتها، ففرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط تجارى فى المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة وأن يدفع رسما معينا

(68) Cam, Med. Hist; vol, 5, p.624.

(69) Painter: Med. Society P. 74.

(70) Cam: Med. Hist; vol. 5, ps. 223 & 234.

(71) Painter: Med. Society; P. 73.

(72) Pirenne: Med. Cities, p. p. 186 - 188.

مقابل السماح له بمباشرة نشاطه[٧٣]. كذلك حرصت نقابة التجار على حماية مستوى الانتاج والبضائع والتمسك بمبادىء الكنيسة الخاصة بالأمانة وعدم الغش[٧٤]. وهكذا ظلت نقابات التجار تنظم الحياة التجارية فى العصور الوسطى طالما كانت هذه الحياة بسيطة وخالية من التعقيد، فلما أخذت الأمور تتبدل ظهرت نقابات أصحاب الحرف، الأمر الذى يعنى الفصل بين التجارة والصناعة[٧٥].

وكان الغرض الأساسى من قيام النقابات الأخيرة هو رعاية المصالح الاقتصادية لأعضائها، فلا يسمح لصانع أن يباشر حرفة فى مدينة إلا إذا كان عضوا فى النقابة التى تضم المشتغلين بهذه الحرفة، كما حرصت النقابة على عدم استيراد بضائع تضر الإنتاج المحلى للمدينة. وهكذا كانت كل نقابة تحتكر سوق المدينة فى دائرة اختصاصها، فى الوقت الذى تحرص على عدم قيام منافسة بين أعضائها[٧٦].

وقد قامت نقابات أصحاب الحرف على أساس اختيار الأعضاء وانتقائهم ، فكان لا يسمح لفرد بعضويتها إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الدينى وإخلاصه السياسى، فضلا عن مهارته الفنية. وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والأسطوات[٧٧]. أما الصبى فكان يدفع رسما ليقبل فى الحرفة، ويتعهد بطاعة أستاذه وتنفيذ تعاليمه، والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره[٧٨]. وفى مقابل ذلك يمده الأسطى بالمسكن والملبس والمأكل. فلا يستطيع الصبى أن يبيت خارج منزل أستاذه الذى لهِ حق الإشراف على سلوكه وأخلاقه، زيادة على الإشراف المهنى. وبعد أن يقضى الصبى فى الحرفة مدة تتراوح بين عامين وسبعة يصبح عاملا يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومى زهيد[٧٩]. أما العامل فمن الممكن أن يصبح أستاذا أو أسطى[٨٠] عندما يثبت إجادته لصنعته وتفوقه فيها،

(73) Heaton: Economic Hist. of Europe; p. p. 201 - 252.

(74) Painter: Med. Society; p. p. 80 - 81.

(75) Gras: The Legacy of the Middle Ages; p. 445.

(76) Painter: Med. Society p. p. 80 - 81.

(77) Boissonnade: op. cit; p. p. 212 - 214.

(78) Heaton: op. cit; p,. 205.

(79) Painter: Med. Society; p. p. 81 - 82.

(٨٠) اسطى كلمة فارسية معناها معلم عربت إلى أستاذ بمعنى معلم الثقافة وأسطى بمعنى معلم الحرف.

كان ينتج قطعة فنية تشهد على براعته، وعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك[٨١]. على أن الرغبة فى الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة، لم تلبث أن جعلت أعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم إشراك منافس جديد معهم، حتى حل وقت صار من الصعب على العامل أن يصبح أسطى، إلا إذا كان ابنا لأسطى أو زوجا لابنته [٨٢]. وهناك نلاحظ أن جميع الإنتاج الصناعى كان منزليا، بمعنى أن الصبى والعامل والأسطى كانوا يعملون جميعا فى منزل الأخير، أو فى دكان ملحق به، ويبيع الأسطى إنتاجه من نافذة منزله أو فى سوق المدينة على أقصى تقدير[٨٣].

ولم تلبث النقابات أن تكاثرت فى كل مدينة وتفرعت، حتى شملت جميع الصناعات والحرف، فوجدت نقابة لكل من القماشين والصيارفة والأطباء والقصابين وصناع الأحذية والسروجية، فضلا عن الخبازين والزياتين والنجارين والحدادين وأصحاب الفنادق وغيرهم[٨٤]. وبازدياد التخصص فى الصناعة أو التجارة ازداد عدد هذه النقابات، مما أدى إلى كثير من الخلافات بين بعضها وبعض حول حدود كل منها وتخصصها [٨٥]. ومن الأمثلة المعروفة جيدا عن الغرب الأوربى فى العصور الوسطى أنه حرم على صانع الأحذية أن يصلح حذاء مستعملا، كما حرم على الاسكافى أن يصنع حذاء جديدا، وذلك من باب احترام التخصص[٨٦].

على أنه يلاحظ أن النقابات كانت أعظم من مجرد تنظيمات اقتصادية تستهدف الربح وترعى مصالح أعضائها، إذ أنها حرصت دائما على أتقان الصنعة ورفع مستواها، بحيث صار من الممكن تحديد متوسط لأسعار الانتاج تتفق مع مستوى ذلك الإنتاج[٨٧]. حتى طريقة البيع وتحديد المقاييس والمكاييل والموازين المستعملة، عينتها

---

(81) Stephenson: Med. Hist, p. p. 560 - 561.
(82) Painter: Med. Society . p. 82.
(83) Boissonnade: op. cit; p. 222.
(84) Gras: The Legacy ; p. 445 & Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 237.
(85) Boissonnade: op. cit; p. 215.
(86) Gras: The Legacy ; p. 446.
(87) Boissonnade: op. cit; p. p. 202 - 708.

النقابة بطريقة تضمن حقوق كل من البائع والمشترى. كذلك حرصت النقابة على أن يراعى أعضاؤها حقوق بعضهم بعضا، فحرمت على الاسطوات الاستغناء عن العمال وطردهم دون مبرر، وفى الوقت نفسه أجبرت العمال على مباشرة عملهم ساعات معينة يتفق عليها. هذا بالإضافة إلى ما لجأت إليه النقابات من تحديد تكاليف الإنتاج من جهة وأسعار البيع من جهة أخرى(٨٨). ثم أن أهمية النقابة لم تقتصر على الجانب الاقتصادى فحسب، وإنما بدت أيضاً واضحة فى الجانب الاجتماعى. فأعضاء النقابة الواحدة كانوا بمثابة أسرة واحدة، يشتركون جميعا فى إحياء الأعياد العديدة، فضلا عن الحفلات الخاصة بهم(٨٩). كذلك قامت النقابة بخدمة أعضائها اجتماعيا عن طريق تحقيق نوع من التضامن الاجتماعى، وتقديم المساعدة إلى من يصاب منهم بمرض أو عجز(٩٠). فإذا مات أحد أعضاء النقابة، اشترك بقية الأعضاء فى تشييعه واهتموا بأمر أسرته وأولاده(٩١). أما فى الجانب السياسى فإن النقابات غدت على جانب كبير من النفوذ وبخاصة فى المدن الحرة، حيث نجحت النقابات فعلا فى السيطرة على الأداة الحكومية، بعد سلسلة من الثورات ميزت تاريخ المدن الأوربية وبخاصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر(٩٢).

ولكن يبدو أن ازدياد نفوذ النقابات وسلطانها فى مدن غرب أوربا فى العصور الوسطى سرعان ما أدى بالتالى إلى التعسف فى استخدام ذلك النفوذ والسلطان(٩٣). ذلك أن النقابات لجأت إلى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق تحديد عدد الصبيان الذين يقبلون للاشتغال بالحرفة من جهة، وعن طريق مطالبة السلطة الحاكمة فى المدينة بفرض ضرائب على البضائع الأجنبية المستوردة من الخارج لإنتاجها من جهة أخرى(٩٤). ولم يلبث أن ازداد تعسف النقابات، حتى غدا من الصعب على العامل العادى أن يدخل دائرتها(٩٥). وهكذا بعد أن كان الصبى يعمل فى منزل الأسطى، صار يتسلم المواد الخام

(88) Pirenne: Economic and Social Hist. p. 186.

(89) Boissonnade: op. cit; p. p. 223 - 224.

(90)Heaton: op. cit; p. p. 208 - 209.

(91) Painter: Med. Society . p. 83.

(92) Taylor: Med. Mind; vol, 1. p. p. 341 - 342.

(93)Heaton: op. cit; p.204.

(94) Painter: Med. Society . p.p. 80 - 81.

(95) Boissonnade: op. cit; p. 201.

اللازمة لعملة من رئيس النقابة ليصنعها فى منزله. وفى هذه الحالة أصبح العامل أكثر تعرضا للبطالة، فأنشأ يكدح حتى لا يتعرض لقطع أجره، أو لكى يحصل على أجر أعلى، ما جعل العمال فى نهاية العصور الوسطى مجرد مجموعة من الأجراء لا يفرق بينهم إلا نوع العمل. وإذا كان نظام النقابات قد حرص على الاحتفاظ للحرفة بمستوى عال، فإن هذا النظام كان له من جهة أخرى أثر واضح فى عرقلة التقدم الصناعى وتأخير تطوره، لأن كل نقابة اشترطت على المشتغلين بالصنعة عدم استعمال آلة أو وسيلة جديدة لاتقرها النقابة، مما قتل روح الابتكار والتجديد، وأصاب الصناعة بالجمود(٩٦).

طرق النقل:

وقد عاق النشاط التجارى فى أوربا العصور الوسطى عقبات كأداء، أهمها ضعف وسائل المواصلات، وصعوبة انتقال التجار، ونقل البضائع من مكان إلى آخر. ذلك أن الطرق العظيمة المرصوفة بالأحجار، التى أقام الرومان منها شبكة قوية ضخمة، والتى ربطت أنحاء الإمبراطورية ومدنها بعضها ببعض، لم تلبث أن اختفت وعفى عليها الزمن، كما أنهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة للإهمال الذى تعرضت له كافة المرافق العامة عند انحطاط أحوال الإمبراطورية(٩٧). ولم تكن الطرق التى عرفتها أوربا العصور الوسطى أكثر من سبل بدائية غير ممهدة، تكسوها الأتربة الكثيفة، التى سرعان ما تتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار، زيادة على ما يعترضها من حفر خطيرة جعلت المشى فيها ليلا أمرا محفوفا بالمخاطر (٩٨). أما الجسور فغدت قليلة ونادرة، الأمر الذى تطلب من المسافر فى كثير من الحالات أن يخوض فى الماء بنفسه أو يبحث عن معدية يعبر بها النهر. وفى هذه الظروف لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى استخدام البغال والخيل، فى حين اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيرا على الأقدام من مكان إلى آخر(٩٩). أما العربات فبدأ استخدامها أول الأمر فى إيطاليا حيث حرصت المدن على تحسين الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى مناسب. ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من

(96) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 186.

(97) Boissonnade: op. cit; p. 28.

(98) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 88.

(99)Heaton: op. cit; p.204.

العربات البدائية فى فرنسا وألمانيا، وإن ظلت القاعدة المتبعة هى عدم استخدام العربات إلا فى نقل البضائع إلى الأسواق المحلية(١٠٠).

حقيقة أن هناك عدة محاولات بذلت فى الشطر الأخير من العصور الوسطى لصيانة الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى يمكن معه استخدامها، ومن ذلك ما قامت به الهيئات الكنسية من جهود مبكرة لإصلاح الطرق وصيانتها(١٠١). ولكن ملاك الأراضى الذين تقع ضياعهم على الطرق العامة، والذين كان من المفروض أن يتحملوا نصيبهم فى صيانة الطرق، أو على الأقل يخصصوا جزءا من الضريبة التى يجمعونها من العابرين لهذا الغرض، لم يحاولوا النهوض بواجبهم. وهكذا استمر الأمراء يجمعون ضريبة من المارين بحصونهم أو بأراضيهم(١٠٢). دون أن يكون لهذه الضرائب ثمرة سوى مضاعفة تكاليف السفر والنقل(١٠٣). ومع أن التاجر كان يضيف ضريبة الطرق هذه إلى أثمان بضاعته ، إلا أنها - مع ذلك – عادت عليه بالغرامة، لأن ارتفاع ثمن البضائع من شأنه أن يقلل من فرص البيع.

أما الكنيسة فكان إنشاء الطرق وصيانتها أمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها(١٠٤)، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التى يجازى صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران، بالضبط كالإحسان والحج. لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية فى العصور الوسطى منظمة عرفت باسم «إخوان الجسر (Fratres Pontis)» الغرض منها المساهمة فى بناء الجسور على الأنهار وصيانتها(١٠٥). كذلك دأبت الحكومات الأوربية فى العصور الوسطى على تشجيع إنشاء الطرق وتأمينها. من ذلك ما حاوله هنرى الأول ملك إنجلترا من إنشاء طرق عمومية واسعة بحيث يتسع عرضها لمرور عربتين متقابلتين، كما أصدر التعليمات بتطهير الأراضى الواقعة على جانبى الطرق المؤدية إلى الأسواق من الأشجار

(100) Painter: Med. Society . p.p. 80 - 81.
(101) Boissonnade: op. cit; p. 201.
(102) Painter: Med. Society . p. 70.
(103) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 87.
(104) Painter: Med. Society . p. 70.
(105) Boissonnade: op. cit; p. 164.

والأحراش، حتى لا يتخذها قطاع الطرق والنهابة أوكارا يختفون فيها. والواقع أن الطرق التجارية فى أوربا العصور الوسطى كثيرا ما تعرضت لنهب الأمراء والجند المأجورين والمجرمين العاديين ، حتى وجد التجار أنه لابد لهم من الاعتماد على أنفسهم فى حماية أرواحهم وبضائعهم(١٠٦). لذلك كان التاجر الكبير يستأجر أحيانا بعض الحراس المسلحين لحراسة متاجره عند نقلها من مكان لآخر، وإن كان الغالب هو تجمع التجار عند سفرهم على هيئة قوافل لصد أى عدوان مشترك(١٠٧). هذا فى الوقت الذى أخذت المدن ذات المصالح المشتركة ترتبط بعضها مع بعض فى هيئة أحلاف لحماية تجارها وبضائعها، مثلما فعلت مدن العصبة الهانزية(١٠٨).

أما الفنادق فكانت فى أول الأمر نادرة وغير مأمونة، مما جعل الكنيسة تؤدى خدمة هامة عن طريق إقامة مؤسسات لها فى المناطق المنعزلة النائية، لا سيما أن الأديرة كانت ترحب بكل من يمر بها، دون تمييز بين فقير وغنى. وبانتعاش التجارة وكثرة الأسفار، ازداد عدد الفنادق، واعتاد التجار أن ينزلوا فيها أثناء أسفارهم.

ولعل سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها، كانت من العوامل التى شجعت على تفضيل النقل النهرى، بحيث غدت القوارب والناقلات النهرية على درجة من الكثرة استلزمت قيام موانى نهرية ونقابات لعمال النقل المائى فى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا التى تقع على أنهارها الكبرى(١٠٩) ولكن النقل النهرى لم يسلم هو الآخر من عدة عقبات أهمها تجمد مياه الأنهار فى فصل الشتاء، وأخطار الفيضانات فى الربيع، وقلة عمق مجارى الأنهار(١١٠). هذا بالإضافة إلى أن الطرق النهرية لم تسلم هى الأخرى من مكوس مثل المكوس المفروضة على الطرق البرية(١١١). ولكن الأمراء الذين حرصوا على جمع هذ المكوس لم يهتموا كذلك بالمحافظة على سلامة مجرى النهر وتأمينه، الأمر الذى دفع تجار المدن النهرية إلى

(106) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 93.

(107) Pirenne : Med. Cities p. p. 120 - 121.

(108) Heaton: op. cit; p.160 & Cam, Med. Hist. vol. 5. p. 239.

(109) Boissonnade: op. cit; p. 164.

(110) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 90.

(111)Heaton: op. cit; p. 159.

تأليف اتحادات لجمع هذه الضرائب واستغلال حصيلتها فى تطهير مجارى الأنهار وبناء أحواض للسفن(١١٢).

أما النقل البحرى ، فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من أخطار، إلا أنه أحرز تقدما كبيرا عن النقل البرى فى العصور الوسطى (١١٣). وكانت السفن فى أول الأمر تلتزم السير قرب الشاطئ، وعلى مرأى منه، خوفا من الغرق من ناحية أو من أن تضل الطريقة وسط البحر من ناحية أخرى. ولم يكن ذلك إلا بعد أن شاع استخدام البوصلة فى القرن الرابع عشر- عندما عرفها الأوربيون عن العرب- وعندئذ تجاسرت السفن على شق البحر فى شىء من الجرأة والاطمئنان (١١٤). وقد تبع ذلك تقدم المعلومات البحرية الخاصة بالمواقع الجغرافية واتجاه الرياح، بالإضافة إلى التقدم الذى أحرزه فن بناء السفن وتصميمها، وهكذا نسمع عن سفن البندقية أن الواحدة منها كانت تحمل أيام الحروب الصليبية ما يقرب من ألف راكب، وإن كان هؤلاء الركاب مكدسين فوق بعض. ويبدو أن سفن البحر المتوسط كانت أكبر حجما من السفن المستخدمة فى البحر البلطى أو بحر الشمال، بسبب قلة عمق الموانى الشمالية. وهنا نلاحظ أن السفن فى العصور الوسطى ظلت تسير بالمجداف والشراع(١١٥)، وإن كانت عملية التجديف هذه مرهقة وشاقة بحيث تطلبت تسخير الرقيق الذين كانوا يربطون أحيانا بالسلاسل فى أمكانهم لمواصلة التجديف ليل نهار.

على أن البحار لم تخل هى الأخرى من قراصنة يهددون السفن وينهبون ما بها من متاجر، الأمر الذى أدى بالسفن التجارية إلى التجمع فى شكل أساطيل لترد أى عدوان، أو ربما قامت بحراستها فى بعض الأحيان سفن مسلحة(١١٦). وكانت هذه الأساطيل التجارية تقوم بسفيرات موسمية، فى الوقت الذى يعتدل الجو وتهدأ البحار فى الربيع والصيف (١١٧). ومع أن المدن البحرية عاشت دائما فى خوف من تعدى القراصنة على سفنها، إلا أنها لم تتورع عن تحريض القراصنة على مهاجمة سفن

(112) Pirenne : Economic and Social Hist; p. 90.

(113) Boissonnade: op. cit; p. 173.

(114) Stephenson: Med. Hist, p. 227.

(115) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 82.

(116) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 91.

(117) Boissonnade: op. cit; p. 174.

المدن الأخرى المنافسة لها، مما أدى إلى كثير من الحروب التجارية بين المدن بعضها وبعض، وهي الحروب التى اتخذت طابعا عاما من القرصنة والسلب(١١٨). ولكن نمو التجارة ونشاط الحركة التجارية فى البحر أواخر العصور الوسطى تطلبت تطهير هذه البحار من القراصنة، أو على الأقل تطهير الجهات التى اعتبرتها بعض المدن مناطق نفوذ لها (١١٩). فالبندقية مثلا اعتبرت البحر الأدرياتى منطقة نفوذ لها، فقامت بتطهيره من القراصنة كما قامت مدن العصبة الهانزية بتطهير بحر الشمال والبحر البلطى. أما الصعوبة الأخرى التى اعترضت النقل البحرى فكانت تتمثل فى المبدأ السائد حينئذ وهو أنه إذا جنحت سفينة أو ألقى الموج بها أو ببضائعها على الشاطئ، فإنها تصبح غنيمة لصاحب الأرض التى جنحت السفينة عليها(١٢٠). لذلك دأب الفلاحون وصيادو السمك - بتحريض من سادتهم الاقطاعيين - على وضع عقبات فى طريق السفن عند بعض الأماكن القريبة من الشاطئ، لاصطياد سفن التجارة. وعلى الرغم من القوانين المشددة التى وضعها بعض ملوك إنجلترا - مثل هنرى الأول - لمنع هذا العبث ، إلا أنه كان من الصعب القضاء عليه قضاء تاما.

ومهما يكن الأمر، فإن النقل البحرى - مع جميع هذه المعوقات - امتاز عن غيره من طرق النقل التى عرفتها أوربا العصور الوسطى وذلك بعدم وجود مكوس أو ضرائب على السفن التى تعبر البحر، كما امتاز بعظم الحمولة التى تستطيع السفن البحرية نقلها، مما أدى إلى ازدياد استخدام هذه الوسيلة من وسائل النقل.

وأخيرا نلاحظ أنه إذا كانت التجارة فى العصور الوسطى قد تعرضت لكثير من المكوس الداخلية التى عاقت سبيلها، فإن عدم وجود رسوم جمركية على الحدود السياسية بين مختلف البلدان خفف من حدة البلاء. ولم يكن ذلك إلا فى القرن الخامس عشر عندما أخذت تظهر فى أوربا سياسة حماية الإنتاج المحلى، وفرض رسوم جمركية على البضائع المستوردة من الخارج(١٢١).

(118) Cam, Med. Hist; vol. 5. p. p. 240 - 241.

(119) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. 87.

(120) Boissonnade: op. cit; p. 173.

(121) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 92.

الأسواق :

لم يقتصر النشاط التجارى فى أوربا العصور الوسطى على الأسواق المحلية - اليومية أو الأسبوعية - فى المدن والمناطق المجاورة، حيث كان يتم تبادل الإنتاج المحلى وبيعه. وإنما ظهر هذا النشاط واضحا كذلك فى المعارض أو الأسواق الكبرى (Fairs) التى امتازت بها تلك العصور(١٢٢).

والواقع أن أوربا لم تعرف فى العصور المظلمة أسواقا تجارية كبرى، إذا استثنينا بعض الأسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دينس Denys - قرب باريس -، وهى التى كانت مثل أسواق الموالد فى البلاد الإسلامية - تجتذب إليها عددا كبيرا من العملاء الذين يفدون إليها من مختلف البلاد المسيحية بقصد الزيارة والتبرك ثم البيع والشراء . وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية، لم تعرف أوربا فى القرنين التاسع والعاشر سوى أسواق محلية أسبوعية، يذهب إليها أهل المنطقة من الأقنان والفلاحين لبيع بضع دجاجات أو بيضات أو قطع صغيرة من النسيج. ومن الواضح أن المعاملات التجارية التى كانت تتم فى تلك الأسواق جاءت على نطاق ضيق وفى حدود بضائع صغيرة. ولكفاية أغراض ومجتمعات محدودة(١٢٣).

على أن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر استلزم قيام أسواق كبرى فى جنوب أوربا وغربها للقيام بالعمليات التجارية الواسعة النطاق. ولاتوجد ثمة علاقة تربط هذه الأسواق الكبرى (Fairs) بالأسواق المحلية الصغيرة (local markets) التى عرفتها أوربا من قبل. لأنه فى حين كانت الأخيرة تستهدف سد الحاجات اليومية البسيطة للمنطقة المحيطة بها، إذا بالأولى على العكس عبارة عن اجتماعات دورية يلتقى فيها تجار كبار محترفون ، لإتمام صفقات تجارية كبيرة - بالجملة غالبا -؛ مع العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس، وأعظم قدر مستطاع من البضائع، بغض النظر عن احتياجات المنطقة المحلية التى يقام فيها السوق(١٢٤).

---

(122) Boissonnade: op. cit; p. 170.

(123) Pirenne : Economic and Social Hist. p. p. 10 - 11.

(124) Idem; p. p. 97 - 98.

وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبرى التى عرفتها أوربا العصور الوسطى كانت سوق شامبنى، وهو الإقليم الذى هيأه موقعه الجغرافى ليكون ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال(١٢٥) . وقد دأب أمراء شامبنى مدة ثلاثة قرون على العناية بالمصالح التجارية لإقليمهم، نظرا للفوائد العظيمة التى عادت عليهم من وراء ذلك، مما أكسب أسواق شامبنى شهرة واسعة(١٢٦) . والمعروف أن هذه الأسواق - وأمثالها - سارت وفق تنظيمات دقيقة، أشرف على تنفيذها موظفو الكونت الذى يتبعه السوق، كما روعى تسلسل مختلف أسواق الإقليم زمنيا، بحيث تستغرق السنة بأكملها، ولا يأتى إثنان منها فى وقت واحد، وكان التجار يحضرون قبل موعد افتتاح السوق بأسبوع لإعداد بضائعهم وتنظيم عرضها . وفى المدة المحددة لعمل السوق، كان يعلن عن فتح أبوابه صباح كل يوم وعن غلقها فى المساء عن طريق دق الأجراس، ولايجوز التعامل التجارى فى السوق إلا فى الفترة المحدودة بين دق هذه الأجراس فى الصباح والمساء. وفى الأيام العشرة الأولى من سوق شامبنى كان لا يسمح إلا ببيع الأصواف، ثم تباع الجلود والفراء فى الأيام العشرة الثانية، وفى العشرة الثالثة تباع البضائع التى توزن وتكال؛ وأخيرا تترك خمسة أيام للتجار يجردون فيها بضائعهم ويراجعون حساباتهم، ويدفعون ما عليهم من رسوم لموظفى الكونت، مع مراعاة ختم العقود الهامة بخاتم السوق (١٢٧). وبفحص هذه العقود يمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن البضائع التى كانت تعرض فى السوق، مثل الحراير والتوابل المستوردة من الشرق، والأصواف الآتية من فلاندرز وإيطاليا، والأتيال الوافدة من بريتانى ، والفراء المحضرة من روسيا وسكندناوة، والمنتجات الحديدية والجلدية المجلوبة من ألمانيا ، والنبيذ والخمور الواردة من فرنسا وأسبانيا(١٢٨) .

على أن أسواق شامبنى نزلت بها ضربتان أديتا إلى زعزعة مركزها، الأولى عندما لجأ فيليب الرابع - فى سبيل السيطرة على فلاندرز - إلى فرض رسوم باهظة

(125) Painter: Med. Society. p. 76.
(126) Idem, p. 77.
(127) Boissonnade: op. cit; p. 172.
(128) Painter: Med. Society. p. 77.

على البضائع الفلمنكية المخصصة لأسواق فلاندرز. والثانية افتتاح البنادقة سنة ١٣١٧ لخط ملاحى جديد يتجه رأسا إلى إنجلترا وفلاندرز، دون وساطة من تجار وأسواق غرب فرنسا[١٢٩].

ومهما يكن الأمر فإن هذه الأسواق الكبرى تمتعت بمركز وامتيازات واسعة فى ظل القانون ، فكانت الأرض التى يقام عليها السوق تحظى بنوع من الضمان والسلام، بحيث يتعرض من تحدثه نفسه بتعكير صفو الجو السلمى لأشد أنواع العقوبات[١٣٠]. أما التجار الذين يقصدون السوق فكانوا تحت حماية (Conduit) الأمير الذى يقع السوق داخل منطقة نفوذه، هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين للأسواق (Custodes nundinarum) يعملون على حفظ النظام فيها، ويفصلون فى المنازعات التى تنشأ بين التجار، ويحملون أختام السوق لختم المعاملات التى تتم بين التجار[١٣١].

نشأة المصارف:

ولما كان كثير من الأمراء الاقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم فإن الأسواق الأوربية وجدت نفسها فى حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار، كل بالعملة التى يطلبها والتى يستطيع أن يتعامل بها فى بلده. ويعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى، وذلك لأن الصراف فى العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوى متين يضع فيه نقوده، مما جعل بقية الأفراد يلجئون إليه لإيداع أموالهم فى مأمن عنده[١٣٢]. ولم تلبث أن استخدمت فى إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية كوسيلة لتجنب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضة، ثم أخذ موظفوا البابوية ينشرون هذا النظام فى مختلف أنحاء أوربا[١٣٣]. كذلك أخذ يظهر نظام الدفع بالإحالة أو الشيكات، بحيث إذا كان لاثنين من التجار ودائع مالية عند صراف واحد فإن أحدهما يستطيع دفع حساب الآخر بإرسال ورقة إلى الصراف يأمره بدفع المبلغ لزميله[١٣٤]. ولم تستخدم هذه الوسيلة فى المعاملات المالية داخل البلد

---

(129)Heaton: op. cit; p. 170.

(130) Painter: Med. Society. p. 77.

(131) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 99.

(132) Stephenson: Med. Hist, p. 563.

(133) Cam. Med. Hist; vol. 5. p. 240.

(134) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit; p. p. 91 - 107.

الواحد، وإنما استخدمت بين مختلف البلدان، حيث بدأ بها الداوية والاسبتارية فى القرن الثانى عشر ثم حاكاهم كثير من التجار فى القرن التالى(١٣٥) . وعندما استكشف الصراف أن الودائع التى لديه أكبر من حاجة عمله اليومى بدأ يفكر فى استغلالها فى الاقراض بفائدة، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك. وهنا نلاحظ قاعدة عامة، وهى أن صيارفة العصور الوسطى جمعوا بين مهنتى إقراض الأموال والتجارة. وكان ملوك أوربا وأمراؤها يعانون فى القرن الثانى عشر ضيقا ماليا شديدا، بسبب كثرة النفقات والمطالب، فى الوقت الذى أخذت ثروة التجار تزداد ازدياداً يسترعى الانتباه نتيجة لازدياد النشاط التجارى. لذلك لم يجد أفراد الطبقة الأرستقراطية وسيلة لسد مطالبهم سوى الاقتراض بفائدة من التجار، وعندئذ لم يستطع الأخيرون رفض مطالب الحكام ورغباتهم، مما شجع مبدأ القروض ذات الفائدة(١٣٦) .

والمعروف أن اليهود انفردوا أول الأمر - فى أوربا العصور الوسطى - بإقراض الأموال بفوائد، مما مكنهم من السيطرة على الحياة المالية فى أوربا؛ لأن الكنيسة حاربت أكل الربا الذى نهى عنه الإنجيل والمسيح(١٣٧) . وهكذا شاءت الظروف أن لا تنافس اليهود فئة أخرى فى ميدان النشاط المالى فى أول الأمر، ولكن اتساع نطاق النشاط التجارى جعل من الممكن التهرب من تعاليم الكنيسة الخاصة بتحريم الفوائد المالية (١٣٨)، كأن يتعهد المقترض بدفع ألف فلورين فى وقت محدود بدون فائدة، ولكنه لايتسلم من المقرض فعلا إلا تسعمائة فلورين، وبذلك تكون فائدة القرض مائة فلورين لم تدون فى العقد(١٣٩) . كذلك هناك وسيلة أخرى تحايل بها أحد التجار

---

(135) Painter: Med. Society. p. 91.

(136) Pirenne : Economic and Social Hist. p. p. 127 - 129.

(١٣٧) «إن اقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى، لا تضعوا عليه ربا» (العهد القديم - سفر الخروج - الإصحاح الثانى والعشرون - ٢٥) وكذلك «وإذا افتقر أخوى وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أومستوطنا فيعيش معك، لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل أخشى الهك فيعيش أخوك معك، فضتك لا تعطه بالربا، وطعامك لا تعطه بالمرابحة» . (العهد القديم - سفر اللاويين - الاصحاح الخامس والعشرون ٣٥ - ٣٧) .
وكذلك «بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لاترجون شيئا» .

(138) Cam. Med. Hist; vol. 6. p. p. 491 - 492.

(139) Boissonnade: op. cit; p. 166.

الإيطاليين فى أوائل القرن الثالث عشر، عندما أقرض الحكومة الإنجليزية مبلغا من المال على أن تسدد الحكومة قيمة هذا المبلغ بالأصواف، وقد روعى فى العقد أن تكون قيمة الأصواف التى تسلم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذى دفعه للحكومة، وبذلك حصل التاجر على فائدة القرض(١٤٠).

وعن هذه الطرق استطاع الإيطاليون أن يشتغلوا بأعمال الصيرفة ليحلوا محل اليهود، لاسيما بعد أن أخذ الناس يفرقون بين نسبة الفائدة المعتدلة والربا الفاحش؛ وبعد أن أتت ثورة الحروب الصليبية كذلك بكثير من التشريعات والقوانين التى تستهدف الحد من نشاط اليهود(١٤١). ذلك أنه لم يتيسر للإيطاليين أن يحلوا محل اليهود إلا بعد أن أخذت الدول الأوربية مثل إنجلترا وفرنسا ثم أسبانيا تضطهد اليهود وتطردهم بالجملة من بلادها(١٤٢).

وكان أن ظهرت عدة بيوت مالية كبيرة فى إيطاليا أهمها بنك القديس جورج فى جنوة الذى ربما كان أشهر البنوك الأوربية، فى العصور الوسطى(١٤٣). على أن البابوية فضلت دائما أن تعامل بنوك فلورنسا التى ظهر معظمها فى القرن الثالث عشر، والتى تعتبر أولى نماذج البنوك الدولية، إذ كان لبعضها فروع امتدت من إنجلترا وفلاندرز غربا حتى أطراف البحر المتوسط شرقا؛ كما قامت بتقديم استشاراتها المالية للملوك والبابوات(١٤٤).

---

(140) Painter: Med. Society. p. 89.

(141)Heaton: op. cit; p. 184.

(142) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 134.

(143) Gras: The Legacy of the Middle Ages; p. 442.

(144) Cam Med. Hist; vol. 6. p. p. 486 - 487.

القسم الثانى

الحياة الفكرية والفنـون

التعليم - النشاط التشريعى

الآداب - العلـوم - الفنـون

الباب الخامس

التعليم والمدارس والجامعات

التعليم فى أوائل العصور الوسطى :

يحسن بنا أن نبدأ هذا الموضوع بالإشارة إلى حقيقة جديرة بالأهتمام، وهى أن التعليم فى أوربا العصور الوسطى لم يقتصر علي المؤسسات الأكاديمية المعروفة من مدارس وجامعات فحسب؛ وإنما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير اقطاعى بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء وتدريبهم متى يكونوا فى المستقبل فرسانا صالحين مؤهلين خلقيا وحربيا. هذا إلى أن بيوت الأسطوات من أصحاب الحرف والتجار، صارت هى الأخرى معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيئتهم للحياة العملية(١) . وليس هناك من شك فى أن هذه الاتجاهات وأشباهها أسهمت فى تربية نسبة محدودة من أبناء العالم الغربى فى عصر انكمش التعليم العام وقل الإقبال عليه.

أما فيما يتعلق بهذا التعليم العام فيلاحظ أن العصور الوسطى ورثت النظم الرومانية، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التى احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم، على الرغم من أن الكنيسة غيرت كثيرا فى أفق المعرفة القديمةومادتها؛ حتى قيل أن نمو الكنيسة فى الغرب جاء مصحوبا بتدهور سريع فى الدراسات الكلاسيكية(٢) . على أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعة فى نظم التعليم مثلما كان الحال فى مواد الدراسة، فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير فى نظمها وإن اختلفت فى مظهرها العام(٣) .

وكما أخذ التعليم الرومانى عن اليونان أخذ التعليم فى العصور الوسطى عن الرومان، وبخاصة عن مدارس البلاغة الإمبراطورية(٤) . ذلك أنه كانت هناك فى أوائل الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة فى المدن الكبرى، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين(٥) . أما المرحلة

---

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 465.

(2) Lane-Poole: Illustrations of the Med, Tbought, p. 5

(3) Eyre: op. cit; p. 324.

(4)Cam, Med. Miist. vol. 5, p. 765.

(5) Adamson: The Legacy of th Middle Ages p. 255.

الأولى أو الابتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى، فى حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسات القانونية والفلسفية(٦) على أن مدارس البلاغة هذه لم تلبث أن اختفت فى القرن الخامس، وإن ظلت المدارس العلمانية ـ التى سارت وفق الأسلوب الرومانى فى التربية ـ منتشرة فى أجزاء من غاليا وإيطاليا حتى نهاية القرن السادس. ومن المعروف أن العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية فى الغرب كان أحلك العصور فى تاريخ أوربا الثقافى(٧). ومهما تكن أهمية الدور الذى قامت به الكنيسة فى الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذى ظل مضيئا فى سماء غرب أوربا فى القرن السابع، فمن الثابت أن كتب النحو التى اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات دوناتوس وسرفيوس وهما من علماء القرن الرابع وكلاهما وثنى؛ فى حين ظل كتاب برسكيان عن «قواعد النحو» ـ الذى ألفه باللاتينية حوالى سنة ٥٠٠ فى ثمانية عشر جزءا ـ يمثل المرجع الأول فى ذلك العلم(٨).

على أن أهم ما ميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعا تاما لسيطرة الكنيسة، نتيجة لانحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة فى المجتمع الغربى من جهة، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجيا من جهة أخرى. وهنا نلاحظ أن الكنيسة أقرت تدريس الفنون الحرة ـ التى كانت تلقن للتلاميذ فى المدارس الوثنية ـ ولكن على أسس مسيحية، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولابد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه(٩). وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين مارتيانوس كابلا الذى كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى(١٠). ولعل نظرة تحليلية يلقيها الباحث على هذه المجموعة من الدراسات تكشف له أنها تنقسم إلى قسمين: دراسات إنسانية ودراسات علمية. وقد أدرك الفيلسوف بيؤثيوس (٤٧٥ – ٥٢٤) هذا الفارق فقسمها إلى مجموعة ثلاثية تشمل

---

(6) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 742.

(7) Rashdall: The Universities of Europe in the Middle Ages, vol. I, p. p. 26 - 27.

(8) Taylor: The Medieval Mind, vol, 2 p. p. 130 - 151.

(9) Adamson: The Legacy, p. 256.

(10) Eyre: op. cit; p. 258.

النحو والبلاغة والمنطق، ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى[(١١)] ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب، وعن طريقه انتقل إلى المدارس الديرية، مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة في تاريخ التعليم في أوربا العصور الوسطى[(١٢)].

وقد ظلت المدارس في الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهيىء تعليما ابتدائيا عاما لإعداد الأفراد للحياة، ولكنها لم تلبث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل. ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفورا قويا من التعليم، حتى أن ثيودريك - ملك القوط الشرقيين - حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجا بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم في المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب[(١٣)]. وهكذا لم يكد ينتهي القرن السابع إلا كان التعليم في أوربا قد أصبح دينيا بحتا، داخل مدارس ديرية وأسقفية، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثاني عشر[(١٤)]. وهنا نشير إلى أن مدرسة القصر المشهورة في الدولة الميروفنجية لم تكن مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من هذا الاصطلاح، وإنما كانت تقليداً لمدرسة تريف في أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية، فكان الغرض منها تدريب الشباب حربيا وتعليمهم ركوب الخيل وحمل السلاح، بالإضافة إلى بعض المعلومات اللازمة لمباشرة الوظائف العامة مثل مبادئ القانون المدني والكنسي. وفي هذه المدرسة كان يتدرب غلمان البلاط الميروفنجي[(١٥)].

ومهما يكن الأمر، فإننا نعود فنقول أن الانتقال من التعليم القديم إلى تعليم العصور الوسطى لا يعني تغييرا كبيرا في أسلوب التعليم بقدر ما كان هناك من تغيير في روح التعليم ومواد الدراسة. وقد بدأت هذه الثورة حوالي سنة ٦٠٠ عندما ازداد نفوذ البابوية في توجيه التعليم ورسم سياسته، فأصبح التعليم منصبا على الإنجيل واللاهوت، الأمر الذى جعل الدراسات الإنسانية تحاول في مشقة بالغة الاحتفاظ

---

(11)Cam. Med. Hist. vol, 7, p. 762.

(12) Eyre: op. cit; p. p. 324 - 325.

(13) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 743.

(14) Painter: A Hist, of the Middle Ages; p. 466.

(15) Davis: Charlemagne, p. 168.

بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون[١٦] . ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم إلا بتدريس اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات ، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشئ ليصبحوا من رجال الدين[١٧] . بل إن البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) اشتهر بكراهيته للأسلوب البلاغى الكلاسيكى وتفضيله اللاتينية الدارجة، بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ فى عدم جدوى كافة الدراسات التى لا تساعد فى فهم العقيدة المسيحية[١٨] .

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية ـ بما فيها معرفة اللغة اليونانية ـ إلا فى إيرلندا[١٩]، التى انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كالدونيا (سكتلنه) ونور ثمبرلاند، ثم بقية انحاء إنجلترا[٢٠] . ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صلب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الإيرلندية التى قامت فى غاليا الفرنجية وألمانيا ولمبارديا، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير بوبيو[٢١] . وكان من المحتمل أن تقضى الحركة البندكتية على هذا الاشعاع العلمى،لولا جهود القديس بونيفيس (ت ٧٥٥) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التى غادرت إنجلترا إلى القارة [٢٢] .

حقيقة أن الهدف الأساسى لرجال هذه البعثات كان نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية، ولكن هذا الهدف كان لايمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية[٢٣] . وهكذا فإن الفضل يرجع إلى الأديرة التى أسسها القديس بونيفيس فى فولدا وهرسفلد، وإلى المدارس الأسقفية والديرية التى أحياها ذلك القديس، فى إنقاذ الحياة العلمية فى

---

(16) Taylor: The Med. Mind, vol, 2, p. 318.

(17) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 466.

(18)Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 487.

(19) Idem, p. 501.

(20) Poole: Illustrations of the Hist. of Med, Tbought, p. p. 8 - 10.

(21) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 747.

(22) Eyre: op. cit; p. 240.

(23) Tarylor: op. cit. vol.1, p. p. 198 - 200.

العصور المظلمة، وفى تمهيد الطريق لما قام به شارلمان من إصلاح المدارس وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التى تعرف باسم النهضة الكارولنجية[٢٤].

شارلمان والعناية بالتعليم:

اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين، وكثرة الأخطاء المتواترة فى المخطوطات الدينية، بل فى الإنجيل نفسه؛ ويأمرهم بالعناية بالمدارس والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع[٢٥]. وقد استعان شارلمان فى هذه الحركة الواسعة بخلاصة المواهب التى أنجبتها إنجلترا وإسبانيا وإيطاليا، مثل بولينوس النحوى - وهو من اكويليا - وبطرس البيزى وبولس الشماس من لمبارديا، وثيودلف من اسبانيا؛ وعلى رأس هؤلاء جميعا الكوين الذى وفد من يورك والذى كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية[٢٦]. وكان الكوين هذا بمثابة «وزير التعليم» فى عهد شارلمان، زيادة على كونه معلما خاصاً لأمراء القصر بل الإمبراطور نفسه[٢٧]. ولم تلبث أن أصبحت مدرسة تورز - بفضل إشراف الكوين وتوجيهه - مركز الثورة الثقافية فى الإمبراطورية الكارولنجية، ففى هذه المدرسة لم يقف نشاط الكوين عند العناية بالخط وتجميله فحسب[٢٨]، وإنما امتد إلى مراجعة الكتب الدينية وتصحيحها ثم توزيعها بعد ذلك على الأديرة لنسخها فى صورتها الجديدة[٢٩].

حقيقة أن الغرض الرئيسى الذى دفع شارلمان إلى هذه الحركة دينيا يستهدف تصحيح الإنجيل وكتب الصلوات، وغيرها من الكتب الدينية المتداولة[٣٠]، ولكن الحركة امتدت حتى شملت أيضًا حفظ التراث اللاتينى الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة؛ حتى أن أقدم ما لدينا من المخطوطات يرجع تاريخ إعادة

---

(24)Cam. Med. Hist. vol, 5, p. 772.

(25) Lavisse: op. cit. : Tome 2, Livre 1, p. p. 342 - 343.

(26) Foligno: Latin Thought: p. 68.

(27) Rashdall: op. cit., vol 1, p. 23.

(28)Cam. Med, Hist. vol. 3, p. 517.

(29) Guizot: Hist. de la Civilisation en Franee; Tome 2, p. p. 199 - 201.

(30) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 745.

نسخها إلى العصر الكارولنجى، باستثناء بعض الكتابات القليلة التى عثر عليها رجال النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر والتى نسخت قبل العصر الكارولنجى.

أما مدرسة القصر التى عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل فقد أعاد شارلمان تنظيمها فى بلاطه بمدينة آخن على أسس جديدة. ذلك أنه جعل منها مجمعا للعلماء والأدباء، فضلا عن صفتها الأساسية كمدرسة لإعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم(٣١). وخير شاهد على الروح الجديدة التى نفخها شارلمان فى هذه المدرسة، تلك الأسماء التى تسمى بها أعضاؤها والتى أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب؛ فشارلمان داود، والكوين فلاكوس وانجلبرت هومر... وقد أظهر الإمبراطور شارلمان شغفا كبيرا بجميع نواحى المعرفة لاسيما الفلك، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرؤها على الرغم من قلة درايته بالكتابة(٣٢).

وهكذا انتشرت المدارس الأسقفية والديرية فى جميع أنحاء إمبراطورية الفرنجة، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والاستمرار فى تأدية رسالتها بعد سقوط هذه الإمبراطورية مثل مدارس ريمس وليون وفريير وكوربى وفولدا وبافيا(٣٣). وكان نظام التعليم الرسمى فى الإمبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات، وإن وجدت بعض أمثلة لنساء متعلمات فى أوربا القرن التاسع. وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا فى العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة، لما فى ذلك من توسيع الأفق وإنارة الفكر، ولكنهم عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها فى تحرير رسائل غرامية(٣٤).

ومهما كان الأمر فقد كان التعليم فى ذلك العصر عاما، فلم يقتصر على رجال الدين وحدهم، كما يتضح ذلك من منشور أصدره ثيودلف ـ أسقف أورليان ـ لأتباعه من رجال أسقفيته، يحثهم فيه على تعليم الأهالى بصفة عامة سواء فى المدن أو فى الريف(٣٥). وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن «يبعث كل فرد ابنه

---

(31) Eyre: op. cit; p. 325.

(32) Taylor: op. cit; p. 214.

(33) Eyre: op. cit; p. 811.

(34) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 465.

(35) Guizot: op. cit, Tome 2, p. p. 212 - 216.

لتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الابن فى المدرسة حتى يكتمل تعليمه» . أما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب «الذى يجب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح» . ويبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة فى ذلك العصر لمعرفة حساب الأيام والأعياد الدينية . ولكن من الواضح أنه كان عسيرا أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لإجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب.. بالأرقام الرومانية التى لم يعرف غرب أوربا غيرها حينئذ؛ لأن الأرقام الهندية واستخدام الصفر فى الحساب لم تعرفهما أوربا إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر(٣٦) .

وعلى الرغم من أن ثيودلف ـ أسقف أورليان ـ كان يحلم بنوع من التعليم أوسع أفقا، عندما كتب إلى رجال أسقفيته يحثهم على تعليم الصغار بدون أجر مكتفين بما يقدمه الخيرون من منح اختيارية؛ إلا أن التعليم ظل فى العصر الكارولنجى يستهدف تدريب رجال الدين وإعدادهم ليكونوا قساوسة أو رهابنا صالحين (٣٧) . وهكذا أصبحت لكل دير وكل كتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين. وهنا يلاحظ أن هذه الحركة التعليمية الضخمة لم تندثر بسرعة عقب وفاة شارلمان، إذ انعقد مجمع كنسى سنة ٨٢٩ حث لويس التقى على أن يحذو حذو أبيه فى تشجيع المدارس والتعليم. هذا إلى أن البابا أيوجين الثانى أمر سنة ٨٢٦ بضرورة وجود مدرسة على الأقل فى كل أسقفية(٣٨) . هذا وإن كان المرسوم الذى أصدره هذا البابا تبدو فيه التفرقة واضحة بين الفنون الحرة Artes liberales ـ وهى العلوم الدنيوية، وبين العلوم الدينية والنظريات اللاهوتية Sancta dogmata ولعل خير ما فعله الإمبراطور لوثر الأول هو أنه أمر سنة ٨٥٥ بتأسيس تسعة مدارس مركزية فى بافيا وافريا Ivrea وتورين وكريمونا وفلورنسا وفورمو وفيرونا وفيكنزا وفورم (٣٩) .

---

(36) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 746.

(37)Cam. Med. Hist. vol. 5. p. p. 774 - 775

(38) Poole: Illustrations., p. 21.

(39) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 745.

أما عن نظام التعليم حينذاك ـ فى القرن التاسع ـ فكان ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية فى أصول الدين والكتاب المقدس. ويبدو أن هذه المرحلة كانت إلزامية للمقبلين على الانتظام فى سلك الكهنوت، كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين وإن كان إقبال هؤلاء الأخيرين عليها ضعيفا. أما المرحلة الثانية، فتشمل موادها الفنون السبعة الحرة بمجموعيتها الثلاثية والرباعية، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية فى حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل. وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة، وهى خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية فى ضوء آراء آباء الكنيسة، لا سيما القديس أوغسطين.

ويلاحظ أنه لم يوجد توافق أو انسجام بين مراحل التعليم الثلاث السابقة، سواء من حيث تعاقبها أو علاقتها بعضها ببعض؛ وإنما كثيرا ما كانت هذه المراحل تتداخل بعضها فى بعض ، أو تتباعد بعضها عن بعض ، وفق الظروف والأحوال.

المدارس الديرية:

ولم تلبث حركة الاحياء الكارولنجية أن استنفدت قوتها حوالى سنة ٨٧٧، أى عند وفاة شارل الأصلع، وإن كان أثرها قد ظل باقيا لم يندرس. وفى وسط المحنة التى تعرضت لها الإمبراطورية الكارولنجية فى القرن التاسع نتيجة للأخطار الخارجية من ناحية والانحلال الداخلى من ناحية أخرى، قامت المدارس الديرية ـ فيما بين سنتى ٨٠٠ و ١١٠٠ ـ برسالتها كاملة؛ إذ أضحت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية، كما تخرج فى مدارسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين[٤٠] . لذلك اختار بعض المؤرخين والكتاب أن يطلقوا اسم «العصر البندكتى» على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادى عشر، على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذى أضحى زمام التعليم فى أوربا بأيدى رهبان الأديرة البندكتية[٤١] .

ذلك أن مدارس الأديرة قامت بدور أكثر أهمية من مدارس الكتدرائيات فى تلك الفترة، كما أن الأديرة فتحت أبوابها لطلاب العلم ـ من غير الديرين ـ لأول مرة فى

(40) Eyre: op. cit., p. 326.

(41) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 29.

تاريخها. ومنذ بداية القرن التاسع صار لكل دير من الأديرة المعروفة مدرستان منفصلتان، إحداهما للنظامين المنقطعين للعبادة من أهل الدير Oblati والأخرى للخارجيين (٤٢).

ويبدو أن تيار النشاط العلمى فى أوربا بدأ يتحول - منذ أواخر القرن التاسع - من غاليا إلى ألمانيا، التى أخذت تفيض حيوية فى عهد حكامها من ملوك الأسرة السكسونية. وقد نتج عن ذلك قيام نهضة فى ألمانيا فى القرن العاشر تعرف بالنهضة السكسونية أو النهضة الأوتية، نسبة إلى الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) (٤٣). على أن هذه النهضة الأوتية كانت أضعف أثرا وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها، هذا وأن تناولت هى الأخرى النواحى الأدبية والفنية والتعليمية، فضلا عن العناية بالنحو اللاتينى بوجه خاص، لأن معرفة قواعد النحو توقفت عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة(٤٤).

وكانت أبرز مدارس ألمانيا فى تلك (الحقبة) مدرسة دير سانت جال، حيث ظل تراث الحركة الفكرية الإيرلندية قويا(٤٥). ونخرج من دراسة نظم هذه المدرسة وأشباهها من المدارس الديرية المعاصرة بأن التعليم فيها ظل دينيا فى أسلوبه وأهدافه، بحيث لم يكن هناك نظام تعليمى ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جاهلا لا يعرف القراءة والكتابة (٤٦). كذلك يلاحظ أن التدريس فى هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية، بسبب ندرة الكتب وارتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء فى المخطوطات الرخيصة. ولم يكن ذلك إلا فى أواخر العصور الوسطى عندما ازدادت الكتب، وكثرت المخطوطات بأيدى التلاميذ، فأخذ المدرسون يعدلون عن الإملاء ليشرحوا ما بأيدى التلاميذ من نصوص(٤٧). كذلك يلاحظ أن التعليم اتصف فى المدارس الديرية

---

(42) Idem: p. 29.

(43) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 746.

(44) Taylor: op. cit., vol,2 p. p. 361 - 362.

(45) Coulton: Life in the Middle Ages. vol 2, p. p. 113 - 114.

(46) Eyre: op. cit., p. 326.

(47) Adamson: The Legacy, p. 278.

بالصرامة والحزم والقسوة فى سبيل المحافظة على النظام، فضلا عن ضعف المستوى العلمى للمعلمين(٤٨).

ونستطيع أن نقف على ما كان يلاقيه صغار التلاميذ فى تلك العصور من متاعب وآلام بقراءة فقرة مما كتبه جيوبرت النوجنتى Guibert de Nogent المتوفى سنة ١١٢٤، إذ يترجم لحياته فيحكى كيف أنه كان يساق صباح كل يوم - وهو طفل فى التاسعة من عمره - إلى مدرسة الدير، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف، لم يتعلم نفسه النحو إلا فى الكبر. ثم يستطرد جيوبرت ذاكرا أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة، حتى أيام الآحاد والأعياد، كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف كثيرا من الواجبات الشاقة (٤٩). أما أستاذه فيصفه بعدم المقدرة فى الشعر والنثر، وأنه كان لايجيد شيئا سوى توجيه اللكمات والألفاظ القاسية إليه وإلى زملائه، فى الوقت الذى كان يفرض على تلاميذه حفظ مالا يستطيع هو تدريسه! ثم يعيب جيوبرت على ذلك المدرس أن يطلب من عقل التلميذ الصغير استيعاب ما لا يستطيع الفرد أن يفهمه. وأخيرا يعلق على ذلك بأنه يجب ألا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نعيها ونجعلهم يفهمونها أولا.. وهكذا تمدنا آراء جيوبرت بصورة واضحة عن فلسفة التربية فى أوربا العصور الوسطى، وهى صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخى علم التربية فى العصور الحديثة(٥٠).

المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية:

كان الأسقف فى أول الأمر يتولى رآسة المدرسة التابعة لأسقفيته، ولكن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشئون التعليمية داخل أسقفياتهم لفرد خاص أشبه بمدير التعليم (Scolasticus archiscola) . ولم يسمح لأى فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الأسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف، وإلا تعرض للمحاكمة(٥١).

---

(48) Coulton: Life in the Middle Ages. vol 2, p. p. 113 - 114.

(49) Thompson: op. cit., vol. 2. p. 758.

(50) Ibid.

(51) Adamson: The Legacy of the Middle Ages; p. p. 256 - 257.

ومن الواضح أن المدارس الأسقفية ضعفت فيها الرقابة والشدة فى معاملة التلاميذ عن المدارس الديرية، الأمر الذى جعل الأولى مسرحا لكثير من المتاعب من جانب التلاميذ المشاكسين. على أن هذه المدارس الأسقفية التى قلت فيها الرقابة على التلاميذ، هى المدارس نفسها التى قدر لها البقاء والاستمرار لتزدهر فى أوائل القرن الثانى عشر، فى الوقت الذى أخذ نجم المدارس الديرية فى الأفول البطىء(٥٢). وليس معنى ذلك أننا نقلل من أثر الأديرة ومدارسها إذ يكفى أن معظم المستنيرين من رجال الدين فى ذلك العصر تلقوا تعليمهم فى الأديرة، زيادة على أن المدارس الأسقفية نفسها استمدت معلميها وأساتذتها من الأديرة(٥٣). وكل ما هنالك هو أن المنظمات الديرية الجديدة - لا سيما الكلونية والسترشيانية - شغلتها المسائل المتعلقة بالإصلاح وسياسة العصر عن الاهتمام بالنشاط التعليمى، فى حين استمرت الأديرة البندكتية فى ألمانيا تواصل نشاطها التعليمى.

وقد أخذت المجامع الكنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تنادى بإنشاء مدارس فى كل كتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس (٥٤). وكانت تلك المدارس تدور حول مركز الأسقف الذى عين للإشراف على تلاميذ المدرسة موظفا لقب بأستاذ المدرسة Magister Scholarum، وإن كان أمين الكتدرائية Chancellor هو الذى تولى فى بعض الحالات - مثل مدرسة كتدرائية باريس - الإشراف على المدرسة(٥٥).

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكتدرائية - وبخاصة فى فرنسا - النشاط الفكرى فى غرب أوربا عند بداية القرن الثانى عشر؛ وظهر من هذه المدارس - مثل ريمس وشارتر - ما أصبح أما لمجموعة من كبار المفكرين الذين لمعت أسماؤهم فى مختلف ميادين المعرفة وبخاصة فى العلوم والآداب؛ هذا فى الوقت الذى لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة(٥٦). وهنا ينبغى أن نلاحظ دائما أن تلك المدارس الكتدرائية لم تختلف عن المدارس الديرية فى طابعها الدينى وأهدافها

(52) Thompson: op. cit., p. 749.
(53) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 29.
(54) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 467.
(55) Eyre: op. cit., p. 325.
(56) Idem: p. 269.

الكنسيـة، الأمـر الذى كـان له أعـمق الأثر فى تشكيل الحـركـة الفكرية التى جـاءت مصحوبة بظهور الجامعات الأوربية فى القرن الثانى عشر[٥٧]. كذلك اهتمت المدارس الكتـدرائيـة بدراسـة النحـو اهتـمـام بالغـا. واتخـذت هذه الدراسـة شكل تلقين للمـبـادئ والقواعد النحوية، ثم إعطاء تطبيقات عـملية عليها، زيادة على دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها. أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضاً بقسط وافر من عناية المدارس الكتدرائية فى العصور الوسطى، وفـى مـقدمـة هذه العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون[٥٨].

والواقع أن أوربا شهدت نهضة فكرية عظيمة فى القرن الثانى عشر، ساعد عليها الانتعاش الاقتصادى، والاستقرار الاجتماعـى والسياسى، وازدياد اتصـال الأوربيين بالثـقـافة الإسلامـيـة عن طريق الأندلس وصـقليـة والشـام[٥٩]، وقد ترتب على هذه الحـركة الحـضـارية اتسـاع نطاق المعرفـة فى غـرب أوربا، بحـيث لم تعـد تتـسع لهـا المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التى كـانت عليها فى أوائل القرن الثانى عشر، مما يتطلب قيام نظام جديد للتعليم العالى يفى بحاجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم. ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التى تعتبر فى نظر بعض المؤرخين أعظم ما قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة[٦٠].

الجامعات :

ظهرت أولى الجامعات الأوربية فى القرن الثانى عشر فى بولونيا بإيطـاليا، وفى باريس بفـرنسا. وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامـعات الأوربية فى حوض البحر المتوسط، فى حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى. والمعروف أن لفظ رابطة أو جامعة Universitas لم يعن فى الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتمعوا فى صعيد واحد لمباشرة النشـاط الثـقـافى[٦١]. على أن الطلاب خطوا خطوة السبق فى بولونيا عندما نظموا

---

(57) Rashdall: op. cit., vol. 1, p.p. 29 - 30.

(58) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 468.

(٥٩) انظر القسم الثالث من هذا الكتاب، وكذلك. Cam. Med. Hist., vol 6., p. p. 559 - 560

(60) Eyre: op. cit., p. 328.

(61) Rashdall op. cit., vol. 1, p. p. 4 - 6.

أنفسهم فى هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ «جامعة»؛ وانقسموا إلى فريقين كبيرين: الطلاب الوافدون من إيطاليا والبلاد الواقعة جنوبى جبال الألب Cismontane والطلاب الوافدون من الجهات الواقعة شمال جبال الألب Ultramontane (٦٢) ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة واحدة، كطلاب لمبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافاريا أو سوابيا. واختار أبناء كل بلد من هؤاء مشيرا أو مراقبا Conciliarius ، على أن يجتمع هؤلاء المشيرون سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة Rector من بينهم. وهكذا لم يكن الأساتذة أعضاء فى جامعة بولونيا، ولم يكن لهم نصيب فى إدارتها وإنما ظلوا بمثابة مستخدمين، تدفع لهم نقابة الطلبة أجورهم وفقا لعدد الدروس التى يدرسها كل منهم وعدد طلبته(٦٣). حقيقة أن هيئة التدريس سرعان ما ألفت نقابة خاصة بها، ولكن السيادة ظلت لنقابات الطلبة فى جامعة بولونيا، حتى أن هذه النقابات الأخيرة كانت تفرض على الأساتذة قيودا وغرامات إذا خالفوا القواعد العامة التى وضعتها(٦٤).

أما فى جامعة باريس فاتخذ التنظيم اتجاها عكسيا لما كان عليه الحال فى بولونيا، إذ بدأ الأساتذة بتكوين رابطة أو جامعة Universitas فى حين انقسم الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب أصولهم والشعوب التى ينتمون إليها، لكل مجموعة وكيل أو قائم بأعمالها (Procurator). وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الأروقة يختارون الرئيس أو المدير الأعلى للجامعة (Rector) الذى كان بطريقة آلية رئيس أساقفة باريس لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الأسقفية(٦٥). أما إدارة جامعة باريس فكانت فى أيدى الأساتذة لا فى أيدى الطلبة، كما كان الحال فى بولونيا(٦٦). وربما رجع السبب فى ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة فى الجامعتين،

(62) Cam. Med. Hist, vol, 6, p. 581 &
سعيد عاشور: الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى.

(63) Eyre: op. cit; p. 330.

(64) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 470 &
سعيد عاشور: الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، ص ٣٧ وما بعدها.

(65) Haskins: The Rise of Universaties, p. p. 21 - 22.

(66) Cam. Med Hist. vol. 6., p. 561.

فمدرسة باريس الأسقفية - وهى التى أصبحت جامعة باريس فيما بعد - كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث فى سن الرابعة عشر بل الثانية عشر، فى حين كان الطلبة فى بولونيا أكبر سنا وأتم نضجا لأن الدراسة الأساسية فيها كانت قانونية، ومن ثم أقبل عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الأعمال [٦٧]. هذا إلى أن جو القومونات اللمباردية المشبع بالحرية والبعيد عن القيود - التى أحاطت بالجو الأسقفى الذى ولدت فيه جامعة باريس - كان له أثر واضح فى هذا التطور، ومهما يكن الأمر، فإنه يمكن القول بأن بولونيا وباريس هما الأصل الذى تفرعت عنه بقية الجامعات الأوربية واستقت منه نظمها وقواعدها، فكانت باريس نموذجا للجامعات التى قامت على أساس رابطة الأساتذة فى شمال أوربا؛ فى حين كانت بولونيا أساسا للجامعات التى قامت على أساس رابطة الطلبة فى جنوبها[٦٨].

وكان الاصطلاح الذى أطلق فى أول الأمر على ما نعرفه باسم الجامعة هو (Stu-dium Generale) بمعنى المكان الذى يتلاقى فيه الطلبة الوافدون من جميع الجهات، لا - كما يظن البعض خطأ - المكان الذى تدرس فيه جميع المواد[٦٩] ولم يصبح هذا الاصطلاح شائعا إلا فى أوائل القرن الثالث عشر، عندما أصبح يمتاز بخصائص أساسية، أولها: أنه يعبر عن البقعة أو المدرسة التى تستقبل الطلبة من جميع الجهات، وثانيها: أنه كانت تلقن فيه دراسات عليا على أن تكون من بينها أحدى مواد التخصص على الأقل، كاللاهوت أو القانون أو الطب، وثالثها: أن هذه الدراسات العليا قام بتدريسها عدد من الأساتذة الكفاة المتخصصين[٧٠]. وعلى هذه الأسس السابقة ظهرت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة فى باريس اشتهرت باللاهوت، وأخرى فى بولونيا اشتهرت بالقانون، وثالثة فى سالرنو اشتهرت بالطب.

وهنا نلاحظ أن نفوذ الكنيسة كان عاملا أساسيا فى التنظيم الشكلى للجامعات، لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم فى أوربا العصور الوسطى. هذا إلى أن حركة

---

(67) Eyre: op. cit., p. p. 329 - 330.

(68) Haskins: The Rise of Universities, p. 5.

(69) Eyre: op. cit., p. 328 &

سعيد عاشور: الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، ص ٣٥.

(70) Rashdall: op. cit: vol. 1. p. 7.

التعليم الجديدة نبتت فى المدارس الأسقفية، ومن ثم كان طبيعيا أن تتحكم الكنيسة - وهى أعظم قوة تحكمت فى جميع مرافق الحياة فى أوربا العصور الوسطى - فى توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليه(٧١). وقد أدركت الكنيسة أن فى خروج هذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها، تعريضا لسلطانها وتعاليمها للخطر والنقد، وسط الجو العلمى الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير. ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة الجديدة أو كبتها، فلا أقل إذا من توجيهها وتنظيمها فى الصورة التى تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة ونظمها وآرائها القائمة (٧٢). وأول مظاهر تدخل الكنيسة فى شئون هذه الهيئات الجامعية الناشئة هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون من بولونيا. أما باريس فقد ظهر هذا التدخل فى التوحيد بين وظيفتى رئيس الجامعة ورئيس أساقفة باريس، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفا على شئون الجامعة(٧٣). ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجامعات الناشئة استطاعت بوجه عام أن تحظى بقدر كبير من الحرية الأكاديمية، إذا استثنينا جامعة باريس التى ظلت أقل من غيرها حرية، لأنها سرعان ما غدت مركز لدراسة اللاهوت والقانون الكنسى(٧٤).

أما فيما يختص بمواد الدراسة ونظمها وحياة الطلاب فى جامعات العصور الوسطى الناشئة، فيلاحظ أن الجامعة المثالية كان لابد لها من أن تحوى أقساما للفنون الحرة، واللاهوت، والقانون بشطريه الرومانى والكنسى، والطب. ولكن الواقع هو أنه لم توجد جامعة فى ذلك الدور الأول من تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى استوفت كل هذه الأقسام. والذى حدث بالضبط هو أن كل جامعة تخصصت فى ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة، فاشتهرت باريس بالفلسفة واللاهوت والقانون الكنسى والآداب، وتخصصت بولونيا فى القانون الرومانى، وعرفت سالرنو بالتفوق فى دراسة الطب وهكذا(٧٥).

---

(71) Thompson: op. cit. 2, p. p. 765 - 766.

(72) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit. p. 257.

(73) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 470.

(74) Rashdall. op. cit: vol. 1. p. p. 321-324.

(75) Idem. p. p. 17 - 18.

وقد امتد نفوذ أمين الكتدرائية (Chancellor) فى باريس حتى تضمن الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس[٧٦]. وهكذا غدا نفوذ أمين الكتدرائية من جهة، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى، هما الدعامتان اللتان قام عليهما النظام الفرنسى للجامعات [٧٧]. على أن المتتبع لنشأة جامعة باريس، يلحظ أن هذا التطور جاء مصحوبا بصراع بين الطلبة وأمين الكتدرائية. ذلك أن الطالب الذى استكمل دراسته وتأهل للتدريس كان لابد له من الحصول على درجة الأستاذية أو الماجستير. ولكن أمين الكتدرائية لم يكن له حق فى رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب، بل كان له فى أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجة التى حصل عليها، مستغلا فى ذلك سلطته الدينية ونفوذه الكنسى[٧٨]. والغريب أنه على الرغم من هذه السلطات الواسعة التى تمتع بها أمين الكتدرائية إلا أنه لم يكن عضوا فى نقابة أساتذة الجامعة[٧٩]. هذا إلى أن أساتذة الجامعة كانوا يستطيعون رفض الاعتراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضوا جديدا فى هيئة التدريس، وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ما كان لأمين الكتدرائية من سلطة فى منح الليسانس license أو الترخيص بالتدريس[٨٠].

أما عن مناهج الدراسة فى الجامعات الأوربية الناشئة فقد قامت فى أول الأمر على أساس المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة. ولكنها أخذت تنمو وتتعدل بسرعة نتيجة للمعلومات الغزيرة التى تدفقت على غرب أوربا منذ القرن الثانى عشر[٨١]. نتيجة للاتصال بالحضارة الإسلامية. وقد ظفر القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالقسط الأكبر من اهتمام المعاصرين، وإن كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الاهتمام. فالحساب الذى كان لايزال علما غامضا حظى بعناية كبرى، والهندسة عولجت على أنها تضم فى رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التى

---

(76) Eyre: op. vit, p. 330.
(77) Rashdall. op. cit: vol. 1. p. 282.
(78) Idem.p. 304.
(79) Eyre. op. cit., p. 330.
(80) Rashdall. op. cit: vol. 1. p. 284.
(81) Eyre. op. cit, p. 332.

بلغت درجة كبيرة من التقدم نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة. كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم الحيوان. وإذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمدا طويلا تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية، إلا أن الجامعات الناشئة لم تلبث أن تبنت الروح الجديدة التى ترمى إلى البحث والاستقصاء لمعرفة حقيقة الكون والكائنات(٨٢). أما فى اللاهوت فكان منهج الدراسة طويلا وبخاصة فى جامعة باريس، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس ومن كتاب «الأحكام» الذى وضعه بطرس لمبادر فى علم اللاهوت(٨٣).

أما الدرجات العلمية فكانت ثلاثا: البكالوريوس والليسانس والأستاذية، فكان يكفى أن يدرس الطالب كتابين فى النحو وخمسة فى المنطق ليحصل على درجة البكالريوس بعد أن يؤدى امتحانا أمام ثلاثة أو أربعة أساتذة، فإذا نجح نوقش علنا برآسة أستاذه ثم يمنح درجة البكالوريوس فى الفنون الحرة Baccalriandorum Bachelor of Arts (٨٤)، وتعطيه هذه الدرجة الحق فى أن يكون معيدا. وبعد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقضى نحوا من سنتين فى قراءة بعض المتون وشرحها، حتى إذا أتم ذلك بنجاح حصل على إجازة التدريس (Licentia docendi, licence) وهى كما يتضح من اسمها ترخيص (ليسانس) يعطيه حق مباشرة مهنة التدريس(٨٥) أما درجة الأستاذية (Magister artium) فكانت تتطلب دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات، وبعد ذلك لا يحصل الطالب على هذه الدرجة إلا بعد أن يلقى درسا تجريبيا أمام لجنة من الممتحنين. وكانت درجة الأستاذية فى الآداب مرادفة ومعادلة

(82) Thompson: op. cit; vol. 2 . p. 767.

(83) Haskins: The Rise of Universities, p. 47.

(84) Rashdall. op. cit; vol. 1. p. p. 450 - 456.

(٨٥) يلاحظ عدم الخلط بين مدلول هذه الشهادات فى جامعات أوربا العصور الوسطى وبين ما تدل عليه الآن فى جامعاتنا الحديثة، فدرجة البكالريوس (B.A) تساوى درجة الليسانس فى كلياتنا النظرية، ودرجة الليسانس كانت عبارة عن إجازة تعطى صاحبها حق مزاولة مهنة التدريس وهى أقرب فى عرفنا إلى ما نسميه تجاوزا درجة الماجستير، أما درجة الاستاذية فى الآداب – وهى المفروض أن تسمى ماجستير .M. A ـ فهى مرادفة بالضبط لدرجة الدكتوراه، وبها كانت تكتمل الصفة العلمية لأستاذ الآداب فى العصور الوسطى.

(انظر Rashdall, op. cit, vol. 1, p. p. 452 - 470)، وكذلك كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، للمؤلف).

لدرجة الدكتوراه فى الفروع الأخرى(٨٦). ولم يكن من الضرورى أن يحصل الطالب على درجة الأستاذية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى أو المدنى، ولكنها كانت أساسية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى الطب أو اللاهوت(٨٧). ومهما يكن الأمر فإن درجة الأستاذية أو درجة الدكتوراه كانت لا تمنح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين، على أن يؤدى الطالب امتحانين للحصول على هذه الدرجة أحدهما خاص والآخر عام علنى، وبعد ذلك يمنح الدرجة فى الكتدرائية(٨٨).

وكانت طريقة التعليم شفوية، على هيئة محاضرات يلقيها الأساتذة، تتخللها مناقشات فيما بينهم وبين الطلاب. ولم يكن للجامعات فى أول الأمر مبان مستقلة خاصة بها، فاستخدمت فى إلقاء المحاضرات بعض الغرف الملحقة بالكتدرائية، وهى غرف عارية باردة ليس فيها أثاث سوى مكتب الأستاذ(٨٩). أما الطلبة فكانوا فى أول الأمر - قبل إعداد مقاعد لهم - يجلسون على الأرض، وأحيانا فوق وسائد محشوة بالقش(٩٠). وقد توقف نجاح الطالب فى دراسته إلى حد كبير على قوة ذاكرته ومقدرته على الاحتفاظ فى ذهنه بما يلقيه الأستاذ من معلومات. ذلك أن الورق الذى عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب، لم يكن قد عم استعماله بعد، فى الوقت الذى كانت الرقائق الجلدية المستخدمة فى الكتابة باهظة الثمن، بحيث لا يستطيع معظم الطلاب شراءها(٩١). وفى بعض الأحيان دفعت الضرورة بعض الطلبة الذين يدرسون على أستاذ واحد إلى الاشتراك سويا فى شراء رق جلدى لتدوين المحاضرات عليه. وفى نهاية المحاضرة يجتمعون سويا فى مكان ما، ويدلى كل منهم بما تعيه ذاكرته مما سرده الأستاذ، وعندئذ قد تنشأ بينهم مناقشات طويلة حول تحديد ما ذكره الأستاذ وما لم يذكره، وعندما تتم مجموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعا يتبادلونها للاستذكار(٩٢).

---

(86) Cam, Med. His. vol 6., p. 564.
(87) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 473 .
(88) Thompson: op. cit. vol. 2, p. p. 767 - 768.
(89) Cam. Med. His. vol 6., p. 570.
(90) Haskins: The Rise of Universities, p. p. 62 - 63.
(91) Rashdall. op. cit: vol. 1. p. 424.
(92) Thompson: op. cit; vol 1, p. 768.

ولم تخل جامعات العصور الوسطى - كما هو الحال اليوم فى جامعاتنا الحديثة - من بعض الطلاب المستهترين الذين يندسون وسط جموع المجتهدين؛ حتى وصف بعض المعاصرين إحدى فرق الجامعة بأن طلابها يصلحون لأن يكونوا خبازين لا طلاب علم! والواقع أنه كانت ثمة مشكلة خطيرة فى توفير العناية المادية والرقابة الخلقية على تلك المئات بل الألوف من الطلاب. وقد واجهت هذه المشكلة الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة فى المدينة، لأن الطلاب كانوا صغار السن يفيضون شبابا ويعيشون بعيدين عن بيوتهم دون وجود سلطة تكبح جماحهم (٩٣).

وبالإضافة إلى ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية عندئذ، مما أدى بكثير من الطلبة إلى العيش على قليل من الزاد فى مساكن حقيرة(٩٤)، فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة، من حانات وأماكن للدعارة واختلاط بقطاع الطرق وغيرهم من أهل السوء، مما أدى إلى انحراف كثير من الطلبة عن جادة الصواب(٩٥). ولم يظهر حل لهذه المشاكل المتباينة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر عندما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية (Colleges). وكان المقصود بهذه المجمعات والكليات فى أول الأمر أن تكون منازل ينزل فى كل منها عدد من الطلاب - وبخاصة الفقراء - لمساعدتهم على عيشة أفضل وحتى يكونوا تحت رقابة تشرف عليهم (٩٦). وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة فى باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألمون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام، فأسس روبرت السوربونى (Robert de Sorbon) - وهو تاجر وافر الثراء - مجمعا فى باريس سنة ١٢٥٨ لإيواء عدد من الطلبة الفقراء وإطعامهم مقابل أجر اسمى زهيد، مما خلد اسمه فى باريس حتى اليوم(٩٧). ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى كان فى باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة اجتماعية من هذا النوع تتمتع بأوقاف واسعة من الأراضى والعقار. أما فى إنجلترا فقد أنشأ والتر مرتون (Walter of Merton) أسقف روشستر مؤسسة مرتون فى أكسفورد، كما أسس

---

(93) Haskins: The Rise of Universities, p. p. 83 - 85.

(94) Coulton: Life in the Middle Ages. vol. 3, p. 113 .

(95) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 475 .

(96) Eyre: op. cit, p. 333.

(97) Rashdall. op. cit; vol. 1. p. p. 500 - 507. & Cam. Med. Hist., vol. 6. p. 574.

حنا باليـول John Balliol ـ أحـد الأمـراء الأثرياء فى شـمـال إنجلتـرا ـ مـؤسـسـة باليول[٩٨] .

ولم يكن ذلك إلا فى عـصـر لاحق عندمـا أطلق الاصطلاح (Colleges) على المعاهد والكليات العلمية، التى تفرعت عن الجامعة الواحدة لتتخذ لنفسها طابعا علميا خاصا بها، وقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الأوربية منذ أيام الثورة الفرنسية، ما عدا إنجلترا التى مازالت تحتفظ بـه حتى أن جامعة أكسفورد لها ثلاث وعشرين كلية، فى حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها يرجع أصله إلى العصور الوسطى. وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التى تتلقاها من أغنياء رجال الدين والنبلاء والتجار[٩٩] .

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت فى أوربا، مستمدة نظمها من جامعة باريس فى الغرب وجامعة بولونيا فى الجنوب . ففى إنجلترا ظهرت جامعة أكسفورد فى القرن الثانى عشر، وإن كانت لم تتخذ صفتها الرسمية إلا حوالى سنة ١٢٠٠ . وكانت أكسفورد فى الواقع وليدة جامعة باريس لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة والأساتذة الذين درسوا فى باريس، والذين أمرهم هنرى الثانى ملك إنجلترا بالعودة إلى بلادهم سنة ١١٦٧ عندما ساءت العلاقات بينه وبين لويس السابع ملك فرنسا، وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا[١٠٠] . أما كمبردج فقد تأسست سنة ١٢٠٩ عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتذة أكسفورد إليها[١٠١]، الأمر الذى جعل بعض الكتاب يشبهون انتشار الجامعات فى العصور الوسطى بتكوين خلايا النحل الجديدة، إذ يكفى أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليضعوا أساس جامعة أخرى جديدة[١٠٢] .

وهكذا شهدت أوربا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة ، ففى سنة ١٢٢٢ هاجر بعض رجال جامعة بولونيا إلى بادوا

(98) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p.p. 474 - 475 .

(99) Thompson: op. cit. vol 2, p. 769.

(100) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 471 .

(101) Rashdall. op. cit; vol. 3. p. p. 33 - 34.

(102) Cam, Med. His. vol. 5; p. 593.

ليضعوا أساس جامعة جديدة؛ وفى سنة ١٢٢٤ وضع فردريك الثانى أساس جامعة نابلى - وهى أول جامعة يقيمها أحد ملوك أوربا أو حكامها؛ وبعد ذلك بست سنوات أسس البابا جامعة فى تولوز لتكون سندا للبابوية فى مكافحة الهرطقة الألبيجنسية(١٠٣) . أما سالرنو فكانت مدرسة ذات شهرة عريقة فى العصور الوسطى فى ميدان الطب فتحولت إلى جامعة طبية عظيمة فى القرن الثانى عشر، حتى استكملت طابعها فى القرن الثالث عشر(١٠٤) . وفى أسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة (Salamanca) قبل سنة ١٢٣٠ . أما أولى الجامعات التى ظهرت شمالى الألب فكانت جامعة براغ فى بوهيميا التى أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧ . وفى سنة ١٣٨٥ قامت جامعة هيدلبرج وهى أولى الجامعات الألمانية(١٠٥) . وإذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض فى جوانب متعددة، إلا أنها اتفقت فى الطريق الطويل الذى سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعا . ولم يلبث أن أحرز رؤساء الجامعات نفوذا اداريا واسعا، وتحايلوا فى تحقيق ذلك بالثورة حينا، أو بالاستعانة بالبابوية ضد الحكام العلمانيين، أو بهؤلاء الحكام ضد رجال الدين أحيانا أخرى(١٠٦) .

* * *

وبعد، فإننا مهما نكتب عن أهمية نشأة الجامعات، وعن الأثر العام الذى تركته فى تطور المجتمع الأوربى منذ القرن الثانى عشر، فإننا لن نستطيع أن نوفى الموضوع حقه فى هذا العرض الموجز . وقد ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أن القوى الثلاث التى هيمنت على المجتمع المسيحى فى أواخر تلك العصور، ووهبته الحياة والقوة، كانت الكنيسة ، والإمبراطورية، والجامعة . ولم تكن الجامعة فى نظره أقل أهمية من الكنيسة والإمبراطورية، لأنه كما كانت للكنيسة زعامتها ممثلة فى البابوية وروما، وكما كانت للسلطة العلمانية زعامتها ممثلة فى الإمبراطورية الرومانية، فكذلك كانت جميع جداول المعرفة التى تروى الكنيسة العالمية تنبع من الجامعات الكبرى، وبخاصة

(103) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 472 .
(104) Haskins: The Rise of Universities, p. p. 9 - 10.
(105) Eyre:op. cit; p. 333.
(106) Painter: A Hist. of the Middle Ages; p. 472 .

جامعة باريس(١٠٧). والواقع أن هذا الكاتب لم يكن مبالغا، إذا نظرنا إلى الجامعات على أنها تمثل محاولة لتحقيق حياة مثالية، أو على الأقل تحقيق جانب من جوانب هذه الحياة المثالية (١٠٨).

ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن الجامعات الناشئة احتضنت العلوم والمعارف الواسعة التى أتت بها النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، الأمر الذى جعل الجامعات مركزا لثورة فكرية ضخمة ازدادت قوتها منذ القرن الثالث عشر (١٠٩). وحسب الجامعات أنها هيئات علمية استهدفت المعرفة لذاتها، ولتسخيرها فى خدمة العالم الكبير. هذا إلى أن التنظيم الجامعى كان عالميا لا قوميا، فقصد الجامعة طلاب العلم من مختلف البلاد والأنحاء، حتى غدا من الأمور المألوفة أن ينتقل طالب العلم من بلد إلى آخر ليسمع من هذا أو ذاك من الأساتذة المشهورين(١١٠). وهكذا صار تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى ليس إلا تاريخا للحياة الفكرية بأوسع معانيها، فى جوانب الأدب والفلسفة واللاهوت والقانون والطب والعلوم والرياضيات(١١١). وكانت الثورة الفكرية التى تمخضت عنها الجامعات أوضح ما تكون فى الجانب الفلسفى، إذ أفاقت أوربا لتجد نفسها أمام منهل فياض من فلسفة أرسطو الجديدة التى وردت عن طريق العرب؛ لأنه من الثابت أن الغرب اللاتينى لم يعرف آراء أرسطو الميتافيزيقية إلا عن طريق ترجمة شروح الفيلسوف الأندلسى العظيم ابن رشد (١١٩٨) (١١٢).

وقد اعتقدت الكنيسة أنها بإشرافها على الجامعات الناشئة - وبخاصة جامعة باريس - ضمنت لنفسها السيطرة على الحياة الفكرية، وحصرت هذه الحياة فى دائرة محدودة لا تتعارض مع تعاليمها. ولكن وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوربا أحدث انفجارا ذا دوى شديد، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ، غير عابئين بمدى مسايرتها لتعاليم الكنيسة، حتى صار من الحكم السائدة قول أحد

---

(107) Rashdall. op. cit; vol. 1. p. 2.
(108) Idem: vol, 1, p. 3.
(109) Cam. Med. His. vol. 6, p. 599.
(110) Eyre:op. cit; p. p. 332 - 334.
(111) Rashdall. op. cit, vol. 1, p. p. 3 - 4.
(112) Idem., vol. 1, p. p. 351 - 370.

المعاصرين «إنك تستطيع أن تكسب الجولة إذا أثبت أن أرسطو فى جانبك» (١١٣) لذلك هبت الكنيسة للدفاع عن كيانها، فعقد مجمع إقليمى فى باريس سنة ١٢١٠ حرم تدريس بعض تعاليم أرسطو ومؤلفاته، وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع قرار الحرمان ضده(١١٤). ومن الواضح أن هذا التحريم شمل كذلك شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو، وهى الشروح التى جاءت صادقة التعبير قوية الأثر، مما أثار الكنيسة ضد أرسطو وابن رشد جميعا. وقد أبيح تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات - أى سنة ١٢١٥ - ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا زيادة على كل ما يمت إلى الرشدية والرشديين (١١٥). ثم حدث سنة ١٢٣١ أن أصدر البابا جريجورى التاسع أمرا جديدا بتحريم فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة(١١٦). على أن النصر النهائى كان للحركة الجامعية الجديدة وما أثارته من جنوح نحو حرية الفكر. ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين، ويتخلوا عن فلسفة أرسطو، بعد أن تذوقوا جانبا من هذه الفلسفة، وأدركوا أهميتها الغذائية للفكر. وهكذا استمر العلماء والطلبة يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس فى صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥(١١٧).

أما اللاهوت فإن أهميته أخذت تضعف فى الجامعات الأوربية تدريجيا، نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القانون الرومانى. والواقع أن النهضة القانونية التى تزعمتها جامعة بولونيا، والتى امتدت إلى كثير من جامعات أوربا، لم تترك متسعا من الوقت والجهد للاهتمام باللاهوت، إلى درجة أن كثيرا من الجامعات ذات الأهمية أحجمت عن تدريس اللاهوت كلية واكتفت بإنشاء كلية للقانون المدنى (١١٨). وهنا أيضاً تدخلت الكنيسة وحاولت أن تحمى اللاهوت والقانون الكنسى عن طريق الحد من سطوة القانون الرومانى والإقلال من أهميته، فصدر قرار مجمع ريمس سنة ١١٣١

(113) Harris: Duns Scotus, vol. 1, p. 204.

(114) Idem: vol, 1, p. 356.

(115) Haskins: The Rise of Universities, p. p. 73 - 74.

(116) Rashdall: op. cit, vol. 1. p. 357.

(117) Idem, vol. 1, p. p. 354 - 358.

(118) Cam. Med. His. vol. 6., p. 573.

بتحريم دراسة القانون المدنى على رجال الدين. ثم تجدد هذا التحريم بقرار آخر أصدره البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨٠ (١١٩). وفى القرن الثالث عشر أصدر البابا هونريوس الثالث مرسوما بابويا سنة ١٢١٩ حرم فيه تعليم القانون الرومانى أو تعلمه؛ خاصة فى باريس والمناطق المجاورة. ويعبر البابا فى هذا المرسوم عن أسفه لأن كثيرا من رجال الدين أقبلوا على دراسة القانون الرومانى (١٢٠). على أن هذه المراسيم كلها، وكذلك المرسوم الذى أصدره البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٤ لم يكن لها أى أثر فعال فى إحياء دراسة اللاهوت أو إضعاف شأن القانون الرومانى؛ حتى أن جامعات بأكملها - مثل جامعة أورليان - قامت على أساس الدراسات القانونية(١٢١).

(119) Thompson: op. cit. vol. 2, p. 774.
(120) Rashdall: op. cit, vol. 1. p. 322.
(121) Cam. Med. His. vol. 6., p. 577.

الباب السادس

الفلسفـــة

نظرت المسيحية - عند ظهورها - إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الكراهية والشك وعدم الثقة، لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهرا من مظاهر الفكر الوثنى(١). وإذا كانت المسيحية اعتقدت أن هذا النوع من الفكر من شأنه أن يعمى بصيرة الإنسان، فإنها تمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغى ألا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة(٢). على أن هذا الموقف العنيد الذى وقفته المسيحية من الفلسفة القديمة كان لا يمكن أن يدوم ويستمر، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها فى حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها وآرائها ضد خصومها العديدين. وهكذا أخذ المدافعون عن كيان المسيحية فى القرن الثانى - مثل جستين الشهيد Justin Martyr وتاتيان Tatian وآثينا جوراس Athenagoras يحبذون الاعتماد على آراء أفلاطون - بصفة خاصة - لإثبات آراء الكنيسة المتعلقة بوجود الله(٣).

ولم تلبث أن ظهرت أولى المحاولات لإيجاد فلسفة مسيحية منظمة فى الإسكندرية فى القرن الثالث، على أيدى كليمنت (١٥٠ – ٢١٥) وأوريجن (١٨٥ – ٢٥٤)، الذين حاولا أثبات تعاليم المسيحية ونشر هذه التعاليم عن طريق الحوار والجدل، معتمدين فى طريقتهم هذه على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية، ونخص بالذكر أوريجن Origen - أشهر آباء الكنيسة اليونانيين، الذى قاربت آراؤه الفلسفية آراء فلاسفة الأفلاطونية الحديثة، حتى قال عنه فرفريوس الصورى Pro-phyry (٢٣٢ – ٣٠٤) أنه مسيحى فى أسلوب حياته ولكنه يونانى فى تفكيره(٤). ذلك أن أوريجن عاش فى الإسكندرية فى وقت كانت هذه المدينة مركزا للعلم والعلماء الذين يعملون على التوفيق بين مختلف المذاهب التى اجتمعت فى صعيد واحد(٥). ونعنى بهذه المذاهب الفلسفة اليونانية والمانوية والفيثاغورية والمسيحية، فضلا عن عقائد قدماء المصريين والمذاهب الشرقية الواردة من الهند وفارس. وعلى الرغم من

(1)Cam. Med. Miist. vol. 5, p. p. 781 - 782.

(2) Eyre: op. cit; p. 803

(3) Gilson : La Philosphie au Moyen Ages, p. p. 16 - 32.

(4) Eyre: op. cit; p. 804.

(5) Taylor: op. cit., Vol. 1, p. 51.

الاعتراف بأوريجن أبا من آباء الكنيسة، إلا أن تشبعه بالفلسفة اليونانية أدى إلى اتهامه بالهرطقة التى أدانه بها مجمع القسطنطينية فى القرن السادس. على أن تيار الأفلاطونية استمر فى تدفقه وتأثيره على الفكر المسيحى فى القرن الرابع، ولم يلبث هذا التيار أن انتقل إلى الغرب عن طريق جريجورى أسقف نيسا Gregory of Nys-sa (ت ٤٠٠ تقريبا) فالقديس أمبروز أسقف ميلان (ت ٣٩٧)(٦).

ديونيسيوس الأريوباغى:

ثم كان أن أسهم الشرق - عند نهاية القرن الخامس - بخطوة أخرى هامة لتطعيم الفكر المسيحى بآراء الأفلاطونية الحديثة، وذلك عن طريق كتابات ديونيسيوس الأريوباغى Dionysius the Areopagite (٧). حقيقة أن هذه الكتابات لم تكن إلا صورة مقنعة لفلسفة أبروقلوس (برقليس Proclus) الإلهية، ولكن صدورها عن رجل له مكانته فى العالم المسيحى - مثل ديونيسيوس الأريوباغى - جعل المعاصرين يتقبلونها فى شىء من السهولة على أنها لا تتعارض مع أصول الدين(٨). والفكرة الأساسية فى هذه الكتابات هى أن عالم المخلوقات - من الملائكة فنازلا - يمثل سلما منتظما تعبر كل درجة من درجاته عن أحدى خصائص الله وصفاته، وهى الأصل الروحى لهذا العالم، ومن هنا وجدت نظريتان فى اللاهوت، الأولى إيجابية ثبوتية والثانية سلبية(٩). فاللاهوت الإيجابى حاول أن يفهم طبيعة الله فى ضوء الاستدلال بالأمثلة المستقاة من المخلوقات، بمعنى أن صفات الكمال الموجودة فى المخلوقات مستمدة من أصول تتمثل بصورة أعظم فى الله تعالى. أما اللاهوت السلبى فيبدأ من الله الخالق، ويقول أن كل الصفات التى تختص بها المخلوقات تمتاز بالبعد عن الكمال، وعلى ذلك لايمكن الوقوف على حقيقة الله إلا بإبعاد كل صفات المخلوقات عنه (١٠). ومن لاهوت ديونيسيوس الإيجابى استمدت الكنيسة فى العصور الوسطى نظرية درجات الملائكة التسع، لأنه أول من أفرد للملائكة كتابا خاصا جمع فيه أسماء

---

(6) Folingo: Latin Thought during the Middle Ages, p. 42.

(٧) المقصود بالأريوباغى أنه كان قاضيا بمحكمة أثينا العليا.

(8) Gilson : op. cit., p. 80.

(9) Idem: p. 81.

(10) Eyre: op. cit., p. 805 - 806.

طوائفهم الواردة فى الكتب المقدسة ورتبها فى درجات أو مراتب. وتقوم نظرته إلى الملائكة على أنهم يمتازون بالعقل والبساطة وعدم المادية، أى عدم وجود خصائص مادية لهم. أما منهجه فى اللاهوت السلبى فقد أدى إلى ظهور اللاهوت الصوفى Latheologie Mystique الذى كان له أثر بالغ على الفكر الغربى فى العصور الوسطى(١١) ومعنى اللاهوت الصوفى العلم بالله وبالأمور الإلهية علما ذوقيا أى تجريبيا شعوريا ممنوحا من الله(١٢).

القديس (أوغسطين):

على أن الشريان الرئيسى الذى وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحى فى العصور الوسطى كان يتمثل فى شخص القديس أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠)(١٣). ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر - قبل اعتناقه المسيحية - بالمبادئ الأفلاطونية التى اطلع عليها فى بعض كتابات شيشيرون وأفلوطين، ومن ثم اتخذ هذه المبادئ نقطة البدء عندما شرع يفكر فى وضع فلسفة دينية(١٤).

ويعتبر القديس أوغسطين مصدر الفلسفة التى بلغت ذروتها فيما بعد على أيدى ديكارت، والتى تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر، فأنا أستطيع أن أشك فى كل شيء إلا فى وجودى لأننى أفكر، وما دمت أفكر فأنا موجود(١٥). فالعقل البشرى أذن حقيقة قائمة لاشك فيها، ويقوم هذا العقل على أساس ثالوث من المعرفة والإدراك والإرادة، وهى الأركان الثلاثة التى تلقى ضوءا ساطعا على الحقيقة والمعرفة(١٦)، والمعرفة بما تنطوى عليه من قوة لاستيعاب الماضى والتأمل فيه والإحساس بالمستقبل، تثير مشكلة الخلود والزمن، والعلاقة بين الماضى والحاضر من جهة والخلود والبقاء من جهة أخرى؛ وهى المشكلة التى شغلت حيزا كبيرا من فلسفة أفلاطون. أما الإدراك فيثير مشكلة أخرى رسمها أفلاطون. وهى مشكلة التعلم، فهل

(11) Gilson : op. cit., p. 81.

(١٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، ص ٥٥.

(13) Brehier: La Philosophie du Moyen Age,p. 15.

(14) Taylor : op. cit., p. 55.

(15) Eyre: op. cit., p. 807.

(16) De Wulf: Hist. de la Philosophie Med, T. 1., p. 111.

الظاهرة العلمية التى ندعوها تعلما حقيقة جديدة؟ لأنها إذا كانت حقيقة فلا يمكن أن تكون جديدة، بحكم أنها حقيقة قبل أن يعلمها أى إنسان، وستظل حقيقة حتى لو نسيها كل إنسان. وقد قال القديس أوغسطين بأن الحقيقة لها صفة الخلود؛ ولذلك فهى توجد وتكمن فى العقل الأسمى الخالد؛ وعندما أتعلم حقيقة من إنسان فإن ذلك يرجع إلى وجود اتصال مباشر بين إدراكى وبين ذلك العقل الخالد. فالمعلم الحقيقى هو الله[١٧]؛ والمسيح - وهو كلمة الله - معلم جميع العلوم والفنون (Magister and Omnia) ومعرفة العلوم الطبيعية لا تقل عن معرفة حقائق الدين فى أنها تنير عقل الفرد.

أما الأهمية العظمى لآراء القديس أوغسطين عن الإرادة فأمر معروف. فالمذهب الإرادى Voluntarism فى الفلسفة المسيحية، وعلاج مشكلة الشر، ترجعان جميعهما إلى القديس أوغسطين، وقد قام مبدأ أوغسطين على أساس حرية الإرادة الإنسانية (Liberum Arbitrium) وعلى أساس تمسك المسيحية بقدر الإله العليم، ومحاولة التوفيق بين الله تعالى وقدرته المطلقة من ناحية، وبين الشر القائم فى العالم من ناحية أخرى[١٨]. وهنا حل أوغسطين هذه المشكلة عن طريق التفرقة بين «الطبيعة» التى زود بها الله الفرد، وإرادة هذا الفرد، فطبيعة المخلوقات كلهم - حتى الشيطان - طيبة وخيرة. ولكن إرادتهم فقط هى التى يمكن أن تكون شريرة، وإذا كان الإنسان قد خلق مزودا بالقدرة على اختيار الشر فإن ذلك ليس فى ذاته شرا، لأن الإنسان الذى لا يستطيع عمل الشر مختارا وبمحض إرادته لايمكنه فى الوقت نفسه أن يعمل الخير مختارا وبمحض إرادته[١٩]. ثم إن الإنسان نفسه هو الذى يختار أن يفعل الشر متعمدا، وليس الخالق هو الذى يدفعه إلى هذا الاختيار. وعلى ذلك فإن جميع الشرور إما أن تأتى عن اختيار آثم (Malum Culpae) أو اضطرار آثم (Malum-Poenae)، وهذا الاضطرار لا يأتى أبدا إلا نتيجة للاثم. وهكذا وضع أوغسطين أساس مذهب القضاء والقدر Predestinationism الذى ظهر فى اللاهوت الغربى بعد ذلك، ومذهب حرية الإرادة الذى ظهر فى الفلسفة الخلقية فى العصور التالية[٢٠].

---

(17) Gilson : op. cit., p.p. 131 - 133.

(18) Eyre: op. cit; p. 809.

(19) De Wulf: op. cit., T. 1, p. 113.

(20) Eyre: op. cit, p. 809.

وخلاصة القول أن القديس أوغسطين فاق غيره . من آباء الكنيسة الغربيين فى تأثره بالروح الفلسفية للأفلاطونيين . كما فاقهم فى تأثيره فى العقلية الأوربية بقية العصور الوسطى، حتى فى الوقت الذى بلغ نفوذ فلسفة أرسطو أشده(٢١) .

بيؤثيوس :

ثم كان أن ظهر فى القرن السادس أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى، وهو بيؤثيوس Boethius (٤٧٥ - ٥٢٤) الذى كان من أبناء روما، انحدر من أسرة شريفة، كما امتاز بسعة الاطلاع، مما أكسبه مكانة رفيعة أوصلته إلى منصب الوزارة لثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا، على أن ثيودريك لم يلبث أن اتهمه بالخيانة فغدر به وأعدمه فى قسوة بالغة، وعندئذ اعتبر بيؤثيوس شهيدا لأن قاتله ثيودريك كان أريوسى العقيدة(٢٢) . وقد ألف بيؤثيوس قبل إعدامه - وهو سجين فى بافيا - رسالة فريدة، أسلوبها مزيج من النثر والشعر، أسماها «سلوى الفلسفة»، غدت من أشهر الكتب فى العصور الوسطى(٢٣) . ذلك أن شهرة هذا الكتاب غلبت على بقية مؤلفات بيؤثيوس، لا سيما الرسائل التى كتبها فى اللاهوت والتى لخص فيها مبادئ الثالوث المقدس وتجسد الأقنوم الثانى(٢٤) .

وتتفق مبادئ بيؤثيوس مع الخطوط العريضة لعلم الأخلاق الأفلاطونى واللاهوت الطبيعى. ذلك أنه استلهم العزاء من الفلسفة التى توجه إليه اللوم بسبب قبوله الوظائف التى تولاها ، والتى تذكره بأن المصائب التى أخذت تترى عليه لا يمكن أن تصرفه عن الثقة بالله والارتباط به. وبعد ذلك يثبت بأمثلة مستمدة من فلسفة أفلاطون، أن الله أسمى قوة فى الكون، وأنه الخير المحض، وأن عنايته الإلهية لا تسمح بأن يحل الأذى بالشخص التقى المستقيم، وأن الألم المؤقت إنما هو ابتلاء للأخيار وعقاب للأشرار(٢٥) .

---

(21) Harris: The Legacy of the Middle Ages, p. 228.

(22) Folingo: Latin Thought , p. 50.

(23) Cam. Med Hist, vol. 3. p. 485.

(24) Brehier: op. cit, p. p. 10 - 11.

(25) Gilson : op. cit., p.p. 145 - 146.

هذا وقد أحرز كتاب بيؤثيوس مكانته العظيمة نتيجة لاختصاره وبساطته فى عرض المبادئ الأفلاطونية، بالإضافة إلى طلاوة أسلوبه وسحر بيانه. ومع ذلك فإنه لايمكن القول بأن بيؤثيوس صاحب مذهب محدود فى الفلسفة، وإنما جمع كثيرا من الآراء الفلسفية فى كتابه السابق، فضلا عن ترجمة بعض مؤلفات فلاسفة اليونان إلى اللاتينية(٢٦).

الفلسفة المدرسية: Scholasticism

أخذ النشاط يعود إلى الحياة الفكرية فى أوربا عقب الفترة المظلمة التى بدأت بغزوات البرابرة، وانتهت بتتويج شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠. ويطلق اسم التفكير المدرسى على الحياة الفكرية التى سادت أوربا منذ ذلك الوقت حتى ظهور العلوم الطبيعية الحديثة حوالى القرن السادس عشر؛ بمعنى أن النظريات المتداولة طوال هذه القرون الثمانية كانت عبارة عن الفلسفة التى تلقن فى «مدارس» التعليم العالى(٢٧). ومن أولى هذه المدارس مدرسة القصر التى أولاها شارلمان كثيرا من رعايته، هذا وإن كانت المدارس الديرية والأسقفية - التى سبقت الإشارة إليها - أهم أثرا وأوسع نفوذا. فالمدرسة لا تعنى سوى مجموعة من النظريات المختلفة والآراء المتباينة التى سادت الحياة الفكرية فى أوربا بين سنتى ٨٠٠- ١٦٠٠ تقريبا(٢٨). أما العامل المشترك بين هذه النظريات فلايبدو فى موضوعها بقدر ما يبدو فى الاتجاه الفكرى الذى يحدد قالب المشكلة الفلسفية.

والمعروف أن مفكرى العصور الوسطى اعتبروا واجبهم الأول إحياء النظرة التركيبية (Synthetic vision) التى نظر بها القدماء إلى العالم على أنه وحدة منظمة متجانسة. وبصرف النظر عن الترجمة اللاتينية لبعض رسائل أرسطو فى المنطق، فإن الفضل فى إحياء النظرة السابقة يرجع إلى مؤلفات أوغسطين وبيؤثيوس، والترجمة اللاتينية لمؤلف أفلاطون «طيماوس Timeaus»(٢٩). ثم كان أن غلب نفوذ الأفلاطونية الحديثة على النظرة العامة التى حاول مفكرو العصور الوسطى إلقاءها

(26) Folgino: Latin Thought, p. p. 50 - 51 & Cam. Med. Hist: vol. 3, p. 485.
(27) Eyre: op. cit., p. p. 810 - 811.
(28) Taylor: The Med. Mind, vol. 1, p. p. 313 - 317.
(29) Gilson : op. cit., p 117.

على الكون. ولم يكن ذلك إلا فى القرن الثانى عشر عندما ازداد سلطان أرسطو على الفكر الغربى، حتى حل أخيرا محل أفلاطون فى القرن الثالث عشر(٣٠). وبالإضافة إلى ذلك فإن العصور الوسطى تقبلت النظريات المسيحية والتعاليم اللاهوتية، لا سيما فيما يتعلق بالله والعلاقة بينه وبين المخلوقات. وهكذا وجد مفكرو العصور الوسطى أنفسهم أمام موقف جديد، هو نفوذ الفلسفة الأرسطية إلى عالم الفكر إلى جانب تعاليم المسيحية، الأمر الذى استدعى التوفيق بين الجانبين، نظرا لما هناك من تعارض واضح بين قول أرسطو بقدم العالم وقول المسيحية بالخلق(٣١). فالفلسفة المدرسية مهما اختلفت ميادينها كانت كلها ميتافيزيقية حاولت أن تحل المسائل المنطقية والأخلاقية والنفسية على أسس من الحقائق الثابتة. كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية، تبدأ دائما بالبحث عن المبادئ أو الأسس، فإذا تم العثور على هذه المبادئ أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقى(٣٢).

يوحنا سكوت أريجينا:

ومن أبرز المفكرين المدرسيين فى القرن التاسع يوحنا سكوت أريجينا Johannes Scotus Eriugena (ت ٨٧٧)، الذى كان من مواليد أيرلندا، ثم تلقى تعليمه بمدرسة القصر على عهد شارل الأصلع(٣٣). ويحتل يوحنا سكوت مكانة فريدة فى الفكر الغربى فى العصور الوسطى، بوصفه آخر آباء الكنيسة من ناحية، وأول المدرسيين من ناحية أخرى(٣٤). ومع أنه كان مسيحيا فى عقيدته، إلا أنه ظل من ناحية العملية يتبع مذهب الأفلاطونية الحديثة، مما جعل المجامع الدينية المعاصرة سنة ٨٥٥، وسنة ٨٥٩ تأمر بإحراق كتاباته(٣٥). أما فلسفته فتقوم فى جوهرها على أساس التوفيق بين الدين والفلسفة، لأنه لا فارق عنده بينهما؛ ولذلك قال عبارته الشهيرة «الفلسفة الحقة هى الدين الحق، والدين الحق هو الفلسفة الحقة»(٣٦). وقد شرح سكوت فلسفته هذه فى

(30) De Wulf: op. cit, T. I. p. p. 26 - 27.
(31) Harris: The Legacy, p. p. 228 - 229.
(32) Eyre: op. cit., p.p. 811 - 812.
(33) Cam. Med. Hist, vol. 3. p. 524.
(34) Harris: The Legacy of the Middle Ages, p. 229.
(35) Taylor: Mind, vol. 1, p. p. 229 - 230.
(٣٦) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، ص ٧٣.

كتابه عن «قسمة الطبيعة De divisone naturae» أى نظام الوجود؛ وهى دراسة بديعة فى أسلوب الأفلاطونية الحديثة يوضح فيها تدرج الحقيقة من الأقنوم الثانى الخالد إلى أبسط المخلوقات السريعة الزوال(٣٧) . ذلك أنه قسم الطبيعة ـ وهى الحقيقة ـ إلى أربعة أنواع، قسم يخلق ولا يخلق وقسم يخلق ويخلق، وقسم يخلق ولا يخلق، وقسم لا يخلق ولا يخلق. ويبدو أن آراء أريجينا وفلسفته كانت أعمق من أن تستوعبها عقلية المعاصرين فى القرن التاسع، فاعتبرت ضربا من الهرطقة وأعدمت (٣٨) . على أنه من الثابت أن سكوت لم يرم إلى اتجاهات هرطقية فى اللاهوت، كما أنه لم يكن مستترا فى تفكيره الحر. هذا إلى أن حطه من قيمة سلطة الكنيسة بالنسبة للعقل كمصدر للمعرفة، أمر لا يتعلق إلا بسلطة آباء الكنيسة فى تفسير الوحى، ولم يستهدف بأى حال الحط من شأن الوحى نفسه الذى سلم به سكوت تسليما مطلقا تاما (٣٩) . ولكن من الواضح أن هذا التفكير يتعارض فى اتجاهه مع المسيحية فى عدة نواح بطريقة لا شعورية، لأن تعظيمه للاهوت السلبى على حساب الإيجابى، من شأنه أن يؤدى إلى اللاإرادية المطلقة نفسها التى انتهت إليها الأفلاطونية الحديثة(٤٠) . هذا إلى أن عدم اعترافه بأن الشر مهما يكن نوعه ليست له حقيقة واقعة، يتناقض تماما مع ما اتصفت به المسيحية من غيرة خلقية. وهكذا نجد فلسفة يوحنا سكوت ـ إذا أعمنا النظر فيها ـ تنتهى إلى الربط بين المذهب الطبيعى العملى واللاإرادية الميتافيزيقية المطلقة. ولعل أهمية هذه الفلسفة من الناحية التاريخية هى أنها توضح كيف ظلت نظرة الأفلاطونية الحديثة إلى العالم تتحور تحورا عميقا فى التفكير الفلسفى المسيحى؛ الأمر الذى جعل يوحنا سكوت مؤسس الفلسفة المدرسية، كما يعتبر ـ بحق ـ أبا للمذهب العقلى(٤١) .

مشكلة الكليات:

وقد شهد القرن التاسع بداية نقاش فلسفى طويل نشأ من عبارة وردت فى مدخل فرفريوس (Prophyry) إلى مقولات أرسطو عن طبيعة الكليات (٤٢) . وكان محور هذه

(37) Brehier: La Philosophie au Moyen Age,p. p. 51 - 52.

(38) Harris: The Legacy of the Middle Ages, p. p. 230 - 234.

(39) Cam. Med Hist, vol. 5. p. p. 786 - 787.

(40) Gilson : op. cit., p. p. 205 - 206.

(41) De Wulf: op. cit, T. I. p. p. 129 - 131.

(42) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 40.

المشكلة هو : هل أسماء الأنواع مثل إنسان وحصان مجرد ألفاظ لا وجود لها بالفعل، أو أنها تعبر عن أنواع موجودة فعلا؟ وإذا كان لها وجود فعلى، فهل هذه الأنواع توجد فعلا فى أفرادها (هذا الإنسان وهذا الحصان) أو أن لها وجودا منفصلا قائما بذاته(٤٣)؟ وبعبارة أخرى عندما نتحدث عن الإنسانية فهل نعنى شيئا معينا بالذات واحدا ومشتركا بين جميع المخلوقات البشرية؛ أو أنه مجرد لفظ عام مطلق لا يعنى شيئا مفردا محددا؟(٤٤).

وقد مهدت هذه المشكلة فيما بعد إلى انقسام فى الرأى بين الفلاسفة، فقال الاسميون أن الأنواع ليست إلا مجرد أصوات (merae voces)، أو أسماء مجردة لا تعنى حقائق معينة ترتبط بها، فى حين قال الحقيقيون أن هذه الأسماء تعنى حقائق معينة قائمة فعلا(٤٥). وكانت الغلبة فى القرن التاسع للرأى الأخير «الحقيقى»، فقال أصحاب هذا الرأى أن الأنواع والأجناس التى نقسم إليها محتويات الكون فى أذهاننا ليست تقسيمات من صنع العقل البشرى ، وإنما الله هوالذى وضع هذه التقسيمات وفق طبيعة الأشياء؛ وعلى ذلك فهى تدل على حقائق ثابتة تكمن خلف كل منها(٤٦).

القرن العاشر - البابا سلفستر الثانى:

اتصف القرن العاشر بضعف الحياة الفكرية نتيجة لاضطراب أحوال أوربا السياسية. وكان من أبرز مفكرى هذا القرن البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) الذى أسماه بعض المعاصرين «البابا الفيلسوف»(٤٧). والواقع أنه لم يكن فيلسوفا كبيرا، ولم يعلن رأيه بصراحة فى أهم مشاكل العصر الفلسفية وهى مشكلة الكليات؛ ولكنه مع ذلك كان رجلا مستنيرا مجددا. وخيرا ما يدل على انحطاط المستوى الفكرى فى ذلك العصر هو أن معرفة ذلك البابا بعلوم المجموعة الرباعية من الفنون الحرة (وهى الحساب والهندسة والموسيقى والفلك) أدت إلى اتهامه بالسحر والشعوذة(٤٨).

---

(43) Eyre: op. cit., p. 813.

(44) Harris: The Legacy of the Middle Ages, p. 234.

(45) De Wulf: op. cit, T. I. p. p. 93 - 94.

(46) Idem, p. 99.

(47) Cam. Med. Hist, vol. 3. p.536.

(48) Taylor: op. cit., vol. 1, p. p. 283 - 286.

القرن الحادى عشر:

أما القرن الحادى عشر؛ فكان عصر نشاط فكرى توجه أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى ـ وهو القديس أنسلم(٤٩). وإلى هذا العصر ترجع نشأة الرغبة فى الجدل المنطقى، الصورى العديم الجدوى، الذى ينسب إلى المدرسيين بوجه عام.

وأول مثل لدينا للمهتمين بهذا النوع من الجدل الصورى هو برنجاريوس التورى (ت ١٠٠٨) Berengarius of Tours الذى اهتم بمعالجة الدين بالجدل؛ فأنكر مبدأ التجسد والاستحالة على أساس أن العرض لايمكن أن يقوم فى غياب الذات(٥٠). فإذا كان العرض ملازما للذات فإنه فيما يتعلق بالقربان الأقدس ظلت ذات الخبز باقية تنضاف إليها صورة جسد السيد المسيح، ومثل ذلك يقال فى الخمر بالإضافة إلى دم المسيح، لأن ذات الخبز والخمر تبقيان بعد التكريس(٥١). ومن الطبيعى أن مثل هذه الآراء لابد أن يكون لها رد فعل قوى عند رجال اللاهوت الذين ردوا عليها بأن الأعراض قد تبقى مفارقة للذات بالقدرة الإلهية. كذلك رد القديس بطرس داميان St. Peter Damian (١٠٠٧ - ١٠٧٢) مطالبا بعدم تطبيق أساليب العلم البشرى ومناهجه على الكتاب المقدس وما يشمله من آراء دينية(٥٢).

المذهب الأسمى ـ روسلينوس:

احتل المذهب الأسمى فى المنطق مكانة بارزة فى التفكير الفلسفى فى القرن الحادى عشر؛ وكان أبرز المفكرين الذين ناصروا هذا المذهب حينئذ روسلينوس Roscellinus (١٠٥٠ - ١١٢٠) الذى يحتل مكانة هامه عند بداية هذا الدور الكبير من أدوار الفلسفة المدرسية، فضلا عن أنه حدد نقطة البدء لما يمكن أن نسميه «اللاهوت المدرسى»(٥٣).

ويبنى الاسميون رأيهم على أساس مبدأ أرسطو الخاص بأن الحقيقة الكاملة تتمثل

---

(49) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 793.

(50) Eyre: op. cit., p. 814.

(51) Gilson : op. cit., p. 234.

(52) Eyre: op. cit., p. 815.

(53) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 41.

فى الجزئيات؛ وأن الكليات ليست إلا ألفاظا وكلمات لا تعنى شيئا . فلا يمكن أن نتصور إنسانية دون أن نعنى إنسانا معينا، ولا بياضا دون أن نعنى شيئا أبيض، ولا حكمة دون أن نعنى نفسا معينة حكيمة(٥٤). وهنا جاء روسلينوس ليطبق هذا المبدأ الأسمى على اللاهوت فى تفسير عقيدة الثالوث المقدس، فقال: كما أن انفراد ـ وهى الجزئيات ـ موجودة فى أنواع المخلوقات (الأنواع هى الكليات)؛ فإن الأقانيم هى الموجودة فى الله . فالله فيه من الجواهر بقدر ما فيه من الأقانيم «بحيث نستطيع القول بثلاثة آلهة لو أن العرف يسمح بذلك»(٥٥).

ولذلك اتهم مجمع سواسون الدينى روسلينوس بالهراطقة سنة ١٠٩٣ وأدانه بتهمة القول بثلاثة آلهة Tritheism .

القديس أنسلم:

أما القديس أنسلم فكان أبرز شخصية بين مفكرى القرن الحادى عشر. ذلك أن مذهبه قام على أساس الجمع بين العقل والإيمان (La raison et la foi) أو تعقل الإيمان. ويبدو أن أنسلم رأى أن يحارب الآراء الهرطقية بنفس أسلحتها، فعمل على استغلال الفلسفة لشرح عقائد المسيحية، والربط بين مختلف أطراف تراث الكنيسة الغربية(٥٦).

والواقع أنه بنى فلسفته على أساس التراث الفكرى للقديس أوغسطين وأفلاطون؛ بل أنه أعلن فى مقدمة كتابه «مناجاة النفس» أنه تلميذ أوغسطين وأنه يسير وفق آرائه. وكان يرى أن الخطوة الأولى التى على المفكر المسيحى أن يخطوها هى الإيمان، لأن الإيمان شرط التعقل، وعلى ذلك لاينبغى أن يخضع الإيمان للعقل؛ وإنما العقل هو الذى يجب أن يخضع للإيمان Credo ut intelligam (٥٧).

على أن أهم ما أسهم به أنسلم فى بناء المدرسية الأوغسطينية هى الأدلة التى ساقها على وجود الله(٥٨) . حقيقة أن الأدلة التى أتى بها أنسلم هى أدلة القديس

(54) De Wulf: op. cit, Tome I. p. p. 103 - 104.

(55) Brehier: op. cit., p. 131.

(56) Harris: The Legacy, p. 235.

(57) Gilson : op. cit., p. 241.

(58) Brehier: op. cit., p. 122.

أوغسطين نفسها، ولكن أنسلم صورها فى صورة أكثر دقة، فأقامها على أساس نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تقول بأن الوجود عبارة على سلم مسلسل منتظم؛ وكل ما تمثل من كمال فى درجة من درجات هذا السلم فهو مستمد من مشاركته فى مطلق ذلك الكمال (٥٩). ثم حاول أنسلم أن يثبت وجود الله بأدلة مأخوذة من نواح ثلاث، تتشابه فيها الأشياء ولكن تشابهها يتفاوت، مما يؤدى بنا إلى علة أولى. أما هذه النواحى فهى الصفات مثل الجمال والعلم، ثم الماهية التى تتفاوت فيها الأشياء أيضاً. فالنبات أرقى من الجماد، والحيوان أرقى من النبات، والإنسان أرقى من الحيوان؛ وأخيرا الوجود الذى يتبع التفاوت فيه التفاوت فى الماهية، فليس وجود الإنسان كوجود الحيوان مثلا(٦٠).

أما نصيب أنسلم الشخصى الذى أسهم به فى التفكير الفلسفى دون أن يستمده من غيره، فهو الدليل الوجودى (Ontologique). ويقوم هذا الدليل على أساس أن إنكار أى شخص لوجود الله ليس إلا اعترافا منه بوجود شىء عظيم فى ذهنه يستحق الإنكار(٦١). وهذا الشىء العظيم الذى لايمكن تصور أعظم منه فى العقل، لابد أن يكون موجودا فى الواقع، لأن ما لا يتصور أعظم منه لايمكن أن يوجد فى العقل فقط؛ لأنه فى هذه الحالة يصبح فى الاستطاعة تصور موجود مثله متحققا فى الواقع ومن ثم يكن أعظم منه. وعلى ذلك فإن الإنسان يناقض نفسه إذا قال بأن الله تعالى - وهو كائن لايمكن تصور أعظم منه - غير موجود؛ وبعبارة أخرى فإن الله لابد أن يكون موجودا فعلا(٦٢).

وقد اعترض أحد المعاصرين - وهو جونيلو Gaunilon - الراهب بدير مارموتيه Marmoutiers على رأى أنسلم، فقال بأن الله تعالى ليس موضوع إدراك مباشر، وهو يختلف عن الموجودات التى نقصد بها أشياء معينة نراها أو نتصور صورتها، وعلى ذلك لايجوز أن نتخذ تعريف اسم الله مقدمة للتدليل على وجوده(٦٣)، ولكن أنسلم رد

(59) Gilson : op. cit., p. 243.

(60) Eyre: op. cit., p. 816.

(61) De Wulf: Tome 1, p. p. 115 - 117.

(62) Taylor: op. cit., vol. 1, p. 279.

(63) Ibid.

على هذا المعترض قائلا: «ارجع إلى إيمانك وعندئذ تدرك أنك تعقل الله على أنه الموجود الذى لا يتصور أعظم منه». وهكذا نعود فنقول أن الإيمان هو أساس التعقل فى فلسفة أنسلم(٦٤).

القرن الثاني عشر: مدرسة شارتر:

أما القرن الثانى عشر فقد شهد فى غرب أوربا نشاطا فكريا غزيرا؛ يرجع الفضل فى جزء كبير منه إلى مدرسة شارتر بفرنسا. وقد ظهر طابع الفلسفة الأفلاطونية فى هذه المدرسة فى مؤلفات تييرى رئيس مدرسة شارتر (ت ١١٥٥) الذى شرح سفر التكوين فى ضوء المعانى الأفلاطونية التى وردت فى محاورة طيماوس(٦٥).

على أن بطرس أبيلار Pierre Abelard (١٠٧٩ - ١١٤٢) كان بدون شك أشهر رجال الجدل فى القرن الثانى عشر وألمع معلمى عصره، بحيث أنه ترك - عن طريق تلاميذه - أثرا عميقا فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية بقية العصور الوسطى، فضلا عن أن تطور اللاهوت المدرسى بلغ ذروته على يديه(٦٦). والواقع أنه لم يكن - كما دعاه البعض - أبا للفلسفة المدرسية، إذ ربما كان القديس أنسلم - إن لم يكن يوحنا سكوت أريجينا - أحق منه بهذا اللقب، ولكن كتابه «نعم ولا Sic et Non» يعتبر نموذجا احتذاه من خلفه من اللاهوتيين الفلاسفة، فاستخدموا الجدل فى دحض آراء المعارضين(٦٧). ويعرض أبيلار فى هذا الكتاب نحوا من مائة وخمسين مسألة لاهوتية، يبحثها بطريقة جدلية أكثر منها موضوعية، معتمدا فى هذا البحث على أدلة فلسفية، ولكن دون أن يجرؤ على أن يقطع فيها برأى حاسم(٦٨)، أما مسألة الكليات فقد اتخذ فيها رأيا وسطا، عندما قال أن الألفاظ كلية لأننا نقصد بها دلالة كلية؛ ولكن للأنواع والأجناس مقابلا فى الخارج. وهذا المقابل هو «طبيعة الجزئى» مجردة من الأغراض، مع تشابه الطبيعة فى الجزئيات الحاصلة عليها. فالأنواع والأجناس ذاتية فى الجزئيات مجردة فى العقل(٦٩). وفيما عدا ذلك، فإن أهم ما أسهم به أبيلار جاء

---

(64) Brehier: op. cit., p. p. 124 - 125.

(65) Gilson : op. cit., p. p. 268 - 272.

(66) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 43.

(67) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 799.

(68) Harris: The Legacy, p. 236.

(٦٩) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ١٠٥.

فى ميدان الأخلاق، إذ وضع كتاب «اعرف نفسك» الغرض منه كشف الأخلاق المسيحية بالعقل عن طريق حوار بين فيلسوف ومسيحى. ويفضل هذا الكتاب اعتبر أبيلار مؤسس علم الأخلاق فى العصور الوسطى[٧٠].

أما يوحنا سالسبورى (١١١٠ - ١١٨٠) فكانت فلسفته عملية معتدلة، تقوم على أساس فلسفة شيشيرون. وقد أخذ حنا سالسبورى عن شيشيرون الشك المعتدل القائم على التمييز بين ما يعلم وما لا يعلم[٧١]. ومن مؤلفاته كتاب «مذاهب الفلسفة» الذى يصور المدارس الفلسفية فى عصره، بعد أن يعرض لتاريخ الفلسفة عند اليونان والرومان؛ وكتاب آخر فى المنطق، وثالث فى السياسة ونظم الحكم Policraticus[٧٢].

وإلى جانب القسط الكبير الذى أسهم به الفلاسفة السابقون وغيرهم فى علاج المسائل اللاهوتية، وجد جماعة أخرى من المفكرين غلب عليهم الطابع اللاهوتى فى تفكيرهم، حتى أننا نعتبرهم لاهوتيين أكثر منهم فلاسفة. والواقع ان العلاقة بين الفلسفة واللاهوت بدت فى ذلك العصر أشد ما تكون وضوحا ، بعد أن غدت مدارس اللاهوت لا تتأثر بالمشاكل الفلسفية فحسب، بل أيضاً بأساليب الفلسفة وطريقتها فى التفكير[٧٣]. وعلى رأس هؤلاء اللاهوتيين كان القديس برنارد (١٠٩١-١١٥٣) الذى أعلن أن الفلسفة الوحيدة التى يصح أن يشتغل بها المفكر المسيحى هى «معرفة المسيح المصلوب»، على أن القديس برنارد لم يتطرف فى مهاجمة الفلاسفة والجدليين كما فعل غيره من رجال الدين المتزمتين، وإنما كان معتدلا فى موقفه منهم، وبذلك ترك أثرا عميقا فى التصوف النظرى[٧٤].

أما هيو- أستاذ دير سانت فكتور (١٠٩٦ - ١١٤١) - فكان أقوى منه أثرا فى فلسفة التصوف. وقد أقام هيو فلسفته فى التصوف على أساس نظرية المعرفة، فقسم المعرفة الإنسانية إلى ثلاث درجات؛ الدرجة الأولى معرفة العالم المحسوس بالحس

---

(70) De Wulf: op. cit, I. p. 155.

(71) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. p. 806 - 807.

(72) Gilson : op. cit., p. p. 274 - 277.

(73) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 44.

(74) Eyre: op. cit., p. 819.

والخيال والتجريد ويسميه عين الجسم (Oculus carnis) ، والدرجة الثانية معرفة النفس لذاتها ويسميها عين العقل (Oculus rationis) ، والدرجة الثالثة معرفة الله ويسميها عين المشاهدة (Oculus contemplationis)(٧٥) .

القرن الثالث عشر - ازدهار الفلسفة المدرسية :

يعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبى للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية جميعا فى العصور الوسطى . ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العلمية فى القرن الثالث عشر ، أهمها إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية ، وقيام الجامعات الأوربية وبخاصة جامعة باريس ، ثم اتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية (الإسلامية واليونانية والإسرائيلية)(٧٦) .

أما عن إحياء تراث أرسطو الفلسفى ، فيلاحظ أن العالم المسيحى الغربى لم يعرف فى الشطر الأول من العصور الوسطى شيئا من بحوث أرسطو عدا منطقة الصورى ، ولعل عدم الاهتمام بالطبيعة ، الذى بدا واضحا من المفكرين الغربيين مثل القديس أنسلم ، ليس مرجعه استغراقهم فى اللاهوت فحسب ، بل جهل هؤلاء المفكرين بالدراسات القديمة التى توضح لهم أهمية الميدان الطبيعى المحسوس كحقل خصب للتفكير والاستقصاء(٧٧) . على أنه فى الوقت الذى كان نصيب الدراسات الأرسطية فى غرب أوربا الإهمال والنسيان ، إذ بهذه الدراسات تحظى بتشجيع مفكرى المسلمين وعنايتهم ، وهم الذين توصلوا إلى مؤلفات أرسطو عن طريق ترجمتها عن السريانية(٧٨) . وهكذا ظهرت دراسات أرسطية إسلامية ، يشوبها كثير من عناصر الأفلاطونية الحديثة . وتزعم هذه الدراسات عدد كبير من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) فى المشرق وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٣) فى الأندلس؛ كما أسهم فى هذه الحركة بعض اليهود مثل موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤)(٧٩) . وسرعان ما وقفت أوربا على الدراسات العربية - وبالتالى الأرسطية - نتيجة

(75) Brehier: op. cit., p. 189.
(76) De Wulf: op. cit, T. 1, p. 221.
(77) Eyre: op. cit., p. 820.
(78) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 811.
(79) Taylor: op. cit., vol, 2, p. 420.

للاتصالات بين المسلمين والمسيحيين فى عصر الحروب الصليبية، فاشتدت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية. وعن طريق هذه الحركة - فضلا عن الترجمة عن اليونانية مباشرة - تعرف غرب أوربا على دراسات أرسطو الذى علم الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلا أوسع من اللاهوت غير المحسوس[٨٠].

على أن الأرسطية - كما بدت فى شروح ابن سينا وابن رشد - اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود، وهى صورة لم تترك سوى مجال ضيق لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق والحياة الأخرى والحساب. وهكذا غدت المشكلة الكبرى أمام مفكرى القرن الثالث عشر فى غرب أوربا هى: هل يجوز تدريس هذه العلوم الفلسفية والآراء الجديدة جنبا إلى جنب مع الدراسات اللاهوتية فى معهد واحد[٨١]؟ ولم تلبث هذه المشكلة أن تبلورت فى جامعة باريس، تلك الجامعة التى حظيت برعاية البابا أنوسنت الثالث لتكون مركزا عالميا لتدريب رجال الدين وتعليمهم. وهنا أثار الإشكال السابق عددا كبيرا من الصعوبات : فهل يجوز تدريس الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية فى الجامعة إطلاقا[٨٢]؟ وإذا جاز ذلك فهل تستقل كلية الآداب بتدريس هذه الدراسات، أم يتم ذلك التدريس تحت إشراف رجال اللاهوت؟ وأخيرا هل يجوز لرجال المنظمات الدينية الكبرى فى القرن الثالث عشر - وهما منظمة الدومينيكان ومنظمة الفرانسسكان - أن يقوموا بالتدريس فى الجامعات[٨٣]؟.

وهنا نجد - فيما يتعلق بجامعة باريس بالذات -، أن صبغتها الكنسية الأولى وعلاقتها بالبابوية، جعلتها تخضع - إلى درجة ما - لكلمة البابوية التى أفزعتها آراء أرسطو والشروح التى وضعها بعض فلاسفة المسلمين لهذه الآراء، فأصدر مجمع باريس الكنسى سنة ١٢١٠ قرارا بتحريم كتابات أرسطو وشروحها [٨٤]. وقد تقرر هذا التحريم بعد ذلك عدة مرات، ولكنه لم يجد فى منع الأحرار من المفكرين عن دراسة كتب أرسطو، فأخذت هذه الكتب تنتشر فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا، فضلا عن إسبانيا؛

(80) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century, p. p. 287 - 293.

(81) Eyre: op. cit., p. p. 820 - 821.

(82) Cam. Med Hist, vol. 5. p. p. 817 - 818.

(83) Eyre: op. cit., p. p. 820 - 821.

(84) Rashdall: op. cit., p. 356.

حتى سمح البابا أوربان الخامس سنة ١٣٦٦ بأن يمتحن طلاب ليسانس الآداب فى جميع كتب أرسطو دون استثناء. أما الصراع العنيف بين رجال المنظمات الدينية والأساتذة العلمانيين حول الاستئثار بالتدريس فى الجامعة (جامعة باريس)، فقد انتهى بانتصار الفريق الأول، حتى أننا نجد أبرز أساتذة القرن الثالث عشر ـ مثل بونافنتورا وروجر بيكون والقديس توما ودونس سكوت ـ ينتمون جميعا إما إلى جماعة الفرانسسكان أو الدومينيكان(٨٥).

والواقع ، أنه إذا نظرنا إلى النشاط الفلسفى فى القرن الثالث عشر، فإنه يمكننا التمييز بين أربعة تيارات اختلفت بعضها عن بعض فى مسلكها تجاه الأرسطية. فهناك أولا أقلية من الرشديين أبرزهم سيجر البرابنتى، وهم الذين تقبلوا تعاليم أرسطو كما صورها العرب وشرحوها دون تحفظ. وبعد ذلك يأتى فريق الأوغسطينيين الذين تشبعوا بأكبر قدر ممكن من الأرسطية مع التمسك بتعاليم أوغسطين وآرائه ومن ورائها الفلسفة الأفلاطونية. وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس بونافنتورا. ثم يأتى ثالثا فريق من المفكرين ظهر فى أكسفورد من الأوغسطينيين الفرانسسكان، وهؤلاء لم يعطوا الميتافيزيقا قدرا من عنايتهم، مثلما أعطوا العلوم الطبيعية التجريبية والرياضيات. وعلى رأس هذا الفريق يأتى روجر بيكون. وأخيرا يأتى فريق الأرسطيين الدومينيكان،وهم الذين تمسكوا بفلسفة أرسطو الأصلية واتخذوها أساسا لتعاليمهم، وهاجموا آراء الشراح والمفسرين الذين شرحوا هذه الفلسفة وفسروها. وأبرز مفكرى هذا الفريق القسيس توماس الأكوينى (٨٦). وسنتناول كل فريق من أصحاب هذه المذاهب الأربعة بكلمة قصيرة.

(أ) أما الرشديون الذين تزعمهم سيجر البرابنتى (١٢٣٥ – ١٢٨٤) فى القرن الثالث عشر، فكانوا يرون فى تعاليم أرسطو ـ كما شرحها ابن رشد ـ علما قائما بذاته، وفنا مثاليا يجب أن يدرس كما هو، دون مراعاة لما بينه وبين الدين من خلاف. وهكذا يبدو أن هؤلاء الرشديين اعتمدوا على شروح ابن رشد واعتبروها خير صورة

---

(85) De Wulf: op. cit, Tome I. p. p. 236 - 237.

وانظر كذلك كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى للمؤلف).

(86) Eyre: op. cit., p. p. 821 - 822.

لفلسفة أرسطو، وبذلك أثاروا حركة عرفت بالرشدية اللاتينية[٨٧]. وكان سيجر زعيم هذه الطائفة يتصور العلاقة بين الإيمان والعقل تصورا خاصاً جديدا، إذ أنه لم يضعهما فى مستوى واحد حتى يميز بينهما. ولكنه حول التعارض بين العقل والإيمان إلى تمايز بين نظام طبيعى منسوخ ونظام فائق للطبيعة ناسخ[٨٨]. ذلك أنه قال أن الإيمان يكشف لنا عن نظام فائق للطبيعة ارادة الله لنا وأعلنه علينا، فنحن نتقبله إلى جانب ما يعقله العقل، أما العقل الطبيعى فلا يعلم سوى النظام الطبيعى الذى من الممكن أن يكون حقا لو لم يستبدل به الله النظام الفائق للطبيعة[٨٩]. ثم يقول أنه إذا أعلن الوحى أمورا لا تستنبط بالأدلة الطبيعية فليس للفلسفة أن تعرض للمعجزات،وإنما للطبيعيات تبحثها بحثا طبيعيا، وهكذا جاءت آراء سيجر خطرا على الجهود التى بذلها المدرسيون للتوفيق بين العقل والدين[٩٠].

(ب) وأما الأوغسطينيون فقد تمسكوا بآراء القديس أوغسطين وبفلسفة أفلاطون من خلفها. ويبدو الفارق واضحا بين آراء هذا الفريق وفلسفة الدومينكان فى نواح أربع؛ أولها فى نظرية المعرفة، إذ يقول الأوغسطينيون بأن للنفس عقلين: عقل أدنى تتجه به نحو المحسوسات وعقل أعلى تتجه به نحو ذاتها ونحو الله، وثانيها قول الأوغسطينيين بأن المخلوق يتركب من هيولى وصورة، وثالثها قولهم بأن المخلوق من صور متعددة بتعدد الكمالات، ورابعا إصرار الأوغسطينيين على علاقة الروح بالجسد[٩١].

وكانت نظرة القديس بونافنتورا St. Bonaventura (١٢٢١ – ١٢٧٤) – زعيم الأوغسطينيين - إلى الفلسفة تتفق مع نظرة القديس أوغسطين؛ إذ كان يرى أن الإنسان خلق ليعرف الله ويحبه، ويجد سعادته فى هذا الطريق - طريق الله. وهكذا اعتبر مهمة الفلسفة مقتصرة على معاونة اللاهوت، لأن الفلسفة الحقة تدور حول الله فى حين يجب أن يتجه اللاهوت، اتجاها صوفيا بحتا. وقد صنف بونافنتورا مؤلفات

---

(87) Brehier: op. cit., p. 336.

(88) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 821.

(89) De Wulf: op. cit, T. 2. p. p. 95 - 99.

(٩٠) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ٢٠٩ – ٢١١.

(91) Eyre: op. cit., p. 823.

عديدة فى الفلسفة واللاهوت والتصوف، تدور موضوعاتها حول شرح آرائه السابقة، والتى يعتبر أهمها نظريته فى المعرفة ووجود عقلين للنفس(٩٢).

(جـ) وأما فرانسسكان أكسفورد Oxford Franciscans فقد وجهوا اهتمامهم نحو الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبذلك أدوا إلى أوربا خدمة جليلة، إذ ترتب على اتجاههم وجهودهم مولد العلوم الطبيعية الحديثة(٩٣). وأبرز فلاسفة هذا الفريق هما جروستست Grossetest (١١٧٥ - ١٢٥٣) ثم تلميذه روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٠ - ١٢٩١). وكان جروستست أستاذا بجامعة أكسفورد ثم رئيسا لها، كما ترجم وشرح وألف كثيرا من الكتب (٩٤). أما مذهبه فكان أقرب إلى آراء القديس أوغسطين، ولكنه فى الناحية العلمية اتجه اتجاها تجريبيا، فاستخدم الأسلوب الرياضى فى التدليل، واعتقد أن الرياضيات وحدها تفسر الظواهر الطبيعية. ويبدو أن جروستست أخذ هذا الاتجاه عن العالم العربى الحسن بن الهيثم الذى كان كتابه «المناظر» بمثابة الدستور العلمى لأساتذة أكسفورد(٩٥).

أما روجر بيكون فكان أوغسطينيا أيضا، جعل للاهوت المقام الأول، وميز بين الدين والعلم فى تفكيره وكتاباته. ويبدو أن بيكون استفاد كثيرا من المؤلفات الإسلامية وبخاصة مؤلفات ابن سينا والحسن بن الهيثم. على أن أهم ما أخذه بيكون عن علماء المسلمين كان الاهتمام بالمنهج التجريبى فى البحث، والإيمان بأهمية هذا المنهج؛ حتى أنه قسم وسائل المعرفة إلى ثلاث هى النقل والاستدلال والتجربة (Per auc-toritatum et rationem et experientiam) وقال أن النقل والاستدلال لا يؤديان إلى معرفة حقه، ما لم تثبت التجربة صحة ما يأتيان به(٩٦). أما فوائد التجربة فهى تأكيد النتائج التى تصل إليها بالاستدلال، كما تؤدى التجربة إلى حقائق جديدة توصلنا إلى علم جديد قائم بذاته هو العلم التجريبى Scienta experimentalis الذى يمكننا

(92) Gilson : op. cit., p. p. 439 - 451.
(93) Eyre: op. cit., p. 826.
(94) Taylor: op. cit., vol. 2, p. p. 146 - 147.
(95) Brehier: op. cit., p. p. 272 - 277.
(96) De Wulf: op. cit, Tome 2. p. p. 134 - 135.

من السيطرة على الطبيعة(٩٧) . وإذا كان روجر بيكون هو أول من استخدم اصطلاح «العلم التجريبي» السابق. فإنه يوضح لنا أن التجارب العلمية التي يعتمد عليها ذلك العلم تمتاز باعتمادها على الأجهزة والآلات المختلفة(٩٨) .

(د) وأخيرا يأتي فريق الأرسطيين الدومينيكان، الذين عملوا على إقامة دعائم فلسفة منسقة على أساس التعاليم الأرسطية، ولكنها تتفق مع أحكام الدين والعقيدة(٩٩) . وقد قام اثنان من فلاسفة هذا الفريق بإقامة ذلك البناء الفلسفي، هما ألبرت الكبير (١٢٠٦ - ١٢٨٠) وتلميذه القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) . وهكذا يمكن القول بأن ألبرت وتوما قد نصرا تعاليم أرسطو، مع ملاحظة أن الفشل يرجع إليهما في التفرقة لأول مرة بشكل واضح بين الفلسفة واللاهوت. فمن الممكن أن تكون من أتباعهما في الفلسفة دون أن تكون مسيحيا؛ كما أنه من الممكن أن تكون مسيحيا مثلهما دون أن تتبعهما في آرائهما الفلسفية. وعن طريق هذه التفرقة قدم هذان الفيلسوفان خدمة جليلة للباحث العلمي، إذ أعطياه براءة تحرره من سيطرة اللاهوت عليه وتحكمه فيه. وبذلك صار للباحث حرية تامة في التنقل خلال أرجاء العالم الطبيعي دون أن تكون للسلطة الدينية حق التدخل في عمله(١٠٠) .

ألبرت الكبير:

أما ألبرت الكبير فأهم ما يميز فلسفته ظاهرة الإصرار على التفرقة بين الفلسفة واللاهوت - وهي التفرقة التي تعتبر بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الغربي، لأنها جاءت في الواقع تمييزا بين دعاوى ينهض عليها الدليل ويوجد ما يثبتها علميا، ودعاوى أخرى لا تسندها أدلة واضحة سوى «هكذا ورد في الكتاب المقدس» أو «هكذا قال آباء الكنيسة»(١٠١) .

وليس معنى هذا أن ألبرت حاول أن يقلل من شأن اللاهوت. فقد كان قديسا وراهبا في منظمة الدومينيكان، ثم أستاذا للاهوت في جامعة باريس؛ وأخيرا أسقفًا

---

(97) Cam. Med. Hist, vol. 2. p. p. 825 - 826.

(98) Eyre: op. cit., p. 827.

(99) Taylor: op. cit., vol, 2, p. 452.

(100) Gilson: op. cit., vol, 2, p. 503.

(101) Eyre: op. cit., p. p. 828 - 829.

على كولونيا، كما ألف كثيرا من التصانيف اللاهوتية والفلسفية والعلمية، ورجع إلى الأفلاطونية كما رجع إلى الأرسطية(١٠٢). ولكنه عرف الأرسطية على حقيقتها، وعرضها على معاصريه عرضا غير مغرض، فقال أن أرسطو هو المصدر الأول فى معرفتنا للطبيعيات لأنه عرف الطبيعة أكثر من غيره؛ وبذلك استطاع ألبرت أن يقدم فلسفة أرسطو- لأول مرة- فى ثوب مسيحى(١٠٣). وهنا يتمالك ألبرت شجاعته فيصرح بأن مبادئ اللاهوت لا تتفق مع الفلسفة لأن الأول يقوم على الوحى فى حين تقوم الفلسفة على العقل؛ ولكنه مع ذلك يوصى باستخدام الفلسفة فى اللاهوت لحل مشاكله(١٠٤). على أنه يؤخذ عليه أنه لم ينته فى آرائه إلى مذهب مستقل مترابط، وأنه استوعب المذاهب الفلسفية السابقة دون أن يخرج منها برأى خاص، الأمر الذى جعل تلاميذه ينقسمون من بعده إلى فريقين: فريق سار فى ركاب الأفلاطونية الحديثة، وفريق سار فى ركاب الأرسطية(١٠٥)، والفريق الأخير أقوى أثرا وأشد ظهورا، وكان على رأسه توما الأكوينى صاحب أروع المذاهب العقلية فى العصور الوسطى.

القديس توما الأكوينى:

أما توما الأكوينى (١٢٢٥ – ١٢٧٤) فكان هو الآخر من الرهبان الدومينيكان، تتلمذ على يد ألبرت الكبير ثم صار أستاذا بجامعة باريس. وقد دون كثيرا من الشروح والمؤلفات الفلسفية، حاول فيها أن يقدم فلسفة أرسطو إلى معاصريه فى صورة براقة مغرية الأمر الذى أوقعه فى صراع مع الأوغسطينيين من ناحية ومع الرشديين من ناحية أخرى. وهنا نلاحظ أن توما الأكوينى اعتمد فى آرائه الفلسفية الخالصة على طريقة ابن رشد فى شرح فلسفة أرسطو، فى حين ألف فى الجانب اللاهوتى عدة مؤلفات بلغت شأوا بعيدا فى مهارة البناء وسمو الصياغة والمنهج(١٠٦).

وقد امتازت فلسفته بالتفرقة الواضحة بين العلم واللاهوت، فقال أن الفلسفة لايمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مبادئ المسيحية، لأن العقل البشرى يتقبل هذه

---

(102) Cam. Med. Hist, vol. 5. p. 824.

(١٠٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ١٦١ – ١٦٨.

(104) Brehier: op. cit., p. 300.

(١٠٥) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٦١ – ١٦٨.

(106) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 365.

المبادئ لاعتقاده فقط أنها من لدن الله. وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تفنيد مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين فى الدين(١٠٧). على أن ثمة عنصرا مشتركا بين الفلسفة واللاهوت، هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التى تسندها السلطة المقدسة دون أن يقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وماهيته وقدرته(١٠٨). وهنا يسوق القديس توما خمسة أدلة على وجود الله، مستمدا منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص: وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذى لا يتحرك، فكل ما يتحرك يحركه شىء سواه. ولما كان التسلسل اللانهائى مستحيلا، فإننا سنصل فى النهاية إلى شىء يحرك بقية الأشياء دون أن يتحرك هو، وهذا الشىء هو الله. والدليل الثانى يقوم على أساس العلة الأولى، إذ لايمكن أن تكون جميع الموجودات فاعلة لنفسها، بل لابد أن يكون لكل شىء علة أوجدته؛ ولما كان التسلسل اللانهائى مستحيلا فلابد من وجود علة خالقة أولى، هى الله(١٠٩). أما الدليل الثالث فهو ضرورة وجود مصدر أساسى لكل الموجودات هو الله؛ وأوضح أن هذا الدليل يكاد يكون الدليل نفسه السابق له. ويعتمد الدليل الرابع على تفاوت الموجودات فى الصفات والكمالات، والتفاوت لا يأتى إلا نتيجة للإضافة إلى ما هو فى صفة معينة، وعلى ذلك لابد من وجود شىء تام الكمال هو غاية الكمالات التى تصدر كلها عنه، وهذا الشىء هو الله. وأخيرا يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات - حتى التى لا حياة فيها - تعمل لتحقيق غاية معينة، مما يدل على أنها لا تعمل عرضا بل قصدا، مدفوعة بقوة كائن سواها خارج عنها؛ وهذه القوة هى قوة الله(١١٠).

ومن الواضح أن الأدلة السابقة تقوم على أساس الوصول إلى علة الموجودات الطبيعية، لأن القديس توما يرى أن الإيمان يتوقف على معرفة الطبيعة، الأمر الذى استوجب إطلاق اسم «اللاهوت الطبيعى «Natural Theology» على هذا القسم من فلسفته(١١١). وبعد ذلك يتعرض القديس توما لماهية الله تعالى، فيرى أن الله جوهر نفسه لأنه كائن غير مركب لافرق فيه بين جوهر ووجود، وهو كامل من جميع

(107) Eyre: op. cit., p. 830.

(108) De Wulf: op. cit, Tome 2. p. 13.

(109) Gilson: op. cit., p. 531.

(١١٠) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٧٤ - ١٧٧.

(111) Eyre: op. cit., p. 830.

النواحى، والأشياء التى تشبهه فى بعض النواحى لا تشبهه فى البعض الآخر، وهوإرادة، وإرادته هى جوهره. ويمتاز الله بالقدرة والعناية والعقل والفضائل التأملية والعملية جميعا(١١٢). ثم يتناول القديس توما مشكلة الخلق والعلاقة بين الخالق والمخلوق، فيقول أن الموجودات ـ خلا الله ـ مخلوقة، لأن الله خلق العالم من العدم. وأرقى المخلوقات هم الملائكة وهى مخلوقات روحية كثيرة العدد، يبلغون كمالهم العقلى بفيض الهى. أما الإنسان فيلى الملائكة فى المرتبة، وبعبارة أخرى يحتل الإنسان مكانة وسطى بين الملائكة والأعجام. والإنسان مؤلف من روح وجسد، والروح هى النفس الخالدة التى تدرك الاشياء بقوة العقل. والعقل جزء من روح كل فرد من الأفراد(١١٣). وهنا يعرض القديس توما لمشكلة الكليات عندما يبحث فى العقل، فيتفق مع أرسطو فى أن الكليات لا وجود لها خارج الروح، ولكن العقل حين يعقل الكليات فهو يعقل أشياء موجودة خارج الروح(١١٤). أما فلسفة توما الأخلاقية فقد حاول فيها أيضًا التوفيق بين فلسفة أرسطو وآراء المسيحية، مما جعل الطريقة التى عالج بها المشاكل الأخلاقية فريدة فى نوعها بين بحوث الفلاسفة المدرسيين(١١٥)، وتقوم فلسفة توما الأخلاقية على أساس أن الشر غير مقصود، لأن الكائنات كلها ترمى إلى التشبه بالله فى الخير. كذلك يقول توما أن سعادة البشر الكاملة تقوم على التأمل فى الله، لا على اللذائذ الدنيوية، لأن الله هو الغاية القصوى. والعقل الطبيعى هو مجموعة القواعد الخلقية التى تعى وتنبذ الشر(١١٦).

وإذا كان القديس توما قد وجه كل اهتمامه نحو الدراسات المتعلقة بالله وبالإنسان، فإنه قنع فيما عدا ذلك من دراسات طبيعية بالمناهج التى وضعها الأرسطيون فى الطبيعة وعلم الكون (الكسمولوجيا Cosmology) وعلم الأحياء. ولعل هذا هو السبب فى إهمال آراء توما فى هذه العلوم فيما بعد عندما ارتقت العلوم الطبيعية واتخذت أساسا للمعرفة الحقيقية، ولكن القديس توما لم يتبع أستاذه أرسطو فى العلوم السابقة

(١١٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٩ – ٢٤٢، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٧٨ – ١٨٢ .

(113) Gilson: op. cit., p. p. 536 - 537.

(١١٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٤٣.

(115) Harris: The Legacy, p. 245.

(116) De Wulf: op. cit, Tome 2. p. 24.

اتباعا أعمى، وإنما كان فى بعض النواحى ـ لا سيما فيما يتعلق بالفلك ـ يضيف إلى نتائج أرسطو أنه لا يستطيع تأكيدها أو التسليم بها(١١٧).

* * *

على أن هذه الأرسطية الجديدة أو التوماوية (Thomism) لم نسلم من معارضة بعض المعاصرين الذين ساءتهم جرأة توما فى الخروج على آراء السلف، وبخاصة القديس أوغسطين. هذا إلى أن سياسته فى فصل الفلسفة عن اللاهوت جعلت الأولى تبدو قائمة بذاتها دون أن تفقد شيئا من خصائصها، فى حين اضطر اللاهوت إلى أن يتجه وجهة معينة جديدة(١١٨). لذلك غضب رجال اللاهوت، واضطر أسقف باريس سنة ١٢٧٧ إلى تحريم دراسة عدد كبير من المسائل الفلسفية منها بعض المبادئ الأرسطية والتوماوية(١١٩). وفى نفس السنة السابقة أصدر رئيس أساقفة كانتربورى بإنجلترا أيضاً قررا بتحريم تدريس بعض المبادئ التوماوية فى أكسفورد، وتكرر هذا التحريم سنة ١٢٨٤ ثم سنة ١٢٨٦. على أن البابوية لم تلبث أن وقفت موقفا مغايرا من تعاليم توما وآرائه، حتى انتهى الأمر بإعلانه قديسا سنة ١٣٢٣(١٢٠).

يوحنا دونس سكوت:

وكانت نتيجة ما أثير حول فلسفة توما أن انقسم الفلاسفة من بعده إلى فريقين «التوماوية ـ ومعظمهم من الدومينكان، واتباع بونافنتورا ومعظمهم من الفرانسسكان(١٢١)». وكان أبرز الفلاسفة عند نهاية القرن الثالث عشر من الفريق الأخير، هو يوحنا دونس سكوت (١٢٦٦ - ١٣٠٨) Johannes Duns Scotus الذى يشبه القديس توما فى تمسكه بنظرية أرسطو فى المعرفة، ولكنه كان أوغسطينيا ينتمى إلى بونافنتورا لذلك حاول أن يرفع من شأن اللاهوت، ويجعل منه علما يهدف إلى تدبير أفعالنا أكثر منه إلى تعريفنا حقائق معينة(١٢٢). وبذلك ابتعد يوحنا دونس عن

---

(117) Eyre: op. cit., p. p. 835 - 836.

(١١٨) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٣.

(119) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 822.

(120) Brehier: op. cit., p. p. 341 - 343.

(121) Eyre: op. cit., p. 836.

(١٢٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٤.

آراء توما الأكويني، بل أنه قلب نظرية توما في المعرفة رأسا على عقب بقوله أن المفكر المسيحي يجب أن يصدر فكره عن الإيمان، وأن يجعل من الوحي محورا لمذهبه – وهكذا يمضي يوحنا سكوت في تعقب آراء القديس توما لمعارضتها دون أن يدرك حقيقتها[١٢٣]. فهو في البرهان على وجود الله يبدأ بفكرة مطلق الإمكان: وهي الفكرة التي تؤدي بنا إلى علة أولى ممكنة، والعلة الأولى الممكنة موجودة ضرورة، وبذلك نصل إلى أن الله موجود لامتناه. ومن هنا يستطيع الميتافيزيقي - وموضعه الوجود من حيث هو كذلك - البرهنة على وجود الله دون الالتجاء إلى برهان المحرك الأول الذي قال به القديس توما[١٢٤]. كذلك يرفض دونس سكوت ما قاله القديس توما في الصفات الإلهية من أن هذه الصفات متمايزة تمايزا ذهنيا. بل أنه يعترف من جهة أخرى بأننا لا نستطيع أن نجعل بين الصفات تمايزا عينيا، فتدخل الكثرة على الذات الإلهية[١٢٥]. لذلك يبتدع تمييزا يحسبه وسطا هو «التمييز الفعلي الصوري من جهة الشيء»؛ ولكن فاته أن التمييز الفعلي من جهة الشيء هو في الواقع تمييز عيني، فكيف يكون صوريا في الوقت نفسه[١٢٦]؟. أما في الإرادة فهو - مثل جميع الأوغسطينيين - يقدم الإرادة على العقل لأنها تأمر العقل وتوجهه [١٢٧]؛ كما يرى في خلق العالم أن العالم حادث ولا يمكن افتراض القدم، وبذلك وضع ما جاء به الوحي من خلق العالم موضع الالزام، واعطى اللاوجود وجودا سابقا؛ بعكس ما قال به القديس توما من ارتباط الخليقة بعلتها بغض النظر عن الزمان[١٢٨].

وهكذا يبدو من آراء دونس سكوت أن فلسفته امتازت - على الرغم مما فيها من عناصر إنشائية - بطابع عام من النقد والهدم[١٢٩]. فغرضه الأساسي كان مناقضة آراء القديس توما من جهة وتوسيع نطاق اللاهوت من جهة أخرى ولكنه في جميع ذلك لم

---

(123) De Wulf: op. cit, Tome 2. p. 66.

(124) Idem, p. 72.

(125) Gilson: op. cit., p. p. 598 - 599.

(١٢٦) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٢٩.

(127) Harris: The Legacy of the Middle Ages, p. 248.

(128) Eyre: op. cit., p. 837.

(129) Harris: The Legacy, p. 248.

يحقق أغراضه ولم يوفق فى فلسفته؛ الأمر الذى جعل منه بداية للانحلال الذى تعرضت له الفلسفة المدرسية، بعد ما بلغته هذه الفلسفة من رقى وتقدم فى القرن الثالث عشر(١٣٠).

القرن الرابع عشر ـ انحلال الفلسفة المدرسية:

إذا كان القرن الثالث عشر يمثل ـ كما سبق أن ذكرنا ـ العصر الذهبى للفلسفة المدرسية، عندما اتجهت هذه الفلسفة نحو التقريب بين العقل والدين؛ فإن الحال اختلف بالنسبة للقرن الرابع عشر(١٣١). وقد سبق أن رأينا كيف أخذ الاتجاه ضد العقل يقوى منذ أواخر القرن الثالث عشر على يد يوحنا دونس سكوت؛ وكان الغرض من ذلك الاتجاه الرفع من شأن الدين واللاهوت. وقد قضى هذا الاتجاه على جهود مفكرى القرن الثالث عشر، وهدد بالفصل بين العقل والدين، مما جعل القرن الرابع عشر يبدو سلبيا هداما، هذا على الرغم مما شهده هذا القرن من تقدم فى العلوم الطبيعية(١٣٢).

ومن أبرز مفكرى القرن الرابع عشر الذين أخذوا يتشككون فى أهمية العقل ويتمسكون بالدين وأحكامه، وليم الأوكامى (١٣٠٠ – ١٣٥٠) William of Okham، وهو من فرانسسكان أكسفورد. وكثير ممن يعرفون وليم الأوكامى لا يجهلون الركن الأساسى من تفكيره، لأن جون لوك وخلفاءه من الحسيين استمدوا منه نظريته فى المعرفة (١٣٣)، وهى النظرية التى تعتبر محور تشكك أوكام فى الفلسفة والعلم. ذلك أنه يرى أن المعرفة العقلية التجريدية واقعة على معان مجردة، وهذه المعانى عبارة عن إدراكات غامضة تعبر عن الجزئيات تعبيرا عاما غير مجد(١٣٤)، فالألفاظ الدالة على معان ـ مثل إنسان ـ تدل على أشياء غير واضحة ، فى حين أن الألفاظ الدالة على جزئيات ـ مثل سقراط ـ تدل على الأشياء نفسها ولكن بوضوح. وبعبارة أخرى فإن الاسم – لا المعنى ـ هو موضوع العلم، على أساس أن هذا الاسم يرمز إلى

---

(130) Brehier: op. cit., p. 391.

(131) De Wulf: op. cit, Tome 2, p. 154.

(132) Eyre: op. cit., p. 838.

(133) Ibid.

(134) Gilson: op. cit., p. p. 641 - 642.

الجزئيات [١٣٥]، ومن هنا سمى مذهب أوكام بالاسمية، واعتبره الاسميون فى القرن الخامس عشر مؤسس مدرستهم[١٣٦]. وإذا كان بعض النقاد يرى أن أوكام أفسد الفلسفة المدرسية، بعد أن جرد المعنى من قيمته الموضوعية، وأنه تورط فى أغلاط ومغالطات من السهل كشفها بالرجوع إلى مؤلفات أرسطو والقديس توما [١٣٧]؛ إلا أن البعض الآخر من الباحثين المحدثين يعارضون هذا الحكم على أوكام، ويرون أنه كان مهتما باستعادة الصواب إلى فلسفة أرسطو بعد أن ينقيها من مؤثرات أوغسطين والعرب؛ وأن شرح النقاد لأوكام قد أفسدته رغبتهم فى إيجاد حالة من التدرج بين الفلسفة المدرسية والفلسفة الحديثة [١٣٨].

* * *

ومهما يكن من أمر، فإن وليم الأوكامى يعتبر آخر أعلام الفلاسفة المدرسيين[١٣٩]. وسرعان ما اتضح فى نهاية القرن الرابع عشر أن جميع الظروف مهيأة للانتقال إلى مرحلة جديدة فى الفلسفة. ولم تلبث هذه الظروف من ناحية، والحوادث التاريخية التى امتاز بها القرنان الخامس عشر والسادس عشر من ناحية أخرى، أن أدت جميعها إلى دخول الفلسفة فى دور آخر عظيم بدأ حوالى سنة ١٦٠٠[١٤٠].

(١٣٥) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

(١٣٦) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٦٤.

(١٣٧) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٤١.

(١٣٨) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

(139) Gilson: op. cit., p. 655.

(140) Eyre: op. cit., p. 843.

الباب السابع

الفكر السياسى والنشاط التشريعى

مميزات الفكر السياسى فى العصور الوسطى:

امتاز الفكر السياسى فى أوربا العصور الوسطى بطابعه العالمى، إذ يدور هذا الفكر حول محور رئيسى، هو قيام عالم واحد يمثل فى جانبه الدنيوى تراث الإمبراطورية الرومانية وسلطانها، وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية وكنيستها[١]. وبعبارة أخرى فإن هذا الفكر قام على أساس وجود إمبراطورية وكنيسة؛ أو إمبراطور وبابا ليرعى الأول الأمور الدنيوية فى حين يرعى الآخر الجوانب الروحية[٢].

فالمفكرون السياسيون فى العصور الوسطى لم يؤمنوا بأن الإمبراطورية الرومانية زالت بانقراض الوثنية، بل اعتبروها قائمة فى ظل المسيحية، كما يبدو ذلك بوضوح فى تفكير دانتى الذى لم يعترف بوجود فجوة بين الرمبراطورية الرومانية القديمة وامبراطورية العصور الوسطى؛ وقال بأن أحداث القرن الخامس لم تؤثر مطلقا فى تطور الإمبراطورية الرومانية واستمرارها[٣]. حقيقة أن الإمبراطورية انتقلت إلى الشرق، أو ـ حسب تعريفه ـ اتجاه النسر شرقا نحو العالم اليونانى البيزنطى se fece Greco؛ ولكن المهم هو أنه ظل محلقا فى الفضاء، مستمرا فى طيرانه دون أن يتوقف. وكان الرومان فى نظر دانتى هم شعب الله المختار المفضل (populo- santo)، كما أنه اعتبر إمبراطورية الغرب ـ عندما تم إحياؤها ـ وريثة التراث الرومانى القديم [٤]. وفى كل هذه الآراء عبر دانتى عن وجهة نظر العصور الوسطى تعبيرا أمينا صادقا. مما جعل وجهة النظر هذه تبدو فى صورة محاولة لربط الآراء السياسية المتعلقة بالإمبراطورية الرومانية بتعاليم المسيحية الخلقية[٥].

وهكذا ظلت نظرة الغربيين إلى العالم طوال العصور الوسطى على أنه مجتمع سياسى دينى، تستند وحدته النهائية إلى قوة الله وإرادته. وهذا العالم الذى يضم جميع

---

(1) Bowle: Western Political Thought, p. 180

(2) Hearnshaw: The Social and Political Ideas of some Great Med. Thinkers, p. 12.

(3) Carlyle: The Political Theory in the West, vol, 3, p. 170.

(4) Bowle: Western Political Thought, p. 235.

(5) Eyre: op. cit., p. 278.

الناس يقوم من أجل هدف مشترك، ويحكم وفق قانون واحد يمثل فى جانبه الدنيوى التقاليد الرومانية، وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية(٦). وإذا كان قد حدث خلاف بين المفكرين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حول هذه النظرية فإن الخلاف لم يكن حول صحتها لأن الجميع آمنوا بها، وإنما كان حول طريقة تطبيقها، وضبط السلطتين الزمنية والروحية داخل نطاق مجتمع واحد هو مجتمع المسيحية السياسى(٧).

وعندما ازدادت الحياة الفكرية عمقا فى العصور الوسطى، آخذ المفكرون يتساءلون عن الأساس الفكرى للمجتمع، وعندئذ توصلوا إلى نتائج كان لها أبعد الأثر فى الفكر السياسى. والواقع أنهم لم يكونوا مبتكرين فى النتائج التى توصلوا إليها، لأنهم نادوا بما سبق أن قال به أرسطو من أن سبب قيام المجتمع هو أن الإنسان اجتماعى بالطبع(٨). وبعبارة أخرى فإن مفكرى العصور الوسطى اتبعوا قول أستاذهم أرسطو فى أن الفرد لايمكن أن يستسيغ الحياة الانفرادية بعيدا عن بنى جنسه، لأنه فى هذه الحالة إما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو ملاكا أسمى من مستوى البشر(٩). وهكذا قال القديس أوغسطين أن الطبيعة الإنسانية اجتماعية، كما تمسك بقية مفكرى العصور الوسطى بأن الأساس الأول للمجتمع هو طبيعة الإنسان نفسها. وقد وضعوا هذه القاعدة فى قالب عملى، فقالوا أن الغرض من النظم الاجتماعية هو تنفيذ القانون الطبيعى. ومن هذا يبدو أن النظرية السياسية قامت فى أوربا العصور الوسطى على أساس تصور قانون طبيعى ودولة طبيعية(١٠).

على أن لفظ «الطبيعة» استخدم فى الفكر السياسى للدلالة على معان متناقضة مختلطة. فهذا اللفظ استخدم فى أول الأمر للتعبير عن الأوضاع البدائية، ومن ثم أصبحت الحالة الطبيعية يقصد بها إما حالة الكمال التى تمتاز بالبساطة والبعد عن التعقيد، أو حالة الهمجية الأولى وعدم النظام. هذا فضلا عن استخدام لفظ «الطبيعى»

---

(6) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 12.

(7) Gierke: Political Theories of the Middle Ages; p. p. 9-10.

(8) Bowle: op. cit., p. 62.

(9) Poole: Med. Thought; p. 214.

(10) Eyre: op. cit., p. 279.

فى الفكر السياسى بمعنى السوى أو العادى، وعلى ذلك فإن طبيعة الإنسان لا تتمثل فى حالته البدائية وإنما فى الحالة التى يصير عليها إذا تم نضجه(١١). وتبعا لوجهة النظر هذه، لايكون هناك مبرر لربط «الحالة الطبيعية» بالزمن، وإنما هى حالة مثالية يجب أن يجاهد الإنسان فى سبيل الوصول إليها. وإذا كان الأمر كذلك فإن القانون الطبيعى يصبح فى هذه الحالة مجموعة مبادئ من السلوك الطيب التى يتحلى بها البشر - من الجانب المثالى - لتصبح هذه المبادئ أساس الأخلاق. وهذا المعنى الأخير «للطبيعة» هو المعنى نفسه الذى قصده جمهرة المفكرين بوجه عام فى العصور الوسطى؛ فهم عندما يتحدثون عن «قانون الطبيعة» إنما يقصدون مجموعة ضخمة من المبادئ الخلقية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ليصل إلى مرتبة الكمال البشرى(١٢). ويتبع ذلك أن المجتمع الذى يقوم على أساس القانون الطبيعى كان له - عند هؤلاء المفكرين - هدف خلقى محدود. ومن الواضح أن مفكرى العصور الوسطى استمدوا هذه الأفكار من اراء الرواقيين من جهة ومشرعى الرومان فى أواخر عصور الحضارة القديمة من جهة أخرى(١٣). وقد أدت جميع هذه الآراء إلى الاعتراف بالقانون الطبيعى الذى يشمل مبادئ الأخلاق المتفق عليها فى جميع أنحاء العالم المتحضر، والملائمة لجميع البشر، وبذلك تختلف عن القوانين الوضعية المحلية الخاصة بأمم معينة، وتسمو عليها(١٤).

على أن هناك ظاهرة كان لها أثر كبير فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى، تتمثل فى التباين الذى أثير بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى. وبعبارة أخرى فإنه كان لابد من التفرقة بين القوانين والنظم التى قامت على أساس الطبيعة، وتلك التى قامت على أساس العرف والتقاليد(١٥). فالأولى لها قيمة خلقية جوهرية جديرة بالأهمية، فى حين كانت الأخرى لا تقوم إلا على أساس الممارسات والتجارب، ولذا فإنها ربما أدت إلى غرض نافع فى بعض الحالات، ولكن ينقصها الطابع الخلقى

(11) Jacob: The Legacy of the Middle Ages, p. 510.

(12) Gierke: op. cit., p. p. 74 - 75.

(13) Bowle: op. cit., p. p. 82 - 84.

(14) Carlyle: op. cit., vol. 1, p. p. 5-6.

(15) Gierke: op. cit. p. p.76-78.

الشامل الذى يميز القانون الطبيعى. وقد عبر مفكرو العصور الوسطى عن هذا التباين تعبيرا لاهوتيا. فقال القديس خريستوم (فم الذهب) «عندما أتحدث عن الطبيعة فأنا أعنى الله، لأنه هو الذى أبدع العالم»[١٦]. وهكذا اتضح للمفكرين أن هناك فجوة واسعة بين الحالة المثالية للإنسان كما تصورها الطبيعة، وبين النظم السياسية القائمة فعلا على أساس القوانين الوضعية؛ لأنه بدا من المستحيل التوفيق بين عادات الإنسان وقوانينه الضرورية، وبين الفكر الإلهى الذى نبت منه القانون الطبيعى. ففى ظل القانون الطبيعى ينبغى ألا تكون هناك حكومة، ولا حكام أو محكومون، لأن جميع الناس أحرار وسواسية؛ وبالتالى لاينبغى أن يكون هناك عبيد أو رقيق، ولا يصح أن يبقى أى أثر للملكية الفردية، لأن الناس الأحرار المتساويين لهم أن يتمتعوا بكل ما خلقه الله لهم على قدم المساواة.

ولكن من الواضح أن تطبيق هذه الآراء يؤدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب، لأن المجتمع لايمكن أن يستغنى عن حكومة أو ملكية فردية، كما أن عنصر الرق كان ركنا أساسيا فى بناء المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى[١٧]. لذلك أتى المفكرون السياسيون بنظرية تردى الإنسان وسقوطه، فقالوا أنه كان من الممكن أن يكتفى المجتمع بهذه المبادئ الأساسية من القانون الطبيعى، وذلك قبل أن يضل الإنسان سواء السبيل. أما وقد سقط الإنسان وتردى فى الخطيئة، فقد غدا من الضرورى وجود قوانين وضعية تتمشى مع الوضع الجديد الذى تردى فيه الإنسان[١٨]. وعلى هذا الأساس نظر المفكرون فى العصور الوسطى إلى القوانين الوضعية على أنه ينقصها السمو والكمال الذين يتصف بهما القانون الطبيعى؛ ومع ذلك فإنه لابد من هذه القوانين الوضعية لوقف الشرور وعلاج المثالب التى لازمت الإنسان منذ أن تردى فى الخطيئة[١٩].

وهنا نعود فنؤكد أن هذه التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية إنما هى فى الواقع إقرار للفكرة الكلاسيكية، ولكن فى صيغة لاهوتية. وقد عبر عن هذه الفكرة

(16) Eyre: op. cit., p. p. 280 - 281.

(17) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 18.

(18) Carlyle: op. cit., vol. 1, p. p. 144 - 146.

(19) Eyre: op. cit., p. 281.

فى القرن السابع القديس ايسيدور (٥٦٠ – ٦٣٦) حين قال «أن جميع القوانين إما إلهية أو بشرية، فالقوانين الالهية تعتمد على الطبيعة فى حين تعتمد البشرية على العرف، وبالتالى فإن هذه القوانين الأخيرة يختلف بعضها عن بعض لأنها تتباين بتباين الأمم»[٢٠] . أما فى القرن الثانى عشر فقد كتب جراشيان قائلا «هناك قوتان تحكمان البشر، هما قوة القانون الطبيعى وقوة العادة والتقاليد. والقانون الطبيعى هو ما نصت عليه التشريعات السماوية والإنجيل، من أنه يتعين على كل إنسان أن يسلك تجاه غيره المسلك نفسه الذى يرتضيه لنفسه»[٢١] .

وخلاصة القول أن مفكرى العصورالوسطى بدءوا تفسيرهم الفكرى للنظم الاجتماعية والسياسية على أساس ثلاثة مبادئ وضعوها نصب أعينهم دائما: **الأول**: هو تصورهم للقانون الطبيعى على أنه يعبر عن أقصى حالات السمو البشرى، وأن هذا القانون مستمد من الفكر الإلهى ليكون مصدرا للأخلاق. **والثانى**: هو الاعتقاد بأن القوانين الوضعية ونظم الدول العلمانية قامت من وجهة النظر المثالية على أساس القانون الطبيعى، ولكنها تختلف اختلافا جوهريا عن القانون الطبيعى فى تباينها بين مكان وآخر، وفي أنها راعت العادات والتقاليد التى جاءت نتيجة حتمية للحد من آثام الإنسان[٢٢] . **والثالث**: هو وجود فرق واضح ثابت بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية، كما ظهر ذلك بجلاء فى جميع المناقشات والبحوث التى دارت حول النظم السياسية، وعما إذا كانت هذه النظم طبيعية تتفق مع المبادئ العامة للأخلاق أو عرفية جاءت نتيجة لخطأ الإنسان وكوسيلة لعلاج هذا الخطأ وإقرار الأمن والسلام[٢٣] .

وفى ضوء هذا التباين بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية، عالج مفكرو العصور الوسطى ثلاث مشاكل كبرى هى الرق والملكية والدولة.

الرق:

أما مسألة الرق فتمثل لغزا عسرا فى الفكر السياسى منذ أيام اليونان القدامى، عندما نوقشت هذه المسألة فى ضوء الفروق التى سبق أن أشرنا إليها. وقد وصل

(20) Carlyle: op. cit., vol. 1, p. p. 106 - 108.

(21) Taylor: op. cit., Vol. 2, p. p. 297 - 298.

(22) Eyre: op. cit; p. 281.

(23) Idem. p. 282.

أرسطو إلى نتيجة هامة بخصوص الرق، فقال أنه أمر طبيعى، لأن بعض الناس يصلحون بفضل طبيعتهم لأن يكونوا رقيقا، ولا شىء غير ذلك(٢٤). أما مفكرو العصور الوسطى - وقد سبقهم فى ذلك الرواقيون إلى حد ما - فاتخذوا رأيا فى الرق معارضا لرأى أرسطو على طول الخط. ذلك أنهم نظروا إلى المسألة من وجهة نظر تعاليم المسيحية، التى تقول بأن الناس جميعا متساوون أمام اللهوأن روح الرقيق تعادل تماما فى أهميتها روح السيد الحر(٢٥). على أننا نجد من ناحية أخرى أن الرق ظل قائما - فى صورة أو أخرى - فى أوربا العصور الوسطى؛ ومع أن المفكرين رفضوا الاعتراف بأنه وضع طبيعى إلا أنهم التمسوا له مبررا عرفيا فى بعض الحالات. وهكذا نظر هؤلاء المفكرين إلى الرق على أنه ظهر نتيجة الخطيئة والشر، ولكنهم اعتبروه نظاما تقليديا لابد منه لوقف بعض الاتجاهات الآثمة في المجتمع البشرى(٢٦). فالعصور الوسطى لم تحكم على الرق مطلقا بالبطلان أو عدم الصلاحية، ولكنها أنكرت وجود «الرق الطبيعى» وتمسكت بأنه يجب على السيد أن يسلك دائما مسلكا طيبا تجاه ما يتملكه من رقيق(٢٧). وبعبارة أخرى فإن العصور الوسطى اعتبرت الرق مسألة عادة وعرف لابد منهما لتصريف أمور المجتمع، مع الاعتراف بعدم سلامة هذا الوضع.

الملكية الفردية:

أما المسألة السياسية الثانية التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الخلاف بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية فهى مسألة الملكية. وفى هذه المسألة أيضًا ورثت العصور الوسطى وجهة النظر القديمة التى قال بها الرواقيون والتى نادت بأن القانون الطبيعى لايعترف بالملكية الفردية. فجميع الأشياء - من الناحية المثالية - يمتلكها جميع الناس من أجل منفعتهم المشتركة العامة(٢٨). ولكن فلاسفة العصور الوسطى ومشرعيها كان عليهم - كما هو الحال فى مسألة الرق - أن يواجهوا حقائق الحياة القائمة ومطالبها العملية؛ ومن هنا اعترفوا بقيام الملكية الفردية فى كل مكان

(24) Carlyle: op. cit., vol. 1, p. 7.

(25) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p. 613 - 614.

(26) Poole: Med. Thought; p. 214.

(27) Carlyle: op. cit., vol. 1, p.123.

(28) Gierke: op. cit. p.80 & Carlyle: op. cit., vol. 1, p. p. 43 - 44.

على أساس أن القوانين الوضعية تبرر بقاءها.

وقد اتخذت مشكلة الملكية قالبا هاما فى ظل المسيحية؛ نتيجة للطابع الروحى الذى امتاز به الدين السماوى الجديد(٢٩). وهنا اكتشف بعض الكتاب فى أوائل العصر المسيحى آثارا لنظرية الاشتراكية المتطرفة في الإنجيل(٣٠). ولكن مفكرى العصور الوسطى لم يأخذوا مطلقا بهذه النظرية، وإنما حكموا التباين بين الطبيعة والعرف؛ فقالوا أن جميع الممتلكات وفقا للقانون الطبيعى - وهوالقانون الالهى - تعتبر ملكا لله وهبها عباده جميعا للانتفاع بها(٣١). ولكن عندما تردى الإنسان في الخطيئة، أدى حرصه وبخله إلى استحالة بقاء هذا الوضع الخاص بشيوع الملكية، ومن ثم غدت الملكية الفردية أمرا ضروريا لمواجهة جشع الإنسان من ناحية ولضبط هذا الجانب غير الطيب من تصرفاته وسلوكه من ناحية أخرى(٣٢). وعلى ذلك فإن الملكية الفردية جاءت نتيجة للعرف، واعتمدت فى بقائها على القوانين الوضعية. وعلى الرغم من أنها لا تمت إلى النظم الطبيعية أو إلى التشريعات السماوية بصلة؛ فإنه يجب احترامها كعلاج للخطأ الذى تردى فيه الإنسان.

وكان لنظرية الملكية الفردية هذه - مع ما اتصفت به من طابع نظرى - نتائج عملية هامة ميزت وجهة نظر العصور الوسطى، عن غيرها من وجهات النظر التى عالجت هذه النظرية منذ عصر الفيلسوف لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤). فنظرية العصور الوسطى فى الملكية اعتمدت قبل كل شيء على القوانين البشرية الوضعية؛ وعلى ذلك فإن ما يعطيه القانون الوضعى للإنسان يمكن أن يسترده القانون نفسه دون أن يكون فى ذلك مسا بالعدالة (٣٣). لذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأن الفرد ليس له الحق فى التمسك بملكية خاصة قبل الحكومة الزمنية التى يعيش فى ظلها. كذلك قال مفكرو

---

(29) Eyre: op. cit; p. 283.

(٣٠) «وجميع الذين آمنوا كانوا معا، وكان عندهم كل شيء مشتركا؛ والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج» (العهد الجديد - سفر أعمال الرسل، الاصحاح الثانى، ٤٤ - ٤٥).

(31) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 614.

(32) Carlyle: op. cit., vol. 2. p. p. 137 - 138.

(33) Eyre: op. cit; p. 283.

العصور الوسطى بأنه لما كان المبرر الرئيسى لقيام الملكية الفردية هو أن هذه الملكية جاءت وليدة الخطيئة البشرية حتى صار بقاؤها ضروريا لعلاج هذه الخطيئة ومقاومة الجشع الإنسانى؛ فإن هذه الملكية يجب ألا تستخدم إلا داخل نطاق الغرض من قيامها. وهنا يقرر القديس أوغسطين بأن الفرد الذى لا يحسن استخدام أملاكه يفقد حقه فى الاحتفاظ بهذه الأملاك(٣٤). وبناء على هذه الآراء السابقة لم يعترف مفكرو العصور الوسطى بمبدأ الملكية المطلقة بالمعنى الحديث الذى نفهمه. فالقديس توما الأكوينى يقول أن الملكية الفردية ليس معناها امتلاك الأشياء وحيازتها فحسب، بل أيضاً حسن استخدام هذه الممتلكات والتصرف فيها. فالفرد ليس له حق إلا فى امتلاك الضروريات التى يحتاج إليها، وكل ما عدا ذلك يجب أن يكرسه للصالح العام. ومعنى ذلك أن دفع الصدقات لم يكن ضربا من الإحسان فى نظر مفكرى الغرب فى العصور الوسطى، وإنما كان فرضا حقا على القادرين(٣٥).

وخلاصة القول أن الفارق بين النظرية الحديثة ونظرية العصور الوسطى فى الملكية، هو أنه فى حين نميل نحن إلى الاعتقاد بأن الملكية الفردية تخول لنا حقا مطلقا على الأشياء المملوكة؛ إذا بوجهة نظر العصور الوسطى تتجه نحو اعتبار الملكية الفردية نوعا من الأمانة أو العهدة التى حصل عليها الفرد بتخويل من العرف.

الدولة:

أما المسألة السياسية الثالثة التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الاعتبارات السابقة، وبخاصة التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية، فكانت مشكلة قيام الدولة العلمانية أو الوحدة السياسية. وقد بلغت هذه المشكلة درجة كبيرة من الخطورة فى أوائل العصور الوسطى، عندما كان يخشى أن يستغل بعض دعاة المسيحية تعاليم الدين الجديد فى اتجاه غير اجتماعى(٣٦). وعلى الرغم من أن هذه الخطوة لم تتم، إلا أنها تركت أثرا واضحا فى الفكر السياسى للعصور الوسطى؛ بل أنها ظهرت جلية فى كتاب «مدينة الله Civitas Dei» للقديس أوغسطين، وهو الكتاب

(34) Carlyle: op. cit., vol. 1. p. p. 140 - 142.
(35) Eyre: op. cit., p. 284.
(36) Gierke: op. cit., p. p. 2 - 4.

الذى فاق أثره أى كتاب آخر فى سياسة العصور الوسطى[٣٧] .

وتتمثل الفكرة السياسية التى يدور حولها هذا الكتاب فى المقارنة بين مدينة الله ـ وهى التى تضم مجموعة المؤمنين الأبرار من عباد الله ـ ومدينة الأرض (Civitas Terrana)[٣٨] . وهنا نشير إلى أن الخلاف مازال قائما حول ما يقصده القديس أوغسطين بمدينة الأرض، وعما إذا كان المقصود بهذه المدينة هى الإمبراطورية الرومانية فى العصر الوثنى بالذات أو غيرها[٣٩] . ولكن الثابت هو أنه يقصد بوجه عام ما يمكن أن نسميه الوحدة السياسية أو الدولة، التى يصر القديس أو غسطين فى أكثر من موضع على وصفها بأنها تمثل روح الشر والاثم[٤٠] . ذلك أن «مدينة الأرض» نشأت من شهوة الإنسان ورغبته الجامحة فى السيطرة والتحكم (libido dominandi) ، كما أن بقاءها مبنى على أسس من سفك الدماء والحرب والسلب والعنف.

ولم يكن القديس أوغسطين وحده هو الذى عبر عن هذا الشعور العدائى نحو الوحدة السياسية أو الدولة فى العصور الوسطى، إذ لم يلبث البابا جريجورى السابع بعد ذلك بستة قرون أن أظهر هذا الشعور نفسه وأخذ يتساءل «من منا يجهل أن الملوك والحكام استمدوا وجودهم وسلطانهم من أناس لا يعرفون الله، وأنهم يستجيبون لإغراء الشيطان، فيحكمون شهوتهم العمياء فى السيطرة على إخوانهم من البشر!» كذلك نجد هذا الرأى نفسه يردده بعد ذلك البابا أنوسنت الثالث، ثم ظهر فى المرسوم البابوى الشهير الذى أصدره البابا بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢[٤١] .

ومع أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية ترك أثرا واضحا فى الفكر السياسى للعصور الوسطى ، إلا أننا لا يصح أن نتخذه نموذجا لتعاليم تلك العصور، لأن الكتاب أنفسهم الذين تطرفوا فى وجهة النظر السابقة، لم ينكروا فى بعض المواضع مبررات

---

(37) Poole: Medieval Thought; p. 43.

(38) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 607.

(39) Hearnshaw: Some Great Political Idealists of the Christian Era. p. p. 17 - 18.

(40) Jacob: The Legacy of the Middle Ages, p. p. 512 - 513.

(41) Eyre: op. cit., p. 285.

قيام الدولة[٤٢]. ذلك أن مفكرى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الوحدة السياسية وليدة الاثم، ولكنهم لم يقروا بأن الدولة آثمة على طول الخط. وهنا نجدهم مرة أخرى يستغلون الفرق بين النظام الطبيعي والنظم الوضعية، فقالوا أن القانون الطبيعى يقضى بالمساواة التامة بين جميع الناس أمام الله، وأنه ليس لفرد - بحكم الطبيعة - أن يدعى السيطرة على أقرانه من البشر[٤٣]. ولكن نتج عن الخطيئة التى تردى فيها الإنسان أن ظهرت فى الدنيا نزعة نحو العنف والعدوان ورغبة فى السيطرة، الأمر الذى أدى إلى تحكم بعض الناس فى غيرهم. على أن هذا لم يكن - فى نظر مفكرى العصور الوسطى - إلا جانبا واحدا من المشكلة. ذلك أن الحكومة العلمانية - على الرغم من التسليم بأنها جاءت وليدة الاثم - أصبح بقاؤها ضروريا لعلاج الشرور التى فاضت بها الحياة الدنيا[٤٤].

فالحكومة الدنيوية إذا جاءت عن طريق الخطأ، ولكنها غدت العلاج الالهى للأخطاء البشرية، ومن ثم وجب احترامها وطاعتها[٤٥]. ويبدو هذا الرأي واضحا فى كتاب دانتي عن الملكية (De Monarchia) فهم يسلم بأن الحكومة الدنيوية آثمة فى تكوينها ونشأتها، ولكنه يعترف بأن السلام لايمكن أن يسود الحياة العملية إلا بقيام سلطة قاهرة تمنع العنف وتقر العدالة[٤٦].

وخلاصة القول، أن الرأى السائد فى العصور الوسطى بخصوص هذا الموضوع هو أن الدولة العلمانية نبتت أصولها من أوضاع آثمة، لأنها لا تقوم على أساس المساواة الطبيعية بين الناس؛ ولكن بقاء هذه الدولة أمر ضرورى لعلاج ما تفيض به الحياة البشرية من آثام. والدولة فى علاجها لهذه الآثام تعتمد على الله ولذلك يجب أن تحظى بالاحترام والطاعة من جميع المسيحيين المخلصين[٤٧].

* * *

(42) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 20.

(43) Carlyle: op. cit., vol. 1. p. p. 126 - 128.

(44) Idem: p. 130.

(45) Idem: vol. 2, p.p. 146 - 147.

(46) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 126 & Bowle: op. cit., p.p. 233 - 236.

(47) Eyre: op. cit., p. 286.

وقد ظهر أثر المبادئ والآراء السابقة بوضوح فى تطور الفكر السياسى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى. من ذلك أن القول بأن الحكومة الزمنية - مع كونها غير طبيعية - إلا أن لها وظيفة دينية مقدسة فى علاج الآثام والشرور، هذا القول أدى مباشرة إلى نظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس(٤٨). حقيقة أن هناك عوامل أخرى كثيرة أسهمت فى بناء هذه النظرية ونموها، لا سيما قول الفريق الإمبراطورى - أثناء النزاع مع البابوية - بأن «الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة» ولكن الفكرة التى قامت عليها نظرية حق الملوك الإلهى تكمن بوجه عام فى رأى العصور الوسطى فى الدولة الزمنية. فالعصور الوسطى نظرت دائما إلى الحاكم العلمانى على أنه أداة الله فى القضاء على العنف والشر(٤٩).

على أنه إذا كانت العصور الوسطى قد قالت بأن الحاكم العلمانى - سواء كان ملكا أو إمبراطورا - يتقلد منصبه بمقتضى حق إلهى، إلا أن هذه العصور لم تقر مطلقا مبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين عن أفعالهم، لأن هذا المبدأ لم يكن إلا فكرة قديمة أحياها ملوك القرن السابع عشر(٥٠). والواقع أن التنكر لمبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين يعتبر تطبيقا جديدا لنظرية الصور الوسطى عن الحكومة الدنيوية (٥١). فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا الملكية - وما يرتبط بها من حكومة زمنية - ليست إلا وظيفة وأمانة، وأنه يتحتم على صاحب هذه الوظيفة الوفاء بالتزامات ثابتة معينة(٥٢). وقد أدت هذه النظرية فى النهاية إلى القول بأنه لما كانت الدولة العلمانية وحكامها قد جاءا نتيجة للاثم وعلاجا له، فإن الحكمة من بقائهما أصبحت رعاية مصالح الأفراد الذين تألفت منهم هذه الدولة، وليس للحاكم أن يفرض على هؤلاء الأفراد التزامات غير مشروطة(٥٣). ومن الواضح أن هذه الفكرة - التى تختلف عن كثير من النظريات السياسية القديمة والحديث ازاء الدولة - تمثل رأيا خطيرا على جانب كبير من الأهمية.

(48) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 21.

(49) Gierke: op. cit. p.p. 30 - 32.

(50) Eyre: op. cit., p. 286.

(51) Cam. Med. Hist., vol. 8, p. 642.

(52) Gierke: op. cit., p 34.

(53) Cam. Med. Hist., vol. 8, p. 642.

ذلك أنها تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى ضوء مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة(٥٤). وهنا يلخص القديس توما الأكوينى أهم مظهر للنظرية السياسية فى العصور الوسطى فيقول، «إن المملكة ليست ملكا للملك، وإنما الملك ملك للمملكة».

Regnum non est propter regem sed rex propter regnum.

ويفسر ذلك بأن الله أقام ملوك الأرض لا لتحقيق مكاسبهم الخاصة، وإنما لتحقيق الصالح العام. ثم يضيف القديس توما إلى ما سبق، قوله بأن القانون المدنى يجب أن يستهدف الصالح العام، وإلا فقد صفته الالزامية كقانون(٥٥).

بل إن بعض مفكرى العصور الوسطى لم يترددوا فى نقد نظرية الملكية المطلقة؛ فحنا السالسبورى يفرق بين الملك والطاغية أو الدكتاتور، ويقول أن الأول يخضع للقانون فى حين يتجاهله الثانى. ولما كانت الملكية نظاما الهيا مقدسا فإن إساءة استخدام سلطته تعتبر خيانة فى حق الله؛ وهنا يوصى حنا السالسبورى باستخدام السيف لمعاقبة الملك المستبد على هذه الخيانة. كذلك يقرر أن قتل الطاغية فى هذه الحالة ليس أمرا مسموحا به فحسب، بل يعتبر هذا الإجراء «حقا وعدالة Aequum et justum»(٥٦).

والواقع أن الطغاة المستبدين احتلوا أسفل درك فى التفكير السياسى فى العصور الوسطى، حتى أن دانتى أفرد لهم فى الجحيم نهرا خاصا يغلى بالدماء يعذبون فيه. أما القديس توما الأكوينى فقد أصر دائما على أن مقاومة الطاغى ليست حقا للمحكومين بل واجبا عليهم(٥٧). وهكذا يبدو أن العصور الوسطى فى غرب أوربا لم تقر مطلقا فكرة عدم مسئولية الحكام، كما قالت بأن التعسف يضيع حقوق الحكام، لأن القانون الطبيعى يجب أن يظل فوق الدولة وقوانينها الوضعية. وهذه الآراء هى التى تمثل فى مجموعها فكرة العصور الوسطى عن الحرية(٥٨).

---

(54) Gierke: op. cit., p. 34.

(55) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 96 & Bowle: op. cit., p. 208.

(56) Carlyle: op. cit., vol. 3, p. p. 143 - 145.

(57) Poole: Med. Thought; p. p. 210 - 216.

(58) Eyre: op. cit., p. 287.

ومن الواضح أن القول بأن سلطة الملك يجب أن تقوم على أساس مراعاة الصالح العام لرعاياه، وأن لهؤلاء الرعايا الحق فى عصيان الملك إذ أخل بالمبادئ التى تبرر قيامه فى منصبه؛ هذه الآراء لا يفصل بينها وبين مبدأ سيادة الشعب سوى خطوة قصيرة. هذا إلى مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس أمام الله، يحمل فى طياته كثيرا من دلائل الديمقراطية ومبادئها(٥٩). ويتضح هذا الرأى فى ضوء التأكيدات الكثيرة التى صدرت عن مفكرى العصورالوسطى بأن الملك خاضع للقوانين المطبقة على الجماعة التى يحكمها، أو كما قال القديس امبروز أن الملك ليس فوق القانون وإنما هو مقيد بقوانينه(٦٠). وفى القرن الثانى عشر فرق حنا السالسبورى بين الملك والطاغية على هذا الأساس(٦١)، كما تبنى هذه الفكرة المشرعون الاقطاعيون فى القرن الثالث عشر، مثل بومانوار Beaumanoir الذى قال بأن ملك فرنسا مقيد بتقاليد شعبه(٦٢). ومثل حنا الأبلينى Jean d' Ibelin الذى أكد هذا المبدأ نفسه فى دستوره الخاص بمملكة بيت المقدس اللاتينية، ومثل المشرع الإنجليزى براكتون Bracton الذى عبر عن الفكرة السابقة فى قالب تهكمى لطيف فقال بأن الملك «لايصح أن يكون دون أى شىء آخر، عدا الله والقانون»!(٦٣).

فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا السلطة هبة من الله وهبها عباده، وهؤلاء الأخيرون أنابوا عنهم ملكا لمباشرة هذه السلطة؛ لذلك تجب عليهم طاعة الملك مادام يباشر سلطاته على الوجه السليم. ومن هذه الفكرة نستطيع أن نتلمس جذور نظرية العقد الاجتماعى التى نادى بها بعض المفكرين الأوربيين فيما بعد(٦٤). بل إن هذه النظرية ظهرت واضحة فى القرن الثانى عشر فى مؤلفات مانجولد Manegold الذى استخدم فعلا لفظ «عقد Pactum» فى تفسير العلاقة بين الحكام والمحكومين(٦٥).

---

(59) Gierke: op. cit., p.p. 37 - 38.

(60) Carlyle: op. cit., vol. 1. p. p. 163 - 164.

(61) Hearnshaw: The Social and Political Ideas , p. 78.

(62) Bowle: op. cit., p. 185.

(63) Eyre: op. cit., p. 288.

(64) Gierke: op. cit., .p 88.

(65) Carlyle: op. cit., vol. 3. p. p. 166 - 169.

ومهما يكن الأمر، فإن فكرة تحديد سلطة الحكومة من جهة وفكرة المساواة الأصلية الطبيعية بين جميع الأفراد والطوائف من جهة أخرى، هما بلاشك أهم ما تمخض عنه الفكر السياسى فى أوربا العصور الوسطى.

القانون الرومانى:

فإذا انتقلنا إلى دراسة القانون الرومانى، فإننا نجد أنفسنا أيضًا مضطرين إلى الرجوع إلى العصر الرومانى نفسه، لنتتبع جذور النشاط التشريعى فى أوربا العصور الوسطى[٦٦]. ذلك أن القانون الأساسى للجمهورية الرومانية كان عبارة عن نظام تقليدى خاص بالمواطنين الرومان الذين يتمتعون بالجنسية الرومانية وحدهم. ولكن عندما صارت روما عاصمة لعالم البحر المتوسط، اضطرت المحاكم الرومانية إلى أن تكمل القانون المدنى الخاص بالمواطنين الرومان (ius-civile) بقانون آخر عام أكثر شمولا ومرونة، ولا يختص بالمواطنين الرومان وحدهم (ius-gentium) [٦٧]. وقد روعى فى هذا القانون الأخير أن يتناول العلاقات بين أهالى جميع بلاد الامبراطورية؛ ومن ثم احتوى كثيرا من التشريعات والنصوص القانونية المهمة التى تشمل الحجج والشركات والزواج والوراثة وغيرها. ولما كان هذا القانون العام أوسع أفقا وأكثر شمولا من قانون المواطنين الأول، فإنه أخذ يؤثر فيه تأثيرا سريعا. وسرعان ما تداخل القانونان بعضهما فى بعض نتيجة للتوسع فى منح الجنسية الرومانية لأهالى الولايات الرومانية من ناحية، ولانتشار آراء الرواقيين ذات الصبغة العالمية من ناحية أخرى[٦٨]. والمعروف أن الفلسفة الرواقية نادت بأن توجيهات العقل تؤلف قانونا طبيعيا (ius natural) يربط جميع الناس برباط خلقى متين، وبالتالى يسمو على التشريعات المحلية التى تسنها كل دولة[٦٩].

وهناك ثمة تطور طرأ على القانون الرومانى عندما حاول دقلديانوس إصلاح مرافق الإمبراطورية وإنقاذها من الهوة التى انزلقت إليها، فجعل إرادة الإمبراطور-

(66) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 698.

(67) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 700 & Stephenson: Med. Hist, p. 13.

(68) Eyre: op. cit, p. 41.

(69) Idem, p.p. 13 - 14.

ممثلة في مراسيمه ـ هي الإرادة العليا التي يجب أن تسمو على جميع ما عداها من تشريعات وقوانين. وهكذا صار القضاة خدام الإمبراطور ـ لا العدالة ـ فيجب أن يلموا أولا بالأوامر الإمبراطورية ويحرصوا على تنفيذها في أحكامهم، ثم بعد ذلك يأتي دور التشريعات المدنية وأقوال الفقهاء والمشرعين. ومع ذلك فإن هذا التطور لم يقض على قواعد القانون الروماني الراسخة، فاستمرت الإجراءات القضائية تسير وفق الأسس السابقة(٧٠).

وسرعان ما أدت كثرة الأوامر والمراسيم الإمبراطورية وتعارضها، إلى نوع من الفوضى في شئون القضاء والتشريع، الأمر الذي تطلب جمع المراسيم الإمبراطورية الصادرة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين وتبويبها، وهي المجموعة التي تمت في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثاني سنة ٤٣٨ ونسبت إليه (٧١). وكان التشريع العلمي المنظم قد اختفى تقريبا منذ أخذ العالم الروماني ينحدر في طريق التدهور. فسادت أوربا عند مستهل العصور الوسطى قوانين عرفية مستمدة من عادات الشعوب الجرمانية المختلفة التي غزت العالم الروماني، وسرعان ما تأثر كثير من هذه الشعوب الجرمانية ـ لا سيما القوط ـ بمجموعة القوانين الرومانية التي جمعها ثيودسيوس الثاني، الأمر الذي ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية في غرب أوربا في العصور المظلمة التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية(٧٢). هذا وإن كان من الثابت أن غزوات البرابرة في القرن الخامس لم تقتلع جذور القانون الروماني من غاليا وإيطاليا واسبانيا(٧٣).

على أن أهم عمل قانوني شهدته أوربا العصورالوسطى ارتبط باسم جستنيان إمبراطور الدولة الشرقية (٥٢٧ – ٥٦٥) . والحق أن ما قام به هذا الامبراطور من جمع القانون الروماني وتبويبه وتنظيمه، حقق لإسمه الخلود على صفحات التاريخ. وكانت المحاكم الرومانية في ذلك الوقت ـ في القرن السادس ـ تعتمد على مجموعتين قانونيتين مجموعة تشمل الأوامر والتشريعات التي سنها الأباطرة، وأخرى تشمل

(70) stephenson: Med. Hist., p. 36.

(71) Thompson: op. cit., vol. 1, p. 94.

(72) Cam. Med. Hist., vol. 2, p. p. 55 - 56.

(73) Meynail: The Legacy of the Middle Ages, p. 364.

كتابات المشرعين والفقهاء من رجال القانون [٧٤]. وكانت آخر محاولة بذلت لجمع تشريعات الأباطرة وتنظيمها هي المحاولة التي انتهت بصدور مجموعة ثيودسيوس الثانى كما سبق. مع ذلك فإن هذه المراسيم الإمبراطورية ظلت مفككة متناثرة، ينقصها الكثير من التنظيم والانسجام، أما كتابات فقهاء الرومان وأقوالهم فقد أوشكت أن تندثر وتضيع نتيجة لإهمالها وتشتتها وصعوبة الرجوع إليها في مكان واحد، الأمر الذى هدد بحرمان الأجيال التالية من أعظم جوانب التراث الفكرى الرومانى[٧٥]. لذلك فكر جستنيان في جمع مختلف أطراف القوانين والتشريعات السابقة - إمبراطورية وغير إمبراطورية - مما كان له أثر بالغ في مستقبل القانون الرومانى بوجه خاص وتاريخ العصور الوسطى بوجه عام[٧٦].

ولم يكد جستنيان يلي عرش الإمبراطورية البيزنطية حتى عين تريبونيان على رأس لجنة من رجال القانون لجمع الدساتير الإمبراطورية ونشرها. وكان أن أتمت اللجنة عملها في أقل من عامين، وصدرت المجموعة الإمبراطورية التي نسبت إلى جستنيان (Cedex Justinianus) [٧٧]. وتشمل هذه المجموعة - التي صدرت سنة ٥٢٩ - أكثر من أربعة آلاف وستمائة وخمسين مرسوما أو تشريعا إمبراطوريا، بعضها أصدره جستنيان والباقى أصدره أسلافه من الأباطرة[٧٨]. ولما كان الإمبراطور جستنيان قد استمر في إصدار كثير من التشريعات والأوامر الإمبراطورية بين حين وآخر، فإن هذه الأوامر المستحدثة أطلق عليها اسم المتجددات أو القوانين الجديدة (Novellae Constitiones) [٧٩]. ثم كان أن زاد جستنيان عدد أعضاء اللجنة التشريعية الأولى، وعهد إليها بمهمة أصعب هي جمع وتبويب تراث المشرعين ورجال القانون الرومان. وأخيرا تمخض هذا المجهود الضخم سنة ٥٣٣ عن صدور الموسوعة (Digesta) وهي تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء العصر العلمى (١٣٠ ق.م - ١٨٤م)، وتقع في خمسين كتابا، ينقسم كل منها إلى فقرات، على رأس كل فقرة بيان

(74) Eyre: op. cit., p. 40.

(75) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. p. 702 - 703.

(76) Painter: A Hist. of the Middle Ages. p. 8.

(77) Cam. Med. Hist., vol. 2, p. 59.

(78) Vasiliev: Hist. de l'Empire Byzantin, Tome 1, p.p. 189 - 190.

(79) Cam. Med. Hist., vol. 2, p. 62.

باسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب وموضوعه[٨٠]. وبذلك حافظت هذه الموسوعة على أسلوب كبار فقهاء العصرالعلمى أمثال بولس وألبيان وغيرهما[٨١]. على أن هذه الموسوعة كانت أضخم من أن يستطيع الرجوع إليها طلاب القانون فى سهولة. ولذلك أصدر جستنيان موجزا يسهل على الطلاب استخدامه، وسمى هذا الموجز (القواعد Institiones).

ومن مجموعة الدساتير الإمبراطورية والموسوعةوموجز القوانين، نتج ما عرف باسم «مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis»، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على أهمية هذه المجموعة - وبصفة خاصة الموسوعة - التى لولاها لضاعت جهود فقهاء الرومان، ولأصبح من الصعب بل المستحيل الوقوف على تراثهم القانونى[٨٢]. أما وقد حفظت الموسوعة هذه الدراسات والتشريعات التى أنجبتها عبقرية الرومان، فقد صار من الممكن استغلالها فى القيام بنهضة قانونية فى أوربا، متى سمحت الظروف بذلك. ولم يكن من المنتظر أن تشهد أوربا مثل هذه النهضة فى الظروف العسيرة التى مرت بها فى الفترة المظلمة الممتدة حتى القرن الحادى عشر؛ وإن كان من الثابت وجود مدارس قانونية حينئذ فى روما وبافيا وراڤنا[٨٣]. ومهما يكن الأمر فإن جانبا كبيرا من جوانب النهضة الأوربية التى سطعت فى القرن الثانى عشر يتمثل فى العناية بالدراسات القانونية، وإحياء التشريعات الرومانية التى أمكن الوقوف عليها من مجموعة جستنيان. ومن الثابت أن رائد هذه النهضة القانونية فى القرن الثانى عشر كان ارنريوس الذى تمتع برعاية ماتيلدا أميرة تسكانيا[٨٤]، والذى جعل من مدينة بولونا الإيطالية مركزا لمدرسة قانونية عظيمة ناصرت البابوية ونافست مدرسة رافنا ربيبة الإمبراطورية[٨٥]. وقد بدأ أرنريوس بدراسة مجموعة جستنيان، ثم اتخذها محورا لتدريس القانون فى بولونا بطريقة منظمة، معتمدا فى ذلك على المناقشة

---

(80) Idem, p. 60.

(81) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century, p. p. 196 - 197.

(82) Vasiliev: op. cit., Tome 1, p. 192.

(83) Vinogradoff: Roman Law in Med. Europe, p. p. 38 - 43.

(84) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 115.

(85) Vinogradoff: op. cit., p. 36.

والبحث زيادة على الشرح، مما يعتبر بداية لنهضة قانونية فعلية(٨٦).

ويطلق لقب الشراح (Glossators) على خلفاء ارنريوس لمدة قرن أو أكثر من الزمان. ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثانى عشر حتى ظهر بعض تلاميذ ارنريوس الذين برزوا فى العلوم القانونية، مثل بلجاروس ومارتين وهوجو ويعقوب؛ وهم الذين أطلق عليهم اسم الدكاترة الأربعة. ويبدو من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين للإمبراطور فردريك بربروسا فى مجمع رونساجليا Roncaglia سنة ١١٥٨(٨٧). أما السبب فى إطلاق اسم «الشراح» على خلفاء ارنريوس من أعلام القانون، فهو أنهم وجهوا جهودهم نحو شرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات (glosses) لمواده(٨٨). وامتازت هذه الشروح فى أول الأمر بالإيجاز المطلق، حتى أنها لم تتجاوز كلمات قليلة بين الأسطر، وفقا للطريقة الشائعة حينئذ فى شرح نصوص الإنجيل. ولكن بتعاقب الشراح ازدادت التفسيرات والتعليقات، حتى خرجت من بين الأسطر فامتدت إلى الهوامش الجانبية، بل لقد فاقت فى بعض الأحيان حجم النص الأصلى(٨٩). وأخيرا ضاقت الهوامش عن الشروح والتفسيرات، فاستلزم الأمر تخصيص كتب خاصة لشرح النصوص القانونية. ومن هذه الكتب ما تناولت كتابا بالتحليل العام - وسمى هذا النوع المجمل Summa ؛ ومنها ما اهتم بالمبادئ العامة التى تستقى من كتاب أو نص ، وسمى هذا النوع المبادئ Bro-carda(٩٠).

وهكذا لم تقف جهود شراح بولونا عند حد تهذيب النصوص القديمة وتحديد معانيها، وإنما تعدت ذلك إلى تحليل المواد القانونية وشرحها، على أساس مناقشتها وتفنيدها فى ضوء الأسلوب المنطقى الذى ازدهر فى القرن الثالث عشر(٩١). وقد ساعد على ظهور هذه النهضة القانونية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ازدهار

(86) Rashdall: op. cit., vol. 1, p.p. 120 - 124.
(87) Meynail : The Legacy, p. 367.
(88) Cam. Med. Hist., vol. 2, p. p. 736 - 737.
(89) Vinogradoff: op. cit., p.p. 46 - 47.
(90) Haskins: The Renaissance, p. 204.
(91) Meynail : The Legacy of the Middle Ages, p. p. 369 - 370.

التجارة، وحاجة النشاط التجارى إلى دراية بالأصول القانونية من ناحية، وتفكك النظام الاقطاعى وقيام الملكيات القوية التى ألفت نفسها فى حاجة إلى قوانين أوسع أفقا من القوانين المحلية من جهة أخرى. هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من نزاع بين البابوية والإمبراطورية، وحاجة كل فريق إلى دعم مركزه عن طريق الحجج والأسانيد القانونية. ولم يلبث أن امتد الاهتمام بالدراسات القانونية من بولونا وإيطاليا إلى بقية البلدان الأوربية، حيث اهتمت الجامعات الناشئة بدراسة القانون اهتمام متفاوت الدرجات حسب الظروف التى أحاطت بكل منها(٩٢).

القانون الكنسى:

وفيما عدا القانون الرومانى، شهدت العصور الوسطى تقدما كبيرا فى القانون الكنسى، وهو القانون الذى ترجع مبادئه الأولى إلى عصر الإمبراطورية(٩٣). والمقصود بالقانون الكنسى (Canon law) القانون الدينى الذى أخذت به الكنيسة الغربية ذات النفوذ الواسع فى أوربا العصور الوسطى. فإذا كانت الدولة فى حاجة إلى قانون لتنظيم مرافقها المختلفة، فإن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى لم تكن أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها؛ لا سيما بعد أن صارت الكنيسة قوة عالمية تجاوزت حدودها كافة الحدود السياسية، وتمتعت بكل ما للدولة من مقومات. ويكفى أن الكنيسة الغربية كان لها رئيسها الأعلى وهو البابا، ولها أراضيها الواسعة، ورعاياها من جمهور المسيحية فى مختلف البلدان الغربية، كما كانت لها أحكامها وشرائعها ومحاكمها، بل سجونها(٩٤). وهكذات تمتع رجال الكنيسة بسلطة قضائية واسعة، وصارت دور القضاء الكنسية تباشر نفوذا واسعا فى غرب أوربا، فى وقت غدت المحكمة البابوية بمثابة محكمة استئناف عليا، تستأنف أمامها القضايا من مختلف بلدان غرب أوربا، وعندئذ يكون مصيرها اما النقض أو الإبرام(٩٥).

على أن هذا النشاط القضائى الذى باشرته الكنيسة استلزم وجود عدد كبير من

---

(92) Vinogradoff: op. cit., p.p. 59 - 131.

(93) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 705.

(94) Haskins: The Renaissance, p.p. 213 - 214.

(95) Ullmann: Growth of Papal Government, p. p. 359 - 381.

المتخصصين فى أحكام القضاء الكنسى من جهة، كما استلزم تنظيم القانون الكنسى وتبويبه ليسهل الرجوع إليه وتداوله من جهة أخرى. والواقع أنه جاء وقت فى العصور الوسطى صارت القوانين الكنسية تعانى كثيرا من مظاهر الارتباك والتناقض. والمعروف أن القانون الكنسى يستمد أحكامه من الكتاب المقدس وأقوال القديسين، زيادة على قرارات المجامع الدينية والمراسيم البابوية(٩٦). وكان لابد من ترتيب هذه المادة وتنظيمها، ولكن لم تبذل محاولات جدية فى هذا الصدد حتى كان القرن الحادى عشر، وعندئذ ظهرت محاولات قام بها برخارد أسقف وورمز (Burchard of Worms) وانسلم أسقف لوكا (Anselm of Lucca) وإيفو Ivo أسقف شارتر(٩٧). على أنه لا يوجد شك فى أن أهم محاولة شهدتها العصور الوسطى لتنظيم القانون الكنسى كانت تلك التى قام بها جراشيان Gratian فى القرن الثانى عشر، وهو الذى نجح فى فصل اللاهوت عن القانون الكنسى ثم تنظيم هذا القانون وترتيبه(٩٨). وقد وضع جراشيان مجموعة للقانون الكنسى نسبت إليه وانقسمت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يتألف من مائة باب وباب تعالج مصادر القانون الكنسى، والقسم الثانى يشمل نحوا من ستة وثلاثين قضية مختارة، مع مناقشة هذه القضايا فى ضوء القانون الكنسى، وأخيرا يشمل القسم الثالث خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الكنسية(٩٩). وسرعان ما أحرز عمل جراشيان أهمية كبرى حتى جعلته الكنيسة فى مقدمة مجموعة القانون الكنسى Corpus Juris Canonici التى قامت بجمعها. وهنا نلاحظ أن البابوية اختارت لمجموعة القوانين الكنسية اسما مطابقا لاسم مجموعة جستنيان فى القانون المدنى (Corpus Juris Civilis) مما يدل على أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره(١٠٠). والواقع أن العلاقة بين القانون الكنسى والقانون المدنى الرومانى كانت قوية واضحة. كمابدت فى ثلاث نواح هامة: أولها أن القانون الرومانى كان مصدرا قويا استقى منه القانون الكنسى، وثانيها أن القانون الكنسى

---

(96) Stephenson: Med. Hist. p. 340 & Cam. Med. Hist., vol. 5, p.706.

(97) Eyre: op. cit., p. 275.

(98) Gabriel le Bras: The Legacy of the Middle Ages; p. 326.

(99) Haskins: The Renaissance, p. 215.

(100) Stephenson: op. cit., vol. 1, p. 341.

اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره وترسم خطاه فى دراسته، وثالثها أن القانون الكنسى جاء بمثابة رد فعل قوى للقانون الرومانى، حتى يكون للبابوية سند قوى تستند إليه كما استندت الإمبراطورية إلى القانون المدنى[١٠١].

ومن البابوات الذين عنوا عناية فائقة بتنظيم القانون الكنسى وتبويبه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) والبابا لوكيوس الثالث (١١٨١ - ١١٨٥) والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١)[١٠٢]. وهكذا تم تنظيم القانون الكنسى، فأصبح مادة قائمة بذاتها تدرس فى الجامعات الأوربية الناشئة إلى جانب القانون الرومانى. هذا إلى أن البابوية رأت فى انتشار القانون الكنسى توسيعا لنفوذها وتقوية لسلطانها، وأدركت أن هذا القانون يجد منافسا خطيرا فى القانون الرومانى - الذى يمجد دائما سلطة الإمبراطورية والأباطرة - لذلك لجأت البابوية سنة ١٢١٩ إلى تحريم دراسة القانون الرومانى على رجال الدين فى جامعة باريس.

وخلاصة القول أن العصور الوسطى شهدت نشاطا كبيرا فى ميدان القانون والتشريع، وهو نشاط أخذ فى الازدياد كلما اقتربت تلك العصور من نهايتها نتيجة لازدياد النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى القارة الأوربية.

---

(101) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 134.

(102) Cam. Med. Hist., vol. 5, p.p. 713 - 714.

الباب الثامن

العلـــوم

ظلت الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر بأن العلوم - بمعناها البحث الحديث - لم تكن معروفة فى أوربا العصور الوسطى. لكن من الواضح أن هذه الفكرة تحوى كثيرا من الخطأ والمبالغة ، لأن العصور الوسطى بوجه عام عرفت العلوم والدراسات العلمية بنسبة تفاوتت بتفاوت النشاط الفكرى الذى شهدته تلك العصور[١].

والواقع أنه يمكن تقسيم تاريخ العلوم فى العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى أو المظلمة وتشمل الفترة بين سنتى ٤٠٠ – ٩٠٠ ومهمتها إيصال بعض بقايا تراث الفكر القديم إلى العصور التالية؛ والمرحلة الثانية وتشمل الفترة بين سنتى ٩٠٠ – ١٢٠٠ وهى التى شهدت تدفق العلوم والمعارف العربية على غرب أوربا؛ وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة الممتدة حتى نهاية العصور الوسطى وتمثل عصر ازدهار الدراسات العلمية، وهو الازدهار الذى أدى إلى النهضة العلمية فى العصور الحديثة[٢].

الدور الأول : التطور العلمى فى فجر العصور الوسطى:

يبدو أن الجزء الذى وصل إلى العصور الوسطى من التراث العلمى للعصور القديمة لم يكن عظيما فى كمه أو موضوعه، لأن الرومان كانوا قوما عمليين لم يهتموا كثيرا بما خلفه اليونان من تراث علمى؛ فاكتفوا بمختصرات بحوث اليونان وأهملوا أصول هذه البحوث التى ظلت مجهولة فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر، عندما عرفها الغربيون عن المسلمين. ومع ذلك فإن بعض المختصرات والكتيبات اليونانية حظيت بأهمية كبيرة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، مثل كتابات جالينوس Galen فى الطب، وهى الكتابات التى ظلت متداولة حتى عرفت مؤلفاته كاملة فى مدرسة سالرنو فى القرن الحادى عشر؛ وذلك عن طريق ترجمة هذه المؤلفات عن التراجم العربية التى نقلت عن السريانية أو الأصل اليونانى[٣]. أما فى الرياضيات، فقد شغف الرومان

---

(1) Hearnshaw: Med. Contributions to Modern Civilzation, p. 106.

(2) Idem: p.p. 114 - 115.

(3) Dampier: A Hist. of Science, p.p. 61-62.

بالمساحة والتخطيط، حتى صرفهم اهتمامهم بهذه الناحية عن الرياضيات البحتة. وقد قام منلاوس السكندرى Menelaos of Alexandria ببعض بحوث فلكية فى روما سنة ٩٨م، كما ألف بحثا فى حساب الأوتار وآخر فى الأشكال الكروية، ولكن قدر لهذه البحوث التى وضعها منلاوس أن تظل فى طى النسيان حتى القرن الثانى عشر عندما عرفها غرب أوربا لأول مرة فى العصور الوسطى(٤).

ويبدو أن هيمنة الكنيسة واللاهوت على الفكر الغربى فى العصور الوسطى كانت من العوامل الأساسية التى أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات العلمية، لأن العقيدة المسيحية ـ كما قال المعاصرون ـ تقوم على أساس الإيمان فى حين يعتمد العلم على التعقل(٥). ويكفى أن يطلع الفرد على كتابات مفكرى العصور الوسطى ـ مثل القديس أوغسطين ـ ليدرك مدى التأخر العلمى الذى كانت عليه بلاد الغرب المسيحية، هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم. فالقديس أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠) يبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيدا للتأمل فى ارتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب، ويهملون التأمل فى أنفسهم. بل إن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التى عرفها اليونان قبل ذلك بقرون، ويصرح بأن فكرة التقاطريين ـ الذين يحيون فى الجهة المقابلة من سطح الأرض ـ إنما هى فكرة خاطئة هرطقية(٦). وإلى جانب هذا الانحطاط فى التفكير العلمى، انتشر الاعتقاد فى الخرافات والمعجزات بين أهالى أوربا العصور الوسطى، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية(٧). على أنه ليس معنى ذلك أن التفكير العلمى انعدم تماما فى تلك الفترة المظلمة من أوائل العصور الوسطى؛ إذ وجد من المفكرين من أعطى الدراسات العلمية قسطا من عنايته. فالفيلسوف المعروف بيؤثيوس (٤٨٠ – ٥٢٤) دون عدة رسائل عظيمة ونافعة، أحداها فى علم الحساب (De institutione arithmetica) والثانية فى الموسيقى (De institutione musica) والثالثة فى علم الهندسة (Geometrica) (٨)،

---

(4) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 777.

(5) Cam. Med. Hist, vol. 8, p. 661.

(6) Thorndike: A Hist, of Magic and Experimental Science, vol. 1, p. p. 504 - 522.

(7) Coulton:Life in the Middle Ages, vol. 1, p.p. 41 - 44.

(8) Hearnshaw: Med. Contributions to Modern Civilization, p. 116.

كذلك زود مارتيانوس كابلا (ت ٥٠٠) غرب أوربا بدائرة معارف كاملة فى تسعة كتب تناولت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، زيادة على النحو والجدل والبلاغة وغيرها. ويبدو أن الفلك والرياضيات بوجه خاص احتلت مكانة خاصة عند المعاصرين لأهميتها فى تحديد الأعياد الدينية(٩).

ولم تكن الدولة البيزنطية فى حال أحسن من الغرب من حيث التقدم العلمى. ذلك أن الإمبراطور جستنيان أغلق مدارس أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وبذلك انطفأت شعلة علوم اليونان وفلسفتهم فى هذا الركن الشرقى من أوربا، وفر إلى البلاط الفارسى جمع من علماء تلك المدارس؛ ما جعل عاصمة الفرس أعظم مركز ثقافى فى ذلك العصر. فازدهرت فيها الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفية بعد أن التقت فيها علوم اليونان بعلوم الهند(١٠).

ثم كان أن ظهر الإسلام وقامت الدولة الإسلامية، فأدى فتح العرب لفارس والشام ومصر إلى انتقال التراث العلمى الذى خلفه اليونان والفرس والهندوس إليهم؛ وأصبحت بغداد مركزا لنهضة علمية كبرى فى الوقت نفسه الذى قامت النهضة الكارولنجية فى غرب أوربا. على أنه يلاحظ أن هذه النهضة الأخيرة كانت تعليمية اهتمت بإحياء الآداب دون أن يكون للعلوم نصيب منها(١١). وتتمثل أقصى ما وصلت إليه المعرفة العلمية فى غرب أوربا فيما بين القرنين السابع والتاسع فى موسوعة ايسيدور القشتالى (ت ٦٣٦) ومؤلفات بدى (ت ٧٣٥) ومعجم سالومونيس Glossae Salomonis الذى وضع فى دير سانت جال ونسب إلى سالومونيس الثالث رئيس أساقفة كونستانس. وجميع هذه المؤلفات الثلاثة السابقة استلهمت مادتها واستمدت معلوماتها من كتاب التاريخ الطبيعى لمؤلفه بلينى العالم الرومانى القديم(١٢).

---

(9) Cam. Med. Hist. vol. 3. p. 535.

(10) Vasiliev: op. cit., Tome 1, p. 198.

(11) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 777.

(12) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 118.

الدور الثاني : وصول علوم العرب إلى غرب أوربا :

وإذا كانت العلوم قد اضمحلت فى غرب أوربا فى أوائل العصور الوسطى، فإنها ازدهرت فى العالم الإسلامى. ولم يكن كل العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية من العرب، لأن كثيرا منهم كانوا فرسا أو يهودا مستعربين؛ ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالمية السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى أسبانيا غربا(١٣). وقد امتازت هذه النهضة الإسلامية من أول الأمر بطابعها العالمى، مما جعل الفرق واضحا بينها وبين النهضة الكارولنجية من جهة والنهضة البيزنطية فى القرن التاسع من جهة أخرى(١٤). ذلك أن الظروف الجغرافية والتاريخية شاءت أن تجعل الدولة الإسلامية ملتقى التيارات الفكرية اليونانية والفارسية والهندية. وليس هذا هو موضع الغرابة وإنما الملاحظ هو أن الرياضيات الهندية تقدمت وتطورت مستقلة بعيدة عن تأثير الرياضيات اليونانية، حتى التقى التياران معا فى كنف المدارس الإسلامية وبين رحابها(١٥).

ويضيق بنا المقام عن ذكر أسماء علماء المسلمين المبرزين فيما بين سنتى ٧٥٠-١١٠٠؛ وما قام به هؤلاء العلماء من أعمال تركت أثرا بارزا فى تاريخ الحضارة؛ ولكننا نكتفى بالإشارة إلى بعضهم. فمن هؤلاء العلماء جابر بن حيان الكوفى فى القرن الثامن الذى اشتغل بالكيمياء وألف فيها موسوعة كبيرة ضمنها وصف كثير من المركبات الكيميائية التى لم تكن معروفة من قبل، مثل حامض النيتريك (ماء الفضة) والبوتاس وروح النشادر وغيرها؛ كما وصف كثيرا من العمليات الكيميائية مثل التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور(١٦). وبعد ذلك يأتى الخوارزمى فى القرن التاسع، وهو الرجل الذى نبغ فى الرياضيات والفلك والجغرافيا، ومزج الرياضيات اليونانية بالهندية، ووضع قواعد علم الجبر وصنف فيه. ثم يأتى البتانى المتوفى سنة ٩٢٩ وهو من أعلام الفلكيين بفضل ما توصل إليه من نتائج بارزة جديدة فى علم الفلك(١٧). أما الرازى (ت ٩٢٣) فكان من أشهر أطباء العرب وألف كثيرا من البحوث الكبيرة فى

(13) Dampire: op. cit., p. 82.

(14) Eyre: op. cit., p. p. 194 - 195.

(15) Dampire: op. cit., p. 100.

(16) Cam. Med. Hist. vol. 8. p. 667.

(17) Delambre: Hist. de l'astronomie de Moyen Ages, p. p. 10 - 60.

الطب، وشـاركـه فى هذا الميـدان العلمى ابن سينا (١٠٣٧) الذى كـان أشـهـر علمـاء المسلمين على الإطلاق، حتى أن كـتـابه «القـانون» يعتبـر أكبر دائرة مـعـارف طبـيـة عرفهـا الشرق والغرب جمـيعـا فى العصـور الوسطى(١٨). أمـا الحسن بن الـهـيـثم (ت ١٠٢٠) فكان من أشهر العلماء فى الطبيعة فاشتغل بالعدسات والبصريات وكتب فى الضوء والمرايا رسائل عديدة، اعتمد عليها واستفاد منها بعد ذلك بقرنين روجر بيكون فى الغرب (١٩). وأخيرا نختتم هذه السلسلة من مشاهير علماء الإسلام بالإشارة إلى عمر الخيام - أبرز الرياضيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر. على أن الحياة الفكرية والعلمية فى العالم الإسلامى أخذت تستنفد قوتها تدريجيا منذ ذلك الحين بعد أن حمل المسلمون لواء المعرفة فى العالم - شرقية وغربية - عدة قرون توصلوا فيها إلى معارف ونتائج جديدة، لم يعرفها معاصروهم من الأمم إلا عنهم؛ الأمر الذى جعل الحضارة الإسلامية - باعتراف الغربيين - أعظم حضارة شهدها العالم على الإطلاق فى العصور الوسطى(٢٠).

ذلك أن العـرب استـخـدمـوا نظام الأعـداد الهندى واسـتـخـدمـوا الصـفـر فى الحساب(٢١)، وكشفوا عن أصول الجبر وأضافوا إليها حتى خلقوا منها علما حقيقيا طبقوه على الهندسة. أما فى الهندسة وحساب المثلثات، فإنهم لم يقفوا عند معلومات اليونـان التى توصل إليـهـا اقليدس وغـيـره ، وإنما جددوا وأضـافوا اضافات جـديدة لم يعرفها غيرهم من قبل فأدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار، وحلوا المعادلات المكعبة، وتعمقوا فى بحوث المخروطات، كما تقدموا بالميكانيكا ووصفوا كثيرا من آلاتها فى كتبهم. وفى الفلك انتشرت المراصد العربية فى جميع بلدان المشرق والمغرب الإسلاميين(٢٢)، واستطاع علماء المسلمين تعيين انحراف سمت الشمس تعيينا دقيقا وحددوا طول السنة الشمسية بالضبط، ووضعوا جداول لأمكنة الجداول السيارة، وتوصلوا إلى نظرية دوران الأرض، واستخدموا الاسطرلاب والبوصلة، كما صححوا كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها من سبقهم، ولا

(18) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. 297.

(19) Dampier: op. cit., p. 101.

(20) Thompson: op. cit., vol, 2, p.p. 778 - 779.

(21) Ball: A Short Account of the Hist, of Mathematics, p. 156.

(22) Cam. Med. Hist. vol. 4. p. p. 298 - 299.

سيما ما يتعلق بتقدير بطلميوس السكندرى لعرض البحر المتوسط[٢٣] . أما فى علم الفيزياء فقد توصل المسلمون إلى نتائج فائقة فى العدسات والبصريات والمرايا الكروية، وأجروا تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته، كما عالجوا النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل[٢٤] . كذلك فى الكيمياء توصلوا إلى كثير من العناصر وحاولوا تحليلها أو تركيبها، واستخدموا فى تجاربهم أجهزة لم تكن معروفة من قبل، كما استخدموا القوة الناجمة عن انفجار البارود فى دفع قذائف إلى مسافات بعيدة. وأخيرا خطا المسلمون بالطب خطوات واسعة، فشخصوا كثيرا من الأمراض المستعصية، واستغلوا معلوماتهم فى الكيمياء لإيجاد علاج لها، كما ألفوا كثيرا من الدراسات الجامعة فى وصف الأمراض وطرق علاجها وخصائص الأدوية[٢٥] .

ولايتسع هذا البحث للإفاضة عن أهمية النتائج العلمية التى توصل إليها علماء المسلمين، فى الوقت الذى كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل. ولكن المهم هو أن هذه العلوم والنتائج التى توصل إليها المسلمون أخذت تنتقل إلى غرب أوربا قبل أن يبدأ نجم الحضارة الإسلامية فى الأفول[٢٦] . أما المعابر الرئيسية التى انتقلت عليها هذه الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى، فكانت أسبانيا ثم صقلية ثم المشرق، حسب ترتيب أهميتها[٢٧] . وعلى الرغم من أن المسلمين كان لهم مركزان ثقافيان كبيران فى الغرب هما الأندلس وصقلية، إلا أن الاتصالات الثقافية بين الغرب المسيحى من جهة والدراسات العربية من جهة أخرى ظلت محدودة حتى أواخر القرن الحادى عشر. ولعل من أسباب ذلك صعوبة تعلم اللغة العربية، حتى ظهر فريق من الأوربيين أدركوا أهمية هذه الدراسات، وأقبلوا على ترجمتها إلى اللاتينية فى حماسة ومثابرة[٢٨] . وأول هؤلاء المترجمين الأوربيين كان قسطنطين الأفريقى (Con-stantinus Africanus) ، وهو من مواليد قرطاجة، رحل إلى الشرق حتى انتهى به

---

(23) Delambre: op. cit., p. p. 10 - 60.

(24) Singer: From Magic to Science, p. 90.

(25) Browne: Arabian Medicine, p. p. 55 - 73.

(26) Cam. Med. Hist. vol. 8. p. 667.

(27) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 123.

(28) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 123.

المقام سنة ١٠٥٦ في دير مونت كاسينو حيث انتظم به راهبا إلى أن توفى سنة ١٠٨٧ . وقد قام قسطنطين هذا بترجمة بعض المؤلفات العربية أهمها الكتاب الذى ألفه على بن العباس فى القرن العاشر فى الطب[٢٩] ، هذا فضلا عن بعض التراجم العربية لكثير من المؤلفات اليونانية القديمة، مما ترك أثر عميقا فى دراسة العلوم فى جنوب إيطاليا، حتى أن مدرسة الطب فى سالرنو تدين بنشأتها إلى تراجم قسطنطين الأفريقى. كذلك ظهر فى دير ريخناو Reichenau ـ وهو أحد الأديرة البندكتية فى سويسرا ـ راهب اسمه هرمان الكسيح (Hermann the Cripple) (١٠١٣ – ١٠٥٤)، كتب بحوثا هامة فى الرياضيات والفلك استعان بها خلفاؤه فى القرن التالى. وإذا كانت معرفة هرمان هذا باللغة العربية موضع شك كبير ـ ولاسيما أن عاهته حالت دون سفره إلى أسبانيا أو غيرها من مواطن الدراسات العربية ـ إلا أن كتاباته تعبر عن كثير من التيارات والمؤثرات العربية، مما يرجح وصول هذه المؤثرات إليه عن طريق رجال العلم المتنقلين فى ذلك العصر[٣٠].

ثم كان أن اشتد تيار حركة الترجمة عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. ففى صقلية وجنوب إيطاليا ترجم ايوجنيوس البالرمى (Eugenius of Palermo) كتاب المرئيات لبطلميوس السكندرى عن العربية سنة ١١٥٠، وأعقب ذلك ترجمة مؤلفات أخرى لبطلميوس السكندرى، وبخاصة فى الفلك والرياضيات عن العربية. واشتهر من المترجمين الصقليين عندئذ فرج بن سالم اليهودى (ت ١٢٨٥)[٣١].

على أن أسبانيا كانت الملتقى الطبيعى للغتين العربية واللاتينية، بعد أن ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، وازدحمت مدنها بالمؤلفات العربية فى العلوم والفلسفة وغيرهما. ثم كان أن ساعد سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥ على اتجاه كثير من طلاب المعرفة إليها للتزود بالدراسات العربية الإسلامية، سواء كانت أصيلة أو مترجمة عن اليونانية، حتى أصبحت طليطلة بالذات المركز الرئيسى لحركة

(29) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 81.
(30) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 120.
(31) Singer: op. cit., p. 81.

الترجمة عن العربية[٣٢]. ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا فى ذلك العصر للوقوف على المعارف العربية وترجمتها إلى اللاتينية أديلارد البائى وهرمان وجيراد الكريمونى وروبرت الشسترى وغيرهم[٣٣]. هذا فضلا عن اليهود والمستعربين الأسبان الذين عكفوا على ترجمة المؤلفات العربية مثل دومونيقوس جونديسالفى Do-minicus Gondisalvi وبطرس ألفونسى Petrus Alfonsi وحنا الإشبيلى John of Seville وغيرهم. وإلى ريموند رئيس أساقفة طليطلة يرجع الفضل فى انتعاش حركة الترجمة عن العربية، إذ أنشأ مكتبا لترجمة أمهات الكتب التى زخرت بها طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر[٣٤].

وقد ترتب على هذه الحركة ثورة علمية وفكرية شاملة فى غرب أوربا. ذلك أن المعارف الجديدة التى نقلت من العربية إلى اللاتينية جعلت الأوربيين يفيقون من الظلمة والجهالة التى عاشوا فيها قرونا طويلة، ويقبلون على الدراسات العلمية الجديدة فى شغف ونهم. ففى الحساب عرفت أوربا نظام الأعداد الهندى عن العرب. وهو النظام الذى تتغير فى قيمة الرقم بتغيير وضعه من خانة الآحاد إلى العشرات أو المئات...؛ وبذلك أخذت أوربا تنبذ نظام الأرقام الرومانية العقيم الذى وقف عقبة كئودا فى سبيل تقدم العمليات الحسابية[٣٥]. وقد نسب الأوربيون هذا النظام العددى الجديد إلى الخوارزمى، العالم الرياضى الشهير الذى ترجمت بعض بحوثه إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر[٣٦]. ويرجح أن البابا سلفستر الثانى (ت ١٠٠٣) ـ الذى قضى بعض السنوات فى شمال أسبانيا ـ كان من أوائل الأوربيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب، هذا بالإضافة إلى ما قام به ذلك البابا من تشجيع ترجمة بعض المؤلفات العربية التى توضح وظيفة الاسطرلاب[٣٧]. أما الصفر فلم تعرف أوربا استعماله إلا عن طريق العربية فى القرن الثانى عشر، حتى قال بعض

---

(32) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 123.

(33) Singer: From Magic to Science, p. 80.

(34) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. 353.

(35) Eyre: op. cit., p. 298.

(36) Ball: op. cit., p. 156.

(37) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 120.

الكتاب المحدثين أن فكرة الصفر تعتبر أعظم هدية قدمها المسلمون إلي غرب أوربا[٣٨]. ونستطيع نحن أن ندرك أهمية الصفر في علم الحساب إذا تصورنا كيف يكون الحساب بلا صفر. وفى سنة ١١٤٥ ترجم روبرت الشسترى كتاب الخوارزمى فى الجبر إلى اللاتينية، وبذلك عرف الغرب الأوربى علما جديدا لأول مرة. أما فى الهندسة وحساب المثلثات فقد ترجم كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية، وبخاصة جداول حساب المثلثات التى وضعها الخوارزمى والتى ترجمها أدلارد البائى[٣٩]. وفى الفلك ترجم الأوربيون كتاب «الزيج الصابىء» للبتانى عدة مرات إلى اللاتينية، فازدادت معرفة الأوربيين الغربيين بهذا العلم. أما فى الفيزياء، فقد ترجمت بعض مؤلفات الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) والخازن البصرى (ت ١٠٣٨) إلى اللاتينية، ومن هذه المؤلفات استقى روبرت جروستست Robert Grosseteste وروجر بيكون وغيرهما معلوماتهم. كذلك ترجم الأوربيون مؤلفات جابر بن حيان الكوفى فى الكيمياء ، كما ترجموا بعض مؤلفات الرازى وابن سينا فى الطب[٤٠].

الدور الثالث: ازدهار العلوم فى غرب أوربا:

ويبدو أن وصول هذه المعارف العلمية الجديدة إلى غرب أوربا أثار فزع الكنيسة التى خشيت أن ينشأ عن الاهتمام بها إضعاف شأن اللاهوت وإهماله[٤١]. على أن الكنيسة كانت لا تستطيع منع تداول هذه المعلومات ودراستها، ومن ثم لجأت إلى التوفيق بينها وبين اللاهوت حتى لا ينتهى الأمر إلى زعزعة الثقة فى تعاليم الكنيسة[٤٢]. ومع أن العصور الوسطى لم تعرف خطا فاصلا - كالذى نعرفه اليوم - بين ميدان الدين وميدان العلم؛ إلا أننا يمكننا تقسيم المجتهدين فى غرب أوربا فى القرن الثالث عشر إلى فريق حصر اهتمامه الرئيسى فى اللاهوت والعقيدة وفريق آخر اتجه نحو العلوم[٤٣]. وعلى رأس الفريق الأول كان اسكندر الهاليسى (Alexander of Hales) والقديس توما الأكوينى، فى حين برز من الفريق الثانى روبرت جروستست

(38) Eyre: op. cit., p. 229.

(39) Ball: op. cit., p. 165.

(40) Hearnshaw: Med. Contributions , p. 127.

(41) Coulton:Life in the Middle Ages, vol. 2. p.p. 58 - 62.

(42) Tayor: Med. Mind, vol. 2, p. p. 432 - 436.

(43) De Wulf: op. cit., p.p. 256 - 259.

أسقف لنكولن (ت ١٢٥٣)، وميخائيل سكوت الذى تمتع برعاية الإمبراطور فردريك الثانى، وألبرت الكبير Albertus Magnus (ت ١٢٨٠)؛ وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى روجر بيكون (ت ١٢٩٤)(٤٤). وهنا تسترعى نظرنا ظاهرتان واضحتان، الأولى أن معظم هؤلاء الأعلام من المهتمين بالعلوم الجديدة كانوا من الإنجليز - مثل أديلارد الباثى وروبرت الشسترى ودانيل المورلى Daniel of Morley وجروستست، وروجر بيكون؛ فى حين كان ميخائيل سكوت إنجليزيا من أصل إيرلندى. أما الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الأعلام كانوا من منظمة الدومينكان أو منظمة الفرانسسكان، وإن كان الفارق واضحا بين هاتين المنظمتين الدينيتين، فبينما كان علماء الدومينكان يغلب عليهم طابع المحافظة فى الناحية الفكرية، والرغبة فى التوفيق بين العلوم القديمة والجديدة لصيانة كيان التقاليد والدين؛ إذا بالفرانسسكان يغلب عليهم طابع التطرف والمغالاة، ونقد القديم والثورة عليه(٤٥).

على أن قصور عقلية العصور الوسطى فى مجال التفسير العلمى حال دون إدراك وحدة الطبيعة، فالإنسان فى غرب أوربا فى العصور الوسطى اعتقد أن كل شىء له قيمة وأهمية منفصلة عن قيمة أى شىء آخر وأهميته. وكان روجر بيكون هو الذى أدرك أكثر من غيره أن الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتآلفة، وهو التآلف الذى يؤدى إلى وحدة الطبيعة؛ فقال بأن الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات تؤدى إلى وظائف مختلفة لشىء واحد هو الطبيعة. هذا مع الاعتراف بأن بيكون آمن بكثير من الآراء والمعتقدات التس سادت عصره، وأهمها أن الغرض الأساسى من الدراسات العلمية والفلسفية هو خدمة اللاهوت(٤٦). ويبدو أن بيكون استقى الالهام الأول لأفكاره من جروستست، الذى أخضع الفيزياء والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها لهندسة الكون. فجميع المظاهر الطبيعية فى نظر جروستست كان يمكن إرجاعها إلى خطوط وزوايا ومسطحات، والدائرة هى الشكل التام لأن الضوء ينتشر على شكل دائرى(٤٧).

أما النتائج التى توصل إليها بيكون - رائد البحث العلمى بمعناه الحديث - فيمكن

(44) Dampier: A Hist, of Science, p. 91.

(45) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 785.

(46) Dampier: op. cit., p. 100.

(47) Thorndike: A Hist, of Magic , vol. 2. p. p. 436 - 456.

تلخيصها فيما يلى: **أولا**. أنه حاول وضع نظام للمعرفة الطبيعية يفوق المستوى الذى كان قائما فى عصره، ويعتمد قبل كل شىء على المشاهدة والتجربة. **وثانيا**: أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الأجنبية والقديمة، فحاول أن يتعلم اليونانية والعبرية على أسس علمية، وكذلك العربية. **وثالثا**: أنه طبق أسلوبه التجريبى فى الوصول إلى نتائج هامة فى البصريات والعدسات والفلك والجغرافية والرياضيات وغيرها(٤٨). وهكذا استطاع بيكون أن يتنبأ بإمكان الوصول إلى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة إلى مجداف أو شراع، وطائرات يحرك الإنسان أجنحتها كما يفعل الطير، ومفرقعات ملتهبة تبيد الجيوش، وروافع ضخمة لرفع الأثقال، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام، ومصابيح تضىء دون أن ينفد وقودها... إلى غير ذلك من الاختراعات التى توصل إليها الإنسان فعلا فيما بعد، والتى تثبت أن بيكون رسم للعالم الحديث الطريق الذى سار فيه فعلا(٤٩).

ومن هذا يبدو أن علماء الغرب فى العصور الوسطى لم ينقصهم النشاط الفكرى وإنما أعوزهم التنفيذ العملى. فعلماء العصور الوسطى كانوا أقل جهلا مما نتصور، فلم يوجد منهم من اعتقد أن الأرض مسطحة، كما عرفوا سبب خسوف الشمس فى حين قضى أحدهم - وهو أديلارد الباثى - عامين فى دراسة ظاهرة المد والجزر، وتوصل إلى نظرية معقولة لهذه الظاهرة؛ كما قال بمبدأ خلود المادة وعدم فنائها، وإن لم يستطع إثبات هذا المبدأ لعدم توافر المعامل والأجهزة لديه(٥٠). أما نظريات البصريات والعدسات فقد استقاها علماء الغرب من العرب. فأفاض روجر بيكون فى وصف العدسات وأهميتها فى تكبير الكتابة ورؤية مالا يمكن رؤيته بالعين المجردة، هذا فى حين قضى دونس سكوت Duns Scotus شتاء فى باريس فى حساب الاعتداليين مستعينا بالرياضيات العربية واليونانية(٥١).

ومعنى ذلك أن العالم الحديث يدين للعصور الوسطى بكثير من قواعد التقدم

---

(48) Hearnshaw: Med, Contributions , p.p. 142 - 143.

(49) Thorndike: op. cit., vol. 2. p.p. 654 - 655.

(50) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 786.

(51) Ibid.

العلمى. فالقرن الثالث عشر كان لا يقل عن عصر النهضة الإيطالية فى سرعة التقدم العلمى. وقد بلغت المعرفة العلمية فى القرن الثالث عشر درجة من الغزارة والتنوع واجتذاب اهتمام الناس، بحيث أصبح من المتعذر الاكتفاء بمؤلفات بلينى وايسيدور. وهنا ظهرت مجموعة من مؤلفى الموسوعات العلمية الضخمة مثل اسكندر نكام Al-Exander Neckham (١١٥٧ - ١٢١٧) الذى كتب فى «طبيعة الأشياء» [٥٢]، وبارثلميو انجليقوس Bartholomew Anglicus الذى ألف فى «خصائص الأشياء». وفيما عدا هذين الإنجليزيين ظهر ڤنسان الفرنسى Vincent de Beauvais (ت ١٢٦٤) الذى كتب ثلاثة مؤلفات هى «مرآة الطبيعة» و«مرآة العقيدة» و«مرآة التاريخ»[٥٣].

ولا يفوتنا فى ختام هذا العرض السريع للتطور العلمى فى العصور الوسطى أن نشير إلى الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٤ - ١٢٥٠) الذى كان أكبر راع للعلم والعلماء فى عصره[٥٤]. وليس هذا مجال الكلام عن شخصية فردريك الغريبة ذات الجوانب المتعددة، وإنما نكتفى بالإشارة إلى أنه أولع بالبحث عن كل أمر غريب للوقوف على حقيقته، كما شغف بمختلف الدراسات اللغوية والفلسفية والرياضية والعلمية...[٥٥] وقد انتهز فردريك فرصة حضوره إلى الشرق للمشاركة فى النشاط الصليبى وأخذ يبحث بالتعاون مع بعض علماء المسلمين فى المسائل المتعلقة بالهندسة والفلك والمنطق والبصريات . أما اهتمامه بالطب ووظائف الأعضاء فكان عظيما. وقد حظى برعاية الإمبراطور فردريك الثانى عدد كبير من العلماء أشهرهم ميخائيل سكوت الذى دخل بلاط الإمبراطور حوالى سنة ١٢٢٧، وكتب له عدة بحوث فى العلوم الطبيعية والمنطق والفلك والميتافيزيقا والكيمياء[٥٦]. كذلك اتصل ليورنارد البيزى - أشهر علماء الرياضة فى عصره - ببلاط الإمبراطور فردريك، وحل عدة مشاكل رياضية فى حضرة الإمبراطور، كما ألف له بعض المصنفات الرياضية[٥٧].

---

(52) Gilson: op. cit., p. p. 326 - 327.

(53) Idem: p. 402.

(54) Kantorowitz: Frederick the Second , p. p. 334 - 336.

(55) Haskins: Studies in Med. Culture, p. 124.

(56)Thorndike: op. cit., vol. 2, p. p. 316 - 317.

(57) Kantorowicz: Frederick the Second , p. p. 341 - 343.

وقد اعتاد فردريك الثانى أن ينعم بجوائز سخية على كل عالم يقدم إليه شيئا جديدا يسترعى انتباهه فى ميدان العلم، مما جعل منه أكبر راع للدراسات العلمية فى عصره(٥٨).

* * *

وهكذا شهد الغرب الأوربى فى أواخر العصور الوسطى نشاطا علميا غزيرا استمر حتى القرن السادس عشر. والواقع أنه يمكن اختيار سنة ١٤٥٣ لتكون حدا فاصلا بين النشاط العلمى فى العصور الوسطى والحديثة، إذا ظهر فى تلك السنة بحثان علميان قاما على أساس الطريقة العلمية التجريبية بحيث يبدوان أقرب إلى منهج التفكير الحديث منهما إلى منهج العصور الوسطى. أما البحث الأول فقد كتبه رجل بلجيكى اسمه أندرياس فساليوس Andreas Vesalius ويتناول البحث تركيب الجسم الإنسانى وبنائه De Fabrica Corporis Humani ؛ فى حين كتب البحث الثانى رجل بولندى اسمه نيقولا كوبرنيقوس Nicholas Copernicus ويتناول فيه حركة الأجرام السماوية ودوراتها؛ (De revolutionilus orbium Coelstium) (٥٩).

(58) Thompson: op. cit., vol. 2, p. p. 787 - 790.

(59) Hearnshaw: Med. Contributions , p. p. 111 - 112.

الباب التاسع

الآداب

التطور الأدبى واللغوى فى فجر العصور الوسطى:

لم تقتصر مظاهر ضعف الإمبراطورية الرومانية وانحلالها على ما أصابها من تدهور إدارى واقتصادى واجتماعى، وإنما انعكست صورة هذا الانحلال أيضًا فى انحطاط اللغة اللاتينية وغروب شمس الأدب الكلاسيكى القديم[١]. على أنه ربما كان فى إطلاق لفظ «انحطاط» على التغيير الذى اعترى اللغة والأدب عند نهاية العصور القديمة شيء من التطرف أو البعد عن الواقع، إذا نظرنا إلى هذه التغييرات على أنها جانب من التطور العام الذى مرت به أوربا لتلائم اتجاهات العصور الوسطى وحضارتها. فهذه التغييرات اذا يمكن اعتبارها تعويضًا عن الخسائر التى ألمت بالحضارة القديمة، أو بعبارة أخرى يمكن اعتبارها اتجاها لإحلال شيء جديد محل آخر قديم مفقود[٢].

الواقع أن اللغة اللاتينية تعرضت لتغيرات ضخمة فى مدى القرنين ونصف القرن الواقعة بين تاكيتوس (٥٥ - ١٢٠) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠). ذلك أن انتشار المسيحية فى الغرب خلال تلك الفترة لم ينشأ عنه إدخال ألفاظ جديدة من أصل يونانى فحسب، بل أدى أيضًا إلى استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التى أتت بها المسيحية. وقد نجم عن هذا التطور تغيير عظيم أصاب اللغة اللاتينية نتيجة لتطرق كثيرمن الألفاظ العامية والدارجة إلى اللغة الفصحى من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخرى[٣]. ويبدو هذا واضحا عند المقارنة بين اللغة اللاتينية الفصحى كما كتبها شيشرون. واللغة اللاتينية الجديدة أو الدارجة التى استخدمها كتاب العصر المسيحى منذ ترتوليان (حوالى سنة ٢٠٠ فصاعدا). وهكذا انتهى عصر البلاغة والبيان الذى امتاز فيه الأسلوب اللاتينى باختيار اللفظ وانسجام العبارة واتزان الجملة، وحل عصر جديد انسابت فيه الكلمات وفقا لانسياب الأفكار،

(1) poole: Med. Thought, p. 6.

(2) Taylor: The Med. Mind, p.p. 10 - 12.

(3) Fologno: Latin Thought, p. 22.

دون عناية باختيار اللفظ أو العمل على تحقيق نوع من الانسجام بين مختلف العبارات(٤). من ذلك أن الفعل لم يعد يأت فى نهاية الجملة ليختتمها، كما هو الحال فى اللاتينية الكلاسيكية، وإنما صار يأتى حيثما شاء له الفكر دون مراعاة لأصول الأسلوب. كذلك استخدمت كثرة من الألفاظ للتعبير عن معان لم يستعملها فيها مطلقا كتاب العصر الكلاسيكى، بل كان من الصعب فهمها على هؤلاء الكتاب. أما قواعد النحو الكلاسيكية، فلم تعد تحظى بعناية كتاب العصر المسيحى الجديد الذين أضروا بها وخرجوا عليها، بحيث لم يكد يحل القرن الثالث إلا كان هناك نوع من اللاتينية العامية تشبه إلى حد كبير اللاتينية التى سادت غرب أوربا بعد ذلك بثلاثةقرون ـ إذا استثنينا الألفاظ الدخيلة التى أتت عن طريق الجرمان. وهذه اللاتينية العامية أو الدارجة(٥) هى التى صارت فيما بعد أما للغات الرومانسية فى أوربا، وهى اللغات المشتقة عن أصل رومانى لاتينى كالفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية. هذا وإن كانت اللغة الجرمانية ـ التى احتفظت بسيطرتها على الجهات الشمالية من أوربا ـ قد أسهمت هى الأخرى بألفاظ عديدة فى اللغات الرومانسية، وذلك عن طريق احتلال الفرنجة لغاليا والقوط الغربيين لأسبانيا واللمبارديين لإيطاليا(٦).

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأخر الذى أصاب أوربا فى ذلك العصر يتمثل فى تدهور مستوى الخط والكتابة، فى المخطوطات أو الوثائق الحكومية المعاصرة. ففى العصور القديمة كانت الكتب تدون على مجاميع من أوراق البردى أطلق عليها اسم (Volumina)، ولكنها منذ القرن الأول الميلادى أصبحت تدون على صفحات من الرقائق الجلدية مقطوعة على هيئة مربعات قائمة الزوايا وأطلق عليها المجاميع والكتب المربعة (Codices quadrati). ومعظم المخطوطات التى ترجع إلى العصر الميروفنجى أو القوطى من هذا النوع. أما الخط فكان على ثلاثة أنواع هى الحروف الكبيرة (Majuscule)؛ والحروف البوصية (Unical)، والحروف الصغيرة (Min-uscule). ولم يلبث أن أدى انتشار الجهل إلى فساد الخط وتعذر قراءته، فوقع الكتاب فى أخطاء عديدة، مما أفسد الكتابة إفسادا يبدو بوضوح فى الترجمة اللاتينية للانجيل

---

(4) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 794.

(٥) عرفت هذه اللاتينية عادة باسم Lingua vulgaris أو Lingua rustica أو Lingua plebeia، وكلها مترادفات بمعى اللغة العامية أو الدارجة أو الشعبية.

(6) Taylor: op. cit., vol. 2, p.p. 250 - 252.

فى ذلك العصر[٧].

أما دعائم هذا الأدب اللاتينى الجديد فقد أرسى قواعدها فى ميدان النثر القديس جيروم فى ترجمته اللاتينية للإنجيل (vulgate)، والقديس أوغسطين فى كتاباته اللاهوتية، لاسيما «مدينة الله» و«الاعترافات»[٨]. ذلك أن ترجمة الإنجيل اللاتينية لم تؤثر شكليا فى أدب العصور الوسطى لعدة قرون فحسب، بل أثرت أيضاً فى تفكير تلك العصور. ويكفى للتدليل على ذلك أن اللاهوت وعلم الكنسيات (Ecclesiology)، والقوانين والتشريعات، والتاريخ، تأثرت كلها إلى حد واضح بترجمة الانجيل اللاتينية. فبعض النظم الكنسية ـ مثل ضريبة العشور ـ مأخوذة عن الكتاب المقدس. كما أن الملكيات البربرية التى قامت فى أوربا العصور الوسطى أخذت بمباديء الحكومة الثيوقراطية التى ورد إليها أكثر من أشارة فى العهد القديم بوجه خاص[٩]. أما القديس أوغسطين فقد وضع فى كتابه «مدينة الله» فلسفة سياسية لأوربا العصور الوسطى ظلت قائمة حتى القرن الثالث عشر[١٠]. وتدور هذه الفلسفة حول محور واحد هو أن الكنيسة من عمل الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية، فى حين أن الدولة من عمل الإنسان، ولذلك فهى تتصف بالنقص والشر ولابد من خضوعها لنفوذ الكنيسة. وتختلف «الاعترافات» فى طابعها عن «مدينة الله» لأنها عبارة عن ترجمة شخصية روحية تفيض بالزهد والتقوى فى قالب فلسفى يتسم بطابع الأفلاطونية الحديثة[١١].

وفى هذا الأدب الجديد امتزجت الوثنية بالمسيحية، والدين بالدنيا، والقديم بالجديد؛ مما كان له أبعد الأثر فى النواحى الحضارية والتاريخية. ولم يكد يحل القرن الرابع إلا كان الاتجاه الأدبى الجديد قد شق طريقه، حتى تم له الانتصار فى القرن السادس، عندما ظهر بوضوح فى ميدان النثر والشعر[١٢].

---

(7) Thompson: vol. 2, p. p. 794 - 795.

(8) Taylor: The Med. Mind, vol. 2, p. 180.

(٩) (لأنه يولد لنا ولد. ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه. ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا أبا أبديا رئيس السلام) «سفر اشعياء الاصحاح التاسع، ٦».

(10) Gilson: op. cit., p. 127.

(11) Eyre: op. cit., p. 806.

(12) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 796.

أما الشعر المسيحى فقد أصبح يعتمد على أوزان إيقاعية، وتخلى عن المقاييس الكلاسيكية المعروفة، الأمر الذى جعل الترانيم والأناشيد الكنسية تمتاز بنوع من الوقع الموسيقى ساعد على انتشارها، وبالتالى على انتشار المسيحية بين الشعوب البدائية(١٣). وكان أول من برز من شعراء المسيحية هو الشاعر كوموديان Com-modian الذى عاش قرب منتصف القرن الثالث، ثم ظهرت بعد ذلك ترانيم القديس امبروز، والأشعار الدينية التى نظمها برودنتيوس. وقد امتاز شعر برودنتيوس هذا - وهو شاعر أسبانى (٣٤٨ - ٤٠٥) بروحه العالمية التى تهز المشاعر وتبعث على الأمل وتحث على التواضع(١٤). على أن أبدع شعراء المسيحية الأوائل كان القديس بولينوس النولاوى St. Paulinus of Nola (٣٥٣ - ٤٣١)، وهو مواطن من غاليا قضى حياته قسيسا متواضعا فى كنيسة سانت فيلكس بنولا فى جنوب إيطاليا. وقد ظهرت فى أشعاره تلك القوة التى فتت فى عضد الحكام المضطهدين للمسيحية وأتباعها، وبثت روحا قوية فى المسيحية وأنصارها(١٥).

ولم تكن جميع الأشعار التى نظمها الشعراء المسيحيون دينية فى موضوعها، إذ وجد عدد كبير من شعراء القرنين الخامس والسادس كانوا مسيحيين بحكم المولد، ولكنهم ظلوا وثنيين فى تفكيرهم وتقاليدهم. ومن الغريب أن هذا النوع من الشعراء كانوا جميعهم من غاليا، التى ظلت تحتفظ بقسط قوى واضح من التقاليد الكلاسيكية، على الرغم من خضوعها لسيطرة الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين (١٦). ومن أمثلة هذا النوع من الشعراء أوزونيوس Ausonius فى القرن الرابع (٣١٠ - ٣٩٥) الذى امتازت جميع أشعاره بمذاق كلاسيكى وثنى(١٧). وفى القرن الخامس ظهر سيدنيوس أبوليناريس Sidonius Apollinaris الذى عرف بصدق إيمانه حتى تولى منصب أسقف كليرمونت، وعلى الرغم من ذلك فقد اعتاد أن يكتب فى أوقات فراغه رسائل جميلة لأصدقائه تفيض بالاتجاهات الكلاسيكية، كما خلف مجموعة من

---

(13) Taylor: op. cit., vol. 2, p. p. 216 - 217.
(14) Waddell: Med. Latin Lyrics, p. 297.
(15) Idem: p. p. 291 - 296.
(16) Paris: Litterature Française, p. p. 22 - 23.
(17) Waddell: op. cit., p. 291.

الأشعار تعبر عن التقاليد الكلاسيكية والوثنية وإن امتازت بروحها المسيحية الصادقة. ومثل هذا القول ينطبق أيضًا على فورتناتوس Fortunatus (٥٣٠ – ٦٠٣)، وهو شاعر من شعراء العصر الميروفنجى قضى حياته فى غاليا يعمل فى بلاط بعض ملوك الفرنجة[١٨].

أما عن النثر فى تلك الحقبة. فقد ظهرت مجموعة من الكتاب الذين عالجوا التاريخ والفلسفة والسياسة وغيرها . وأبرز هؤلاء الكتاب سلبكيوس سفروس Sulpicius Severus الذى كان قانونيا غلبت عليه روح الرهبانية؛ فكتب مؤلفا عن حياة القديس مارتن التورى ـ الذى عرفه شخصيا ـ وكان لهذا الكتاب أثر كبير فى انتشار الديرية بالغرب، فضلا عما امتاز به من أسولب لاتينى صحيح[١٩]. أما جريجورى التورى Gregory of Tours فامتازت كتابته بعدم وجود أى أثر فيها للتقاليد الكلاسيكية والوثنية؛ فهو يمثل العصور الوسطى تمثيلا صادقا فى اللغة والروح. وقد كتب كتابا عن «تاريخ ملوك الفرنجة» يعتبر مصدرنا الأساسى عن تاريخ غاليا فى ذلك العصر، ويمتاز بأسلوبه اللاتينى الدارج وملاحظاته الطريفة ومعلوماته النافعة[٢٠].

وعلى العكس من غاليا، افتقرت إيطاليا فى القرن الخامس إلى كتاب ملحوظين، سواء كانوا مسيحيين أو وثنيين. وربما كان عدم الاستقرار الذى ساد إيطاليا فى ذلك القرن مسئولا عن انهيار الإنتاج الأدبى. أما فى القرن السادس ـ عندما استقرت أوضاع البلاد تحت حكم الملك ثيودريك القوطى ـ فقد أخذ الوضع يتغير فى إيطاليا. وكان أكبر كتاب ذلك العصر الفيلسوف بيؤثيوس (٤١٠ – ٥٢٥) الذى يعتبر أبرز أدباء الغرب المسيحى بأكمله، لا إيطاليا وحدها[٢١]. ففيه اجتمعت أجمل خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية مع مثالية المسيحية وفلسفتها الأفلاطونية. ذلك أنه تهيأت لبيؤثيوس عدة صفات جعلت منه شخصية بارزة فى عصره، إذ كان من رجال الدولة المبرزين، كما أنه انحدر من أعرق البيوت الرومانية فى إيطاليا، هذا زيادة على أنه

---

(18) Idem: p. 300.

(19) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 798.

(20) Paris: op. cit., p. 27.

(21) Foligno: op. cit., p. 50.

آمن بالمسيحية إيمانا صادقا عميقا. وقد قدم إلى الفكر الغربى خدمة جليلة بترجمة منطق أرسطو إلى اللاتينية، فضلا عن البحوث الخاصة التى كتبها فى الحساب والهندسة والموسيقى. على أن أعظم ما قدمه للفكر الغربى كان كتابه «سلوى الفلسفة» الذى كتبه وهو فى سجنه . ويشبه هذا الكتاب اعترافات القديس أوغسطين فى أن المؤلف ترجم لنفسه ترجمة روحية فى ضوء فلسفة المسيحية(٢٢) .

أما كاسيدورس (Cassiodorus) وزير ثيودريك فكان كاتبا من طراز آخر. إذ ألقت رسائله التى كتبها ضوءا ساطعا على أحوال إيطاليا السياسية والحضارية فى عهد القوط الشرقيين(٢٣) . وقد ألف كاسيدورس كتابا فى تاريخ القوط، ولكنه فقد ولم يصلنا، وكان من المحتمل أن يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ إيطاليا فى القرن السادس، مثل المعلومات التى أمدنا بها جريجورى التورى عن تاريخ غاليا فى العصر نفسه، وعلى الرغم من أن كاسيدورس لم يكتب شيئا يمكن اعتباره أدبا خالصاً، وأنه لم يكن فيلسوفا أو شاعرا، إلا أن أثره فى آداب العصور الوسطى لايمكن إغفاله، لأنه حاول أن يثبت فائدة العلوم الدنيوية وأهميتها(٢٤) . كما أنه قام بتأسيس دير فيڤاريوم فى أواخر أيامه، ومنح مكتبته الخاصة لذلك الدير. هذا فضلا عن مثابرته على البحث والكتابة؛ كما سن سنة طيبة للإديرة والديريين فى المحافظة على التراث الكلاسيكى وفى محاولة تأليف كتب جديدة.

والواقع أنه لم يصلنا من إيطاليا فى العصر القوطى إلا انتاج مؤرخ واحد هو جوردين Jordanes ـ صاحب كتاب «تاريخ القوط» وأهمية هذا المؤلف هى أنه أول كاتب من البرابرة يصلنا إنتاجه. ولذلك امتاز أسلوبه اللاتينى بالخشونة والضعف؛ ولكنه أول من أدخل الأساطير والقصص الخرافية الجرمانية فى الأدب الغربى(٢٥) .

أما أسبانيا فقد أنجبت إلى جانب الشاعر برودنت كاتبا مبرزا ـ هو أورزيوس Oro-sius ـ الذى كان تلميذا للقديس أوغسطين، والذى وضع مؤلفا عنوانه «سبع رسائل

---

(22) Brehier: op. cit., p. p. 10 - 13.

(23) Taylor: op. cit., vol. 1, p. p. 93 - 97.

(24) poole: Med. Thought, p. 6.

(25) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 799.

تاريخية للرد على الوثنيين، . وقد حاول فى هذا المؤلف أن يدلل بأمثلة من التاريخ على أن متاعب الإنسانية وسقوط الإمبراطوريات ليس شيئا جديدا، وأنه من التعسف أن ينسب المعاصرون المصائب التى حلت بأوربا حينئذ إلى المسيحيين وديانتهم. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يعتبر تاريخا حقيقيا، إلا فى الجزء الأخير منه فقط - الذى ينتهى بحوادث سنة ٤١٧ - والذى تنحصر أهميته التاريخية فى علاج الأحداث المعاصرة، إلا أنه حصل على شهرة واسعة فى العصور الوسطى[٢٦] . وفى الوقت الذى بلغت قوة القوط الغربيين ذروتها فى أسبانيا، ظهر ايسيدور أسقف إشبيلية (ت ٦٣٦) الذى امتاز بأسلوبه الخصب البارع[٢٧] .

على أن معين الغرب أخذ ينضب فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس، بحيث لم يبق من التراث الكلاسيكى إلا بصيص خافت من النور عند نهاية القرن السادس، كما اعترف بذلك جريجورى التورى نفسه. وفى الوقت الذى كان جريجورى التورى يكتب تاريخه فى غاليا (٥٣٨ – ٥٩٤)، أخذ الباب جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) يوجه كل جهوده وإمكانات منصبه نحو الوعظ والإرشاد وسير القديسين والبحوث اللاهوتية، صارفا بصره - وأبصار من حوله - عن الكلاسيكيات[٢٨] . ذلك أن هذا البابا كان معاديا للتراث الكلاسيكى الذى أوشك أن يزول فى ذلك الوقت لولا جهود الرهبان الإيرلنديين فى حفظ هذا التراث[٢٩] . وقد بدأ غروب الأدب الكلاسيكى سنة ٥٢٩ على وجه التحديد ، وهى السنة التى أغلق فيها جستنيان مدارس أثينا الفلسفية الوثنية القديمة، كما أسس فيها القديس بندكت ديره المعروف فى مونت كاسينو[٣٠] . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم الدراسات الكلاسيكية فى الأفول سريعا فى غرب أوربا.

ولكن شاء حسن حظ الحضارة الأوربية أن يحظى الأدب اللاتينى الكلاسيكى فى ذلك العصر ببعض المريدين والأنصار، على الرغم من روح العداء التى أحاطت به

(26) Taylor: op. cit., p. p. 82 - 83.
(27) Foligno: op. cit., p. p. 25 - 26.
(28) poole: Med. Thought, p. 7.
(29) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 501.
(30) Vasiliev: op. cit., Tome 1, p. 198.

من كل جانب. ذلك أنه لايوجد شك فى أن الكنيسة ودت حينئذ لو انهار الأدب الكلاسيكى بأكمله لأنه وثنى الأصل؛ بل وجد فعلا من زعماء الكنيسة - مثل جريجورى العظيم - من كان يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق ذلك. ولكن إعجاب المعاصرين بسحر الأدب الكلاسيكى وسمو مستواه، ساعد على حفظ ذلك التراث من الضياع[٣١]. هذا إلى أن الطبقة المثقفة فى المجتمع الأوربى رغبت فى حمايك التراث الرومانى القومى من جهل البرابرة الذين تدفقوا على غرب أوربا وهددوا حضارته بالضياع فى القرنين الخامس والسادس. ويبدو أن هذه الرغبة فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضى حركت مشاعر المثقفين من المسيحيين والوثنيين على حد سواء، حتى استطاع رجال مثل كاسيدورس وإيسيدور أن يحققوا نوعا من الوفاق بين الكنيسة والآداب الدنيوية[٣٢].

وفى الوقت الذى أصيب الأدب اللاتينى بفتور فى القرن السابع وأوائل الثامن، ظهرت نهضة عظيمة فى إيرلندا تزعمتها الكنيسة والإديرة الأيرلندية، وقدر لها أن تحفظ الكثير من مظاهر التراث الأدبى الكلاسيكى من الضياع[٣٣]. وهكذا استطاعت أيرلندا أن تحمل مصباح المعرفة فى ذلك العصر المظلم، الذى انتشرت فيه الفوضى ومظاهر عدم الاستقرار فى بلاد غرب أوربا[٣٤]. وسرعان ما أدى حب الأيرلنديين للهجرة إلى انتشار نهضتهم وذيوعها فى البلاد المجاورة، لا سيما بعد أن أسسوا أديرة شهيرة فى صلب القارة، ظلت محورا للنشاط الفكرى عدة قرون. وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فى القرن الثامن على عصر بدى (٦٧٥ – ٧٣٥) وهو الأديب الفذ الذى يمثل عصرا اكتملت فيه صورة الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى[٣٥]. ولم تمض أيام على وفاة بدى حتى ولد ألكوين (٧٣٥ – ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى فى أيرلندا وبريطانيا من ناحية وغاليا وبقية الغرب من ناحية أخرى؛ والذى كان أبرز أعلام النهضة الكبيرة التى تعهدها شارلمان بالرعاية فى أواخر القرن الثامن.

---

(31) Thompson: op. cit., vol. 6, p. 800.

(32) Hall: Introduction to the Study of Classical Texts, p. p. 68 - 71.

(33) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 501 - 506.

(34) poole: op. cit., p. 8.

(35) Eyre: op. cit., vol. 2, p. 368.

الأدب في النهضة الكارولنجية:

والواقع أن الفضل يرجع إلى النهضة الكارولنجية في إنقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها فى القرن السابع، كما أنها منحته قوة دافعة ظهر أثرها بعد ذلك فى النهضة الأوتية أو السكسونية فى ألمانيا، وفى المدارس الديرية الكبرى التى ازدهرت فى القرنين التاسع والعاشر. وهنا نسجل أن الانحلال السياسى الذى تعرض له غرب أوربا فى القرن التاسع لم يصحبه ـ لحسن الحظ ـ تدهور فى الدراسات الأدبية، الأمر الذى جعل القرنين التاسع والعاشر يحتفظان بمستوى ثقافى لائق فى الدراسات الأدبية كالتاريخ والشعر(٣٦).

وقد جمع شارلمان حوله ـ فى بلاطه بمدينة آخن (أكس لاشابل) ـ أبرز علماء عصره الذين اجتذبهم من بلاد أوربا، مثل ألكوين من إنجلترا، وبولس اللمباردى، وبطرس البيزى، وثيودلف الأورليانى، ورابان مور مقدم دير فولدا؛ هذا فضلا عن سكرتيره إينهارت ومساعده انجلبرت(٣٧). وامتازت النهضة الكارولنجية باتساع أفقها وصبغتها التعليمية، وتغلب الطابع الدينى عليها. كذلك احتل التاريخ والتدوين التاريخى ركنا هاما فى هذه النهضة، فكتب بولس اللمباردى «تاريخ اللمبارديين»، كما كتب اينهارت «تاريخ حياة شارلمان». ويعتبر الأخير من أهم كتب التراجم فى العصور الوسطى، على الرغم من تقيد المؤلف بمنهج المؤرخ الرومانى سيتونيوس Suetonius (٦٩ – ١٤١) فى تراجمه لأباطرة الرومان(٣٨). وقد غدت هذه الترجمة – التى وضعها اينهارت لحياة شارلمان – مثلا يحتذى فى الكتابات التاريخية المعاصرة، حتى أن ثلاثة من الكتاب قاموا بوضع تراجم لحياة لويس التقى، ابن شارلمان وخليفته(٣٩).

وهناك جانب آخر من الكتابات التاريخية هو الحوليات التى مهدت فى العصر الكارولنجى لمولد نوع جديد من التدوين التاريخى، قدر له أن يظل قائما حتى نهاية العصور الوسطى. ذلك أن هذه الحوليات لم تكن مجرد وقائع وصفية، وإنما كانت ـ كما

(36) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 801.

(37) Waddell: The Wandering Scholars, p. 39.

(38) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 517.

(39) Lavisse: op. cit., Tome 2, Livre 1, p. 347.

يبدو من اسمها (Annals) سردا لأهم أحداث السنوات المتعاقبة، كل سنة على حدة. وقد نشأ هذا النوع من التدوين التاريخى لأول مرة فى الغرب فى نورتمبرلاند بإنجلترا، حيث جرت العادة فى الأديرة بتدوين الحوادث الكبيرة أولا فأولا. ومن المحتمل أن يكون ألكوين هو الذى نقل هذا الأسلوب إلى غاليا، حيث آمن شارلمان بأهميته، فأمر الأدير باتباعه فى تدوين حوادثها[٤٠]. وكانت هذه الحوليات صغيرة، قليلة الأهمية فى الأديرة الصغيرة؛ إذ أنها لم تتعد ذكر الأحداث المحلية. ولكنها صارت فى الأديرة الكبيرة - مثل دير لورخ Lorsch ودير سانت برتن St. Bertin - على جانب كبير من الأهمية وغزارة المادة التاريخية. وإلى جانب هذه الحوليات الديرية، وجد نوع آخر عرف باسم الحوليات الملكية (Annales Royales) التى دونت تحت إشراف رجال البلاط، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتل لمملكته بين أبنائه. كذلك لم تهمل الكتابات التاريخية فى العصر الكارولنجى سير القديسين. هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التى تناولت أخبار الحروب والحوادث، مثل كتاب «تاريخ الحروب الأهلية» لمؤلفه نيثارد Nithard فى القرن التاسع[٤١].

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى العصر الكارولنجى، فإن هذا التفوق لم يكن فى الجودة والكيف بقدر ما كان فى الكثرة والكم، لأن الاتجاه السائد غلب استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة، حتى أن معظم الأدباء المعاصرين - مثل بولس وألكوين وانجلبرت وثيودلف - قرضوا الشعر. كذلك خلف لنا ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر Chansons de Geste التى تناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداثا هامة تمت فى عهده[٤٢]. على أن الطابع الغالب على الشعر الكارولنجى كان دينيا، لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة، زيادة على أن شعراء ذلك العصر استلهموا أشعارهم من شعراء المسيحية مثل برودنتوس وفورتناتوس[٤٣]. وكان أبرز شاعرين فى العصر الكارولنجى على الإطلاق - سواء فى الشعر الدينى أو الدنيوى - هما والفرد سترابو Walafrid Strabo (٨٠٩ – ٨٤٩) أحد

(40) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 802.
(41) Taylor: op. cit., vol. 1, p.p. 234 - 235.
(42) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p. 816 - 824.
(43) Paris: op. cit., p.p. 48 - 50.

رهبان دير ريخنو، وسدوليوس سكوت Sedulius Scotus (٨٤٨ – ٨٧٤)، وهو راهب أيرلندى استقر فى لييج. وقد كتب الأول فى شعر الحكمة والشعر الغنائى ورسائل دينية منظومة، كما خلف قطعة رائعة عنوانها «وصف الحديقة Hortulus» وصف فيها حديقة دير ريخنو[٤٤]. أما الثانى قد ألف باقة من الأغانى الجميلة (Carmina) امتاز بعضها بدقة النظم - مثل «الحوار بين الوردة والزنبقة» - والبعض الآخر من أغانى الشراب التى تجلت فيها شخصية ذلك الراهب الأيرلندى المرحة. على أن أهم ما قام به سدوليوس سكوت، كان ترجمة بعض أجزاء من الإنجيل فى قالب شعرى؛ ومازالت بعض هذه الأشعار الدينية تستخدم فى ترانيم الكنيسة حتى اليوم[٤٥]. ومهما يكن الأمر فإنه يؤخذ على شعر العصر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة، وضعف الصلة التى تربطه بالحياة الشعبية؛ هذا بالرغم من وفرة هذا الشعر وغزارته[٤٦].

ولعل خير ما يصور لنا مدى العناية بالأدب الكلاسيكى فى القرن التاسع، هو أن عدد ما وصل إلينا من المخطوطات الكلاسيكية - التى ترجع أصولها إلى العصور القديمة، والتى أعيد نسخها فى القرن التاسع - بلغ سبعا وثلاثين وثلثمائة مخطوطا؛ فى حين أنه لم يصل إلينا من هذا النوع من مخطوطات القرن العاشر سوى مائة وخمسة عشر مخطوطا، ومن القرن الحادى عشر سوى ستة وخمسين مخطوطا[٤٧]. وكان رائد هذه الحركة العظيمة هو ألكوين، الذى أخذ يعمل فى جد ونشاط لتصحيح المخطوطات القديمة وتنظيمها وإعادة نسخها مصححة؛ وذلك بعد أن تعرضت تلك المخطوطات فى الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن للإهمال والتحريف والضياع[٤٨]. ويعتبر أهم ما قام به ألكوين فى هذا الباب مراجعة الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس مراجعة دقيقة شاملة. أما سرفاتوس لوبوس Servatus Lupus - مقدم دير فريير - فكان أعظم المهتمين بالآداب الكلاسيكية اللاتينية فى القرن التاسع، كما أن رسائله التى كتبها فى الموضوع ألقت ضوءا ساطعا على هذه الآداب[٤٩].

---

(44) Waddell: The Wandering Scholars, p. 32.

(45) Waddell: Med. Latin Lyrics, p. p. 319 - 320.

(46) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century , p. 153.

(47) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 802.

(48) Guizot: Hist. de la Civilisation en France Tome 2, p. 185.

(49) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 802.

وفى وسط هذه التيارات الكنسية والكلاسيكية، ظل الأدب الجرمانى القومى يحاول أن يشق لنفسه طريقا ولو ضيقا. ومن المعروف أن شارلمان كان جرمانيا بحكم أصله وطبيعته، ولذلك لانعجب اذا حرص على الاحتفاظ بمجموعة من الأغانى والأشعار الجرمانية، كما حاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية، بل أطلق على الرياح والأشهر أسماء جرمانية(٥٠). أما الأغانى الجرمانية، فكانت حينئذ عبارة عن مجموعة من أناشيد الحب والحرب والمغامرة، ولكن الكنيسة اعتبرت هذه الأغانى صورة من صور الوثنية فوقفت منها موقفا معاديا، حتى أحرقها لويس التقى - خليفة شارلمان - وبذلك حرمنا من هذا المصدر القيم للآداب الجرمانية وأصولها اللغوية.

الأدب فى القرن العاشر:

ربما بدا من كلامنا السابق عن النهضة الكارولنجية أن هذه النهضة اقتصرت على غاليا وجزء من ألمانيا، وهى الجهات التى كانت تمثل قلب الإمبراطورية الفرنجية. ولكن حدث فى القرن العاشر، عندما نهضت ألمانيا فى ظل الأسرة السكسونية أن انتقلت النهضة الأدبية إلى شمال ألمانيا حيث ازدهرت فى أديرتها(٥١). ذلك أن الإمبراطور أوتو العظيم لم يعمل على اقتفاء أثر شارلمان فى الجانب السياسى فحسب بل أيضًا فى الجانب الحضارى، مما أدى إلى ازدهار الثقافة فى ألمانيا، وكان رائد تلك الحركة الفكرية برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا، الذى أظهر اهتماما بالغا بتشجيع العلم والثقافة، كما دفعه شغفه بعلوم القدماء إلى تعلم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين فى ألمانيا(٥٢). وهكذا تمخضت النهضة الأوتية أو - السكسونية - عن بضعة أعلام مثل ويدوكند Widukind مقدم دير كوربى وأمهر كتاب التاريخ فى ألمانيا، وهور تسويثا Hortswitha التى دونت مجموعة من القصص الدراسية فى أسلوب لاتينى على درجة كبيرة من الجودة والنقاوة، جعلت علماء النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر يشكون من صحة نسبة هذا الإنتاج إليها(٥٣).

---

(50) Taylor: op. cit., vol. 2, p. 249.

(51) poole: Med. Thought, p. 74.

(52) Waddell: The Wandering Scholars, p. 66.

(53) Foligno: Latin Thought, p. p. 92 - 93.

أما إيطاليا التى لم يبرز فيها كاتب ملحوظ فى القرن التاسع ـ باستثناء أنسطيوس الكتبى الذى كان متعالما أكثر منه عالما؛ فقد شهدت فى القرن العاشر موهبة فذة فى شخص ليتو براند أسقف كريمونا، الذى بلغ من إجادته لليونانية أن اختاره الإمبراطور أوتو الأول مبعوثا إلى القسطنطينية. وقد ترك ليتوبراند هذا عدة بحوث بعضها فى وصف الحياة والعادات فى الدولة البيزنطية، والبعض الآخر عبارة عن خليط من المعلومات التاريخية والجدل والهجاء والدعابات الفكاهية(٥٤). والواقع أن ليتو براند كان أبرز أديب مثقف فى عصره، وقد اشتهر بتعليقاته اللاذعة مثل قوله بأن الإيطاليين «مغرمون دائما بحب سيدين (يقصد البابا والإمبراطور)، وهم لا يتظاهرون بحب أحدهما إلا لأنهم يكرهون الآخر»(٥٥).

أما فرنسا فكانت فقيرة فى الإنتاج الأدبى فى القرن العاشر، ولم يبرز فيها سوى مؤرخين أحدهما فلودورد Flodoard صاحب حوليات ريمس (٩٢٢ – ٩٦٦)، والثانى ريتشر Richer مؤلف «أربع رسائل فى التاريخ». وقد امتاز الأول بالأمانة والدقة فى كتابته، فى حين حاول الثانى أن يؤرخ لانقلاب سنة ٩٨٧ الذى أدى إلى قيام أسرة كابيه، كما استعمل خليطا غير متجانس من الاصطلاحات والألفاظ الفنية والحربية والإدارية، مما جعل أسلوبه اللاتينى من الصعوبة بمكان (٥٦).

الأدب فى القرن الحادى عشر:

أما القرن الحادى عشر فقد شهد تطورات سياسية خطيرة فى أوربا، مثل انتشار حركة الإصلاح الكلونية، والنزاع حول التقليد العلمانى بين البابوية والإمبراطورية، وازدياد نفوذ البابوية فى السياسة الأوربية، وغزو النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن غزوهم لانجلترا، والحروب الصليبية... ويبدو أن هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها فى صرف أنظار المعاصرين عن الأدب والنشاط الأدبى، بحيث لم يخلف لنا ذلك القرن شيئا يستحق الذكر سوى ما تركه فى ميدان الدراسات التاريخية(٥٧). أما أبرز المؤرخين فى ذلك العصر فهو آدم البرمنى Adam of Bre-

(54) Taylor: op. cit., vol. 1, p.p. 257 - 258.

(55) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 803.

(56) Waddell: The Wandering Scholars, ps. 68, 73.

(57) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 804.

men الذى ألف كتابا عنوانه «أعمال رؤساء أساقفة هامبورج». ويحوى هذا الكتاب معلومات تاريخية هامة عن شمال ألمانيا، وبصفة خاصة العناصر السلافية الرابضة على نهر الألب. كذلك ألف أدم كتابا آخر تناول فيه أحوال سكندناوة وأيسلند وجرينلند في تلك العصور، وهو يعتبر مصدرا أساسيا لأحوال هذه البلاد حينذاك من النواحى التاريخية والجغرافية والبشرية والاقتصادية(٥٨). وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع كتب راهب اسمه برونو كتابا عنوانه «تاريخ ثورة سكسونيا»، وهو يمتاز بالدقة والأمانة. كذلك دونت فى أمانيا فى القرن الحادى عشر عدة تراجم هامة تناولت بوجه خاص حياة مشاهير الأساقفة. أما فرنسا وإيطاليا فقد ظهرت فيهما وقتئذ بعض الكتابات التاريخية التى تناولت حياة كبار الشخصيات المعاصرة - مثل ماتيلدا أميرة تسكانيا - أو الأحداث الهامة - مثل غزو النورمان لجنوب إيطاليا - ، أو أخبار بعض كبار الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا، مثل أمراء بيت أنجو(٥٩).

الأدب فى القرن الثانى عشر:

على أن أحداث القرن الثانى عشر، وما ترتب عليها من يقظة شعوب غرب أوربا من جهة، وزيادة الاتصال مع المسلمين فى الشرق والغرب من جهة أخرى أدت إلى إثارة نهضة كبيرة فى مدارس غرب أوربا(٦٠).

وقد احتل النشاط الأدبى والدراسات الإنسانية جانبا أساسيا من تلك النهضة الفكرية والعلمية الجديدة، التى أخذت تظهر منذ نهاية القرن الحادى عشر لتتبلور فى القرن الثانى عشر. وهكذا تم إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكى على الرغم من الفتور الذى أصاب دراسته فى القرن العاشر(٦١). وسارت العناية بالدراسات الأدبية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع المعارف الجديدة فى العلوم والرياضيات والفلسفة والطب والقانون وغيرها. وقد بدأت حركة إحياء الأدب الكلاسيكى - كما هو الحال فى البحث العلمى - على يد جربرت الريمسى Gerbert of Reims ثم انتقلت من ريمس

(58) Beazley: The Dawn of Modern Geography, vol.

(59) Thompson: op. cit., vol. 2, p.p. 804 - 805.

(60) Eyre: op. cit., p.p. 269 - 270.

(61) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century , p. 115.

إلى شارتر على يد تلميذه الأسقف فلبرت Fulbert (٦٢) . وكان هلد برت Hildbert أسقف تور شاعرا لاتينيا موهوبا، بلغ من سلامة أسلوبه وجمال تعبيره أن علماء النهضة الإيطالية شكوا فى صحة نسبة أشعاره إليه، حتى قال بعضهم بأن هذه الأشعار لابد وأن تكون نماذج من الشعر الكلاسيكى استكشفت فى القرن الحادى عشر(٦٣) . حقيقة أنه وجد فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعض ذوى الآفاق الضيقة من رجال الدين، حاولوا اقتفاء سياسة البابا جريجورى العظيم فى أواخر القرن السادس ، فنادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكى وإعدامه، بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية. ولكن هؤاء كانوا قلة ولم يصبحوا خطرا حقيقيا على الأدب الكلاسيكى(٦٤) . أما الخطر الذى هدد الأدب الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر فقد أتى نتيجة لمنافسة منطق أرسطو، والاتجاه العملى الجديد فى الحياة الفكرية، مما لم يترك مجالا واسعا للدراسات الأدبية الكلاسيكية(٦٥) . ومع أن إحياء الدراسات الكلاسيكية كان أضعف مظاهر نهضة القرن الثانى عشر، إلا أن ذلك الإحياء لم يندثر كلية تحت ضغط الفلسفة والعلوم الجديدة، فقد ظهرت كتابات لاتينية تسترعى الانتباه مثل رسائل أبيلار وأشعار هلدبير ومؤلفات حنا سالسبورى، وكلها تستحق الإعجاب والتقدير(٦٦) .

أما مراكز العناية بالدراسات الكلاسيكية فكانت الأديرة البندكتية، بحكم أقدميتها وانتقال تراث النهضة الكارولنجية إليها من ناحية، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة فى الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة ولم تقحم نفسها فى التيارات السياسية المعاصرة من ناحية أخرى. وهكذا ظلت الأديرة البندكتية بمثابة المستودع الأساسى للدراسات الكلاسيكية، حتى ورثتها المدارس الأسقفية فى هذه المهمة وغدت الأخيرة مركزا للدراسات الكلاسيكية وغير الكلاسيكية من العلوم الجديدة(٦٧) .

وقد احتل إنشاء الرسائل Epistolary Composition المكانة الأولى فى ميدان

---

(62) Pool: op. cit., p. 98.

(63) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 206.

(64) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century , p.p. 96 - 98.

(65) Ibid.

(66) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 809.

(67) Rashdall: Med. Universities, vol. 1, p. p. 43 - 44.

البلاغة فى ذلك العصر، عندما ازدهر فى كتابة الرسائل فى بولونيا بإيطاليا - أعظم مدارس القانون فى العصور الوسطى - ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا حيث وجد بيئة صالحة فى مدرسة أورليان. وتمثل الرسائل التى كتبت حينئذ فى تور وأورليان نوعا راقيا من النثر اللاتينى البليغ، وبخاصة تلك التى ترجع إلى عهد فيلب أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣) والتى تناولت محاورات خيالية بين الشتاء والربيع، وبين الروح والجسد، وبين الإنسان والشيطان.. ولا تقتصر أهمية هذه الرسائل على ما بلغته من مستوى رفيع فى البلاغة، بل ترجع هذه الأهمية أيضاً إلى ما تلقيه من ضوء ساطع على أوضاع العصر الذى دونت فيه(٦٨).

أما الشعر اللاتينى فقد بلغ فى القرن الثانى عشر درجة كبيرة من الرقى والكثرة والتنوع. ويبدو أن هذا الشعر تأثر إلى حد واضح بالشعر الكلاسيكى من ناحية، وبالطابع الدينى من ناحية أخرى. فالأثر الكلاسيكى يبدو واضحا فى أشعار هلد بير (ت ١١٢٣)، وبخاصة القصيدتين اللتين نظمهما عن روما، وأبدى فيهما أسفه لزوال مجدها القديم، كما أضفى عليها آيات التبجيل فى عصره لقيام البابوية فيها(٦٩).

أما الطابع الدينى فيبدو فى أشعار أبيلار ماربود، فضلا عن كثير من الأشعار الدينية التى تناولت قصصا من الإنجيل وسير القديسين، وغيرها من الموضوعات الدينية. ويحتل هؤلاء الشعراء الثلاثة مكانة كبيرة فى ميدان النشاط الأدبى فى القرن الثانى عشر، إذ يعتبر هلد بير أعظم شعراء عصره، وقد عالج معظم فنون الشعر، كالرثاء والمديح والموضوعات الدينية والخلقية. أما أبيلار (١٠٧٩ - ١١٤٢) فكان شاعرا مجيدا، إلى جانب كونه من رجال الدين الذين اشتغلوا بالفلسفة. وقد نظم كثيرا من الأشعار الدينية فضلا عن بعض الأناشيد التى تدل على عقلية ممتازة(٧٠). وأخيرا يأتى ماربود Marbode (١٠٣٥ - ١١٢٣) الذى تنسب إليه بعض الأشعار الدينية بالإضافة إلى أشعار أخرى تمجد الشباب والحب والنساء(٧١).

---

(68) Haskins: The Renaissance , p.p. 142 - 148.

(69) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 206.

(70) Waddell: Med. Latin Lyrics, p. p. 162 - 169 & 336.

(71) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 206.

ومن الواضح أن أخصب أنواع الشعر فى العصور الوسطى كانت الترانيم والأغانى. أما الترانيم الدينية فقد امتاز أسلوبها بالتفخيم، وانتقاء الألفاظ الكفيلة بأن تضفى رداء من المهابة والجلالة على الحياة الدينية، فى حين دار معظم موضوعات هذه الترانيم حول القصة الأزلية المتعلقة بالله والإنسان مثلما جاءت فى العهدين القديم والجديد(٧٢). وأما الشعر الغنائى فقد ظهر منه نوع يعبر عن العواطف الإنسانية وروح حب الطبيعة والتعلق بجمالها. وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اللاتينى الغنائى اسم الشعر الجلياردى Geliardic lyric poetry نسبة إلى شخصية غامضة مجهولة اسمها جولياس (Golias) اعتقد المعاصرون أنها مصدر الإلهام الروحى للشعراء الجليارديين(٧٣). ومهما يكن الأمر فإن هذا الشعر امتاز بطابعه الدنيوى وروحه الفكاهية الخفيفة التى غلبت عليها الرغبة فى الاستمتاع بملاذ الحياة من شباب وخمر ونساء(٧٤). ولما كان الشعر الجلياردى يتعارض مع آراء الكنيسة ورجال الدين تعارضا حادا، فإن الشعراء الجليارديين وقفوا موقفا عدائيا من رجال الدين - كبيرهم وصغيرهم - واتخذوهم موضوعا لسخريتهم ونقدهم اللاذع؛ حتى المسيح والبابوية وفروض الدين لم تسلم من تهكمهم وهزلهم؛ الأمر الذى سبب فزعا كبيرا للكنيسة، فعقدت عدة مجامع دينية لتحريم هذا النوع من الشعر وإنزال اللعنة بأصحابه(٧٥). وكان هذا التطاول على الكنيسة ورجالها ومحاولة النيل منها وهدم نظمها، من العوامل التى جعلت رجال حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر يعتمدون على الأشعار الجلياردية فى إثبات مفاسد نظام الكنيسة الكاثوليكية(٧٦).

ويبدو أن معظم الشعراء الجليارديين كانوا من طلبة العلم الجائلين الذين أخذوا يتنقلون فى ذلك العصر من مدرسة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر، يرددون شعرهم الفكاهى ويجدون فيه بعض السلوى عن متاعب الحياة ومشاقها(٧٧). وقد حفظ لنا التاريخ اسمين من أعلام الشعر الجلياردى نسب إليهما كثير من المقطوعات الشعرية

---

(72) Paris: Litterature Française au Moyen Ages, p. 145.

(73) Thompson: vol. 2, p. 807.

(74) Symonds: Wine Women and Songs,p. 191 & Haskins: The Renaissance, p. 187.

(75) Waddell: The Wandering Scholars, p.p. 260 - 268.

(76) Symonds: Wine Women and Songs,p. 7 .

(77) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 207.

الخفيفة. أما الأول فهو هيو الأورلياني (١٠٩٠ - ١١٥٠) الذى تعلم فى باريس ثم علم فيها، حتى انتقل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه، فأخذ يخفف عن نفسه بهذا النوع من الشعر الفكاهي الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه. وقد ساعد على نبوغه فى الشعر تعمقه فى الدراسات الكلاسيكية وإحاطته بأوزان الشعر اللاتيني الكلاسيكي[٧٨]. وأما الشاعر الثاني من أعلام الشعر الجلياردي فنجهل اسمه الحقيقي، وإن كان من الثابت أنه خلف جولياس فى زعامة هذه المدرسة الشعرية الفكاهية، حتى أطلق عليه فى المراجع لقب الشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta (ت ١١٦٥)[٧٩]. وكل ما نعرفه عنه هو أنه كان معاصرا لفردريك بربروسا واشتغل فى بلاطه، كما امتازت أشعاره بالأحكام والتنوع وخفة الروح[٨٠].

الآداب الشعبية والمحلية:

على أننا إذا كنا فى كلامنا عن الأدب الغربي فى العصور الوسطى قد التزمنا جانب الأدب اللاتيني، وبحكم بقاء اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين، فليس معنى ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبي خاص بهم[٨١]. ذلك أن طبقة العامة فى غرب أوربا لم تعرف اللاتينية الفصحى، وإنما عرفت اللغة التى توارثها الناس عن أجدادهم - سواء كانت هذه اللغة لاتينية دارجة أو جرمانية. هذا مع ملاحظة أن اللغات الوطنية المحلية (Vernacular) لم تنهض لتعبير عن النشاط الأدبي قبل القرن الحادى عشر[٨٢]. وإلى أن قامت اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس - من سلالة العناصر الجرمانية والكلتية - آدابها الشعبية. ولكنها كانت آدابا غير مكتوبة، تألفت من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاها ويتوارثها الخلف عن السلف. والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم، فإن لكل شعب مقدرته على التعبير التصويري الذى قد يبدو لنا تافها وبسيطا، ولكنها لا يخلو من جمال فطري[٨٣].

---

(78) Haskins: The Renaissance ,.p. 179.

(79) Waddell: Med. Latin Lyrics, p. p. 338 - 340.

(80) Haskins: The Renaissance ,.p. 181.

(81) Paris: Litterature Française au Moyen Ages, p. p. 2 - 3.

(82) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 809.

(83) Waddell: Poetry in the Dark Ages, p. 7.

ويلحظ المتتبع للأدب الغربي في النصف الأخير من القرن الثاني عشر أن هذا الأدب لم يعد لاتينيا خالصًا. ذلك أن تيار اللغات المحلية أخذ يقوى ويشتد في ذلك العصر، تمهيدا لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف بلدان غرب أوربا؛ الأمر الذي يجعل من النصف الأخير من القرن الثاني عشر مرحلة انتقال من الأدب اللاتيني الخالص إلى الآداب الوطنية الناشئة(٨٤).

ويمكن تقسيم المصادر التي نبعت منها الآداب المحلية في العصور الوسطى إلى ستة؛ هي التراث الكلاسيكي القديم، والإنجيل، والجرمان، والكلت، والفيكنج، والمسلمون ومن شابههم من العناصر الشرقية. ومع أن هذه القنوات الفكرية المنفصلة تداخلت على مر الزمان وامتزجت تياراتها إلى حد كبير، بحيث تشابهت الموضوعات. والبواعث فيها جميعا؛ إلا أن الخلافات والفروق ظلت واضحة فيما بينها وبين بعض. ذلك أن الأصول الأولى للتيارات السابقة استمرت محتفظة بخصائصها من جيل إلى آخر، دون أن تمتزج بغيرها من الآراء إلا امتزاجا سطحيا طفيفا، لا يغير من حقيقتها أو جوهرها(٨٥).

ومن الواضح أن التراث الكلاسيكي - اليوناني واللاتيني - كان أقدم منبع للآداب الوطنية في أوربا العصور الوسطى؛ إذا ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة المرتبطة بذلك التراث متداولة في غرب أوربا. وبظهور المسيحية وانتشار تعاليم الكنيسة في مختلف أنحاء غرب أوربا، صار الكتاب المقدس يمثل مصدرا جديدا للإلهام الأدبي، حتى غدا كل حدث ورد في ذلك الكتاب موضوعا لتعبير أدبي - منظوما أو منثورا(٨٦). على أن الجرمان الذين غزت قبائلهم غرب أوربا في العصور الوسطى، كانت لهم أغانيهم الحربية الحماسية، وأبطالهم الذين صارت أعمالهم وبطولتهم محور كثير من القصص المعاصر. وقد سجل مؤرخو العصور الوسطى الذين عالجوا تاريخ الشعوب الجرمانية - مثل جوردان Jordanes صاحب تاريخ القوط، وجريجوري التوري مؤلف تاريخ الفرنجة، وبولس اللمباردي مدون تاريخ اللمبارديين

(84) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 204 - 205.

(85) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 810.

(86) Taylor: op. cit., vol. 2, p. 200.

- كثيرا من أساطير البطولة التى ترتبط بتاريخ هذه الشعوب المبكر، لأنهم لم يجدوا مصدرا آخر - عدا هذه الأساطير - يستقون منه معلوماتهم عن نشأة الشعوب الجرمانية. كذلك كشفت البحوث التى تمت فى القرن الأخير النقاب عن مدى ما تمتعت به الشعوب الجرمانية من تقدم أدبى، بعد الوقوف على كثير من الآثار - النثرية والشعرية - عند الفيكنج وبخاصة فى أيسلند والنرويج(٨٧). ومهما يكن الأمر، فإن أهم الميادين التى ظهرت فيها الآداب الوطنية الناشئة فى أواخر العصور الوسطى، كانت أشعار الملاحم من جهة وأشعار الترو بادور من جهة أخرى، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما على حدة.

شعر الملاحم:

كان الرأى السائد حتى زمن قريب هو أن الملاحم التى عرفها غرب أوربا فى العصور الوسطى جاءت وليدة نمو أدبى بطىء؛ وأن الملحمة - على الصورة التى نعرفها - كانت فى القرنين التاسع والعاشر نوعا من الأغانى والقصص الشعرية، حتى كان عصر الحروب الصليبية، وعندئذ ظهرت مجموعة من الكتاب. جمعت هذه القصص والأغانى وحولتها إلى ملاحم مترابطة. على أنه ثبت خطأ هذا الرأى، واتضح أن ملاحم أوربا العصور الوسطى جاءت عملا ابتكاريا مبتدعا، وليست تحويرا أوجمعا لإنتاج سابق. وهذه الحقيقة على جانب عظيم من الأهمية، لأنها تثبت لنا أنه عند حلول القرن الثانى عشر، كانت اللغات الوطنية المحلية قد بلغت درجة من النضج سمحت لها بالتعبير عن المعارف والمشاعر - من حب وكراهية وخوف وأمل ويأس - فى صورة قصص امتاز بالحيوية والخصب(٨٨).

وأكبر مجموعة من شعر الملاحم فى العصور الوسطى هى المجموعة التى أنتجتها فرنسا، والتى تمتاز بأهميتها البالغة للمؤرخ والأيب واللغوى، ذلك أن هذه المجموعة تعتبر خير مرآة انعكست فيها صور المجتمع الاقطاعى وحياة الفرسان والمجتمع الدينى. وكان شارلمان أهم شخصية اتخذتها أشعار الملاحم موضوعا لها، فاحتل مكانة بارزة فى أغانى المآثر Chansons de geste التى دونت باللغة الوطنية، والتى أخذت

(87) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 837 & Thompson: op. cit., vol. 2, p. p. 811 - 812.

(88) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 243 - 244.

تنتشر انتشار واسعا فى عصر الحروب الصليبية(٨٩). وفى ذلك العصر بالذات ظهرت فى الأدب الشعبى الأسطورة القائلة بزيارة شارلمان لبيت المقدس، وهى زيارة صورتها الأسطورة فى قالب سلمى(٩٠). أما أغنية رولان Chanson de Roland فقد ظهرت لأول مرة على عصر الحملة الصليبية الأولى، وأظهرت شارلمان فى ثوب الصليبى الذى قام بحرب دينية مقدسة ضد مسلمى الأندلس(٩١). وقد دونت أغنية رولان باللغة الفرنسية الناشئة فى أسلوب جميل يجمع بين البلاغة وقوة التأثير، مما مكن رجال الدين من استغلالها فى الدعوة للحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر(٩٢).

ويبدو أن كثيرا من أغانى المآثر كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى كومبوستلا وروما وفلسطين؛ كما يبدو أن نسبة كبيرة من هذه الأغانى كتبها بعض رجال الدين، وبعبارة أخرى فإن هذه الأغانى كانت نوعا من الدعاية الدينية فى العصور الوسطى، اتخذت شكل ملاحم(٩٣).

وهناك مجموعة أخرى من أشعار الملاحم المنظومة باللغات الوطنية الناشئة، تحتل مكانة خاصة فى الأدب الأوربى الوسيط، هى المعروفة بأشعار الملك آرثر. وقد ظهرت هذه الأشعار حوالى سنة ١٢٠٠، مما جعلها تصور المجتمع الإقطاعى بعد أن هذبته آداب الفروسية وتقاليدها(٩٤). وتبدو الفروسية فى هذه الأشعار أقرب إلى أن تكون وظيفة مقدسة تباركها الكنيسة، إذ يحتفل بزفع الفرد إلى مرتبة الفروسية وتدشينه دينيا، فيقضى الليلة السابقة لتدشينه بجوار مذبح الكنيسة لتطهير نفسه مما علق بها من آثام، ثم يغتسل بماء طهور وفقا للطقوس الدينية، وأخيرا تنتهى هذه الإجراءات الدينية بالصلاة من أجل العذراء. وهكذا صارت هذه المجموعة الشعرية

---

(89) Taylor: op. cit., vol. 1, p. p. 574 - 575.

(90) Lanson: Hist. de la Litterature Française, p. p. 23 - 25.

(91) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p. 816 - 817.

(92) Paris: Litterature Française , p. 71.

(93) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 211 - 216.

(94) Linson: Hist. de la Litterature Française, p. 86.

من روايات الملك آرثر مصدرا لمزيد من القصص الخيالى الذى انتشر فى كثير من بلدان أوربا العصور الوسطى[٩٥].

وأخيرا نلاحظ أن جميع بلدان الغرب الأوربى شهدت منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية جماعة من الرواة والمنشدين والحواة والمشعوذين، اختلفت ألسنتهم وتباينت تسمايتهم[٩٦]. ولكن جمعت بينهم حرفتهم إذ دأبوا يتنقلون بين الضياع والحصون والأديرة والأسواق وطرق الحجاج، ليتعيشوا من انشاد أغانيهم الشعبية وعرض ألعابهم[٩٧]. وقد شابهت هذه الفئة من الناس المنبوذين أو الغجر؛ حتى أنهم عرفوا بسوء الخلق وانحطاط المستوى الاجتماعى والخلقى. مما جعل الكنيسة فى العصور الوسطى تصدر عدة تشريعات ضدهم[٩٨]. كذلك شابه أولئك المنشدون الشعراء الجليارديين فى خفة روحهم وأغانيهم، مع الفارق الأساسى وهو أن شعر الجليارديين جاء لاتينيا، لأن معظم هؤلاء الشعراء كانوا من الطلبة الجائلين، والقساوسة الهاربين، أو الرهبان الشاردين، وكلهم يعرفون اللاتينية ويتغنون بها[٩٩].

التروبادور والشعر الغنائى:

وفى ختام كلامنا عن الشعر الغربى فى العصور الوسطى، يصح أن نشير إلى أن الشعر الغنائى المنظوم باللغات الوطنية ترجع نشأته الحقيقية إلى جنوب فرنسا، أو اقليم بروفنسال على وجه التحديد[١٠٠]. ومع أن هذا الشعر البروفنسالى يدين بقسط ما للشعر اللاتينى الذى عرفته العصور الوسطى، إلا أن البحوث الحديثة أثبتت تأثر الشعر البروفنسالى بالموشحات الأندلسية العربية، التى تمتاز بخفة أوزانها ورقتها وخيالها، فضلا عن موضوعاتها التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى[١٠١]. وقد عرف الشعراء الذين تغنوا بهذا النوع من الشعر البروفنسالى باسم «التروبادور»، وهو

---

(95) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 216 - 217.

(٩٦) أطلق على هؤلاء الرواة أسماء كثيرة عرفوا بها العصور الوسطى منها
mimi, gleemen, ministrels, historiones, jongleurs.

(97) Paris: Litterature Française, p.p. 80, 162.

(98) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 820.

(99) Waddell: The Wandering Scholars, p. p. 171 - 173.

(100) Lanson: Hist. de la Litterature Française, p. 86.

(101) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 216 - 217.

لفظ لا يستبعد أن يكون تحريفا لعبارة «طرب دور» ـ أى «دور طرب» بالعربية، مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الأوربية[١٠٢]. وأول من نعرفه من شعراد التروبادور هو وليم التاسع أمير أكوتين (١٠٨٧ – ١١٢٧)، وهو الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء. وسرعان ما تكاثر شعراء الترو بادور، وأخذوا يتجولون من مكان إلى آخر، وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى أشعاره على أنغامها[١٠٣]. وتحت رعاية خلفاء وليم التاسع، ترجم بعض الأدباء فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر قصيدة «فن الحب Arts Amatoria للشاعر اللاتينى أوفيد (٤٣ ق. م ـ ١٦م)، وهى القصيدة التى أصبحت بمثابة إنجيل شعراء التروبادور[١٠٤].

ولم يلبث ذلك الشعر البروفنسالى أو التروبادورى أن انتشر فى جميع أنحاء أوربا، مثل أغانى المآثر والملاحم وقصص الملك آرثر. وهنا أيضاً صار لذلك اللون من الشعر أثره الفعال فى رفع مستوى فرسان أوربا وتعليمهم أساليب التغنى بالغزل العفيف[١٠٥]. وقد اتضح بالبحث أن غزل الفروسية الذى انتشر بعد ذلك فى ألمانيا تأثر إلى درجة كبيرة بأشعار التروبادور التى نشأت فى جنوب فرنسا[١٠٦].

ويبدو أن المعاصرين وجدوا فى الأدب الوطنى المحلى مخرجا من سيطرة اللاهوت والعلوم المدرسية. حقيقة أن العنصر الدينى كان بارزا واسع الانتشار فى ذلك النوع أيضاً من الأدب الوطنى، ولكن هذا العنصر الدينى كان ممثلا فقط بالقدر الذى يناسب العلمانيين، لا رجال الكهنوت. وخير دليل على ذلك أن هذه الآداب الوطنية الناشئة حظيت برعاية الملوك والأمراء المعاصرين أمثال هنرى الثانى بإنجلترا[١٠٧]، وهنرى الأسد بسكسونيا، وأمراء شامبنى وغيرهم من الأمراء الذين زخر بلاطهم بالشعراء والمؤرخين. وكانت هذه الرعاية التى حظى بها الأدب والأدباء من الملوك والحكام شيئا جديدا على الحياة الأوربية فى العصور الوسطى، وظل أثرها قويا حتى

---

(١٠٢) انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام، الجزء الثالث.

(103) Paris: Litterature Française , p. 162.

(104) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 820.

(105) Lanson: Hist. de la Litterature Française, p. 87.

(106) Draper: A Hist, of Intellectual Development of Europe, vol. 2, p. p. 33 - 34.

(107) Stubbs: Seventeen Lectures on Med. and Mod. Hist., p. p. 137 - 143.

القرن الثامن عشر. أما فى القرن الثالث عشر فإن أبرز الحكام تشجيعا للأدب - فضلا عن العلم - كان الإمبراطور فردريك الثانى، الذى جمع حوله العلماء والأدباء، كما حضرت مجموعة من شعراء الترو بادور حفل تتويجه فى روما سنة ١٢٢٠ (١٠٨).

الشعر القصصى والتمثيلى:

وقد عرفت أوربا العصور الوسطى نوعا آخر من الشعر القصصى أطلق عليه اسم Fabliaux ، امتازت منظوماته بأنها قصيرة، تغلب عليها روح الفكاهة والبعد عن التكلف فى الأسلوب (١٠٩). وانتشر هذا النوع من الأشعار فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، ولكنه ظل دائما يعبر عن الذوق الشعبى والبورجوازى؛ بمعنى أنه كان يمثل أدب الأسواق والعامة، بعكس الحال مع أغانى المآثر والملاحم التى ظلت تمثل أدب الحصون الاقطاعية والأرستقراطية الحربية فى مجتمع العصور الوسطى(١١٠).

أما التمثيليات الدينية فى العصور الوسطى فقد ولدت داخل الكنيسة، واستمدت مسرحها وموضوعاتها ومناظرها وأسلوبها من وحى الكنيسة، وقام بأدوارها قسيسون ورهبان؛ وبذلك لم يبق إلا المشاهدون والمستمعون فقط الذين كانوا من العلمانيين. وقد أطلق على هذه التمثيليات اسم تمثيليات المعجزات. ويرجح معظم الباحثين أن هذا النوع من التمثيليات لم يكن له وجود فى العصور الوسطى قبل القرن الحادى عشر(١١١). ولما كانت هذه التمثيليات قد ظهرت فى وقت اشتد فيه ساعد اللغات الوطنية كالإيطالية والفرنسية والبروفنسالية والأسبانية، فإن هذه التمثيليات الدينية أخذت تعمل - عن طريق غير مباشر - على إدخال كثير من ألفاظ اللغات الوطنية فى لغة الكنيسة اللاتينية(١١٢). وسرعان ما تطور الأمر حتى أصبحت هذه التمثيليات تبدأ بافتتاحية لاتينية ثم تستأنف باللغة الوطنية السائدة، ثم صارت التمثيلية كلها تتم باللغة الوطنية. وأخيرا انتهى التطور بالإقلاع عن الموضوعات الدينية واختيار موضوعات

(108) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 324.

(109) Lanson: Hist. de la Litterature Française, p. p. 103 - 104.

(110) Paris: Litterature Française , p. p. 127 - 129.

(111) Haskins: The Renaissance , p. p. 170 - 174.

(112) Thompson: op. cit; vol. 2, p. p. 823 - 825.

دنيوية بحتة لتكون محورا لهذه التمثيليات، وبذلك انفصلت التمثيلية عن الكنيسة وغدت إنتاجا علمانيا دنيويا(١١٣).

إيطاليا ودانتى:

أما إيطاليا بالذات فلم تظهر فيها أية عبقرية أدبية مبتكرة فى العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر. حقيقة أن الإيطاليين شاركوا بقية شعوب أوربا العصور الوسطى فى إنتاجهم الأدبى ولكنهم لم ينتجوا قطعة أدبية ممتازة، ولم تتمخض قريحة أحدهم عن ملحمة خاصة يفخرون بها فى ذلك الشطر الأول من العصور الوسطى(١١٤). ويعلل بعض الباحثين هذا النضوب الأدبى فى إيطاليا بأن جهود الشعب الإيطالى انصرفت إلى ناحيتين من نواحى النزاع السياسى، أولاهما النزاع بين البابوية والإمبراطورية، والأخرى جهاد المدن اللمباردية فى سبيل استقلالها. ويبدو أن هذه الأحداث - التى كانت إيطاليا مسرحها الرئيسى - أعمت أنظار الإيطاليين عن الآداب والفنون واللاهوت، فى حين انصرف المبرزون إلى الدراسات القانونية والنشاط السياسى(١١٥). وكانت اللغة الإيطالية قد أخذت تنهض وتبرز شيئا فشيئا شأنها شأن بقية اللغات الوطنية الناشئة، حتى صارت قبل مولد دانتى صالحة للتعبير الأدبى شعرا ونثرا، لا سيما فى صقلية وجنوب إيطاليا، وقد حبا الإمبراطور فردريك الثانى هذه اللغة الناشئة بعطفه ورعايته، فجمع فى بلاطه جمعا من شعرائها(١١٦). وتستطيع هذه المجموعة من الشعراء الإيطاليين - التى بلغت نحو الثلاثين فى بلاط فردريك الثانى - أن تفخر بأمرين: أولهما أنهم كانوا أول من استعمل الإيطالية فى الكتابة، وثانيهما أنهم كانوا أول من ابتكر ذلك النوع من القصائد المعروفة باسم السونت (Son-net)(١١٧).

---

(113) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 408 - 412.

(114) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 818.

(115) Symonds: Italian Literature, p. 10.

(116) Foligno: Epochs of Italian Literature, p. 9 & Kantorowicz: op. cit., p. 235.

(١١٧) السونت نوع من القصائد يغلب عليها الطابع الغزلى، تنظم على هيئة مجموعات، تتألف القصيدة من ١٤ بيتا أو ١٢ بيتا حسب اختلاف العصور وتمتاز بوزنها الخاص الذى يتطلب ترتيب الأبيات وفق نظام خاص أيضًا، فالمجموعة المؤلفة من أربعة أبيات ينتهى البيت الأول منها بحرف A مثلا ثم البيتان الثانى والثالث بحرف B ثم الرابع بحرف A وهكذا.

ثم كان أن ظهرت على مسرح الأدب عبقرية فذة أنجبتها إيطاليا فى ختام العصور الوسطى. ونقصد بهذه العبقرية دانتى (١٢٧٥ - ١٣٢١) الذى كتب عدة أشعار شهيرة، أولها عن «الحياة الجديدة Vita Nuova»، التى استلهمها من حبه لسيدة اسمها (Béatrica ت ١٢٩٠) لم يستطع أن يتزوج منها ولم تخاطبه سوى مرة واحدة، ولكن حبها ظل عالقا فى قلبه(١١٨). كذلك كتب دانتى دفاعا عن اللغة الوطنية (De Vulgari eloquentia) ، وهو دفاع مكتوب باللاتينية ليتمكن المثقفون من قراءته، ذكر فيه اقتراحاته للنهوض باللغة الإيطالية الجديدة والتوحيد بين لهجاتها لتصبح أداة فعالة فى التعبير الأدبى(١١٩). أما رسالة دانتى عن الملكية -De Mon) (archia فكانت باللاتينية أيضا وتناولت طبيعة الدولة. على أن أبرز انتاج دانتى كان الكوميديا الالهية أو المقدسة. وهى أشبه بدائرة معارف نظمها بالإيطالية، وتخيل فيها رحلة إلى العالم الآخر، فى أسلوب يمتاز بالروعة وجمال التصوير. ولا تقتصر أهمية هذه الكوميديا على أنها أول إنتاج كامل ضخم بالإيطالية الصحيحة فحسب، بل ترجع أهميتها أيضاً إلى الآراء القوية الجريئة والمعانى العميقة التى عبر عنها دانتى فى انتاجه(١٢٠).

---

(118) Pirenne, Cohen, Focillon, p. 338.

(119) Foligno: Epochs of Italian Literature, p. 10 .

(120) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 336 - 351.

الباب العاشر

الفنـــون

تشمل الفنون بمعناها الواسع كل ما تمخضت عنه العبقرية البشرية من إنتاج فكرى ويدوى، فالجراحة فن، والشعر فن والموسيقى فن... ولكن من الممكن أن يتحدد أفق هذا الاصطلاح ليقتصر على ما يتفتق عنه العقل البشرى من إنتاج راق يجمع بين قوة الابتكار وجمال الذوق من ناحية، والمهارة اليدوية من ناحية أخرى. وفى هذه الحالة تضيق دائرة الفنون لتقتصر على العمارة والتصوير والنحت - وهى المجموعة التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى؛ ثم المصنوعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقرية راقية وخيالا واسعا - وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الصغرى[١].

وأول ما نلاحظة على فنون أوربا العصور الوسطى هو أنها كانت تعبيرا روحيا، بحيث جاءت هذه الفنون مرآة صادقة انعكست فيها الحماسة للدين وتعاليم الكنيسة. لذلك لانكون مبالغين إذا قلنا أن كل ما اشتمل عليه الفن الأوربى فى العصور الوسطى من رمزية وجمال ومثالية، إنما استهدف غاية واحدة هى إرضاء الشعور الدينى. وهكذا جاء هذا الفن آية صادقة عبرت تعبيرا أمينا عن أثر العقيدة المسيحية وعصور الإيمان ، وهى العصور التى امتازت بسمو الوازع الدينى والباعث الروحى على غيرها من قيم الحياة[٢].

على أن المتتبع لتاريخ الفنون يلمس ثلاثة عوامل قوية تؤثر دائما فى الطابع الفنى، وتكيف هذا الطابع تكييفا خاصا. أما هذه العوامل فهى : تقاليد الشعب وتراثه العنصرى، وظروف البيئة التى نبت فيها الفن والتى تتحكم فى صياغته وتشكيله، ثم عامل الزمن والتطور[٣]. وبتأثير هذه العوامل فى الفن الأوربى فى العصور الوسطى انقسم ذلك الفن إلى طرز وألوان مما أوجد فنا بيزنطيا وفنا رومانسكيا وفنا أيرلنديا وفنا قوطيا.. هذا وإن اتفقت هذه الطرز جميعها فى صدق تعبيرها عن البواعث الدينية الكنسية.

---

(1) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 828.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 419 - 420.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 539 - 540.

فن العمارة

كان عدد الكنائس - قبل أن يعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية - قليلا مستترا، مما لم يترك مجالا واسعا للتعبير عن الفن المسيحى. لذلك لم يظهر الفن المسيحى فى تلك المرحلة من فجر العصور الوسطى إلا فى المقابر ذات القباب؛ وهى المقابر التى شيدت من الأجر، وكسيت جدرانها من الداخل بطبقة من الطلاء، سجلت عليها تصاوير استمدت موضوعاتها من القصص الدينية وصور القديسين(٤)، فضلا عن بعض الإشارات والرموز الدينية مثل الصليب والسمكة والمصباح والنخلة(٥)... أما اجتماعات المسيحيين فى تلك المرحلة فمن المرجح أنها كانت تتم فى بعض الدور الخاصة أو فى بعض المعابد الوثنية، لأنهم لم يجرؤا على اقامة كنائس خاصة بهم. على أن صدور مرسوم ميلان سنة ٣١٣، وما أعقبه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا، أدى إلى مولد فن جديد مثلما أدى إلى ظهور أدب جديد. وكان مولد هذا الفن فى القرون الرابع والخامس والسادس(٦).

والواقع أن المسيحية ألفت نفسها - عند اعتراف قسطنطين بها - فى حاجة إلى مبان عامة تتخذ مراكز علنية للديانة الجديدة وإحياء طقوسها الروحية. وهنا لم يكن أمام المسيحيين سوى أحد طريقين: إما الحصول على مبان قديمة من معابد الوثنية المتداعية - عن طريق الهبة أو الشراء - لتحويلها إلى كنائس، وإما تشييد مبان جديدة لهذا الغرض. ولم يكن منتظرا أن تمتاز هذه المبانى الكنسية الأولى بروح الابتكار والتجديد، لذلك جاءت تقليدا وتطبيقا للطرز المعمارية السائدة حينئذ(٧). والواقع أنه يمكن تقسيم الكنائس فى عصور المسيحية الأولى إلى قسمين، وذلك من حيث تصميمها: الأول يشمل الكنائس ذات التصميم المركزى الدائرى، والثانى يشمل الكنائس المستطيلة الشكل أو البازيليكا (Basilica). ويبدو أن هذا التقسيم يرجع إلى ظروف التقاليد والتراث من ناحية، والبيئة من ناحية أخرى، لأن النوع الأول من الكنائس كان شرقيا يونانيا، فى حين كان النوع الثانى غربيا رومانيا(٨). على أن هذا

(4) Cam. Med. Hist., vol. 1, p. 509.

(5) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p.p. 255 - 260

(6) Simpson: A Hist. of Architectural Development, vol. 1, p. 163.

(7) Morey: Med. Art, p. 21.

(8) Lethaby: Med. Art, p. p. 12 - 13.

التقسيم الفنى بين الشرق والغرب لم يكن فاصلا ودقيقا، إذ وجدت فى بعض بلاد الشرق البيزنطى كنائس على الطراز البازيليكي، فى حين لاتزال إيطاليا بوجه خاص تحتفظ ببعض كنائس دائرية التصميم[9]: هذا وإن كان المهندسون الرومان قد لجئوا إلى تمييز هذه المبانى الشرقية الأخيرة بعمل قباب لها. ومهما يكن الأمر، فإن الكنائس المستديرة ـ ذات القباب أو بدونها ـ صارت نواة فن العمارة البيزنطى، فى حين صارت المبانى المستطيلة البازيليكية عماد فن بناء الكنائس والكتدرائيات فى الغرب[10].

فن العمارة البيزنطى:

أما الطراز البيزنطى فى بناء الكنائس فقد أخذ فى أول الأمر عن النمطين اليونانى والرومانى، ثم تأثر بعد ذلك بالفنون الشرقية التى وجدت فى آسيا الصغرى وفارس. وتمتاز الكنائس البيزنطية بأنها مربعة الشكل، بخلاف الكنائس البازيليكية المستطيلة. كما تمتاز بالقباب نصف الدائرية التى تعتبر من أهم مميزات الطراز البيزنطى[11]. على أنه إذا كان إيوان الكنيسة البيزنطية مربع الشكل، إلا أنه روعى أن يكون لذلك المربع ذراعان جانبيان قصيران ليتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة صليب. أما عقود الكنيسة البيزنطية فكانت مقوسة وعلى هيئة نعل الفرس. فهو يبدو أنه كان من الصعب الحصول على الأحجار اللازمة لبناء الكنائس فى القسطنطينية، بدليل أن معظم الكنائس البيزنطية شيدت من الآجر، ثم كسيت جدرانها من الداخل بأعمال الفسيفساء والرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والعذراء والمسيح[12]. أما أعمدة الكنائس البيزنطية فقد أخذت أشكالها عن الطراز الرومانى، مع تجديد هيئة أما تجديد هيئة تيجانها بحيث صارت فى معظمها مستمدة من أشكال الوحدات الهندسية والنباتية والحيوانية، مثل الصلبان وأوراق الأشجار والطيور وغيرها. والواقع أن زخرفة الكنائس فى الشرق البيزنطى بلغت درجة أرقى كثيرا مما كانت عليه فى الغرب، وظل الأمر على ذلك حتى ظهور الفن الرومانسكي فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر[13].

(9) Cam. Med.Hist., vol. 3, p. 542.

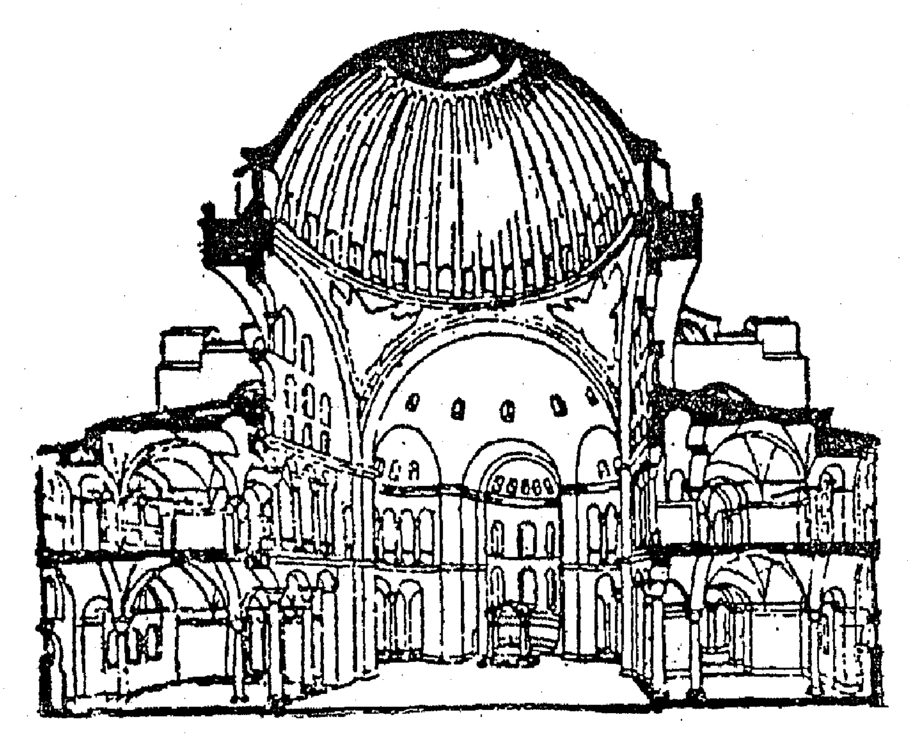
(10) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 830.

(11) Simpson: A Hist. of Architectural Development, vol. 1, p. 214.

(12) Morey: Med. Art, p. 96.

(13) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 832.

وتعتبر كنيسة أياصوفيا ـ التى تم بناؤها على عهد جستنيان سنة ٥٣٧ ـ أعظم نموذج للكنائس البيزنطية. وهذه الكنيسة مشيدة من الآجر، وخط مسقطها الأفقى على هيئة صليب يونانى متساوى الأذرع تقريبا، إذ يبلغ طول أحدهما ثمانين مترا والآخر خمسة وسبعين مترا(١٤). وعند تقاطع الذراعين توجد قبة يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض ستين مترا تقريبا. ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة مرصوصة وفق نظام هندسى بديع، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة(١٥). على أنه إذا كانت جدران الكنيسة مشيدة من الآجر، إلا أنها مغطاة من الداخل بالرخام والفسيفساء المتعددة الألوان، كما امتاز داخل الكنيسة بالأعمدة الكثيرة والنقوش الجميلة. وقد أعيد بناء قبة هذه الكنيسة بعد أن دمرها زلزال سنة ٥٥٨، وظلت قائمة حتى فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فحولوها إلى مسجد ، وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن، كما أدخلوا عليها بعض التعديلات لتناسب الوضع الجديد(١٦). وظلت كذلك حتى حولها كمال أتاتورك إلى متحف ، وجردها من صفاتها الدينية. والواقع أن



مسقط رأسى فى كنيسة أياصوفيا

(14) Cam. Med.Hist., vol. 6, p.p. 543 - 546.

(15) Lethaby: Med. Art, p. 34.

(16) Stephenson: Med. Hist., p. 124.

كنيسة آياصوفيا تعتبر بفنها الرائع وجمال هندستها وزخارفها إحدى العجائب؛ مما جعل الروس - عقب انتشار المسيحية في بلادهم - يحاولون محاكاتها، فشيدو كنيسة في كييف على نمطها.

الكنائس البازيليكية:

وسواء كانت البازيليكا المسيحية ترجع في أصلها وتصميمها إلى القاعات الرومانية القديمة التي استعملها الرومان دورا للقضاء، أوترجع إلى بيوت الرومان الخاصة التي تقاربها في التصميم، فإن المهم هو أن اتخاذ البازيليكا دارا للعبادة المسيحية ترتب عليه إدخال بعض تعديلات معمارية هامة عليها. وهكذا غدت الكنيسة البازيليكية تتكون من إيوان (أ) مستطيل (Nave) على جانبيه جناحان (ب) موازيان له (Aisles) ، يفصل كل منهما عن الإيوان الأوسط صف أو صفان من العمد، مع مراعاة أن يكون سقف هذين الجناحين أقل ارتفاعا من سقف الإيوان الأوسط، وقد أتاح ارتفاع الإيوان عن الجناحين الجانبين فرصة عمل صفين من النوافذ في أعلى جانبيه ينفذ منهما الضوء إلى الإيوان، في حين تظل الأجنحة الجانبية ضعيفة الإضاءة[١٧]. وإذا كانت الكنيسة البازيليكية على هيئة مستطيل، فإنه روعي أن يكون الضلعان القصيران لهذا المستطيل جهتي الشرق والغرب؛ على أن يبرز الضلع الشرقي إلى الجانبين قليلا ليكون بمثابة جناح عرضي (Transept) خاص بالقساوسة، وبذلك يتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة حرف (T) وبوسط هذا الجناح العرضي توجد حنية الكنيسة أو محرابها (ج) (Apse) على شكل نصف دائرة. أما الضلع الآخر الغربي المواجه للضلع الشرقي فكان به باب الكنيسة (د). وكان كرسي الأسقف يوضع في حنية الكنيسة وعلى جانبيه مقاعد آباء الكنيسة ورجالها[١٨]. وفي الجزء الواقع بين مكان الأسقف وجمهور المصلين في الإيوان يوجد المذبح الذي كان يشيد في العادة فوق قبر القديس أوالشهيد الذي شيدت الكنيسة باسمه.

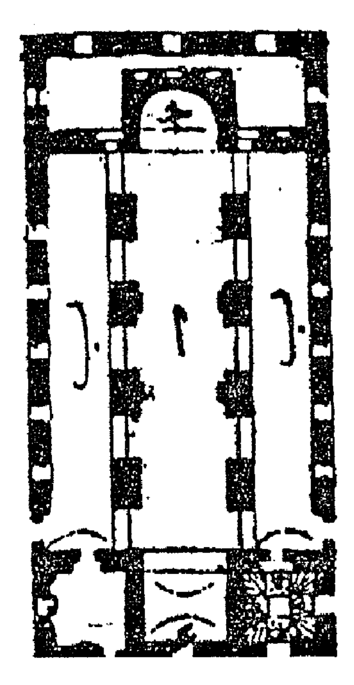
هذا ويلاحظ أن سقف الكنيسة البازيليكية كان يصنع عادة من الخشب المموه بالذهب، في حين كسيت أرضيتها بالرخام المقسم إلى أشكال هندسية[١٩].

---

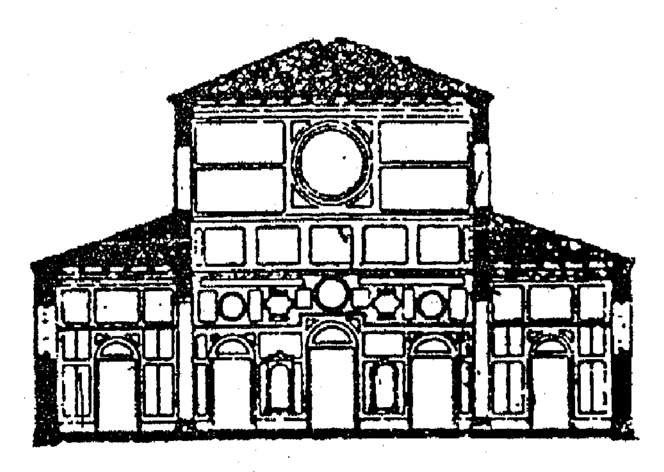
(17) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 261 - 262.

(18) Simpson: op. cit, vol. 1, p. p. 175 - 178.

(19) Briggs: Architecture, p. p. 52 - 53.



قطاع رأسى فى كنيسة بازيليكية



فن العمارة فى الغرب فى العصور المظلمة (٥٠٠ - ١٠٠٠) :

لا توجد لدينا معلومات كافية عن أحوال الكنائس فى غرب أوربا قبل عصر شارلمان، اللهم سوى ما ذكره بعض المؤرخين - مثل جريجورى التورى - من إشارات عابرة، ثم كان أن ظهرت النهضة الكارولنجية التى تبناها شارلمان والتى امتدت حتى شملت الفنون. والحق أن شارلمان كان بنّاء كبيرا ، فبنى كثيرا من الكنائس، وتعهد القديم منها بالإصلاح؛ كما اهتم بزخرفة قصوره المفضلة، لا سيما تلك القائمة فى آخن (اكس لا شابل) وانجلهايم. وقد استعان شارلمان فى هذه النهضة الفنية ببعض الفنانين الإنجليز والايرلنديين، مما أدى إلى انتقال كثير من المؤثرات الفنية من إنجلترا

وإيرلندا إلى الدولة الكارولنجية، لا سيما فيما يتعلق بالزخرفة بوجه عام وزخرفة الكتب والمجلدات بوجه خاص. هذا إلى أن غزو شارلمان لشمال إيطاليا ترتب عليه انتقال المؤثرات الفنية البيزنطية هى الأخرى إلى غرب أوربا عن طريق إيطاليا، وهكذا جاء قصر آخن الذى شيده شارلمان تحفة فنية ، بأعمدته الرخامية التى جلبها من رافنا، فى حين امتازت الكتدرائية التى بناها شارلمان بجوار قصره السابق بأبوابها البرونزية التى أبدع الفنانون الإيطاليون فى زخرفتها. وهنا نلاحظ أن هذه النهضة الفنية التى تبناها شارلمان كانت رومانية فى طابعها العام مع ظهور بعض المؤثرات الشرقية والبيزنطية. أما الأثر الجرمانى فكان ضعيفا وغير واضح.

وعلى الرغم من أن الفن الغربى مستمد أساسا من إيطاليا، إلا أن الحياة الفنية فى غرب أوربا نشطت فى القرنين التاسع والعاشر فى المناطق الواقعة شمالى الألب، أكثر منها فى إيطاليا نفسها(٢٠). وقد وجد من البابوات فى هذين القرنين ـ مثل ليو الثالث ـ من أظهروا اهتماما كبيرا ببناء الكنائس؛ ولكن تأخر هندسة العمارة حال دون القيام بمشروعات معمارية ضخمة. وكانت المواد الخام اللازمة لبناء هذه الكنائس ـ مثل الأحجار والأعمدة الرخامية ـ تنتزع غالبا من الآثار الرومانية الوثنية القديمة التى كان بعضها فى روما نفسها، مما عاد بخسارة فادحة على علمى التاريخ والآثار(٢١). ولكن يلاحظ أن الدمار الذى تعرض له غرب أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية والاغارات التى قام بها الفيكنج والمجريون، أدت إلى تدمير كثير من مظاهر النهضة الكارولنجية وآثارها الفنية، بحيث لم يبق منها سوى القليل فى ألمانيا فى القرن العاشر(٢٢).

ثم كان أن أخذت الأوضاع تستقر فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر، وهو القرن الذى امتاز بمولد حركة إحياء الدراسات الإنسانية وحركة الإصلاح الديرى وازدياد النشاط الدينى، مما تمثل فى الإقبال على الحج وزيارة الأماكن المقدسة، فضلا عن الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فى المشرق . ولما كانت

(20) Cam. Med.Hist., vol. 3, p.p. 553 - 555.

(21) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 837.

(22) Morey: Med. Art, p. p. 207 - 214.

العلاقة قوية دائما بين الحياة الفنية من جهة والتيارات الاجتماعية والدينية من جهة أخرى، فإن ذلك القرن لم يكن أقل بروزا فى ميدان الفن فى أوربا العصور الوسطى(٢٣).

والواقع أن الحاجة أضحت ماسة إلى كنائس قوية متينة كبيرة بعد أن اتضح أن الكنائس البازيليكية ذات الأسقف الخشبية سريعة الفناء ومعرضة للاحتراق بين حين وآخر، لذلك أدت الحماسة الدينية التى ظهرت فى القرن الحادى عشر من ناحية، وتوافر الإمكانات والاستقرار من ناحية أخرى، إلى ابتكار طراز جديد، يعبر عنه باسم «الفن الرومانسكى»؛ ويمكن وصفه بأنه فن رومانى مسيحى(٢٤).

الطراز الرومانسكى:

ظهر الفن الرومانسكى نتيجة لتداخل عوامل مختلفة - شرقية بيزنطية، وبربرية جرمانية ودينية كنسية - فضلا عن الأساس الرومانى الغربى(٢٥). وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد مولد الطراز الرومانسكى فى أوربا. إلا أن عمر هذا الطراز تفاوت باختلاف البلاد الأوربية، فأخذ يختفى من إيطاليا فى بداية القرن الثالث عشر، واستمر فى ألمانيا حتى نهاية القرن، فى حين بدأ ينكمش فى فرنسا منذ منتصف القرن الثانى عشر. أما فى إنجلترا فقد أدخله النورمان عند غزوهم لها فى القرن الحادى عشر، واستمر سائدا فيها حتى حل محله الفن القوطى فى القرن الثالث عشر(٢٦). وكذلك فى أسبانيا أدخله الفرنسيون فى القرن الثانى عشر وظل قائما حتى حل محله الفن القوطى فى القرن التالى.

وأهم ما فى البناء الرومانسكى أنه أحل الأحجار محل الأخشاب فى عمل الأسقف، مما استلزم تقوية جدران الكنيسة عن طريق مضاعفة سمكها، الأمر الذى تعذر معه إيجاد فتحات كثيرة فى الجدران بسبب سمكها من ناحية وحتى لاتضعف

---

(23) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 460 - 462.

(24) Cam. Med.Hist., vol. 3, p. 556.

(25) Cam. Med.Hist., vol. 3, p.p. 553 - 557.

(26) Briggs: op. cit., p.p. 69 - 70.

عن حمل السقف من ناحية أخرى(٢٧) . وفيما عدا هذه الخصائص، فإن من الصعب إعطاء وصف جامع للعمارة الرومانسكية، نظرا لاختلاف هذا الطراز من بلد إلى آخر فى الخصائص، مما يجعل موضوع دراسة الفن الرومانسكي بصورة صحيحة أمرا يتطلب دراسة خاصة بكل بلد من بلدان الغرب الأوربى(٢٨) .

ومع ذلك، فإنه يمكن وصف الكنيسة الرومانسكية بوجه عام بأن داخلها كان أقل اتساعا وجدرانها أقل ارتفاعا من الكنيسة البازيليكية التى عرفت فى أوائل العصر المسيحى. وقد احتفظت الكنيسة الرومانسكية بتقسيمها الداخلى إلى إيوان وجناحين موازين له. ولكن هذه الأجنحة الجانبية كانت دائما أضيق عرضا من إيوان الكنيسة الأوسط. أما عن مواد البناء فقد استخدمت فى الكنيسة الرومانسكية الأخشاب والآجر والحجارة، وإن كانت الأخيرة أكثرها شيوعا(٢٩) . وإذا كانت الكنيسة البازيليكية فى العصر السابق قد اتخذت شكل حرف (T) كما سبق أن أشرنا - فإن الكنيسة الرومانسكية حولت هذا الشكل إلى هيئة صليب. ويبدو أن الحاجة العملية هى التى دفعت إلى اتخاذ هذا الشكل الجديد، وذلك لبناء غرفة أضافية تمثل رأس الصليب، ويتخذها القساوسة لاستعمالهم الخاص. ولم يلبث هذا التغيير أن أدى إلى تطور آخر، هو أنشاء خورس أو مكان خاص بجوقة المرنمين (Choir) أمام حنية الكنيسة، يفصله عن بقية الإيوان حاجز قليل الارتفاع وبجواره منبر لتلاوة الكتاب المقدس ورسائل الرسل(٣٠) . أما الأبراج التى كانت فى الكنيسة البازيليكية مبانى منفصلة عن صلب الكنيسة، فقد غدت فى البناء الرومانسكى جزءا أساسيا من مبنى الكنيسة الرئيسى، هذا فى الوقت الذى تحولت هذه الأبراج من الشكل المستدير إلى الشكل المربع(٣١) .

كذلك روعى فى تصميم الكنيسة الرومانسكية أن يكون الجزء الأوسط من المبنى الذى يمثل إيوان الكنيسة أكثر ارتفاعا، ليسمح بدخول قدر كاف من الضوء، زيادة على الضوء الذى يدخل عن طريق النوافذ المقامة على امتداد الأجنحة الجانبية. أما الأسقف فى الطراز الرومانسكى فهى منحنية، نصف أسطوانية، ومكونة من كتل

(27) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p.p. 294 - 295.

(28) Idem: p. p. 296 - 307.

(29) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 468.

(30) Cam. Med.Hist., vol. 3, p. 563.

(31) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 841.

حجرية صغيرة. والمعروف أن الأسقف المسطحة لا تلقى وزنا ثقيلا على الجدران الجانبية، بعكس الأسقف المنحدرة والأسطوانية التى تسبب ضغطا شديدا على الجدران، الأمر الذى استدعى إقامة أعمدة مربعة على الجوانب لتتحمل ضغط السقف، كما روعى عدم الإكثار من النوافذ الجانبية فى الجدران حتى لا تضعف هذه الجدران عن حمل السقف(٣٢).

ويبدو أن أقامة القباب والأقواس كانت أعظم مشكلة واجهت المهندسين المعماريين فى العصور الوسطى. ذلك أن الغرض الأول من إقامة هذه الأقواس لم يكن مجرد الزينة والزخرفة وإكساب المبنى شيئا من الجمال والرونق - كما قد يتصور البعض - وإنما أقيم القوس فى المبنى ليحل أشكالا ويقوم بوظيفة هندسية خاصة، يتوقف عليها فهم طبيعة العمارة الرومانسكية ثم القوطية من بعدها(٣٣). فالسقف المقوس أو المدبب يمثل خيرة أنواع الأسقف نظرا لتعرض السقف المسطح للتلف نتيجة لتراكم الأمطار عليه. ولما كانت هندسة العمارة لم تتقدم فى أوائل العصور الوسطى بالدرجة التى تمكن من عمل أسقف من الحجارة، فإن هذه الأسقف كانت تصنع وقتئذ من الخشب على شكل منحدر. على أن هذا الاتجاه الذى قصد به تلافى ضرر مياه الأمطار، عرض كثيرا من الكنائس - قبل ظهور الطراز الرومانسكى - للحريق والانهيار(٣٤). وظل الأمر على ذلك حتى استعان المهندسون - فى الطراز الرومانسكى - بالأقواس فى حل الأشكال، وبناء أسقف غير مسطحة من الحجارة(٣٥). وهكذا كانت إقامة سقف الكنيسة على شكل أقواس نصف أسطوانية تحملها أعمدة هى الغاية التى عمل المهندسون طويلا فى سبيل الوصول إليها. فلما توصلوا إليها أدت إلى تغيير الطابع العام لهندسة الكنائس، وأصبحت العمارة فنا وعلما يقوم على قواعد رياضية

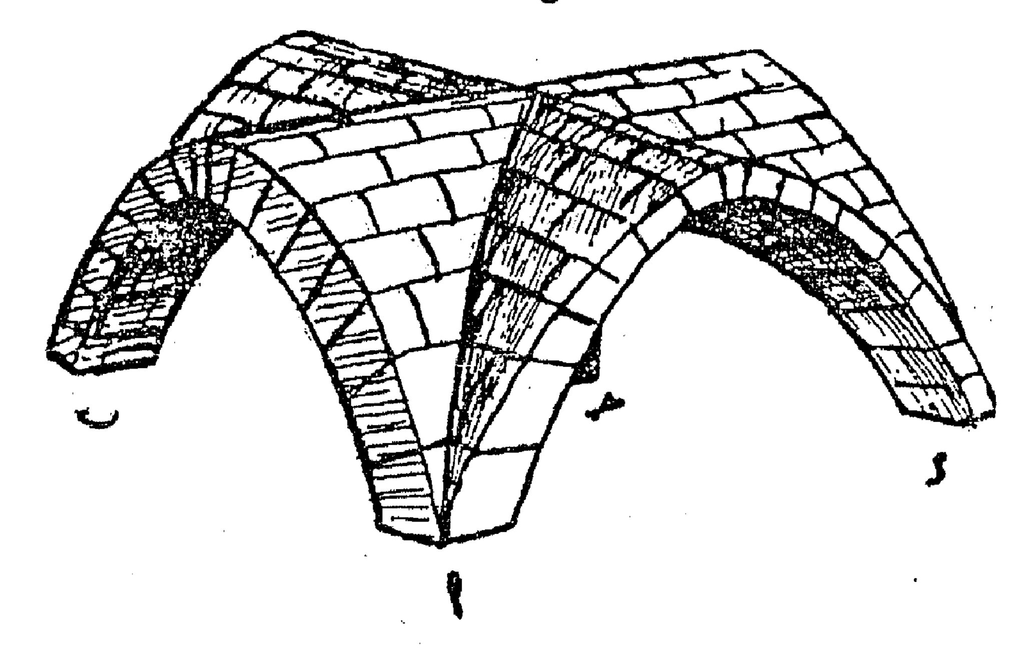
(32) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p.p. 294 - 295.

(33) Morey: Med. Art, p. p. 261 - 263.

(٣٤) احترقت كنيسة انجرز Angers سنة ١٠٠٠ ثم سنة ١٠٣٢، وكنيسة أوكسر سنة ١٠٢٥ ثم سنة ١٠٦٥، وكنيسة بوفيه سنة ٩٢٣ ثم سنة ١٠١٨، وكامبراى سنة ١٠٢٧، وشالون على المارن سنة ٩٣١ ثم سنة ٩٦٣، وشارتر سنة ٩٦٢ ثم سنة ١٠١٩ ثم سنة ١١٩٤، وليمان سنة ١٠٩٩، وبواتيه سنة ١٠١٨، وروان سنة ١٠١٩، وستراسبورج سنة ١٠٠٢، وتورز سنة ١٠٢٧ فى حين احترقت كنيسة فردون ثلاث مرات.

(35) Lethaby: Med. Art, p. p. 221 - 263.

دقيقة[٣٦]. أما النظرية التى قامت عليها أقامة السقف على أقواس فتتلخص فى تقسيم مساحة سقف المبنى إلى مربعات، كل مربع منها يتألف من منحنيين متقاطعين تقاطعا عموديا بحيث يقع ثقلهما على الأعمدة عند زوايا المربع (أ، ب، جـ، د). وهكذا يخرج الشكل النهائى على هيئة أربعة أقواس (أ ب، ب ج، جـ د، د أ)، تستطيع أن تحمل فوقها سقفا تساوى مساحته المربع المحصور بين الأعمدة الأربعة[٣٧].



رسم تخطيطى يوضح أقامة السقف الحجرى على شكل أقواس تحملها عمد

ولسنا فى حاجة بعد ذلك إلى القول بأن العمارة الرومانسكية أحدثت ثورة فى فن بناء الكنائس، إذ ترتب عليها قيام نوع جديد من الطرز المعمارية حل محل الكنائس البازيليكية القديمة. وأشهر كنائس الطراز الرومانسكى فى إيطاليا كنيسة بيزا التى افتتحت سنة ١١١٨ والتى اشتهرت ببرجها المائل، وواجتها المقنطرة وفخامتها من الداخل [٣٨]. أما ألمانيا فكانت البلد الذى بلغت فيه الكنائس الرومانسكية أقصى درجات الكمال، كما يتضح ذلك من كتدرائية بامبرج Bamberg التى أقامها الإمبراطور هنرى الثانى (١٠٠٢ – ١٠٢٤)، وكتدرائية سبير Speyer التى شيدها الامبراطور

(36) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 842.

(37) Stephenson: Med. Hist., p. 374.

(38) Morey: Med. Art, p. 222.

هنرى الرابع (١٠٩٣ -١١٠٥) ولعل أهم ما أمتاز به هذا الطراز من الكنائس الألمانية هو أنه صمم غالبا بحيث يكون للكنيسة محرابان أحدهما شرقى والأخر غربى، وبذلك أصبح باب الكنيسة فى أحد الجانبين الشمالى أو الجنوبى. هذا بالإضافة إلى أقامة مجموعة من ثلاثة ابراج عند كل طرف من أطراف مبنى الكنيسة(٣٩). أما كنائس فرنسا الرومانسكية فقد احتفظت بمبدأ المحراب الواحد، مع توسيع ذلك المحراب بإضافة بعض ملحقات إليه(٤٠).

على أن عظمة الفن الرومانسكى لم تبد فى الجانب المعمارى فحسب، بل بدت واضحة أيضاً فى الزخارف الجميلة التى استخدمت فيها الفسيفساء والنقوش الجصية (Fresco) لتصوير بعض المناظر والرموز الدينية. كذلك حليت قواعد الأعمدة وتيجانها بأشكال تمثل الوحوش أو ورقة الأكنث، فى حين صنعت نوافذ الكنائس من الزجاج المعشق بالرصاص ليتيح قدرا كافيا من الضوء ينفذ إلى داخل الكنيسة(٤١).

أما عن المبانى غير الدينية فى ذلك العصر فلا نعرف عنها سوى النذر اليسير، لأن أعظم المبانى وأضخمها كانت دينية من جهة، ولأن الكتاب الذين وصفوا هذه المبانى كانوا من رجال الكنيسة من جهة أخرى. على أنه لايوجد لدينا من الأدلة ما يمنعنا من الاعتقاد بأن ملوك وأمراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر اعتنوا ببناء قصورهم وحصونهم الاقطاعية، وزخرفوها بأنواع الزخارف التى سادت حينذاك، وتدل بقايا الحصون التى ترجع إلى ذلك العصر على أنها كانت تزخرف من الداخل بالرسوم والزخارف الجصية، ومن الخارج بالتماثيل والنقوش الجميلة(٤٢).

الفن القوطى:

وإذا كان الطراز الرومانسكى قد نجح فى حل مشكلة الأسقف الجانبية عن طريق حملها على أعمدة وأقواس نصف دائرية، فإن مشكلة رفع سقف إيوان الكنيسة ظلت قائمة بدون حل، حتى توصل الطراز القوطى إلى حل لها فى نهاية القرن الثانى عشر

(39) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. 305.

(40) Lethaby: Med. Art, p. 97.

(41) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 843.

(42) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. 308.

عن طريق حملها على أكتاف معلقة(٤٣) . والواقع أن الفن القوطى يمثل مظهرا عظيما من مظاهر النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، كما يعبر عن الحماسة الدينية التى سادت أوربا فى ذلك العصر(٤٤) . ذلك أن انتعاش المدن وازدياد نشاطها الاقتصادى فى ذلك القـرن، وظهـور النقـابات التى عـملت على تحـسين مـسـتـوى الحـرف والصناعـات؛ أدى إلى جـعل هذه المدن مـسرحـا لنشـاط كـبـيـر تمـخض عن بناء كتدرائيات تجمع بين الجدة والعظمة والروعة(٤٥) .

ومن الواضح أن الفن القوطى نشأ عند نهاية القرن الثانى عشر لمداواة العيوب التى اتصف بها الفن الرومانسكى. ذلك أن طراز العمارة الأخير كانت به عدة عيوب أساسية، أهمها سمك الجدران وعدم مرونة الأقواس؛ وعدم استكمال تكوين القباب، وثقل الضـغط على الأعمـدة والدعائم الداخلية(٤٦) . هذا إلى أن سمك الجدران وعظم الثقل المطلوب منها حملة، حال دون شق نوافذ كافية فيها، مما جعل داخل الكنيسة الرومانسكية معتما تنقصه الإضاءة اللازمة. وهكذا ظهرت الحاجة إلى طراز جديد يتلافى العيوب السابقة بقدر الإمكان، حتى دفعت هذه الحاجة المهندسين إلى ابتكار الطراز القوطى. وفى هذا الطراز الجديد عمل المهندسون على تلافى العيوب السابقة، فأنشئوا الدعائم أو المساند المعلقة Flying buttresses وهى أكتاف تستند إلى الجدران بقصد إلقاء ثقل البناء على الجدران الخارجية بدلا من الأعمدة الداخلية(٤٧) . وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض لم يهمل المهندسون أمر العناية بجمال الكنيسة القوطية من الداخل والخارج، حتى جاءت الكتدرائية المشيدة وفق هذا الطراز آية فنية تعبر تعبيرا صادقا عن قوة العامل الروحى وأثره(٤٨) .

على أن أعظم ما امتاز به الطراز القوطى كان القوس المدبب، ويمتاز هذا القوس المدبب عن القوس نصف الدائرى بأن أى جزء من أجزائه لايمثل خطا أفقيا يخشى ألا يتحمل الثقل الذى يقع فوقه مما يؤدى بعد ذلك إلى انهيار القوس وما يحمله من

(43) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 525.

(44) Cam. Med.Hist., vol. 6, p. p. 771 - 772.

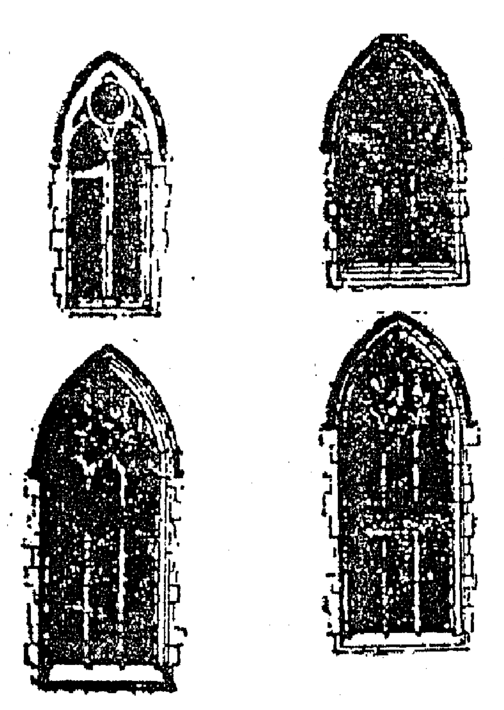
(45) Morey: Med, Hist. Art, p. 256.

(46) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 846.

(47) Lethaby: Med. Art, p. p. 116 - 119 & Cam. Med.Hist., vol. 1, p. 764.

(48) Bailey: The Art and Religion,p. p. 86 - 88.

بناء[٤٩] . فإذا كان القوس نصف دائرى لم يتوصل إلى حل النظرية المعروفة فى هندسة العمارة - وهى أن الضغط الجانبى للبناء يتناسب تناسبا مطردا مع ارتفاع البناء - فإن الحل جاء سهلا فى حالة الأقواس المدببة . وبعبارة أخرى فإن الطراز القوطى وجد حلا لهذه المشكلة عن طريق عمل الأقواس والعقود والحنيات المدببة، وهى التى يكون ثقلها على الجدران رأسيا؛ لا أفقيا كما هو الوضع فى حالة الأقواس نصف الدائرية التى عرفها الطراز الرومانسكى[٥٠] . وإذا كان السقف يعتمد على عقود مرتفعة مدببة، فإن هذا من شأنه أن يوجد حلا لمشكلة النوافذ والإضاءة، لأن السقف العالى المرتفع يتيح الفرصة لعمل نوافذ عالية طويلة؛ هذا فى الوقت الذى لا يخشى على الجدران الرقيقة من كثرة فتحات النوافذ فيها لأن هذه الجدران لا تتحمل سوى نسبة ضئيلة من ثقل البناء[٥١] .



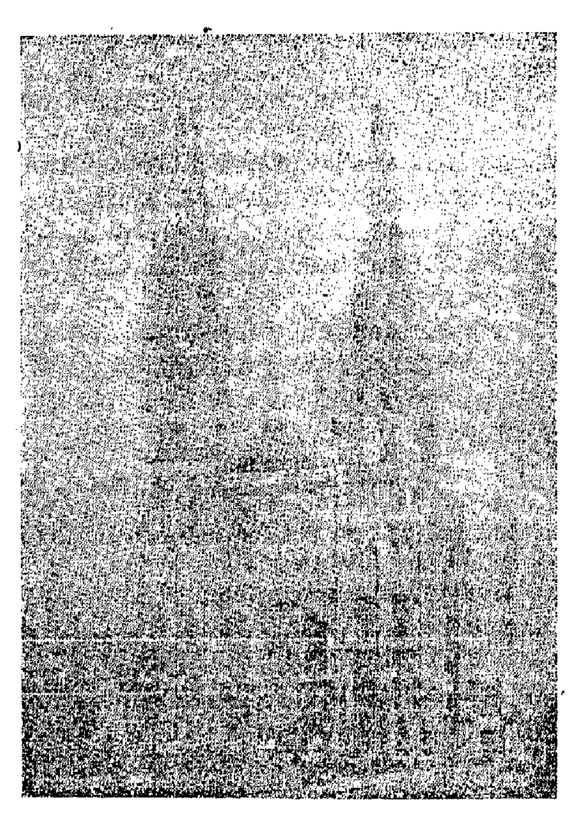
نماذج لنوافذ قوطية مدببة

(49) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 321 - 322.

(50) Briggs: op. cit., p. p. 91 - 92.

(51) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 529 - 531.

وهكذا يبدو - إذا قارنا بين كنيسة رومانسكية وأخرى قوطية - أن الأولى تبدو قليلة الارتفاع ثقيلة البناء، سميكة الجدران، فى حين تمتاز الأخرى بعظم ارتفاعها وخفة بنائها ورقة جدرانها(٥٢). وإذا كانت المساحة الداخلية للكنيسة الرومانسكية قليلة بالنسبة لسمك جدرانها وضخامة أعمدتها، فإن المساحة الداخلية للكنيسة القوطية تبدو فسيحة واسعة(٥٣). وبينما الكنيسة الرومانسكية تنقصها الإضاءة الكافية فى الداخل بسبب قلة النوافذ وصغر مساحتها، إذا بالكنيسة القوطية تمتاز بنوافذها العديدة المتراصة الطويلة، التى تسمح للضوء بالدخول بقدر كاف إلى إيوان الكنيسة؛ حتى عبر عن ذلك بعض الكتاب بقوله «أن الكتدرائية القوطية بناء سقفه من الحجر وجدرانه من الزجاج(٥٤)». هذا إلى أن الكنيسة الرومانسكية تتصف بعقودها نصف الدائرية وسقوفها نصف الإسطوانية، فى حين تمتاز القوطية بعقودها وأسقفها المدببة(٥٥).



واجهة كنيسة قوطية

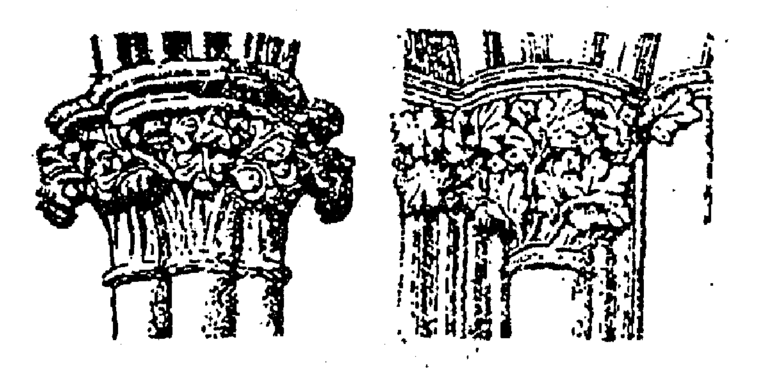
(52) Cam. Med.Hist., vol. 6, p. p. 764 - 765.

(53) Ibid.

(54) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 847.

(55) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 322 - 323.

أما الواجهات الخارجية للكنائس القوطية فأمتازت بالأبراج العالية ذات الأطراف المدببة والشرفات والكرانيش وصفوف النوافذ المتراصة، والتى لم يراع التناظر بينها فى كثير من الأحيان، وامتازت النوافذ القوطية بجمال أشكالها وزجاجها المزخرف المعشق بالرصاص، والذى كان يعبر فى كثير من الأحيان عن مناظر أو قصص دينية(٥٦) . كذلك حرص المهندسون على عمل نافذة مستديرة فى واجهة الكنيسة القوطية. وتنبعث من مركز هذه النافذة نحو محيطها خطوط مستقيمة تجعل النافذة تبدو كزهرة جميلة. أما داخل الكنيسة القوطية فكان مقسما إلى أقسام طولية، يفصلها بعضها عن بعض، صفوف من الأعمدة التى تستخدم فى حل السقف. واختلفت أشكال هذه الأعمدة، فكان منها ما هو عادى، ومنها ما هو لولبى، ومنها ما هو على هيئة مجموعة من الأعمدة الملتفة حول بعضها البعض وكذلك امتازت تيجان الأعمدة القوطية بأن أغلبها كان على شكل ناقوس منكس تكسوه بعض الزخارف المؤلفة من أوراق النبات وأغصان الشجر. أما القواعد السفلى التى ترتكز عليها الأعمدة، فقد امتازت هى الأخرى بجمال النقش والتصميم(٥٧) .



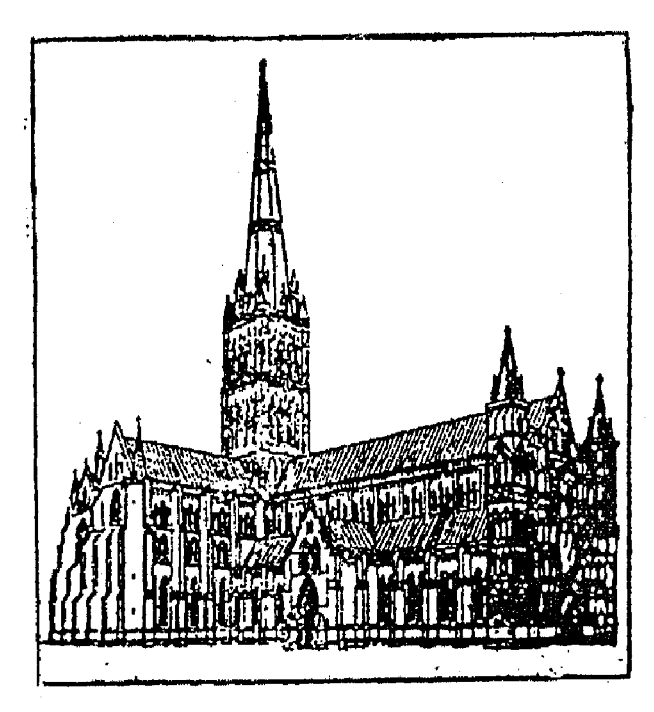
نماذج لتيجان أعمدة قوطية

على أنه إذا كانت الخصائص السابقة تمثل المميزات العامة للطراز القوطى، إلا أنه من الثابت أن هذا الطرز اكتسب طابعا خاصا فى كل بلد من بلدان غرب أوربا، وفقا لعوامل البيئة والتقاليد. وقد أجمع الباحثون على أن نشأة الفن القوطى ترتبط بفرنسا مثلما ارتبطت نشأة الفن الرومانسكى بإيطاليا. وكان تصميم معظم الكنائس

(56) Lethaby: Med. Art, p. p. 130 - 133.

(57) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 326 - 327.

القوطية في فرنسا على شكل حرف (H) مع العناية بتجميل تلك الكنائس من الداخل والخارج. كذلك روعى عمل كرانيش وأفاريز خارجية للكنائس فى الأجزاء الجنوبية من فرنسا، حيث الشمس ساطعة ، لتهيئة قدر كاف من الظل[٥٨] . وتعتبر كتدرائية نوتردام وكتدرائية أميان خير ما يمثل هذا الطراز فى فرنسا . أما إنجلترا فامتازت كنائسها القوطية بالانسجام بين نسبها الهندسية، وعدم الإسراف فى استخدام الزخارف. وربما يرجع السبب فى هذه الظاهرة الأخيرة إلى أن كثرة الغيوم والسحب تطلبت الإكثار من أتساع النوافذ، مما لم يترك قدرا كافية من الجدران لهذه الزخارف[٥٩] . هذا إلى أنه روعى فى أسقف الكنائس بإنجلترا شدة الانحدار لكثرة الأمطار. وأظهر الكنائس القوطية بإنجلترا كتدرائية كانتربورى التى شيدت فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر، ثم تلتها كتدرائيات ويلز واكستر وغيرهما؛ وكلها تمتاز بجمال أعمدتها وروعة زخارفها وجمال تيجان أعمدتها التى اقتبست وحداتها من الطبيعة[٦٠] .



رسم تخطيطى لكتدرائية سالسبورى

(58) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 432 - 436.

(59) Cam. Med.Hist., vol. 6, p.p. 766 - 767

(60) Briggs: op. cit., p. p. 85 - 105.

وإذا كان الطراز القوطى قد ظهر فى ألمانيا فى وقت متأخر عنه فى فرنسا وإنجلترا، إذ لم تظهر أولى الكنائس القوطية فى ألمانيا إلا فى القرن الثالث عشر، إلا أن هذا الطراز سرعان ما وجد تربة خصبة في ألمانيا، فاستعملت الأحجار فى بناء الكنائس الجميلة فى مختلف المدن الألمانية مثل كولونيا ومالبورج وستراسبورج وغيرها [٦١]. وقد تفنن المهندسون الألمان فى زخرفة قواعد الأعمدة، وفى استخدام الزجاج المؤلف بالرصاص فى النوافذ ، محاكين فى ذلك النمط الفرنسى[٦٢]. أما إيطاليا فكانت أقل البلدان الأوربية تحمسا للطراز القوطى. وربما كان السبب فى ذلك هو تعلق الإيطاليين دائما بتراث الماضى وتقاليد أجدادهم الرومان[٦٣] . ومع ذلك فقد تسرب الطراز القوطى إلى شمال إيطاليا فى القرن الثالث عشر، وظهرت نماذج جميلة له بعد ذلك فى سينا وبولونيا وفلورنسا وبيزة والبندقية وميلان. وهنا نلاحظ أن الإيطاليين لم يهتموا بفن الزجاج المؤلف بالرصاص اهتمامهم بالتصوير والزخرفة على الجص (الفرسكو)[٦٤].

* * *

ومهما يكن الأمر، فإن طراز العمارة القوطى ظل هو الطراز السائد فى غرب أوربا حتى القرن السادس عشر، هذا على الرغم من ظهور حركة النهضة الإيطالية؛ وهى الحركة التى نادت بالعودة إلى الفنون والطرز الكلاسيكية، ونبذ فنون العصور الوسطى البربرية. ولعل هذا الشعور من جانب فنانى النهضة هو الذى دفع فاسارى (١٥١٢ – ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو إلى إطلاق اسم «القوطى» على هذا الطراز الذى يمثل أقصى ما بلغته الحياة الفنية فى غرب أوربا العصور الوسطى من كمال وإبداع. ومن الواضح أن فاسارى لم يقصد بهذه التسمية التى استحدثها ـ والتى صارت علما لهذا الفن ـ سوى التحقير والازدراء، والإشارة إلى أن هذا الفن يعبر عن روح البرابرة وهمجيتهم[٦٥].

---

(61) Cam. Med.Hist., vol. 6, p. 770.
(62) Lethaby: Med. Art, p. 260.
(63) Cam. Med.Hist., vol. 6, p. p. 767 - 768
(64) Lethaby: op. cit., p. p. 201 - 214.
(65) Cam. Med.Hist., vol. 6, p. 771.

فن التصوير والزخرفة

إذا كـان فن العمـارة فـى أوربا العـصـور الوسطى قـد ارتبط إلـى درجـة كـبـيـرة بالمؤسسات الدينية ـ من كنائس وكتدرائيات وأديرة ـ فإن فن التصوير هو الآخر اتخذ طابعا دينيا، وذلك لنفور الكنيسة ورجالها من صور الوثنية التى تحبب الناس فى الحياة الدنيـا ولذائذها، وهو اتجاه يتـعـارض مع دعـوة الكنيـسة نحـو التـقـشف والبـسـاطة والزهد(٦٦).

على أنه من الملاحظ أننا لا نجـد أثرا للرقى والسـمـو الفنى، حـتـى فى الصـور الدينيـة التى ظهـرت فى العـصور الوسطى، فـالمقابر ذات القبـاب ـ فى فـجر العـصور الوسطـى ـ كـانت تغطى أسـقـفـهـا وجـدرانهـا ببـعض رسوم هندسـيـة أو صـور لطيـور وحيوانات تغلب عليها البساطة، ومعظم ألوانها مزيج بين الأحمر والأخضر (٦٧). أما الصور البيزنطية فكانت فى كثير من الحالات أقرب إلى الجمود والبعد عن الحركة والحيوية والطبيعة. ولعل خير ما فى هذه الصور ألوانها الزاهية والإنسجام والتوافق بين هذه الألوان فى الرسم. وتعتبـر أعمال الفسيفساء أبرز ناحية فى فن التصوير البيزنطى، وبخاصة ما تم من تلك الأعمال فى كنيسة أيا صوفيا، حيث تبدو صور المسيح على أرضية مذهبه وقد التف حوله الحواريون فى ملابسهم البيضاء؛ فى حين وقفت مريم العذراء على مقربة منهم فى رداء أزرق سماوى(٦٨). وفيما عدا صور الفسيفساء التى رسمت على جدران الكنائس وفوق مذابحها، فإننا نجد بقية الصور البيزنطية لا تختلف بعضها عن بعض كثيرا فى طابعها العام من حيث الجمود والخلو من الحيوية(٦٩).

أما الفن الرومانسكى فقد امتاز بالزخارف الجصية (الفرسكو) فضلا عن أعمال الفسيفساء. على أننا نلاحظ فى هذا الفن قلة صور الأحياء، واتجاه الزخرفة فى أول الأمر نحو الأشكال الهندسية والوحدات النباتية (٧٠). وإذا كانت صور الأحياء قد أخذت

---

(66) Bailey: The Art and Regligion, p. p. 45 - 46.

(67) Cam. Med.Hist., vol. 1, p. 600.

(68) Lethaby: Med. Art, p. 54.

(69) Simpson: op. cit., vol. 1, p. p. 219 - 220.

(70) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 315 - 317.

تتكاثر نوعا ما بعد مدة من نشأة هذا الفن، فإن الفضل يرجع فى ذلك إلى الفرنسيين بوجه خاص، الذين أكثروا من صور الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية، إلى جانب الصلبان والزخارف النباتية والرموز الدينية. كذلك شغف الإيطاليون بصفة خاصة باستخدام الرموز المسيحية فى الفن الرومانسكى، فاستبدلوا بصور المسيح والقديسين رموزا خاصة كالعصفور والشجرة والسمكة. أما الحلزون المتصل الذى لا تبدو له بداية أو نهاية فقد عبروا به عن الخلود(٧١).

وإذا كانت الكنائس الرومانسكية قليلة الضوء - بسبب قلة النوافذ - مما أضفى على الصور الموجودة داخل الكنيسة مسحة قاتمة جافة، فإن اتساع النوافذ وكثرتها فى الطراز القوطى لم يترك متسعا للتصوير على الجدران. لذلك اتخذ الفن القوطى من زجاج النوافذ مسرحا للتصوير، فبلغت الرسوم على الزجاج المؤلف بالرصاص درجة رائعة من الجمال فى الكنائس القوطية، وذلك بفضل ألوانها المركبة المنسجمة ومناظرها الخلابة(٧٢). وكثيرا ما استغلت هذه الرسومات على زجاج النوافذ فى التعبير عن مناظر دينية أو أفكار مستمدة من الإنجيل، حتى ليبدو أن الكنيسة استغلت قوة تأثير الفن على عقول رعاياها غير المتعلمين «فجعلت من الكتدرائية كتابا من الحجر يطالعه الناس فيقفون على كثير من القصص الدينى يزيدهم ولاء وخشوعا»(٧٣). وفيم عدا هذه المناظر الدينية اشتهر الطراز القوطى باستخدام الوحدات النباتية كأوراق النبات والأزهار فى الزخرفة، مما جعل الفنان يزداد قربا من الطبيعة وحيويتها(٧٤).

فإذا تركنا الكنائس وزخارفها، فإننا نجد فن التصوير - من زخرفة ورسم - يظهر بوضوح فى ميدان آخر هو المخطوطات والكتب. ولاتوجد لدينا معلومات كافية عن نشأة هذا النوع من أنواع التصوير فى أوائل العصر المسيحى، ولكننا نلمس بعد ذلك مركزين مهمين لهذا الفن، أحدهما فى الشرق البيزنطى والآخر فى أيرلندا(٧٥). ويبدو أن نشأة هذا الفن فى الشرق البيزنطى جاءت بدافع الرغبة فى تصوير المناظر التى

---

(71) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. p. 515 - 523.
(72) Lethaby: Med. Art, p. p. 132 - 135.
(73) Male: Regligion Art, p. p. 95 - 96.
(74) Cam. Med.Hist., vol. 8, p. p. 727 - 728
(75) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 851.

توجد داخل الكنائس مصغرة على رقائق الكتب. أما فى أيرلندا فقد اختلف الوضع إذ اقتصر الأمر على تزيين الكتب برموز ورسومات غير واضحة(٧٦) . ثم كان أن انتقل فن تزيين الكتب من أيرلندا والشرق البيزنطى إلى إنجلترا وغاليا الفرنجية، فظهر فى الكتب الأنجلو سكسونية هذان الطابعان من زخرفة الكتب. ومن إنجلترا انتقل هذا الفن إلى القارة حيث جاءت مخطوطات غاليا وألمانيا خير مثل لما بلغه فن تصوير الكتب فى عصر النهضة الكارولنجية(٧٧).

فن النحت

أما فن النحت فقد سار هو الآخر فى ركاب المسيحية، فحل المسيح والعذراء فى العصر المسيحى محل زيوس وجوبيتر وأبولو وغيرهم من آلهة الوثنية(٧٨). وقد أجمع الباحثون على أن انتشار المسيحية أدى إلى تأخر فن النحت عما كان عليه فى العصور القديمة، وذلك لكره هذه الديانة السماوية لأوثان العهد البائد(٧٩)؛ حتى أن بعض الباحثين يميلون إلى القول بأن فن النحت لم يولد من جديد فى أوربا العصور الوسطى إلا فى القرن الحادى عشر(٨٠).

وقد أدت الحركة اللاأيقونية فى الدولة البيزنطية إلى محاربة نحت الأيقونات والصور الإنسانية، ومن ثم اتجه الفن البيزنطى فى النحت نحو الاقتصار على عمل الأشكال الهندسية والوحدات النباتية، وهناك نوع من أنواع النحت كان شرقيا بحتا ولم يعرفه الغرب إلا عن طريق الدولة البيزنطية، هو النحت فى العاج. ولم يلبث أن انتشر هذا النوع من النحت فى عصر النهضتين الكارولنجية والأوتية، بحيث خلف لنا ذلك العصر أمثلة رائعة لتماثيل منحوتة فى العاج فى غرب أوربا(٨١).

أما النحت فى الفن الرومانسكى فقد اتضح فى عدة ميادين، أهمها تيجان الأعمدة التى نحتت بدقة وعناية لتصور أوراق النبات والأزهار وغيرها. وقد ظهرت

(76) Cam. Med.Hist., vol. 2, p. 566.
(77) Morey: Med, Art, p. p. 196 - 206.
(78) Cam. Med.Hist., vol. 1, p. p. 601 - 602.
(79) Vitry: The Legacy of the Middle Ages, p. 96.
(80) Male: Regligion Art, p. 17.
(81) Lethaby: Med. Art, p. p. 159 - 160.

التماثيل الخرافية الهزلية فى الفن الرومانسكى فى شمال إيطاليا، ووضعت هذه التماثيل عند قواعد الأعمدة، كما حفرت بعض مناظر تمثل صورا من الحياة اليومية كالصيد. أما ألمانيا فقد شاع استعمال الآجر فيها فى العصر الرومانسكى؛ ومن ثم قلت التماثيل المحفورة فى الحجر. وفى فرنسا استعملت التماثيل عند أبواب الكنائس، كما استعمل الحفر فى زخرفة تيجان الأعمدة وواجهات الأبنية(٨٢). ويلاحظ على تماثيل العصر الرومانسكى بوجه عام خلوها من عنصر الحيوية والحركة واتصافها بالجمود، هذا على الرغم مما فيها من قوة ومهارة.

والواقع أن روح الحيوية والدقة فى محاكاة الطبيعة لم تبدأ فى الظهور فى أوربا العصور الوسطى إلا فى الفن القوطى. حقيقة أن فنانى العصر القوطى الأول ظلوا يرسفون فى كثير من القيود التى لم يتحرروا منها إلا فى عصر النهضة الإيطالية، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن الفن القوطى بذل جهدا كبيرا فى العمل على محاكاة الطبيعة (٨٣). وهكذا جاءت الكنيسة القوطية بمثابة معرض كبير، بفضل ما بذله النحاتون من جهود فى نقش مختلف المشاهد الدينية وغير الدينية، مثل تماثيل القديسين وحشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية، والتماثيل الخرافية المبتكرة كالغول والعنقاء(٨٤). وفى كل هذه النواحى حاول الفنانون محاكاة الطبيعة والتخلص - بقدر الإمكان - من التقاليد البالية التى قيدت فن النحت فى العصور السابقة(٨٥).

أما خارج الكنيسة القوطية فقد امتاز بالزخارف المحفورة فى الحجر، والتى تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية تبدو واضحة على الجدران والأبواب والأبراج والعقود العمياء. هذا فى الوقت الذى روعى أن تمثل الميازيب الحجرية أشكالا خيالية لبعض الحيوانات والطيور الممسوحة(٨٦).

* * *

(82) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 309 - 314.

(83) Morey: Med, Art, p. 275.

(84) Cam. Med.Hist., vol. 8, p. p. 722 - 725

(85) Vitry: The Legacy of the Middle Ages, p. 193.

(86) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. p. 341 - 347.

وبعـد، فـإننا فى كـلامنا عن الحياة الفنيـة فى العـصـور الوسطى اعـتـمدنا على المشـاهدة وعلى الآثار المادية التى خلفتـهـا لنا تلك العـصـور [٨٧]. ذلك أن الكتاب المعاصرين وجهـوا عنايتـهم نحو التطورات السياسـيـة والدينيـة وأهملوا ماعداها من تطورات فنية. وهكذا نجد أنفسنا فى كثير من الحالات لا نملك سلاحا سوى الاستنتاج، وذلك عندما نريد الوقوف على الطريقة التى كان يتم بها تشييد هذه المبانى الضخمة، وعلى حياة العمال والفنانين المهندسين، والأدوات والآلات التى استعملوها فى إنجاز أعمالهم، أو الطريقة التى تعلموا بها حرفهم حتى أجادوها.

من ذلك أنه لايوجـد هناك شك فى أن الصناع والفنانين فى أوربا العـصـور الوسطى استـخدموا الآلات والأدوات نفسهـا التى كانت تستعمل فى العصر الرومانى القديم، وأنهم لم يتلقوا أصول فنهم فى مدرسة خاصة أو كتب معينة، وإنما تلقوها عن طريق المران فى مـيدان الحياة العملية. ولما كانت إقامة كنائس ضـخمة أوحصون منيعة أمرا لايمكن أن يتم بطريقة ارتجاليـة، فإنه من الثابت وجود مـهندسين فنيين وضعوا التصميمات الخاصة بمثل هذه المبانى العظيمة وأشرفوا على تنفيذها [٨٨]. وفى هذه الحالة لم تهتم المصادر والوثائق المعاصرة بذكر أسماء أولئك المهندسين، اهتمامها بتخليد اسم السيد الذى استأجرهم وعـهد إليهم بالقيام بذلك العمل الهندسى. ولم يحفظ لنا التـاريخ سوى أسـمـاء نادرة من مـهندسى العـصـور الوسطى مـثلى فيـلارد دى هونيكورت (Villard de Honnecourt) الذى ترك كتـابا به بعض ملاحظات قيـمة فريدة فى بـابهـا. ومن هذه الملاحظات نفـهم أنـه هو الذى وضع تصـمـيم كـتـدرائيـة كامبراى Cambrai، وأنه أشرف على بناء عدة كتدرائيات أخرى عظيـمة، حتى كانت سنة ١٢٥٠ عندما عهدت إليه ملكة هنغاريا بالإشراف على بناء بعض الكنائس فى بلادها. وقـد ترك فيلارد كـتابا يحـوى بعض التـصـميمات والرسوم الهندسيـة، ليهتدى به من يريد أن يخلفه فى مـهنتـه. وإذا كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من المراجع الهندسية التى وضعها مهندسو القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إلا أنه يثبت لنا أن العلاقة بين الهندسة والفن كانت قوية فى أوربا العصور الوسطى؛ بل ربما كانت أقوى مما هى عليه الآن [٨٩].

---

(87) Coulton: Life in the Middle Ages, vol. 2, p. 10.

(88) Harvey: The Gothic World, p. p. 14 - 16.

(89) Stephenson: Med. History, p. p. 387 - 396.

القسم الثالث

حركات النهضة في أوربا العصور الوسطى

وفجر الحديثة

مراكز الحضارة والمعرفة في غرب أوربا ـ النهضة الكارولنجية ـ
النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر ـ النهضة الإيطالية.

الباب الحادى عشر

مراكز الحضارة والمعرفة

من الصحوات الحضارية التى قدر لها أن تبدد الظلام الذى اكتنف الغرب الأوربى منذ القرن الخامس، ثلاث حركات. الحركة الكارولنجية التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن وامتدت إلى القرن التاسع؛ والحركة الوسيطة التى ظهرت فى القرن الثانى عشر وامتدت إلى ما بعد ذلك حتى مهدت للحركة الثالثة وهى النهضة الأوربية الكبرى التى ظهرت فى القرن الخامس عشر والتى انطوت بقيامها أخرى صفحات العصور الوسطى واستهلت أولى صفحات العصور الحديثة.

ويرى بعض المؤرخين - مثل بيرين - أن حركتى القرن التاسع والثانى عشر تستحقان لقب «نهضة»، وأنه لا داعى لأن تستأثر حركة القرن الخامس عشر وحدها بهذا التشريف، لأن الحركات الثلاث تشترك جميعا فى بعث الدراسات الكلاسيكية وأحيائها[1]. ويتفق باركر مع بيرين فى هذا الرأى، ما دام المقصود بلفظ «نهضة» ظهور نشاط فكرى وثقافى وفنى، وازدياد الرغبة فى التعرف على تراث القدماء ومعارفهم. ولكن باركر يحتاط، فيقول أن أطلاق لقب «نهضة» على حركتى العصور الوسطى فى القرنين التاسع والثانى عشر لاينبغى أن يعنى حدوث أى تغيير فى عقلية الناس وتفكيرهم ونظرتهم العامة إلى الحياة ومشاكلها الأساسية. فهذا التعبير من حق النهضة الحديثة فى القرن الخامس عشر أن تستأثر به وحدها[2].

ومهما يكن الأمر، فإن هذه النهضات الثلاث هى المحور الأساسى الذى دارت حوله حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى وبداية الحديثة. وليس معنى ذلك أن ركب الحضارة الأوربية كان يتوقف فى الفترات الواقعة بين كل نهضة وأخرى من النهضات السابقة؛ فقد أجمع الباحثون على صحة النظرية القائلة باستمرارية الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى[3]. وكل ما هنالك هو أن النشاط الحضارى فى تلك الفترات ظل ضعيفا بسبب ما تعرضت له بلاد الغرب الأوربى عندئذ من أزمات؛

---

(1) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 220.

(2) Barker: The European Inheritance, vol. 1, p. 389.

(3) Eyre: op. cit., p. 334.

فضلا عن ضعف وسائل الاتصال ونقل الأفكار. هذا بالإضافة إلى أن الفئة التى تعرف القراءة والكتابة فى غرب أوربا ظلت صغيرة ومحدودة. وهذا الفئة كان معظمها من رجال الدين الذين انحصر تفكيرهم داخل دائرة ضيقة يكاد لايتجاوزها إلا فى حالات نادرة. وهكذا عاش المتعلمون فى أوربا العصور الوسطى على هيئة أفراد متباعدين أو جماعات صغيرة منعزلة، تفصل بعضها عن بعض مساحات واسعة يعمها الجهل والتأخر وساعد على هذه العزلة وقوى من أثرها ضعف وسائل السفر والانتقال، وهى الوسائل التى ظلت بدائية طوال العصور الوسطى. ولكن على الرغم من ذلك، فإنه يبدو أن العزلة لم تكن تامة بين مراكز المعرفة فى أوربا العصور الوسطى، لأن ظروف الحياة فى تلك العصور ـ لاسيما الحياة الدينية ـ استلزمت قدرا من الاتصال. وهنا نلاحظ أن هذا الاتصال إن وجد – كان بين المراكز التى من نوع واحد– وإن بعدت بعضها عن بعض– أكثر منه بين المراكز المختلفة فى نوعها، وأن تقاربت فى المكان. فالاتصال الفكرى بين الأديرة البندكتية المتباعدة والمتناثرة فى أنحاء الغرب الأوربى كان أقوى منه بين أحد هذه الأديرة ومدينة مجاورة لا تفصله عنها سوى مسافة قصيرة(٤).

مراكز الحضارة والمعرفة:

ونستطيع أن نقسم مراكز الحضارة والمعرفة فى العصور الوسطى إلى أربعة أقسام. هى المراكز الدينية ـ أى الكنيسة وما يرتبط بها من مؤسسات دينية كالأديرة، والكتدرائيات ـ، وبلاط الملوك والأمراء، والمدن، والجامعات. والمعروف أن هذه المراكز أسهمت فى المحافظة على تراث الحضارة الأوربية وتنمية ذلك التراث. ولكنها لم تكن على درجة واحدة من الأهمية طوال العصور الوسطى. هذا فى حين أن البعض الآخر مثل الأديرة ـ أخذت تفقد أهميتها فى الميدان الثقافى والتعليمى فى أواخر تلك العصور. ولا أقل من الكلام عن كل مركز من هذه المراكز على حدة لإيضاح أهميته فى الميدان الحضارى بوجه عام والثقافى بوجه خاص.

الكنيسة:

أما الكنيسة فكان أثرها فى حفظ التراث الرومانى وإحيائه أعمق وأكثر استمرارا من غيرها من المراكز. فمنذ القرن الرابع والترابط شديد بين الكنيسة والامبراطورية.

(4) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century. p. 32.

ولم يكن ذلك الترابط بين الطرفين بالأمر الغريب حيث أنهما يتفقان فى أداء رسالة واحدة، فيعمل كل منهما من زاويته على قيادة الشعب الأوربى وتوجيهه، وإن تعددت أممه وأجناسه. ويهمنا من أمر هذه الشركة أنه عندما قضى أحد الشريكين نحبه، وجد الشريك الآخر نفسه مسئولا عن رعاية الشركة، وبعبارة أخرى عندما سقطت الامبراطورية الرومانية فى غرب أوربا فى أواخر القرن الخامس، وجدت الكنيسة نفسها مسئولة عن رعاية ركاب الحضارة فى الغرب الأوربى. وساعد الكنيسة على القيام بمهمتها الحضارية طوال العصور الوسطى أن المدينة ـ وهى وحدة التنظيم الإدارى فى العالم الرومانى ـ كانت أيضاً الوحدة الأساسية فى التنظيم الكنسى. كما أن الكنيسة الغربية اتبعت فى تنظيمها الأسقفى قواعد التنظيم الإدارى الرومانى(٥).

وهكذا ورثت الكنيسة الغربية تراث الحضارة الرومانية القديمة، حتى أصبحت أعظم أداة حضارية فى غرب أوربا، بفضل إشراف البابوية التى أخذت تكتسب طابعا عالميا واضحا منذ عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤)، وبفضل مساعدة الميروفنجيين والكارولنجيين من بعدهم. هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة ورجال البعثات الدينية التنصيرية، الذين كافحوا فى سبيل نشر المسيحية الكاثوليكية، وما يرتبط بها من مظاهر الحضارة الرومانية، بين القوط الغربيين والبرجنديين والكلت فى إيرلندا وويلز، والفرنجة البحريين والأنجلو سكسون والألمان، وغيرهم من الشعوب التى وجدت فى أوربا فى أوائل العصور الوسطى. وقد استغرقت هذه العملية أربعة قرون، نجحت بعدها الكنيسة فى إقامة إمبراطورية مسيحية، وإكساب غرب أوربا ذلك الطابع الخاص الذى ميزه فى العصور الوسطى.

على أن أثر الكنيسة لم يقتصر على نشر المسيحية والحضارة الرومانية حتى نهر الألب وسكتلند فحسب، ولكنها أسهمت أيضًا بجهودها الفعالة فى تنظيم الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى غرب أوربا. وإليها يرجع الفضل فى إقرار السلام والأمن، والقضاء على كثير من مظاهر الفوضى التى غرقت فيها أوربا غداة سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس. من ذلك أن الكنيسة حاربت مبدأ الأخذ بالثأر، وعملت على إنشاء المستشفيات والملاجئ، كما عملت على رفع شأن المرأة واحترامها، والمحافظة على حقوقها الحيوية. كل ذلك بالإضافة إلى نشر الحضارة

(5) Eyre: op. cit., p. 11.

والتعليم بين المجتمعات المتخلفة فى غرب أوربا، وذلك عن طريق المؤسسات الدينية العديدة كالأديرة والكتدرائيات[٦] والحق أن كل نوع من هذه المؤسسات الدينية - الأديرة والكتدرائيات - قام بدور خطير، بوصفها مراكزللحضارة والمعرفة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، الأمر الذى يتطلب منا الكلام عن كل منها على حدة:-

الأديـــرة:

كانت الأديرة أعظم المراكز الثقافية والحضارية فى الشطر الأول من العصور الوسطى فى غرب أوربا، حتى شبهها البعض بأنها كانت عندئذ بمثابة جزر مضيئة يشع منها بريق المعرفة وسط بحر واسع الظلمات يعمه الجهل والفوضى. وبذلك انقذت الأديرة تراث أوربا الفكرى من الضياع فى وقت لم توجد قوة أخرى تعمل على تحقيق هذه الغاية. حقيقة أن الأديرة تأثرت بالنزعة المحلية التى سادت تلك العصور، ولكن ذلك لم يمنع وجود نوع من الاتصال فيما بينها وبين بعض، وذلك بفضل نفوذ البابوية فى روما، والرحلات التى قام بها الرهبان - وبخاصة الرهبان الأيرلنديين -، وبفضل جهود شارلمان فى تطبيق المركزية، وحرصه على الأشراف على المؤسسات الدينية، هذا كله بالإضافة إلى أثر الإصلاحات الكلونية فى القرنين العاشر والحادى عشر[٧]، وهى الإصلاحات التى استهدفت تهذيب الحياة الديرية عن طريق الربط بين الأديرة وإخضاعها لإشراف مركزى دقيق، مما جعل الأفكار والكتب التى تنتقل من دير إلى آخر فى سرعة تثير دهشة الباحث الحديث[٨].

على أنه ينبغى أن نذكر أن الأديرة لم تكن دائما أبدا منارا للعلم والمعرفة فى أوربا العصور الوسطى، وأن ما قامت به الأديرة البندكتية - وغير البندكتية - من جهود فى خدمة الحضارة إنما جاء على هامش الهدف الأساسى من قيام الدير، وهو الانقطاع للعبادة وخدمة الدين. حقيقة أنه من الممكن أن يصير الدير مأوى للمسافرين وعابرى السبيل، ومركزا للنشاط الاقتصادى فى الإقليم أو المنطقة التى يقوم فيها،

(6) Boissonnade: Life and Work in Medieveal Europe, p. 46.

(٧) نسبة إلى كلونى Cluny - وهى مدينة فى فرنسا - حيث أسس وليم الأول التقى دوق أكوتين ديرا سنة ٩١٠. ومن هذا الدير انبعثت حركة الإصلاح المشار إليها. (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب).

(8) Haskins: op. cit., p. 33.

ومجمعا لتبادل الأفكار ونقلها، ومحورا للنشاط الفنى ـ سواء فى العمارة والبناء أو فى الموسيقى والإنشاد ـ ومدرسة للآداب والعلوم.. ولكن جميع هذه الصفات التى يمكن أن يتصف بها الدير والخدمات التى يمكن أن يؤديها للحضارة إنما أتت عن طريق عارض، فلم يكن من الضرورى أن ينهض كل دير بهذه الوظائف، لأنها ليست الهدف الرئيسى من أنشائه. فالنظام البندكتى الذى انتشر فى جميع أنحاء الغرب الأوربى خصص ما يقرب من أربع ساعات ونصف من حياة الراهب اليومية للعبادة والصلوات الجماعية. ثم لم تلبث أن اتسعت هذه الفترة حتى قاربت السبع ساعات، وبذلك لم يتبق من النهار سوى ثلاث أو خمس ساعات ـ حسب اختلاف الفصول ـ يستطيع أن يقتطع الراهب جزءا منها للقراءة. وحتى هذه الساعات المخصصة للقراءة كان على الراهب أن يقضيها فى قراءة الإنجيل أو كتابات آباء الكنيسة فى اللاهوت. وكان على كل راهب أن يتسلم من مكتبة الدير أحد الكتب الدينية فى بداية الصوم الكبير. فإذا أتم قراءته تبادله مع غيره، بحيث ينتهى جميع رهبان الدير من قراءة الكتب التى استعاروها قبل أن ينتهى العام، وليس صحيحا ما يظنه كثيرون من أن النظام البندكتى نص على ضرورة اشتغال الرهبان بنسخ الكتب. وكل ما هنالك هو أنه وجدت بالأديرة البندكتية غرفة مخصصة للنسخ، يعكف فيها الرهبان على نسخ ما يحتاجه الدير من كتب الصلوات والترانيم، دون أن يتخذ هذا العمل صفة الألزام أوالاستمرار، كذلك لم يشر النظام البندكتى إلى المدارس الديرية. وفى ذلك يقول أحد الكتاب المحدثين «أن المدرسة بمعناها الحديث الذى نقصد به مؤسسة بها طائفة معينة من الأساتذة يقومون بتعليم فئة محددة من التلاميذ فى أوقات معلومة، يلقنونهم فيها ألوانا خاصة من المعرفة.. هذا النوع من المدارس لم يكن يمثل القاعدة المألوفة فى أديرة العصور الوسطى. وإنما كان وجوده فى بعضها بمثابة استثناء[٩]». لذلك يبدو من الصعب الحكم بوجود غرف مخصصة للدراسة فى الدير البندكتى. فى حين كان التعليم فى هذا النوع من الأديرة دينيا يتناول الصلوات والطقوس والإنجيل وكتابات آباء الكنيسة. أما الفنون السبعة الحرة فلم يكن لها المقام الأول فى الدراسة، بل لم تجتمع هذه الفنون جميعها فى دير واحد.

---

(9) Haskins: op. cit., p. 5.

على أنه من الانصاف أن نوضح أهمية الدور الذى قامت به الأديرة فى الحياة الفكرية فى أوربا العصور الوسطى، فإذا كان قيام الدير غير مشروط بوجود مدرسة فيه، فإن كل دير كانت به مكتبة ضمت - على الأقل - عدة نسخ من الإنجيل وبعض المؤلفات فى اللاهوت. ولما كانت الأديرة تتمتع فى العصور الوسطى بممتلكات وأراض واسعة، فإنه صار من الضرورى وجود سجلات وأرشيف فى كل دير لضبط حساباته وقيد إيراداته ومصروفاته. كذلك حرصت الأديرة على الاحتفاظ بقوائم بأسماء أعضائها - الأحياء منهم والأموات - ، فضلا عن أسماء بعض الصالحين من نزلاء الأديرة المجاورة، لإقامة الصلوات عل أرواحهم. ثم إن إحياء الأعياد والشعائر الدينية بالدير تطلب وجود تقويم يتضمن مواعيد موالد القديسين، فضلا عن مواعيد الأعياد التى تحرص الكنيسة على الاحتفال بها. كذلك حرص كثير من الأديرة على أن يكون فيها حولية لتدوين أهم الأحداث الجارية، لا داخل الدير فحسب. بل أيضاً فى المنطقة أو الإقليم الذى يقوم الدير وسطه، مما جعل هذه الحوليات الديرية المصادر الوحيدة - فى كثير من الأحيان - لتاريخ بعض البلدان الأوربية فى العصور الوسطى.

وهكذا صار وجود الدير مرتبطا بمكتبة وأرشيف وحولية . فإذا أضفنا إلى هذه المقومات المدرسة التى وجدت فى كثير من الأديرة لتعليم الأعضاء الجدد من أهل الدير، استطعنا أن نحدد النواة الأساسية للحياة الثقافية فى أوربا العصور الوسطى. وإذا كنا قد اخترنا أن نطلق على العناصر السابقة اسم «نواة» فذلك لأنها لم تكن فى حقيقة أمرها أكثر من بذور قد تنبت وقد لا تنبت ، وقد تثمر حينا وتذبل أحيانا. حقيقة أن الأديرة كانت كثيرة وعديدة فى أوربا العصور الوسطى، ولكن نسبة من صار منها مراكز للثقافة والمعرفة استمرت قليلة نسبيا. وحتى هذا القسم من الأديرة التى خلدت أسماءها فى تاريخ أوربا الثقافى فى العصور الوسطى، تعرضت لكثير من التطورات بين ذبول وانتعاش. ولعله من المبادئ المسلم بها فى تاريخ الحركة الديرية أن ما أصابته بعض المنظمات الديرية من نفوذ وثروة أدى إلى اضمحلالها وذبولها، مما مهد الطريق لقيام منظمات أو هيئات ديرية أخرى تحاول أن تستدرك عوامل الانحلال والضعف فى الحياة الديرية. ولكنها لا تلبث هى الأخرى أن يجرفها تيار الترف والرغبة فى التنعم بملاذ الحياة، فتقع بعد أمد فى الهوة نفسها التى تردت فيها المنظمات السابقة، وهكذا.

ومهما يكن الأمر، فإن الفضل يرجع إلى المدارس الديرية فى العصور المظلمة فى الاحتفاظ بقسط من النشاط العلمى. حقيقة أن الهدف الأساسى من التعليم الديرى ظل إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم فى الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لايمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين على قسط من الثقافة اللاتينية، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية، بل اللغة العالمية التى كان من الممكن أن يتفاهم بها أهالى البلدان المختلفة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى(١٠). هذا إلى أن القيام بالوعظ والتنصير كان يتطلب من رجل الدين دراية بمبادئ المنطق وأساليب الجدل، حتى ينجح فى تحقيق رسالته.

وإذا كان شارلمان قد اهتم بالتعليم فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، فإن هذا الاهتمام دفعه - كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى - إلى العناية بالمدارس الديرية،ودعمها وإصلاحها وتوسيع دائرة نشاطها؛ حتى غدت بعض هذه المدارس - مثل تور وفولدا - مراكز لنشاط فكرى ضخم فى الإمبراطورية الكارولنجية. وقد قدر للكثير من هذه المدارس الديرية البقاء والاستمرار فى تأدية رسالتها عقب سقوط تلك الإمبراطورية، مثل مدارس ريمس وليون وفريير وكوربى وفولدا وبافيا وغيرها(١١).

على أن القرن الثانى عشر بالذات شهد اضمحلال الأديرة البندكتية، بحيث لم يتبق من هذه الأديرة سوى قلة احتفظت بأهميتها كمراكز للحياة الفكرية فى أوائل ذلك القرن. ومن هذه الأديرة دير مونت كاسينو ودير بك. فكان الأول به مكتبة ضخمة ضمت مؤلفات جريجورى التورى وبولس الشماس، فضلا عن بعض الآثار الفكرية القديمة لشيشيرون واوفيد وفرجيل وهوراس وسينكا ودوناتوس وغيرهم. أما دير بك Bec الذى أسس سنة ١٠٣٤ فيدين بشهرته العلمية إلى لانفرانك ثم انسلم، حتى أحرزت مدرسته شهرة واسعة فى الدراسات اللاهوتية والفلسفية والنحوية. واشتهر هذا الدير كذلك بمكتبته التى ضمت قرابة ثلثمائة مجلد من مختلف فروع المعرفة.

أما بالنسبة للأديرة الكلونية فكان القرن الثانى عشر عصر ذبول لها أيضًا. والمعروف أن النظام الكلونى امتاز بالمركزية الشديدة وخضوع الأديرة الكلونية جميعها

(10) Taylor: The Med. Mind, vol., 1. p. p. 198 - 200.

(11) Eyre: op. cit., p. 811.

لإشراف دقيق من جانب مقدم الدير الأم فى كلونى، وهو الذى خضع بدوره لإشراف البابوية. ولاشك فى أن هذه المركزية كان لها أثر فعال فى تقوية الاتصال بين المؤسسات الكلونية، وبالتالى زيادة الرحلات والأسفار فى غرب أوربا، الأمر الذى أدى إلى سرعة انتقال الأفكار والكتب وتبادلها. وقد شجع النظام الكلونى فكرة نسخ الكتب داخل الأديرة، ولكنه لم ينظر بعين الرضى إلى الكتب الكلاسيكية، على الرغم من أن دير كلونى نفسه ضم مكتبة ضخمة بها كثير من الملفات الكلاسيكية، زيادة على الكتب الدينية. لذلك يلحظ الباحث افتقار النظام الكلونى إلى مدارس شهيرة ملحقة بأديرته، إذ وجه رهبان الأديرة الكلونية اهتمامهم نحو الدراسات اللاهوتية وأهملوا ما عداها ، مثل التاريخ والنحو وغيرها من العلوم.

أما منظمات الإخوان الرهبان (الفرير) التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى مثل الفرانسسكان والدومينكان - فإن هدفها كان روحيا تنصيريا أكثر منه ثقافيا، وإن كانت هذه الهيئات استطاعت أن تنهض بدور كبير فى النشاط الفكرى المرتبط بنشأة الجامعات(١٢).

الكتدرائيات:

وفى الوقت الذى أخذ النشاط الثقافى للأديرة يضمحل، إذا بالكتدرائيات تبرز لتصبح أهم المراكز الثقافية فى أوربا العصور الوسطى. على أن الكتدرائيات لم تصل إلى ما وصلت إليه من أهمية فى القرن الثانى عشر إلا بعد أن تعرضت فى القرن التاسع لحركة إصلاحية شاملة أصبح بمقتضاها رجال الكنيسة فى كل أسقفية مرتبطين بالأسقف والكتدرائية ارتباطا مباشرا، كما صار لهم حق المشاركة فى انتخاب الأسقف والحصول منه على نسبة معلومة من دخل الأسقفية. ولاشك فى أن هذا التنظيم الأسقفى هيأ للأسقفية كثيرا من أسباب الثروة والقوة. لا سيما أن الكتدرائية كانت تقوم دائما وسط مدينة هامة تحيط بها مظاهر المدنية والعمران، لا فى منطقة عزلة نائية على سفوح الجبال ووسط الأحراش، مثلما كان الحال فى معظم الأديرة. وهكذا لم تلبث الكتدرائيات أن أخذت تتحول إلى مراكز ثقافية هامة. بفضل مالها من مكتبات ومدارس وسجلات، وموظفين يساعدون الأسقف فى الأشراف على نواحى النشاط

---

(١٢) انظر كتاب: الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ص ١٠ – ٢٠، للمؤلف.

المختلفة داخل حدود أسقفيته، ومنها النشاط التعليمي. وساعد على ذلك أن الكتدرائيات فتحت أبوابها أمام الطلاب العلمانيين فى الوقت الذى أغلقت الأديرة أبوابها فى وجوههم. الأمر الذى جعل المدارس الكتدارئية تمتاز باتساع الأفق وتنوع الدراسات فيها(١٣).

وكانت أهم الكتدرائيات نشاطا فى الميدان الثقافى فى القرن الثانى عشر هى تلك الواقعة فى شمال فرنسا. إذ ظهرت عندئذ أهمية شارتر وأورليان فى حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية. وأهمية ريمس ولاؤون فى الدراسات المدرسية. وأهمية باريس التى انبعث منها أول شعاع للحركة الجامعية فى شمال أوربا. وثمة أهمية أخرى للمدارس الكتدرائية فى شمال فرنسا، وهى أن هذه المدارس جذبت إليها طلاب العلم من ألمانيا وإنجلترا، بل إيطاليا. وليس أدل على ما أسهمت به الكتدرائيات ومدارسها من قسط وافر فى الحياة الثقافية فى القرن الثانى عشر من أن أعظم الكتاب فى ذلك العصر بالذات كانوا من الأساقفة. مثل هلدبرت أسقف ليمان (وتور)، وجلبرت أسقف بواتيه، وبطرس لمبارد وحنا سالسبورى وغيرهم. هذا فضلا عن عدد آخر من موظفى الكتدرائيات وأمنائها اشتهروا بنشاطهم الفكرى، مثل انسلم اللاؤونى، وبرنارد سكرتير كتدرائية شارتر، وبطرس كومستور (Peter Comestor) وهكذا ارتبطت الأسماء اللامعة فى ميادين الشعر واللاهوت والتعليم بالكتدرائيات الغربية فى القرن الثانى عشر.

وتحتل كتدرائية كانتربورى مكانة كبيرة فى النشاط الثقافى فى إنجلترا فى ذلك العصر، فقام رئيس أساقفتها ثيوبالد (١١٣٨ – ١١٦١) - الذى تلقى تعليمه بمدرسة دير بك بفرنسا - بجمع عدد كبير من المفكرين حوله. كما أتخذ حنا سالسبورى سكرتيرا له، وماستر فكاريوس مستشارا قانونيا. وهكذا ارتبط بكتدرائية كانتربورى عدد بارز من الشعراء والأدباء ورجال القانون، وغيرهم من المفكرين. كذلك اشتهرت هذه الكتدرائية بمكتبتها العظيمة الضخمة. أما أسبانيا فكانت أهم مدارسها الكتدرائية مدرسة طليطلة، وإن كان لايمكن إغفال شأن مكتبة برشلونة، والجهود الثقافية التى قام بها ميخائيل أسقف طركونة. ولم تلبث أن غدت طليطلة - بعد أن استولى عليها المسيحيون

(13) Rashdall: Med. Unversities, vol. 1, p. p. 43 - 44.

سنة ١٠٨٥ – المركز الطبيعى للاستفادة من تراث الحضارة الإسلامية، ونقل هذا التراث إلى العالم الغربى. ففى تلك المدينة عثر الأوربيون على مكتبة عربية ضخمة ، وعدد كبير من المستعربين الذين يعرفون العربية واللاتينية جميعا، وعن طريق هؤلاء ومساعدة بعض اليهود تمت ترجمة كثير من المؤلفات العربية الثمينة إلى اللاتينية، فى الآداب والعلوم والفنون؛ مما روى ظمأ الغرب الأوربى وتعطشه إلى المعرفة فى ذلك العصر. وفى تلك الحركة الضخمة قام ريموند رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٥ – ١١٥١) بدور فعال فى الإشراف على حركة الترجمة عن العربية فى الفلسفة والطب والرياضيات والمنطق والفلك وغيرها. واشتهر من أعلام المترجمين عندئذ جيرارد الكريموناوى، الذى يستفاد من اسمه أنه غير أسبانى، وأنه ـ مثل كثير من المترجمين المعاصرين ـ وفد إلى طليطلة من بلاد بعيدة للبحث عن العلم والمعرفة فى المؤلفات العربية.

أما كتدرائيات ألمانيا وإيطاليا، فلم تقم فى القرن الثانى عشر بمثل هذا النشاط العلمى الواسع الذى قامت به كتدرائيات فرنسا وأسبانيا. ذلك أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية كان له أثره السيء فى أحوال ألمانيا وإيطاليا جميعا، مما جعل القرن الثانى عشر يشهد تدهورا علميا، وبخاصة فى المانيا، وهكذا لم تكن العلوم الجديدة والترجمة هى الشغل الشاغل لأساقفة إيطاليا وألمانيا. وإنما شغل هؤلاء الأساقفة بالمسائل السياسية، ومناصرة البابوية أو الإمبراطورية. ومع ذلك فإننا نسمع عن بعض الأساقفة الذين أسهموا فى النشاط العلمى بقسط ملحوظ؛ مثل رومولد الثانى أسقف سالرنو (١١٥١ – ١١٨١) الذى اشتهر بكتاباته التاريخية، وفى مقدمتها حولية شهيرة أرخ فيها لمملكة صقلية. ومثل حريسولانوس Chrysolanus رئيس أساقفة ميلان، الذى اشتهر ببحوثه اللاهوتية ومناقشاته مع رجال الكنيسة الشرقية فى أوائل القرن الثانى عشر.

بلاط الملوك والأمراء:

وصف أحد شعراء سمرقند فى القرن الثانى عشر الميلادى ـ واسمه نظامى عروضى ـ بلاط الملوك، فقال أن تنظيم بلاط أى ملك تنظيما صحيحا يتطلب وجود أربع فئات من المثقفين هم: رجال الإدارة والسياسة؛ والشعراء؛ والفلكيون، والأطباء.

فرجال الإدارة والسياسة يساعدون الملوك في تصريف شئون الدولة، والشعراء يمجدون مآثرهم ويخلدون انتصاراتهم، ورجال الفلك يحددون للملوك الأوقات المناسبة لتنفيذ مشاريعهم الكبرى، والأطباء يسهرون على سلامتهم ورعاية صحتهم.

ويبدو أن هذه الحكمة لم يأخذ بها ملوك الشرق وحدهم في العصور الوسطى، وإنما طبقها أيضاً أمراء الغرب وملوكه؛ وإن كان تطبيق هذا المبدأ في الغرب جاء في صورة أصغر بكثير مما كانت عليه في الشرق. ومهما يكن الأمر، فان استعانة الملوك بهذه الفئات من المثقفين، وحرصهم على تقريبهم منهم والاحتفاظ ببعضهم في بلاطهم، أدى بدون شك إلى اكساب البلاط طابعا حضاريا خاصا.

والواقع أن الملوك الجرمان الذين أقاموا دولهم داخل حدود الإمبراطورية الرومانية اعتبروا أنفسهم ورثة روما وأتباع الكنيسة المسيحية، ومن ثم أخذوا يدرسون ما تبقى أمامهم من تراث الإمبراطورية الرومانية، تمهيدا لعملية الخلط الكبرى بين الجرمان والرومان، وهي العملية التي نتج عنها بناء المجتمع الأوربي الجديد في العصور الوسطى. وكانت عملية الخلط هذه شاقة وطويلة، ولكنها نجحت - فيما بين القرنين السابع والتاسع - في إيجاد نوع من التنظيم الجزئي في غرب أوربا(١٤). وقد جاهد في سبيل إتمام هذه العملية أعظم ملوك الجرمان ذكرا، مثل ايورك Euric ملك القوط الغربيين في أكوتين في القرن الخامس؛ وكلوفس ملك الفرنجة في القرن السادس؛ وثيودريك ملك القوط الشرقيين في أوائل القرن السادس أيضاً. كذلك شارك في هذه العملية الملوك اللمبارديون في القرنين السابع والثامن. وهكذا حتى قامت الدولة الكارولنجية. فتزعم شارلمان حركة إحياء التراث الروماني، وأرسى قواعد نهضة عظيمة ستكون موضوع بحثنا في الباب الآتي؛ حتى جاء تتويجه إمبراطورا سنة ٨٠٠ إحياءا سياسيا للإمبراطورية في غرب أوربا.

ويهمنا من هذا العرض أن شعور بعض ملوك الجرمان بأنهم ورثة روما، جعلهم يعملون على نشر الحضارة والثقافة، فضلا عن نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم. هذا إلى أنهم لم يدخروا وسعا في العناية باقتصاديات بلادهم - كما فعل الكارولنجيون والأنجلوسكسون - عن طريق تشجيع الناس على العمل بالزراعة والرقي

---

(14) Boissonnade : op. cit., p. 62.

بها، والمحافظة على الغابات وعدم العبث بأشجارها، كما شجعوا الصناعة وتعهدوها بالرعاية والعناية. وفوق هذا وذاك اهتموا بالتجارة، بعد أن وجدوا فيها خير وسيلة تؤدى إلى ازدياد الثروة القومية. وفى سبيل ذلك أصلحوا الطرق وأمنوها، ونظموا الأسواق ووسائل النقل المتباينة. أما فى ميدان النشاط الثقافى والفكرى فى العصور الوسطى، فكان نصيب الأمراء والملوك أهم وأعظم ، حتى صار بلاط الملك أو الأمير ـ فى كثير ـ من الحالات ـ مركزا لنشاط علمى غزير. بل أن بعض النهضات العظيمة التى شهدتها العصور الوسطى ـ كالنهضة الكارولنجية والنهضة الأوتية ـ كان محورها البلاط.

وقد بدأ بلاط الأمير الاقطاعى فى العصور الوسطى بسيطا فى تنظيمه. فمن الناحية الثقافية كثيرا ما كان الأمير نفسه يجهل القراءة والكتابة . ولذا احتفظ فى بلاطه بقسيس ـ على الأقل ـ ليقوم على شئون الدين ويحرر المكاتبات الضرورية. على أن زيادة الأعمال فى بلاط الأمير وكثرة المكاتبات والحسابات، تطلبت بمضى الوقت وجود أرشيف وسكرتير. ولم يكن من المألوف حتى القرن الثانى عشر أن يوجد بالبلاط الاقطاعى مثقف أو مربى للعناية بعقول صغار الأمراء. لأن الحرص على تعليم الأمراء كان أمرا نادرا فى تلك العصور. ومن جهة أخرى لم يخل البلاط من بعض المرتزقة من الشعراء والمهرجين والممثلين الهزليين الذين ترددوا على بلاط الأمراء بين حين وآخر للترفيه عنهم وعن أهل الضيعة، مما جعل البلاط مركزا للأدب الشعبى. وكان الشعراء والممثلون والمهرجون يتكاثرون بوجه خاص فى المناسبات السعيدة التى يحرص الملوك والأمراء على المبالغة فى إحيائها؛ مثل حفلات التتويج أو الزواج أو تدشين أحد الأمراء فارسا. وكثيرا ما كان الشعراء والممثلون يرددون فى تلك الحفلات نماذج من قصص البطولة القديمة عن طروادة وطيبة والاسكندر الأكبر وشارلمان وغيرهم.

ومن الواضح أن رعاية الأمراء والملوك للحياة الثقافية غدت أمرا ضروريا، فى وقت صعب تداول الكتب إلا فى دائرة محدودة. وقد ظهر من الأمراء ـ مثل وليم التاسع دوق أكوتين ـ من قام برعاية الشعر، بل أنه نظمه وتغنى به، حتى اعتبر هذا الأمير أحد أعلام شعراء التروبادور. ومثل هذا يقال عن أمراء شامبنى الذين امتاز أحدهم ـ وهو ثيبوت Thibaut ـ بجودة شعره، والذين وجدت فى بلاطهم نسخة من

كتاب المؤرخ الرومانى فالريوس ماكسيموس، نسخت حوالى سنة ١١٦٧. بل إن بعض صغار الأمراء ـ مثل أمراء جوين Guines على المانش ـ حرصوا على تدوين الأحداث المحلية فى إماراتهم. وبذلك أدوا للتاريخ خدمة كبيرة. أما سكسونيا فنسمع عن بعض أمرائها ـ مثل هنرى الأسد (١١٢٩ - ١١٩٥) ـ أنه قام بدور راعى الحضارة والثقافة فى إمارته. كذلك دأب الأمراء فى إنجلترا ـ وبخاصة فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ـ على تشجيع الأدب والأدباء. وانتشرت هذه الظاهرة بينهم حتى غدا كل أمير يحتفظ بهيئة كاملة من الأدباء والكتاب[15].

وإذا كان هذا هو شأن الأمراء فى أوربا العصور الوسطى، فلابد وأن نصيب الملوك فى رعاية الثقافة والعلوم والآداب كان أوفر بكثير، لما بأيديهم من إمكانات ضخمة فاقت إمكانات الأمراء. وقد سبق أن أشرنا إلى أن نهضات بأكملها جاءت ربيبة بلاط بعض ملوك أوربا واباطرتها فى العصور الوسطى. وهناك أمثلة أخرى عديدة لملوك أوربيين فى تلك العصور عرفوا بحماستهم للعلم والثقافة، حتى جعلوا من بلاطهم مراكز ثقافية ممتازة، يقصدها كل راغب فى الاستزادة. ومن هؤلاء هنرى الثانى ملك إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩) الذى حكم إمبراطورية امتدت من حدود سكتلند حتى البرانس، والذى أحب العلم وأحاط بكثير من اللغات. فضلا عن علاقاته الدولية الواسعة بالممالك الأوربية الأخرى.

والحق أن الملك هنرى الثانى كان أكبر راع للآداب والثقافة فى عصره، فأحب التاريخ وشجع المورخين مما أدى إلى ظهور كثير من الكتابات التاريخية فى عهده، كما اهتم بالقانون والدراسات القانونية. وتتضح رعاية هنرى الثانى للثقافة والعلم فى ترحيبه بالوافدين على بلاطه من العلماء ورجال الدين الأجانب. وهناك فى السجلات الملكية المعاصرة ما يشير إلى أنه منح أحد رجال الدين الوافدين إلى بلاطه سنة ١١٦٤ هبة مالية كبيرة. كما أن وافدا نرويجيا آخر نزل فى ضيافة الملك أكثر من أربعة أشهر سنة ١١٨٢[16]، وأبرز شخصية ظهرت فى إنجلترا فى ذلك اعصر كانت بلا شك شخصية حنا سالسبورى الذى درس الجدل والنحو والمنطق وغيرها من العلوم. ثم عاد الى انجلترا سنة ١١٥٠ ليتمتع بعطف هنرى الثانى؛ فى الوقت الذى كان

(15) Haskins: op. cit., p. 57.

(16) Stubbs: Seventeen Lectures, p. p. 137 - 143.

ماستر فكاريوس يدرس القانون وثيوبولد يرعى تدريس الآداب فى كتدرائية كانتربورى . وقد أثار بكت - رئيس أساقفة كانتربورى - على سيده هنرى الثانى باستدعاء العلماء وطلاب العلم الإنجليز الذين يدرسون بالخارج، فلما عاد هؤلاء حاولوا إيجاد نوع من التعليم العالى فى إنجلترا يشبه ما شاهدوه فى الجامعات الناشئة بالقارة، وبخاصة فى فرنسا وإيطاليا. وهكذا شهد عهد هنرى الثانى تقدما كبيرا فى تطور نظم التعليم بإنجلترا ترتب عليه قيام جامعة أكسفورد، أولى الجامعات الإنجليزية(١٧).

أما بلاط ملوك صقلية منذ القرن الحادى عشر، فكان يغلب عليه الطابع الشرقى - البيزنطى والعربى - كما كان هو الآخر مركزا لنشاط علمى كبير، فاكتظ بالفلكيين والشعراءوالأطباء وغيرهم من العلماء ذوى اللغات واللهجات المتباينة . ويلاحظ على سجلات هذه المملكة أنها خليط من اللغات اللاتينية واليونانية والعربية، الأمر الذى أدى إليه موقع الجزيرة الجغرافى، والتقاء الثقافات الثلاث بها. وكان أن اهتم ملوك صقلية النورمانية بتشجيع العلماء واستدعائهم إلى بلاطهم، حتى صار ذلك البلاط قبلة الأدباء والشعراء والباحثين. ويحكى عن روجر الثانى أنه استدعى الجغرافى العربى الأدريسى إلى بلاطه حيث عهد إليه بعمل نموذج مجسم كبير للكرة الأرضية. كذلك يعرف عن خليفة ذلك الملك - وهو وليم الأول - أنه عهد إلى كبار العلماء والمترجمين المعاصرين، مثل ارستبوس Aristippus وايوجين Eugene ، بالإشراف على الإدارة الملكية فى بالرمو. وهكذا ظل الحال حتى عهد الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٨ – ١٢٥٠) الذى يعتبر - من الناحية الحضارية - امتدادا لعصر ملوك النورمان بصقلية وجنوب إيطاليا، ذلك أن فردريك الثانى لم يكتف بتنظيم كلية الطب فى سالرنو(١٨) ، وإنما قامت فى عهده جامعة نابلى سنة ١٢٢٤ ، واستدعى إليها الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون من جميع الأنحاء، ومنحها كثيرا من الامتيازات والمساعدات المادية والمعنوية(١٩) . وهكذا حرص فردريك الثانى على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكته(٢٠) . ولا عجب فقد حكى المقريزى عن ذلك الإمبراطور أنه كان «عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضات...» . كما حكى عنه أنه عندما

(17) Idem: p. p. 161 - 163.

(18) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. p. 82 - 84.

(19) Idem: vol. II, p. p. 22 - 26.

(٢٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٢ .

حضر إلى الشرق سنة ١٢٢٧ فى حملته الصليبية، كان يصاحبه «معلمه من صقلية يقرأ عليه المنطق...» وقد أجمعت المصادر المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية. وبذلك غدا بلاطه مركزا لحركة علمية واسعة، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا - تحت رعاية فردريك الثانى - بترجمة كتب الفلسفة العربية.

المدن :

أما المدن فيلاحظ أنها لم تظهر على مسرح الحياة الأوربية كعنصر فعال فى بناء حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى إلا فى القرن الحادى عشر. ذلك أن المدينة الرومانية القديمة التى ازدهرت فى عصر الرومان والتى كان لها شأن كبير فى الامبراطورية الرومانية بوصفها مراكز إدارية وحضارية واقتصادية. هذه المدن لم تلبث أن ذبلت نتيجة لاضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها؛ وما أعقب ذلك فى القرون التالية من انتشار النظام الاقطاعى الذى حلت فيه الضياع الكبيرة محل المدن، حتى هجر الملوك المدن وأقاموا فى ضياعهم(٢١). وليس هناك شك فى أن مجتمعا يعتمد على الإنتاج الزراعى وحده، ويرتبط بالأرض، لايمكن أن ينتظر منه اسهاما كبيرا واسع الأفق فى بناء الحضارة وتطورها. ولما كانت التجارة تتطلب قيام مراكز تعتمد عليها فى إتمام عمليات التبادل التجارى(٢٢)، فإنه كان من المستحيل أن يستمر النشاط التجارى الذى أخذ يظهر فى أوربا منذ القرن الحادى عشر دون أن يصحبه نمو المدن الأوربية التى غدت المراكز الأساسية للحركة التجارية الجديدة(٢٣). وهكذا ظهرت المدن مرة أخرى كقوة فعالة على مسرح الحضارة الأوربية، وساعدها على الظهور والنمو عوامل اقتصادية واجتماعية وجغرافية وسياسية(٢٤). ولما كان من المتعذر على المدن أن تمارس نشاطها الحضارى والاقتصادى فى ظل قيود النظام الاقطاعى، فإنها سرعان ما أخذت تتحرر من سيطرة الأمراء الاقطاعيين لتصل إلى كل ما تصبو إليه من نفوذ واستقلال فى ظل ما يعرف باسم الوطنية المدنية

---

(21) Pirenne: A History of Europe, p. p. 94 - 95.

(22) Idem: p. 215.

(23) Idem: p. p. 201 - 204.

(24) Cam. Med. Hist., vol. 5; p. 222 and vol. 6, p. p. 518 - 531.

«Patriotisme Municipal» [٢٥] وازدادت هذه الظاهرة وضوحا بصفة خاصة فى إيطاليا وألمانيا، حيث لم توجد قوة سياسية فعالة تقف فى وجه المدن الناشئة. وهكذا وجد أمراء الاقطاع أنفسهم أمام قوة جديدة عمادها طبقة متوسطة نشطة اتخذت من النشاط التجارى والصناعى دعامة لها، مما هيأ لأفرادها من الموارد المادية ما حقق لهم النمو المستمر والتحرر من سيطرة الأمراء الاقطاعيين[٢٦]. وقد أطلق على تلك المدن التى استطاعت أن تحقق لنفسها كيانا سياسيا واقتصاديا مستقلا اسم القومونات (Communes) . وأصبح لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص الذى كان فى معظم الحالات مقتبسا عن دستور مدينة أخرى، لايشترط أن تكون مجاورة. وتطلب النشاط التجارى الذى قام به أهالى تلك المدن القيام بسفريات كثيرة قد يطول مداها أو يقصر. وفى هذه السفريات يلتقون بأهالى المدن الأخرى، ويمرون بعدد كبير من الأسواق والأديرة والكنائس وأضرحة القديسين، حيث تكثر جموع الوافدين من مختلف أنحاء أوربا، فيأخذون عنهم الأفكار والمعارف الجديدة، ويعودون بها إلى مدنهم، مما ساعد على انتشار الحضارة وارتقاء الحياة الفكرية.

والواقع أن هذا التقدم الذى أصابته المدن الأوربية فى الجزء الأخير من العصور الوسطى صار له أكبر الأثر فى تطور الحضارة الأوربية عامة فى تلك الحقبة. فالقومونات كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على تحطيم النظام الاقطاعى فى أوربا، وبالتالى أدى ذلك فيما بعد إلى قيام نظام الدولة المركزية بدلا من النظام الاقطاعى الذى مزق أوصال أوربا سياسيا مدة طويلة. هذا إلى أن عماد المدن - كما سبق أن أشرنا - كانت الطبقة البورجوازية، أى الطبقة الثالثة من التجار والصناع من غير رجال الدين والنبلاء. وهى الطبقة التى أدى ازدياد نفوذها إلى إحداث ثورة اجتماعية واقتصادية خطيرة فى أوربا . ويكفى أن هذه الطبقة غيرت وجه الحياة فى أوربا باتجاهها إلى التجارة والصناعة بدلا من الحرب والزراعة [٢٧]. وقد ترتب على هذا الاتجاه اتساع الموانى، وإنشاء الأساطيل الحربية والتجارية، وكثرة الإنتاج ، وقيام البنوك والمصارف ، واتساع نطاق أعمالها. هذا إلى أن الحياة التجارية، والصناعية

---

(25) Juilien Luchaire: Les Democraties Italiennes, p. 35.

(26) Pirenne: Med. cities. p. p. 190 - 200.

(27) Gras : The Legacy of the Middle Ages: p. p.435 - 464.

تطلبت ـ كما سبق أن أشرنا ـ كثيرا من المغامرات والتجارب، وهذه أمور نتج عنها تغيير نظرة الناس إلى الحياة وزعزعة أسس العالم القديم وتقاليده . وهكذا أخذ الناس يخرجون من دائرة المألوف ويحكمون عقولهم فيما يشاهدونه ويصادفونه، دون أن يقنعوا بالاستسلام لآراء الكنيسة التى ظلت طوال العصور الوسطى تتحكم فى تفكير الناس وتحدد نطاق ذلك التفكير وفق ما تمليه مصالحها. ولاشك فى أن العالم الحديث يدين للمدن فى تلك الفترة بكثير من التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية. ومن ذلك بعض التنظيمات المتعلقة بالنقابات والجمعيات المنتخبة والنظام البلدى والنظام المصرفى(٢٨) .

أما فى الناحية الثقافية. فقد أسهمت المدن منذ القرن الثانى عشر بنصيب وافر. فإذا كان العامل الأساسى فى قيام تلك المدن وازدهارها هو نشاطها التجارى؛ فإن هذا النشاط يستلزم قدرا من الثقافة وأساسا من الإلمام بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وهكذا لم تعد هناك مدينة فى أوربا منذ القرن الثانى عشر إلا وبها مدرسة(٢٩) . كذلك صار لكل واحدة من تلك المدن أرشيفها وسجلاتها، مما أدى بالتدريج إلى انتقال مراكز التعليم من المدارس الكنسية والديرية إلى مدارس المدن. وقد بدت هذه الظاهرة أكثر وضوحا فى مدن جنوب أوربا، لاسيما إيطاليا، الأمر الذى ساعد عليه عدم اندثار معالم التعليم العلمانى من إيطاليا فى العصور المظلمة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن غالبية المدن الإيطالية كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع الشرق، أدركنا فى سهولة أهمية الدور الذى قامت به تلك المدن فى الحياة الفكرية والثقافية. فالبندقية وبيزة كان لكل منهما حى تجارى فى القسطنطينية وغيرها من مدن الشرق الهامة فى الإمارات الصليبية بالشام، مما أدى إلى تردد المبعوثين والتجار الإيطاليين على المدن التجارية فى الشـــرق، بل أنه وجـــد من الإيطاليين من تولوا مناصب إدارية فى بلاط القسطنطينية. وهكذا نسمع عن جيمس البندقى فى القسطنطينية سنة ١١٣٦، وهو الذى ترجم المنطق الجديد لأرسطو، كما نسمع عن موسى البرجامى الذى امتلك مكتبة ضخمة من المخطوطات اليونانية، والذى كتب فى القسطنطينية أشعارا باللاتينية يتغنى فيها بمدينة برجامو مسقط رأسه. أما برجنديو البيزى فقد قضى حياته الطويلة

---

(28) cam . Med. Hist., vol. 5, p. 239.

(29) Pirenne: A Hist of Europe,. p. 238.

متنقلا بين الشرق والغرب، واستغل درايته باللاتينية واليونانية فى ترجمة كثير من الكتب اليونانية فى اللاهوت والطب إلى اللاتينية.

هذا عن أثر الاتصال بين أهالى المدن الإيطالية بالشرق اليونانى والدولة البيزنطية. أما اتصال الإيطاليين بالعالم العربى الإسلامى فى تلك الحقبة. فقد ظهر أثره أيضًا فى الأشعار التى نظمها أحد مواطنى مدينة بيزة ليتغنى بالانتصار الذى أحرزته هذه المدينة على مسلمى جزيرة ميورقة. كذلك قام ستفن البيزى - فى مدينة أنطاكية - بترجمة بعض الكتابات العربية فى الطب إلى اللاتينية.

حقيقة أن الاتصال بين المدن الإيطالية وبلاد الشرق - البيزنطى والإسلامى- قام فى جوهره على أسس تجارية، ولكننا يجب أن نتذكر حقيقة هامة لم تتغير منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدماء. وهى أنه من الصعب الفصل بين التبادل التجارى والتبادل الفكرى والثقافى(٣٠). فالقافلة أو السفينة التى تحمل البضائع والتجار، هى نفسها التى كانت تحمل الأخبار والأفكار والعلماء والكتب. وإذا كان تبادل المتاجر فى تلك العصور لم يترك سوى آثارا محدودة مؤقتة فى معظم الأحيان ، فإن تبادل الآراء كان أعمق أثرا وأخطر شأنا.

الجامعات:

أما الجامعات فقد ظهرت فى أواخر العصور الوسطى لتصبح مركزا عظيما من مراكز الثقافة والمعرفة والحضارة، وتسهم بدور فعال فى تطوير الحضارة الأوربية ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن الجامعات كانت الإنتاج الكبير المميز لحضارة العصور الوسطى، بالإضافة إلى المؤسسات الكنسية والبرلمانات(٣١).

وسوف نرجىء الكلام عن كل ما يتعلق بنشأة الجامعات الأوربية ونظمها إلى الباب الخاص بالنهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، لأن نشأة الجامعات كانت من أبرز الخصائص التى ميزت تلك النهضة. ولكن يكفى أن نشير الآن إلى أن أهم الجامعات التى ظهرت فى القرن الثانى عشر كانتا جامعة بولونيا فى إيطاليا وجامعة

---

(30) Haskins: op. cit., p. 64.

(31) Haskins: The Rise of Universities. p. 3.

باريس فى فرنسا. وقد تفرعت عنهما بقية الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، حتى صار عددها فى نهاية تلك العصور نحو ثمانين جامعة على الأقل[٣٢].

ولكى ندرك أثر الجامعات فى تقدم الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى يكفى أن نعرف أنها فى ذلك الدور المبكر من تاريخها كانت تقبل الطلاب الوافدين إليها من مختلف البلاد والأنحاء دون اعتبار للجنس. كذلك اشتهرت كل جامعة منها بفرع من فروع الدراسات العليا. فجامعة بولونيا اشتهرت بالقانون، وجامعة باريس تفوقت فى الفلسفة واللاهوت، وجامعة سالرنو تخصصت فى الطب... وكان يقوم بتدريس هذه المواد أساتذة متخصصون لهم شهرتهم التى جذبت الطلاب من أماكن بعيدة للدرس عليهم. وقد أدت النظم الجامعية فى العصور الوسطى إلى تقوية الصلات الحيوية والاجتماعية والثقافية بين الأستاذ وزميله، وبين الطالب وأستاذه، وبين الطلبة بعضهم وبعض. ولم تقم نظرية الجامعة فى تلك العصور على مجرد فكرة حشو العقول بالمعارف وإعدادها للامتحان فى برامج معينة، وإنما كان هدف الجامعة إمداد المجتمع الأوربى بأفراد متعلمين لديهم رغبة صادقة فى استخدام علمهم لمنفعة المجتمع الذى يعيشون فيه. ومن هنا لم يقتصر أثر الجامعات على الناحية الثقافية فحسب، بل امتد إلى الناحية الحضارية بمعناها الواسع الشامل. ولذلك شبه بعض الكتاب جامعات العصور الوسطى بأنها كانت المرآة التى انعكست فيها حضارة أوربا فى تلك العصور[٣٣].

ذلك أن الجامعات ساعدت على حفظ الشىء الكثير من تراث العصور الوسطى. هذا إلى أنها - بوصفها هيئات لها علاقة بالكنيسة من جهة والدولة من جهة أخرى - صار لها أثر كبير فى السياسة المحلية والسياسة الدولية. من ذلك الدور الذى قام به أساتذة الجامعات فى توجيه الحياة العامة فى الجمهوريات الناشئة فى إيطاليا. وفى باريس غدت الجامعة عاملا هاما فى توجيه الرأى العام، وذلك فى عصر قلت العوامل الموجهة لهذا الرأى. هذا إلى أثر الجامعات فى الحركات الفكرية ذات الصبغة الدينية

(32) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. p. XXIV.

(33) Eyre: op. cit., p. p. 333 - 334.

التى ظهرت فى أوربا أواخر العصورالوسطى(٣٤) . ثم أن هناك أثر آخر غير مباشر للجامعات يبدو فى تأثير العلوم والمعارف التى احتضنتها وقامت على تدريسها. ولا يستطيع أحد أن ينكر ما ترتب على التوسع فى دراسة القانون أواللاهوت أوالفلسفة من أثر فى الحياة العامة بأوربا من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية. ويكفى أنه لم يكن فى استطاعة فرد فقير أو ضعيف المقدرة أن يصل إلى شيء من النفوذ والقوة فى العصور الوسطى إلا عن طريق الجامعات(٣٥).

* * *

وبعد، فإن هذه كانت المراكز الرئيسية للحضارة والمعرفة فى أوربا العصور الوسطى. أما ما كان هناك من اتصالات وتيارات فكرية داخل نطاق كل منها، وفيما بينها وبين بعض ، فلا نعرف عنها سوى القليل. وكل ما هنالك هو أن الطرق القديمة المألوفة التى لم يعرف الأوربيون غيرها منذ أيام الرومان - سواء كانت برية أو نهرية أو بحرية - ظلت تمثل الروابط الأساسية التى ربطت بين المراكز السابقة، لأنها كانت تصل بين المدن الرومانية القديمة، وهى المدن التى غدا معظمها فى العصور الوسطى مراكز لكتدرائيات هامة، ومراكز أسقفية شهيرة، وأديرة معروفة. على أنه يبدو أن الاتصال الفكرى بين مراكز الحضارة والمعرفة فى العصور الوسطى ظل ضعيفا، وذلك لمشقة السفر والانتقال من ناحية، وافتقار الطرق إلى الأمن والحماية من ناحية أخرى.

* * *

الحضارة الغربية فى العصورالوسطى حتى شارلمان:

نستطيع أن نخرج من هذا العرض السابق بفكرة واضحة عن مراكز الثقافة والمعرفة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى. ولكن ما هذه الثقافة التى نقصدها، والتى سبق أن أشرنا إلى أن بقاءها يعتبر خير دليل على استمرار الحضارة الأوربية فى تلك العصور؟

---

(٣٤) عن أثر الجامعات فى الحياة الأوربية فى العصورالوسطى، انظر كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى - تأليف الدكتور سعيد عاشور) ص ١٩٢ - ٣١٢.

(35) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 597 - 601.

الواقع أننا نقصد بهذه الثقافة التراث اللاتينى الذى ظل حيا طوال العصور الوسطى، والذى يعتبر خير مقياس للوقوف على مدى ما أصابته الحضارة الأوربية فى تلك العصور من ارتفاع أو هبوط. والصلة بين المسيحية واللاتينية قديمة ترجع إلى أيام الرومان، لأن الفكر اللاتينى لم يكن سوى ركنا من أركان المحيط الوثنى الواسع الذى ولدت المسيحية وسطه، والذى دخلت معه فى صراع رهيب. ولم يكن فى استطاعة أهالى غرب أوربا فى العصور الوسطى أن يتخلوا عن التراث الرومانى فى اللغة والأدب والعلوم ، لأنهم تقبلوا هذا التراث على أنه جزء من أمجاد الآباء والأجداد، هذا إلى أن اللغة اللاتينية ظلت لغة الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى، فدونت بها كتبها الدينية وقوانينها ونظمها وتعاليمها، وأقيمت بها طقوسها وصلواتها. وما دامت هذه الصفة ملازمة للغة اللاتينية، فإن كتب الأدب الرومانى استمرت مفتوحة يقرؤها كل من حصل على قسط من الثقافة الدينية. كما استمرت معرفة اللغة اللاتينية بمثابة مؤهل لابد منه لرجال الدين فى الغرب.

ولكن معظم الكتب والدراسات اللاتينية القديمة كانت وثنية الطابع بحكم أن مؤلفيها وثنيون. ومن ثم اتصفت بالإقبال على الدنيا والرغبة فى لذاتها ومباهجها، مما جعل التناقض بينها وبين تعاليم المسيحية يبدو ظاهرا. لذلك أنقسم رجال الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى حول مدى ما يسمح به من تعمق فى الدراسات اللاتينية، فهناك فريق من المتزمتين رأى أن تضيق دائرة الدراسات اللاتينية إلى الحد الذى لايتعدى الألمام بقواعد اللغة ونحوها، بحيث يكفى الفرد أن يفهم الأسلوب اللاتينى. واعتبر هؤلاء أية دراسة أعمق من ذلك لتراث القدماء الوثنيين إنما هى مضيعة للوقت ومفسدة للنفس، ومجلبة لتدنيس الروح. ويتضح هذا الاتجاه فيما قرره مجمع قرطاجة الدينى سنة ٣٩٨ من تحريم قراءة كتب غير المسيحيين. كما يتضح فيما ذكره مندوب بابوى فى القرن العاشر من أن «اتباع القديس بطرس ومريديه لا يصح أن يتخذوا الشاعر الرومانى ترنس Terence (١٩٥ ق. م) قدوة لهم»، بل أن البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) عارض مبدأ التزود بقسط ضئيل من الدراسة اللغوية، إذا كانت هذه الدراسة مستمدة من كتب الوثنيين. ولعل هذا الاتجاه هو الذى دفع بعض النحاة فى القرن التاسع إلى عمل كتاب فى أصول اللغة اللاتينية، مستمدين أمثلتهم من الترجمة اللاتينية للإنجيل ، على الرغم من عدم دقة هذه الترجمة.

على أن التراث اللاتينى ظل مع ذلك يمثل أكبر قوة فعالة فى الدراسات الأدبية طوال العصور الوسطى. فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب، استمرت إيطاليا المركز الأول للدراسات اللاتينية، حيث ظهر على عهد ثيودريك ملك القوط الشرقيين (٤٥٤ – ٥٢٦) الفيلسوف اللاتينى بوئثيوس Boethius (٤٧٠ – ٥٢٥)؛ والأديب اللاتينى كاسيدورس Cassiodorus (٤٦٠ – ٥٨٢) الذى يعتبر أكبر كتاب القرن السادس[٣٦]. وعقب وفاة ثيودريك هذا انتقل مركز الثقافة اللاتينية من إيطاليا إلى شمال أفريقية، حيث ظهر بعض الكتاب مثل الأسقف فركندوس Verecundus (ت ٥٥٢) الذى يشير فى كتاباته إلى كثير من قدماء الكتاب أمثال بلينى Pliny (ت٧٩) وسولينوس Solinus (القرن الثالث للميلاد) وغيرهما. على أن نهاية مملكة الوندال بأفريقية كانت بداية لانتقال النشاط الأدبى إلى أسبانيا التى هرب اليها كثير من رجال العلم والدين بشمال أفريقية فارين من وجه الفتح العربى ،حاملين معهم كتبهم وعلومهم،[٣٧]. لذلك ظهر فى أسبانيا فى أواخر القرن السادس وفى القرن السابع بعض الأدباء الذين حملوا لواء اللاتينية فى ذلك العصر مثل ايسيدور الأشبيلى Isidore of Seville (٥٧٠ – ٦٣٦) الذى يعتبر رائد الحركة العلمية فى عصره، والذى ألف عشرين كتابا صارت بمثابة دائرة معارف ضخمة طوال العصور الوسطى[٣٨]. ومثل جوليان الطليطلى Julian of Toledo (ت ٦٩٠) الذى كتب فى التاريخ واللاهوت والنحو[٣٩].

وبينما الأدب اللاتينى لايزال مزدهرا فى أسبانيا، ظهر فى غاليا بعض أعلام اللاتينية مثل الشاعر فورتناتوس Venantius Fortunatus (٥٣٠ – ٦٠٩)، والكاتب الشهير جريجورى التورى Gregory of Tours (٥٣٨ – ٥٩٤)، الذى تعتبر كتاباته أول مصدر لتاريخ غاليا فى العصور الوسطى[٤٠] ولكن لم يلبث أن اعترى الدراسات اللاتينية فتور فى صلب القارة الأوربية فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن. وفى ذلك الوقت ظهرت أيرلند لتخلف إيطاليا وشمال أفريقية وأسبانيا وغاليا فى ميدان

(36) Eyre: op. cit., p. 264.

(37) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 488 - 489.

(38) Idem: p. p. 491 - 492 and Eyre: op. cit., p. 265.

(39) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 493.

(40) Idem: p. p. 495 - 496 and Eyre: op. cit., p. 265.

تلك الدراسات. ولاداعى للخوض فى أصول النهضة الأيرلندية العظيمة(٤١)، وإنما تكفى الأشارة إلى أن هذه النهضة أخذت تظهر فى القرن السابع وتزعمتها الكنيسة الأيرلندية، التى تم بفضلها ظهور أنتاج ضخم متنوع فى اللاهوت والفلسفة والأدب وغيرها من العلوم. والواقع أننا لا نكون مبالغين إذا قررنا أن أيرلندا هى التى حملت شعلة المعرفة لتنير الطريق أمام بلاد غرب أوربا فى ذلك العصر المظلم الذى انتشرت فيه الفوضى والإغارات والحروب فى بلاد القارة(٤٢). ولم تقتصر الدراسات فى أيرلندا على اللاتينية وتراثها، وإنما امتدت إلى اليونانية التى يرجح أنها درست هناك فى القرن السابع (٤٣). وقد استمرت هذه النهضة الأيرلندية مزدهرة حتى القرن التاسع، عندما حمل لواءها يوحنا سكوتس Joannes Scottus (٨٣٣ – ٨٨٠) أبرز أساتذة القرن التاسع وأول فيلسوف مدرسى(٤٤).

ولم يقتصر بريق النهضة الأيرلندية على أيرلندا، وإنما امتد إلى البلاد المجاورة. وساعد على ذلك حب الأيرلنديين للهجرة بسبب فقرهم، وكذلك الرحلات العديدة التى قام بها رجال الدين والعلم الأيرلنديون إلى مختلف بلاد غرب أوربا، حاملين معهم علومهم وثقافتهم أينما ذهبوا(٤٥). وقد أسس الأيرلنديون أديرة عديدة فى صلب القارة. قدر لها أن تستمر مراكز للثقافة والحضارة عدة قرون فى العصور الوسطى. وكان أن ظهر أول صدى لهذا النشاط فى إنجلترا، حيث تضافرت جهود البعثات الكلتية والرومانية فى نشر المسيحية. ولم تلبث هذه البعثات أن واصلت جهودها العلمية والأدبية(٤٦)، حتى بلغت هذه الحركة ذروتها فى القرن الثامن على عصر يدى (٦٧٥ – ٧٣٥)، وهو العالم والأديب والمؤرخ الخالد الذكر. ويعتبر نشاطه بداية

---

(41) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 501 - 506.

(42) Lane-Poole: Illustrations of the Hist. of Med. Thought; p. 8.

(43) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 502 - 504.

(٤٤) يوحنا سكوتس هذا أيرلندى وليس اسكتلنديا كما يبدو لأول وهلة من اسمه. ذلك أن أيرلندا كانت تسمى Scottia فى العصور القديمة. ولم يطلق هذا الاسم الأخير على الجزء المعروف الآن باسم اسكتلند إلا فى القرن الثانى عشر عندما هاجر إليه الأيرلنديون.
انظر (Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 424).

(45) Lane-Poole: op. cit., p. 8.

(46) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 508.

عهد جديد اتخذ فيه الأدب اللاتينى شكله الذى ميزه بقية العصور الوسطى(٤٧). وبعد وفاة بدى بقليل ولد الكوين Alcuin (٧٣٥ - ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى فى بريطانيا وغاليا. والذى استعان به شارلمان فى النهضة العظيمة التى عرفت بالنهضة الكارولنجية.

* * *

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض السريع أن ركاب الحضارة الأوربية لم يتوقف فى العصور الوسطى، وأن شعلة المعرفة لم تنطفئ عقب سقوط الإمبراطورية الغربية فى أواخر القرن الخامس، وإنما ظلت مضيئة تنتقل من بلد إلى آخر، حتى اشتد بريقها فى أواخر القرن الثامن فى غاليا على عصر شارلمان، كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى.

---

(47) Idem: p. 511 & Eyre: op. cit., vol. 3, p. 368.

الباب الثانى عشر
النهضة الكارولنجية

مقدمة تاريخية:

من المبادئ المسلم بها فى تاريخ العصور الوسطى أن الخلاف الشديد فى العقيدة بين الجرمان الأريوسين ورعاياهم من الرومان الاثناسيوسيين(١) هو السبب الرئيسى فى سرعة تفكك معظم الممالك الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا منذ أواخر القرن الخامس. ولكن هذا القول لا ينطبق فى الواقع على واحدة من تلك الممالك، هى مملكة الفرنجة التى استطاعت البقاء والاستمرار والنمو لسبب واضح، هو أن ملكها كلوفس اعتنق المسيحية الاثناسيوسية سنة ٤٩٦. وبذلك تحاشى الاصطدام بالصخرة التى تحطمت عليها بقية الممالك الجرمانية، كما بدا فى نظر الرومان - وفى نظر الكنيسة - القوة الوحيدة التى تستطيع أن تحمى العالم الرومانى والكنيسة الغربية من خطر بقية الجرمان الأريوسيين.

وهذه الدولة الجديدة التى وضع أساسها كلوفس، والتى عرفت باسم الدولة الميروفنجية، لم تظل جرمانية بحتة ولم تصبح رومانية صرفة. وإنما غدت بين هذه وتلك: فاحتفظت ببعض الخصائص والأصول الجرمانية وأخذت كثيرا من عناصر الحضارة الرومانية. ثم عملت على صهر هذه الأصول الجرمانية والرومانية جميعا فى بوتقة المسيحية الغربية، مما جعل دولة الفرنجة فى النهاية أقدر من غيرها على إحياء تراث الامبراطورية الرومانية(٢). وأن نظرة عاجلة يلقيها الباحث على أحوال غاليا فى العصر الميروفنجى لتوضح أن ملوك البيت الميروفنجى أدركوا أن مملكتهم غدت جزءا هاما من العالم المسيحى، فأخذوا على عاتقهم حماية الشعب، كما قاموا بغزو جزء كبير من البلاد التى يطلق عليها اليوم اسم فرنسا، ثم تحضير هذه البلاد وتوفير الأمن فيها والاستقرار لها. وهكذا نرى الفلاح فى غاليا فى العصر الميروفنجى يباشر عمله فى حقله بالضبط مثلما كان يفعل تحت حكم أباطرة الرومان. كذلك نسمع فى ذلك العصر عن ظهور بعض الشخصيات الهامة التى ميزت الحياة الحضارية والفكرية، مثل

---

(١) عن المذهبين الاريوسى والاثناسيوسى انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(2) Lavisse: Hist. de France, Tome II. Livre 1, p. p. 171 - 172.

الشـاعـر فـورتناتوس Fortunatus Venantius (٥٣٠ – ٦٠٩) الذى شـغل منصب أسقف بواتيه، والمؤرخ جريجورى التورى (٥٣٨ – ٦٩٤) الذى شغل منصب أسقف تور وكتب مؤلفا شهيرا فى تاريخ الفرنجة. وعلى الرغم من اضمحلال مستوى اللغة اللاتينية فى ذلك العصر، إلا أنها استمرت وانتشرت ، وانتقل استعمالها من أهالى البلاد الأصليين الرومان إلى حكامهم الفرنجة، حتى أننا نستطيع القول بأن المجتمع الذى قام فى غاليا فى القرن السادس إنما كان مجتمعا رومانيا عمل على تهذيب الفرنجة. ورفع مستواهم عن طريق الكنيسة ومؤسساتها[٣].

على أن المملكة الميروفنجية سرعان ما اعتراها الضعف والوهن. وظهر هذا الضعف جليا فى أوائل القرن السابع، وعندئذ لم يقتصر على الجانب السياسى، وانما صحبه فساد فى الحياة الفكرية وانحلال فى الحياة الاجتماعية، حتى أننا إذا نظرنا إلى التطور الحضارى والفكرى فى غرب أوربا منذ القرن الخامس حتى العصور الحديثة، فإننا نلاحظ أن مستوى الحضارة الأوربية بلغ أحط درجاته فى القرن السابع[٤]. وليس هذا مجال الخوض فى أسباب ذلك التدهور ومظاهره، وانما الذى يهمنا هو أن ضعف ملوك البيت الميروفنجى ترتب عليه ازدياد نفوذ رؤساء البلاط Mayors of the Palace، حتى جاء وقت تركزت السلطة فى أيديهم، وأصبح الملوك لا حول لهم ولا قوة. وازدادت مكانة رؤساء البلاط عندما استطاع أحدهم - وهو شارل مارتل - أن يحرز نصرا على المسلمين الذين زحفوا من الأندلس على جنوب غاليا بقيادة عبد الرحمن الغافقى، واستمروا فى تقدمهم حتى هزمهم شارل مارتل فى موقعة تور أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢، وأجبرهم على الانسحاب إلى أيبريا. ويهمنا من هذا النصر أنه أكسب شارل وأسرته هيبة عظيمة، إذ أخذ الناس ينظرون إلى تلك الأسرة على أنها حامية المسيحية، وأن مصير الكنيسة الغربية أضحى مرتبطا بشارل وأسرته[٥]. وأخيرا استطاع رئيس البلاط بيبين القصير أن يواجه الموقف فى شجاعة، فأعلن نفسه ملكا على الفرنجة سنة ٧٥٢، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية وحلت محلها فى الحكم أسرة جديدة من سلالة رؤساء البلاط عرفت بالأسرة الكارولنجية[٦].

---

(3) Eyre: op. cit., vol III, p. 54.

(4) Guizot: Hist. de la Civilisation en France, Tome II, p. 178.

(5) Pirenne: A Hist. of Europe, p. p. 74 - 75 & Eyre: op. cit., p. 66.

(٦) نسبة إلى شارل أو كارل العظيم (شرلمان) : أشهر حكام تلك الأسرة.

والواقع أن أهم ما ميز تاريخ دولة الفرنجة بوجه عام والأسرة الكارولنجية بوجه خاص، هو ذلك التحالف الوثيق الذى ربط الدولة بالكنيسة. ذلك أن البابوية - فى ذلك الدور من تاريخها - كانت فى حاجة ماسة إلى مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين، الذى أخذوا يتوسعون فى إيطاليا، فى الوقت الذى كان مسلك الدولة البيزنطية العدائى تجاه الكنيسة الغربية لا يشجع البابوية على الاستنجاد بها ضد اللمبارديين، لذلك حدث عندما أرسل بيبين القصير رئيس البلاط إلى البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢) يسأله عما إذا كان من الأصلح أن يكون التاج للشخص الذى بيده السلطة الفعلية فى الدولة - وهو رئيس البلاط - جاءه رد البابا فورا بالموافقة. ولم يلبث أن عبر البابا ستفن الثانى جبال الألب ليتوج بيبين وولديه سنة ٧٥٤. وهكذا بدأ بيبين القصير سياسة التحالف بين دولة الفرنجة من ناحية والكنيسة والبابوية من ناحية أخرى، وهى السياسة التى ازدادت وضوحا فى عصر ابنه وخليفته شارلمان، ولم يكتف البابا ستفن الثانى بتتويج بيبين القصير بنفسه، بل اختار أن يزيده تشريفا بمنحه لقب البطريقية(٧) وأراد البابا بهذا التشريف الذى خلعه على أول ملوك الأسرة الكارولنجية أن يزيد من قدره ومقدرته، حتى يصبح قوة فعالة فى مساندة البابوية ضد أعدائها(٨) وسرعان ما أثبت بيبين القصير أنه عند حسن ظن البابوية، فشن حربا سريعة على اللمبارديين، واسترد منهم عدة مناطق ومدن منحها للبابوية، متجاهلا كل ماللإمبراطورية البيزنطية من حقوق شرعية فى إيطاليا. كذلك قام بيبين بعدة غزوات فى ألمانيا فأخضع عنصر الألمان، وضم جزءا من بافاريا إلى مملكته، فضلاعن قيامه بغزو سكسونيا أكثر من مرة.

---

(٧) كان لقب البطريقية Patricius هذا خاصا بالمواطنين الرومان القدماء، عندما كان شعب روما ينقسم إلى طبقتين: البطارقة والعامة. والطبقة الأولى هى الممتازة التى تمتعت وحدها بكافة الامتيازات والحقوق السياسية. وفى عهد الامبراطور قسطنطين تطور معنى لفظ البطريقية وأصبح لقبا من ألقاب التشريف، يمنح لكبار الشخصيات مقابل ما يؤدونه من خدمات ومساعدات. وكانت أول مرة تقوم فيها البابوية بمنح هذا اللقب على عهد البابا ستفن الثانى وبيبين القصير ملك الفرنجة. وعندئذ يبدو أن لقب البطريقية اتخذ معنى «حامى الكنيسة». «Patronus of the Church»

(8) Davis : Charlmagne; p. 51.

ولم تلبث هذه السياسة التي اتبعها بيبين القصير أن سار عليها ابنه شارل العظيم - أو شارلمان - عندما آل اليه الحكم بالاشتراك مع أخيه كارلومان سنة ٧٦٨؛ ثم توسع فيها عندما انفرد بالحكم سنة ٧٧١. وليس هذا مجال دراسة حروب شارلمان الطويلة، وانما تكفى الأشارة إلى أنه نجح فى إخضاع السكسون وفى أخضاع بافاريا، كما استجاب لنداء البابوية، فهب لنصرتها ضد اللمبارديين سنة ٧٧٣، واستولى على كثير من مدنهم الهامة مثل فيرونا وبافيا حتى استحق لقب ملك اللمبارديين سنة ٧٧٤.

ويهمنا من أمر هذه الحروب التى قام بها شارلمان أنها وحدت غاليا، وحمت أطرافها ومكنت من قيام حكومة قوية مستقرة فيها، وبالتالى مكنتها من المساهمة بدور هام فى التطور الحضارى لأوربا. هذا إلى أن الحروب الشارلمانية اتخذت طابعا صليبيا إلى حد ما، لأن حروب شارلمان ضد الألمان والسكسون وغيرها من عناصر الجرمان انما تعنى انتشار المسيحية بين تلك العناصر الوثنية. فجيوش شارلمان صحبتها فى زحفها من مكان إلى آخر بعثات الكنيسة التنصيرية مما أظهر الدولة الكارولنجية فى صورة القوة الحريصة على نشر المسيحية وحماية الكنيسة الغربية(٩).

وقد حدث أثناء حصار شارلمان لمدينة بافيا سنة ٧٧٤ أن اغتنم الفرصة لزيارة البابا أدريان الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) فى روما، فاحتفل به أهالى روما احتفالا عظيما، ورحب به البابا ترحيبا يسترعى الانتباه، حتى صنعت ميدالية تذكارية تخليدا لتلك المقابلة الهامة بين شارلمان والبابا، ورسم عليها الزعيمان وقد تصافحت أيديهما فوق الإنجيل.

وإذا كانت هذه هى المرة الأولى التى يزور فيها شارل العظيم روما، فلاشك فى أن عظمة وروعة ما فيها من آثار وبقايا امبراطورية، بهرت عينيه، وأثارت فى نفسه خواطر كثيرة نحو الطموح وإحياء عظمة الماضى. ويبدو أن أهم الخواطر التى أثارتها زيارة شارل لعاصمة أباطرة الرومان كان الرغبة فى الوصول إلى مكانتهم وعظمتهم، ومن ثم حرص ذلك الحاكم الطموح البعيد النظر على مواصلة تلك السياسة الداخلية والخارجية التى جعلت منه فى أعين المعاصرين خليفة قيصر والتى أدت إلى تتويجه امبراطورا بيد البابا سنة ٨٠٠.

---

(9) Eyre: op. cit., p. 86.

وهنا نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن الناس فى العصور الوسطى نظروا دائما نحو الماضى، نحو روما وعظمتها ومجدها. وإذا كان المعاصرون فى الغرب الأوربى قد اعتبروا سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ نذيرا بنهاية العالم، إلا أنهم اعتقدوا كذلك فى أنه إذا بقى هناك ثمة أمل فى خير يصيبه العالم الغربى، فإن هذا الأمل لن يتحقق إلا بإحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب. حقيقة أن هناك إمبراطورية أخرى ظلت قائمة فى القسطنطينية، ولكن غرب أوربا اعتبر تلك الإمبراطورية غريبة وغير رومانية، لأنها شرقية الطابع، يونانية اللغة والحضارة، أرثوذكسية المذهب. وإذا كان الغرب الأوربى ظل دائما يرنو نحو إحياء الإمبراطورية التى سقطت سنة ٤٧٦، فإنه لم تظهر ـ منذ ذلك الوقت حتى القرن الثامن ـ شخصية مثل شارلمان استحقت أن تنفرد بشرف إحياء الإمبراطورية. ويكفى أنه الرجل الذى قاد الفرنجة من نصر إلى آخر، والذى حارب أعداء المسيحية وعمل على نشرها بين ربوع الوثنية المظلمة؛ كما رفع شأن الكنيسة ورجالها وحمى زعيمها من الوقوع فريسة فى أيدى أعدائه. هذا فضلا عن النهضة الحضارية الشاملة التى تزعمها شارل العظيم والتى جعلت منه خليقا بأن يرث أباطرة الرومان القدامى فى عظمتهم وعلو كلمتهم. وإذا كان التاريخ قد أثبت فى حالات كثيرة أنه ليس من الضرورى أن يرتبط التطور الحضارى والقومى بجهود فرد معين، إلا أنه ثبت فى بعض الحالات ـ وعلى رأسها حالة شارلمان ـ أنه من الممكن أنه يغير فرد وجه التاريخ. فلولا شارلمان لتأخر نمو الحضارة الأوربية وتطورها، ولأعوز تلك الحضارة بعض العناصر التى تميزها اليوم. والحق أن الكنيسة الكاثوليكية لم تبالغ عندما سجلت اسم شارلمان ضمن أولئك الذين أسسوا مدينة الله على الأرض. ولم تخطئ الملاحم الشعبية عندما صورت شارلمان فى صورة الصليبى الأول الذى رسم سياسة الحروب الدينية فى العصور الوسطى، وجعل من البلاد المسيحية معسكرا مسلحا يدافع عن الكنيسة وكيانها وأهدافها، كذلك لم تبتعد المصادر التاريخية عن الواقع عندما نسبت إلى عصر شارلمان الخيوط الأولى لنشأة النظام الاقطاعى فى غرب أوربا.

ومهما يكن الأمر، فإن ما يعنينا فى هذا العرض، هو أن شارلمان ـ على الرغم من ضعف مستواه الثقافى ـ استطاع أن يتزعم نهضة فكرية عظيمة شملت الاتجاهات الثقافية والاقتصادية والفنية. وتركزت فى فرنسا، لتمتد إلى أنحاء مختلفة من ألمانيا

وإيطاليا وأسبانيا[١٠]. ولا أقل قبل الكلام على أوجه هذه النهضة من الإشارة أولا إلى خصائصها العامة.

خصائص النهضة الكارولنجية:

لعل أول ما نلاحظ على النهضة الكارولنجية أنها مصطنعة، حدثت بفعل فاعل. وبعبارة أخرى قامت هذه النهضة، لأن شارلمان أراد لها أن تقوم، وأراد أن تكون هناك نهضة. فهى ليست نهضة تلقائية شاملة، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية طبيعية كامنة. وإنما ولدت فى بلاط الملك، ونمت وترعرت فيه، وظلت ربيبة شارلمان وخلفائه المباشرين إلى أن ماتت وخمدت جذويتها بالسرعة التى ظهرت بها. ولعل هذا هو السبب فى أن النهضة الكارولنجية إذا قورنت بغيرها من الحركات الحضارية فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة. فإنها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر، لأنها ارتبطت فى مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها ويرعاها، فظلت منتعشة ما عاش صاحبها، حتى إذا مات ماتت معه أو بعده بقليل.

كذلك لم يكن شارلمان فى اهتمامه بنشر العلم والثقافة مهتما بخدمة العلم لذاته، وإنما كانت له أهداف دينية وسياسية، سنوضحها فيما بعد. وإذا كانت هذه الحركة الحضارية قد تخطت أهدافها، فإن هذا الأمر جاء نتيجة المصادفات، ولم يكن أمرا مقصودا.

كذلك نلاحظ على النهضة الكارولنجية أنها كانت حركة إحياء Revival أكثر منها حركة ابتكار وتجديد، ونقصد بالإحياء هنا إحياء الدراسات اللاتينية ورفع مستوى اللغة اللاتينية، بعد أن انحط انحطاطا بالغا فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب. وبعبارة أخرى فإن الدور الأساسى لهذه النهضة انحصر فى المحافظة على التراث اللاتينى القديم.

أعلام النهضة الكارولنجية:

لم يدخر شارلمان وسعا فى حشد الكفايات التى يمكن أن تفيده فى تحقيق سياسته، وتعينه على النهوض بأغراضه، فاجتذب هذه الكفايات من جميع الأنحاء

(10) Foligno: Latin Thought During the Middle Ages, p. 68.

والبلاد، لاسيما أيرلندا وإنجلترا، حتى قيل أن الأيرلنديين والأنجلوسكسون كانوا الزعماء الحقيقيين للنهضة الكارولنجية[١١]. وأغرى هؤلاء العلماء على قصد بلاط شارلمان، ما قدمه لهم من عطايا جزيلة، فضلا عما شملهم به من عطف ورعاية وحماية[١٢]. وقد ساعد كل ذلك على قيام نهضة علمية شاملة كان مركزها بلاط شارلمان ومرت بثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى، وتشمل الفترة من سنة ٧٧٣ حتى سنة ٧٨٦ وفيها كان النفوذ الأكبر للأدباء ورجال المعرفة الإيطاليين. والمرحلة الثانية: وتشمل الفترة من سنة ٧٨٦ حتى ٨٠٠ ويمكن تسميتها عصر الكوين، وفيها بلغت النهضة الكارولنجية ذروتها. والمرحلة الثالثة من سنة ٨٠٠ حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ وكانت فترة ظهور بطيء تدريجي، وأهم من برز فيها ثيودلف وانجلبرت واجنهارد (اينهارد).

أما المرحلة الأولى فأبرز أعلامها بطرس البيزى، وبولينوس، وبولس الشماس. وجميعهم وفدوا من إيطاليا حيث ظلت بعض آثار الحياة الثقافية حية قائمة، وإن أمست فى حالة ركود. وكان بطرس البيزى قد تلقى علومه فى مدرسة بافيا ثم انتقل إلى غاليا حيث حظى بشرف تعليم شارلمان[١٣]. أما بولينوس فكان أسقف أكويليا[١٤]، ومربيا لأبناء ديدير آخر ملوك اللمبارديين الذى أسقطه شارلمان سنة ٧٧٤، ومن ثم انتقل بولينوس مع شارلمان إلى غاليا حيث استغل نشاطه فى النواحى التعليمية والدينية [١٥]. وأما بولس الشماس فقد وضع كتابا عن تاريخ اللمبارديين، كما وضع مختصرا لمعجم بومبى فستوس Pompeius Festus. وكل من هذين العملين على جانب كبير من الأهمية، فكتابه عن تاريخ اللمبارديين أكسبه لقب «أبو التاريخ الإيطالى». فى حين أن معجم بومبى فستوس كان مختصرا لمعجم فريوس فلاكوس Verirus Flaccus الكبير الذى لم تتبق منه سوى نسخة فى نابلى تآكل نصفها. ولولا ما حفظه لنا بولس الشماس من موجز للجزء المفقود لتناقصت إلى حد بعيد معرفتنا باللغة اللاتينية الكلاسيكية القديمة. ويلاحظ أن بولس الشماس قام بهذين العملين بناءا

(11) Foligno: Latin Thought , p. 68.

(12) Taylre: Med. Mind, Vol .1, p. 214.

(13) Idem, p. 215.

(١٤) الاقليم المحيط بتريستا على الطرف الشمالى للبحر الأدرياتى.

(15) Lavisse: op. cit., p. 343.

على تكليف من شارلمان، الذى رأى أن يستخدم بولس فى أغراض تعليمية، وفى جميع التراتيل والنصوص الدينية، لاستخدامها فى الكنيسة(١٦). ومن المعروف كذلك أن شارلمان كان يقدر بولس الشماس وبطرس البيزى لكفايتهما فى النحو اللاتينى وقدرتهما على تدريسه. وقد ترك كلاهما بعض كتابات فى موضوع النحو. وهو موضوع تعرض له معظم علماء ذلك العصر، عندما بذلت جهود جبارة أيام النهضة الكارولنجية لرفع مستوى التعليم ومستوى اللغة اللاتينية، مما تتطلب كثرة التصنيف فى النحو اللاتينى. حقيقة أن هؤلاء المصنفين لم يضيفوا من عندهم شيئا جديدا، اللهم الا من ناحية تنظيم المادة وحسن عرضها، ولكنهم مع ذلك يستحقون التقدير، نظرا لأنهم سدوا حاجة عدة أجيال تالية من طالبى العلم والمعرفة(١٧). وقبل ان نترك بولس الشماس يصح أن نشير إلي أنه كان يجهل اليونانية. وليس هذا بالشيء العجيب، إذا عرفنا أن أثر الثقافة اليونانية لم يظهر فى انتاج اعلام النهضة الكارولنجية بوجه عام نظرا لقلة الكتب اليونانية بين أيديهم. ولكن ليس معنى ذلك أن علماء ذلك العصر جميعا كانوا يجهلون اليونانية، إذ من الثابت أن كثيرا منهم تعلموها وأحاطوا بقواعدها. ولكن الحاصل على أنهم بعد تعلم اللغة اليونانية وإجادتها كانوا لايجدون أمامهم المؤلفات والمراجع اليونانية التى يمكن أن يستفيدوا منها. وهذا هو السبب فى عدم الإقبال على دراسة اللغة اليونانية فى ذلك العصر لأن تعلمها كان يتطلب جهدا كبيرا، دون أن يحصل متعلمها فى نهاية الأمر على فائدة تتناسب مع ذلك الجهد(١٨).

ألكوين:

أما الرجل الذى نبذ جميع أقرانه من أعلام النهضة الكارلونجية فى ثقافته ونشاطه التعليمى فهو ألكوين، الذى يعتبر مرآة صادقة لتلك النهضة (١٩). ولم يكن ألكوين هذا إيطاليا أو من أبناء غاليا، وإنما كان إنجليزيا، ولد فى يورك حوالى سنة ٧٣٥، أى فى وقت كانت النهضة الفكرية التى رأيناها تمتد من أيرلندا إلى إنجلترا لاتزال ساطعة، وقد ساعد على استمرار هذه النهضة فى إنجلترا عدم تعرضها لغزوات

(16) Cam. Med. Hist. : vol. 3, p. p. 514 - 515.
(17) Ibid.
(18) Cam. Med. Hist. : vol. 3, p. 517.
(19) Guizot: Tome II, p. p. 178 - 179.

مخرية من جانب البرابرة عقب وصول البعثات التنصيرية التى أرسلتها روما لنشر المسيحية بين أهلها فى أواخر القرن لسادس. وهكذا استطاعت الأديرة والمدارس الإنجليزية أن تباشر جهودها الحضارية والثقافية فى جو من الاستقرار لم تعكر صفوه إلا غزوات الفيكنج فى القرن التاسع.

وفى ذلك الجو الهادئ نشأ ألبينوس (ألكوين)، ودرس بمدرسة يورك التى امتلأت بمختلف المؤلفات القديمة ذات الشهرة البالغة. وقد ذكر ألكوين نفسه أسماء المواد التى كانت تدرس عندئذ بمدرسة دير يورك ومنها النحو والبلاغة والقانون والفلك والرياضيات. هذا عدا العلوم التى تتعلق بطبيعة الإنسان وطبيعة الأرض والبحار والحيوانات وغيرها. ولاشك فى أن هذه العلوم فاقت كل ما عداها من ضروب المعرفة التى عرفت فى غاليا وأسبانيا المسيحية فى ذلك العصر[٢٠].

على أن الوضع أخذ يتبدل منذ أواخر القرن الثامن، نتيجة لإغارات الدانيين على إنجلترا، الأمر الذى دفع كثيرا من رجال العلم الأيرلنديين والأنجلوسكسون إلى الهجرة إلى بلاد شارلمان حيث وجدوا ما يحتاجون إليه من أمن واستقرار[٢١].

ومن المرجح أن ألكوين قام برحلتين إلى القارة قبل سنة ٧٦٦، ولكنه قام برحلة أخرى عندما بلغ سن الخمسين إلى روما سنة ٧٨٠، حيث قابل شارلمان فى بارما سنة ٧٨١، وعندئذ ألح عليه شارلمان فى مصاحبته إلى غاليا عقب الانتهاء من مهمته[٢٢]. وهنا نجد ألكوين يلبى الدعوة، فاحتل منذ سنة ٧٨٢ مركزا بارزا فى بلاط شارلمان كمستشار أول له فى معظم شئونه، بالإضافة إلى إشرافه العام على شئون الثقافة والتعليم فى مملكته. وفيما عدا فترة صغيرة زار فيها ألكوين إنجلترا، نجد أنه قضى بقية حياته بالقارة حتى توفى سنة ٨٠٤[٢٣].

وهنا يصح أن نشير إلى أن ألكوين لم يكن كاتبا عظيما. ومهما يكن لكتاباته وأشعاره من أهمية خاصة، إلا أنها لا ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع.

---

(20) Ibid.

(21) Cam. Med. Hist. : vol. 3, p. 514.

(22) Taylor: op. cir., vol. 1, p. 214

(23) Idem, p. 215.

أما شهرة ألكوين الحقيقية فترجع إلى شخصيته الجذابة، وقوة تأثيره على سيده شارلمان، وجهوده فى نشر الثقافة والنهوض بالتعليم. وبعبارة أخرى فإن شهرته ترجع إلى سعة اطلاعه وسمو تفكيره أكثر منها إلى تجديده وابتكاره[٢٤] . ومهما يكن الأمر، فإنه يكفيه فخرا أنه أسهم بالقسط الأوفر فى نقل أهم مظاهر النهضة الأيرلندية إلى غاليا. حيث تعهدها بجهوده وعنايته[٢٥].

ويحسن بنا عند الكلام عن مكانة ألكوين العلمية أن نقسم كلامنا إلى قسمين: القسم الأول يتناول نشاطه العلمى وجهوده فى خدمة العلم والتعليم، والقسم الثانى يتناول الأثر المباشر لذلك النشاط وتلك الجهود. أما من ناحية نشاط ألكوين العلمى فإننا نجد أنه بدأ أولا بتصحيح المخطوطات القديمة؛ ثم أعقب ذلك بإصلاح المدارس الدينية ونشر التعليم. هذا فضلا عما قام به ألكوين نفسه من جهود فى تعليم الغير. وكانت نسبة كبيرة من المخطوطات والمؤلفات الكلاسيكية قد تعرضت فيما بين القرنين السادس والثامن لكثير من التحريف والأخطاء، وكذلك نتيجة للجهل الذى عم تلك الفترة.. وقد ترتب على ذلك اختلاط صفحات بعض هذه المخطوطات، وضياع ترتيبها بين أيدى مالكها. بل ضاعت بعض تلك الصفحات نهائيا فى حين ظهرت البقية الباقية، وقد خلت من أبسط قواعد الكتابة واللغة، وكثرت فيها الأخطاء نتيجة لجهل النساخ.. وهنا تبدو أهمية ألكوين فى تصحيح تلك المخطوطات ـ لا سيما الدينية منها ـ فكرس جزءا كبيرا من حياته فى تنظيمها، كما أخذ يوصى تلاميذه بالعناية بالكتب الكلاسيكية وتصحيحها. وساعد شارلمان أستاذه ـ ألوكين ـ فى تحقيق ذلك الهدف، فأصدر الأوامر بذلك إلى الأساقفة والرهبان. ومن ذلك المنشور الذى وجهه شارلمان إلى رجال الدين سنة ٧٨٨ يوصيهم فيه بتصحيح الكتب «التى أفسدها جهل الناسخين[٢٦]». وبينما ألكوين يبذل هذه الجهود فى مراجعة الكتب التى تدرس فى المدارس الدينية وتصحيحها، إذا به يقوم بعمل آخر جليل هو مراجعة شاملة للترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، حتى انتهى من تلك المراجعة فى دير سانت مارتن بمدينة تور سنة ٨٠١، ثم أهدى الإنجيل مصححا إلى شارلمان. ويرجح البعض أن ألكوين قام

(24) Lane- Poole: op. cit., p. 18.

(25) De Wulf: Hist. de la Philosophie Medivale, Tome 1, p. 37.

(26) Guizot: op. cit., p. 185.

بهذا العمل بتكليف من الإمبراطور نفسه [٢٧] الذى أعجبته الفكرة واستعان ببعض العلماء فى تصحيح أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا. وتم هذا العمل أيضًا قبل وفاة شارلمان بسنة واحدة.

وكان ألكوين إذا أتم - هو أو أحد مساعديه - تصحيح كتاب، أمر بنسخ عدة صور منه ليرسلها إلى الكنائس والأديرة الرئيسية. وفى تلك الكنائس والأديرة تنسخ نسخ أخرى جديدة فى ضوء النسخ المصححة. لاستعمالها وتوزيعها، هذا فى الوقت الذى دأب ألكوين - وسيده شارلمان - على تشجيع الأديرة التى تنتج أجود النسخ خطا وأصحها لغة. وفى الدير الواحد كان يشجع أدق الرهبان فى النسخ وحسن الخط . ومن الأديرة التى برزت فى هذا الميدان دير فونتنيل Fontenelle ودير كوربى Corbie ودير ريمس Reims.

أما عن جهود ألكوين فى نشر التعليم، والإكثار من المدارس الدينية، ورفع مستواها، فكانت هى الأخرى عظيمة وبالغة الأثر. ومن الواضح أن الفساد الذى عم الحياة العامة والحياة الدينية فى ذلك العصر، إنما جاء نتيجة لانتشار الجهل والخرافات، فيكفى أن يرى الناس خسوفا للشمس أو نجما مذنبا فى السماء، ليتطيروا ويحاولوا حماية أنفسهم بالتمائم والتعاويذ. هذا عدا العادات القبيحة التى سادت الحياة اليومية والحياة العائلية الخاصة. وإذا كانت الكنيسة قد وقفت موقفا سلبيا أمام تلك الأوضاع، فما سبب ذلك إلا جهل رجالها، مما جعل مهمة إصلاح المجتمع أكثر صعوبة. ويشهد على جهل رجال الدين فى ذلك العصر نسخ الإنجيل المتداولة. وهى مليئة بالأخطاء والتحريف حتى أصبح من الصعب العثور على نسختين متطابقتين من الإنجيل قبيل النهضة الكارولنجية.

لذلك اختار شارلمان ومعاونه ألكوين أن يسلكا الطريق الطبيعى للإصلاح؛ وهو البدء بتعليم رجال الدين من القساوسة والرهبان تعليما يحقق لهم الوصول إلى درجة كافية من الثقافة التى تمكنهم من إصلاح أنفسهم أولا ثم إصلاح المجتمع العلمانى الذى يعيشون وسطه بعد ذلك[٢٨]. وتبدو لنا هذه السياسة واضحة فى الرسالة التى

(27) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 516.

(28) Lavisse: op. cit., p. 342.

أرسلها شارلمان إلى بوجلف Baugulf مقدم دير فولدا سنة ٧٨٧ والتى يقول فيها: «... لاحظنا أن كثيرا من الرسائل التى يبعث بها إلينا رهبان الأديرة تتسم بضعف الأسلوب وكثرة الأخطاء، رغم ما تفيض به هذه الرسائل من إخلاص وولاء نحونا. ويرجع السبب فى ذلك إلى نقص التعليم وضعف المستوى الثقافى لرجال الدين... لذلك ننصح بأن تهتم جميع الأديرة والأسقفيات فى بلادنا بالعلوم والآداب ، فضلا عن عنايتها بشئون الدين... فالفرد بدون علم لا يستطيع أن يعمل عملا طيبا. لذلك يجب علينا أن نعلم قبل أن نعمل... كذلك ننصح بالعمل على تبسيط الكتابات والمخطوطات الدينية وإزالة ما يحيط بها من غموض.. ولا يفوتك أن ترسل صورا من هذا الخطاب إلى جميع زملائك وبقية الأديرة إذا كنت تريد أن تظل متمتعا بعطفنا»[٢٩].

ولدينا من الأدلة ما يثبت أن المنشور الدورى السابق لم يكن مجرد رغبة أو توصية، بل كان أكثر من ذلك. وقد نتج عن هذه السياسة تنظيم التعليم وتقويمه فى الأسقفيات والأديرة. وإلى ذلك العصر يرجع تاريخ معظم المدارس الديرية الكبرى، مثل فولدا وفونتنيل وفرير Ferriers وغيرها من المدارس التى أحرزت شهرة واسعة فيما بعد، والتى تخرج فيها كثير من الرجال المبرزين فى القرن التاسع [٣٠]. وهكذا أصبحت الأديرة بوجه خاص - أكثر مما كانت فى أى وقت مضى - مركزا للنشاط العلمى والثقافى فى أوربا. وقد أدت هذه الحركة - وذلك أيضًا بالإضافة إلى جهود ألكوين فى العناية بالكتب - إلى انتعاش مكتبات الأديرة وتكاثر الكتب بها، مما ظهر أثره واضحا فى الفترة المظلمة التى حلت بأوربا بين سنتى ٨٥٠ - ١٠٠٠، عندما ظلت الأديرة بمثابة المراكز الوحيدة التى يشع منها نور المعرفة فى غرب أوربا. حقيقة أن معظم المخطوطات التى زخرت بها مكتبات الأديرة فى ذلك العصر تناولت موضوعات دينية بحتة، ولكن هذا لايمنع أن بعضها اختص بالأدب الدنيوى.

أما عن جهود ألكوين كمعلم، فيلاحظ أنه قضى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٢- ٧٩٦ مقيما فى بلاط شارلمان حيث تولى رئاسة مدرسة القصر وتنظيمها Académie Palatine . وكانت هذه المدرسة قائمة منذ أمد بعيد، يقصدها الطامحون من الأسر الكبيرة فى العصر الميروفنجى ليتعلموا فى بلاط الملوك ما يجب أن يتعلمه الإداريون

(29) Select Documents of Medieval History, p. 752.

(30) Guizot: op. cit., p. 187.

والحكام. وقد شجع الملوك هذه الفكرة، لأن مصالحهم تطلبت أن يكون أعوانهم وموظفوهم على درجة من المعرفة تسهل ضبط شئون الدولة وتصريف أمورها. ولكن مدرسة القصر هذه ظلت حتى أيام ألكوين ينقصها النظام والتبلور والعلم الحقيقى، مما ترتب عليه بقاء الأرستقراطية الفرنجية على جهلها بأبسط مبادئ الثقافة[٣١]. وهكذا حتى استطاع ألكوين أن يجعل من هذه المدرسة عاملا فعالا فى حياة الدولة بعد أن نظمها على أسس سليمة.

وكان من تلاميذ ألكوين فى مدرسة القصر شارلمان نفسه وأبناؤه الثلاثة، فضلا عن أخته وكريمته[٣٢] وبعض مستشاريه ومعاونيه مثل أدلهارد Adlhard وانجلبرت Angilbert واجنهارد Eginhard وبعض كبار الأساقفة مثل ركولف Riculf رئيس أساقفة ماينس Mayence ، ورجبورد Rigbord رئيس أساقفة تريف Tréves هذا عدا جمع من أبناء الأشراف، وغير أبناء الأشراف من ذوى المواهب، الذين أراد شارلمان أن يعدهم لمعاونته وتولى المناصب الكبيرة فى الدولة.

وعندما قام ألكوين بالتدريس فى هذه المدرسة أرسل يطلب لها الكتب من البلاد البعيدة، وإن كان من المرجح أن المكتبة التى جمعها لمدرسة القصر صغيرة ومحدودة. كذلك كتب ألكوين بعض مبادئ المواد التى يدرسها لتلاميذه فى اللغة والنحو والبلاغة والمنطق وغيرها[٣٣]. ويبدو أن المعلومات التى كانت تدرس فى مدرسة القصر لم تعد أن تكون سطحية وبسيطة، ذلك أن ألكوين نفسه لم يعرف من العلوم أكثر مما حصله من مؤلفات كاسيدورس وايسيدور الأشبيلى وأمثالهما. ومن الثابت أيضًا أنه لم يعرف شيئا فى علم الفلك، وأن معلوماته فى الحساب والهندسة ظلت محدودة، رغم قيامه بترجمة بعض كتابات نيقوماخوس Nicomachus ، وإقليدس Euclid، وبطليموس فى العلوم السابقة، هذا إلى أن معرفته باليونانية والعبرية ظلت بسيطة وسطحية[٣٤].

---

(31) Davis: op. cit., p. 168.

(32) Eginhard: Life of Chralemagne, p. 41.

(33) Cam. Med. Hist., vol. 5. p. 773.

(34) Davis: op. cit., p. 169.

وإذا كان من الصعب تحديد موضوعات المحاضرات التى ألقاها ألكوين فى مدرسة القصر، إلا أنه من المرجح أنه حاضر فى موضوعات متفرقة ، بحيث استمرت مدرسة القصر مجالا لكثير من المناقشات والمحاورات التى تحوى قسطا وافرا من المعلومات العامة. ومن أمثلة ذلك الحوار التالى، الذى دار بين ألكوين وبيبين - الابن الثانى لشارلمان - وهو فتى فى الخامسة عشر من عمره(٣٥) :

بيبين : ما الكتابة ؟

ألكوين : هى الحارس الذى يحافظ على التاريخ.

بيبين: وما الكلام ؟

ألكوين: هوالأداة التى تعبر عما يجول بالنفس من خواطر.

بيبين: وما وسيلة الكلام؟

ألكوين : اللغة.

بيبين : وما اللغة؟

ألكوين: مقرعة الهواء.

بيبين: وما الهواء؟

ألكوين: أكسير الحياة.

بيبين: وما الحياة؟

ألكوين : الحياة لذة للسعداء، وألم للبؤساء، وانتظار للموت.

بيبين: وما الموت؟

ألكوين: الموت أمر لا مفر منه، ورحلة لا تعرف لها نهاية، يترتب عليه بكاء الأحياء وتنفيذ وصايا الأموات، وفقد الأفراد.

بيبين: وما هو الفرد؟

ألكوين: الفرد عبد للموت،وعابر سبيل فى هذه الحياة، وضيف فى داره ومنزله.

(35) Guizot: op. cit., p. p. 190 - 194.

بيبين: وما مركز الفرد فى هذه الحياة ؟

ألكوين: مركزه كشمعة فى مهب الريح... إلخ.

وقد بقى لدينا من هذا النوع عدة محاورات أخرى دارت بين ألكوين وتلاميذه فى مدرسة القصر، ومعظمها يتناول مظاهر الطبيعة مثل السماء والأرض والبحار والنجوم وأعضاء جسم الإنسان وغير ذلك.

ويتضح لنا من تتبع هذه المناقشات أن الدافع إليها كان حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة، وهى الروح التى أثارها ألكوين وتعهدها بالتشجيع. ولكن ينبغى أن نذكر دائما أن الدراسات الدينية ظلت المحور الأساسى الذى دار حوله النشاط العلمى داخل مدرسة القصر وخارجها. وكان الاهتمام باللاهوت والدراسات الدينية فى ذلك العصر عظيما لسبب واضح، هو اعتقاد العلماء وطلاب العلم أنها الهدف النهائى الذى ترمى إليه بقية الدراسات. وتبدو لنا هذه الروح فى الرسائل التى أرسلتها أخت شارلمان وابنته إلى ألكوين - بعد أن اعتكف فى أخريات أيامه فى تور - تسألانه الإيضاح فى تفسير بعض ما غمض عليهما من نصوص فى الإنجيل ، وتذكران أنهما منذ درستا عليه ازدادتا رغبة فى التعمق فى العلم والدراسة، كذلك يبدو تأثير هذه الدراسات فى لويس التقى ابن شارلمان، الذى جعلته الثقافة الدينية أقرب إلى الرهبان فى حياته الخاصة والعامة، وفى تفكيره وسلوكه حتى أصبح مثار تهكم فرسان الفرنجة فى حياة أبيه[٣٦].

ويجدر بالذكر أن مدرسة القصر كانت تصحب شارلمان فى حلة وترحاله، وأن كل فرد من أسرة هذه المدرسة اتخذ لنفسه اسما من أعلام رجال الحكمة أو العلم أو الدين، فشارلمان داود، وألكوين فلاكوس Flaccus [٣٧]. وانجلبرت هومر، وجسلا ابنة شارلمان لوسى Lucie [٣٨].. وهكذا.

وعندما ازداد العبء على كاهل ألكوين وبلغه الكبر، فكر فى اعتزال بلاط شارلمان. حقيقة أن العمل فى بلاط حاكم عظيم مثل شارلمان أمر مغرى يتمناه

(36) Davis: op. cit., p. 171.

(٣٧) فالريوس فلاكوس شاعر لاتينى عاش فى القرن الأول الميلادى.

(٣٨) قديسة استشهدت سنة ٣٠٤ فى سيراكيوز على عهد الإمبراطور دقلديانوس.

كثيرون. ولكن عندما يكون الإنسان متحليا بأخلاق العلماء زاهدا فى الدنيا، فإنه لا يعبأ كثيرا بذلك العرض الزائل. والحق أن شارلمان ظل دائما يضفى على ألكوين كل مظاهر التكريم والتقدير، ويظهر له آيات الحب والإخلاص. ولكن جاء وقت أحس آلكوين فيه أنه يجب أن يعتزل خدمة البلاط، فطلب من سيده إعفاءه من منصبه والسماح له بأخذ أوراقه لينتبذ بها مكانا قصيا عن جلبة العاصمة وضوضائها .وعبثا حاول شارلمان منع مستشاره وصديقه من مفارقته، حتى سمح له أخيرا سنة ٧٩٦ بالرحيل إلى دير سانت مارتن فى تور حيث قضى بقية أيامه [٣٩] . وقد حل محله فى الأشراف على مدرسة القصر أحد الأيرلنديين واسمه كنت، ولكن يبدو أنه لم يستطع أن يضفى على تلك المدرسة الروح التى أضفاها عليها ألكوين[٤٠] .

على أن ألكوين لم يرتض لنفسه حياة الدعة والسكون فى مقره الجديد، فأخذ يواصل جهوده فى تنظيم دير سانت مارتن وتغذية مكتبته بكثير من المخطوطات. وفى سبيل هذا الغرض الأخير أرسل بعض شباب الرهبان إلى يورك بإنجلترا لنسخ المخطوطات الهامة. وسرعان ما ذاع صيت مدرسة سانت مارتن بفضل جهود ألكوين ونشاطه، حتى غدت نموذجا للمدارس الإقليمية الديرية والكنسية[٤١]، وإن كان من الملاحظ أن التعليم فيها أيضاً ظل دينى الروح والطابع. ذلك أن الدراسة كانت على مرحلتين: المرحلة الأولى تشمل تعليم القراءة والكتابة والحساب والنحو والترانيم الدينية. ولم يسمح للأفراد العلمانيين عادة بتخطى هذه المرحلة. أما المرحلة الثانية فكان رجال الدين يدرسون فيها الإنجيل واللاهوت وكتابات القديسين، فضلا عن القوانين الكنسية. ومن يتم هذه المرحلة الأخيرة من الدراسة كان يعين غالبا مقدما لأحد الأديرة فى ألمانيا أو غاليا[٤٢] . وقد تتلمذ على ألكوين فى ذلك الدور الأخير من حياته كثيرون ممن أصبحوا من أعلام القرن التاسع مثل ربان مور Raban Maur وامالير Amalaire وغيرهما.

وأرسل شارلمان أكثر من مرة إلى ألكوين محاولا إغرائه على العودة إلى البلاط،

---

(39) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 61.

(40) Foligno: Latin Thought, p. 82.

(41) Guizot: op. cit., p. p. 199 - 201.

(42) Davis: op. cit., p. p. 175 - 176.

وتمنى أن يصحبه ألكوين فى رحلته إلى روما سنة ٨٠٠ - وهى الرحلة التى تم فيها تتويج شارلمان إمبراطورا؛ ولكن ألكوين لم يعدل عن رأيه حتى وفاته فى مايو سنة ٨٠٤ . وقد حزن شارلمان حزنا بالغا على صديقه وأستاذه، لأن العلاقة بين الرجلين لم تكن مجرد علاقة مصلحة متبادلة لتحقيق أغراض شخصية، وإنما كانت علاقة روحية عميقة، استهدفت تحقيق مصالح عليا سامية تغود بالخير على العالم المسيحى أجمع. وخير ما يدل على قوة هذه العلاقة بين شارلمان وألكوين الرسائل المتبادلة بينهما، والتى بقى منها نحو ثلاثين رسالة أرسلها ألكوين إلى شارلمان، ومن هذه الرسائل رسالة كتبها ألكوين سنة ٧٩٦ يهنئ فيها شارلمان بانتصاره على الآفار، ويشير عليه بالطرق التى يتبعها لتحويلهم إلى المسيحية عن طريق إيفاد البعثات التنصيرية إليهم وجمع العشور منهم. وهناك رسالة أخرى وجهها ألكوين إلى شارلمان فى السنة نفسها، يخبره فيها بالجهود التى يبذلها للنهوض بمدرسة سانت تور وإحياء الدراسات القديمة بها. ويقول ألكوين فى هذه الرسالة «لقد قمت فى ربيع حياتى ببذر بذور المعرفة فى بريطانيا. والآن بعد أن غدوت فى خريف الحياة أقوم ببذرها فى غاليا...». أما بقية الرسائل فيجيب فيها ألكوين عن أسئلة وجهها إليه شارلمان، ليشرح له ما غمض عليه من مسائل دينية وعلمية[٤٣]. والحق أن ألكوين صدق فى العبارة التى نقشت على قبره، والتى وصف فيها نفسه بأنه لم يكن سوى «سائحا على وجه الأرض» وأنه كان دائما «محبا للعقل والحكمة»[٤٤].

والآن ، بعد أن تكلمنا عن حياة ألكوين بوصفها مرآة للنهضة الثقافية والفكرية على عهد شارلمان، بقى أن نشير إلى إنتاجه الفكرى. ونستطيع عند دراستنا لهذا الإنتاج أن نقسمه إلى أربع نواحى أو أبواب: الجانب الدينى، والجانب الفلسفى والأدبى، والجانب التاريخى، وجانب الشعر. أما إنتاج ألكوين الدينى فيتعلق بعضه بالشروحات التى ينصب أهمها على الكتاب المقدس، فى حين يشمل البعض الاخر عدة مقالات حول المعتقدات الدينية. وكان الغرض من معظم هذه المقالات تفنيد هرطقة التبنى ودحضها، وهى الهرطقة التى نهضت بدور هام فى ذلك العصر والتى

(43) Guizot: op. cit., p. p. 195 - 199.

(44) Davis: op. cit., p. 167.

كان ألكوين أبرز شخصية معاصرة فى مناقشتها والرد عليها لدحضها [٤٥]. على أن الشطر الأكبر من إنتاج ألكوين الدينى جاء فى كتاباته عن نظم الكنيسة ومؤسساتها والطقوس الدينية، وهى الكتابات التى جعلت من ألكوين أحد أعلام اللاهوت المبرزين فى عصره [٤٦].

وبالإضافة إلى هذه الآثار الدينية، كان لألكوين نشاط ملحوظ فى الدراسات الدنيوية. وهنا يصح أن نؤكد خطأ القول بأن ألكوين كره الأدب الدنيوى وحرم دراسته على المتعلمين، فهذه الدعوى باطلة لا أساس لها من الصحة، ولا تستند إلا على عبارة عارضة ذكرها أحد الكتاب غير المعاصرين ليثبت تدين ألكوين وبعده عن كل ما ليس له علاقة بالدين [٤٧]. من ذلك ما هو ثابت لدينا من أن ألكوين نفسه راجع روايات الشاعر اللاتينى ترنس Terence [٤٨] ونسخ تلك الروايات. كذلك ترك ألكوين فى ميدان الفلسفة والأدب فى عدة مقالات، منها مقال تحدث فيه عن الأخلاق العلمية كالحكمة والوفاء والإحسان والرحمة والحق، ومقال آخر تكلم فيه عن طبيعة النفس، ومقال ثالث فى النحو، ومقال رابع فى الخط والكتابة، ومقال خامس فى البلاغة، ومقال سادس فى علم المنطق، وقد اتخذ المقالان الأخيران شكل حوار بين شارلمان وألكوين، الغرض منه تعليم شارلمان وفق أساليب الجدل التى كانت معروفة عند قدماء اليونانيين.

أما إنتاج ألكوين فى الجانب التاريخى فقليل الأهمية، إذ تكلم فيه عن سير أربعة من القديسين. ويقال أن ألكوين كتب تاريخا عن حياة شارلمان، لا سيما ما يختص بحروبه ضد السكسون، ولكن لا يقوم أى دليل لإثبات صحة هذا القول، ولم يصلنا شيء كتبه ألكوين فى هذا الموضوع.

وأخيرا يأتى إنتاج ألكوين فى الشعر، وهو إنتاج وفير، إذ ترك ألكوين مئتين وأربعا وثمانين قطعة شعرية فى مختلف الموضوعات والأغراض، ومعظمها يتناول الأحداث والأوضاع المعاصرة. وأهمها جميعا القطعة التى تعرض فيها ألكوين لأساقفة يورك

(٤٥) انظر العرينى: شارلمان، ص ١٤٣.

(46) Cam. Med. Hist., vol. 3.p. 516.

(47) Lane-Poole: op. cit., p. 21.

(٤٨) شاعر لاتينى كوميدى ولد فى قرطاجة وألف عدة روايات شهيرة (١٩٤ ق.م – ١٥٩ ق.م).

وكنائسها، لأنها تلقى ضوءا على الحياة الثقافية فى أوربا فى ذلك العصر. ولكن الملاحظ أنه إذا كانت بعض أشعار ألكوين ذات أهمية خاصة، إلا أنها - كما سبق أن ذكرنا - لا ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع. هذا وإن كان يفهم منها دراية ألكوين ببعض الأعلام القدامى مثل فرجيل Virgil وستاتيوس Statius ، ولوكان Lucan، وكذلك بعض شعراء المسيحية مثل جوفنكس Juvencus وبرودنتيوس Prudentius وآرتور Artor وغيرهم(٤٩).

والخلاصة أن ألكوين كان بحكم نشأته ونشاطه وعمله من رجال الدين، الأمر الذى جعل شخصيته تتأثر بالطابع الدينى الذى ظهر واضحا فى نشاطه وإنتاجه. وإذا كان ألكوين قد خرج أحيانا فى نشاطه عن نطاق العلوم الدينية، إلا أن الغرض الأساسى من ذلك النشاط كان يستهدف فى نهاية الأمر خدمة الدين والكنيسة. ومهما يكن الأمر فإنه يكفى ألكوين فخرا أنه صاحب الفضل فى الربط بين علوم الكنيسة والأدب الدينى من جهة والعلوم الدنيوية والأدب الكلاسيكى من جهة أخرى(٥٠).

* * *

ولكن إذا كان ألكوين الشخصية الكبرى فى بلاط شارلمان وفى مدرسة القصر، فإن ذلك لا يقلل من أهمية الشخصيات الأخرى التى برزت فى ذلك البلاط والتى أسهمت بنصيبها فى النهضة الثقافية لذلك العصر. وأبرز هؤلاء ثلاثة هم أجنهارد، وثيودلف،وانجلبرت.

اجنهارد:

أما اجنهارد فترجع شهرته إلى أنه وضع كتابا تاريخيا عن حياة شارلمان يعتبر خير إنتاج أدبى للنهضة الكارولنجية(٥١). وكان اجنهارد هذا قد دخل خدمة شارلمان فى صباه، حتى سمح له بالانضمام إلى مدرسة القصر. وعندما بلغ سن الرجولة جعله شارلمان ناظرا على الأشغال العامة فى دولته، أى مشرفا على كل ما يتعلق بالطرق والقنوات والمبانى والجسور... فضلا عن قيامه بوظيفة السكرتير الخاص لشارلمان.

---

(49) Cam. Med. Hist., vol. 3.p.p. 515 - 516.

(50) Guizot: op. cit., Tomp 2, p. p. 203 - 208.

(51) Lavisse: op. cit., p. 347.

ولم يلبث أن أضفى عليه شارلمان شرفا جديدا بالموافقة على زواجه من ابنته الأميرة إما Emma ، وبذلك تمكن اجنهارد - بفضل هذه الصلة الوثيقة التى ربطته بشارلمان وبلاطه - من أن يحيط علما بما لم يحط به غيره، لاسيما فيما يتعلق بشخصية الامبراطور وحياته الخاصة.

ومن الواضح أن اجنهارد اتبع فى تاريخه لحياة شارلمان Vita Karoli منهج المؤرخ الرومانى سيتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤١) فى تاريخه لقياصرة الرومان، لا سيما فيما كتبه عن أوغسطس[٥٢] . وكانت توجد نسخة من كتاب سيتونيوس هذا فى مكتبة دير فولدا، حيث تلقى اجنهارد دراسته الأولى بين سنتى ٧٩١ - ٧٩٦ قبل أن يصل إلى بلاط شارلمان[٥٣] . ويبدو أن اجنهارد درس هذه النسخة بدقة وتمعن، وأخذ عنها بطريقته التى ترجم بها لحياة شارلمان . وهكذا اجتمعت عدة عوامل لتجعل من كتابه كتابا شيقا يمتاز بالإيجاز مع الوضوح والتركيز وبراعة التصوير، حتى يمكن القول بأنه الكتاب الوحيد فى ذلك العصر الذى يصح أن نعتبره مؤلفا تاريخيا بمعنى الكلمة . وقد بدأ اجنهارد كتابه بعرض عام لأحوال غاليا فى أواخر عصر الميروفنجيين، مع العناية بتصوير مظاهر الضعف والانحلال التى اتصف بها ملوك البيت الميروفنجى فى أواخر أيامهم . وتطرق من ذلك إلى أن انتقال الملك إلى الكارولنجيين جاء أمرا طبيعيا[٥٤] . وبعد أن تكلم بإيجاز عن حكم بيبين القصير وعن المرحلة الأولى من حكم شارلمان - التى حكم فيها مع أخيه - انتقل إلى وصف شارلمان وعهده بالتفصيل . وقد خصص الجزء الأول من هذه الدراسة التفصيلية للكلام عن حروب شارلمان وغزواته لا سيما ضد السكسون، ثم انتقل إلى الجزء الثانى الذى يرتبط بحكومة شارلمان الداخلية ونظام الإدارة فى مملكته . وأخيرا يتكلم اجنهارد عن حياة شارلمان الشخصية والعائلية وأخلاقه، فكشف عن كثير من جوانب حياته الخاصة . من ذلك ما يذكره اجنهارد من أن سيده اعتاد أن يصغى إلى الموسيقى أو القراءات التاريخية أثناء تناول الطعام، ومن أنه عرف القراءة ولكنه لم يتعلم الكتابة ولم يتقدم فيها بدرجة محسوسة لأنه بدأ يتعلمها فى وقت متأخر . هذا على الرغم من

(52) Cam. Med. Hist., vol. 3.p. 517.

(53) Lavisse: op. cit., p. 347.

(54) Eginhard: Life of Charlemagne, p.p. 8 - 12.

حرص شارلمان على أن يضع كراسات الكتابة والألواح تحت وسادته حتى يدرب نفسه عليها عند راحته وقبل النوم. وفى خلال كل ذلك لايغفل اجنهارد الإشارة إلى تقدم الآداب والعلوم على عهد شارلمان، كما يشير إلى كثير من الأحداث المعاصرة(٥٥).

ويبدو لنا من هذا العرض الموجز لكتاب اجنهارد عن حياة شارلمان أن هذا الكتاب لم يكن مجرد سرد حوادث عارضة. وإنما جاء كتابا منظما يتبع خطة موضوعة محكمة. ولم يقتصر على معالجة جانب دون آخر من عصر شارلمان وشخصيته ـ مثل غيره من الحوليات وكتب السير القديمة ـ ، وإنما كان عرضا طريفا جامعا لشتى المعلومات عن النظم الإدارية والحكومية والأحوال الاجتماعية وملابسات أهم الحروب المعاصرة(٥٦).

وقد كتب اجنهارد كذلك بعض الأشعار، كما كتب كتابا عن السكسون. ولكنه فقد ولم يصلنا منه شيء(٥٧). وتدل البقية الباقية من كتابات اجنهارد على أن شخصيته كانت جذابة، كما تدل على معرفته ببعض أعلام الأدب القدامى مثل فتروفيوس Vi-truvius وبلينى Pliny وتاكيتوس Tacitus . وبعد وفاة شارلمان حظى اجنهارد بعطف ابنه وخليفته لويس التقى، ولكن يبدو أن العلاقات ساءت بعد ذلك بين الطرفين، مما دفع اجنهارد إلى اعتزال خدمة البلاط، وآثر هو وزوجته الأميرة إما حياة الرهبانية، حتى توفيت سنة ٨٣٦ ولحق بها زوجها سنة ٨٣٩.

ثيودلف :

أما ثيودلف فكان قوطى الأصل أسبانى (٥٨) أو إيطالى(٥٩) المولد. ولا ندرى على وجه التحقيق متى استدعاه شارلمان إلى بلاطه، ولكننا نراه فى غاليا سنة ٧٨١، كما نراه يشغل منصب أسقف أورليان فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٦– ٧٩٤، وعندئذ وجه عناية خاصة نحو تنظيم التعليم فى أسقفيته(٦٠).

(55) Eginhard: op. cit., p. 41.
(56) Guizot: Tome 2, p. p. 232 - 234.
(57) Cam. Med. Hist., vol. 3.p. 518.
(58) Ibid.
(59) Guizot: op. cit., Tome 2, p. 215.
(60) Idem, p. p. 215 - 216 & Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 775.

ويعتبر ثيودلف أبرز شعراء عصره، لاسيما فى شعر المراثى[٦١]. وقد أرسله شارلمان سنة ٧٩٨ فى بعثة تفتيشية إلى إقليم ناربونيس Narbonensis؛ وفى أثناء عودته من تلك المهمة نظم قصيدة من تسعمائة وستة وخمسين بيتا عنوانها «نصيحة إلى القضاة Paranesis ad Judices» تعتبر من أروع ما نظمه من الشعر. واستهل ثيودلف هذه القصيدة بمقدمة، وصف بعدها الطرق والمدن التى مر بها، ثم وصف المفاسد الاجتماعية والإدارية التى شاهدها، والتى تعطينا فكرة واضحة عن الأوضاع السائدة فى ذلك العصر. من ذلك وصفه لحاكم الأقليم (الكونت) وهو سكران، وقد وفد إليه المتقاضون يحملون الرشاوى، كما وصف التيارات الخفية والدسائس فى المحاكم الإقليمية[٦٢].

أما بقية أشعار ثيودلف فتبلغ حوالى ستين قطعة شعرية. وهى أقل أهمية؛ ولكن وردت فيها بعض أسماء الأماكن والأنهار فى الشرق والغرب - ومنها الموصل وبغداد - كما يبدو فيها أنه تأثر ببعض الأدباء القدامى مثل أوفيد Ovid وبرود نتيوس وغيرهما[٦٣]، وبعد وفاة شارلمان استعان لويس التقى بثيودلف فى عدة بعثات، ولكنه غضب عليه هو الآخر وعزله من أسقفيته سنة ٨١٧، حتى مات بعد ذلك بأربع سنوات[٦٤].

انجلبرت:

أما انجلبرت فكان - مثل اجنهارد - من رجال السياسة لا من رجال الدين والكنيسة. كذلك حظى هو الآخر بمركز ممتاز فى القصر، وتزوج من الأميرة برتا Bertha ابنة شارلمان. ويرجع الفضل فى وصول انجلبرت إلى ذلك المركز الممتاز إلى مكانته الأدبية التى جعلت المعاصرين يطلقون عليه لقب «هومر»[٦٥]، ولم يبق لنا من تراثه غير بعض أشعار ووثائق تتعلق بدير سانت ركويير Requier، حيث اعتكف فى

---

(61) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 418.

(62) Davis: op. cit., p. 178.

(63) Cam. Med. Hist., vol. 3.p. p. 518.

(64) Guizot: op. cit., Tome 2, p. 217.

(65) Davis: op. cit., p. 181.

أخريات أيامه وأظهر رغبة وحماسة منقطعتى النظير فى جمع الكتب، حتى جمع لمكتبة الدير أكثر من مائتى كتاب. أما ما بقى من أشعاره فتحوى أوصافا ذات قيمة عن حياة شارلمان وأسرته(٦٦).

* * *

هؤلاء هم أعوان شارلمان الذين أسهموا بقسط كبير فى النشاط العلمى والفكرى؛ وهو أبرز مظاهر النهضة الكارولنجية. وإذا كان لهؤلاء الأعلام فضل على هذه النهضة، فإنه ينبغى ألا ننسى أثر شارلمان نفسه وجهوده فى تشجيع أعوانه من جهة، وفى نشر العلم والثقافة من جهة أخرى(٦٧). وقد أدى شغف شارلمان بالعلم وتقدمه بالدراسات اللاهوتية والأدبية إلى مفاجئته البابا وأعوانه بأسئلة معقدة بين حين وآخر. كذلك ضرب شارلمان مثلا طيبا لمعاصريه فى استغلال أوقات فراغه استغلالا نافعا، وفى تشجيعه لرجال العلم وتكريمهم، حتى سمح لهم بمخاطبته الند للند(٦٨). وفى مدرسة القصر حرص على أن يجلس كغيره من طلاب المعرفة ليستمع لأكوين ويخوض مع الحاضرين فى مناقشة المسائل العلمية. هذا عدا استعداده دائما لتسخير جهوده وفكره فى الدفاع عن المسيحية وأصولها، كما يبدو فى موقفه من المشاكل الهرطقية المعاصرة. ويقال أن شارلمان تعلم اليونانية وألم بها إلماما مكنه من فهم أحاديث مبعوثى الامبراطور البيزنطى. كذلك تعلم قواعد النحو اللاتينى على بطرس البيزى، وبلغ من شغفه بالفلك أن وجدت بين تحفه كرة تمثل الكون مصنوعة من المعادن الثمينة، وموضح عليها مدارات الأجرام السماوية، كذلك اهتم شارلمان بجمع المعلومات من الأجانب والرحالة عن البلاد النائية وعادات أهلها، ويقال أن ولعه بالتاريخ جعله يتسلى بالاستماع إلى السير وقت تناول الطعام، كما جعله يهتم بجمع الأساطير التى تتعلق بتاريخ شعب الفرنجة وأصلهم(٦٩).

---

(66) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 519.

(67) Pirenne: A Hist. of Eyrope, p. 89.

(68) Davis: op. cit., p. 182.

(69) Taylor: Med. Mind., vol. 1, p. 213.

التعليم والمدارس والمكتبات:

وإذا كانت هذه هى روح شارلمان، فلاعجب إذا امتاز عهده بنهضة تعليمية كبرى، لم يقتصر مظهرها ونشاطها على مدرسة القصر وحدها، بل امتدت حتى شملت جميع أنحاء الامبراطورية. ويبدو لنا حرص شارلمان على نشر التعليم فى الرسائل العديدة التى بعث بها إلى الأساقفة ومقدمى الأديرة يستحثهم فيها على فتح المدارس فى مناطق نفوذهم والعناية بتعليم الصغار والكبار. من ذلك أنه بعث سنة ٧٨٧ رسالة إلى بوجلف مقدم دير فولدا (٧٠) يؤكد فيها ضرورة العناية بتعليم الرهبان ورجال الدين والعمل على رفع مستواهم الفكرى «لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان»(٧١). وفى سنة ٧٨٩ أمر شارلمان بتعميم المدارس فى جميع الأديرة والكتدرائيات داخل دولته، حتى يتعلم الأطفال فى تلك المدارس الترانيم والموسيقى الدينية، فضلا عن القراءة والكتابة والحساب والنحو، مع تزويدهم بنسخ مصححة من الكتب الدينية(٧٢). وسرعان ما أثمرت الجهود التى بذلها شارلمان فى هذا السبيل؛ إذ كتب أسقف ليون يقول أن عنده مدارس للمنشدين ومدارس للقراء على جانب كبير من التقدم، كما كتب ثيودلف أسقف أورليان يقول أن فى أسقفيته عدة مدارس يقوم القساوسة فيها بتعليم الأطفال. وقد جاء فى منشور أصدره ثيودلف لقساوسة أسقفيته ورهبانها أن تعليم الأطفال فى المدارس الدينية يجب أن يكون مجانيا، ولايؤخذ منهم أى أجر سوى ما يتبرع به الخيرون من أهالى الأطفال القادرين(٧٣). وأهمية هذا المنشور ترجع إلى أنه الوثيقة الوحيدة من ذلك العصر التى تشير إلى وجود تعليم لغير رجال الدين. فجميع ما لدينا من قرارات أو مراسيم سواء كانت صادرة من ألكوين أو شارلمان تشير إلى أن هدف التعليم لم يتعد تثقيف رجال الدين. ولكننا فى منشور ثيودلف نجده يوصى بتعليم الأهالى بصفة عامة سواء كانوا من سكان المدن أو الريف(٧٤). كذلك حث ثيودلف - وغيره من الأساقفة المعاصرين - الأهالى على

---

(70) Select Documents of Medevial History, p. 257.

(٧١) انجيل متى ١٢ :٣٧.

(72) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 61 - 62.

(73) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. p. 774 - 775.

(74) Guizot: Tome 2 p. p. 212 - 216.

أرسال أبنائهم إلى المدارس ، وعدم السماح لهم بالانقطاع عنها إلا بعد أن يتموا تعليمهم، مما يشير إلى أن التعليم عندئذ اتخذ صفة شبه الزامية [٧٥]. وإلى جانب هذا النوع من المدارس الأولية، وجدت مدارس عليا لأولئك الذين يرغبون فى إتمام تعلمهم، وقد برزت من المدارس الديرية الشهيرة فى ذلك العصر مرسة تور Tours، وفولدا Fulda، وريخنو Reichenau ، وسانت جال St. Gall ، ولورخ Lorsch ، وفليرى Fleury ، وسانت ركويير St. Requier ، وكوربى . أما مدارس الكتدرائيات فمن أشهرها ميتز Metz، وريمس ، وشارتر، وأوكسر Auxerre [٧٦].

على أن رعاية شارلمان للتعليم كانت فى حقيقة أمرها تخفى وراءها سياسة مرسومة، هى العمل على رفع مستوى رجال الدين من ناحية، والاستفادة من المتعلمين فى إدارة جهاز الحكم من ناحية أخرى. وبعبارة أخرى نستطيع أن نقرر أن هدف شارلمان من رعاية التعليم كان دينيا وسياسيا، لا أكثر [٧٧]. فشارلمان كان - بوصفه راعيا للكنيسة الفرنجية - فى حاجة إلى من يعينه فى الأشراف على تلك الكنيسة وحل مشاكلها، فضلا عن المشاكل الدينية الأخرى المعاصرة داخل دولته وخارجها، وبوصفه رئيسا للدولة كان فى حاجة أيضاً إلى من يساعده فى النهوض بمطالبها السياسية والإدارية [٧٨]. ولعل هذا هو السبب فى أن المدارس التى وجدت على عصر شارلمان كانت دينية قبل كل شيء، فلم يوجد هناك نظام تعليمى مستقل عن الدين والمؤسسات الدينية[٧٩]، حتى قال المعاصرون أن الأصابع الثلاثة التى تمسك بالقلم إنما تشير إلى الثالوث المقدس[٨٠].

ولكن على الرغم من ضيق أفق المدارس فى ذلك العصر، إلا أن أثرها أضحى عظيما بالنسبة للأجيال التالية. فهى من ناحية أدت إلى إحياء اللغة اللاتينية بوصفها لغة الأدب والعلم. وبذلك استطاعت أن تقاوم ذلك السيل المنهمر من الألفاظ الجرمانية

---

(75) Lavisse: op. cit., p. 345.
(76) Haskins: The Renaissance, p. 18.
(77) Foligno: Latin Thought, p. 82.
(78) Davis: op. cit., p. 183.
(79) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 326.
(80) Pirenne: A History of Europe, p. 90.

الدخيلة، كما قاومت ما طرأ عليها من تحريف فى طريقة صياغة الأساليب وتركيب الجمل. ومن ناحية أخرى كان تلاميذ هذه المدارس وخريجوها هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة. ومن الكتب التى نسخوها ـ فضلا عن الكتابات الدينية وكتب اللاهوت ـ كتب كاسيدورس Cssidorus (٤٩٠ - ٥٨٥) وبؤثيوس Boethius (٤٨٠ - ٥٢٥) وبدى Bede (٦٧٥ - ٧٣٥) وغيرهم. وقد أنار ألكوين الطريق أمام هؤلاء الناسخين والناشرين من خريجى المدارس الكارولنجية، عندما قام بتحقيق ترجمة الإنجيل عن طريق جمع عدة نسخ ومقارنتها وتصحيح الأخطاء الشائعة فيها. واستجابة لرأى ألكوين وتحقيقا لرغبة شارلمان، زودت أديرة تور وفولدا وغيرهما من الأديرة الرئيسية بجماعة من النساخ المهرة، حتى جاءت مخطوطات ذلك العصر آية لا نظير لها فى الدقة والإبداع والاتقان. هذا إلى أن كثرة المنسوخات فى ذلك العصر أدت إلى وفرة الكتب وتعددها والإكثار من تداولها، وبالتالى أدى كل ذلك إلى قلة الأخطاء فى النسخ التى نسخت فيما بعد[٨١].

والواقع أن العناية بالكتب والمكتبات تمثل مظهرا هاما من مظاهر النهضة الكارولنجية. وقد امتلك شارلمان نفسه عددا ضخما من الكتب أوصى ببيعها عند وفاته والإحسان بثمنها على الفقراء والمساكين. وامتازت الأديرة المعاصرة بمكتباتها الغنية، حتى أن مكتبة دير سانت ركويير St. Riquier ضمت أكثر من مائتين وخمسين كتابا مخطوطا. وليس من الضرورى أن يكون كل ذلك العدد نسخة رهبان الدير بأيديهم. إذ أن جزءا كبيرا من الكتب التى وجدت بأديرة ذلك العصر آلت إليها عن طريق الهبات والهدايا. وقد ضمت هذه المكتبات كتبا فى مختلف ألوان العلوم والدراسات مثل كتابات المؤخر اليهودى فلافيوس يوسف Flavius Josephe (٣٧ - ٩٥)، وايوزيب مؤلف تاريخ الكنيسة (٢٦٥ - ٣٤٠)، والمؤرخ اليونانى سوزومين Sozomène (٤٠٠ - ٤٤٣)، وأشعار فرجل Virgil (٧١ - ١٩ ق. م)، فضلا عن كتابات رجال الكنيسة الأوائل مثل القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠)، والقديس هلير Hilaire(٣٠٣-٣٦٧)، وجريجورى العظيم (٥٤٠-٦٠٤) وغيرهم. وكانت لكتابات القديس أوغسطين بصفة

(81) Davis: op. cit., p. p. 177 - 178.

خاصة الصدارة بين الكتب التى تكاد لا تخلو منها مكتبة دير أو كتدرائية فى ذلك العصر(٨٢).

النهضة الأدبية:

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه العناية بالتعليم والمدارس من جهة وبالكتب والمكتبات من جهة أخرى إلى نهضة أدبية كبرى، هى فى الواقع المظهر الرئيسى للنهضة الكارولنجية. وقد رأينا أن شارلمان لم يحاول محاكاة أباطرة روما القدامى فى عظمتهم السياسية والحربية فحسب، بل عمل أيضًا على أن يتشبه بهم فى المجال الحضارى، فجمع حوله جماعة من الأدباء والمؤرخين والشعراء، مما هيأ للنهضة الكارولنجية عاملا أساسيا من عوامل الازدهار. وهنا نلاحظ أن النهضة الكارولنجية لم ترتبط بعلم معين برزت فيه وأكسبها طابعه، فلا نستطيع القول بأنها نهضة فلسفية أوتاريخية أو أدبية.. وإنما كانت نهضة عامة شاملة عالجت مختلف ألوان المعرفة التى عرفت فى ذلك العصر، وإن ظهر هناك فارق نسبى بين علم وآخر(٨٣). وكل ما هنالك هو أنها اكتسبت طابعا دينيا نظرا للعلاقة التى ربطت شارلمان بالكنيسة الغربية، والتى أملت عليه سياسته واتجاهاته. لذلك كانت الصدارة فى الجانب الأدبى للأدب الدينى، كما سبق أن رأينا. ثم جاء التاريخ ليحتل المكانة الثانية فى آداب النهضة الكارولنجية، فامتازت الكتابات التاريخية فى ذلك العصر برقيها وحسن صياغتها فى التعمق فى الأسلوب اللاتينى والعناية بتنميقة. وفيما عدا سير القديسين أهتم كتاب العصر الكارولنجى بكتابة الحوليات Annales ولم يقفوا عند حد تدوين الحوليات القصيرة أو الصغيرة Annales brève ou Petites Annales . وإنما دونت حوليات طويلة تحت إشراف رجال البلاط. وهذه الحوليات الأخيرة التى سميت باسم الحوليات الملكية Annales Royales ظلت تسرد تاريخ الكارولنجيين منذ أن قسم شارل مارتل سلطاته بين أبنائه حتى سنة ٨٢٩. أما ما كتبه اجنهارد عن حياة شارلمان فقد سبق أن أوضحنا أهميته، وإن كانت تنبغى الإشارة هنا إلى أن ترجمة اجنهارد لحياة شارلمان صارت مثلا يحتذى فى الكتابات التاريخية. حتى أن ثلاثة كتاب قاموا بترجمة حياة

---

(82) Lavisse: op. cit., p. 345.

(83) De Wulf: Hist. de la Philosophie Medievale, Tome 1, p. 86.

لويس التقى، ابن شارلمان وخليفته[٨٤].

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى العصر الكارولنجى، فإن هذا التفوق كان فى الكم لا فى النوع، بمعنى أنه لم يكن فى جودة الصناعة وإنما، فى الانتشار وكثرة الاستعمال، لأن الاتجاه السائد عندئذ غلب عليه استخدام الشعر فى كل شئون الدين والدنيا، وفى مختلف أنواع الكتابات الدينية والتاريخية والمراسلات والقصص وغير ذلك. وهكذا صار من المألوف نظم مقطوعات من الشعر لتزيين أبواب الكنائس ومنازل الأثرياء وأغلفة الكتب وشواهد المقابر... وبالإضافة إلى أشعار بولس الشماس وألكوين وانجلبرت وثيودلف، بقى لدينا من ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر Chansons de Geste يتناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداث أخرى تمت فى عهده[٨٥].

ولكن يؤخذ على شعر العصر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة. حقيقة أن مجموعة الشعر اللاتينى فى العصر الكارولنجى Poetae Latini Aevi تقع فى أربعة مجلدات ضخمة وتدل على رقى الأسلوب اللاتينى، كما أنها عالجت موضوعات متنوعة على الأوزان القديمة والوسيطة. ولكن ذلك الشعر يبدو دائما ضعيف الصلة بالحياة الشعبية العامة، كما تعلوه مسحة أكاديمية تجعله أكثر أهمية فى تاريخ الحضارة بمعناها الواسع منه فى تاريخ الأدب بمعناه الخاص [٨٦]. وهنا أيضاً نجد الطابع الدينى غالبا على الشعر الكارولنجى. لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة ، فضلا عن أن شعراء العصر الكارولنجى استمدوا الألهام من شعراء المسيحية فى القرون السابقة مثل برودنتيوس Prudentius (٣٤٨ - ٤١٠) وفورتناتوس (٥٣٠ - ٦٠٩) وغيرهما.

وقد ظلت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية المستخدمة فى الأدب الراقى وفى الأدارة الحكومية فى العصر الكارولنجى. على أن شارلمان لم يتخل عن الجرمانية، لغة أجداده الأوائل من الفرنجة. لذلك أمر بوضع قواعد اللغة الفرنجية، وأطلق أسماء فرنجية على أشهر السنة، كما أمر بجمع الأشعارالفرنجية القديمة التى تتناول تاريخ

(84) Lavisse: op. cit., p. 347.

(85) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 816 - 824.

(86) Haskins: The Renaissance, p. 153.

الفرنجة فى عصر البطولة(٨٧).

ولما كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللغة اللاتينية الفصحى فى حياتهم العامة والخاصة، فقد شاع فى ذلك العصر استخدام اللاتينية فى قالبها العامى، حتى أصبحت هذه اللاتينية الدارجة أو الشعبية Latin Rustique هى اللغة الشائعة فى معظم أنحاء غاليا فى العصر الكارولنجى. وقد أطلق عليها فيما بعد اللغة الرومانية تمييزا لها من اللاتينية الصحيحة. وفى سنة ٨١٣ قرر الأساقفة الذين حضروا مجمع تور الدينى ضرورة وضع التعاليم والمواعظ الدينية فى الصيغة الرومانية حتى يفهمها عامة الشعب، وبذلك ازداد استعمال اللغة الرومانية فى الحياة العامة والدينية. ولكن ذلك لا يعنى بأى حال تدهور مستوى اللغة اللاتينية ، لأن هذه اللغة لم تهو مطلقا منذ النهضة الكارولنجية إلى مثل المستوى الذى انحدرت إليه فى العصر الميروفنجى، وبصفة خاصة فى القرن السابع(٨٨).

وأخيرا نلاحظ أنه إذا كان الناس قد اعتادوا دائما أن يسجلوا مآثر أسلافهم وبطولتهم فى أدبهم الشعبى، فإن شارلمان سرعان ما أصبح بعد وفاته محورا ومادة لكثير من الكتابات الشعبية التى صورته فى صورة البطل العظيم الذى حارب الوثنيين ودافع عن البابوية والكنيسة. وهكذا غذى شارلمان الأدب فى حياته وبعد مماته(٨٩).

القانون والتشريع والإدارة:

أما الشئون التشريعية والتنظيمات الإدارية، فكان لها هى الأخرى نصيب كبير من العناية فى النهضة الكارولنجية. وهنا أيضًا نلاحظ أثر الكنيسة فى تشريعات شارلمان (٩٠)، إذ أن الطابع الدينى لم يقتصر على المعاهدات التى عقدها شارلمان فى أوائل حكمه، وإنما استمر واضحا فى تشريعاته التى سنها لتنظيم دولته. وسواء جاء هذا الأثر الدينى عن طريق مباشر أو غير مباشر، فالواضح أمامنا أن شارلمان حرص دائما فى تعليماته وأوامره ومراسيمه على أن ينصح رعاياه بالتمسك بمبادئ الأخلاق

(87) Eginhard: op. cit., p. 45.
(88) Haskins: The Renaissance, p. 17.
(89) Lavisse: op. cit., p. p. 347 - 348.
(90) Pirenne: A History of Europe, p. 92.

وتعاليم الكنيسة وعدم الخروج عنها. هذا إلى أن مراسيمه الخاصة بالتجارة والتعليم والقضاء والإدارة.. تأثرت جميعها بعلاقته بروما وكنيستها. ويبدو أن كل زيارة قام بها شارلمان لمدينة روما كان يصحبها أو يتبعها تغيير هام أو إصلاح أساسى يعالج به الكنيسة والإدارة. وفى معظم الأحيان اعتاد شارلمان أن يعود من روما وفى ركابه عدد ضخم من الفنانين والأدباء والمعلمين ورجال الدين، هذا إلى أن البابوات - وبصفة خاصة أدريان الأول - عملوا دائما على تقوية روح الشعور بالمسؤلية عند شارلمان بوصفه قيما على المجتمع المسيحى الغربى.

وتشريعات ذلك العصر ليست كثيرة أوعديدة، وكل ما لدينا منها اثنان متعلقان بسكسونيا، وثمانية تتعلق بإيطاليا، وخمسة بجميع أنحاء المملكة. هذا عدا عدد كبير من التعليمات الموجهة إلى المبعوثين Missi وهى التى تعطينا فكرة واضحة عن نظام الإدارة فى ذلك العصر. والواقع أن أهم تغيير تشريعى وإدارى شهده العصر الكارولنجى كان ازدياد أهمية المبعوثين الملكيين واستخدامهم استخداما منظما. ولم تكن هذه الوظيفة جديدة على دولة الفرنجة، إذ عرفت فى العصر الميروفنجى، عندما كان أى رسول موفد من القصر الملكى فى مهمة خاصة يحمل لقب مبعوث (Mis-sus). ولكن حدث فى عصر شارلمان - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨٩ عندما بلغت الدولة الكارولنجية أقصى اتساعها بعد غزو بافاريا - أن أصبح لهؤلاء المبعوثين أهمية كبرى، بوصفهم مندوبى شارل العظيم الذين يحملون تعليماته ومراسيمه إلى الأقاليم والحكام، ويجمعون أخبار تلك الأقاليم وهؤلاء الحكام لعرضها على الملك فى العاصمة، وفى سنتى ٧٨٩، ٧٩٢ كلف المبعوثون الملكيون بالحصول على يمين الولاء للملك من جميع رجال المملكة، وبعد ذلك طلب منهم أن يتأكدوا من أن الكونتات وحكام الأقاليم يحكمون بين الناس وفقا للقوانين(٩١). ويبدو أن كثرة الشكاوى من مختلف أنحاء الإمبراطورية دفعت شارلمان بعد تتويجه إمبراطور سنة ٨٠٠ إلى العمل على تقوية نظام المبعوثين ليصبح أداة فعالة فى القضاء على أسباب الشكوى. لذلك قسم شارلمان الإمبراطورية سنة ٨٠٢ إلى دوائر، يبعث إلى كل دائرة منها اثنين من المبعوثين أحدهما من رجال الدين والثانى من رجال الإدارة، ليضمن رعاية مصالح

(91) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 77.

الكنيسة والدولة جميعا. ولجأ الإمبراطور إلى عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم، بل دأب على نقلهم كل عام قبل أن ينشئوا علاقات وتصبح لهم مصالح مع أهالى الدائرة. وبهذه الطريقة ضمن شارلمان قيام المبعوثين بواجبهم في التفتيش على الكونتات والأساقفة تفتيشا دقيقا (٩٢).

ومن هذا يبدو أن المهمة الأولى للمبعوثين كانت سماع شكاوى أهالى الأقاليم ضد الكونتات، وإلزام الكونت بتوخى العدالة فى إقليمه. وفى حالة عدم امتثاله يحتل المبعوث مبنى الإدارة الذى يباشر فيه الكونت سلطته، ولا يغادره إلا إذا امتثل الكونت لأوامر المبعوث. أما المهمة الثانية للمبعوثين فكانت مصاحبة الأساقفة فى زيارات دورية مفاجئة للتفتيش على رجال الدين، ومؤاخذة المهملين منهم. وبعد ذلك تأتى المهمة الثالثة للمبعوثين وهى التفتيش على الضياع التى وقفها الملك على الأغراض الخيرية، للتأكد من سلامة أوضاعها واستخدامها فى الأغراض المخصصة لها. وأخيرا كان على المبعوثين أن يتأكدوا من سلامة إجراءات الخدمة العسكرية، ومدى حرص الكونتات على تنفيذ أوامر الملك بخصوصها(٩٣).

ولم يكن إصلاح نظام المبعوثين هو كل ما قام به شارلمان فى الناحيتين الإدارية والتشريعية خلال الفترة التى عاشها بعد تتويجه إمبراطورا، إذ استحدث أيضًا بعض تشريعات تسمى «التنظيمات» وليست هذه التنظيمات مجموعة مترابطة من القوانين المكملة لبعضها البعض، وإنما هى فى الواقع مجموعة من الأوامر والمراسيم المتباينة، هدفها إقرار النظام والعدالة فى الدولة. وطابعها العام التسرع وعدم الدقة. كما يؤخذ عليها أنها على الرغم من سلامة هدفها لم تحاول أن تتعرض لجذور الفساد الحقيقية فى الدولة، وقد تناولت هذه التشريعات إصلاح نظم المحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبى فى دور القضاء؛ بعد أن صارت المحاكم فى أيدى قضاة غير مسئولين، يجهلون القانون ويخشون بأس الكونت أو حاكم الأقليم ويعملون لحسابه. لذلك استبدل شارلمان هؤلاء القضاة بهيئات أخرى يختار أعضاؤها بدقة وعناية، ويشترط فيهم حسن السمعة والدراية بالقانون. وكان من الممكن أن ينجح هذا النوع الجديد من

(92) Select Documents of Mede. History, p. 13.

(93) Davis: op. cit., p. p. 155 - 157.

المحاكم لو أن المجتمع الفرنجي ظل على بساطته الأولى، أما وقد اتسعت الإمبراطورية الفرنجية وتعقدت العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، وبينهم وبين الحكام، فكان لابد من نظام قضائى أشمل وأقوى.

وثمة عمل تشريعى آخر قام به شارلمان ، هو أنه أمر سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف شعوب الإمبراطورية(٩٤). حقيقة أن بعض هذه التشريعات كانت قد دونت من قبل، ولكن لوحظ أن بها كثير من الأخطاء والنقص مما جعل شارلمان يطلب من القضاة عدم أتباع أحكام قانونية غير الأحكام التى أمر هو بجمعها وترجمتها. هذا وإن كان من المشكوك فيه أن رجال القضاء بروا بقسمهم السابق(٩٥).

وأخيرا نلاحظ أنه على الرغم من جهود شارلمان السابقة فى تحسين النظم القضائية وتدوين القوانين وتحقيق العدالة عن طريق التمسك بشهادة الشهود؛ إلا أن الرشوة ظلت سائدة، والعدالة استمرت مهضومة؛ حتى يئس أصحاب الحقوق وفوضوا أمرهم لله. ويبدو أن شارلمان - على الرغم من حماسته وجلده على العمل - كانت تنقصه مواهب المشرع الناجح، فلم تمس تشريعاته جوهر الحقائق ولم ينفذ من قوانينه إلا نسبة ضئيلة تكاد لاتبلغ العشر(٩٦).

شارلمان والكنيسة:

إذا كان الفرنجة قد أسهموا فى بناء الحضارة الأوربية، فإن دورهم فى هذا المضمار كان روحيا ومعنويا أكثر منه ماديا. فالفرنجة لم يشيدوا مدنا ضخمة، ولم يخلفوا آثارا مادية وفكرية عظيمة كاليونان أو الرومان وإذا كانوا قد أسهموا فى هذه النواحى فبقسط محدود. أما أثر دولة الفرنجة العظيم فى التاريخ فقد جاء عن طريق نجاحها فى حل أشكال عسر، هو تحقيق الوفاق بين السلطتين الدينية والدنيوية وإقامة إمبراطورية عظيمة فى غرب أوربا يسيطر عليها رجل واحد يجمع فى قبضته بين هاتين السلطتين. وعن هذا الطريق استطاع شارلمان أن ينجح فى تحقيق عملية المزج الكبرى بين شعوب إمبراطوريته، على أساس أنهم جميعا تابعون لكنيسة واحدة

(94) Eginhard: op. cit., p. 45.

(95) Davis: op. cit., p. 45.

(96) Barker: The European Inheritance, vol 1, 1, p. 327.

وخاضعون لحاكم واحد يسيطر على هذه الكنيسة[٩٧].

وقد دفع الكنيسة إلى التلهف على محالفة دولة الفرنجة حالة الفوضى والضعف وسوء التنظيم التى أمست فيها بين القرنين الخامس والثامن. هذا إلى ما سبق أن أشرنا إليه من ازدياد خطر اللمبارديين فى إيطاليا فى عصر خلفاء ملكهم ليتوبراند، مما دفع البابوية إلى الارتماء بين أحضان الكارولنجيين طالبة حمايتهم. واتخذ التحالف بين البابوية والكارولنجيين صورته الجديدة فى الملابسات التى صحبت تتويج بيبين القصير. ولعل الأمر الذى يسترعى الانتباه فى ذلك التتويج هو أن البت فى موضوع نقل تاج الفرنجة من البيت الميروفنجى إلى البيت الكارولنجى ترك للبابا فى روما، لا لشعب الفرنجة [٩٨]. ثم كان تتويج شارلمان إمبراطورا بيد البابا سنة ٨٠٠، وهى العملية التى لها مغزاها السياسى والدينى. فالنظرية الأساسية التى قامت عليها الإمبراطورية الكارولنجية تعتبر الإمبراطورية وحدة دينية قبل أى اعتبار آخر، وظل شارلمان يعمل لتأكيد هذه الحقيقة بقية حكمه[٩٩]. هذا وإن كانت الكنيسة سرعان ما خاب أملها، لأنها عندما شجعت فكرة قيام تلك القوة العظمى فى غرب أوربا كانت تأمل أن تستفيد فائدة أعظم وأضخم، ولكن عدم تحديد العلاقة بين السلطتين الدينية والزمنية لم يساعد الكنيسة على تحقيق آمالها وأطماعها. وهكذا أخذ شارلمان يعمل دائما لجعل الكنيسة فى غرب أوربا تحت سيطرته، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد. وساعده على تحقيق ذلك النجاح اعتراف الكنيسة به حامى حمى المسيحية فى الغرب، وعلى هذا الأساس أنشأ شارلمان يتدخل باطمئنان تام فى المشاكل الدينية ومختلف الشئون المتعلقة بالتنظيم الكنسى. فهو الذى يعين الأساقفة، ويدعو إلى عقد المجامع الدينية، ويشرع القوانين اللازمة للكنيسة[١٠٠].

وتتضح سيطرة شارلمان على الكنيسة وعنايته بتنظيم شئونها فى كثير من الإجراءات والتنظيمات الكنسية التى استحدثها فى إمبراطوريته. من ذلك أنه أعاد إلى

---

(97) Davis: op. cit., p. 15.

(98) Eyre: op. cit., p. p. 88 - 89.

(99) Idem: p. 120.

(100) Pirenne: A History of Europe, p. 80.

كبار الأساقفة سلطاتهم وحدد مناطق نفوذهم. كما أكد حقوق الأساقفة على القساوسة الخاضعين لأشرافهم، وحقوق مقدمى الأديرة على رهبانهم، وجعل من العشور ضريبة قانونية واجبة على كافة العلمانيين، كما جعل لقرار الحرمان الصادر من الكنيسة Ex-communication قوة قانونية. وفى الوقت نفسه حدد شارلمان الحصانة التى يتمتع بها رجال الدين، وحتم الفصل فى القضايا المشتركة بين رجال الدين والعلمانيين بواسطة هيئة مشتركة من الأسقف وكونت الإقليم.

ومن ناحية أخرى حرص شارلمان على تحريم زواج رجال الكنيسة، كما حرم عليهم دخول الحانات وأماكن اللهو، وحمل السلاح، وممارسة الصيد. هذا فى الوقت الذى عنى بتوجيه الأساقفة ورجال الدين وأفهامهم طبيعة أعمالهم وواجباتهم. كذلك حرم شارلمان على رعاياه العمل فى أيام الآحاد - وهى أيام العطلة الدينية - إلا فى ثلاث حالات، هى تحركات الجند، ونقل المواد الغذائية وبيعها، ودفن الموتى. حتى الترانيم والموسيقى الكنسية عدلها شارلمان وقرر كتابا جديدا فى الخطب الدينية، كما أكثر من إحياء الأعياد وإقامة الصلوات فى مختلف المناسبات(١٠١).

وفى جميع هذه التنظيمات الدينية قل أن استشار شارلمان البابا. بل إن الأخير كان يفكر أحيانا فى الإصلاح ولكنه لا يقوى على تنفيذه حتى فى لمبارديا(١٠٢). ولكن على الرغم من ذلك فإن رأى البابا فى المسائل التى تمس جوهر العقيدة وأحكام الدين كان أمرا له حسابه. فالبابا هو المرجع الأول والرئيسى فى كافة المسائل التى تتعلق بأحكام الكنيسة الغربية. وقد صدر كتاب تحت إشراف شارلمان نفسه لا يقر شرعية الكتب والأحكام الدينية التى لا توافق عليها البابوية. ويتضح حذر شارلمان واعتماده على رأى البابا فى كل ما يتعلق بالعقيدة فى موقفه من بعض المشاكل الدينية المعاصرة، وأهمها مشكلة التبنى Adoptionism ومشكلة عبادة الأيقونات Iconolatry (١٠٣).

أما عن مشكلة التبنى، فإن المذهب الذي يقول بأن المسيح بطبيعته البشرية ليس إلا ابنا تبناه الله - عز وجل - لم يكن جديدا. وفى هذه الحالة يجب أن يكون الابن دون

(101) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 72.

(102) Davis: op. cit., p. 160.

(103) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 532 - 533.

الإله الأب في المستوى والقدرة. وقد وجدت هذه العقيدة ـ التي ترتبط بالمذهب النسطوري[١٠٤] ـ أرضا خصبة في اسبانيا المسيحية، في الوقت الذي اعتبرتها البابوية والكنيسة الغربية ضربا من الهرطقة تجب محاربتها والقضاء عليها. وقد صار تدخل شارلمان في هذه المسألة أمرا لابد منه نظرا لانتشار هرطقة التبني في الجهات الشمالية الشرقية من أسبانيا. وهي الجهات ذات العلاقة الوثيقة بدولة شارلمان. وعندما عرض شارلمان الأمر على البابا، وحصل منه على قرار بابوي ببطلان ذلك المذهب، عقدة عدة مجامع دينية في رجنسبرج Regensburg سنة ٧٩٢، وفي فرانكفورت سنة ٧٩٤، وفي آخن Aachen سنة ٧٩٩، كما عقد البابا مجمعا في روما سنة ٧٩٩ أيضاً. وفي تلك المجامع كلها عمل شارلمان وأعوانه على دحض عقيدة التبني وأثبات فسادها.

أما المشكلة الدينية الثانية التي تدخل فيها شارلمان فتتعلق بعبادة الأيقونات. ذلك أن الإمبراطورة ايرين Irene امبرطورة الدولة البيزنطية (٧٨٠ – ٧٩٠، ٧٩٢ – ٨٠٢) عقدت بالاتفاق مع طرسيوس Tarasius بطرق القسطنطينية مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ الذي أقر مبدأ عبادة الأيقونات . وقد حضر ذلك المجمع مندوبون عن البابا أدريان الأول، لأن الكنيسة الغربية كانت تستعين دائما بالصور والأيقونات في استثارة الشعور الديني عند المسيحيين. لذلك لم يكن غريبا أن يوافق البابا أدريان الأول على إعطاء الصور الدينية حقها من التبجيل والاحترام، مع التفرقة بين عبادة الأيقونات وتبجيلها. ولكن هذه التفرقة في نظر شارلمان ومساعده ألكوين كانت مستحيلة ولايمكن تحقيقها، لأن تبجيل الشيء اصطلاح مطاط، من الممكن أن يصل إلى درجة العبادة، لذلك أرسل شارلمان إلى البابا رسالته الشهيرة المعروفة باسم «الكتاب الكارولنجي Libri Carolini» ليثبت له فيها تعارض عبادة الأيقونات مع تعاليم المسيحية ومبادئ الكنيسة الغربية. وبفضل نفوذ شارلمان قرر مجمع فرانكفورت

---

(١٠٤) نسبة إلى نسطوريوس Nestorius تولى منصب بطرق القسطنطينية سنة ٤٢٨، وقد نادى بأن مريم العذراء لا تعتبر أما للمسيح بوصفه إلها وربا وإنما بوصفه بشرا فقط، الأمر الذي قوى من فكرة الفصل بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، وعلى الرغم من إدانة مذهبه وإقالته من منصبه ونفيه، إلا أن المذهب النسطوري ظل حيا في الرها ونصيبين . كما وجد مؤيدين له في بلاد الشام وأنحاء من بلاد فارس.

الدينى سنة ٧٩٤ بطلان قرار مجمع نيقية الخاص بإباحة عبادة الأيقونات والصور المقدسة، مما أنذر بإيجاد انقسام فى الكنيسة الغربية وإثارة وحشة بين شارلمان والبابا أدريان الأول، لولا خضوع الأخير لرأى الأول.

وقد حاول بعض الكتاب تعليل موقف شارلمان من مسألة الإيقونات تعليلا سياسيا، على أساس أنه كان يتطلع عندئذ إلى اليوم الذى يتوج فيه إمبراطورا. لذلك صار هدف شارلمان الأساسى من معارضة الأيقونات هو إظهار أباطرة القسطنطينية فى صورة الهراطقة غير المحافظين على روح المسيحية وتعاليمها الصحيحة، مما يقلل من شأنهم فى نظر العالم المسيحى من جهة، ويظهر شارلمان فى ثوب الحريص على أصول المسيحية وروحها وتعاليمها من جهة أخرى. وكل ذلك يساعده بدون شك فى تحقيق أمانيه والوصول إلى منصب الإمبراطورية. ويؤيد هذا الرأى أن شارلمان فى كتابه الكارولنجى إلى البابا انتقد الأمبراطورة ايرين شخصيا واستنكر جلوس امرأة فى مجمع كنسى لمناقشة مسألة دينية.

ومهما يكن الأمر، فإن اختلاف وجهات النظر بين شارلمان والبابا لم يعد أن يكون أمرا سطحيا . ولم يؤثر مطلقا فى الخيوط الرئيسية للسياسة التى رسمتها دولة الفرنجة تجاه الكنيسة والبابوية(١٠٥) .

النهضة الاقتصادية :

وإذا كانت هذه هى المظاهر الفكرية والروحية للنهضة الكارولنجية، فإن هناك مظاهر اقتصادية هامة لتلك النهضة تتجلى فى رقى الزراعة والصناعة والتجارة. أما عن الزراعة فيلاحظ أن الضيعات الصغيرة أخذت تختفى فى العصر الكارولنجى لتؤلف ضياعا كبيرة تحل محل المدن كمراكز للنشاط الاقتصادى، بمعنى أن الضيعة غدت وحدة النظام الاقتصادى. فالمدن لم تعد مراكز النشاط الاقتصادى فى العصر الكارولنجى، لأن الحياة تركزت عندئذ فى الضياع والأرياف. والواقع أن تناقص أهمية المدن فى ذلك العصر يمثل ظاهرة اجتماعية واقتصادية وإدارية غريبة. ذلك أنه حدث منذ أن أخذ النفوذ الإسلامى يغلب على حوض البحر المتوسط أن بدأت

---

(105) Davis: op. cit., p. p. 160 - 164.

المدن فى غرب أوربا تفقد أهميتها، حتى ذبلت مظاهر الحياة الحضرية فيها، وهجرها الملوك والأمراء إلى ضياعهم. كذلك لم تعد المدن مراكز التنظيم الإدارى - كما كانت قديما فى العصر الرومانى - وإن ظلت مراكز التنظيم الكنسى. أما الضيعات الكبيرة التى حلت محل المدن فقد أصبحت محور النشاط الاقتصادى فى العصر الكارولنجى، مما جعل ذلك النشاط مرتبطا بالزراعة وإنتاج الأرض إلى حد كبير[١٠٦]. وامتازت هذه الضيعات الكبيرة الواسعة بأنها كانت تكفى نفسها بنفسها (Self Supporting)؛ فبدلا من أن تحاول إنتاج فائض تبيعه فى الأسواق الخارجية، عملت بسياسة الاكتفاء الذاتى، أى اكتفت بإنتاج ما يلزم صاحب الضيعة واتباعه من القاطنين على أرضها، وقد أضعفت هذه السياسة من ارتباط الضيعة بالعالم الخارجى، وجعلت أهلها يربطون مصيرهم بالأرض التى يعيشون عليها. وسرعان ما ترتب على ذلك أن أصبح الفلاحون أقنانا مرتبطين بالأرض، وصارت القنية أمرا عاديا، مما جعل الباحثين يرجعون الخيوط الأولى للنظام الاقطاعى إلى ذلك العصر[١٠٧]. كذلك يلاحظ أن نسبة كبيرة من تلك الضياع الواسعة صارت ملكا للأديرة التى تنازل لها صغار الملاك عن أراضيهم رغبة فى التخلص من الخدمة العسكرية والضرائب من ناحية، وطمعا فى المثوبة والمغفرة من ناحية أخرى. أما شارلمان فكان أعظم ملاك الأراضى فى إمبراطوريته، فعنى بضياعه عناية كبيرة حتى غدت مزارعه نموذجية تفيض بالخيرات من لحوم وحبوب ونبيذ وخضروات وجبن ومسلى وغير ذلك[١٠٨]. كذلك شجع شارلمان كبار الملاك فى إمبراطوريته على العناية بشئون الزراعة، ومعاونة الحكومة فى تقوية جسور الأنهار، وغيرها من المشاريع الزراعية النافعة[١٠٩].

---

(106) Pirenne: A Hist. of Europe, p. p. 94 - 99.

(107) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 506 - 508.

(108) Lavisse: op. cit., p. p. 331 - 335.

(109) Boissonnade: op. cit., p. 71.

الصناعة :

أما عن الصناعة فى العصر الكارولنجى فقد انتعشت فى الأديرة بصفة خاصة. من ذلك ما نسمعه من أن دير كوربى مثلا خصصت به عدة حجرات للصناعات المختلفة، منها حجرة بها ثلاثة من صانعى النعال واثنان من السروجية، وحجرة أخرى بها ستة من الحدادين، واثنان من الصائغين، وصناع أسلحة، وآخر يعد الرقائق الجلدية لاستخدامها فى الكتابة. وقاعة ثالثة بها بعض النجارين.. وهكذا قامت هذه «الورش» داخل الدير لتسد حاجاته ومطالب رهبانه من المنتجات الصناعية المختلفة.

على أن الديريين لم يلبثوا أن أدركوا عظم المكاسب التى يمكن أن تعود عليهم بالتوسع فى الصناعة وبيع الفائض من الإنتاج لعامة الأهالى خارج الدير. ويبدو أول مثل لدينا لهذا الاتجاه فى سياسة دير سانت ركويير St. Riquier الذى أحرز فى نهاية القرن الثامن شهرة واسعة فى الصناعات الحديدية، ولم تكد تحل سنة ٨٣١ إلا وكان بذلك الدير إحدى عشرة وحدة صناعية، كل منها به مجموعة من الرهبان المتخصصين فى صناعة حرفة معينة. على أن الصناعة فى العصر الكارولنجى لم تظل وقفا على الأديرة والديريين. وإنما انتشرت فى الضياع والقرى. ويرجح أن ذلك العصر عرف البذور الأولى لنظام النقابات، فأخذ أفراد الحرفة الواحدة يتقاربون لتأليف نقابة تحميهم وتنظم شئونهم وتقدم لهم المعونة فى حالة العجز عن العمل[١١٠].

التجارة:

على أن نشاط الصناعة ووفرة الإنتاج الصناعى أثارت اتجاها نحو تصدير الفائض منه إلى مختلف الجهات، مما أدى بدوره إلى نشاط تجارى فى العصر الكارولنجى. وقد قام شارلمان بعدة إجراءات سهلت الحياة الاقتصادية بوجه عام، وأدت إلى نشاط التجارة بوجه خاص. من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس، حتى حظيت دولة الفرنجة لأول مرة فى التاريخ بنظام موحد للوزن والقياس. كذلك نظمت النقود والعملة المتداولة، وبعد أن كان يوجد قبل سنة ٧٧٤ أكثر من ستين دارا لضرب النقود، انكمش هذا العدد وصارت الدور المرخص لها بسك العملة محدودة، كما أصبح رفض التعامل بالعملة الملكية جريمة كبرى لايغتفرها الملك. وفى الوقت نفسه صار

(110) Lavisse: op. cit., p.336.

لأى شخص الحق فى أن يرفض التعامل بالنقود غير المستوفاة للشروط الرسمية، كما حرم فى إيطاليا استخدام النقود اللمباردية منذ أغسطس سنة ٧٨١. كذلك أصدر شارلمان أوامره بتحريم الربا وتحديد أثمان الغلال، مما يثبت أنه تأثر فى آرائه الاقتصادية بالكنيسة وتعاليمها(١١١).

وليس هناك من شك فى أن نشاط التجارة يتطلب العناية بالطرق التجارية، والإكثار منها، والمحافظة على سلامتها، وتوفير الأمن لسالكيها، وهذه كلها أمور أهتم بها شارلمان، ولم تصرفه مشاغله الكثيرة عنها، فاهتم بالطرق البرية وزاد منها، هذا وأن فضل تجار ذلك العصر استخدام الطرق النهرية، حتى غدت أنهار الراين والدانوب، والسين، والرون، وفروعها، تكون شبكة ضخمة من طرق التجارة، تربط بين شمال إمبراطورية شارلمان وجنوبها، وبين شرقها وغربها. ولا يستطيع مؤرخ أن يلوم شارلمان على الإجراءات المشددة التى اتخذها ضد الذين يهاجمون المسافرين ويعتدون على التجار، أو يفرضون مكوسا غير شرعية على عبور الطرقات والجسور، لأن هذه الإجراءات أدت إلى استقرار الأمن والنظام، وبالتالى إلى تشجيع التجارة والأسفار.

وقد قامت الأسواق العامة Mercata Publica بجوار المدن والأديرة والضياع، كما قامت قرب المزارات الهامة وأضرحة القديسين، حيث كان النشاط التجارى يلازم الاحتفالات الدينية فى صورة تشبه ما يحدث فى الموالد بالبلاد الإسلامية، وأشهر سوق من هذا النوع كانت سوق سانت دنيس الذى اعترف به بيبين القصير سنة ٧٥٩. ومنذ ذلك الوقت وهذا السوق فى نمو مستمر، بفضل قربه من باريس حتى صار يعرف بسوق الشعب، وصار يقصده التجار من أسبانيا ولمبارديا وغيرهما من البلاد البعيدة(١١٢).

أما ألمانيا فقد أقيمت فيها الفنادق والخانات على امتداد الطرق التجارية بقصد إيواء التجار ودوابهم وبضائعهم. ولم يسمح شارلمان للتجار بعبور نهر الألب حيث كانت جموع البرابرة من العناصر السلافية وغيرها ترابط على الضفة الشرقية للنهر. لذلك أقام شارلمان على طول الحدود بين مملكته وتلك الشعوب الغربية تسعة مراكز،

(111) Davis: op. cit., p. 158.

(112) Lavisse: op. cit., p.337.

بها موظفون وحاميات من الجند لحماية تجار الفرنجة من ناحية، ومنعهم من بيع الأسلحة لتلك الشعوب المعادية من ناحية أخرى.

وقد اختار شارلمان مينز Mainz لتكون مركزا رئيسيا للتجارة بين غاليا وألمانيا. وفي سبيل هذا الغرض درس شارلمان مشروعين نظر إليهما المعاصرون نظرة إعجاب بالغ. أما المشروع الأول فكان يستهدف شق قناة تربط المين - أحد فوع الراين بالدانوب. في حين كان المشروع الثاني يرمي إلى إقامة جسر خشبي على الراين عند مينز نفسها طوله خمسمائة قدم. وقد بدأ شارلمان بتنفيذ المشروع الأول، ولكنه سرعان ما عدل عنه للصعوبات التي اعترضته، وأهمها طبيعة الأرض وصعوبتها، أما جسر مينز فاستغرقت إقامته عشر سنوات، وبعد أن تم عمله أتت عليه النيران والتهمته أولا عن آخر سنة ٨١٣.

هذا عن التجارة مع ألمانيا، أما عن العلاقات التجارية بين دولة الفرنجة من ناحية وبريطانيا وأيرلنده من ناحية أخرى. فقد ساعد على نموها العلاقات الطيبة بين شارلمان وحكام تلك البلاد. لذلك كثرت أعداد الحجاج الأنجلو سكسون الذين أخذوا يعبرون فرنسا تحت حماية شارلمان، وفي ظل الاستقرار الذي أمتاز به حكمه. واشتغل هؤلاء الحجاج بالتجارة في الوقت نفسه، فكانوا يأتون إلى غاليا محملين بالبضائع ويغادرونها مثقلين بالمتاجر. لذلك أقام شارلمان مكاتب جمركية في مختلف الموانى والمدن البحرية التي اعتاد أن يمر بها هؤلاء الحجاج، وجعل تلك المكاتب تحت إشراف جرفولد Gervold ؛ أحد كبار أعوانه.

أما التجارة البحرية فانتعشت هي الأخرى في عهد شارلمان عن طريق نانت من ناحية، وموانى البحر المتوسط في بروفانس وسبتمانيا من ناحية أخرى. والمعروف أن الغزوات الإسلامية في القسم الغربي من حوض البحر المتوسط لم تؤثر كثيرا في التبادل التجاري مع الشرق. مصداق ذلك ما نلمسه من انتعاش العلاقات التجارية بين دولة الفرنجة وبلاد الشرق، بفضل الصلات الطيبة بين شارلمان من جهة والخليفة هارون الرشيد والجاليات المسيحية في مصر والشام وغيرهما من بلاد الشرق من جهة أخرى. وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة شارلمان المنسوجات والأقمشة المزركشة والملونة والملابس الحريرية والمصنوعات الجلدية والروائح العطرية

والأعشاب الطبية والتوابل والحيوانات والطيور الغربية، عدا مجوهرات الهند وأوراق البردى المستوردة من مصر. وفى مقابل هذه البضائع صدر الغرب إلى الشرق الحبوب والخمور والزيوت وكلاب الصيد والجوخ الثمين الذى اشتهر به أقليم فريزيا. ولم يلبث أن ظهر أثر هذا النشاط التجارى بين الشرق والغرب عل عصر شارلمان فى مدن سبتمانيا وفى مدن بروفانس. وأهم تلك المدن نيم Nimes وماجلون Maguelonne ، فى حين غدت مدينة آرل Arles المركز الرئيسى لتجارة الواردات التى اعتادت السفن أن تفرغها فى مرسيليا أو ناربون Narbonne.

ويلاحظ أنه مما ساعد على تقدم التجارة فى ذلك العصر نشاط اليهود، الذين لم يتعرضوا فى ظل حكومة شارلمان للضغط والقيود التى تعرضوا لها فى أواخر العصور الوسطى. وكل ما هنالك هو أنه حرم عليهم امتلاك الأراضى فاتجهوا نحو الاشتغال بالتجارة والأعمال المصرفية؛ وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة(١١٣).

وأخيرا نختتم كلامنا عن النهضة الاقتصادية فى عصر شارلمان بالإشارة إلى أن بعض الكتاب يميل إلى التحفظ وعدم المبالغة فى تقدير أهمية التقدم الاقتصادى فى ذلك العصر، بحجة أن هذا النشاط الاقتصادى حددته وضيقت دائرته حروب شارلمان الطويلة ، وسيطرة الآفار على طريق الدانوب الذى كان عندئذ الشريان الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب(١١٤). ولكن لا شك فى أن هذه الاعتراضات إن صحت، فهى ليست بالموانع التى تحجب أهمية النشاط الاقتصادى فى النهضة الكارولنجية.

الفنون:

أما فى ميدان الفن، فيلاحظ أن النهضة الحضارية التى تعهدها شارلمان جذبت إليها وتمثلت فيها جميع العناصر التى ترتبط بتقاليد المسيحية فى الجانب الفنى، وبذلك تمخضت جهود شارلمان فى إحياء الإمبراطورية الرومانية عن أثر آخر هام، هو دعم الحياة الفنية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى. وهنا نلاحظ أن الفنون فى العصر الكارولنجى تأثرت بالعامل الدينى نفسه، الذى رأينا أثره واضحا فى بقية نواحى النشاط التى ظهرت فى النهضة الكارولنجية. وقد ظهر هذا الأثر واضحا سواء

---

(113) Lavisse: op. cit., p. p. 338 - 340.

(114) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages, p. 63.

فى البواعث التى ألهمت الفن الكارولنجى وكيفته، أو فى الطابع العام الذى ميز ذلك الفن.

فالموسيقى التى عرفت فى ذلك العصر كانت موسيقى دينية، وكان الغرب الأوربى يعرف منذ القرن السادس طريقتين للترانيم الدينية: الطريقة الرومانية التى نظمها البابا جريجورى الأول العظيم، والطريقة الغالية. ولم تلبث أن امتدت الطريقة الأولى إلى غاليا حيث عمل ببين القصير على تعميمها فى جميع أنحاء مملكته، ثم تبعه شارلمان فى تلك السياسة التى شجعه عليها البابا أدريان الأول (٧٧٢ – ٧٩٥)، فأمده باثنين من المتخصصين، ليعلموا أهالى غاليا طريقة الترانيم الرومانية الصحيحة. وقد أقام أحد هؤلاء الموسيقيين فى ميتز والثانى فى سانت جال St. Gall وازدهرت المدرسة الأخيرة بصفة خاصة فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر، فظهر من رجالها بعض المبرزين مثل نوتكر Notker ، وهارتمان Hartmann ، ورادبرت Radbert وعلى رأس هؤلاء جميعا توتيلون Tutilen الذى وصفته المصادر بأنه كان «خطيبا مصقعا وفنانا بارعا وموسيقيا وشاعرا»[١١٥].

وكذلك يتضح تأثير العامل الدينى على الفن الكارولنجى فى الصناعات العاجية والذهبية الدقيقة. وقد بقيت منها نماذج فريدة معظمها يحاكى الصور المسيحية القديمة فى إيطاليا والدولة البيزنطية. وكانت كل كنيسة وكل دير فى ذلك العصر له كنوزه وتحفه الثمينة، التى تعبر عن رقى المستوى الفنى فى العصر الكارولنجى، ويلاحظ أن غرب أوربا فى ذلك العصر- مثله مثل العالم الإسلامى - ساده شعور الرغبة عن صنع التماثيل للإنسان والحيوان، مما جعل فن النقش والزخرفة يتجه وجهة أخرى، فيظهر واضحا فى العناية بتحسين الخطوط وزخرفة الكتب. وتضم خزائن الكنائس والأديرة عددا من الكتب التى نسخت فى العصر الكارولنجى ، والتى تعتبر آية فنية رائعة. ذلك أنها مدونة بأحرف ذهبية على رقائق حمراء داكنة، ومحلاة ببعض الزخارف، مما جعلها مثار الإعجاب لوضوح وجمال منظرها.

والمعروف عن عصر شارلمان أنه يمثل انقلابا هاما فى تاريخ الخط والكتابة فى غرب أوربا، لأن النهضة العلمية التى أثارها شارلمان صحبها تطور هام فى فن

(115) Lavisse: op. cit., p. 355.

الكتابة. وظهرت عناية شارلمان بالكتابة فى مرسوم أصدره سنة ٧٨٩، خاص بمراجعة الكتب الدينية والعناية بكتابتها وخطها. ولا شك فى أن هذه المراجعة أثارت نشاطا كبيرا فى مدارس الخط بأديرة فرنسا الرئيسية، لا سيما دير تور حيث اعتكف ألكوين منذ سنة ٧٩٦ حتى وفاته سنة ٨٠٤ (١١٦).

ويقال أن التطور الذى اعترى الخط فى العصر الكارولنجى إنما جاء نتيجة المؤثرات الأيرلندية والسكسونية (١١٧). فاستبدلت الأحرف الميروفنجية المعقدة ذات المظهر الجاف، والتى تطلبت قراءتها جهدا وعناءا كبيرين، بأحرف أخرى أجمل شكلا وأكثر وضوحا وأسهل فى القراءة، ومن ثم نشأ ذلك النوع من الخط المعروف باسم Minuscule أى الحروف الصغيرة المحدودة(١١٨)، ويرى الباحثون أنه من المبالغة أن ننسب الفضل فى ظهور هذه الطريقة فى الكتابة فى غاليا إلى فرد معين مثل ألكوين، لأن ألكوين نفسه لم يصل غاليا إلا بعد ظهور هذا النوع من الخط(١١٩). ولكن من الاعتراف بالجميل أن نشير إلى أن ألكوين أسهم بقسط وافر فى دعم مدرسة تور والرقى بمستوى الكتابة فيها، فوضع أمام كتبتها وناسخيها عبارة يوصيهم فيها بالعناية بعملهم وتحسين خطوطهم(١٢٠).

وقد وجدت فى غاليا سبع مدارس أخرى عنيت فى ذلك العصر بتحسين الخط، هى مدرسة القصر، ومدرسة ميتز، ومدرسة ريمس، ومدرسة كوربى، ومدرسة فولدا، ومدرسة دنيس، ومدرسة سانت جال. وهنا نلاحظ أن الغالبية العظمى من هذه المدارس كانت ديرية أو كنسية. لذلك وجهت العناية فيها نحو نسخ الكتب الدينية كالإنجيل، ومن هذه الكتب كتاب نسخ لشارلمان حوالى سنة ٧٨١ ومحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس، وهو مدون بأحرف ذهبية وفضية على قماش ثمين.

أما عن فن العمارة فقد فعل شارلمان كثيرا للنهوض به، فأمر رجال الدين بالعناية ببناء الكنائس وإصلاحها وصيانتها، كما جلب عددا من الفنانين والمهندسين

---

(116) Thompson: Greek and Latin Palaeography, p. 367.

(117) Lowe: The Lagacy of the Middle Ages, p. p. 208 - 209.

(118) Idem: p. 217.

(119) Ibid.

(120) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 517.

المعماريين من إيطاليا بوجه عام، ورافانا بوجه خاص . وينسب كثير من الأعمال الهندسية الضخمة التى تمت فى ذلك العصر إلى المهندس اجنهارد وزميله أنسجيس Anségise ومن هذه الأعمال إقامة جسر ماينس Mayence ، وقصر وكنيسة اكس لاشابل، وقصر انجلهايم Engelheim وإن لم توجد أدلة كافية فى الواقع تثبت قيام اجنهارد بكل هذه المنشآت.

وعلى الرغم من انتشار المنشآت الكارولنجية فى مساحة واسعة من أوربا، شملت ألمانيا وغاليا ولمبارديا، إلا أنه لم يتبق من منشآت ذلك العصر سوى القليل . ذلك أن معظم هذه المنشآت كانت من الخشب لاسيما فى الشمال، حيث لم يقتصر استعمال الخشب على الكنائس الصغيرة فى الضياع والقرى، بل شمل أيضًا الكنائس الكبيرة، مما أدى إلى سرعة اندثارها. أما المباني الحجرية التى تنسب إلى عصر شارلمان، فبعضها غير معروف تاريخه بالضبط، والبعض الآخر أعيد تجديده تجديدا شاملا ترتب عليه ضياع معالمها القديمة، مما يحول دون اتخاذ هذه المبانى عنوانا صادقا للعصر الكارولنجى. وكل ما هنالك هو أننا نستطيع أن نخرج منها بفكرة عامة عن الفن فى ذلك العصر بعد مقارنته بما كتبه بعض الكتاب المعاصرين. وخلاصة هذه الفكرة هى أن جنوب فرنسا ـ وبخاصة تولوز ـ أصبح مركزا لطراز رومانسكى أكثر تأثرا بالطابع الشرقى. ويبدو أن هذه المؤثرات الشرقية أتت من ناحية الجنوب ـ أى من أسبانيا ـ حيث أستقر العرب منذ أوائل القرن الثامن. ومصداق ذلك أن كنيسة بوى Put فى أعالى اللوار لا تزال أبوابها الخشبية محلاه بزخارف كوفية رائعة[١٢١] . هذا إلى ما قيل من أن شارلمان استعان ببعض المهندسين والمعماريين المسلمين فى إتمام منشآته ومبانيه، حتى الدينية منها.

ومن المعروف أن طراز العمارة الرومانسكى وصل ذروة عظمته على عصر شارلمان،وهذا الطراز يحتل مكانا وسطا فى مميزاته وخصائصه بين الطرازين الرومانى القديم والقوطى الذى سنتكلم عنه فى الباب الآتى [١٢٢]. هذا مع عدم إغفال التأثيرات الجديدة التى انتقلت من الشرق، أو جاءت على أيدى عناصر الجرمان المختلفة. وقد عرف بعض الباحثين العمارة الرومانسكية بأنها عمارة رومانية ذات

(121) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages, p.p. 63 - 64.

(122) Lethany: Med. Art., p. 60.

صبغة دينية مسيحية. وهكذا نجد كثيرا من خصائص الفن الرومانسكى فى العصر الكارولنجى مقتبسة من الآثار الرومانية القديمة. ويبدو أن شارلمان ورجاله وجدوا أن إحياء الفن الرومانى يجب أن يكون مظهرا من مظاهر إحياء الإمبراطورية الرومانية، وهى الغاية التى عملوا من أجلها (١٢٣).

وإذا كان الفن الرومانسكى قام على أنقاض الفن الرومانى القديم، فإنه أخذ عنه استخدام العقود المستديرة، ولكنه اختلف عنه فى نسب الخلايا والأعمدة والأقواس والزخارف، وغيرها من التفاصيل المعمارية (١٢٤). وامتاز الفن الرومانسكى فى غاليا بظهور الأبراج فى الكنائس، وزخرفة المبانى عن طريق الحفر والتلبيس والزجاج المؤلف بالرصاص، وكذلك الأعمدة المحلاة بتيجان على شكل أوراق الاكنث Acanthe وفق النمط الكورنثى الرومانى(١٢٥).

وكانت أكس لاشابل (آخن) ـ وهى عاصمة إمبراطورية شارلمان ـ مركزا لنهضة فنية كبيرة. حتى بلغ الفن الرومانسكى أسمى درجاته فى مبانى تلك المدينة، لا سيما كتدرائية أكس لاشايل الشهيرة. وقد حمل الرخام اللازم لتلك الكتدرائية من روما ورافنا، وقام بالعمل فيها نخبة من مهرة المهندسين والصناع الذين استحضرهم شارلمان من مختلف البلاد. وظل العمل مستمرا فيها ما يقرب من عشرين سنة، حتى افتتاحها البابا ليو الثالث ٨٠٥. ووصف اجنهارد هذه الكتدرائية بأنها «رائعة وفائقة فى الحسن»(١٢٦). كذلك وصفها غيره من المعاصرين فأثنوا على جمالها وعظمة مبانيها وروعة سقفها المزخرف، ومصابيحها الذهبية والفضية، وأبوابها البرونزية، وغير ذلك من المحاسن. وقد شيد كثير من الكنائس عل ذلك النمط، مثل كنيسة سانت مايكل St. Michel فى فولدا. وبقى فى فرنسا نموذج لهذا الطراز من الكنائس الكارولنجية، ممثلا فى كنيسة جرمان ليبريه،التى قام ثيودلف ببنائها على بعد عدة كيلومترات من دير فليرى Fleary على اللوار. وعلى الرغم من أن هذه الكنيسة

---

(123) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 556.

(124) Idem: p. 556.

(125) Ibid.

(126) Eginhard; op. cit., p. 42.

تعرضت لعدة تغييرات وإصلاحات، إلا أن بعض أجزائها بقيت كما هي تعبر عن الاتجاهات الفنية المعاصرة فى تصميمها وبنائها، لا سيما فيما يتعلق بالمؤثرات البيزنطية(١٢٧).

ويلاحظ أن الكنائس فى العصر الكارولنجى لم تكن مكانا للعبادة فحسب، بل كانت أيضاً ملاذا لمن يحتمى بها ، وسوقا للتجارة ، رغم القانون الذى حرم استغلالها فى البيع والشراء. ولم يختلف تصميم الكنيسة الكارولنجية كثيرا عما كان عليه فى العصر الميروفنجي، اللهم سوى فى بعض التحسينات والإضافات. فالكنيسة كانت على شكل صليب بداخلها ثلاثة صحون، فى حين كانت أبراجها اسطوانية أو مربعة. وفى أعلاها توضع الأجراس لإعلان مواقيت العبادة(١٢٨).

أما الأديرة فساعد على عظمة بنائها وحسن هندستها ما تمتعت به المؤسسات الديرية من ثروات طائلة، حتى أن بعض الأديرة مثل فولدا وراتجار Ratgar ضيقت على رهبانها، وجعلتهم يحيون حياة أقرب إلى الضيق والعسر، بهدف توفير المال للمبانى الفخمة. وأهم ظاهرة تلاحظ على تصميم أديرة العصر الكارولنجى هى ظاهرة الاستجابة لحاجيات أهل الدير والعمل على توفير أسباب الراحة لهم فى حياتهم الخاصة والعامة. ومن أعظم أديرة غاليا فى ذلك العصر دير سانت واندريل Wan-drille ، وتمتاز كنيسته ببرجها العظيم الذى ينتهى على شكل هرمى مربع القاعدة، يبلغ ارتفاعه خمسا وثلاثين قدما، ومكسو بالنحاس المزخرف. كذلك ازدانت قاعة الطعام وقاعة النوم فى ذلك الدير بالنوافذ الزجاجية الكبيرة، التى يبلغ طول الواحدة منها مائتين وثمانية أقدام، وعرضها سبعا وعشرين قدما، أما دير سانت ركويير St. Riquier ، فقد تم بناؤه بين سنتى٧٩٣-٧٩٨ تحت إشراف انجلبرت، ولما لاحظ شارلمان تعثر المشروع بسبب حاجته إلى الأموال ، أمده بالمال اللازم؛ وكذلك بالمهندسين والفنيين، وأرسل يطلب له الرخام والأعمدة من روما، وألحقت بهذا الدير ثلاث كنائس، تقع كبراها جهة الشمال، وتعلوها أبراج أخرى صغيرة، كما هو الحال فى كنيسة اكس لاشابل، أما الكنيستان الأخرتان فتقع إحداهما جهة الجنوب والأخرى جهة الشرق. بحيث يتخذ السور الخارجى الذى يضم الكنائس الثلاث والدير شكل

(127) Lavisse: op. cit., p. 351.

(128) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. p. 560 - 562.

مثلث، تيمنا بالثالوث المقدس. وروعى فى ذلك السور أن يكون من المناعة والقوة بحيث يستطيع رهبان الدير مباشرة حياتهم الديرية وهم فى أمن تام وطمأنينة كافية(١٢٩).

هذا عن هندسة المبانى الدينية، أما فن العمارة العلمانية فى العصر الكارولنجى، فالأمثلة الوحيدة التى لدينا عنه تتعلق بالقصور فقط. ذلك أنه من المعروف عن أباطرة الرومان القدماء شغفهم بامتلاك القصور الفاخرة، ومن ثم أصبح لزاما على من يريد أن يتشبه بهم أن يحاكيهم فى مظاهر عظمتهم. لذلك أكثر شارلمان من بناء القصور الرائعة، وتفنن فى زخرفتها وزينتها، حتى جاءت آية فى الإبداع الفنى. ومعظم هذه القصور الشارلمانية شيدت على ضفاف الراين فى نميج Nimégue وانجلهايم Ingelheim واكس لاشابل. ولعل أبدعها جميعا القصر الأخير الذى شيد حوالى سنة ٧٩٨ على طراز قصر رافنا بإيطاليا . وقد أمتاز هذا القصر باتساع مساحته، فأقيم فى الوسط جناح الإمبراطور وأسرته وقاعة الاستقبال والحمامات، ويتصل بهذا الجناح جناح آخر ـ يصل بين القصر والكنيسة ـ وبه مدرسة القصر والمكتبة والأرشيف. وجدير بالذكر أن قصور ذلك العصر يبدو فيها الأثر البيزنطى واضحا، لا سيما فى زخرفتها بالأعمدة ذات الأكتاف المزركشة والأفاريز(١٣٠).

أما فن الزخرفة فقد بلغ فى العصر الكارولنجى درجة فائقة فى الروعة والجمال، سواء زخرفة الكنائس والأديرة أما القصور والمبانى الرسمية. وكانت الزخارف المجسمة البارزة على الحيطان تصنع عادة من الجبس (الفرسكو)، كما أخذ استعمال الفسيفساء عن البيزنطيين، واستخدمت فى الزخرفة وفى تغطية العيوب التى قد تظهر فى الأشكال الزخرفية، وإذا كان شارلمان قد حارب عبادة الصور والأيقونات ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلا أنه أوصى فى تعليماته إلى رجال الكنيسة بزخرفة الأسقف والحيطان، كما سمح بزخرفة الكتب، لا سيما الكتاب المقدس. وحسبنا ما نجده من نقوش ورسومات رائعة، زينت بها جدران الأديرة والكنائس والقصور فى ذلك العصر، وبخاصة قاعة الطعام فى دير سانت واندريل St. Wandrille . وكانت معظم الرسومات التى زينت بها كنائس ذلك العصر مستمدة من موضوعات دينية تمثل حياة

(129) Lavisse: op. cit., p. 352.

(130) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 96.

المسيح وخلق الدنيا، فضلا عن صور القديسين والشهداء. وقد جرت العادة أن يزين صدر الكنيسة بالفسيفساء، فى حين يزين صحنها بمواد عادية. أما قاعة الصلاة والترتيل Choir فكانت تحلى بالرخام النادر الملون، وقد كسيت قبة كنيسة أكس لاشابل بالفسيفساء من الداخل،وجعلت على هيئة مناظر تمثل السيد المسيح وهو يصلى، وأمام قدميه اثنى عشر شيخا، ويحرسه اثنان من الملائكة، أما كنيسة جرمنى ليبريه Germignyles Pres ففيها منظر من الفسيفساء يمثل تابوت العهد يحمله أربعة من الملائكة وقد نشروا أجنحتهم.

وإذا كانت هذه هى الطريقة التى استخدمت فى زخرفة المبانى الدينية، فإن القصور الإمبراطورية زينت بمناظر تاريخية مثل الحروب ضد المسلمين والسكسون، وأعمال أباطرة الرومان فى العصور القديمة. وكان يخشى ألا يستطيع كثيرون فهم معانى تلك الصور. لذلك قام الأدباء والشعراء بمساعدة الفنانين فى مهامهم، وكتبوا أسماء الشخصيات المختلفة تحت صورها.

أثر النهضة الكارولنجية:

وبعد، فإننا نستطيع الآن أن نحكم على هذه النهضة الكبيرة التى تبناها شارلمان وتعهدها برعايته وتشجيعه، بعد أن درسنا مظاهرها المختلفة .ويميل بعض الباحثين إلى عدم المبالغة فى أهمية النهضة الكارولنجية وأثرها، نظرا لأنها أعتمدت على عنصر الإحياء والمحاكاة أكثر من اعتمادها على عنصر التجديد والابتكار[١٣١]. ويضيف آخرون أن أفق الحياة العلمية فى النهضة الكارولنجية ارتبط بالكنيسة ورجالها وتقاليدها، مما جعل هدف رجال العلم وطلابه لا يتعدى تنظيم تراث الكنيسة وتفسير علومها. أما من اقترب من العلوم العقلية فانتهى أمره غالبا إلى الاضطهاد والتعذيب، مثل أسقف فيلكس Felix الذى توسع فى تفكيره حتى مس الجانب العقلى من العقيدة الدينية. ومثل دونجال Dungal ، العالم الأيرلندى الذى حل ببلاط شارلمان بعد ألكوين والذى أثار غضب معاصريه بعلمه الواسع ومنهجه التعقلى.

ولكن هذه الانتقادات وأشباهها لايمكن أن تصرفنا عن تقدير مزايا النهضة الكارولنجية وآثارها. ويمكن الوقوف على الأثر الذى تركته هذه النهضة بمقارنة وثيقة

(131) Lavisse: op. cit., p. 365.

من العصر السابق مثل فريديجير Fredegaire [١٣٢] بمستوى كتابة العصر السابق مثل فريديجير شارلمان ، أو بمقارنة أسلوب ماركولف Marculfe [١٣٣] بأسلوب ألكوين في كتاباته اللاتينية، أو بمقارنة النشاط العلمي في القرن التاسع - سواء في وفرة الإنتاج والكتابات أو في كثرة المساجلات والمناقشات العلمية - بالركود الذي ساد العصر السابق للنهضة الكارولنجية أو اللاحق بها[١٣٤] . لهذه الأسباب لا نستطيع أن نقلل من أثر النهضة الكارولنجية، وكل ما هناك هو أن هذه النهضة لم تنبعث عن شعور شعبي عام، ولم تكن هناك وحدة فكرية تربط بين الجهود التي بذلها أعلامها، وإنما كانت كلها جهودا فردية مشتتة، كل يشتغل في ميدانه ويعتمد على مقدرته. حقيقة أن الجهود التي بذلها رائدوا النهضة الكارولنجية كانت جهودا جبارة ضخمة، ولكن نتائج تلك النهضة وآثارها لم تتناسب مع ضخامة هذه الجهود وعظمتها[١٣٥] .

أوربا بعد شارلمان :

وسرعان ما اعترى الفتور النهضة الكارولنجية منذ سنة ٨٠٠. ولم يلبث ذلك الفتور أن تحول إلى تدهور تدريجي بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤، بحيث لم يكد ينتصف القرن التاسع إلا وكانت أوربا قد دخلت دورا جديدا مظلما امتد قرنا ونصف قرن، أي حتى نهاية القرن العاشر تقريبا. وفي هذا الدور تعرض غرب أوربا لمحنة أخرى قاسية. ولايمكن تفسير هذه المحنة في ضوء الانحلال السريع الذي أصاب إمبراطورية شارلمان بعد وفاته فحسب، وإنما ربما كان من الأصوب تفسيرها في ضوء التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي نحو الحياة الاقطاعية من جهة؛ وفي تجدد الهجمات العدائية على غرب أوربا من جهة أخرى. وقد تمثلت هذه الهجمات في إغارات الفيكنج الذين دمروا المزارع والضياع وأحرقوا الكنائس والأديرة، ونهبوا القرى والمدن، فتعطلت الحياة العامة وتوقف النشاط الاقتصادي، وأشتد نفوذ أمراء الاقطاع ليدافع كل منهم عن أقطاعه ضد هجمات المغيرين.

---

(١٣٢) نسبة إلى فريد يجاريوس Fredegarius Scholasticus وهو مؤرخ فرنجي في القرن السابع، وأحد أعلام ثلاثه جمعوا تاريخ الفرنجة حتى سنة ٦٤٢ (Historia Francorum).

(١٣٣) راهب فرنجي عاش في القرن السابع ودون مجموعة القوانين السائدة في ذلك العصر.

(134) Davis: op. cit., p. p. 36 - 37.

(135) Guizot: op. cit., Tome 2, p. 178.

على أنه من المغالاة أن نقول أن الحياة الفكرية فى غرب أوربا تعطلت تماما فيما بين منتصف القرن التاسع ونهاية القرن العاشر. فبعض الأديرة ـ أكثر منها فى أى وقت مضى ـ استمرت المراكز الأساسية للنشاط الثقافى فى أوربا. وكان من المحتمل أن تستمر جميع مدارس الأديرة والكتدرائيات التى رعاها شارلمان فى أداء رسالتها العلمية لو توافر لها الأمن والنظام. ولكن لم يتوافر للأسف شيء من ذلك فى القرن التاسع، مما جعل الحياة مهددة فى معظم الأديرة. وزاد البلاء وقعا أن الأديرة والكتدرائيات بالذات اشتهرت بأنها مخبأ الثروات الضخمة والكنوز الخفية، ومن ثم غدت مقصد المغيرين. ففى سنة ٨٤٣ قتل الفيكنج أسقف نانت Nantes أمام مذبح كتدرائية. وفى سنة ٨٥٤ أحرقوا كنيسة سانت مارتن فى تور، وفى سنة ٨٦٦ لم تسلم باريس من أيديهم إلا بمشقة، وبعد دفع دية كبيرة من المال. وهكذا دمرت أقاليم واسعة بأكملها مثل فلاندرز، ووديان الميز والسين واللوار، والأقليم الذى عرف فيما بعد باسم نورمنديا[١٣٦]. وإذا كان هذا هو ما فعله الفيكنج بغرب أوربا، فإن الهنغاريين لم يكونوا أقل منهم ضررا بوسط أوربا ـ وبخاصة بأديرة بافاريا [١٣٧] ـ كما تعرض وسط إيطاليا لبعض إغارات إسلامية، أهمها إغارة المسلمين على روما سنة ٨٤٦.

ولكن على الرغم من كل ذلك، استمر عدد كبير من الأديرة فى أداء رسالتها الثقافية، مثل دير فولدا Fulda ، وفليرى Fleury وسانت جال St. Gall ، ولورخ Lorsch ، وبوبيو Bobbio ومونت كاسينو [١٣٨]. وقد أنجبت بعض هذه الأديرة كتابا معروفين مثل رابانوس مورس Rabanus Maurus (٧٨٢ – ٨٥٦) وهروسويثا Hroswitha (٩٣٥ – ١٠٠٢ تقريبا) [١٣٩]. ونلاحظ من أسماء الأديرة السابقة التى استمرت تؤدى رسالتها العلمية فى القرن العاشر، أن معظمها يقع فى ألمانيا. والواقع أننا إذا بحثنا عن مكان ظل فيه التراث الكارولنجى حيا فى القرن العاشر، فلن نجد سوى ألمانيا حيث انتعشت الحضارة فى عصر ملكها المعروف باسم أوتو الأول. وقد

(١٣٦) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول.

(١٣٧) المرجع السابق.

(138) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 521.

(١٣٩) مؤرخة وكاتبة ألمانية، قضت حياتها منذ سنة ٩٥٩ فى أحد أديرة ألمانيا وتركت كثيرا من الكتابات والأشعار.

دفع ذلك المؤرخين الألمان إلى إطلاق اسم «النهضة الأوتية Ottonian Renaissance على الحركة الفكرية التى شهدتها ألمانيا فى القرن العاشر. وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى تدهورت أحوال فرنسا وإيطاليا نتيجة للعوامل السابق بيانها، أخذت البلاد الألمانية ـ لاسيما سكسونيا ـ تسير فى طريق النهضة والتقدم. وساعد على ذلك التقدم أن الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ – ٩٧٣) اقتفى أثر شارلمان، لا فى إحياء الإمبراطورية فحسب، بل أيضًا فى استمالة العلماء إلى بلاده لتغذية الحركة الثقافية التى تعهدها الإمبراطور نفسه وأخوه برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا. ومن أمثلة العلماء البارزين فى النهضة الأوتية ستفن Stephen النحوى وأصله من بافيا، وراثريوس Ratherius اللاهوتى الذى كان أسقف لييج وفيرونا، والشاعر ليو الفركلى Leo of Vercellé وليتوبراند الكريموناوى Liutoprand of Cremona وغيرهم.

على أن هذه النهضة الأوتية أو الألمانية سرعان ما اعتراها الوهن والضعف فى القرن الحادى عشر. حقيقة أن بعض الأباطرة الألمان الذين خلفوا أوتو العظيم ـ مثل هنرى الثانى وهنرى الثالث وهنرى الرابع ـ كانوا على قسط كاف من التعليم، واشتهر بعضهم بميوله الثقافية، كما أن الأدب اللاتينى فى أوائل القرن الحادى عشر يستطيع أن يفخر بما كتبه برخارد أسقف وورمز (ت ١٠٢٥) وأوطلوه Otloh الراهب بدير جنزبورج، ونوتكار الراهب بدير سانت جال (ت ١٠١٢) وغيرهم، ولكن هذا النشاط الفكرى لم يجد سندا قويا فى بلاط الملوك والأمراء، فى الوقت الذى تعرضت الحياة الديرية لدور من أدوار الأفول والتدهور التدريجى. وهكذا نلاحظ على النهضة الأوتية أنها لم تنبعث من داخل ألمانيا ذاتها، وانما يرجع الفضل الأول فى ازدهارها إلى الاتصال بين ألمانيا وإيطاليا، بعد أن ارتبطت البلدان برباط قوى فى ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أما أثر فرنسا فى قيام النهضة الأوتية، فيرجع إلى تردد رجال الدين الألمان على المدارس الديرية فى شمال فرنسا، ثم إلى جهود الديريين ـ الكلونيين والسسترشيان ـ الذين انتشروا فى ألمانيا للقيام برسالتهم فى أصلاح الحياة الديرية.

ومهما يكن الأمر ، فإنه فى الوقت الذى أخذت النهضة الأوتية تتعرض للذبول السريع، أخذت تظهر فى الأفق بوادر تشير إلى أن أوربا على أبواب تغيير شامل، أو نهضة جديدة عظيمة، فاقت كل ما سبقها من نهضات فى العصور الوسطى. وفى

هذه المرة لم يكن مركز النهضة الجديدة فى ألمانيا بقدر ما كان فى إيطاليا وفرنسا. وتعرف هذه النهضة الجديدة - التى خصصنا لها الباب الآتى - باسم النهضة الوسيطة أو نهضة القرن الثانى عشر.

وكل ما نريد أن نؤكده الآن هو أن ركاب الحضارة الأوربية لم يتوقف تماما فى الفترة الواقعة بين نهضتى القرن التاسع والقرن الثانى عشر(١٤٠). وأن الحضارة الغربية فى القرن الحادى عشر تمتد جذورها حتى ترتبط بذيول الحضارة الكارولنجية(١٤١)، حقيقة أننا إذا قارنا بين القرنين العاشر والثانى عشر، لوجدنا البون شاسعا بين مستوى أوربا الحضارى فى الحالتين. ولكننا نعود فنؤكد أنه لولا اتصال سلسلة الحضارة والمعرفة فى الفترة المظلمة التى امتدت من سنة ٨٥٠ حتى سنة ١٠٠٠، لتعذر قيام النهضة الأوربية التى شهدها القرن الثانى عشر، تلك النهضة التى لا نستطيع أن ننكر قيامها على أسس التراث الذى خلفته العصور السابقة سواء فى الدراسات الكلاسيكية الأدبية أو اللاهوتية أو الفلسفية(١٤٢).

وإذا كان للقرن الثانى عشر ميزة أو فضل، فإن ذلك يرجع إلى التوسع فى دراسة تلك المخلفات الكلاسيكية ونشرها والسير بها قدما نحو الأمام، مع شىء من التجديد والابتكار فى بعض الميادين، كما سنرى فى الصفحات الآتية.

---

(140) Foligno: Latin Thought, p. 92.

(141) Haskins: The Renaissance, p. 24.

(142) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 270.

الباب الثالث عشر

النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر

نقصد بنهضة القرن الثانى عشر التغيرات الحضارية والتطورات الفكرية التى تعرضت لها أوربا فيما بين أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. ونحن لا نستطيع فى الواقع اختيار سنة معينة لتحديد بداية أو نهاية لحركة فكرية وحضارية عظيمة مثل النهضة الوسيطة. فإذا كانت سنة ١٠٩٦ ذات دلالة بالغة فى التاريخ لأنها السنة التى توجهت فيها أولى الحملات الصليبية إلى الشرق، إلا أننا نخطئ إذا أتخذناها بداية لنهضة القرن الثانى عشر، لأن بشائر هذه النهضة ظهرت قبل ذلك بخمسين سنة تقريبا. وإذا اخترنا سنة ١٢٠٤ ـ وهى السنة التى استولى فيها رجال الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ـ نهاية لتلك النهضة فإننا نكون بذلك قد بترناها وأهملنا جزءا أساسيا من ذيولها التى ازدهرت فى القرن الثالث عشر . ويبدو أن مهمة تحديد نهاية لنهضة القرن الثانى عشر اخطر وأكثر صعوبة من تحديد بداية لها. لأن القرن الرابع عشر نما من القرن الثالث عشر، وهذا الأخير استمد نشاطه الحضارى من القرن الثانى عشر، وعلى ذلك فإننا لا نستطيع بسهولة أن نحدد فاصلا بين نهضتى القرن الثانى عشر، والقرن الخامس عشر. وبالتالى لايمكن أن نحدد نهاية لنهضة القرن الثانى عشر، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن دارس التاريخ يلحظ تيارات حضارية جديدة فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر فى النواحى الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية، وأن هذه التيارات أخذت تتطور حتى ظهرت فى شكل نهضة عامة كبرى فى القرن الثانى عشر. وهذه النهضة لم يخب لها نور بعد ذلك.

فالقرن الثانى عشر بصفة خاصة يحتل مكانة بارزة فى تاريخ التطور الحضارى لأوربا. لأنه القرن الذى بدأ بازدهار المدارس الكتدرائية واختتم بظهور أولى الجامعات الأوربية، التى ظهرت فعلا فى سالرنو وبولونيا وباريس ومونتبليه واكسفورد. وفى ميدان المعرفة بدأ ذلك القرن بالفنون السبعة الحرة – التى لم تعرف أوربا غيرها حتى ذلك الوقت ـ وانتهى بازدهار القانون الرومانى والقانون الكنسى، واكتشاف جانب جديد من فلسفة أرسطو وعلوم اقليدس وبطليموس السكندرى، فضلا عن الدراسات

والمعارف الإسلامية المتنوعة، مما أدى إلى مولد آفاق فكرية جديدة فى غرب أوربا. هذا زيادة عما تم فى القرن الثانى عشر من إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكى نثرا وشعرا. والتقدم بالكتابات التاريخية على اختلاف صورها، والعناية بالمكتبات وتزويدها بالمراجع المتنوعة . فأية مكتبة فى غرب أوربا - سواء من مكتبات الأديرة أو غيرها - كانت لا تضم سنة ١١٠٠ أكثر من الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة وكتب الصلوات وبعض شروح أعلام العصر الكارولنجى، فضلا عن القليل من المؤلفات العلمية التى كتبها بؤثيوس وغيره، أما سنة ١٢٠٠ فإن المكتبات المعاصرة أضحت تضم مجموعتى القانون الكنسى والمدنى، فضلا عن كتابات أنسلم وبطرس لمبارد فى اللاهوت، وكثير من الكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفة العلمية.

ويحسن قبل أن نعالج نواحى النشاط الحضارى المتباينة التى أمتدت إليها نهضة القرن الثانى عشر، أن نبدأ بعرض تاريخى موجز لأحوال غرب أوربا فى ذلك العصر، لنستطيع أن نخرج من ذلك العرض بفكرة عامة عن مقومات هذه النهضة وبواعثها.

مقدمة تاريخية:

ظل النظام الاقطاعى غالبا على فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر، وإذا كان الكارولنجيون قد تمكنوا من الاحتفاظ بعرشهم وسط الفوضى التى عمت غرب أوربا عندئذ، والثبات فى وجه أطماع كبار الأمراء الاقطاعيين، فإن ذلك يرجع إلى اعتماد الكارولنجيين على مجد أجدادهم وتراث أسلافهم. وحسب الكارولنجين فى القرن التاسع أن ينادوا بأنهم سلالة شارلمان ليحصلوا على شيء من التقدير والاحترام. على أن شرف انتساب الكارولنجيين الأواخر إلى شارلمان لم يكف وحده لتمكينهم من الصمود فى وجه خصومهم من كبار الأمراء، لاسيما حكام باريس من أسرة كابيه الذين ازدادت مكانتهم بعد أن تمكنوا من صد النورمان عن باريس. مما أدى إلى تتويج أودو كونت باريس سنة ٨٨٨ ملكا بعد خلع شارل السمين آخر الملوك الكارولنجيين فى فرنسا، وبذلك قامت أسرة كابيه فى الحكم[1] وربما بدا فى أول الأمر أن أنتصار آل كابيه جاء انتصارا للأمراء الإقطاعيين على الملكية الفرنسية،

---

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول.

ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن نفوذ الأمراء الاقطاعيين بلغ عندئذ درجة من القوة جعلتهم خطرا على آل كابيه أنفسهم، مما جعل ملوك فرنسا الجدد يعملون جاهدين لتقليم أظافر كبار الأمراء. وهكذا استمرت فرنسا فى القرن الثانى عشر مقسمة إلى إقطاعات واسعة، كل منها فى قبضة أسرة معروفة أو بيت شهير، ولكل اقطاع منها قوانينه وتقاليده. بل إن أكثر من خمسين من كبار الأمراء سكوا النقود الخاصة بهم، فى حين بلغت اللغات واللهجات الرئيسية المستعملة فى فرنسا عشر. أما رجال الدين فقد جرفهم أيضًا التيار الاقطاعى فاتخذوا كثيرا من المظاهر والنظم والأساليب العلمانية، وتخلوا عن بعض المبادئ الأساسية المتعلقة بوظائفهم الدينية.

وبالإضافة إلى التهديد الداخلى الذى تعرضت له الملكية الفرنسية من جانب الأمراء الاقطاعيين، فإن هناك خطرا خارجيا أحاط بها وهددها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. وقد أتى هذا الخطر الجديد من جانب الملكية الإنجليزية التى جمعت بين دوقية نورمنديا وعرش إنجلترا، عندما نجح وليم الفاتح دوق نورمنديا فى غزو إنجلترا سنة ١٠٦٦، وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين إنجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى. ذلك أن ملوك إنجلترا النورمان لم يدخروا وسعا فى تقوية نفوذهم على جانبى المانش عن طريق الربط بين ملكهم فى إنجلترا وأملاكهم فى فرنسا، مما أقلق مضاجع آل كابيه. ونخص بالذكر هنرى الأول ملك إنجلترا (١١٠٠ – ١١٣٥) الذى عنى بتنظيم ممتلكات التاج الإنجليزى فى القارة الأوربية، وكون حلفا قويا ضد لويس السادس ملك فرنسا. ولم يلبث أن ازداد نفوذ ملوك إنجلترا واتسع سلطانهم فى القارة عن طريق الوراثة حينا وعن طريق التوسع والاغتصاب أحيانا، وبخاصة على عهد هنرى الثانى الذى اعتلى عرش إنجلترا سنة ١١٥٤، ولعل ذلك الخطر هو الذى دفع فيليب أوغسطس ملك فرنسا إلى عقد تحالف سنة ١١٧٧ مع فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، حتى يتمكن من التغلب على أعدائه ومنهم ملك إنجلترا، وهكذا انتهى القرن الثانى عشر وملوك فرنسا فى شغل شاغل بالعمل على إضعاف الملكية الإنجليزية وحرمانها من أملاكها فى القارة(٢).

أما ألمانيا فقد ظل البيت الكارولنجى يحكم جزءا كبيرا منها منذ تقسيم فردون

---

(٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول.

سنة ٨٥٣ حتى سنة ٩١١ . وعندما توفى لويس الصغير فى تلك السنة الأخيرة كان لكل قسم من أقسام ألمانيا. وهى فرانكونيا وسوابيا وسكسونيا وبافاريا، دوق شبه مستقل له حق المشاركة فى انتخاب ملك ألمانيا، ومن أظهر ملوك ألمانيا فى القرن العاشر أوتو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) الذى عمل على استرداد نفوذ الملكية الألمانية وسلطانها بالضغط على الدوقات الاقطاعيين والحد من نفوذهم، كما هزم الهنغاريين الذين أغاروا على ألمانيا، وأمن حدوده الجنوبية والغربية. ولم تلبث أن أتيحت له الفرصة للتدخل فى شئون إيطاليا عندما استنجد به البابا حنا الثانى عشر ضد منافسيه، فأسرع أوتو لنجدة البابا الذى رد له الجميل بتتويجه إمبراطورا فى روما سنة ٩٦٢، وبذلك قامت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت رئاسة أباطرة ألمانيا[٣].

على أن قيام هذه الإمبراطورية سرعان ما تسبب فى مشاكل كثيرة للبابوات والأباطرة جميعا. ذلك أن النزاع سرعان مادب بين الطرفين حول مبدأ السيادة والسمو. ولم يلبث هذا النزاع أن تفاقم واشتد وتحول إلى حروب سافرة استمرت إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر. ولايهمنا فى هذا المقام من أمر ذلك النزاع الطويل سوى أنه عاد بأوخم العواقب على الإمبراطورية ونفوذ الأباطرة فى ألمانيا. فعناد البابوات وتمسكهم بحقوقهم جعل الأباطرة يستنفدون جهودهم وإمكانات دولتهم فى كفاح ضد البابوية. هذا إلى أن اتحاد إيطاليا مع ألمانيا فى ظل الإمبراطورية المقدسة اعتمد على القوة وحدها، فكان لزاما على أباطرة ألمانيا أن يبذلوا جهودا جبارة للاحتفاظ بسلطانهم فى إيطاليا، فى الوقت الذى هم أحوج ما يكونون إلى بذل الجهود لدعم نفوذهم وسلطانهم فى ألمانيا[٤].

أما إيطاليا فكانت تعانى الشيء الكثير من الفوضى فى القرن العاشر. فالبيزنطيون احتفظوا بنفوذهم فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة، فى حين تفتت دوقية بنفنتو Benevento إلى أقسام صغيرة، أما روما فكان يحكمها شخص يدعى البرك Alberic على رأس أرستقراطية إقطاعية. وعندما توفى ذلك الرجل سنة ٩٥٤ ترك الحكم لابنه اكتافيان الذى جمع بين سلطته السياسية والوظيفية البابوية، متخذا اسم البابا حنا الثانى

(٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول.
(٤) المرجع السابق.

عشر. وقد رأينا كيف أن سياسة هذا البابا أدت إلى مد نفوذ حكام ألمانيا على إيطاليا، كما تسببت فى قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أما شمال إيطاليا فقد بدأت تظهر فيه منذ القرن الحادى عشر قوة جديدة هى قوة المدن اللمباردية التى أخذت تعمل على التحرر من وطأة الأمراء الاقطاعيين حتى استطاعت بفضل نشاطها الاقتصادى أن تحصل على ثروة طائلة مكنتها من الاستقلال بإدارة شئونها . ولم يلبث التنافس التجارى بين المدن اللمباردية المستقلة - وهى التى عرفت باسم القومونات Com-munes - أن أدى إلى تكتلها فى حلفين متضادين، أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا، على أن المهم فى هذه الحركة القومونية هو أنها أخذت تتسع حتى امتدت إلى روما نفسها، فقام أهلها بثورة سنة ١١٤٢ ضد البابا أنوسنت الثانى يطلبون تحويل روما هى الأخرى إلى قومون - أى وحدة مستقلة يقوم أهلها بحكمها - حتى انتهى الأمر بعد ذلك بعامين بطرد البابا من روما[٥] . وعبثا حاول البابوات الاستنجاد بحكام ألمانيا، حتى إذا ما كانت سنة ١١٥٤ هب فردريك بربوسا ملك ألمانيا لمساعدة البابا أدريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩)، واستطاع فردريك إخضاع القومونات اللمباردية، وأعاد البابا إلى روما حيث تم تتويج فردريك إمبراطورا سنة ١١٥٥[٦]، ولم ترض القومونات بذلك الوضع الجديد، ولم تغفر لإمبراطور ألمانيا فعلته، فانتهزت فرصة تجدد النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، وانضمت إلى الجانب الأول وكونت فيما بينها حلفا عرف باسم الحلف اللمباردى (سنة ١١٦٧)[٧] . وهكذا اضطر الإمبراطور بعد صراع مرير مع المدن اللمباردية إلى عقد صلح نهائى معها سنة ١١٨٣ ، ترك لها بمقتضاه الحرية التامة فى تصريف جميع شئونها على أن تعترف للإمبراطور بسيادة أسمية، وبذلك اطمأنت المدن الإيطالية على مصيرها وسيادتها وأخذت توجه جهودها نحو الإنشاء الحضارى والنشاط الاقتصادى[٨].

أما عن صقلية فقد ظلت فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر ميدانا للنزاع والتنافس بين عدة قرى أوربية وأفريقية وآسيوية. وعلى الرغم من أن إغارات العرب

---

(5) Cam. Med. Hist., vol. P. 371.

(6) Idem: p. 421.

(7) Idem: p. 438.

(٨) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول.

على صقلية بدأت فى القرن السابع. إلا أن الغزو الإسلامى للجزيرة لم يتخذ صفة شاملة إلا فى القرن التاسع عندما اندفع المسلمون نحو صقلية على هيئة موجات كبيرة وافدة من شمال أفريقية ومن الأندلس. وهناك فى جزيرة صقلية استقر المسلمون نحو قرنين ونصف (٨٢٧ - ١٠٩٠)، استمرت طوالها الإمبراطورية البيزنطية تعمل لاسترداد الجزيرة، مما جعل مدنها كالكرة تتلاقفها أيدى البيزنطيين والعرب حتى بدأ غزو النورمان الجزيرة سنة ١٠٧١. ولم ينته القرن الحادى عشر إلا وكان النورمان قد استولوا على صقلية كلها، وبذلك وجدت الحضارة الإسلامية فى صقلية راعيا جديدا لها فى أشخاص الملوك النورمان الذين شجعوا الدراسات العربية من علوم وآداب.

ولم يكتف النورمان بالسيطرة على صقلية، وإنما أخذوا يتوسعون فى جنوب إيطاليا، مما أفزع البابوية، فهبت تدافع عن نفسها أمام ذلك الخطرالجديد. وتطور الأمر إلى حرب سافرة بين البابا هنريوس الثانى (١١٢٤ - ١١٣٠) وروجر الثانى ملك صقلية. وأخيرا اضطر البابا إلى الإذعان للأمر الواقع والتسليم بسيطرة ملوك صقلية النورمان على جنوب إيطاليا. ومن ثم اكتسبت مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا اسم «مملكة الصقليتين».

أما أسبانيا التى فتحها المسلمون فى أوائل القرن الثامن الميلادى (سنة ٧١١) وأقاموا فيها دولة إسلامية كبيرة، فقد غدت وطنا جديدا للثقافة العربية ، وازدهرت فيها مختلف العلوم والدراسات التى عرفها المسلمون سواء فى الأدب والفلسفة أو فى الكيمياء والطب والفلك والرياضيات والموسيقى وغيرها. لذلك أخذ طلاب العلم يفدون إلى الأندلس من مختلف البلاد الأوربية، وبخاصة إيطاليا وفرنسا - لينهلوا من ذلك المنهل العلمى الصافى، مما ساعد على ازدهار النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر. ولم يقلل من ذلك النشاط العلمى جهود مسيحى أسبانيا فى استرداد أراضيهم من المسلمين، وهىَ تلك الجهود التى بدأت بقيام بعض الممالك المسيحية فى شمال أيبريا - مثل أرغونة وقشتالة ونافارى (نواره) وليون - والتى انتهت فى أواخر القرن الخامس عشر بطرد البقايا الإسلامية نهائيا من شبه الجزيرة[٩].

(٩) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول.

وأخيرا نختتم هذا العرض التاريخى بالإشارة إلى الحروب الصليبية، تلك الحروب التى تقع مرحلتها الحاسمة بين سنتى ١٠٩٦ – ١٢٩١ - أى بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر-، وبالتالى فقد شهد القرن الثانى عشر مرحلة حاسمة نشطة من مراحلها. وليس هذا مجال الكلام عن أسباب الحروب الصليبية وأدوارها. وإنما نكتفى فى دراستنا للحضارة الأوربية بالإشارة السريعة إلى آثار تلك الحروب فى الحياة الأوربية بوجه عام، فمن الناحية السياسية نتج عنها ازدياد نفوذ البابوية(١٠)، كما نتج عنها إضعاف التنظيم الاقطاعى - وبصفة خاصة فى فرنسا وإيطاليا - الأمر الذى ترتب عليه تحرر المدن وظهورها عاملا فعالا فى التطور الحضارى لأوربا من جهة، كما ترتب عليه من جهة أخرى ازدياد نفوذ الملكيات الأوربية لا سيما الملكية الفرنسية، ذلك أن الأمراء الاقطاعيين باعوا كثيرا من أراضيهم لينفقوا على ما أعدوه من حملات صليبية. ولما اشتدت حاجتهم إلى مزيد من الأموال، باعوا المدن ما كانت ترغب فيه من حرية واستقلال وامتيازات، فصارت تلك المدن بمثابة دويلات مستقلة داخل الدولة الاقطاعية(١١). هذا بالإضافة إلى أن الحروب الصليبية أظهرت الفوارق وروح التنافس بين مختلف الشعوب الأوربية كالفرنسيين والإنجليز والألمان، ومن الناحية الاقتصادية ترتب على الحروب الصليبية تشجيع التجارة بين الشرق والغرب، وقد استفادت من ذلك المدن الإيطالية بوجه خاص، وهى المدن التى احتكرت التجارة مع الشرق وصار لكل منها أحياء وفنادق خاصة فى مدن الشرق الهامة، تمارس فيها نشاطها التجارى، وترتب على ذلك تدفق الأموال على الغرب مما ساعد على إنعاش الحضارة ونشاط الأعمال المصرفية(١٢). هذا عدا الآثار الاجتماعية والثقافية التى ترتبت على الحروب الصليبية والتى أدت إلى تغيير آفق الحياة الأوربية(١٣).

---

(10) Cam. Med. Hist., vol. V, p. 322.

(11) Cam. Med. Hist., vol. V, p. 328.

(12) Idem: p. 327.

(١٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية.

أسباب نهضة القرن الثانى عشر وعواملها:

من هذا العرض التاريخى الموجز نستطيع أن نتلمس العوامل الرئيسية التى أدت إلى قيام نهضة أوربية شاملة فى القرن الثانى عشر. فمن هذه العوامل ما لاحظناه منذ أواخر القرن الحادى عشر من تقدم ونشاط تجارى - لا سيما فى شمال إيطاليا - وما صحب ذلك النشاط من نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية. فليس هناك من شك فى أن الانتعاش الاقتصادى والتقدم الاجتماعى الذى أصابته تلك المدن أدى إلى شعورها بالحاجة إلى تنظيم قوانينها لتحديد نظمها الإدارية من ناحية، وتحديد علاقاتها مع غيرها من الوحدات السياسية من ناحية أُخرى، الأمر الذى ساعد فى إحياء الدراسات القانونية التى ظهرت فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر والتى تعتبر من أهم مظاهر النهضة الأوربية فى ذلك القرن (١٤). وكذلك أدى النشاط الاقتصادى لهذه المدن إلى ظهور رؤوس الأموال واتساع نطاق الأعمال المصرفية بشكل لم تعهده أوربا من قبل(١٥). ولكننا مع ذلك لانميل إلى المبالغة فى أثر النشاط الاقتصادى للمدن الإيطالية بالنسبة للنهضة الوسيطة فى القرن الثانى عشر، فإذا كان الكتاب اللاحقون يربطون دائما بين قيام النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر. ونشاط المدن الإيطالية فى الميدان الاقتصادى، إلا أننا لا نستطيع الربط بين الحقيقتين فيما يتعلق بالنهضة الوسيطة، فالمعروف أن هذه النهضة الأخيرة لم تكن إيطالية بحتة. ولم يرتبط مولدها بإيطاليا وحدها. وإذا صح المبدأ السابق على إيطاليا فى القرن الثانى عشر وقلنا أن النهضة فيها ارتبطت بنمو القومونات الإيطالية ونشاطها، فإن هذا الحكم لا يصح على غيرها من البلاد الأوربية فيما وراء جبال الألب - مثل فرنسا - حيث بدت مظاهر النهضة فى القرن الثانى عشر غير مصحوبة بنشاط تجارى أو اقتصادى بعيد عن المألوف. هذا مع ملاحظة أن الطبقة الوسطى التى قامت على أكتافها القومونات وجهت نشاطها نحو الميادين الاقتصادية والسياسية، ولم تسهم بقدر بارز فعال فى النشاط الفكرى والعلمى. ولم يكن ذلك إلا فى القرن الرابع عشر عندما أخذ أبناء تلك الطبقة يوجهون نشاطهم نحو الميدان الثقافى والفكرى (١٦).

---

(14) Cam. Med. Hist., vol. X,p. 234.

(15) Barker: The European Inheritance, vol. 1, p. p. 384 - 388.

(16) Pirenne: Medieval Cities ,p. 239.

وثمة عامل آخر ساعد على قيام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، هو روح الاستقرار التى تمتعت بها بلاد غرب أوربا فى القرن الحادى عشر، بعد أن انتهت أخطار الفيكنج والهنغاريين من جهة وأخذت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية تستقر من جهة أخرى. وقد أدى هذا الاستقرار والسلام إلى نشاط الاتصال الحضارى والتجارى بين الدول الأوربية بعضها وبعض، كما أدى إلى التفرغ للنواحى الثقافية والحضارية(١٧). وهكذا أخذ بعض ملوك أوربا - مثل الملوك النورمان بصقلية وهنرى الثانى بإنجلترا - يتجهون نحو تشجيع النشاط الفكرى فى بلادهم، ويصح أن نشير بالذات إلى أن الغزو النورمانى لصقلية وجنوب إيطاليا أدى إلى ازدهار حركة الترجمة عن اليونانية ، كما ساعد على ازدهار هذه الحركة نمو العلاقات الاقتصادية بين القسطنطينية من جهة والقومونات الإيطالية من جهة أخرى. هذا فى الوقت الذى أعطى الملوك النورمان بصقلية الثقافة العربية حقها كاملا من الرعاية والتشجيع.

أما الكنيسة فقد أسهمت فى قيام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر عن طريق الانفاق على الرحلات التى يقوم بها رجال الدين. وعن طريق العناية بالكتب ونسخها. هذا إلى أن ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها نتيجة للحروب الصليبية وموقفها الصلب من الإمبراطورية، جعلها قبلة المعاصرين - وبخاصة من رجال الدين - فأصبحت الطرق فى غرب أوربا تعج بالحجاج القاصدين روما أو غيرها من الأماكن المقدسة مثل كومبوستيلا Compostela(١٨). ونتج عن ذلك ازدياد الروابط الثقافية والفكرية بين مختلف أنحاء أوربا، وظهور كثير من ملاحم الحجاج وأغانى المآثر (Chansons des Gestes).

وأخيراً يلاحظ أن توسع المسيحيين فى أسبانيا أدى إلى ازدهار النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر. ذلك أن ضغط القوى المسيحية على المسلمين واستيلائهم على طليطلة سنة ١٠٨٥ وسرقسطة ١١١٨ جعلهم يعثرون على مئات المراجع العربية فى

---

(17) Rashall: The Universities of Europe in the Middle Ages; vol. 1, p. p.. 32 - 33.

(١٨) كومبوستيلا أوسنتياجو Santiago مركز لكتدرائية شهيرة فى غاليسيا فى الركن الشمالى الغربى لشبه جزيرة ايبريا واعتاد كثير من حجاج المسيحية زيارة ذلك المكان للتبرك بضريح القديس يعقوب.

مختلف العلوم والفنون. وكلما ازداد توسع المسيحيين فى أسبانيا اكتشفوا كنوزا جديدة من الكتب العربية. فهرع علماء الغرب وطلابه إلى أسبانيا ليترجموا علوم العرب وكتبهم ويرووا ظمأهم من ذلك المنهل الصافى. وإلى هذه العلوم العربية التى ترجمت إلى اللاتينية يرجع الفضل الأكبر فى ازدهار كثير من الدراسات الجديدة فى غرب أوربا منذ القرن الثانى عشر.

مميزات نهضة القرن الثانى عشر:

ساعدت هذه العوامل وغيرها على قيام نهضة أوربية عظيمة فى القرن الثانى عشر، لا تقل أهمية فى بناء صرح الحضارة الأوربية عن نهضة القرن الخامس عشر أو عن الثورة الفرنسية الكبرى[١٩]. ولكن هل كانت هذه النهضة من نوع النهضة الكارولنجية التى تكلمنا عنها فى الباب السابق، أم من نوع النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر والتى أفردنا لها الباب الآتى؟ الواقع أن نهضة القرن الثانى عشر ربما شابهت نهضة القرن الثامن السابقة لها ونهضة القرن الخامس عشر اللاحقة بها فى المدلول العام لاصطلاح «النهضة»، أعنى أن كلا من هذه النهضات الثلاث عبرت عن نشاط فكرى وحضارى عظيم. ولكن إذا دققنا النظر فى التفاصيل، وجدنا اختلافا كبيرا يميز نهضة القرن الثانى عشر عن نهضتى القرن الثامن والقرن الخامس عشر. فالنهضة الكارولنجية - كما رأينا - جاءت نهضة مصطنعة، اصطنعها شارلمان وتعهدها بالرعاية والتشجيع، حتى أصبح مركزها الأساسى بلاط شارلمان وخلفائه المباشرين. وارتباط هذه النهضة ببلاط ملك أو أسرة معينة جعلها قصيرة العمر، سريعة الزوال، لأن مصيرها غدا مرتبطا بمصير البيت الكارولنجى، فلما انقسمت إمبراطورية الفرنجة فى القرن التاسع انطفأت شعلة النهضة الكارولنجية. أما نهضة القرن الثانى عشر، فلم تكن ربيبة بلاط ملك معين أو أسرة بعينها، ولم تنشأ لأن أحد الملوك أراد لها أن تنشأ، وإنما جاءت حركة طبيعية تضافرت عوامل عدة لازدهارها وانتعاشها، لذلك جاءت هذه النهضة أطول عمرا وأكثر استمرارا وأوسع أفقا وأشد أثرا من النهضة الكارولنجية.

وثمة فارق آخر هام بين نهضتى القرن الثامن والثانى عشر، هو أن الغرض الأساسى من الأولى كان رفع رجال الدين من الفرنجة إلى مستوى ثقافى لائق. وإذا

(19) Eyre: op. cit., vol. 3, p. p. 269 - 270.

كانت النهضة الكارولنجية قد تخطت هذه الغاية فيما بعد نحو تشجيع العلم بين العلمانيين، فإن ذلك جاء عن غير قصد. ولعل اتجاه النهضة الكارولنجية نحو تحقيق هذا الغرض الأساسي، هو الذى جعلها حركة إحياء Revival أكثر منها حركة ابتكار وتجديد. وبعبارة أخرى فإن النهضة الكارولنجية حافظت على التراث القديم أكثر مما جددت فيه وأضافت إليه. أما نهضة القرن الثانى عشر فلم تكن مصطنعة - كما سبق أن ذكرنا - ولذلك لم يكن لها هدف معين سوى إشباع غريزة الاطلاع والرغبة الملحة فى التعلم وتثقيف الفكر، لذلك لم تقف جهود أبناء القرن الثانى عشر فى غرب أوربا عند حدود إحياء الدراسات القديمة. وإنما تعدتها نحو الإنشاء والابتكار والتجديد فى مختلف ميادين النشاط الفكرى. ففى الأدب ظهرت فى القرن الثانى عشر ألوان جديدة من النثر والشعر، وفى الفن ظهر طراز جديد هو الطراز القوطى، وفى نظم التعليم ظهر نوع جديد من التعليم العالى ممثلا فى الجامعات، وفى الفلسفة ظهرت آفاق جديدة واسعة. فى حين أحرزت العلوم العملية كالهندسة والطب والفلك تقدما كبيرا لم يعهده الغرب من قبل.

فإذا تركنا النهضة الكارولنجية لنقارن بين نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر، فإننا نجد أن الأخيرة ارتبط مولدها ببلد واحد هو إيطاليا. ومن إيطاليا انتشرت وانتقلت تدريجيا إلى بقية بلاد غرب أوربا. أما نهضة القرن الثانى عشر فلم يرتبط مولدها ببلد معين، فإذا كانت إيطاليا قد أسهمت فى هذه النهضة عن طريق رعاية الدراسات القانونية وعن طريق الترجمة عن اليونانية، فإن فرنسا هى الأخرى قامت بدور رئيسى فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية. وحسب فرنسا أن نشأت بها جامعة باريس أم الجامعات الشمالية فى أوربا، كما ازدهر بها الفن القوطى. هذا فى الوقت الذى قامت أسبانيا بدور المعبر الرئيسى فى نقل التراث العربى الإسلامى إلى غرب أوربا. أما إنجلترا وألمانيا فقد أسهمتا أيضاً فى نهضة القرن الثانى عشر، ولو بنصيب محدود.

كذلك نلاحظ أن كلا من نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر استمدت أصولها من منابع شرقية، علاوة على الأصل اللاتينى الغربى. ولكن الفارق بين النهضتين هو أن النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر اعتمدت على منبعها الشرقى على التراث اليونانى فقط ووجهت جهودها نحو إحياء هذا التراث والاستفادة

منه. أما نهضة القرن الثانى عشر فاعتمدت فى منبعها الشرقى على التراث العربى الإسلامى كما أعتمدت على التراث اليونانى.

على أننا نلاحظ أن نهضة القرن الثانى عشر لم يقترن مولدها بالبذخ والثراء وتعدد الكفايات الفردية النادرة، وهى الظواهر التى صحبت نهضة القرن الخامس عشر عند نشأتها. هذا إلى أن الميول والاتجاهات الرفيعة لم تكن قد نضجت بعد فى القرن الثانى عشر. حقيقة أن هذه النهضة الوسيطة شهدت ازدهار الفن، ولكنه فن مرتبط بالطراز والنمط لا بالأفراد والفنانين والعبقريات الفردية الخالدة التى امتازت بها النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر.

الكتب والمكتبات:

وقبل أن نبدأ دراسة النشاط الفكرى فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر، لابد من أن نلقى نظرة على أحوال الكتب والمكتبات فى ذلك العصر. ذلك أنه من المعروف أن دراسة الحياة الفكرية لعصر من العصور تتطلب الوقوف على نوع الكتب التى تناولتها الأيدى فى ذلك العصر، والظروف التى أحاطت بها من حيث تداولها واستعمالها وكيفية نسخها، فنحن إذا أطلعنا على قائمة بأسماء الكتب التى وجدت بمكتبة أحد الأديرة فى القرن الثانى عشر، نستطيع فى سهولة أن نكون فكرة عامة عن المستوى الثقافى لأهل ذلك الدير بدراسة مادة الكتب التى اتخذوها غذاءا عقليا لهم.

ويحسن فى أول الأمر أن نشير إلى أن أهالى الغرب فى العصور الوسطى لم يعرفوا المكتبات المنظمة التى نعرفها اليوم.. فعندما يذكرون لفظ مكتبة فى تلك العصور كانوا لايقصدون بهذا اللفظ بناء مستقلا أو حتى غرفة قائمة بذاتها مخصصة لحفظ الكتب، لأن اللفظ الشائع الذى استخدم عندئذ للتعبير عن المكتبة كان لفظ Ar-morium ومعناه خزانة الملابس أو غرفة نسخ الكتب، هذا إلى أن الكتب الخاصة بالدير أو الكنيسة لم تتجاوز مجموعة صغيرة توضع على أرفف الحائط ويقدر عددها ببضع عشرات، وإن وصلت أحيانا إلى عدة مئات فى مكتبات بعض الأديرة الشهيرة مثل دير كوربى Corbie. ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية تلك المكتبة فى حياة الدير، إذ روعى فيها دائما أن تحوى من الكتب ما يكفى حاجة كل راهب فى الدير من

القراءة طيلة العام. وقد بلغ من أهمية المكتبة فى حياة الدير أن قال المعاصرون: «دير بدون كتب كحصن بدون ذخيرة»[٢٠].

على أن هذه المجموعات الصغيرة من الكتب التى حوتها مكتبات الأديرة سرعان ما أخذت تنمو عن ثلاثة طرق، هى: الشراء، والهدايا، والنسخ. ويلاحظ أن عادة شراء الكتب لم تكن شائعة فى العصور الوسطى لعدم وجود نساخ محترفين يرتزقون من وراء هذه الحرفة، وعدم وجود أسواق عامة لشراء الكتب وبيعها فى أوربا. وإذا وجدت هذه الأسواق فى القرن الثانى عشر، فإنها كانت قليلة فى البيئات العلمية مثل بولونيا وباريس، حيث ظهرت أولى الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى. ولهذه الأسباب ظلت المخطوطات نادرة الاستعمال، لاسيما كتب الترتيل الكبيرة التى تحوى الترانيم الدينية، حتى أننا نسمع عن شراء إنجيل كبير فى ذلك العصر بمبلغ ١٠ تالنت، أى ما يقرب من ألفين ومائة وخمسين جنيها[٢١]. كذلك نسمع أن كتابا دينيا آخر يحوى مجموعة من الصلوات والطقوس بيع مقابل مزرعة كروم، وفى سنة ١٠٤٣ اشترى أسقف برشلونة مجلدين من يهودى مقابل منزل وقطعة أرض.

أما الكتب المهداة إلى الأديرة والكتدرائيات فكانت تسجل عادة فى سجلات الدير الظروف المحيطة بإهدائها. وانحصرت هذه الظروف غالبا فى دخول أحد الرهبان الجدد الدير وإهدائه مكتبته إليه. أو أن يقدم أحد المسافرين أو عابرى السبيل بعض الكتب إلى الدير مقابل ما يلقاه من أهله من حسن استقبال وكرم وضيافة، على أن الحالة الغالبة هى أن كثيرين من الخيريين اعتادوا أن يوصوا بإهداء كتبهم عند وفاتهم إلى دير معين أو كنيسة معروفة. وهكذا وضعت كتدرائية روان Rouen عند مصب السين قائمة طويلة بأسماء الكتب التى أهداها إليها فى القرن الثانى عشر رئيس الأساقفة روترو Retrou (١١٦٥ - ١١٨٣). وفى سنة ١١٦٤ أوصى فيليب أسقف بايو Bayeux بمائة وأربعين مجلدا لدير بك Bec.

ومهما يكن من أمر تلك الهدايا، فإن الطريق الرئيسى الذى غذى مكتبات الأديرة

---

(20) Haskins: The Renaissance, p. 71.

(٢١) التالنت Talent مثقال استخدمه اليونانيون القدامى فى الوزن ويبلغ ٢٦ كيلو جراما تقريبا. وقد أطلق الاسم أيضاً على العملة التى يبلغ وزنها تالنت من الذهب أو الفضة.

بما يلزمها من كتب فى العصور الوسطى، كان نسخ الكتب فى الأديرة ذاتها، حيث توافرت الأيدى اللازمة لهذه العملية، فيعمل الرهبان فى الكتابة والنسخ دون أى أجر أو مقابل، لأن هذا العمل اعتبر جزءا من عملهم اليومى داخل الدير. وفى الوقت نفسه أمكن الحصول على أدوات الكتابة ومستلزماتها من مزرعته أو ضيعته. وقد أعفى النظام الكلونى النساخ من بعض الواجبات الدينية داخل الدير ليتفرغوا لعملهم، كذلك نادى بعض أقطاب ذلك النظام بأن العمل فى نسخ الكتب داخل الدير مقدم على العمل فى مزارع الدير. أما نظام السسترشيان Cistercian فقد أعفى النساخ من العمل فى الحقل، اللهم إلا فى وقت الحصاد، وكذلك نظام الكارثوسيان Carthusian الذى جعل النسخ واجبا مفروضا على أعضائه، وهكذا نجد الأنظمة الديرية الشهيرة على اختلاف أنواعها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، تجمع كلها على ضرورة العناية بنسخ الكتب، وتحاول شحذ همم ناسخيها عن طريق إغرائهم بأن كل حرف وكل كلمة ينسخها أحدهم تمحو ذنبا من ذنوبه. ولكن يبدو أن حمل الرهبان على الاستمرار فى عملية النسخ - وهى عملية شاقة - كان أمرا متعذرا، ولذلك أخذت الحاجة تزداد شيئا فشيئا إلى النساخ المأجورين.

والواقع أن عملية نسخ الكتب كانت حقا مهمة صعبة فى تلك العصور، حتى أن كثيرا من الكتاب الصبورين اضطروا إلى الكف عن النسخ بعد أن تورمت أصابع أيديهم من كثرة الكتابة وشدة البرد. وحسبنا أن نتذكر أن عملية الكتابة فى تلك العصور كانت أشبه بعملية نحت فى جلود الحيوانات المجففة يقضى الكاتب أمامها الساعات الطوال وهو ممسك بقلم هو إلى العصاة أقرب، مما يستنفد منه جهدا دونه أى جهد آخر. لذلك لم يكن عجبا أن يرسل الكاتب آيات الحمد والشكر لله عند الفراغ من مهمته الشاقة. فنسخ معظم الكتب المعاصرة تختم بالعبارة التقليدية «تم الكتاب شكرا لله! Explicit. Deo Gratias» وفى بعض الأحيان يتبع الكاتب ذلك الحمد بدعاء، كان يطلب حسن المثوبة من الله، أو أن يرجو الإنعام عليه بأكلة شهية أو أوزة سمينة، وما تيسر من الخمور[٢٢].

ومعظم ما لدينا من كتب غربية ترجع إلى القرن الثانى عشر منسوخة على

(22) Haskins: The Renaissance, p. 74.

رقائق من جلود الحيوانات (Parchment) ، لأن البردى بطل استعمالة فى الكتابة منذ أوائل العصور الوسطى، فى حين أن ورق الكتابة الحالى الذى عرفه الأوربيون من العرب لم يكن استعماله قد انتشر بعد فى الغرب الأوربى. وتفاوتت هذه الجلود فى نوعها وقيمتها حسب أعمار الأغنام. فكلما صغر عمرها صارت جلودها أرق وأصلح للكتابة. وبعد تجفيف هذه الجلود وإعدادها كانت تقسم إلى ملازم وتسطر، وبذلك تصبح مهيأة للكتابة [٢٣]. وقد تباينت مخطوطات ذلك العصر تباينا واضحا فى الحجم، فبينما بعض نسخ الإنجيل والكتب الدينية ضخمة الحجم ومدونة بخط عريض، إذا بالبعض الآخر يمتاز بصغر الحجم وبساطة الخط مع وضوحه، حتى ليصبح من السهل أن يضع الفرد كتابا من هذا النوع فى جيب ردائه.

وكان الشطر الأول من القرن الثانى عشر عصراً ذهبيًا بالنسبة للكتابة وفن الخط فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، لأن الكتابة ظلت عندئذ محتفظة بطابع الوضوح والبساطة الذى لازمها منذ العصر الكارولنجى، بعكس ما حدث بعد ذلك من دخول تحويرات كثيرة فى الخط، فضلا عن الاختزالات التى شاع استعمالها فى القرن الثالث عشر، عندما ظهرت الحروف المتشابكة التى زادت الكتابة تعقيدا. كذلك كان القرن الثانى عشر عصر تجديد وإحياء فى فن الكتابة من حيث العناية بتصوير الكتب وتزيينها. ويبدو ذلك فى الاهتمام بالأحرف الأولى Initials فى الجملة من حيث تنميقها وزخرفتها وتلوينها بألوان زاهية، وهى الطريقة التى ظهرت أكثر وضوحا فى العصورالتالية. أما تغليف الكتب فاستعملت فيه الجلود المتينة ذات المنظر الجميل.

فإذا نظرنا إلى ما كانت تحويه هذه المنسوخات من ضروب المعرفة، فإننا نجد مكتبات القرن الثانى عشر لا تضم مؤلفات جديدة فحسب، وإنما ضمت أيضا كثيرا من المؤلفات القديمة. وللوقوف على هذه الحقيقة يكفى الرجوع إلى الفهارس المعاصرة لتلك المكتبات، وإن كان كثير من هذه الفهارس لايتعدى بعض عبارات مقتضبة على الغلاف الداخلى للكتاب، مما لا يفيدنا كثيرا فى معرفة محتويات الكتاب أوتاريخه الزمنى، هذا مع ملاحظة أنه لم يراع فى تلك الفهارس الترتيب الأبجدى،

---

(23) Thompson: Greek and Latin Palaeography, p. p. 28 - 34.

لأن العصور الوسطى لم تعط ترتيب الحروف الأبجدية العناية الكافية. وكل ما روعى فى ترتيب تلك المكتبات هو الترتيب الموضوعى إلى حد ما ، فتبدأ أولا بنسخ الكتاب المقدس ثم بكتب العبادة والصلوات ثم بكتب الآباء والقديسين(٢٤).

وإذ حوت كل مكتبة من مكتبات ذلك العصر هذه الأنواع الثلاثة من الكتب، فإن هذا راجع إلى طبيعة التعليم الدينى الذى استهدف إعداد رجال الكنيسة لفهم أحكام الدين والكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة. وكان أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعليم غير الدينى فى ذلك العصر، هو تلقين الفنون السبعة الحرة Seven Arts التى انقسمت إلى مجموعتين: المجموعة الثلاثية (Trivium)، وتشمل النحو والبلاغة والجدل، والمجموعة الرباعية (Quadrivium)، وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك(٢٥). لذلك كانت مكتبات ذلك العصر تحوى بعض الكتب غير الدينية مثل مؤلفات مارتيانوس كابلا Martianus Capella التى قيل عنها أنها كانت أكثر الكتب انتشارا فى العصور الوسطى بعد الكتاب المقدس، ومؤلفات النحوى اللاتينى برسكيان Priscian الذى ظلت كتاباته منذ القرن السادس موضع اهتمام قراء اللاتينية وكتابها، وبؤثيوس Boethius أول فلاسفة العصور الوسطى الذى كتب فى الفلسفة والمنطق والبلاغة والموسيقى ، وايسيدور Isidore الذى صار كتابه فى فقه اللغة بمثابة أعظم دائرة معارف عرفها الغرب الأوربى فى العصور الوسطى، وبدى Bede الذى ظلت كتاباته أمدا طويلا مرجعا هاما فى التاريخ والفلك.

كذلك وجد فى مكتبات القرن الثانى عشر بعض المراجع القانونية لاسيما القانون الكنسى والقانون الرومانى، فى حين قل الإقبال على تدوين القوانين الجرمانية فى ذلك العصر. ولم تخل مكتبة أو كنيسة من مجموعات الرسائل والتعليمات البابوية وقرارات المجامع الدينية، فضلا عن مجموعة جراشيان الجديدة فى القانون الكنسى التى سنتكلم عنها فيما بعد. أما الشعر فإن وجد كان يبدو فى القالب الدينى المسيحى، مثل الشاعر الإيطالى برودنتيوس Prudentius (٣٤٨ – ٤١٠)، وشعر القديس فورتناتوس Fortunatus (٥٣٠ – ٦٠٩)، فضلا عن بعض أشعار العصر الكارولنجى.

---

(24) Haskins: The Renaissance, p. 79.

(25) Rashdall: op. cit., vol. 1, p. p. 34 - 35.

هذه الألوان السابقة من الكتابات ظلت تؤلف الجوهر الذى تكونت منه مكتبات القرن الثانى عشر. وربما اجتمعت حول هذا الجوهر ألوان أخرى من المؤلفات الأدبية بنسب غير متعادلة، بعضها يرجع إلى العصور القديمة،والبعض الآخر إلى العصر الكارولنجى، مثل كتابات ألكوين (٧٣٥ - ٨٠٤) وهنكمار Hincmar (٨٠٦ - ٨٨٣)ورابانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ - ٨٥٦) وغيرهم. أما تراجم القديسين وسيرهم فقد وجدت دائما مجموعة كبيرة منها فى مكتبات الأديرة والكنائس، ولم تخل هذه المكتبات أيضًا من المصنفات التاريخية مثل الحوليات، سواء ما كان منها عاما، أو خاصا بتاريخ الإقليم أوالدير. ومن الواضح أن مكتبة الدير أو الكتدرائية كانت تضم كثيرا مما يتعلق بالدير نفسه أو الكتدرائية نفسها، سواء على هيئة رسائل أوتراجم لأهل الدير السابقين والحاليين.

وبتقدم نهضة القرن الثانى عشر واتساع دائرة النشاط العلمى، وجدت المؤلفات التى كتبها علماء ذلك القرن سبيلها إلى مكتبات الأديرة، مثل كتابات انسلم Anselm (١٠٣٣ - ١١٠٩) والقديس إيفو أسقف شارتر St. Ivo of Chartres (١٠٤٠ - ١١١٦)، وبطرس لمبارد Peter Lambard (١١١٠ - ١١٦٤).

وإذا كنا فى عرضنا هذا للمكتبات الغربية فى القرن الثانى عشر قد قصرنا كلامنا على مكتبات الأديرة والكتدرائيات، فسبب ذلك هو أن هذين النوعين كانا أهم أنواع المكتبات فى ذلك العصر. ومن المهم أن نلاحظ أن العصور الوسطى لم تعرف نظام المكتبات العامة الذى نعهده اليوم. كذلك لم تعرف المكتبات عندئذ نظام إعارة الكتب مثلما فعلت الجامعات بعد ذلك. وإذا وجدت بعض حالات تعار فيها الكتب لنسخها ثم ردها، فإن هذه الحالات ظلت قليلة، وبتقدم الوقت قسمت الكتب إلى قسمين: قسم يوضع فى خزائن أوصناديق مغلقة بالمفاتيح، وقسم آخر يعرض للاطلاع مع الاحتياط بربط الكتب بسلاسل فى المناضد لضمان سلامتها وعدم ضياعها(٢٦).

والآن، بعد هذه العجالة عن أحوال الكتب والمكتبات فى القرن الثانى عشر، نستطيع أن نبحث النهضة الفكرية التى شهدتها أوربا فى ذلك القرن، فى ضوء ما حوته تلك الكتب من دراسات.

---

(26) Haskins: The Renaissance, p. p. 48 - 85.

إحياء الدراسات اللاتينية القديمة:

سبق أن ذكرنا أن نهضة القرن الثانى عشر تمثل فيها جانبان من النشاط الفكرى، هما الإحياء والتجديد، أما الإحياء فنقصد به إحياء الدراسات اللاتينية القديمة، وهى الدراسات التى ظلت أصدق مقياس للنشاط الفكرى فى غرب أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى بداية العصور الحديثة. وهنا نكرر أن التراث الفكرى اللاتينى لم يندثر تماما فى وقت من الأوقات، وإنما ازدادت العناية به أو قلت وفقا للمستوى الثقافى لكل عصر من عصور التاريخ الأوربى. كذلك أوضحنا فى الباب السابق مدى معارضة بعض رجال الدين فى العصور الوسطى لمبدأ التعمق فى الدراسات اللاتينية. وقد استمرت هذه المشكلة قائمة بدون حل حتى القرن الثانى عشر، عندما تساءل أحد أساقفة كتدرائية أوتون Autun : «كيف يمكن تنقية الروح وتهذيب النفس عن طريق قراءة حروب طروادة وجدل أفلاطون وأشعار فرجيل، وغيرهم ممن يصلون الآن نار جهنم؟». كذلك حدث عندما شرع جراشيان فى تنظيم القانون الكنسى سنة ١١٤٠ إن كانت أول مشكلة واجهته هى هل ينبغى لرجال الدين أن يتعلموا الدراسات الدنيوية أم لا؟ وإذا كان بعض البابوات ورجال الدين قد اعترفوا بأن معرفة العلوم الدنيوية ضرورية لفهم الكتاب المقدس، إلا أن هذه المشكلة بقيت فى الواقع بدون حل طوال العصور الوسطى، لأنها كانت أصعب من أن تحل فى سهولة[٢٧].

على أن الحقيقة الهامة بالنسبة لموضوعنا هى أن الخطر الجاثم على نهضة الأدب اللاتينى فى القرن الثانى عشر لم يأت من ناحية الدين ورجال الدين، بقدر ما أتى من ناحية الاهتمام بالمنطق والاتجاه العملى الجديد فى الحياة. ذلك أن استيعاب «المنطق الجديد» لأرسطو حوالى منتصف ذلك القرن رجح كفة الجدل والمنطق والفلسفة، ومن ثم لم يعد هناك متسع من الوقت والجهد للدراسات الأدبية الأخرى، وهكذا نجد الجيل الجديد من المعلمين والمتعلمين فى القرن الثانى عشر يفخر بأنه يعرف كثيرا من الجدل والمنطق والفلسفة، دون أن يضيع وقته فى الأدبيات وكتابات شيشرون.

---

(27) Haskins: The Renaissance, p. p. 96 - 98.

ويتضح هذا الاتجاه الجديد فى أواخر القرن الثانى عشر وفى القرن الثالث عشر، عندما أهملت المدارس والجامعات الناشئة الأدب الكلاسيكى فى برامجها، ووجهت جل عنايتها نحو الدراسات الفلسفية والقانونية والطبية. على أنه فى الحقبة التى حظيت الآداب والدراسات القديمة بالعناية فى القرن الثانى عشر، اتجهت هذه الحركة نحو دراسة المؤلفات اللاتينية لا سيما الشعر وشرحه، ودراسة قواعد اللغة ونحوها، وإنتاج قدر كبير من الأدب اللاتينى شعرا ونثرا. ومن أعلام هذه الحركة حنا سالسبورى (١١١٧ - ١١٨٠) الذى كان من رجال الدين والسياسة والأدب والفلسفة جميعا. حتى قيل أنه لم يوجد كاتب فى العصور الوسطى ضارعه فى سعة أفقه وعمق اطلاعه وتفهمه للأدب الكلاسيكى. ويبدو أنه تأثر إلى حد كبير فى أسلوبه بتراث شيشرون الذى كان فى نظر حنا سالسبورى أعظم فصحاء اللاتينية، وقد رأى حنا سالسبورى أنه لاتنافر بين المسيحية والتراث الرومانى القديم. لأن العنصرين تداخلا وانصهرا معا ليتكون منها العالم المسيحى الرومانى. والحق أن حنا سالسبورى يعتبر أنضج ثمرة أنتجتها مدرسة شارتر Chartres حيث درس فى شبابه وحيث مات وهو أسقف(٢٨).

وكان أهم مركزين للدراسات الكلاسيكية فى القرن الثانى عشر هما مدرستا شارتر وأورليان. أما مدرسة شارتر فإمتازت بأنها أعظم المدارس الكتدرائية ظهورا فى أوائل ذلك القرن، وهى الشهرة التى حصلت عليها نتيجة لاهتمامها بالدراسات الأدبية، وبرز من أساتذة هذه المدرسة فئة من الأعلام، مثل برنارد Bernard وتيرى Thierry ، وهما أخوان من إقليم بريتانى بغرب فرنسا، ومثل وليم الكونشى Wil- liams of Conches وهو نورمانى الأصل، أما مدرسة أورليان فتأتى فى المرتبة الثانية بعد شارتر من حيث شهرتها فى ميدان الدراسات الأدبية فى القرن الثانى عشر، ذلك أنها لا تستطيع أن تفخر بأستاذ مثل برنارد أو بتلميذ تخرج فيها مثل حنا سالسبورى، وقد عرف عن مدرسة أورليان عنايتها بدراسة تراث العصر الوثنى، لا سيما أشعار فرجيل Virgil وأوفيد Ovid ولوكان Lucan وغيرهم. ومهما يكن الأمر، فإن مدرسة أخرى فى القرن الثانى عشر لم تستطع أن تصل إلى ما وصلت إليه مدرستا شارتر وأورليان من شهرة فى ميدان الدراسات الكلاسيكية.

---

(28) Haskins: The Renaissance, p. 101.

ويلاحظ أن المؤلفات اللاتينية الكلاسيكية التى كانت فى متناول الأيدى فى القرن الثانى عشر، هى نفسها المؤلفات التى وصلت إلينا تقريبا دون أن يفقد منها شيء ذو أهمية، على أن وجود هذه المؤلفات فى مكتبات القرن الثانى عشر لا يعنى أنها جميعا كانت موضع دراسة وتفهم المعاصرين فى ذلك القرن، لأن هناك فرق بين أن يقتنى فرد كتابا معينا وبين أن يدرس هذا الكتاب. وهكذا وجد كثير من الكتابات اللاتينية فى مكتبات القرن الثانى عشر، ولكنها ظلت فى طى النسيان ولم تدرس، مثل أشعار كاتولس Catullus (٨٤ – ٥٤ ق. م) وتاريخ ليفى Livy (٥٩ ق. م – ١٧ م) وغيرها.

ومن أعظم كتاب اللاتينية القدماء شهرة فى العصور الوسطى الشاعر اللاتينى فرجيل (٧١ – ١٩ ق. م) الذى ظل إنتاجه محورا لكثير من الدراسات التى تناولت الفكر الرومانى والأدب اللاتينى[29]. ويبدو من كتابات القرن الثانى عشر أن فرجيل ظل موضع إعجاب المعاصرين، ينقلون عنه، ويقتبسون منه، ويحاكونه فى كتاباته وطريقته، وحسبنا أن أهمية فرجيل استمرت حتى استلهم منه دانتى فيما بعد (١٢٦٥ – ١٣٢١) عبقريته وأفكاره. ويلى فرجيل فى الأهمية صديقه الشاعر اللاتينى أوفيد (٤٣ ق. م – ١٦ م) الذى أحرز هو الاخر مكانة شعبية عظيمة فى العصور الوسطى بفضل أشعاره التى ظلت ترددها الألسن حتى عصر النهضة الإيطالية، لا سيما قصيدة «فن الحب»، وقصيدة «دواء الحب»، وقد انتشرت أشعار أوفيد فى القرن الثانى عشر انتشارا واسعا يجعلنا نتخذ من ذلك الانتشار دليلا على النهضة بإحياء الأدب الكلاسيكى فى ذلك القرن. وبلغ من انتشار أشعاره أنها صارت تدون حتى فى الأديرة الكلونية التى عرف رجالها بالتزمت، كما أولع كثير من الكتاب والأدباء بمحاكاته. وهنا نلاحظ أن أشعار أوفيد لم يقتصر أثرها على كتاب اللاتينية وأدبائها فى القرن الثانى عشر فحسب، بل امتد أيضًا إلى أدباء اللغات القومية الجديدة فترجموها إلى لغاتهم.

هذا عن الشعر الكلاسيكى، أما النثر فليس هناك شك فى أن شيشرون (١٠٦ – ٤٢ ق. م) كانت له الصدارة فى العصور الوسطى بين كتاب اللاتينية ، حتى لقب

(29) Taylor: op. cit, vol. 2, p. p. 134 - 135.

ملك الفصاحة واعتبر عمدة البلاغة بين الكتاب الرومان. والواقع أن تراث شيشرون الأدبى لايمكن إحصاؤه فى سهولة وإن أبدى أحد المعجبين به فى القرن الثانى عشر أمنيته فى جمع ذلك التراث كله فى مجلدا واحد. ويتمثل الجزء الأكبر من آثار ذلك الكاتب العظيم فى رسائله فى البلاغة والفلسفة، ثم تأتى بعد ذلك خطبه الشهيرة، ثم مقالاته فى الأدب. ولاشك فى أن المكتبات الكبيرة فى القرن الثانى عشر ضمت كل هذه الألوان من آثار شيشرون. وقد جاء فى فهرس مكتبة دير كلونى فى ذلك القرن ذكر ثلاث مخطوطات من رسائل شيشرون الأدبية وأربع من خطبه وخمس من مقالاته فى البلاغة وسبع من إنتاجه الفلسفى، كذلك ظهر ولع أدباء القرن الثانى عشر بشيشرون فى محاولتهم التشبه به فى أسلوبه ومنهجه.

وفيما عدا شيشرون هناك مجموعة أخرى من أعلام النثر والبلاغة الرومان، ظلت ذكراهم باقية وكتاباتهم متداولة فى القرن الثانى عشر، ومن هؤلاء كونتليان Quintilian (٣٥ – ٩٥) وهو من أعلام البلاغة والبيان فى القرن الأول. كذلك رجع أدباء ذلك القرن إلى كتابات الفيلسوف سينكا Seneca (ت ٦٥)، وبخاصة كتابه (مشاكل الطبيعة)، فضلا عن كتاباته الأخرى فى الآداب والأخلاق. وربما زاد من أهميته أن بعض الكتابات المسيحية نسبت إليه مما أثار الظن بأنه اعتنق المسيحية ولم يمت وثنيا. ومن كتاب الرومان الذين عرفت كتاباتهم فى القرن الثانى عشر أيضاً بلينى الكبير أو القديم Pline I'Ancien [٣٠] (٩٧ ق. م) ولو أن كتابه «التاريخ الطبيعى Histoire Naturelle» كان أضخم من أن يتم نقله وتداوله فى سهولة.

وهكذا يبدو أن الاهتمام بهؤلاء الكتاب الرومان كان أهم مظاهر حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية فى القرن الثانى عشر، وظهر هذا الاهتمام واضحا فى عدة جوانب. أولها الاقتباس عن هؤلاء الكتاب والمفكرين، حتى أننا لنجد كثيرا من الكتابات التى ترجع إلى القرن الثانى عشر مليئة بالعبارات والأساليب والأفكار المأخوذة عن كتاب اللاتينية القدامى. وثانيها كثرة الشروح والتعليقات على الدراسات اللاتينية القديمة، حتى صار من الأمور المفضلة فى مدارس القرن الثانى عشر أن يصحب تدريس الأدب عمل تبويب وتقسيم وشروح للمؤلفات القديمة. أما المظهر

---

(٣٠) تمييزا له من ابن أخيه الأديب الرومانى بلينى الصغير الذى ظهر بعده (Pline le jeune).

الثالث من مظاهر الاهتمام بالكتابات الكلاسيكية فى القرن الثانى عشر، فهو أثر هذه الكتابات فى الشعر القومى الناشئ. فالألوان الجديدة من الشعر البروفنسالى وغيره من الآداب القومية الناشئة فى القرن الثانى عشر تأثرت إلى حد بعيد بالاتجاهات الكلاسيكية، فأنشأ الشعراء المحدثون يتخذون من الأشعار اللاتينية القديمة نماذج يحاكونها، ليس فقط فى الطريقة بل أيضاً فى الموضوعات التى يعالجونها . وهكذا نلحظ ظهور أشعار جديدة فى القرن الثانى عشر تناولت أخبار طروادة وطيبة والاسكندر الأكبر، وغير ذلك من القصص والموضوعات المأخوذة عن أوفيد وأمثاله من شعراء العصر الكلاسيكى(٣١).

اللغة اللاتينية:

إذا كان هذا هو نصيب الأدب اللاتينى الكلاسيكى من العناية فى القرن الثانى عشر، فلاشك فى أن اللغة اللاتينية ـ وهى أداة تلك الدراسات الأدبية ـ قد أدركت ـ نثرها وشعرها ـ حظا كبيرا من الرقى والتقدم فى ذلك القرن. والمعروف أن اللغة اللاتينية ظلت اللغة العالمية السائدة فى غرب أوربا حتى أواخر القرن الثانى عشر، عندما أخذت تنافسها اللغات القومية Vernaculaire أو العامية Vulgaire ، مما جعل بيرين يشبه الأدب الأوربى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى بجانوس Janus ملك لاتيوم المزدوج الشخصية، فقال أن ذلك الأدب أصبح له مظهران أحدهما يبدو فى اللغة اللاتينية والآخر فى اللغات القومية والعامية الناشئة(٣٢). ومهما يكن الأمر ، فإن هذه اللغات الأخيرة لم ينتشر استعمالها فى القرن الثانى عشر بالذات بالدرجة التى تجعلها خطرا حقيقيا على اللغة اللاتينية، فإذا استخدمت الفرنسية أحيانا فى الحديث فى بعض البلاد الأوربية، فإن هذا لم يحدث إلا على مقياس ضيق فى القرن الثانى عشر، بحيث لم يعم استعمالها كلغة أوربية شائعة إلا فى القرن التالى(٣٣).

وإذا نحن عبرنا عن اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر بأنها لغة دولية لما كفى هذا التعبير(٣٤). فاللاتينية عندئذ لم تكن لغة الاتصال والتفاهم بين الدول بعضها

(31) Haskins: The Renaissance, p.113.

(32) Pirenne: Histoire du Moyen-Age, Tome VIII, p. 205.

(33) Haskins: The Renaissance, p.127.

(34) Pirenne: Historie du Moyen-Age, Tome VIII, p. 204.

وبعض فحسب، وإنما استخدمت أيضاً داخل مختلف بلاد غرب أوربا فى المناسبات والأغراض العامة والخاصة. ويكفى أنها ظلت فى ذلك العصر لغة الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوربا، حيث استخدمت فى التفاهم والاتصال بين رجال الدين فى مختلف البلاد، كما استعملها الناس فى الصلاة والترتيل، كذلك كانت اللغة اللاتينية لغة العلم والتعليم فى ذلك العصر، فالطلاب يلقنون اللغة اللاتينيةفى المدارس ويتلقون بها جميع علومهم. كما أن كتبهم المدرسية دونت بها مما جعل اللغة اللاتينية لغة الطبقة المتعلمة المثقفة فى المجتمع الأوربى. أما فى القضاء والقانون والمحاكم، فقد استخدمت اللغة اللاتينية وحدها، كما دونت بها القوانين الرومانية والكنسية، بل القوانين المستحدثة التى وضعها النورمان واللمبارديون وهنرى الثانى ملك إنجلترا وروجر الثانى ملك صقلية، كذلك تشهد الوثائق واللوائح والأوامر الحكومية الباقية من القرن الثانى عشر على أن اللغة اللاتينية ظلت الأداة المستخدمة فى شئون الحكم والإدارة. والخلاصة أن رجال الدين والعلم والأعمال والقضاء والإدارة كانوا جميعا فى حاجة إلى معرفة اللغة اللاتينية واستعمالها(٣٥).

على أنه لايمكن بقاء لغة من اللغات فى قالب واحد وعلى صورة واحدة مع استخدامها فى مثل ذلك المحيط الواسع من البلاد المتباعدة، وفى مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة. لذلك نجد اللغة اللاتينية في العصور الوسطى تختلف اختلافا بينا تبعا لاختلاف الزمان والمكان والغرض الذى استخدمت فيه(٣٦). ومن مظاهر اختلاف اللغة اللاتينية من بلد إلى آخر فى القرن الثانى عشر ذلك التباين الشديد فى محصول الألفاظ. حتى أننا نجد أنفسنا فى حاجة إلى قاموس لاتينى مستقل لكل بلد أو كل إقليم من أنحاء أوربا، ولاشك فى أن القدرة العظيمة التى امتازت بها اللاتينية فى تشرب العناصر اللغوية الغربية، هى التى ساعدت على بقائها حية طوال العصور الوسطى حتى استسلمت فى النهاية أمام ضغط اللغات القومية الذى اشتد عليها فى القرن الخامس عشر.

وقد شهد القرن الثانى عشر انتعاش اللغة اللاتينية ورقى مستواها وجودة

Age, Tome VIII, p. 204. (35) Pirenne: Histoire du Moyen

(36) Haskins: The Renaissance, p. 128.

أسلوبها(٣٧). هذا فضلا عن وفاة المحصول اللغوى فى الألفاظ والمفردات، حتى أننا نصادف فى كتابات ذلك العصر ألفاظا لم تستعمل إلا نادرا فى العصور الكلاسيكية ذاتها، وكأن كتاب القرن الثانى عشر تباهوا بمعرفة تلك الألفاظ وتكرارها فى كتاباتهم، ولكن حتى فى هذه الحالات لا نجد أثرا للتكلف ، لأن تلك الكتابات كتبها أناس يفكرون بالعقلية اللاتينية، ويتباحثون فى شئونهم العلمية والأدبية باللاتينية(٣٨). فاللغة اللاتينية لم تكن ميتة فى القرن الثانى عشر، وإنما ظلت حية، منتعشة، محتفظة بنضرتها وقوتها، رغم أنها قاربت الشيخوخة فى ذلك العصر، وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى اتخاذ القرن الثانى عشر عصرا ذهبيا للغة اللاتينية فى العصور الوسطى(٣٩).

على أن وصول اللغة اللاتينية إلى هذا المستوى الرفيع فى القرن الثانى عشر، لابد وأن تطلب إحاطة شاملة وتدريبا كافيا على القواعد النحوية لتلك اللغة. وهنا نستطيع أن نقرر أيضًا أن دراسة النحو اللاتينى بلغت الذروة فى ذلك القرن، أما المرجع الرئيسى فى دراسة قواعد النحو اللاتينى عندئذ فكان كتاب «القواعد النحوية Institiones Grammatices» الذى ألفه برسكيان Priscian فى أوائل القرن السادس. ويتألف هذا الكتاب من ثمانية عشر جزءا وانتشر فى العصور الوسطى انتشارا واسعا تدل عليه مئات النسخ الخطية الباقية منه حتى اليوم(٤٠). ويمتاز هذا الكتاب بالمادة الغزيرة المحكمة، والأمثلة القوية المستقاة من مؤلفات كبارالكتاب والشعراء الرومان، أمثال شيشرون وفرجيل وسالوست Sallust وغيرهم، مما يجعله ليس كتاب قواعد ونحو فحسب، وإنما أيضًا مرجعا من مراجع الأدب والبلاغة والبيان فى اللغة اللاتينية. لذلك يعتبر انتشار كتاب برسكيان فى أية فترة من العصور الوسطى خير دليل على انتعاش الدراسات الكلاسيكية بوجه عام واللغة اللاتينية بوجه خاص. على أن كتاب برسكيان وأشباهه من الكتب ـ مثل كتاب مارتيانوس كابلا Martianus Ca-pella (٤١) تعتبر من الكتب الضخمة التى يقع الواحد منها فى عدة مجلدات، لذلك

(37) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. 69.

(38) Stubbs: Seventeen Lectures, p. 175.

(39) Taylor: The Medieval Mind, vol. 2, p. 196.

(40) Idem: vol. 2, p. p. 150 - 151.

(٤١) كاتب لاتينى عاش فى القرن الخامس للميلاد . ودون دائرة معارف فى تسعة أجزاء عالج فيها النحو والمنطق والميتافيزيقا. وكان لكتاباته شأن كبير فى العصور الوسطى.

فضل طلاب دراسة اللغة اللاتينية فى ذلك العصر الرجوع إلى الكتب المبسطة مثل الكتاب الذى ألفه دوناتوس Donatus فى القرن الرابع عن «أجزاء الخطبة الثمانية De Octo Partibus Orationis (٤٢).

كذلك شهد القرن الثانى عشر إنتاج كثير من المعاجم والقواميس اللاتينية، وذلك إذا أضفنا إليها المعجم الذى وضعه بابياس Papias حوالى منتصف القرن الحادى عشر، وهذا المعجم الأخير عبارة عن قاموس ودائرة معارف معا، ومادته مستقاة من المؤلفات القديمة، ولكنه يحوى كثيرا من الأمثلة المعاصرة، كما أنه مرتبط بالمناهج والمواد التى كانت تدرس فى مدارس ذلك العصر. أما ترتيب مفرداته فاتبعت فيه القاعدة نفسها التى سادت العصورالوسطى بأجمعها، وهى مراعاة الحروف الأولى فقط من الكلمات دون بقية حروف الكلمة. وفى الوقت نفسه لم يراع الهجاء الأصولى للفظ، وإنما كتبت الألفاظ فى صياغتها الشائعة فى ذلك العصر. على أن معجم بابياس لم يف تماما بحاجات الأجيال التالية، فى وقت كثر المعلمون والمتعلمون ، لذلك لجأ أوسبرن Osbern الإنجليزى إلى وضع معجمه الكبير الجامع (Panormia) فى أوائل القرن الثانى عشر. وبعد ذلك ـ أى عند بداية القرن الثالث عشر ـ وضع أحد أساتذة جامعة بولونيا ـ واسمه هوجوتيو Hugutio معجما، هو فى الواقع خلاصة معجمى بابياس وأوسبرن، بعد أن جمع مادة المعجمين السابقين ورتبهما، مما أكسبه شهرة وأهمية عظيمة. ويلاحظ على المؤلفين الثلاثة السابقين أنهم اهتموا اهتماما بالغا فى معاجمهم بأصول الكلمات واشتقاقاتها، لا سيما بالأصل اليونانى للألفاظ اللاتينية، مع أنهم جميعا كانوا يجهلون اللغة اليونانية الصحيحة، مما أوقعهم فى كثير من الأخطاء.

وهناك نوع آخر من المعاجم الوصفية ظهر فى ذلك العصر، يعمد إلى أصل الكلمة، ويضع الأصل فى جملة أو عدة جمل مرتبطة تشرح معنى اللفظ وتوضحه. فإذا أراد المؤلف أن يشرح فعل «كتب» مثلا؛ تعرض للكتابة، وذكر عبارة طويلة من عدة جمل عن الكاتب وطريقته فى الكتابة.. وغير ذلك من المعلومات المسهبة، مما جعل هذا النوع من المعاجم الوصفية عبارة عن دوائر معارف تعبر عن الحياة المعاصرة بجميع نواحيها. وقد وضعت عدة معاجم من هذا النوع فى القرن الثانى

(42) Pirenne: La Civilisation Occidental au Moyen Age, , p. 199.

عشر، أشهرها المعجم الذى وضعه نكام Neckam (١١٥٧ - ١٢١٧)، بعد أن درس الآداب والفنون والعلوم والقانون، وألم بها الماما كافيا(٤٣).

هذا عن اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، ويلاحظ أن التقدم الكبير الذى أحرزته هذه اللغة فى ذلك القرن لم يستمر طويلا، إذ أخذ مستوى اللغة اللاتينية ينخفض تدريجيا فى القرن الثالث عشر. بل منذ أواخر القرن الثانى عشر. ويعلل بعض الباحثين هذه الظاهرة بأن العلوم والمعارف الجديدة التى أخذت بها أوربا إبان نهضتها فى القرن الثانى عشر ، شغلت طلاب العلم عن الاهتمام بأصول اللغة وقواعدها، فاكتفى الطالب بمعرفة قسط محدود من هذه الأصول والقواعد لينصرف مباشرة إلى دراسة تراجم أرسطو وغيرها من المعارف الجديدة(٤٤).

النثر:

وإذا كانت اللغة اللاتينية بلغت درجة كبيرة من الرقى فى القرن الثانى عشر، فإن ذلك ظهر بوضوح فى شطرى الأدب من نثر وشعر. وهنا نلاحظ أن علم البلاغة - وهو التوأم الشقيق لعلم النحو - صار له فى العصور الوسطى تاريخ يختلف عما كان عليه فى العصور القديمة، لأن الأساليب الرومانية القديمة أمست لا تطابق مقتضيات الحياة فى العصور الوسطى فالبلاغة فى العصور القديمة ارتبطت بالخطابة، بينما هى فى العصور الوسطى أشد ما تكون ارتباطا بالرسائل ويتضح الطابع الخطابى فى البلاغة الرومانية بوجود لفظ الخطابة «Oratore» فى عناوين معظم المقالات والموضوعات الأدبية الباقية من العصر الرومانى. والسبب فى عناية الرومان بالخطابة واضح، نستطيع الوقوف عليه باسترجاع معلوماتنا عن النظم السياسية والقضائية عند الرومان، وكيف ارتبطت هذه النظم بمجالس الحكم ودور القضاء العامة، حيث اجتهد كل خطيب فى تحقيق هدفه وكسب الرأى العام عن طريق بلاغته وسحر بيانه. ولكن هذه الأهمية التى كان للخطابة عند الرومان لم تلبث أن تلاشت باندثار نظمهم السياسية والقضائية، فضلا عن ظهور المسيحية. وهكذا لم تعد الخطب البليغة منذ أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية تؤدى وظيفتها فى دورالقضاء، نظرا

(43) Haskins: The Renaissance, p. 134.

(44) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 70 - 71.

لعدم انسجامها مع روح المسيحية وتعاليمها، وبالتالى أصبح تدريس البلاغة على أيدى أساتذة محترفين أمرا شكليا فى العصور الوسطى، هذا إلى عدم وجود مراجع سهلة وافية للبلاغة، تستطيع أن تنهض بهذا العلم كما نهضت مؤلفات برسكيان ودوناتوس بالنحو. لذلك لم يجد أساتذة القرن الثانى عشر أمامهم سوى كتب الخطابة (De Oratore) لشيشرون، وقواعد الخطابة Institiones Oratoriae لكونتليان Quintilian، فوضعوا ما فيها من خطب أمام تلاميذهم كنماذج لفن البلاغة، لا كمراجع تشرح أصول البلاغة وفنها(٤٥).

ولهذه الأسباب اتجه الأدباء فى عصر النهضة الوسيطة نحو إنشاء الرسائل Epistolary Composition، ولم تلبث أن أصبحت هذه الرسائل محور البلاغة وميدان البيان، ولم تكن كتابة الرسائل بالفن الجديد الذى يرجع الفضل فى ابتكاره إلى القرن الثانى عشر، إذ من المعروف أن الوثائق الحكومية والإدارية فى العصور الوسطى أخذت الطابع العام للرسائل عن العصر الرومانى، واستمر تدوين الوثائق الحكومية على تلك الصورة التى لم تبطل طوال الشطر الأول من العصور الوسطى بفضل تمسك الكتاب العموميين وكتاب المحاكم بها، ولكن هذا الفن ظل جامدا غير عملى، يلقن عن طريق محاكاة نماذج ذات طابع معين ومستوى لايحيد عنه دون أن يكون للكاتب حرية الابتكار والتجديد فيه، واستمر الأمر على ذلك حتى أواخر القرن الحادى عشر عندما بدأت روح التجديد التى سادت النهضة الوسيطة. وقد بدأ التجديد فى كتابة الرسائل باعداد مراجع مختصرة، تلائم الأوضاع وظروف الحياة الجديدة، تصحبها أمثلة ونماذج لتكون بمثابة وسائل إيضاح للمتعلمين. ومن المرجح ألايكون ألبريك - وهو أحد رجال مونت كاسينو فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر - أول من وضع مراجع من هذا النوع فى فن كتابة الرسائل، ولكن إنتاجه على أى حال كان أول ما وصلنا فى هذا الموضوع فى أواخر القرن الحادى عشر(٤٦).

وكانت الخطوة الرئيسية التالية فى فن كتابة الرسائل مرتبطة ببولونيا فى أوائل القرن الثانى عشر، ذلك أنه لما كانت كتابة الرسائل فى العصور الوسطى مرتبطة إلى

---

(45) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 200.

(46) Haskins: The Renaissance, p. 141.

حد كبير بالأعمال الحكومية والقانونية، فإن هذا الفن بقى وثيق الصلة بتدريس القانون بعد أن أصبح القانون علما مستقلا، وبالتالى ازدهرت كتابة الرسائل فى بولونيا ، أعظم مدارس القانون فى أوربا العصور الوسطى. ففى تلك البيئة الصالحة ظهر الجانب العملى لذلك الفن، حتى إذا ما حل القرن الثالث عشر أصبحت كتابة الرسائل فنا مستقلا قائما بذاته، له معهد خاص ودراسة محددة وأساتذة متفرغون لهذه الدراسة، ثم انتقل فن كتابة الرسائل إلى فرنسا، حيث وجد بيئة صالحة فى مدرسة أورليان، وأخذ يتقدم جنبا إلى جنب مع الدراسات الكلاسيكية التى امتازت بها تلك المدرسة، والحق أن الرسائل التى كتبت فى ذلك العصر فى تور وأورليان تمثل نوعا راقيا من النثر اللاتينى البليغ، وترجع مجموعات كثيرة من تلك الرسائل إلى عهد فيليب أوغسطس (١١٨٠ – ١٢٢٣). ونخص بالذكر ذلك النوع من الرسائل الخيالية المتبادلة بين باريس وهيلين(٤٧). وبين الشتاء والربيع، وبين الروح والجسد، وبين الحياة والموت، وبين الإنسان والشيطان... ويهمنا من أمر هذه الرسائل أن كثيرا منها وصل إلى مستوى رفيع من البلاغة، كما أنها تلقى ضوءا ساطعا على الأوضاع العامة فى العصر الذى دونت فيه.

وانقسمت الرسالة فى ذلك العصر عادة إلى خمسة أجزاء من الوجهة النظرية ، أولها التحية التى اختصت بعناية شديدة فى العصور الوسطى، إذ أن لكل مقام مقال، ثم مقدمة الخطاب والغرض منها إعداد القارئ ذهنيا لموضوع الخطاب ، وكانت غالبا تحوى بعض الأمثال والحكم أو النصوص المقتبسة من أقوال الغير، ثم العرض الذى يشمل موضوع الخطاب. ثم الطلب لأن تلك الرسائل لم تخل غالبا من طلب أو رجاء، وأخيرا تأتى خاتمة الخطاب.

ويلاحظ أنه لم يقدر لمجموعة من مجاميع الرسائل فى ذلك العصر أن تظل مستعملة مدة طويلة، لأن ذوق الكتابة يرتقى ويتغير بتقدم الزمن وتغير الظروف والأحوال، هذا إلى أن الألقاب وما يرتبط بها من تحيات لم تظل ثابتة على وضع معين. ومع هذا ، فقد اعتاد كل كاتب أن يبنى على تراث أسلافه، مع استحداث أو تغيير ما يقتضيه اختلاف الزمان والمكان والظروف.

---

(٤٧) هيلين Helen فى الأساطير اليونانية أميرة حسناء فاتنة الجمال وباريس Paris أمير هام بها حبا.

وهناك ضرب آخر من ضروب النثر لا نستطيع أن نتخذه مقياسا للبلاغة فى ذلك العصر. ونقصد بهذا النوع الخطب والمواعظ الدينية التى خلف لنا القرن الثانى عشر بضع مئات منها. على أن هذه الخطب تتصف دائما بطابع المحافظة فى منهجها وطريقتها، بمعنى أنها تتبع دائما طريقة العصور السابقة ومنهاج السلف، دون أن نضيف شيئا جديدا يفيدنا فى دراسة الحياة الفكرية لذلك العصر.

أما القصة الصغيرة التى كان لها شأن فى الأدب فى جميع العصور، فلا نجد منها مجموعة كبيرة متنوعة ترجع إلى ذلك العصر. وتمدنا هذه القصص بقسط كبير من المعلومات عن الأوهام والخرافات والمعتقدات الباطلة والعادات والأوضاع الاجتماعية السائدة عندئذ. وقد جمعت من هذه القصص عدة مجموعات فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ولو أن معظمها جمع لأجل إدخال التسلية والترفيه على الأمراء والملوك(٤٨).

الشـــعر:

أما فى ميدان الشعر اللاتينى، فإن القرن الثانى عشر شاهد نشاطا كبيرا، وبخاصة فى فرنسا. وحسب ذلك أن ظهرت فيه مجموعة من فطاحل الشعراء مثل ماربود Marbode ، وبودرى Baudry de Bourgueil وهلدبير Hildebert de Lavardin، وآدم Adam de Saint Victor وغيرهم(٤٩).

ويلاحظ أن الشعر اللاتينى الذى تمخضت عنه نهضة القرن الثانى عشر أخذ مكانا وسطا بين شعر نهضتى القرن التاسع والقرن الخامس عشر، سواء فى طابعه وصفاته أم فى وضعه الزمنى، فهو أكثر كما وأعظم تنوعا من شعر العصر الكارولنجى، وفى الوقت نفسه لم يتعرض لمنافسة خطيرة من الشعر المنظوم باللغات القومية الناشئة كما حدث فى عصر النهضة الإيطالية، حقيقة أن الحقبة الأخيرة من القرن الثانى عشر شهدت نموا سريعا للشعر المنظوم باللغات القومية. ولكن هذا اللون الجديد من الشعر لم يقف عندئذ موقفا عدائيا من الشعر اللاتينى، كما حدث فى القرن الخامس عشر. فاللغة اللاتينية كانت لاتزال فى القرن الثانى عشر اللغة الطبيعية

(48) Haskins: The Renaissance, p. p. 142 - 148.

(49) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 205.

المألوفة فى نظم الشعر، كما ظل الشعر اللاتينى يصادف هوى عظيما فى نفوس كثيرين حتى استخدموه فى تصوير كافة مظاهر الحياة المعاصرة.

ولم يقترص الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر على محاكاة النماذج الكلاسيكية التقليدية فحسب، وإنما نجح أيضًا فى استحداث نماذج وأوزان جديدة. وهكذا نستطيع أن نقرر أن نهضة الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر لم تكن مجرد حركة إحياء، ولم تقف عند بعث الأساليب والموضوعات القديمة المعروفة فى الشعر اللاتينى، وإنما جددت فى هذه الأساليب واستطاعت أن تعبر عن أوجه الحياة والنشاط فى العصر الجديد. ولعل هذا هو الذى جعل من القرن الثانى عشر آخر العصور التى ازدهر فيها الشعر اللاتينى واتصف بالصفة الدولية، لأن ظهور اللغات القومية بعد ذلك جعل لكل بلد لغته التى تعبر عن أدبه، نثره وشعره(٥٠).

وأول أثر يتركه ذلك التراث الضخم من الشعراللاتينى الذى خلفه القرن الثانى عشر هو شعور الحيرة والربكة. ولم يحاول أحد حتى الآن يجمع ذلك الشعر كله فى مجموعة واحدة، وإذا تم ذلك فى يوم من الأيام، فإن هذا التراث سيشغل من المجلدات أضعاف ما شغله شعر العصر الكارولنجى، ذلك أن شعراء القرن الثانى عشر لم يتركوا موضوعا أو فنا من فنون الشعر إلا طرقوه، فنظموا فى التاريخ وشعر الملاحم، وفى الأساطير وقصص الإنجيل، وفى الحكم والأخلاق، وفى الرثاء والتهنئة، وفى المديح والهجاء. وفى الغزل ومجالس الشراب، هذا عدا الشعر الغنائى والفكاهى والتعليمى وغير ذلك من ألوان الشعر.

ومن الواضح أن هذه المادة الضخمة فى حاجة إلىْ تبويب، ولكن المشكلة هى أننا لا نجد أساسا صالحا لهذا التبويب. فإذا نظرنا إلى الاصطلاحات التقليدية القديمة، وهى تقسيم الشعر إلى شعر ملاحم Epic Poetry وشعر غنائى Lyric وشعر تمثيلى Dramatic وحاولنا اتخاذ هذه الاصطلاحات أساسا للتقسيم، لوجدنا أنها لا تفى بالغرض ، فضلا عن أن هناك ألوانا من الشعر يصعب وضعها تحت أحد الأقسام الرئيسية السابقة. وإذا حاولنا أن نتخذ الجغرافيا الإقليمية أساسا للتبويب، لما أمكن ذلك

(50) Haskins: The Renaissance, p. 154.

لأن اللغة اللاتينية كانت هى السائدة فى جميع بلدان غرب أوربا، وجل هذا التراث الشعرى باللاتينية مما يصعب معه فصل إنتاج بلد عن بلد آخر، لا سيما وأن المقطوعة الواحدة كانت أحيانا ترددها الألسن والأقلام فى عدة بلدان متباعدة، كذلك لايمكن الاعتماد على التاريخ، لأن الفترة الزمنية لنهضة القرن الثانى عشر محدودة، فضلا عن ان الاتجاه السائد فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر غلبت عليه الرغبة فى محاكاة نماذج الشعر القديمة فى طابعها الدينى أو الدنيوى وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال.

فإذا أردنا دراسة خصائص الشعر اللاتينى ومميزاته فى القرن الثانى عشر، فإن أول ما نلاحظه هو تأثره بالشعر الرومانى القديم. ويبدو هذا الأثر واضحا فى أشعار هلدبير Hildebert الذى كان أسقف ليمان Le Mans بين سنتى ١٠٩٧- ١١٢٥ وبعد ذلك رئيس أساقفة تور حتى وفاته سنة ١١٣٣، ويعتبر هلدبير أعظم شعراء عصره، إذ عالج كثيرا من موضوعات الشعر المعروفة كالرثاء والنقد والمديح والموضوعات الدينية والأخلاقية، ويتضح الطابع الرومانى فى شعره، لا سيما فى قصيدتيه اللتين نظمهما عن روما القديمة، وأبدى فيهما شعوره العميق نحو روما الخالدة ونحو روما المعاصرة مركز البابوية، بطريقة مثيرة وأسلوب خلد اسمه فى التاريخ[٥١].

وثمة مظهر آخر امتاز به الشعر فى القرن الثانى عشر هو تأثره بالطابع الدينى. وطبيعى أن يكون ذلك شأن الأدب فى عصر امتاز بالنشاط الدينى الوفير، والحماسة الشديدة التى ظهرت واضحة فى الحروب الصليبية. ولكن هذا النشاط فى الأدب الدينى لم يكن مظهره ابتكار ألوان جديدة، بقدر ما كان إحياء المظاهر القديمة فى صورة أكثر رقيا وتقدما، ذلك أن الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر تناول قصصا من الإنجيل وسير القديسين، وفضائل المتدينين، فضلا عن بعض المسائل الدينية مثل المعصية والتوبة، والموت والحساب، وغير ذلك من الموضوعات التى تمس الحياة الدينية من قريب أو بعيد. والشطر الأكبر من ذلك الشعر الدينى الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر لا نعرف ناظميه، وإن كان بعضه ينسب إلى ابيلار وماربود. أما ابيلار

(51) Haskins: The Renaissance, p. 146.

(١٠٧٩ – ١١٤٢) فكان شاعرا مجيدا، إلى جانب كونه فيلسوفا ومن رجال الدين، وبالإضافة إلى شعره الدينى، نظم كثيرا من الأغانى الشهيرة المحبوبة التى تدل على مواهبه المتعددة(٥٢). وأما ماربود Marbode (١٠٣٥ – ١١٣٢) فينسب إليه بعض الشعر الدينى، وفى الوقت نفسه نرى له أشعارا يتغنى فيها بالشباب ويمجد الحب والنساء، وأشعارا أخرى يبدى فيها سخطه على الشيخوخة (٥٣). وهكذا يبدو لنا التداخل بين الشعر الدينى والشعر الدنيوى فى القرن الثانى عشر. ولم يقتصر هذا التداخل والتقارب بين النوعين على وجودهما معا على وزن واحد وفى مجلد واحد، وإنما المهم هو أن فردا واحدا استطاع أن ينظم النوعين ويتغنى بهما، مما جعل تأثير الشعر الدينى والموسيقى الدينية فى الشعر الدنيوى والموسيقى الدنيوية عظيما فى ذلك العصر.

أما عن الشعر التمثيلى Dramatic فكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الشعر الكلاسيكى القديم، لأن التمثيل قام فى العصور الوسطى على أسس دينية وقواعد مسيحية تلائم الأوضاع السائدة فى تلك العصور، هذا وإن كان قد تأثر فى بعض الأحايين بالأحوال الثقافية والاجتماعية المعاصرة، والواقع أن الأنواع الثلاثة الرئيسية من التمثيليات التى عرفتها العصور الوسطى ارتبطت بالنهضات الثلاث التى شهدتها تلك العصور. فالتمثيليات الغامضة أو تمثيليات الأسرار (Mystery) ارتبطت بالنهضة الكارولنجية، وهذا النوع من التمثيليات يستمد موضوعاته من القصص التاريخى الوارد فى الإنجيل، أو من حياة القديسين والشهداء. وتمثيليات المعجزات Miracle Plays ترتبط بنهضة القرن الثانى عشر، وتقوم أيضًا على أساس معلومات تاريخية مستمدة من الإنجيل، أو بعض التجارب التى مر بها القديسون، والتى تدل على بركتهم وقوة إعجازهم. أما التمثيليات الأخلاقية Morality فنشأت عن النوعين السابقين وارتبطت بنهضة القرن الرابع عشر فى فرنسا وإنجلترا(٥٤).

ويهمنا من هذه الأنواع الثلاثة تمثيليات المعجزات التى ازدهرت فى القرن الثانى

---

(52) Taylor: Medieval Mind, vol. 2, p. 236.

(53) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 206.

(54) Haskins: The Renaissance, p. p. 170 - 174.

عشر، والتى تناولت القديسين وما فى حياتهم من دلائل الإعجاز ، حتى أصبح الاصطلاح الشائع لهذا النوع من التمثيليات الدينية هو Le Drame Liturgique (٥٥) ومن الواضح أن هناك قصصا كثيرا نسب إلى القديسين بقصد إظهار معجزاتهم وبركاتهم، مما صار يصلح فى النهاية موضوعا لشعر تمثيلى شيق(٥٦) وقد بدأت هذه الأشعار أولا على هيئة ملاحم تسرد ما يحدث للحجاج وهم فى طريقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة، وبعد ذلك أخذت تتعرض للقديسين وسيرهم ومعجزاتهم نظرا لأن ذكرى هؤلاء القديسين كثيرا ما ارتبطت بالكنائس المنتشرة فى طول أوربا وعرضها، والتى كان لابد للحجاج من المرور عليها أو النزول بها. وترتب على ذلك ظهور ما يعرف باسم مآثر القديسين Gestes of Saints وهى مقطوعات لم تلبث أن تحولت إلى تمثيليات شعرية منذ أواخر القرن الحادى عشر(٥٧).

كذلك يعتبر القرن الثانى عشر- أو بتعبير أدق الفترة الواقعة بين سنتى ١١٢٥ – ١٢٣٠ ـ عصرا ذهبيا للشعر الغنائى الدنيوى Secular Lyric Poetry، وهو الذى يطلق عليه فى اللاتينية اسم الشعر الجولياردى Goliardic Poetry ، ويمتاز هذا الشعر بالفكاهة والطرافة وخفة الروح، مع الابتكار والتجديد والتنوع، وقد انتشر وشاع فى كثير من بلدان غرب أوربا، ولكن مركزه الرئيسى ظل فى شمال فرنسا، وبصفة خاصة بين طلبة الجامعات الناشئة الذين أصبحت لهم مكانة كبيرة فى الشعر اللاتينى الغنائى(٥٨).

ومن أعلام الشعراء الجوليارديين (Les Goliardes) فى القرن الثانى عشر اثنان، يلقبان فى المراجع ببعض الألقاب الكنسية. أما الأول ـ واسمه هيو الأورليانى Hugues de Orleans (١٠٩٠ – ١١٥٠) فنعلم عنه أنه درس وقام بالتدريس فى باريس، ثم رحل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه وأخذ يقاسى من مرارة العيش، وإن كانت هذه المصائب تسببت فى الكشف عن مواهبه وحدة ذكائه وخفة روحه، وقد أدى توسع هيو وتعمقه فى الدراسات الكلاسيكية إلى إحاطته بأوزان الشعر

---

(55) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 208.

(56) Délehaye: Les Passions des Martyrs, p. 287.

(57) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. p. 211 - 216.

(58) Symonds: Wine, Women and Songs.

اللاتينى، حتى أصبح من أظهر الشعراء الذين أنجبتهم العصور الوسطى حتى القرن الرابع عشر بفضل غزارة شعره ورقته وتنوعه(٥٩) أما زميل هيو فى ممارسة فن الشعر الفكاهى الغنائى فنجهل اسمه الحقيقى، وإن كان يسمى فى المراجع باسم الشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta (٦٠)، وكل ما نعرفه عنه أنه كان من أتباع رينولد رئيس أساقفة كولونيا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر، كما كان رئيس جوقة المرتلين فى بلاط فردريك بربروسا، وأعتمد فى معاشه على المنح التى تقاضاها من أسقفيته، ولما طلب إليه أن ينظم فى ظرف أسبوع قصيدة عن حملات الإمبراطور فردريك بربروسا على إيطاليا، شكا من أنه لا يستطيع أن ينظم ومعدته خاوية، وقال بأن نوع الشعر الذى ينتجه يتلون دائما بصنف الخمر الذى يشربه!. ومهما يكن الأمر فإن مهارة هذا الشاعر المجهول، وروعة إنتاجه جعلت منه زعيما لتلك المدرسة، مدرسة الشعر الغنائى الفكاهى(٦١).

وتدور معظم موضوعات الشعر الجولياردى حول الخمر والنساء والغناء(٦٢). ونظرة إلى بعض قصائد هذا الشعر ترينا أن فكرته عن الحياة تكاد تكون وثنية الطابع، فهى ترمى إلى الاستمتاع بملاذ الدنيا ومباهج الحب والشباب والجمال، والبعد عن قيود الدين وتزمت رجاله. فالخلاعة والمجون يعبران عن الاتجاه الظاهر فى هذا الشعر على الرغم مما فيه من قوة وحماسة(٦٣).

وقد اتخذ الشعراء الجوليارديون البابوية والهيئات الدينية والمنظمات الديرية محورا لسخريتهم وفكاهتهم. وبلغ من تماديهم وتطاولهم أن ركنا من أركان الدين لم يسلم من هزلهم وسخريتهم، حتى المسيح والصلوات والطقوس المقدسة لم تكن بمنجاة من عبثهم(٦٤)، وظل هذا الشعر الذى جرح الكنيسة وشهر برجالها قائما، تردده الألسن منذ القرن الثانى عشر إلى ما بعد عصر النهضة الإيطالية، عندما اعتمد عليه بعض

(59) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 207.

(60) Idem: p. 227.

(61) Haskins: The Renaissance, p. 281.

(62) Symonds: op. cit., p. 191.

(63) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 207.

(64) Symonds: op. cit., p. 191.

دعاة حركة الإصلاح الدينى (البروتستانت) فى القرن السادس عشر لإثبات مفاسد الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى، وذلك عن طريق جمع تلك الأشعار ونشرها، لذلك يرى بعض الباحثين فى الأشعار الجوليادرية رباطا يربط بين نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر، على أساس أن هذه الأشعار لم تكن سوى محاولة لتحطيم القيود التى فرضتها الكنيسة على تفكير الناس فى العصور الوسطى، ومظهرا من مظاهر التحرر الفكرى الذى ظهر بعد ذلك واضحا فى القرن الخامس عشر، كما أن ما فى هذه الأشعار من تطاول على رجال الدين وتهكم على مفاسد البابوية إنما هو نذير بحركة الإصلاح الدينى التى قامت بعد ذلك بقرون قليلة[٦٥]. وحسب الشعراء الجوليارديين فى القرن الثانى عشر أنهم صوروا كبار رجال الدين فى صورة المتغطرسين الجشعين القساة، الذين يستخدمون نفوذهم فى تحقيق مآرب شخصية، كما وصفوا البابا بأنه شره محب للمال، ومن ذلك أنهم قالوا بأن المال أساس الشر والفساد فى الحياة ، ثم اتبعوا ذلك بقولهم أن البابوية اشتقت اسمها من جمع المال لأن لفظ Pope أصله Papa ، وهذه الكلمة الأخيرة ـ فى تفسيرهم ـ محرفة عن !Pay !Pay[٦٦].

ويلاحظ أن كثيرا من أشعار الجولياردين الهزلية اتخذت قالب حوار بين الخمر والمال، أو بين رجل الدين الصغير الفقير ورجل الدين الكبير الثرى، أو بين رجل الدين المنتفخ البطن المكتظ الجيب وطالب العلم الجائع الخالى الوفاض. وخير مجموعة أمامنا من هذه الأشعار هى تلك التى ترجمها سيموند إلى الإنجليزية[٦٧]. كذلك يلاحظ أن الشعراء الجولياردين لم ينتموا إلى مدرسة خاصة أو مؤسسة بعينها، وإنما ظلوا يتنقلون من مدرسة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، ينشدون أشعارهم للحصول على ما يسد رمقهم[٦٨]. وكان معظم هؤلاء الشعراء من طلاب العلم والطلبة المتجولين Wandering Students الذين ازدادت أعدادهم وانتشرت أغانيهم فى عصر الحروب الصليبية بالذات[٦٩].

(65) Idem: p. 7.

(66) Haskins: The Renaissance, p. 187.

(67) Symonds: Wine, Women and Songs, p. p. 50 - 189.

(68) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 207.

(69) Symonds: op. cit., p. 8.

وبعد، فإننا إذا واصلنا كلامنا عن الشعر فى القرن الثانى عشر سنصل فى النهاية إلى مرحلة لا نستطيع عندها أن نقصر كلامنا على الشعر اللاتينى وحده، مع إهمال التيار الجديد الذى جاء نتيجة لظهور اللغات والأشعار القومية. فالشاعر اللاتينى كلما تقدم به الوقت فى القرن الثانى عشر، ألفى نفسه أمام مشكلة عويصة هى الربط بين تلك اللغات الناشئة ليجعل أشعاره مقبولة أمام المتكلمين بتلك اللغات(٧٠). ولعل هذا هو الذى أدى إلى ظهور لون جديد من الشعر فى القرن الثانى عشر يعرف «بنظم المكرونة Macaronic Rhymes» وألفاظه خليط من اللاتينية واللغات القومية الجديدة(٧١).

ويرى بيرين أن النهضة الأدبية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر لا تتضح فى الأدب اللاتينى وحده، وإنما تبدو أيضًا فى آداب اللغات القومية، وبخاصة الأدب البروفنسالى، ففى أواخر ذلك القرن ظهر الشعر الغنائى البروفنسالى La Ly-rique Provencale فى جنوب فرنسا، وهو الذى أثر بعد ذلك فى شمال فرنسا ثم فى الأدبين الإيطالى والألمانى. وليس هذا مجال الكلام عن العوامل التى أدت إلى ظهور هذا النوع من الشعر(٧٢). ولكننا نكتفى هنا بالإشارة إلى أن شعراء التروبادور الذين تعهدوا هذه الأشعار وتغنوا بها، هم الذين علموا شعراء غرب أوربا أساليب التغنى بالغزل العفيف. وأول من نعرفه من شعراء التروبادور هو جيوم التاسع Guillaume IX (١٠٧١ – ١١٢٧)، أمير بواتيه ودوق أكوتين. وقد عاصره وخلفه كثيرون من شعراء هذه المدرسة بحيث أنه يمكن اعتبار الجزء الأخير من القرن الثانى عشر عصرا ذهبيا للشعر البروفنسالى(٧٣).

وخلاصة القول أننا نستطيع عند نهاية القرن الثانى عشر الكلام عن الأدب الفرنسى، والأدب الأسبانى، والأدب الألمانى.. مما يجعل ذلك القرن بداية عصر الانتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب القومية الناشئة(٧٤).

---

(70) Taylor: op. cit., vol. II, p. 196.

(71) Haskins: The Renaissance, p. 155.

(٧٢) انظر الباب الأخير من هذا الكتاب.

(73) Pirenne: La Civilisation Occidentale , Ps. 205 - 216, 219 - 230.

(74) Idem: p. p. 232 - 252.

التدوين التاريخى:

وثمة مظهر آخر من مظاهر النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر، يبدو واضحا فى الكتابات التاريخية التى ازدهرت فى ذلك القرن. أما هذا الازدهار فيرجع إلى عدة أسباب، أهمها: إحياء الأساليب القديمة فى دراسة التاريخ وكتابته، فضلا عن الأحداث الهامة التى امتاز بها القرن الثانى عشر، والتى ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ: مثل الحروب الصليبية، والنزاع بين البابوية والإمبراطورية، والعداء بين إنجلترا وفرنسا، وازدهار المدن سياسيا واقتصاديا.

والواقع أننا إذا أردنا الوقوف على أصول التدوين التاريخى فى العصور الوسطى فعلينا بالرجوع إلى العصر المسيحى لا الوثنى. ذلك أن أوربا العصور الوسطى لم تستق فلسفة علم التاريخ من قيصر (١٠١ - ٤٤ ق.م) وسالوست (٨٦ - ٣٥ ق.م) وتاكيتوس (٥٥ - ١١٧م) وأشباههم، وإنما استقت تلك الفلسفة من القديس أوغسطس (٣٥٤ - ٤٢٠) والمطران أبوزيبوس Eusebius (٢٦٥ - ٣٢٠). ومهما يكن الأمر فقد ازدهرت فى القرن الثانى عشر الأنواع الثلاثة من الكتابات التاريخية التى عرفتها العصور الوسطى. وهى السير Biographies والحوليات Annals ، والوقائع Chron-icles . ولكن إذا كان القرن الثانى عشر قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة. فإنه استأنفها على نحو جديد من الابتكار والحيوية، يتفق مع روح النشاط والتجديد التى امتازت بها نهضة ذلك القرن.

ففى كتابة السير نجد أن العصور الوسطى بوجه عام حرصت على أن تظهر سير القديسين فى قالب مدح وثناء، بحيث يبدون فى ثوب أرباب المعجزات والكرامات، واستمر هذا الأسلوب متبعا فى القرن الثانى عشر، فدونت سير بعض القديسين السابقين من جديد وفقا لمقتضيات المناسبات والظروف، كما كتبت تراجم لقديسى القرن الثانى عشر أنفسهم، وعلى رأسهم القديس الشهيد توماس بكت St. Thomas Becket الذى قتل سنة ١١٧٠ بتحريض من بلاط هنرى الثانى ملك إنجلترا، فنظر إليه المعاصرون على أنه شهيد الكنيسة فى صراعها مع السلطة العلمانية. ولم تلبث أن احتلت سيرة القديس بكت مكانا بارزاً فى الدراسات الأدبية، سواء فى الكتابات اللاتينية أو الفرنسية أو الإيسلاندية. وجميع هذه الكتابات لم تخل من كثير من

المعجزات التى نسبت إلى ذلك القديس، مما جعل قبره فى كانتربورى قبلة الحجاج.

ولم تقتصر كتابة السير فى القرن الثانى عشر على القديسين، وإنما شملت أيضاً تراجم الشخصيات الشهيرة، من رجال الدين وغير رجال الدين . ويلاحظ على هذه التراجم أنها اهتمت فقط بالمظاهر السطحية، وأهملت التعرض للجوهر ولشخصية المترجم له، كذلك انتشر فى ذلك العصر نوع من كتابة السير عرف باسم «الكتالوجات»، ولايتناول هذا النوع سيرة فرد معين وإنما يضم تراجم القديسين والرهبان والنبلاء فى إقليم أو مكان محدد. وهكذا شهد القرن الثانى عشر نشاطا ملحوظا فى كتابة السير، حتى أن الكاردينال بوزو Bozo كتب فى روما كتابا فى سير كبار رجال الكنيسة السابقين والمعاصرين، معتمدا فى ذلك على وثائق الأرشيف البابوى. ومن الصعب وضع خط فاصل بين تراجم أمراء الاقطاع ورجال الدين فى ذلك العصر، لأن كبار رجال الدين تمتعوا بصفات الاقطاعيين، كما أن معظم تراجم الأمراء والحكام قام بتدوينها رجال الدين. وخير مثل لتراجم الأمراء الاقطاعيين التى دونها رجال الدين ما كتبه القديس لامبرت Lambert عن أمراء مقاطعة جوين Guines قرب نهاية القرن الثانى عشر. أما ذلك النوع من التراجم الذى يترجم فيه الفرد لنفسه ويكتب سيرته الذاتية بيده (Autobiography) فلانجد منه سوى القليل النادر فى القرن الثانى عشر. وينحصر معظم هذا القليل فيما كتبه الديريون عن حياتهم داخل أديرتهم. ومن أمثلة ذلك ما دونه شوجر Suger رئيس دير سانت دينس Denis فيما بين سنتى ١١٢٢ – ١١٥١ ؛ وما كتبة ابيلارد (١٠٧٩ – ١١٤٢) عن الحياة العلمية فى عصره[٧٥] .

أما النوع الثانى من الكتابات التاريخية ـ وهو الحوليات Annals ـ فقد اتصفت فى العصور الوسطى بالاقتضاب الشديد بحيث لا تتعدى الحولية ذكر السنة وأهم ما حدث فيها. فسنة ٧٠٩ شتاء قارس البرد، وسنة ٧١٠ قحط ونقص فى المحصول، وسنة ٧٢٢ فيضان مرتفع. وهكذا حتى تشمل الصفحة الواحدة تاريخ عشرين سنة تقريبا، ولكن بمرور الزمن نمت تلك الحوليات بانتقالها من دير إلى آخر، مما أدى إلى زيادة الحواشى وتعدد التعليقات على حوادث كل سنة. ونلاحظ على الحوليات التى دونت

(75) Haskins: The Renaissance, p. p. 245 - 260.

فى الأديرة والكتدرائيات أن كلا منها يحمل الطابع المحلى الخاص الذى يعطى صورة صادقة للحياة فى المكان والزمان الذى كتبت فيه الحولية. ولم تختلف حوليات القرن الثانى عشر كثيرا عن تلك التى كتبت فى الحقبة السابقة من العصور الوسطى، فأهم ما عنيت به الحوليات فى ذلك القرن هو ما يتعلق بانخفاض مياه الأنهار، أو زيادة الفيضانات، أو انتشار الأوبئة والمجاعات، أو وفاة بعض كبار رجال الدين، ويلاحظ على مادة هذه الحوليات أنها أخذت تزداد غزارة بازدياد نشاط الرحلات وما ترتب على ذلك من نقل الأخباروتبادلها. كذلك نلاحظ أنه كلما تقدم الزمن بالقرن الثانى عشر أخذ التاريخ يخلع عن نفسه الصفة المحلية الضيقة لتزداد صفته العالمية، وذلك نتيجة لنشاط الاتصال التجارى من ناحية ولازدياد أهمية بلاط الملوك من ناحية أخرى.

أما النوع الثالث من الكتابات التاريخية فيشمل كتب الوقائع والحوادث Chron-icles التى تعتبر الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخى فى القرن الثانى عشر؛ عندما أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمى وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التى لازمتها فى العصور الوسطى السابقة. وخير مثل لدينا من الكتب التى تناولت الأحداث التاريخية العالمية فى القرن الثانى عشر كتاب روبرت تورجنى Robert Torigini الذى أستمر يكتب تاريخه حتى وفاته فى دير سانت مايكل سنة ١١٨٦. ولم يقف روبرت هذا عند حد معالجة الحوادث المحلية المتعلقة بالدير وكنيسته وأفراده، بل تخطى ذلك إلى العالم الخارجى وإلى ما حدث فى البلاد الأخرى البعيدة، ومن الواضح أن روبرت كان يلتقط الأخبار التاريخية من الزوار الذين يترددون على الدير فى تلك البقعة النائية من جنوب غرب إنجلترا، حتى جاء كتابه فى نهاية الأمر حاويا لكثير من الأخبار عن أسبانيا وصقلية وبلاد الشام، فضلا عن أخبار مملكة النورمان فى إنجلترا وصلب القارة، ومن كتاب هذا النوع من التدوين التاريخى روبرت الأوكسرى Robert of Auxerre (١١٦٥ – ١٢١٢) وهو مؤرخ فرنسى ارتبط بدير مارين St. Marien فى أوكسر Auxerre، وقد شرع ـ بناءا على تكليف من مقدم ذلك الدير ـ فى كتابة تاريخ عام يغطى الفترة من بدء الخليقة حتى سنة ١٢١١، وأهم أجزاء ذلك التاريخ الفترة التى عاصرها الكاتب بين عامى ١١١١– ١٢١١، وتمتاز بالجدة وصدق المعلومات.

وهناك مثل آخر لهذا النوع من الكتابات التاريخية يتمثل فيما كتبه أوردريك فيتاليس Ordericus Vitalis أحد رجال الدين النورمان فى شمال غرب فرنسا، حيث أقام فى دير سانت أفرول St. Efroul . ويبدو أن سعة اطلاع المؤلف وأحاطته بكثير من الأخبار مكنته من كتابة تاريخ حافل، مبتدءا بقيام المسيحية،وحاويا لأخبار متنوعة عن صقلية والشرق ونورمنديا وإنجلترا، حتى سنة ١١٤١ . ويعتبر هذا الكتاب أعظم مؤلف تاريخى شهدته فرنسا فى القرن الثانى عشر. أما الأسقف أوتو المتوفى سنة ١١٥٨ ، فيرجع إليه الفضل فى إكساب التاريخ مسحة فلسفية فى القرن الثانى عشر، ذلك أنه عرف عن أوتو هذا أنه مؤرخ وفيلسوف علاوة على صفته الدينية، وكان أوتو عما للإمبراطور فردريك بربروسا، فساعدته صلته بالأسرة الإمبراطورية فى الوقوف على كثير من مجريات الأمور فى عصره، كما صحب بعض الحملات الإمبراطورية إلى روما وبيت المقدس، فوصف تلك الحملات وصف شاهد عيان(٧٦) .

كذلك تبدو صورة التقدم الحضارى والتطور السياسى الذى أحرزته أوربا فى القرن الثانى عشر فى الكتابات المعاصرة التى عالجت تاريخ الملوك وحياتهم فى شىء من التفصيل، وأول ما نلاحظه على الكتابات التاريخية التى دونت فى بلاط الملوك هو الاتجاه العام نحو البيروقراطية وتركيز السلطة. وقد تقدمت هذه الكتابات بصفة خاصة فى إنجلترا بفضل رعاية ملوكها النورمان، واشهر مؤرخى انجلترا فى ذلك العصر جيوم دى مالسبورى (١٠٩٥ - ١١٤٣) Guillaume de Malesbury الذى كتب تاريخ ملوك إنجلترا De Gestis Regum Anglorum كذلك كتب جودفورى دى مونموث Goeffory de Monmouth (١١٠٠ - ١١٥٤) تاريخا هاما لملوك بريطانيا Historia Regum Britanniae (٧٧) .

ولم تقف الكتابات التاريخية فى القرن الثانى عشر عند حد الموضوعات السابقة، بل تناولت أيضاً الحوادث ذات الأهمية الخاصة فى نظر المعاصرين. مثل حملات فردريك الأول على إيطاليا، وانتشار المسيحية شمالا فى سكندناوة، وشرقا بين العناصر السلافية، وجنوبا على حساب المسلمين فى أسبانيا وصقلية. كذلك تناولت الكتابات

---

(76) Haskins: The Renaissance, p. 241.

(77) Pirenne: La Civilisation Occidentale , p. 211.

التاريخية فى ذلك القرن الحروب الصليبية، ومن ذلك وثيقة Gesta Francorum التى لا يعرف مؤلفها والتى تعتبر أعظم مصدر تاريخى للحملة الصليبية الأولى، هذا عدا ما كتبه وليم الصورى William of Tyre فيما بين سنتى ١١٦٩ - ١١٨٤ عن مملكة بيت المقدس وعن الحضارة اللاتينية بالشرق.

وأخيرا نختتم هذا الموضوع بالإشارة إلى أن الاتجاه العام نحو استخدام اللغات القومية الناشئة فى كتابة التاريخ ظهر قويا فى القرن الثانى عشر، فى فرنسا وألمانيا والبلاط الأنجلو نورمانى بإنجلترا. ولم يكد يختتم القرن الثانى عشر إلا وكانت كتابة التاريخ باللغات القومية قد غدت شيئا مألوفا. وترجع أهمية هذه المسألة إلى أن عدم كتابة التاريخ باللاتينية ـ التى ظلت لغة الكنيسة كما سبق ـ ، وكتابته باللغات القومية، ساعد على الحيلولة دون احتكار رجال الدين للكتابات التاريخية، وجعل هذا النوع من الكتابات أمرا دنيويا شعبيا. وهكذا أخذ المؤرخون يخاطبون الشعوب بلغاتها ويكتبون لها بألسنتها، وبالتالى أصبحوا يهتمون بالأمور والمسائل والأخبار التى تهم الشعوب وتعنى الرأى العام.

القانون والتشريع:

أما ميدان الدراسات القانونية، فكان من أعظم الميادين التى عبرت عن النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر. وفى هذا الميدان بالذات نجد تأثير الرومان فى العقلية الأوربية الغربية ظل عظيما، حتى قال أحد الباحثين أن الإقبال على الدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر لم يكن سوى مظهرا لرغبة المعاصرين فى الاحتفاظ بالروابط التى تربطهم بالعالم الرومانى القديم(٧٨) . والمعروف أن الرومان القدماء نبغوا فى التشريع، مما دفع فرجيل إلى القول بأن الرومان كانوا حكاما ومشرعين أكثر منهم فلاسفة وأدباء. كذلك ذكر كاتب محدث أن روما غزت العالم ثلاث مرات: مرة بجيوشها ، ومرة بكنيستها، ومرة بقانونها. ونستطيع نحن أن نضيف أن الغزو الأخير كان عقليا وفكريا وأنه تم بعد أن سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة وزالت من الوجود(٧٩) .

---

(78) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 274.

(79) Haskins: The Renaissance, p. 193.

والواقع أن قانون الرومان هو خير ما يعبر عن عقليتهم وتفكيرهم. ولذا فإن إحياء القانون الرومانى يمثل ركنا أساسيا فى أية نهضة رومانية الطابع. وفيما يتعلق بالقرن الثانى عشر بالذات، شهد ذلك القرن نشاطا ملحوظا فى إحياء الدراسات القانونية، حتى اعتبر أهم العصور فى تاريخ القانون منذ العصر الرومانى القديم. وربما ساعد على ذلك اشتداد الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى ذلك القرن، مما أدى إلى الاهتمام بالدراسات القانونية لحاجة كل فريق من الفريقين المتنازعين إلى دعم مركزه على أسس قانونية واضحة(٨٠).

وجدير بالذكر أن حركة إحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر لم تكن مجرد بعث نصوص قديمة مهملة، وإنما كانت إحياءا وبعثا للتشريع فى طابع جديد يمتاز بالنشاط ووفرة الإنتاج. وهنا يصح أن نلاحظ أن دراسة القانون الرومانى لم تتوقف فى غرب أوربا طوال العصورالمظلمة. ففى روما وجدت مدرسة للقانون الرومانى ظلت قائمة إلى ما بعد تخريب المدينة على أيدى النورمان سنة ١٠٨٤. كذلك وجدت مدارس أخرى للقانون فى بافيا ورافنا(٨١). ولكن يبدو أن هذه المدارس لم يكن لها من النشاط ما يكفى لوقف تيار القوانين العرفية التى انتشرت فى أوربا العصور الوسطى، والتى استمدت أصولها من عادات الشعوب الجرمانية وتقاليدها. وعلى هذا الأساس لم تقم الدراسات القانونية فى العصرين الجرمانى والاقطاعى على أسس تشريعية علمية بقدر ما قامت على عادات إقطاعية وتقاليد قديمة بالية. وهكذا أصبحت العادات والتقاليد والعرف هى التى تحدد كل شىء فى المجتمع الغربى، فى حين اختفى التشريع العلمى بزوال الإمبراطورية الرومانية، هذا وإن ظلت بعض آثار هذا التشريع باقية عند اللمبارديين فى شمال إيطاليا فى القرن الحادى عشر، كما سبق أن أشرنا (٨٢).

وإذا كان القانون الرومانى لم يندثر كلية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، فإن هذا القانون ظل حيا فى صورتين: أما الصورة الأولى فتبدو فى أنه استمر القانون

(80) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 130 - 131.
(81) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 275.
(82) Vinogradoff: Roman Law in Medieval Europe, p. 18 & Rashdall, op. cit., vol. 1, p. p. 99 - 101.

التقليدى للشعوب الرومانية، حتى تلك التى خضعت لبعض عناصر الجرمان. وحسبنا أن كثيرا من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا ـ مثل ممالك القوط الشرقيين والقوط الغربيين والبرجنديين ـ أقتبست تشريعاتها من مجموعة القوانين الرومانية التى جمعها ثيودسيوس الثانى Theodosius II إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٣٨[٨٣]. ونخص بالذكر المجتمعات القوطية، سواء القوط الشرقيين أم الغربيين، لأن القوط عموما احتكوا بالإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع، أى فى وقت كانت تلك الإمبراطورية على جانب نسبى من النفوذ - الحضارى على الأقل ـ ، وتستطيع أن تؤثر فى الأمم المجاورة لها[٨٤]. وطبيعى أن أهمية القانون الرومانى عظمت فى البلاد التى غلب عليها العنصر الرومانى، وازدادت فيها كثافة الأهالى الرومان مثل بعض أجزاء إيطاليا وجنوب فرنسا، حقيقة أنه لم يرجع إلى مثل هذه القوانين المكتوبة فى الممالك الجرمانية سوى المتعلمين ورجال العلم، ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا التراث من القوانين الرومانية ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى[٨٥].

أما الصورة الثانية التى حافظت على تراث القانون الرومانى فى أوربا العصور الوسطى فهى مجموعات جستنيان العظيم إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ - ٥٦٥)، وقد اكتسب هذا الإمبراطور شهرة عظيمة بفضل المجموعات التى وضعها فى القانون الرومانى والتى خلدت اسمه. ففى سنة ٥٢٩ أصدر مجموعة الدساتير الإمبراطورية التى نسبت إليه (Codex Justinianus) وتشمل جميع الدساتير التى أصدرها الأباطرة السابقون فضلا عن السناتو. وفى سنة ٥٣٣ صدرت الموسوعة Digesta وتجمع خلاصة ماكتبه شراح العصر العلمى [٨٦]، وقبل صدور الموسوعة بأيام نشر جستنيان موجزا يستعمله طلاب القانون، وسمى هذا الموجز القواعد أو المبادئ Institiones ،

---

(83) Ibid.

(84) Vinogradoff : op. cit., p. 20.

(85) Idem: op. cit., p. 15.

(٨٦) يعتبر العصر العلمى أهم عصور القانون الرومانى. وهو يبدأ حوالى سنة ١٣٠ ق. م، بصدور قانون ايبوتيا الذى أدخل نظاما جديدا فى المرافعات المدنية، هو نظام المرافعات المكتوبة. وينتهى هذا العصر بحكم الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤. (انظر مبادئ القانون الرومانى للدكتور محمد عبد المنعم بدر والدكتور عبد المنعم البدراوى ـ ص ٧٩).

وبعد ذلك ظل جستنيان يصدر بين حين وآخر ما يعرف باسم المتجددات Novellae Constitiones ، وهى مجموعة القوانين الجديدة التى كانت تستجد وتصدر تباعا.

وكانت الموسوعة أهم هذه الأعمال جميعا، وهى تقع فى خمسين كتابا ينقسم كل كتاب إلى فقرات، على رأس كل فقرة بيان يتضمن اسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب والموضوع. وهكذا حفظت الموسوعة أسلوب كبار فقهاء العصر العلمى ونصوصهم وأساليب تفكيرهم، مثل بولس Paul وألبيان Ulpian وغيرهما، بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا أن ازدهار علم التشريع فى غرب أوربا أضحى متوقفا على وصول نسخة من هذه الموسوعة إليه (٨٧). وإذا كانت الأبحاث الحديثة أثبتت عدم صحة النظرية القائلة بأن القانون الرومانى ظل فى طى النسيان فى غرب أوربا فى العصور الوسطى. حتى بدأ القرن الثانى عشر واكتشفت نسخة من موسوعة جستنيان فى أمالفى(٨٨) سنة ١١٣٥ ، إلا أن هذه النظرية صحت فى تأكيد حقيقة لا شك فيها، هى أن موسوعة جستنيان بمثابة المحور الذى تبلورت حوله النهضة القانونية الجديدة فى القرن الثانى عشر.

وقد أتفق جمهرة العلماء على أن تلك النهضة القانونية فى القرن الثانى عشر ارتبطت بمدرسة بولونيا فى إيطاليا، وبالعالم القانونى أرنريوس Irnerius فى بولونيا. ذلك أن هذا العالم تمتع برعاية ماتيلدا أميرة تسكانيا التى أرادت أن تقيم فى بولونيا مدرسة للقانون تكون سندا لها وللبابوية، ومنافسة لمدرسة رافنا حليفة الإمبراطورية(٨٩). لذلك اتخذ ارنريوس بولونيا مركزا لنشاطه القانونى، فعمل بها كمدرس ومؤلف فى أوائل القرن الثانى عشر، وكتب فيها كثيرا من كتاباته القانونية، لا سيما تلك التى تدور حول موسوعة جستنيان. وإليه يرجع الفضل فى فصل القانون عن البلاغة، فجعله علما مستقلا فى دراسته، ذا طابع خاص، ولا يعتمد على الاقتباسات بقدر ما يعتمد على القوانين القديمة التى جمعها جستنيان ، وبخاصة الموسوعة التى اتخذها ارنريوس محورا لمادته. ولم تقم طريقة ارنريوس فى التدريس على الشرح فحسب، وإنما اعتمدت كذلك على المناقشة والبحث. ومع أنه لم يكن أول

(87) Haskins: The Renaissance, p. p. 196 - 197.

(٨٨) أمالفى Amalfi مدينة فى غرب إيطاليا جنوبى نابلى.

(89) Vinogradoff : op. cit., p. 36.

الشراح إلا أن الفضل يرجع إليه فى تحديد طريقتهم لعدة أجيال تالية(٩٠)، هذا وإن كان البعض يرى عدم المبالغة فى أثر أرنريوس وجهوده، لأنه من الثابت لم يكن أول أساتذة القانون فى ذلك العصر، إذ سبقه أساتذة آخرون، لا فى بولونيا فحسب بل فى بعض المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا(٩١).

ويطلق لقب الشراح Glossators على خلفاء ارنريوس لمدة قرن وأكثر من الزمان. ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثانى عشر حتى ظهر على أقل تقدير أربعة من تلاميذ أرنريوس المبرزين فى دراسة القانون هم بلجاروس Bulgarus ومارتينوس Martinus، وهوجو Hugo ويعقوب Jacobus، ويطلق عليهم اسم «الدكاترة الأربعة Four Doctors (٩٢)»، وكان الأخير أبرزهم جميعا، وبمعنى آخر كان هو خليفة أرنريوس الفعلى، وإن ظل زملاؤه الثلاثة يتمتعون بصيت واسع، ويبدو من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين للإمبراطور فردريك بربروسا(٩٣).

ومهما كان من أمر الإنتاج الأدبى لهؤلاء الشراح ومن أعقبهم فى الأجيال التالية، فإنهم اهتموا دائما بشرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات Glosses لمواده، وكانت هذه الشروح فى أول الأمر مقتضبة، لا تتعدى كلمات وألفاظا محدودة بين الأسطر، وفقا للطريقة الشائعة فى شرح الإنجيل فى ذلك العصر، ولكن بازدياد التطبيقات والتفسيرات بدأت هذه الشروح تخرج من بين الأسطر وتمتد إلى الهوامش الجانبية حتى فاقت فى طولها وكثرتها حجم النص الأصلى(٩٤). على أن الهوامش سرعان ما ضاقت هى الأخرى عن الشروح والملاحظات التى ازدادت وطالت كلما تقدم الوقت، وهنا أصبح شرح النصوص القانونية وتفسيرها يفرد له كتاب خاص قائم بذاته. يختلف طولا وقصرا حسب اختلاف الظروف والأحوال. وقد شاهد القرن الثانى

---

(90) Cam. Med. Hist., vol. V, p. p. 734 - 735.

(91) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 107 - 108.

(٩٢) استعمل لقب (دكتور) فى جامعة بولونيا فى العصور الوسطى مرادفا للقلب (أستاذ). انظر كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ـ للمؤلف ص ١٥٨.

(93) Haskins: The Renaissance, p. 201.

(94) Vinogradoff : op. cit., p. p. 46 - 47.

عشر عددا من تلك الشروح القانونية المستقلة المختلفة الألوان والأنواع، فمنها ما يتناول كتابا بالتحليل العام - ويسمى المجمل (Summa) - . ومنها ما يتناول المبادئ العامة التى تستقى من كتاب أو نص - ويسمى هذا النوع المبادئ (Brocarda) . وظلت هذه الشروح القانونية تتكاثر حتى جاء وقت قرب منتصف القرن الثالث عشر، أوشك فيه أن يختفى النص الأصلى خلفها، فشبه المعاصرون الشروح بالجراد المنتشر الذى يحجب قرص الشمس؛ بعد أن أخذ رجال القانون يوجهون جهودهم نحو شرح الشروح السابقة، ويهملون النص الأصلى.

والواقع أن الجهود التى بذلها شراح بولونيا تشكل ركنا هاما من النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر؛ وفى الوقت نفسه تحتل مكانة سامية فى تاريخ أوربا الثقافى بوجه عام. فهذه الجهود لم تقف عند حد تهذيب النصوص وتحديد معانيها، وإنما نجحت أيضًا فى تقديم تحليل لمواد القانون وتفسير لها، يقوم على أساس مناقشتها وتنفيذها، وذلك فى عصر عنى بالمنطق والأساليب المنطقية. وإذا كانت الخبرة الكافية بعلمى التاريخ وفقه اللغة قد أعوزت هؤلاء الشراح، فإن ذلك لم يكن ذنبهم بقدر ما كان ذنب العصر الذى عاشوا فيه. ويكفى أنهم فعلوا لخدم الدراسات القانونية كل ما أمكنهم أن يفعلوه[٩٥] .

ومن المهم أن نلاحظ أن حركة إحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر لم تكن مجرد نشاط وسط فراغ كبير، وإنما ارتبطت إلى مدى بعيد بالتيارات الحضارية الكبرى فى ذلك العصر . ومن هذه التيارات النشاط الاقتصادى فى حوض البحر المتوسط، لا سيما فى شمال إيطاليا. ذلك أن نشاط التجارة فى ذلك العصر تطلب وجود قوانين أكثر مرونة ورقيا من تلك النظم البدائية التى ظل يتبعها اللمبارديون. كذلك أخذ يبدو فى القرن الثانى عشر انحلال النظام الاقطاعى وانهيار أسسه، وظهر الاتجاه نحو الالتئام المركزي والاتحاد السياسى، مما تطلب قانونا عاما أوسع أفقا وأقوى أساسا من القوانين المحلية والاقطاعية التى اعتمد معظمها على العرف والتقاليد والعادات، هذا إلى أن التطور السياسى والنشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ترتب عليهما كثرة الاتصالات بين الممالك والدول. وهنا أخذ كل حاكم يعتمد على القانون

(95) Haskins: The Renaissance, p. 205.

فى تأييد موقفه وإثبات حقوقه وتدعيم وجهة نظره، مثال ذلك ما فعله الإمبراطور فردريك بربروسا أثناء نزاعه مع البابوية، إذ لجأ إلى القانون الرومانى لإثبات سمو الإمبراطورية على البابوية، ولتأييد حقوقه فى السيطرة على المدن اللمباردية. بل فى السيطرة أيضًا على الأراضى المقدسة بالشام، وهنا نلاحظ أن القانون الرومانى اتجه دائما نحو تأييد حكم الأباطرة المطلق، ولذلك وقف جمهرة الشراح فى ذلك العصر إلى جانب الإمبراطورية وأيدوا مبدأ سموها على البابوية، هذا وإن كان يروى أن بعض الشراح ـ مثل بلجاروس– عارض زميله مارتينوس فى هذا الرأي وطالب ـ فى حضرة فردريك بربروسا ـ بتحديد سلطة الإمبراطور.

وإذا كانت بولونيا قد أصبحت المركز الرئيسى لمدرسة الشراح فى ذلك العصر، فإن كثيرا من الجامعات الأوربية الأخرى التى نشأت فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر لم تلبث أن عنيت هى الأخرى بدراسة القانون. وقد استغل رجال القانون الجامعيون ما تمتعوا به من نفوذ عظيم فى تقويض العادات والتقاليد المحلية وإحلال القانون الرومانى محلها. وهكذا ظلت إيطاليا منذ القرن الثانى عشر مركزا لنشر القانون الرومانى فى أنحاء غرب أوربا. ومع أن هذه العملية لم تتم فى بعض البلاد مثل اسكتلندا وألمانيا – إلا فى القرن السادس عشر[٩٦]، إلا أن هناك بلاد أخرى مثل أسبانيا وفرنسا انتشرت فيها دراسة القانون الرومانى فى وقت مبكر عن ذلك بكثير[٩٧]. وقد تم الوصول إلى هذه النتيجة فى معظم الحالات عن طريق دراسة القانون فى الجامعات، ومنها بدأ تطبيق القانون الرومانى تطبيقا عمليا فى الحياة الأوربية. وقد ساعد على ذلك تنقل أساتذة الجامعات من جامعة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر. وعلى رأس البلاد التى انتشرت فيها دراسة القانون الرومانى فى وقت مبكر جنوب فرنسا، حيث يرجع الفضل فى قيام أول مدرسة قانونية فى مونتبليه إلى أحد شراح بولونيا الذى وصلها حوالى سنة ١١٦٠ ومات بها سنة ١١٩٢[٩٨]. أما إنجلترا فعلى العكس قاوم ملوكها تدريس القانون الرومانى مدة نصف قرن تقريبا، مما يدل على أن هذا القانون بلغ عندئذ درجة من الأهمية جعلت ملوك إنجلترا يتخذون منه

(96) Cam. Med. Hist., vol. V, p. 752.

(97) Idem: p. 784.

(98) Vinogradoff : op. cit., p. p. 59 - 68.

موقفا متشددا، ولكن على الرغم من ذلك فإن بعض رجال الدين الإنجليز درسوا القانون فى بولونيا، وإذا كان معظمهم قد انصرف لدراسة القانون الكنسى إلا أنهم اعتادوا الرجوع إلى القانون الرومانى فى مناقشاتهم وجدلهم، وهكذا نجد علما مثل حنا سالسبورى يعرف قدرا كبيرا من القانون الرومانى إلى جانب ما يعرفه فى العلوم الكلاسيكية الأخرى، فى حين كان مقدم دير بتربورو Peterborough يمتلك نسخة من القانون المدنى وبها مجموعات جستنيان. بل أن ماستر فكاريوس Master Va-carius قام بتدريس القانون فى إنجلترا شطرا كبيرا من القرن الثانى عشر . ومع ذلك فقد ظل القضاة الملكيون فى إنجلترا لايتبعون القانون الرومانى ولا يسايرون أحكامه، ولذلك استمرت دراسة هذا القانون فى تلك البلاد لا تؤدى إلى عمل أو وظيفة بالنسبة لدارسه[٩٩] . ويلاحظ أن القانون الرومانى بإنجلترا لم تكن له صفة قائمة بذاتها، ولم يكن له كيان مستقل عن القانون الكنسى. ولعل هذا الارتباط الشديد بين القانون الرومانى والقانون الكنسى هو السبب الرئيسى فى كراهية ملوك إنجلترا للقانون الرومانى وتخوفهم من انتشاره[١٠٠] .

ولم تقتصر العناية بالدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر على القانون الرومانى، وإنما شملت أيضاً القانون الكنسى، وهو القانون الذى ظل فى صراع مستمر مع السلطة السياسية الدنيوية فى مختلف أنحاء غرب أوربا، فعلى الرغم من أن القانون الكنسى بدأ بداية ضعيفة فاترة، إلا أنه سرعان ما أخذ ينمو ويتطور نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ، حتى جاء وقت فى القرن الثانى عشر استطاع أن يقف فيه جنبا إلى جنب مع القانون المدنى الرومانى، بل تخطاه فى الأهمية فى بعض الحالات[١٠١] .

ذلك أن القانون الكنسى كان قانون الكنيسة العالمية التى تطالب بالسمو والسلطة العليا، ليس فقط فى الأمور الدينية بل أيضًا فى بعض المسائل التى تعتبر من اختصاص السلطة العلمانية وحدها. وساعد على ذلك أن الكنيسة فى العصور الوسطى

---

(99) Idem: p. p. 122 - 123.

(100) Vinogradoff : op. cit., p. p. 84 - 105.

(101) Pollock: The History of English Law: vol. 1, p. 112.

غدت دولة عالمية، تخطت حدودها كافة الحدود السياسية المحلية، وتمتعت بكل ما للدولة من مقومات ؛ فلها رئيسها الأعلى وهو البابا، ولها قانونها ومشروعها وقضاؤها وسجونها، حتى أنها أصدرت أحكاما بالإعدام فى القرن الثالث عشر.

وهنا نلاحظ أن القانون الكنسى لم يتأثر به رجال الدين وحدهم دون غيرهم من أفراد المجتمع العلمانى. حقيقة أن الكنيسة فى العصور الوسطى أدعت حق السيطرة القضائية على رجال الدين وحدهم، ولكن هذا الادعاء شمل الإشراف على جميع القضايا التى تمس رجال الدين من قريب أو بعيد، سواء كان رجل الدين مدعيا أو مدعيا عليه، وسواء كانت القضية مدنية أو جنائية. هذا إلى أن إشراف الكنيسة كان تاما على القضايا ذات الصفة أو الأصل الدينى، مثل قضايا الملكية والزواج والوصايا والعقود وغيرها. ولم يسمح الملوك والحكام للكنيسة بمد نفوذها إلى هذه النواحى فحسب، بل سمحوا أيضاً بقيام دور قضاء كنسية كاملة يرأسها الأساقفة ومساعدوهم، مع الاحتفاظ للبابا فى روما بحق تأييد الأحكام التى تصدرها، أو نقضها وتغييرها(١٠٢).

وللقرن الثانى عشر أهمية كبيرة فى ذلك العصر الذى شهد ازدياد سلطة الكنيسة واتجاهها نحو المركزية، وهوما نعبر عنه بالملكية البابوية Papal Monarchy . فالأديرة غدت تحت سيطرة البابا مباشرة، كما قاومت البابوية استقلال الأسقفيات وشجعت الاعتماد على روما والرجوع إليها فى كافة القضايا. وهكذا ازداد عدد القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية من مختلف أنحاء العالم المسيحى الغربى. وكلما اتسع نطاق نشاط البابوية القضائى، كلما تطلب ذلك زيادة فى عدد المحامين والقضاة المتمرنين على أحكام القضاء الكنسى، وبالتالى صار لابد من إعداد هذه الفئات عن طريق التوسع فى تدريس القانون الكنسى، ولم تلبث هذه الظروف مجتمعة أن تطلبت تنظيم القانون الكنسى فى صورة تجعله سهل الاستعمال فى المدارس ودور القضاء.

والواقع أن مبادئ القانون الكنسى ترجع إلى عصر الإمبراطورية القديمة، ولكن الجزء الأكبر منها يرجع إلى العصور الوسطى. وتستمد أصول ذلك القانون وأحكامه من الإنجيل ما أثر عن القديسين، ثم من قرارات المجامع الدينية والمراسيم

---

(102) Cam. Med. Hist., vol. V, p. 705.

والأوامر البابوية. وجميع هذه التعاليم والقوانين الدينية كانت تنظم وترتب بين حين وآخر، ولكنها ظلت مع ذلك تعانى كثيرا من الارتباك والتناقض بسبب كثرتها وتنوعها، وقد شهد القرن الحادى عشر عدة جهود ومحاولات لتنظيم القانون الكنسى وتبويبه، ومن هذه المحاولات ما قام به برخارد Burchard أسقف ورمز، وانسلم أسقف لوكا Lucca، وأيفو Ivo أسقف شارتر(١٠٣). ولكن كما ارتبطت نهضة القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر باسم ارنريوس ، فكذلك ارتبطت نهضة القانون الكنسى فى ذلك القرن باسم جراشيان Gratian ، وهو راهب من بولونيا رتب القوانين الكنسية حوالى سنة ١١٤٢ ووضعها فى صورة منظمة واضحة. ونتج عن ذلك مجموعة القانون الكنسى أطلق عليها اسم «مراسيم جراشيان Decretum Gratiani»، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يتكون من مائة باب وباب تعالج مصادر القانون الكنسى، والقسم الثانى يشمل ستة وثلاثين قضية مختارة مع مناقشة هذه القضايا فى ضوء القوانين الكنسية، والقسم الثالث يشمل خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الدينية(١٠٤).

ولم تقف جهود جراشيان عند حد الجمع والتنظيم، وإنما تعدت ذلك إلى الشرح والإيضاح، لذلك أحرز كتابه هذا نجاحا سريعا بعد أن أصبح مرجعا للطلبة ورجال القانون، وصار فيما بعد يكون الجزء الأول من مجموعة القانون الكنسى (Corpus Juris Canonici). ولاشك فى أن النجاح الذى أحرزه كتاب جراشيان إنما هو خير دليل على شدة الحاجة إلى مثل ذلك المرجع فى القرن الثانى عشر، حتى قيل فيه أنه ظهر فى الوقت المناسب والمكان المناسب(١٠٥). وهنا نلاحظ أن القانون الكنسى ظل حتى زمن جراشيان مرتبطا إلى حد كبير بعلم اللاهوت، ولكن عندما وضع جراشيان مرجعا قائما لذاته للقانون الكنسى صارت لهذا القانون صفة مستقلة عن اللاهوت(١٠٦).

---

(103) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 275.

(104) Haskins: The Renaissance, p. 215 & Pollock: op. cit., vol. 1, p. 113.

(105) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 127.

(106) Idem: p. 134.

وبمقارنة القانون المدنى الرومانى بالقانون الكنسى نجد صلة وثيقة بين الطرفين، كما نلمس فروقا واضحة بينهما. فالقانون الرومانى يعتبر مصدرا هاما للقانون الكنسى، لأن الكنيسة تأثرت فى مختلف أدوار نموها بالتشريع الرومانى، هذا إلى أن رجال الدين كانوا فى حاجة إلى معرفة القوانين الرومانية، واشتدت هذه الحاجة كلما ازدادت ممتلكات الهيئات الكنسية، وبالتالى تشعبت مصالحها غير الدينية (١٠٧). فمراسيم جراشيان لم تكن إلا تقليدا للقانون الرومانى. وامتلاك الإمبراطورية لمجموعة منظمة من القوانين التى تمجدها وتعلى شأنها، جعل البابوية وأنصارها يفكرون فى محاكاتها، ولذلك نجد جراشيان - رغم تأثره بالقانون الرومانى - يحرص على أن يجعل للكنيسة والبابوية السلطات المطلقة نفسها التى خولها القانون الرومانى للأباطرة، وهكذا وجدت البابوية فى القانون الكنسى سلاحا قويا يمكنها من أن تستغله فى نضالها ضد الإمبراطورية(١٠٨).

على أن هناك فرق واضح بين القانون الرومانى والقانون الكنسى. فالقانون الرومانى عبارة عن تشريعات قديمة ومجاميع غير قابلة للزيادة أو الإضافة، وتقتصر جهود القانونيين على تنظيمها وشرحها. أما القانون الكنسى فظل بحكم طبيعته فى نمو مستمر نظرا لكثرة التشريعات بين حين وآخر(١٠٩). وهنا نلاحظ أن جراشيان اقتصر على جمع المراسيم البابوية حتى سنة ١١٣٩، مما جعل الحاجة ماسة باستمرار إلى جمع المراسيم الجديدة الصادرة بعد ذلك التاريخ وتبويبها. لذلك أصبح لابد من أن تعقب جهود جراشيان محاولات أخرى متصلة الحلقات حتى يتلائم القانون الكنسى مع رغبة البابوية وجهودها فى السيطرة على العالم المسيحى الغربى(١١٠).

ولاشك فى أن أكبر مشرعى القوانين الكنسية فى القرن الثانى عشر كان البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١)، الذى كان من رجال القانون قبل أن يعتلى كرسى البابوية، كما عمل أستاذا للقانون فى بولونيا، وله كتابات تحمل اسمه. وقد بلغ من كثرة المراسيم والتشريعات البابوية التى صدرت فى عصر هذا البابا وعهد خلفه

---

(107) Idem: p. p. 132 - 133.

(108) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 275.

(109) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 705.

(110) Pollock: op. vit., vol. 1, p. 113.

المباشر لوكيوس الثالث (١١٨١ – ١١٨٥) أن شبهها المعاصرون فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر بغابة كثيفة متشابكة الأغصان، وظلت هذه الغابة يصعب التوغل فيها حتى بدأ تنظيم المراسيم البابوية وترتيبها ترتيبا موضوعيا سنة ١١٩٠، وانتهى هذا التنظيم بكتاب «المراسيم Decretals» الذى أصدره البابا جريجورى التاسع سنة ١٢٣٤[١١١].

ومنذ ذلك الوقت غدا القانون الكنسى مادة واضحة الأفق والمعالم. تدرس فى الجامعات الأوربية جنبا إلى جنب مع القانون الرومانى، وربما قام بتدريس المادتين أستاذ واحد. ولاشك فى أن تقدم القانون الكنسى صحبه تقدم آخر فى ميدان الأدب نتيجة للشروح والمقالات التى كتبت حول ذلك القانون. هذا إلى أن القانون الكنسى أدى إلى تطورات هامة فى الحياة العامة بغرب أوربا نظرا لما ترتب عليه من اتساع نفوذ الكنيسة الإدارى والقضائى، وبخاصة فى القرن الثالث عشر[١١٢].

أما عن موقف رجال الكنيسة من القانون الرومانى. فيلاحظ أن الكنيسة استمرت تأخذ عن ذلك القانون وتستعين به، ولكن دون أن تجهر أو تقر بذلك فى دور القضاء الدينية، والسبب فى ذلك هو أن القانون الرومانى لا يعترف بسلطة البابوية ويمجد سلطة الإمبراطورية، هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين البابوية والإمبراطورية، واستمر الوضع على ذلك حتى جاء وقت وجدت فيه الكنيسة نفسها على درجة من القوة تمكنها من الوقوف بمفردها فى الميدان، دون حاجة إلى الاعتراف بالقانون الرومانى الذى أغفل شأنها وقوى نفوذ خصومها، وعندئذ حرمت البابوية سنة ١٢١٩ - أى فى أوائل القرن الثالث عشر - على رجال الدين دراسة القانون الرومانى، ومنعت تدريسه منعا باتا فى جامعة باريس بالذات. وربما استهدفت البابوية من وراء القضاء على ذلك المنافس إتاحة الفرص للقانون الكنسى كى ينتشر ويعم غرب أوربا، مما يؤدى إلى ازدياد نفوذ البابوية والكنيسة الغربية. ولم تلبث الصفة الدينية التى لازمت القانون الكنسى، والتى جعلت منه قانون الكنيسة الغربية العالمية، أن أدت إلى انتشاره

---

(111) Pollock: op. vit., vol. 1, p. 113.

(112) Haskins: The Renaissance, p. 216.

فى بلاد لم يستطع القانون الرومانى بمفرده أن ينفذ اليها أو ينتشر فيها. وقد نتج عن ذلك أن أصبح القانون الكنسى أداة لنقل القانون الرومانى ونشره، ونظرا لأن الأول تشرب بروح الثانى كما سبق أن أشرنا، كما صار أداة لنقل الأسلوب الجديد فى التشريع إلى بلاد عديدة.

ومهما يكن الأمر، فقد ترتب على العناية بالقانون الرومانى والقانون الكنسى فى القرن الثانى عشر انتعاش الدراسات القانونية فى البلاد التى ظلت حتى ذلك العصر خاضعة للنظم الاقطاعية وأحكام العرف والعادات المحلية. ولعل هذا هو السبب فى كثرة الأحكام والتشريعات التى ظهرت فى البلاد الأوربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وهنا نشير إلى أن النشاط التشريعى وجد تربة صالحة فى المدن الإيطالية الناشئة، وهى تلك المدن التى ظلت قوانينها حتى القرن الحادى عشر مزيجا غريبا من القانون الرومانى والعادات الجرمانية، ولكن انتعاش هذه المدن واتساع تجارتها فى القرن الثانى عشر تطلب تنظيم قوانينها وتدوينها، كما تطلب منها العناية بالقوانين التجارية والبحرية. وهكذا نجد مدينة بيزة تدون قوانينها وتضع دستورها سنة ١١٦٠، ثم حذت حذوها مدينة السندريا ـ أو اسكندرية ـ Alessandria (١١٣) سنة ١١٧٩، وحاكاهما بعد ذلك كثير من المدن الإيطالية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وإذا كنا لانستطيع أن ننسب إلى القرن الثانى عشر بالذات وضع مجموعة القانون البحرى، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن ذلك القرن عرف نظام القناصل الذين أوفدتهم كل مدينة إلى البلاد الأخرى لرعاية مصالحها التجارية، كما عرف التشريعات الخاصة بالتجار المتنقلين الجائلين. وهكذا أخذت المجتمعات التجارية تشرع القوانين التى تلائم حاجاتها ومطالبها.

وبعد، فإن القانون غدا فى القرن الثانى عشر ـ كما كان أيام الرومان ـ العلم الذى وجدت فيه العقلية الأوربية لذتها الكبرى، فاستأثر بجزء كبير من جهود المعاصرين الفكرية. وبذلك وجدت بقية العلوم ـ وبصفة خاصة علم اللاهوت ـ منافسا قويا لها فى

(١١٣) مدينة فى سهول لمبارديا تقع شرقى تورين، شيدتها مدن الحلف اللمباردى تخليدا لذكرى البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١) الذى ناصرها أثناء النزاع مع الإمبراطور فردريك بربروسا. (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب).

الدراسات القانونية. حتى القانون الكنسى اختار أن يستقل عن اللاهوت ليصبح علما قائما بذاته. وهكذا سرعان ما وجد رجال الدين أنفسهم أمام منافسين جدد، فطالما كان رجال الكنيسة محتكرين العلم والمعرفة، استمروا مسيطرين على الوظائف العامة التى يتطلب القيام بها شيئا من ذلك العلم وتلك المعرفة. ولكن بانتعاش العلوم غير الدينية وبظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر، نشأت طائفة من المتعلمين من غير رجال الدين، يمكن أن يعتمد عليهم الحكام والملوك فى الوقت الذى تنكرت الكنيسة للسلطة العلمانية ونادت بالسمو عليها. وكان أن أخذت الكنيسة تعتمد على فقهائها فى القانون الكنسى، فى حين اتجه الملوك نحو رجال القانون الرومانى المدنى، مما جعل رجال القانون عنصرا نشيطا فى الحياة العامة والسياسية، وهو أمر ظهرت مزاياه - ومساوئه - العديدة فيما بعد[١١٤].

حركة الترجمة عن اليونانية والعربية:

وإذا كان كثير من مظاهر النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر اعتمد على التراث الرومانى اللاتينى - كما رأينا فى النشاط الأدبى والتشريعى - ، فإن هناك جانب آخر - هو الجانب العلمى والفلسفى - ارتبط إلى حد كبير بالتراثين اليونانى والعربى الإسلامى، ولم تستطع أوربا أن تستفيد من هذين التراثين استفادة كاملة فى القرن الثانى عشر، إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عن اليونانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى. لذلك من الضرورى أن نتكلم عن حركة الترجمة فى القرن الثانى عشر، لا بوصفها مظهرا هاما من مظاهر النشاط الفكرى فى ذلك القرن فحسب، بل لأنه يتعذر علينا تتبع التقدم الكبير الذى أحرزته العلوم والفلسفة فى النهضة الوسيطة دون معرفة أسباب العناية بهذه العلوم وكيفية انتقال أصولها إلى غرب أوربا فى ذلك العصر.

والملاحظ أن غرب أوربا فى العصور الوسطى ظل حتى أواخر القرن الحادى عشر يهمل العلوم والدراسات اليونانية إهمالا يكاد يكون تاما . وفى تلك الأثناء استمر التراث اليونانى حيا فى الإمبراطورية البيزنطية، لاسيما القسطنطينية. حيث بقيت

(114) Haskins: The Renaissance, p. 222.

اليونانية اللغة التقليدية المستخدمة فى الكنيسة والقانون والإدارة ، فضلا عن الدراسات العلمية والأدبية، حقيقة أن مفكرى الإمبراطورية الشرقية لم يضيفوا للتراث القديم سوى القليل، ولكن علوم اليونانيين وكتاباتهم ظلت تدون وتدرس باستمرار، مما ساعد على حفظ الجزء الأكبر من التراث الفكرى اليونانى فى الإمبراطورية الشرقية.

على أن الدراسات اليونانية التى لم يقدر لها أن تنتشر وتمتد غربا فى تلك المرحلة المبكرة من مراحل العصور الوسطى، امتدت وانتشرت فى الشرق، حيث ترجمت أولا إلى السريانية والعبرية ثم العربية، ولم تلبث هذه التراجم السامية للتراث اليونانى أن غدت فيما بعد على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لغرب أوربا الذى لم يعثر على جزء كبير من ذلك التراث إلا فى تلك التراجم، وربما كان الطريق الذى سلكته علوم اليونانيين فى وصولها إلى الغرب اللاتينى شاقا وطويلا فى بعض الأحيان، فمن اليونانية إلى السريانية أو العبرانية ثم بعد ذلك إلى العربية؛ ومن هذه الأخيرة إلى اللاتينية. ولكن هذا الطريق رغم طوله أدى فى النهاية إلى الغرض المقصود.

وقد بدأت الجولة أولا فى بلاد الشام، حيث ترجمت الكتابات اليونانية لتغذية الأدب الأرامى Aramaic، وبقيت كثير من هذه التراجم بالشام حتى الفتح العربى الإسلامى، فى حين حمل بعضها إلى فارس جماعة النساطر الذين فروا بعقيدتهم من وجه خصومهم، ومن ثم ظل ذلك الجزء من التراث اليونانى حيا فى بلاد فارس حتى توصل إليه العرب أيضاً بعد فتحهم تلك البلاد.

ومن المعروف أن العرب عندما اندفعوا من شبه الجزيرة العربية مبشرين بدينهم الجديد، لم تكن لديهم فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم دراسات فلسفية أو علمية خاص بهم، ولكن كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو الرغبة فى التعلم والقدرة على الاستفادة من العناصر البناءة فى الحضارات التى صادفوها. وبفضل هذه الاستعدادات استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما صادفوه من علوم وثقافات ودراسات فى غرب آسيا. وكان بنو أمية على درجة كافية من الحكمة وبعد النظر جعلتهم يتركون المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية، قائمة فى الاسكندرية وبيروت وانطاكية وحران ونصيبين وجند يسابور، فاحتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة

والعلم، معظمها فى ترجمته السريانية، وقد استهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية وما لبث أن قام بترجمتها إلى العربية جماعة من المسلمين ، فضلا عن النساطرة المسيحيين وبعض اليهود(١١٥) .

ولم يلبث العرب على مر السنوات أن أضافوا إلى هذه الدراسات كثيرا من مستحدثاتهم ومن علوم الشعوب الشرقية الأخرى، مثل الفرس والهنود والصينيين، وفى العصر العباسى بصفة خاصة نهضت الحركة العلمية وحركة الترجمة إلى العربية نهضة عظيمة، فى حين أدى انتشار اللغة العربية شرقا وغربا إلى سهولة الاتصال الفكرى ونشر الحضارة الإسلامية، بحيث أننا نستطيع القول بأن أعظم نشاط علمى وفلسفى شهده العالم أجمع فى الشطر الأول من العصور الوسطى كان فى البلاد العربية الإسلامية(١١٦) .

على أن الاتصالات الثقافية بين أوربا المسيحية والعالم العربى الإسلامى ظلت محدودة، ضعيفة الأثر حتى القرن الحادى عشر. ولكن هذه الاتصالات أخذت تظهر قوية واضحة منذ أواخر ذلك القرن. عندما بدأت العلوم العربية تنتقل إلى غرب أوربا عن طريق معابر عدة، تردد عليها الأوربيون طلبا لعلوم العرب وحضارتهم، فهناك فريق من الإيطاليين المشتغلين بالعلم قصدوا شمال أفريقية، مثل قسطنطين الأفريقى Constantine Africanus الذى له فضل كبير على علم الطب فى أوربا لأنه قام بترجمة بعض المؤلفات اليونانية عن العربية، ومثل ليونارد البيزى الذى تعلم فى شمال أفريقية الرياضيات العربية مما جعل منه أكبر علماء الرياضة فى أوربا فى القرن الثالث عشر، وهناك أرض إيطالية - هى جزيرة صقلية - أسهمت بنصيب مباشر فى حركة الترجمة عن العربية، وساعد على قيام صقلية بهذا الدورموقعها المتوسط بين أوربا وأفريقية، فضلا عن دخولها تحت حكم العرب من سنة ٩٠٢ حتى ١٠٩١ تقريبا، ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكنها المسلمين وثقافتها العربية فى عصر النورمان الذين خلفوا العرب فى حكم الجزيرة، وقد ترجم فى صقلية فى القرنين

(١١٥) ديورانت قصة الحضارة - الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ١٧٧ وانظر كذلك كتاب دراسات فى الحضارة العربية الإسلامية تأليف سعيد عاشور وسعد زغلول عبد الحميد وأحمد مختار العبادى، ص ٨٢ وما بعدها.

(116) Haskins: The Renaissance, p. 282.

الثانى عشر والثالث عشر كثير من الكتب العربية؛ ففى سنة ١١٥٠ ترجم أيوجينيوس البالرمى Augenius of Palermo كتاب بطليموس السكندرى فى المرئيات عن العربية، وفى سنة ١١٦٣ ترجمت بعض كتابات بطليموس الأخرى فى الفلك والرياضيات عن العربية. واشتهر من المترجمين فى القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودى المتوفى سنة ١٢٨٥ ، وهو من أصل صقلى وطلب العلم فى سالرنو. حتى ترجم كثيرا من كتب العرب إلى اللاتينية(١١٧).

على أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية إلى اللاتينية، صار شبه جزيرة أيبريا، حيث ازدهرت حضارة المسلمين فى الأندلس، وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون. لذلك اتجه كثير من أعلام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر إلى أسبانيا، يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية فى مختلف العلوم والآداب، كالرياضيات والفلك والطب والفلسفة وغيرها. ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا فى القرن الثانى عشر اديلارد Adelard الإنجليزى وهرمان Hermann من كارنثيا(١١٨)، وجيرارد الكريموناوى. هذا عدا أهل أسبانيا من المستعربين واليهود، الذين اشتغل بعضهم بنقل المعارف العربية وترجمتها، مثل دمونيقوس جونديسالفى Dominicus Gondisalvi وبطرس الفونسى Petrus Alphonsi ، وحنا الاشبيلى John of Seville وإبراهيم بن عزرا Abraham ben Ezra ولا نعرف ـ للأسف ـ كثيرا عن هؤلاء العلماء، وما عساه كان بينهم من اتصالات وتعاون. وكل ما يبدو لنا هو أن عملهم لم يتركز فى مدينة واحدة، وإنما نشطت حركة الترجمة عن العربية فى برشلونة وطرزونة ـ إلى الجنوب منها ـ وليون وبمبلونة، أما طليطلة فكان لها شأن كبير فى ذلك الميدان، إذ أنشأ ريموند رئيس أساقفة طليطلة مكتبا كبيرا للترجمة عن العربية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وتمت فى ذلك المكتب ترجمة كثير من أمهات المؤلفات العربية إلى اللاتينية. كذلك لا نستطيع تحديد تاريخ ثابت لبداية حركة الترجمة فى إسبانيا، وإن كان كثير من أعلام هذه الحركة يرجعون إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، مثل روبرت الشسترى Robert of Chester (ت١١٤٤)

(117) Singer: From Magic to Science, p. 18.

(١١٨) شرقى التيرول وشمالى البندقية.

الذى ترجم القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية، كما ترجم كتاب الخوارزمى فى الرياضيات، فضلا عن بعض المؤلفات العربية الأخرى فى الكيمياء والفلك(١١٩)، أما النصف الأخير من القرن الثانى عشر، فشهد جهود زعيم حركة الترجمة عن العربية وهو جيرارد الكريمونا‌وى (١١١٤ - ١١٨٧) Gerard of Cremona الذى رحل إلى طليطلة حيث قضى عدة سنوات تعلم فيها العربية على يد أحد المستعربين(١٢٠)، وعندما أدرك أن العالم الغربى مفتقر تماما إلى تلك الدراسات التى زخرت بها المكتبة العربية فى طليطلة فى كل علم وفن، عكف على ترجمتها إلى اللاتينية، حتى توفى سنة ١١٨٧ وهو فى الثالثة والسبعين من عمره، بعد أن ترجم إلى اللاتينية أكثر من سبعين مؤلفا عربيا(١٢١) تناولت مختلف ألوان المعرفة كالمنطق والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب(١٢٢). على أن وفاة جيرارد الكريمونا‌وى لم تؤثر فى سير حركة الترجمة عن العربية، إذ ظهر فى أوائل القرن الثالث عشر ألفرد الإنجليزى، وميخائيل سكوت السكتلندى، وهرمان الألمانى، وجميعهم، عملوا فى ترجمة الكتب العربية بإسبانيا.

وإذا كانت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية اتخذت لها أكثر من مركز فى القرن الثانى عشر، فإن حركة الترجمة عن اليونانية لم يكن لها سوى مركز رئيسى واحد، هو صقلية وإيطاليا، حيث التقت الثقافات الثلاث: اليونانية واللاتينية والعربية. وكانت مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا هى المكان الطبيعى لالتقاء تلك الثقافات .. ذلك أن هذا الجزء ظل مدة طويلة تابعا للإمبراطورية البيزنطية، ولذا احتفظ بكثير من تراث اليونانيين، كما استمرت اللغة اليونانية سائدة بين نسبة كبيرة من أهاليه. هذا إلى أن العلاقات بين صقلية وجنوب إيطاليا من ناحية، والشرق اليونانى من ناحية أخرى، ظلت قائمة، حتى بعد أن فقدت الدولة البيزنطية سيطرتها على تلك البلاد. ففى القرن الحادى عشر احتفظ تجار أمالفى Amalfi بنشاط كبير مع

(119) Singer: op. cit, p. 80.

(120) Ibid.

(121) Haskins: The Renaissance, p. 287.

وقدر سنجر هذه الكتب التى ترجمها جيرارد بأكثر من تسعين كتابا.

(122) Ball : A. Short Account of the History of Mathematics.

القسطنطينية بل مع بلاد الشام، فصدر الصناع البيزنطيون الأبواب البرونزية الضخمة اللازمة لكنائس إيطاليا وقصورها، هذا فى الوقت الذى اعتاد الحجاج ورجال الدين الغربيون أن يعودوا من الشرق وبصحبتهم المؤلفات والكتب الدينية اليونانية لتترجم إلى اللاتينية.

على أن حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية لم تنشط فى إيطاليا وصقلية إلا منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر. وساعد على نشاطها ما وجد فى صقلية وإيطاليا من مكتبات ضمت كثيرا من الكتب اليونانية لا سيما ما يختص منها بالموضوعات الدينية، وقد وجدت أهم مجموعة من تلك الكتب فى الأديرة الباسلية(١٢٣)، أما بالرمو عاصمة ملوك صقلية النورمان فزخرت بمجموعة ضخمة من المؤلفات اليونانية، مما شجع هؤلاء الملوك - لا سيما روجر الثانى وخلفائه - على رعاية حركة الترجمة عن اليونانية. وتزعم هذه الحركة اثنان من رجال الإدارة فى بالرمو هما هنرى ارستبوس Henricus Aristippus وايوجنيوس البالرمى Eugenius وكان الأول حاكما على قطانية Catania سنة ١١٥٦، عندما اشتغل ببعض مؤلفات أفلاطون، ثم صار موظفا كبيرا فى إدارة القضاء بصقلية من سنة ١١٦٠ حتى سنة ١١٦٢. ويرجع إليه الفضل فى ترجمة كثير من كتابات أفلاطون وأرسطو لأول مرة من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، وهى التراجم التى ظلت متداولة فى غرب أوربا بقية العصور الوسطى حتى أوائل عصر النهضة الإيطالية. كذلك يرجع إليه الفضل فى جلب بعض المخطوطات اليونانية الهامة إلى صقلية من مكتبة مانويل الأول كومنين إمبراطور القسطنطينية، ومنها كتاب بطليموس السكندرى فى الفلك، الذى ترجم إلى اللاتينية حوالى سنة ١١٦٠، أما إيوجين الأمير Eugene the Emir فامتاز هو الآخر بالكافية فى اللغات اليونانية والعربية واللاتينية، وإليه يرجع الفضل فى ترجمة كثير من المؤلفات اليونانية والعربية إلى اللاتينية(١٢٤).

(١٢٣) عن الأديرة الباسلية انظر الجزء الأول من هذا الكتاب، وكذلك الباب الأول من هذا الجزء.

(124) Haskins: The Renaissance, p. p. 292 - 293.

وبالإضافة إلى جهود ملوك النورمان فى تشجيع التراث الشرقى وترجمته إلى اللاتينية ، نلاحظ أن العلاقات ـ الرسمية وغير الرسمية ـ بين الإمبراطورية البيزنطية من ناحية والبابوية والإمبراطورية الغربية من ناحية أخرى، مهدت للتبادل الثقافى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى. ويضيف راشدال إلى ذلك أن استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فتح الباب أمام الغرب الأوربى للتعرف على كثير من الكتب والدراسات اليونانية القديمة، فجمع الغربيون منها ما استطاعوا وترجموا بعض ما جمعوه إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر (١٢٥). ثم أن هناك فريق من الإيطاليين تعلموا اليونانية عن طريق أسفارهم إلى القسطنطينية لأغراض سياسية أو تجارية أو دينية . ومن هذا الفريق بعض أسماء لامعة، أسهمت فى حركة الترجمة عن اليونانية، مثل جيمس البندقى الذى ترجم المنطق الجديد لأرسطو، وموسى البرجامى Moses of Bergamo الذى تدل آثاره الباقية على نشاطه المتنوع فى النحو والترجمة والشعر. فضلا عن جهوده فى جمع المخطوطات . أما برجنديو البيزى Burgundio of Pisa ، فكان شخصية بارزة فى الحياة العامة فى بيزة، وقام بعدة سفيرات إلى القسطنطينية، ومع أنه لم يمارس الترجمة عن اليونانية إلا فى أوقات فراغه فقط، إلا أن إنتاجه فاق جميع معاصريه من الغربيين(١٢٦).

هذا عن حركة الترجمة عن العربية واليونانية فى القرن الثانى عشر، وهى الحركة التى ترتب عليها انعاش الحياة الفكرية فى غرب أوربا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى. ومن الغريب أن المترجمين عن العربية اتفقوا مع إخوانهم المترجمين عن اليونانية فى معالجة موضوعات متشابهة، كالفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية، مما جعل هذه الدراسات تصل إلى الغرب اللاتينى عن طريق ترجمتها عن العربية أو عن اليونانية، أو عن الطريقين معا. وأدى إلى ذلك أن العرب كانوا قد نقلوا إلى لغتهم كثيرا من مؤلفات اليونانيين وأبحاثهم. وإذا كانت مؤلفات أفلاطون قد تعذر الحصول عليها عندئذ فى غير اللغة اليونانية، فإن كتابات أرسطو أمكن الحصول على معظمها فى اليونانية والعربية، وكثيرا ما نصادف فى ذلك العصر ترجمتين باللاتينية لمؤلف واحد أصله باليونانية، إحداهما مأخوذة عن العربية

(125) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. 358.

(126) Haskins: The Renaissance, p. 294.

والأخرى مأخوذة عن الأصل اليونانى مباشرة، وفى معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيا الترجمة عن اليونانية(١٢٧).

العلوم:

وفى ضوء حركة الترجمة السابقة، نستطيع أن نتتبع النهضة العظيمة التى شهدها القرن الثانى عشر فى ميدان العلوم والفلسفة، أما عن العلوم بالذات، فيبدو أن غرب أوربا لم يعرف حتى نهاية القرن الحادى عشر أكثر من مختصرات ايسيدور Is-idore، وبدى Bede وبعض أبحاث متفرقة لكتاب الرومان. ولكن حدث فى المائة عام التالية - أى خلال القرن الثانى عشر - أن أقبل الأوربيون على علوم العرب وفلسفتهم، وبالتالى على علوم اليونانيين التى نقلها العرب إلى لغتهم، فلم تحل سنة ١١٢٥ إلا وكان غرب أوربا قد حصل فى الرياضيات والفلك والكيمياء على دراسات اقليدس وبطليموس السكندرى، فضلا عما كتبه فى هذه العلوم، وفى الطب على كتابات جالينوس Galen وهيبوقراط وابن سينا من علماء العرب. هذا إلى ظهور الروح التجريبية فى مناهج البحث، مما يجعلنا نقرر فى ثقة واطمئنان أن القرنين الثانى عشر والثالث عشر شهدا فعلا نهضة علمية فى غرب أوربا(١٢٨).

على أننا يجب أن نتذكر دائما أن نهضة القرن الثانى عشر فى الغرب الأوربى لم تأت مصحوبة بإهمال اسيدورس واتباعه السابقين، ونبذ طريقتهم غير العلمية فى البحث والتفكير، فالواقع أن علوم هؤلاء المفكرين ومناهجهم ظلت ماثلة قوية الأثر فى غرب أوربا إلى ما بعد القرن الثانى عشر بكثير. ولكن ما فعله القرن الثانى عشر هو أنه أثار نهضة علمية، لا عن طريق محو المعلومات القائمة فعلا، وانما عن طريق تعريف الغرب الاوربى بتراث اليونانيين العلمى وعلوم العرب الجديدة، مما أثار نهضة علمية حقيقية. هذا إلى أن معلومات الشرقيين - العرب واليونانيين - التى تدفقت على غرب أوربا فى القرن الثانى عشر، بلغت من الغزارة والتنوع درجة استوجبت تقسيمها وتصنيفها، ومن ثم بدأ يظهر نوع من التخصص العلمى. ويبدو الفارق فى المستوى العلمى واضحا إذا قارنا بين كتاب لامبرت Lambert الذى يرجع إلى حوالى سنة

---

(127) Haskins: The Renaissance, p. p. 292 - 301.

(128) Dampier : A Short History of Science, p. p. 40 - 41.

١١٢٠ والذى لا تتعدى معلوماته ما جاء فى المراجع اللاتينية المعروفة مثل ايسيدورس وبلينى وبدى، وما كتبه فنسان Vincent حوالى منتصف القرن الثالث عشر، وهو عبارة عن دائرة معارف ضخمة فى العلوم،تدل على غزارة المعلومات وكثرة الاطلاع وتنوع المادة.

والواقع أنه لابد من استعراض بعض العلوم وما أصابته من تقدم فى القرن الثانى عشر، لندرك مدى التطور العلمى فى ذلك القرن. ففى العلوم الرياضية لم يهمل التعليم فى العصور الوسطى الحساب والهندسة والفلك؛ ولكن هذه الدراسات استمرت بسيطة وبدائية حتى أوائل القرن الثانى عشر، عندما ظهرت ترجمة لاتينية لما كتبه اقليدس فى الهندسة، ويبدو أن هذه الترجمة لم تؤخذ عن الأصل اليونانى ، وإنما عن الترجمة العربية، ومهما يكن الأمر، فقد كان لظهورها أثر كبير، إذ رفعت من شأن علم الهندسة، وجعلت هذا العلم يتبوأ مكانته التى لايزال يشغلها حتى اليوم (١٢٩). وفى سنة ١١٢٦ نقل اديلارد الباثى جداول حساب المثلثات للخوارزمى إلى اللاتينية، وفى سنة ١١٤٥ نقل روبرت الشسترى كتاب الجبر للخوارزمى إلى اللاتينية كذلك، وبذلك أدخل علما جديدا فى غرب أوربا، كذلك نقل أحد يهود أسبانيا فى القرن الثانى عشر - وهو إبراهيم بن عزرا - (١٠٩٧ - ١١٦٧) بعض مؤلفات العرب فى الفلك والرياضيات إلى اللاتينية، وأهم ما فى ذلك أنه شرح للأوربيين نظام الأعداد العربى - أو بعبارة أصح الهندى - والأرقام التسعة مع كيفية استخدام الصفر. وهناك من الباحثين من يعتقد أن هذا النظام العددى انتقل عن طريق العرب إلى أوربا خلال عمليات التبادل التجارى بين العرب والأوربيين، لا عن طريق الكتب الأكاديمية، ومهما يكن الأمر، فالذى يهمنا هو أن معرفة أوربا للنظام العددى الجديد أحدثت ثورة فى الحساب وساعدت على التقدم الرياضى الذى شهدته أوربا فى ذلك العصر والعصور التالية(١٣٠).

أما علم الفلك فالمخطوطات التى وجدت عنه فى أوائل القرن الثانى عشر بغرب أوربا لم تتعد معلومات بدى والرياضى الكارولنجى هلبرك Helperic. وإذا ظهرت

---

(129) Ball: op. cit, p. 165.

(١٣٠) دراسات فى الحضارة العربية الإسلامية تأليف سعيد عاشور وسعد زغلول عبد الحميد وأحمد مختار العبادى، ص ١٠٢ وما بعدها (دار ذات السلاسل بالكويت، ١٩٨٥).

فى الكتب الأوربية عندئذ بعض إشارات عن الاسطرلاب، فإن هذا لا يعنى بأى حال معرفة الأوربيين للفلك العربى فى ذلك الوقت. ولكن حدث سنة ١١٢٠ أن بدأ أحد الإنجليز وهو والشر Walcher فى حساب الدقائق والثوانى، بعد أن تعلم ذلك من بطرس ألفونس الأسبانى اليهودى، وفى سنة ١١٢٦ ترجم اديلارد الباثى كتابات الخوارزمى فى الفلك. وتبع ذلك مباشرة ترجمة كتابات البتانى والفرغانى وغيرهما من علماء المسلمين. اما كتابات بطليموس السكندرى – وهى خلاصة ما وصل إليه القدماء فى علم الفلك - فقد نقلت عن اليونانية حوالى سنة ١١٦٠، وعن العربية حوالى سنة ١١٧٥. ومهما يكن أمر هذه الكتابات فمن الواضح أن علماء المسلمين هم اصحاب الفضل فى التقدم بعلم الفلك فى العصور الوسطى، إذ خطوا به خطوات واسعة نحو الامام، فصححوا معلومات بطليموس وغيره من علماء العصر القديم، وأضافوا إليها الشىء الكثير من التعديلات والإضافات، وفى الربع الثانى من القرن الثانى عشر، وصلت معلومات العرب هذه إلى أوربا، مما أتاح للعالم الغربى فرصة طيبة ليطلع على معارف جديدة لم يسمع الأوربيون عنها من قبل، وربما دفع الأوربيين إلى العناية بعلم الفلك عناية خاصة، ما لهذا العلم من أهمية فى تحديد مواعيد الأعياد الدينية (١٣١). وهكذا ظهر علماء متخصصون فى الفلك فى الجامعات الأوربية فى القرن الثالث عشر، كما حرص الملوك والأمراء على استشارة الفلكيين، ليس فقط فى المهام والأمور السياسية، بل ايضاً فى دقائق حياتهم الخاصة.

أما علم الجغرافيا فلم يحرز تقدما كبيرا فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر. ذلك أن الحزام الذى أحاط به المسلمون أوربا من جهة الجنوب، حال دون توغل الأوربيين فى ذلك الاتجاه. وفى الوقت نفسه لم تعرف أوربا كتابات الجغرافيين العرب أمثال المسعودى وابن حوقل الاصطخرى فى وقت مبكر. وعلى ذلك ظلت المعلومات الجغرافية المعروفة فى غرب أوربا لا تتجاوز ما كتبه القدماء مثل بطليموس السكندرى وايسيدورس، وما قام به الفيكنج فى القرن التاسع من اكتشافات فى المناطق الشمالية(١٣٢)، واستمر الوضع على ذلك حتى النصف الأخير من القرن الثانى عشر

(131) Haskins: The Renaissance, p. 321.

(132) Eyre: op. cit., vol. 3, p. p. 313 - 322.

عندما ظهرت بعض الكتابات التى تشير إلى تقدم علم الجغرافية فى غرب أوربا. ففى سنة ١١٨٨ كتب جيرالدوس كامبرنسيس Giraldus Cambrensis عن جغرافية ايرلندا وويلز. فوصف البحيرات والأنهار والجبال والمناخ ومظاهر المد والجزر على شاطئ البحر الإيرلندى، مستعينا بما استقاه من معلومات الملاحين والصيادين. ولم يقتصر جيرالدوس على وصف المظاهر السابقة، وإنما تعرض للغة الأهالى وعاداتهم وتقاليدهم وتأثير المناخ على أمزجتهم وطباعهم، مع الإشارة إلى فضائلهم ونقائصهم. كذلك أخذ الأوربيون فى ذلك الوقت ينتبهون لدراسات العرب الجغرافية وعلى رأسها كتابات الإدريسى. ولم يلبث أن ازداد النشاط الجغرافى عندما عرف الغرب استعمال البوصلة. وهكذا أخذت أوربا تعد نفسها بين سنتى ١٢٦٠– ١٤٢٠ للانقلاب الجغرافى العظيم الذى تزعمه الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ – ١٤٦٠).

وكذلك فى علم الفيزياء تدفقت المعلومات على غرب أوربا فى القرن الثانى عشر، سواء المعلومات التى ترجمها المترجمون عن اليونانية أو النتائج العلمية العظيمة التى توصل إليها علماء المسلمين أنفسهم(١٣٣). ففى منتصف ذلك القرن نلاحظ كثرة الأبحاث التى عالجت طبيعة الكون وعناصره ومظاهر الزلازل والبراكين،وغير ذلك من الدراسات التى تدل على تقدم نطاق التفكير العلمى واتساعه.

أما علم الكيمياء فظل الغموض يحيط به طيلة العصور الوسطى فى غرب أوربا، حتى إذا ما حل القرن الثانى عشر، ترجم جيرارد الكريموناوى ثلاثة مؤلفات عربية فى ذلك العلم. ومن المعروف أن علماء المسلمين لهم فضل كبير على تقدم علم الكيمياء فى العصور الوسطى، ولكن من المرجح أن الفائدة التى حصلها الأوربيون فى ذلك العلم لم يظهر أثرها واضحا إلا فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، هذا وإن ظهرت بعض مؤلفات جديدة فى علم الكيمياء فى غرب أوربا أوائل القرن الثالث عشر مثل كتابات ميخائيل سكوت وفريار الياس Friar Elias وغيرهما(١٣٤).

(133) Ball: op. cit, p. 166.

(134) Haskins: The Renaissance, p. 321.

وفى الطب شهد القرن الثانى عشر كذلك إحياء دراسات اليونانيين، كما شهد ترجمة كثير من المؤلفات العربية الشهيرة، وكان المحور الرئيسى للنشاط الطبى فى ذلك العصر مدرسة سالرنو، وهى أول معهد طبى عرفته أوربا الحديثة. ويبدو أن معلومات اليونانيين فى الطب لم تندثر مطلقا من جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى. ولم تلبث أن تبلورت هذه المعلومات فى سالرنو بجنوب إيطاليا، مما ساعد على الشهرة العظيمة التى تمتعت بها تلك المدينة منذ القرن العاشر. وساعد على تقدم علم الطب فى سالرنو الكتابات اليونانية التى ترجمها قسطنطين الأفريقى من العربية إلى اللاتينية فى أواخر القرن الحادى عشر(١٣٥). وهكذا أخذت جامعة سالرنو(١٣٦) فى القرن الثانى عشر تتمتع بنظامها ومناهجها الخاصة، وأساتذتها الذين عالجوا مختلف نواحى الطب والجراحة. ومن هؤلاء الأساتذة جاريوبنتوس Gariopontus وأورسو Urso وروجر، ونيقولا، وغيرهم. ومع أنهم تجنبوا تشريح جسد الإنسان، إلا أنهم تركوا رسالة فى تشريح جسد الخنزير، كما اهتموا اهتماما كبيرا بطب العيون والصيدلة وتركيب الأدوية. وكان من المتعذر على جامعة سالرنو أن تصل إلى تلك المكانة دون الاعتماد على معلومات اليونانيين والعرب فى الطب. فبالإضافة إلى ما نقله قسطنطين الأفريقى، قام جيرارد الكريموناوى بنقل كثير من المؤلفات التى كانت قد ترجمت إلى العربية، كما نقل إلى اللاتينية بعض المؤلفات العربية الشهيرة فى الطب مثل كتاب «الملكى» لعلى بن العباس، وكتاب «القانون» لابن سينا.

أما علما الحيوان والنبات، فكان نصيبهما ضئيلا ومحدودا من النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر. فعلم الحيوان ظل يعتمد على كتابات بلينى، وإن ظهرت عناية الملوك المعاصرين - مثل هنرى الثانى وفردريك الثانى - بالحيوانات الغريبة، وعلم النبات ظل مرتبطا بحاجة الطب من العقاقير والأعشاب، ويبدو أن هذه النظرة الضيقة إلى النباتات مأخوذة عن اليونانيين، كما يظهر فى ترجمة كتاب ديسقريدس Dio-scorides اللاتينية(١٣٧).

---

(135) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 77 - 78.

(١٣٦) عن نشأة جامعة سالرنو ودورها انظر كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى. تأليف سعيد عاشور ص ٧٣ – ٧٥).

(137) Haskins: The Renaissance, p. 329.

وفى ختام كلامنا عن النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر، يصح أن نشير إلى مدى تأثر رجال ذلك العصر بروح اليونانيين وعلماء المسلمين فى الملاحظة ومنهج البحث التجريبى. وهنا يبدو لأول وهلة أن الأوربيين فى العصور الوسطى أخذوا من علوم اليونانيين والعرب أكثر مما أخذوه من منهجهم فى البحث. على أننا فى القرن الثانى عشر بالذات نلاحظ عدة أمثلة تدل على ظهور روح البحث التجريبى فى غرب أوربا بين المعاصرين. ففى سنة ١٠٩٢ حاول والشر Walcher تحديد الفرق الزمنى بين إنجلترا وإيطاليا عن طريق الكسوف، فى حين عمل غيره من المعاصرين للوقوف على ظواهر بركان اتنا الثائر، أو قياس ارتفاع المد على شواطئ ايرلندا وويلز.. وغير ذلك من الأبحاث التى لا تخلو من روح المشاهدة والتجربة. ومن علماء القرن الثانى عشر الذين أولوا المشاهدة والتجربة عناية خاصة أديلارد الباثى الذى تنقل فى النصف الأول من ذلك القرن بين بلاد حوض البحر المتوسط طلبا للمعرفة ، واكتسب نتيجة لذلك الشيء الكثير من روح العرب واليونانيين الواقعية ومناهجهم التجريبية فى البحث.

وفى القرن الثالث عشر اهتم الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٠ - ١٢٥٠) بالعلوم اهتماما زائدا، فلم يكتف بترجمة بعض ما كتبه العرب فى العلوم، وإنما كتب عن الطيور وطبائعها وخصائصها معتمدا على اطلاعه ومشاهداته وتجاربه(١٣٨). كذلك أجرى عدة تجارب على الإنسان ، منها القصة الشهيرة التى تقول أنه حبس رجلا فى مكان محكم ليثبت أن الروح تموت مع الجسد، ولا حياة لها بعد وفاة صاحبها. ولعل هذه الأمثلة تكفى لدحض الأسطورة القائلة بأن روجر بيكون هو مبتدع المذهب التجريبى فى أوربا العصور الوسطى(١٣٩).

الفلسفة :

أما الفلسفة فقد ارتبطت فى العصور الوسطى بالعلوم البحتة حتى اعتبرت جزءا أو فرعا منها، وذلك وفقا لما كان عليه الحال عند اليونانيين القدماء. ولكن القرن الثانى

---

(138) Ball: op. cit, p. p. 170 - 171.

(139) Haskins: The Renaissance, p. 335.

عشر بالذات يمثل مرحلة انتقال أساسية في تاريخ الفلسفة واستقلالها ونموها[١٤٠]، وذلك بفضل إحياء فلسفة أرسطو وأفلاطون، وانتصار المنطق على الأدب، وتقدم الطريقة المدرسية على أيدى أبيلار وجراشيان وبطرس لمبارد. وهكذا تم فى القرن الثانى عشر وضع أساس ذلك البناء العظيم المترابط الأجزاء الذى نراه فى القرون التالية.

والمشاهد أن أرسطو كان أقوى أثرا من أفلاطون فى الحياة الفكرية الغربية فى العصور الوسطى، وبصفة خاصة منذ القرن الثانى عشر. والسبب فى ذلك لا يرجع فقط إلى أن فلسفة أرسطو تتصف بطابع التعميم الذى يجعل منها مادة صالحة لكل زمان ومكان، بعكس أفلاطون الذى كان يكتب لأهل أثينا، والذى ظل تفكيره يعبر إلى حد كبير عن عقائد اليونانيين، وإنما يرجع أيضًا إلى أن التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى قام على أساس منطق بؤثيوس (٤٧٠ – ٥٢٧) Beothius وهو منطق مستمد من أرسطو[١٤١]. هذا إلى أن طريقة أفلاطون فى أن يطلق عنان تفكيره ليعالج موضوعا من الموضوعات عن طريق حوار جدلى ، لم تكن مستساغة فى العصور الوسطى، فى حين اتصفت طريقة أرسطو بحسن العرض والتركيز والإيجاز المفيد، وهى الاتجاهات التى تتفق مع ما عرف عن أهالى العصور الوسطى من حب للمختصرات والكتب الموجزة، وهكذا عثر رجال الفكر فى العصور الوسطى على ضالتهم فى شتى ميادين الفلسفة والعلوم فى مؤلفات أرسطو، مما جعل أرسطو أبا الفلسفة وأميرا لها فى تلك العصور[١٤٢].

ولكن ليس معنى هذا أن المدرسة الأفلاطونية عجزت عن أن تشق لنفسها طريقا - ولو ضيقا - فى العصور الوسطى عامة، والقرن الثانى عشر خاصة. من ذلك أن بعض كتابات أفلاطون ترجمت إلى اللاتينية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر، عندما غدت مدرسة شارتر تمثل أكبر مركز للدراسات الأفلاطونية. ولكن هذا لا يخفى الحقيقة الواقعة. وهى أن هذه الحركة كانت قصيرة العمر، ضعيفة الأثر فى

(140) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 288.

(141) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 200.

(142) Haskins: The Renaissance, p. 243.

الحياة الفكرية المعاصرة، وسرعان ما ذبل نفوذ أفلاطون قبل الإحياء الشامل لفلسفة أرسطو فى ذلك القرن.

ولم يعرف من أبحاث أرسطو فى أوائل العصور الوسطى سوى ستة بحوث فى المنطق، هى التى ترجمها بيؤثيوس إلى اللاتينية(١٤٣). ولكن لم يلبث فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن عرفت من كتب أرسطو التحليلات الثانية والجدل والأغاليط. وقد سميت جميعها بالمنطق الجديد تمييزا لها من كتب المقولات والعبارة والتحليلات الأولى، وهى التى عرفت جميعها بالمنطق القديم (١٤٤) وهكذا أخذت كتابات أرسطو تظهر فى غرب أوربا تباعا منذ سنة ١١٢٨، فلم ينته القرن الثانى عشر إلا وكان معظمها ترجم إلى اللاتينية. أما ما بقى من تلك الكتابات - مثل ما كتبه أرسطو فى الحيوان والأخلاق والبلاغة والشعر - فقد ترجم فى القرن الثالث عشر، بحيث لم تحل سنة ١٢٦٠ إلا وكان جميع ما تبقى من تراث أرسطو معروفا فى غرب أوربا، وعندئذ أنهمك رجال العلم فى مقارنة التراجم اللاتينية المأخوذة عن العربية بتلك المأخوذة عن اليونانية مباشرة. ويلاحظ فى كتابات أرسطو التى وصلت إلى غرب أوربا عن طريق العرب أن الأوربيين تلقوها مزودة بكثير من الشروح والتعليقات التى كتبها فلاسفة المسلمين، وبعض هذه الشروح - وبخاصة شروح ابن رشد - جاءت صادقة صريحة لا تحريف فيها ولا تستر عليها، مما جعلها تثير ضجة فى الكنيسة الغربية ضد ابن رشد وأرسطو جميعا، ففى سنة ١٢١٠ حرم مجمع باريس تدريس فلسفة أرسطو وتناقلها. تكرر هذا الحرمان سنة ١٢١٥ ضد كتابات أرسطو، لا سيما فيما يتعلق بالميتافيزيقا. وفى سنة ١٢٣١ حرم البابا تدريس فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها وتنقيحها بواسطة لجنة خاصة. والواقع أنه لم يتم شىء من ذلك التهذيب الذى أرادته البابوية لكتابات أرسطو، حتى أننا نجد المنطق الجديد يدرس تاما كاملا لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥(١٤٥).

على أنه ينبغى أن نشير إلى أن الفضل فى النشاط الفلسفى الذى شهده الغرب

---

(143) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 789.

(١٤٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية، العصر الوسيط ص ٩٩.

(145) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 354 - 358 & Haskins: The Renaissance, p. 347.

الأوربى فى القرن الثانى عشر لا يرجع فقط إلى مؤثرات اليونانيين والعرب وعلومهم. ذلك أنه وجد من رجال الفلسفة والفكر فى ذلك العصر من سبقوا من الناحية الزمنية حركة تدفق العلوم والدراسات العربية واليونانية على أوربا، مثل روسللينوس وأنسلم وأبيلار. أما روسللينوس Rosecllinus (١٠٥٠ – ١١٢٠) فيعتبر أول من نادى بمذهب الاسمية، فقال أن الجزئى هو الموجود وأنه فى وجوده غيرمتجزئ، فى حين أن الكليات ليست إلا مجرد أصوات (Flatus Vocis) (١٤٦). وتمييزنا للجنس والنوع والجوهر والعرض ليس إلا تمييزا لفظيا لا يقوم الا على اساس الكلام، فبالكلام فقط نفصل الانسان عن سقراط. ولكن الانسان الذى نقصده فى حديثنا هو فى الواقع سقراط وكذلك بالكلام فقط نفصل البياض عن الجسم الأبيض ولكن البياض الذى نقصده ليس فى الواقع إلا شيئا أبيض اللون. وهكذا لايمكن أن نتصور إنسانية دون إنسان معين ولا بياضا دون أن نتخيل شيئا معينا أبيض اللون، وهذه الآراء التى نادى بها روسللينوس أحدثت ثورة ضخمة فى التفكير الفلسفى الأوربى، استمرت مدة طويلة بعد وفاته(١٤٧).

أما القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ – ١١٠٩) فقد جمع فى فلسفته بين العقل والإيمان. وهو إيطالى درس بفرنسا ودخل دير بك حيث تعلم ثم علم. وبفضله ذاعت شهرة الدير فقصده كثير من طلاب العلم الفرنسيين والإنجليز، وظل به حتى عين سنة ١٠٩٣ رئيسا لأساقفة كانتربورى، وتدور معظم فلسفته حول مضوعات دينية. لا سيما وجود الله وصفاته(١٤٨). وهو يعترف فى كتاباته أنه تلميذ القديس أوغسطين وأنه أخذ عنه منهج تعقل الإيمان، فيقول أن الإيمان هو الذى يوجد المحبة فى النفس. والمحبة هى التى تدفع بالنفس إلى استعمال الرؤية الآجلة بالاستدلال. وعلى ذلك فالإيمان شرط التعقل، لأن الذى لايؤمن لايشعر بموضوع الإيمان. والذى لا يشعر لا يعقل، وبعد ذلك يورد أنسلم أدلة على وجود الله مستقاة عن النواحى التى تتشابه فيها الأشياء مع تفاوتها فى ذلك التشابه.

أما أبيلار Abelard (١٠٧٩ – ١١٤٢) فهو أهم شخصية فلسفية فى القرن الثانى

---

(146) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. p. 795 - 796.

(147) De Wulf : Hist. de la Philosophie Medievale, Tome 1, p. p. 102 - 106
وكذلك يوسف كرم ص ٨١ – ٨٢.

(148) De Wulf: Tome 1, p. 114.

عشر، نظرا لما أمتاز به من كفاية نادرة ومواهب عقلية ممتازة وجرأة فى الابتكار والتجديد ، حتى أنه يمكننا وضعه بين أعلام فلاسفة العصور الوسطى قاطبة (١٤٩)، كذلك عرف عنه أنه من أبرز رجال المنطق والجدل فى عصره، وإن كان ذلك سبب له مشاكل كثيرة، إذ أتهمه معاصروه بضعف العقيدة، رغم إيمانه الصادق، ومع ذلك لم يتراجع ابيلار، وأخذ يدفع عن نفسه التهم والشبهات دون أن يحيد عن طريقه الشائك الصعب، واليه - أكثر من أى مفكر آخر فى عصره - يرجع الفضل فى تحديد أساليب ومسائل المذهب المدرسى، ولا سيما مسألة الكليات التى ظلت المشكلة الرئيسية فى الفلسفة المدرسية(١٥٠) : فهل الاصطلاحات العامة والمدركات الكلية - مثل إنسان ومنزل وشجرة - ليست إلا أصوات ومجرد ألفاظ لا وجود فعلى لها كما يقول الاسميون No-minalists - وعلى رأسهم روسللينوس كما سبق - أم أنها حقائق واقعية لها كيانها المستقل عن الجزئيات، كما يقول الواقعيون Realists ففى الحالة الأولى لا يمكن أن نتكلم عن الإنسانية دون تصورإنسان بذاته، أو عن المنزل دون تصور منزل معين. أما فى الحالة الثانية فيمكن اعتبار هذه الكليات ذات كيان قائم بذاته مستقل تماما عن الجزئيات، بمعنى أنه من الممكن أن نتكلم عن الإنسانية دون أن نتصور إنسانا بعينه، وهكذا(١٥١)، وربما بدت هذه المشكلة فى نظرنا تافهة وقليلة الأهمية، ولكنها من الممكن أن تصبح على جانب عظيم من الخطورة إذا طبقت فى المسائل الدينية الكبرى المتعلقة بوجود الله والثالوث المقدس وقدسية الكنيسة، أو إذا طبقت على الدولة وأين تتمثل السلطة السياسية فيها. وقد توصل ابيلار إلى حل معتدل لهذه المشكلة، فقال بأن الألفاظ تعتبر كلية لأننا نقصد بها دلالة كلية، وأن للأنواع والأجناس مقابلا فى الخارج، وهذا المقابل هو طبيعة الجزئى مجردة من الأعراض، هذا إلى أن الطبيعة واحدة فى الجزئيات الحاصلة عليها، فالأنواع والأجناس ذاتية فى الجزئيات مجردة فى العقل(١٥٢) . ومن ناحية أخرى أسهم ابيلار بسهم وافر فى تكوين المدرسية - أو المذهب المدرسى Scholasticism (١٥٣) - عن

---

(149) Taylor: The Med. Mind., vol. 2, p. 374.

(150) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 203.

(151) Maurice De Wulf : op. cit., Tome 1, p. p. 152 - 156.

(152) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. p. 797 - 800.

ويوسف كرم ص ١٠٥ .

(١٥٣) عن الفلسفة المدرسية انظر الباب السادس فى هذا الجزء.

طريق كتابه «نعم ولا Sic et Non» وهو الكتاب الذى عالج فيه نحو خمسين مسألة لاهوتية عن طريق الجدل، مستعرضا آراء آباء الكنيسة فى كل مسألة(١٥٤)، ولاشك فى أن هذه الطريقة الجدلية التى أتبعها بعض فلاسفة الجزء الأول من القرن الثانى عشر اكتسبت قوة ونشاطا باكتشاف المنطق الجديد لأرسطو. وكانت كتب المنطق القديم لأرسطو التى عرفتها أوربا من قبل قد حفظت التوازن بين المنطق من جهة والنحو والبلاغة من جهة أخرى، ولكن حدث بعد انتشار طريقة الجدل فى القرن الثانى عشر، وبعد ظهور المنطق الجديد لأرسطو أن طغى المنطق على النحو والأدب، حتى أننا نجد أن حنا سالسبورى سنة ١١٥٩ يعيب على معاصريه اهمالهم الدراسات الكلاسيكية الأدبية واهتمامهم بالعلوم الجديدة وحدها، كما نبههم إلى أن الجدل والمنطق يجب أن يكونا وسيلة لا غاية(١٥٥).

اللاهوت :

ويتضح من كلامنا السابق عن الفلسفة أن النشاط الفلسفى فى القرن الثانى عشر ظل كما هو الحال فى العصور الوسطى قاطبة، مرتبطا إلى حد كبير بالنشاط الدينى وعلم اللاهوت(١٥٦)، فكثيرا ما خاض فلاسفة أمثال جيوم الكونشى Guillaume de Conches (ت ١١٤٥)، أو ابيلار فى مسائل كنسية ولاهوتية بحتة(١٥٧). وفى الوقت نفسه اعتقد اللاهوتيون - كما قال بطرس دميانى (ت ١٠٧٢) - أن الفلسفة خادمة اللاهوت، فاشتغلوا - وعلى رأسهم روسيللينوس والقديس أنسلم - بالجدل والفلسفة، وتعرضوا لكثير من المسائل الفلسفية البحتة، وهكذا سرعان ما تأثر اللاهوت بالفكر الفلسفى والأسلوب المنطقى. ومن ذلك أنه عندما ترجم برجنديو البيزى كتابات يوحنا الدمشقى(١٥٨)، فإنه أضاف معلومات جديدة إلى اللاهوت الغربى. وعندما وضع بطرس لمبارد (ت ١١٦٤) كتاب «الأحكام» فى علم اللاهوت، ظهر فى كتاباته مدى آراء ابيلار وجراشيان.

---

(154) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 203 and De Wulf: op. cit., Tome 1, p.155.

.(155) Haskins: The Renaissance, p. 356.

(156) Maurice de Wulf : op. cit., Tome 1, p. p. 20 - 22.

(157) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 44 - 45, 20 - 22.

(١٥٨) ولد فى دمشق فى أواخر القرن السابع وتوفى قبل سنة ٧٥٤، يعتبر أحد أعلام اللاهوت فى الكنيسة الشرقية، اسمه العربى منصور.

وقد اهتمت البابوية باللاهوت اهتماما كبيرا، لما يترتب على التوسع فى دراسته من دعم نفوذها وإمداد الكنيسة بدعامة قوية، وسرعان ما أصبح اللاهوت علما قائما بذاته يدرس فى الجامعات الأوربية الناشئة،وبخاصة جامعة باريس (١٥٩)، أما المراجع الأساسية التى قامت عليها دراسة اللاهوت فى جامعات العصور الوسطى فأولها الإنجيل، وكتابات آباء الكنيسة ثم كتاب «الأحكام» الذى وضعه بطرس لمبارد، ومما يجدر بالذكر أن كتاب الأحكام هذا جاء فى أربعة أجزاء، رتب فيها بطرس لمبارد مسائل اللاهوت، وقرن كل مسألة بحجج الإثبات أو النفى وفقا لأصول المنطق وقواعده، وبخاصة الطريقة التى أتبعها ابيلار. وعندما توفى بطرس لمبارد - وهو أسقف باريس - استمر كتابه بقية القرن الثانى عشر وطوال الثالث عشر المرجع الأساسى الذى اعتمد عليه تدريس اللاهوت فى غرب أوربا(١٦٠).

وقد تعرضت الكنيسة واللاهوت لبعض أزمات فى القرن الثانى عشر، نتيجة لظهور مبادئ هرطقية، أولها مذهب وحدة الوجود Panthisme الذى نادى به عمورى دى بين Amaure de Béne (ت ١٢٠٧) ومعاصره داود دى دينان David de Dinant . وأنكر مجمع باريس الدينى سنة ١٢١٠ هذا المذهب ، الذى يحتمل أن تكون له صلة بآراء الرشديين(١٦١)، أما المذهب الهرطقى الثانى الذى انتشر فى القرن الثانى عشر فهو مذهب المانويين Manichaeans or Dualists الذى نادت به فرقتان، وهما فرقة الكاتاريين Cathari أى الاطهار باليونانية، وفرقة الإلبيجنسيين Albigensians التى انتشر أتباعها فى إيطاليا وفرنسا وبخاصة فى إقليم جبال الألب(١٦٢)، ومهما يقال من أن هذه الفرق استقت مبادئها من ألوان الهرطقة القديمة التى وجدت فى الإمبراطورية الرومانية وهى الدولة الفارسية، فإن معظم الباحثين أجمعوا على أن مصدرها شرقى ، وعلى أن العلاقة قوية بينها وبين بعض المذاهب الهرطقية التى ظهرت فى شبه جزيرة البلقان (١٦٣) . وقد نادى المانويون بالتحرر من

---

(١٥٩) سعيد عاشور ، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، ص ١٤٤.

.(160) Haskins: The Renaissance, p. p. 357 - 358.

(161) Maurice De Wulf : op. cit., Tome 1, p. p. 180 - 184.

(١٦٢) عن هده المذاهب الهرطقية وأثرها فى تاريخ القرن الثانى عشر انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

(163) Cam. Med. Hist., Vol. V, 6. p. 702 - 703.

جميع القيود الدينية والاجتماعية وتحريم الزواج ، ثم تمادوا إلى إباحة اغتيال الكاثوليك ونهب الأديرة والكنائس، ومن الواضح أن انتشار هذه الدعوة من شأنه هدم دعائم الكنيسة الغربية، بل زعزعة أركان المجتمع الأوربى، الأمر الذى أفزع الكنيسة الغربية فأنشأت تعمل على إقناع فرق المانويين طوال القرن الثانى عشر دون جدوى، حتى اضطر البابا أنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية على أولئك الهراطقة سنة ١٢٠٩ والقضاء على حركتهم قضاءا تاما(١٦٤).

على أنه ينبغى ألا نفهم من موقف الكنيسة من بعض الفرق الهرطقية أن حرية الفكر كانت معدومة فى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر أو فى العصور الوسطى، فالواقع أن هذه الحرية ظلت أعظم مما تصورها البعض عليه. وكل ما هنالك هو أن الناس كانوا أحرارا فى تفكيرهم وكتاباتهم داخل نطاق تعاليم الكنيسة. وحتى تلك القيود التى وجدت فى العصور الوسطى لم تكن بالضيق والصرامة التى يميل البعض إلى تصويرها عليه. فلم توجد هناك أية قوانين تحد من تفكير أساتذة القانون والطب والنحو والمنطق.. وغيرها من العلوم، وعلى ذلك ظلت الفلسفة حرة طليقة طالما لم تصطدم باللاهوت وتعاليم الكنيسة(١٦٥).

الفكر السياسى :

أما عن فلسفة السياسة بمعنى الفكر الذى يعالج شئون السياسة وفلسفة الحكم، فنجد أن نشاط القرن الثانى عشر فيه كان ضعيفا، ولكنه ليس معدوما، فالمؤلفات التى خلفها أعلام القرن الثانى عشر لا تعبر عن النشاط السياسى فى الدول المعاصرة مثل الإمبراطورية المقدسة وإنجلترا ومملكة الصقليتين وأرغونة، ولم يحاول معظم الفلاسفة المعاصرين أن يتعرضوا لشئون الحكم والدولة. وإذا كانت بعض الكتابات المعاصرة مست هذه المشاكل عن بعد ، فإنها مستها عن طريق المسائل المعلقة بين الكنيسة والدولة. وهنا نجد كثيرا من تلك الكتابات تركز اهتمامها فى مسألة التقليد العلمانى، محور النزاع بين البابوية والإمبراطورية طوال الجزء الأكبر من القرن الثانى عشر. وحتى الكتابات المنظمة فى هذا الموضوع لم تظهر قبل ترجمة كتاب أرسطو فى السياسة سنة ١٢٦٠ .

(164) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 224.

(165) Haskins: The Renaissance, p. 362.

على أن ركود الفكر السياسى فى القرن الثانى عشر لايمنعنا من الإشارة -فى إيجاز- إلى تطور هذا الفكر في العصور الوسطى عامة، حتى يمكننا تفهم الأسس التى بنى عليها حنا سالسبورى - أكبر فلاسفة السياسة فى القرن الثانى عشر- آراءه فى السياسة والحكم، وهنا نلاحظ أن الفكر السياسى فى العصور الوسطى نبع من فكرة أساسية واحدة، هى فكرة وجود إمبراطورية رومانية مسيحية. فالمفكرون فى تلك العصور لم يقروا مطلقا أن الإمبراطورية الرومانية انتهت بزوال الوثنية وأباطرتها، بل أخذوا يربطون بين الآراء السياسية فى الإمبراطورية الرومانية من ناحية وبين تعاليم المسيحية ومبادئها من ناحية أخرى، ومعنى ذلك أن الناس فى العصور الوسطى نظروا إلى العالم على أنه مجتمع سياسى دينى كبير، يحكم وفقا لقانون موحد، يمثل فى جانبه الدنيوى التراث الرومانى، وفى جانبه الدينى تعاليم المسيحية والكنيسة(١٦٦).

والواقع أن ظهور المسيحية وانتشارها فى غرب أوربا أدى إلى مولد مشكلة سياسية خطيرة ظلت مستحكمة جزءا كبيرا من العصور الوسطى، فالإمبراطورية الرومانية القديمة لم تعرف حدودا لسلطة الدولة على الفرد، واعتبرت الفرد يعيش من أجل الدولة وليست له أية حقوق قبلها. ولكن المسيحية أنكرت هذا الوضع، ولم تقر بأن حياة الفرد كلها ملك لقيصر وإنما يجب أن يكون ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. ومن هنا نشأت الفوارق بين السلطتين الزمنية والروحية، وهى الفوارق التى تحكمت تحكما بعيد المدى فى سياسة العصور الوسطى، حتى أدت فيما بعد إلى قيام صراع رهيب بين البابوية والإمبراطورية. ولقد حاول أحد رجال الدين فى القرن الخامس - وهو جلاسيوس الأول أسقف روما (٤٩٢ - ٤٩٦) - أن ينظم العلاقة بين السلطتين على أساس استقلال كل منهما عن الأخرى، بشرط أن تتبع الكنيسة الدولة فى الشئون الدنيوية، فى حين تتبع الدولة الكنيسة فى الشئون الدينية. ولكن الأحداث التالية طوال العصور الوسطى أثبتت صعوبة تنفيذ هذا الرأى تنفيذاً عمليا، اللهم إلا فى حالات قليلة وتحت ضغط ظروف خاصة عندما تحقق نوع من التحالف بين الكنيسة والدولة(١٦٧).

---

(166) Eyre: op. cit., vol. 3, p. p. 278 - 279.

(167) Idem: p. 10.

وعندما تعمق مفكرو العصور الوسطى فى بحث الأسس التى يقوم عليها المجتمع، وصلوا إلى نتيجة لم تكن فى حقيقة الأمر من ابتكارهم، إذ سبقهم إليها أرسطو قديما، أما هذه النتيجة فهى أن الانسان اجتماعى بالطبع ، فالفرد لا يمكن أن يكون إنسانا إذا استساغ المعيشة الانفرادية، لأنه فى هذه الحالة إما أن يكون إلها أسمى من مستوى البشر أو حيوانا أحط من مستوى البشر. ثم قال المفكرون فى العصور الوسطى: أن تنظيم المجتمع البشرى يقوم على أساسين: أولهما: القانون الطبيعى ويقصد به مجموعة الصفات والأخلاق الطيبة التى يجب أن يتحلى بها البشر، وثانيهما القوانين المدنية الوضعية القائمة فى مختلف الدول، والمفروض فيها أن تكون مستمدة من القانون السابق ومتمشية معه، ولكنها فى الواقع تختلف عنه لأنها تعمل حسابا للتقاليد والعادات، حتى ولو كانت ذميمة. وهذا الخلاف - بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية - أثار مشكة كبيرة نستطيع أن ننفذ منها إلى مشكلة الدول السياسية، أما هذه المشكلة فهى: هل القوانين الوضعية التى تختلف باختلاف الدول تتفق مع القانون الطبيعى ومبادئ الأخلاق، أم أنها مصطنعة فاسدة جاءت نتيجة لآثام الإنسان وشروره؟ وبالتالى هل الوحدات السياسية التى قامت على أساس القوانين الوضعية إجراء طبيعى وسليم، أم أنها إجراء فاسد قام على أساس قوانين فاسدة؟[١٦٨].

وقد تعرض لهذه المشكلة فى أوائل العصورالوسطى القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) فى كتابه عن «مدينة الله De Civitas Dei » وهو الكتاب الذى ترك أثرا فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى فاق الأثر الذى أحرزه أى مؤلف آخر، وتتركز الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب فى المقارنة بين «مدينة الله Civitas Dei» و«مدينة الأرض Civitas Terrana»، وإذا كان القديس أوغسطين قصد بمدينة الله ، مدينة الخيرين الذين باركهم الله، فإنه بلا شك - يقصد بمدينة الأرض الوحدة السياسية أو الدولة التى اصطنعها الناس والتى تقوم على أسس من الشر والغدر والقوة. وبالتالى فإن سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان فى ظل النظم السياسية ليست أمرا طبيعيا [١٦٩]، لذلك طالب القديس أوغسطين السادة أن يعاملوا ما يمتلكونه من رق كأبنائهم إذا كانوا يخشون الله [١٧٠]، وهذه الآراء التى نادى بها القديس أوغسطين فى

(١٦٨) انظر ما سبق - الباب السابع.

(169) Carlyle: A History of Medieval Political Theory in the West: vol. 1, p. p. 126 - 128.

(170) Idem: p. 123.

كتابه السابق رددها بعد ذلك بستة قرون البابا جريجورى السابع ثم البابا أنوسنت الثالث ثم البابا بونيفيس الثامن(١٧١).

على أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية لايمثل الرأى القاطع الذى أخذ به مفكرو العصور الوسطى، هذا وإن لعب دورا هاما فى الفكر السياسى لتلك العصور. فالمفكرون فى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الدولة وليدة آثام البشر وأخطائه، ولكنهم لم يعتبروا هذه الدولة آثمة ومليئة بالأخطاء على طول الخط. حقيقة أن قيام الدولة ينافى القانون الطبيعى للبشرية، وهو القانون الذى يقضى بالمساواة التامة بين جميع الأفراد أمام الله ـ على الأقل، والذى يحول دون تحكم إنسان فى أخيه الإنسان، ولكن المفكرين لم يستطيعوا أن ينكروا أن قيام الدولة أصبح أمرا مفيدا لابد منه لمواجهة أعباء الحياة وظروفها القاسية ومطالبها العديدة، وكذلك لكبح جماح البشر بعد أن تردى الإنسان فى الخطيئة وتخلى عن الصفات الطيبة التى يجب أن يتحلى بها. وبعبارة أخرى فإن الحكومة الدنيوية السياسية جاءت وليدة الخطأ والاثم، ولكن بقاءها أصبح ضروريا لعلاج ذلك الخطأ والاثم (١٧٢). وكل ما هنالك هو أنها يجب أن تعتمد فى ذلك العلاج على تأييد الله ونصرة الدين ورجاله، وفى هذه الحالة تجب طاعتها على الناس. هذه هى النظرية السياسية فى العصورالوسطى، وهى التى توسع فيها دانتى بعد ذلك فى كتابه عن «الملكية De Moarchia».

وقد ظهر صدى الآراء السابقة فى جميع نواحى الفكر السياسى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى وبداية الحديثة. فالقول بأن السلطة الزمنية لها وجه دينى مقدس فى محاربة الفساد والآثام، أدى مباشرة إلى القول فى غرب أوربا بنظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس (Divine Right of Kings). حقيقة أن هناك عوامل أخرى أسهمت فى تطور هذه النظرية فى الغرب الأوربى، منها ما نادى به الفريق الإمبراطورى من أن الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة. ولكن فكرة «الحق المقدس» ذاتها نشأت داخل نطاق الدولة أو الوحدة السياسية، لأن الرأى الذى ساد العصور الوسطى هو أن الإمبراطور أو الملك أداة الله فى مقاومة الآثام البشرية، وأنه

---

(171) Cam. Med. Hist., Vol. 6, p. p. 606 - 608.

(172) Gierke : political Theories of the Middle Ages, p.31.

بناءا على ذلك يتولى وظيفته وفقا لحق مقدس، مما جعل الخروج عن طاعته أو الثورة ضده خروجا عن طاعة الله (١٧٣). على أنه يلاحظ أن نظرية حق الملوك المقدس لم يتسع تفسيرها فى العصور الوسطى إلى حد عدم مسئولية الحاكم أو الملك عن أعماله، وهو المبدأ القديم الذى أحياه المعاصرون فى القرن السابع عشر، وحرفوه لصالح الملوك، فالمفكرون فى العصور الوسطى اعتقدوا دائما فى أن الحكم أمانة، وفى أن الحاكم سواء كان ملكا أو إمبراطورا عليه واجبات محددة يجب أن ينهض بها(١٧٤).

على أن هذا الاعتقاد سرعان ما آثار مسألة أخرى، هى العلاقة بين الحاكم والمحكومين، أو بين الملك وشعبه. ذلك أنه لما كان قيام الدولة - وبالتالى قيام حاكم الدولة - جاء وليدا لأخطاء البشر وعلاجا لهذه الاخطاء، فان الحكمة من بقائهما أصبحت مراعاة صالح المحكومين وتوفير السلام والعدالة والحرية لهم (١٧٥). وهكذا غدت المشكلة الجديدة هى كيفية تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة، وقد اتخذت العصور الوسطى فى هذه المشكلة رأيا حاسما، عبر عنه توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر (١٢٢٥ - ١٢٧٤) حين قال «ليست المملكة ملكا للملك وإنما الملك ملك للمملكة» (١٧٦) «Regum not est propter regem, sed, rex propter regnum» ويفسر توما الأكوينى ذلك بأن الله أقام ملوك الأرض، لا لتحقيق مصالحهم الخاصة، وإنما لتحقيق الصالح العام للناس. كذلك يضيف توما الأكوينى أن القانون المدنى يجب أن يستهدف الصالح العام، وإلا فإنه يصبح عديم القيمة والأثر، ومن هذا نستطيع أن نقرر أن نظرة العصور الوسطى إلى الحكومات الدنيوية كانت لا يمكن أن تتفق وفكرة عدم مسئولية الحكام(١٧٧) كذلك تبدو من خلال هذه الفكرة بذور نظرية العقد الاجتماعى، لأن معنى أن بقاء الملك فى الحكم يجب أن يكون مشروطا بصالح الشعب، هو أنه يحق للشعب التخلى عن طاعة حاكمه إذا لم يعمل ذلك الحاكم على تحقيق الصالح العام لشعبه. هذا إلى أن قول

---

(173) Carlyle: op. cit., vol. 1, p. p. 210 - 216.

(174) Gierke: op. cit.., p. 34.

(175) Ibid.

(176) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 281.

(177) Cam. Med. Hist., Vol. 6, p. 629.

المفكرين فى العصور الوسطى بأن الناس جميعا متساوون أمام الله، تبدو فيه النزعة الديمقراطية التى ظهرت واضحة فى العصور الحديثة، وهكذا نستطيع أن نقرر أن العصور الوسطى وضعت أساس كثير من النظريات السياسية التى لعبت دورا خطيرا فى التاريخ الحديث.

وعلى أساس هذه الآراء السابقة فرق حنا سالسبورى فى القرن الثانى عشر بين الملك والطاغية أو الحاكم المطلق Tyrannus ، فقال أن الملك يطيع القانون ويحترمه، فى حين يتجاهله الحاكم المطلق، ثم قال أنه لما كانت الملكية نظاما إلهيا مقدسا، فإن إساءة الملك استخدام سلطته يعتبر خيانة لله، وفى هذه الحالة يجب إعدام الملك. وتكون هذه العقوبة حقا وعدالة(١٧٨).

هذه الآراء وغيرها عرضها حنا سالسبورى سنة ١١٥٩ فى كتابه عن الحكومة والسياسة «Plicraticus» الذى يعتبر أهم محاولة لتنظيم الفلسفة السياسية فى القرن الثانى عشر بل العصور الوسطى قاطبة. وقد درس حنا هذا على كبار أساتذة القرن الثانى عشر فى فرنسا، مثل أبيلار وجيوم الكونشى وغيرهما، ثم تنقل بين إنجلترا وإيطاليا فكان من مستشارى البابا أدريان الرابع والملك هنرى الثانى ملك إنجلترا، وبذلك استطاع أن يجمع بين الثقافات اللاتينية والإنجليزية والفرنجية (١٧٩)،ولكنه فى كتابه السابق لم يشر إلى أحدى الشخصيات العظيمة التى اتصل بها، وإنما استمد معظم أمثلته من الإمبراطورية الرومانية، ويبدو أن نظريته فى الملكية جاءت متأثرة إلى حد كبير بالفكرة الاقطاعية التى تجعل القانون فوق الملك، ولكن السلطات الواسعة التى خولها الملك أخذها عن القانون الرومانى والمؤرخين القدماء(١٨٠) . ومن هذا أن حنا سالسبورى استطاع فى كتابه السابق أن يعبر عن القرن الثانى عشر تعبيرا مثاليا يبين فيه ما يجب أن يكون، لا ما هو كائن فعلا، كما أنه لم يحاول أن يتعرض للمشاكل السياسية القائمة(١٨١) . وهكذا نلاحظ الفرق واضحا بين مستوى الفكر السياسى فى القرن الثانى عشر ومستواه بعد ذلك فى القرن الثالث عشر. فمفكرو القرن الثانى عشر

(178) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 288.

(179) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 222.

(180) Cam. Med. Hist., Vol. 6, p. p. 621 - 622.

(181) Haskins: The Renaissance, p. p. 359 - 360.

يمثلون عصرا سريع التطور فى الميدانيين السياسى والحضارى ، مما لم يتح لهم فرصة للتوقف وجمع شتات أفكارهم ووضعها فى قالب عملى، فى حين عمل كتاب القرن الثالث عشر على جمع خلاصة الآراء السياسية فى العصور الوسطى، واستغلال هذه الآراء فى إقامة بناء قوى متكامل(١٨٢).

ومهما يكن الأمر ، فإن كتاب حنا سالسبورى يعتبر أهم ما ظهر فى العصور الوسطى فى الفلسفة السياسية،وذلك حتى ظهور ترجمة كتاب أرسطو فى السياسة سنة ١٢٦٠.

نشأة الجامعات:

وفى ختام كلامنا عن النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر، نشير إلى أن هذا القرن لم يكن عصر إحياء فى الميدان الثقافى فحسب، وإنما كان ايضا عصر ابتكار وتجديد فى النظم التعليمية، لاسيما ما تعلق منها بالتعليم العالى، فالقرن الثانى عشر بدأ بالمدارس الديرية والكتدرائية واختتم بمولد أولى الجامعات التى عرفتها أوربا، وليس هناك من شك فى أن ظهور الجامعات يعتبر ثورة كبيرة فى الحياة الأوربية، حتى قال بعض الكتاب أن الجامعة هى أعظم ما أخرجته العصور الوسطى للعالم، فى حين ذكر أحد رجال العصور الوسطى أن الجامعة إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحى ووجهته، بالإضافة إلى الكنيسة والإمبراطورية(١٨٣).

والواقع أنه كان من المستحيل أن يتسع نطاق المعرفة فى القرن الثانى عشر على تلك الصورة التى رأيناها، مع بقاء نظم التعليم ثابتة فى وضعها المألوف، وعلى هذا فالجامعات جاءت وليدة نهضة القرن الثانى عشر العلمية، واتساع نطاق المعرفة فى ذلك القرن، وهى فى الوقت نفسه من أهم مظاهر تلك النهضة. فطالما اقتصرت الحياة العلمية فى أوربا على معالجة الفنون السبعة الحرة، لم تكن هناك ثمة حاجة إلى جامعات، لأنه لم يوجد ما يتلقاه الطلبة أكثر من مبادئ النحو والبلاغة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والموسيقى. ولكن فى المدة بين نهاية القرن الحادى عشر وبداية القرن الثالث عشر تطورت الحياة العلمية فى أوربا تطورا كبيرا، نتيجة للعلوم

---

(182)Carlyle: op. cit., vol. 1, p. 250.

(183) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. 2.

والمعارف الجديدة التى تدفقت على الغرب، والتى كانت أعظم من أن تتسع لها المدارس الديرية والكتدرائية العتيقة. وبالتالى صار لابد من حدوث تطور فى نظم التعليم العالى وقيام كليات جامعية تحتضن تلك المعارف الجديدة(١٨٤).

ولم تقف أهمية القرن الثانى عشر عند حد نشأة الجامعات، وإنما يستطيع ذلك القرن أن يفخر أيضاً بابتكار كثير من النظم والأوضاع التى سارت عليها الجامعات فى العصور التالية، ولم يكن فى هذه النظم والأوضاع شىء قديم مأخوذ من تراث اليونانيين أو الرومان، لأن العالمين اليونانى والرومانى لم يعرفا الجامعات وإن عرفا التعليم العالى. فأوربا لم تعرف الجامعات لأول مرة فى تاريخها إلا فى القرن الثانى عشر. وإلى هذا القرن بوجه خاص يرجع الفضل فى قيام ذلك الركن الهام من أركان الحضارة الأوربية(١٨٥).

والجامعات تشبه البابوية والإمبراطورية فى أن نشأتها جميعا ترجع إلى ظروف يغلب عليها طابع المصادفة، ولذا يتعذر علينا أن نفهم كيفية نشأة الجامعات فى القرن الثانى عشر دون الإشارة إلى تلك الظروف، وهنا نجد أن المعنى الاصلى للفظ جامعة «Universitas» فى مصطلح العصور الوسطى، هو مجموعة أو اتحاد أو رابطة تضم المشتغلين بعمل واحد أو حرفة واحدة، والمعروف أن العصور الوسطى شهدت ألوانا متعددة من الاتحادات والنقابات، ولكننا فى أواخر القرن الثانى عشر- وفى القرن الثالث عشر- نجد هذا اللفظ قد أصبح يطلق على الاتحاد العلمى أو النقابة التى تضم عددا من رجال العلم، سواء كانوا أساتذة أو طلابا(١٨٦). ووفقا لهذا المعنى الأخير، أصبح يوجد بالمدينة الواحدة عدد من الجامعات، بالضبط كما وجدت بها عدة نقابات مهنية، ولم يكن من الضرورى أن تكون هذه الجامعات المتقاربة قد اشتغلت جميعا بفرع واحد من فروع المعرفة، فإذا عنى بعضها بدراسة الطب فإن البعض الآخر عنى بالقانون أو الفلسفة واللاهوت، ولكن لم تلبث هذه الاتحادات أو الجامعات القائمة فى مدينة واحدة أن أخذت ترنو إلى الاتحاد والاندماج ليكمل بعضها بعضا، وهكذا نشأت

---

(184) Haskins: The Rise of Universitiies , p. 7.

(185) Haskins: The Renaissance, p. 369.

(١٨٦) سعيد عاشور: الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، ص ٣٤- ٣٥.

من ذلك الاتحاد فى كل مدينة من المدن الجامعية جامعة واحدة كبيرة، ترتبط باسم تلك المدينة، وهذا التطور الأخير كان محوره فى شمال أوربا نقابات الأساتذة والمدرسين ، كما هو واضح فى جامعة باريس والجامعات التى تفرعت عنها، أما فى جنوب أوربا فكان محوره نقابات الطلبة، كما هو واضح فى جامعة بولونيا والجامعات التى تفرعت عنها(١٨٧) . ولكن الخطوة الأساسية فى الحالتين ظلت السماح للفرد بالدخول فى نقابة هيئة التدريس. وبدون ذلك لايكون الشخص إلا طالبا للعلم، ولمنع المحاباة والأنانية فى احتكار مناصب التدريس، وضع نظام يكفل للطالب الحصول على ترخيص بالتدريس الجامعى (Licentia docendi) بعد أن يجتاز امتحانا خاصا فى مواد معينة درسها، وبذلك أصبح هذا الترخيص أول نوع من أنواع الدرجات العلمية الجامعية. هذا إلى أن طالب شهادة التدريس كان يكلف عادة بإلقاء محاضرة تجريبية فى موضوع من الموضوعات التى أمتحن فيها، وذلك لتدريبه من جهة، ولاختبار صلاحيته لمباشرة مهنة التدريس من جهة أخرى، وهكذا يبدو أن البرامج الدراسية، والإعداد لوظائف التدريس الجامعية، ومنح الدرجات العلمية، كلها نظم ورثتها الجامعات الحديثة عن الحياة الجامعية فى العصور الوسطى وبوجه خاص القرنين الثانى عشر والثالث عشر(١٨٨) .

ويلاحظ أن أولى الجامعات الأوربية التى ظهرت فى القرن الثانى عشر جاءت وليدة مدارس الكتدرائيات لا مدارس الأديرة، ويرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل أولها أن المدارس الديرية بحكم طبيعتها لم تكن على استعداد لقبول طلاب من غير الرهبان، لأن وجود الطلاب غير الديريين فيها بأية نسبة من شأنه أن يفسد روح النظام فى الدير. هذا بالإضافة إلى أن معظم الأديرة فى العصور الوسطى قامت فى المناطق المتطرفة البعيدة عن العمران. وأخيراً فإننا نلمس تدهورا مستمرا فى الحياة الديرية فى القرن الثانى عشر، بحيث أن النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر لم تجد لها متسعا فى مدارس الأديرة. أما الكتدرائيات فقد صار لها وضع آخر بحكم طبيعتها وقيامها فى المدن، ففتحت أبوابها أمام الطلاب العلمانيين، كما كانت الحياة العلمية

---

(187) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. 17.

(188) Haskins: The Renaissance, p. 370.

بين أرجائها أكثر حرية وأوسع أفقا (١٨٩). وكانت أظهر المدارس الكتدرائية فى القرن الثانى عشر في شمال فرنسا. مثل ريمس Rheims، وشارتر Charters وتور Tours وباريس وأورليان، وجميع هذه المدارس تأثرت بالنهضة العلمية فى ذلك القرن تأثرا متباينا ، فعنى بعضها بالدراسات الفلسفية واللاهوتية، وعنى البعض الآخر بالدراسات الفلسفية واللاهوتية، فى حين عنى فريق ثالث بالدراسات الكلاسيكية، ومهما يكن الأمر فإنها جميعا استمدت مكانتها وشهرتها من الأساتذة الذين قاموا بالتدريس فيها، فالأستاذ لا المدرسة هو الأساس الذى يجذب طلاب العلم(١٩٠).

ومن الثابت أنه وجد فى غرب أوربا عند ختام القرن الثانى عشر خمس أو ست جامعات على الأقل، هى جامعات سالرنو وبولونيا ورجيو بإيطاليا، وباريس ومونتبليه بفرنسا، وأكسفورد بإنجلترا(١٩١). وإذا كانت جامعة سالرنو قد ذبلت فى وقت مبكر، فإن جامعة بولونيا ظلت حينا من الدهر تحمل لواء نهضة القانون فى غرب أوربا. فى حين أن جامعة باريس أخذت تنمو بسرعة، حين جعلت من فرنسا زعيمة الحركة الفكرية فى أوربا العصورالوسطى. والحق أن جامعتى بولونيا وباريس هما الشجرتان اللتان تفرعت عنهما ونظمت وفق نمطيهما بقية الجامعات الأوربية(١٩٢).

أما النمط الأول الذى يمثل جامعات البحر المتوسط وجنوب أوربا، فيلاحظ عليه أنه لم يهتم بالمنطق والرياضيات والفلسفة قدر الاهتمام بالعلوم العملية، وبخاصة القانون والطب . وبعبارة أخرى فإن هذا القسم من الجامعات قام على أساس الكليات العملية المهنية. وقد سبق أن أشرنا إلى تقدم الدراسات الطبية فى سالرنو فى العصور الوسطى، مما أدى إلى قيام مدرسة كبيرة للطب فى تلك المدينة، ظلت أكثر من قرنين محتفظة بمستوى أكاديمى فى دراسة الطب، لا يقل عما بلغته بولونيا فى القانون وباريس فى الفلسفة(١٩٣)، ومهما يكن من وجود بعض آثار لهذه المدرسة منذ القرن التاسع. فإن شهرة سالرنو فى الطب ترجع بدون شك إلى منتصف القرن الحادى

---

(189) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. XXIV.

(١٩٠) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ١٠ – ١٨ .

(191) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. XXIV.

(102) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 328.

(193) Rashdall: op. cit., vol. 1,. p. 75.

عشر[١٩٤] . ولكن يبدو أن هذه الجامعة ظلت فى شبه عزلة عن بقية غرب أوربا، ولم يتوافر لها من التنظيمات وأسباب النمو والعظمة ما يجعل منها نموذجا يحتذى به فى بقية الجامعات الناشئة[١٩٥] . وهكذا استمر الغموض يكتنف جامعة سالرنو ونظمها فى القرن الثانى عشر، حتى نظمها الإمبراطور فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر، عندما أصدر مرسوما سنة ١٢٣١ يحرم مزاولة الطب أو تدريسه فى أنحاء الإمبراطورية، دون الحصول على ليسانس أو تصريح ملكى، ولاتمنح هذه الشهادة إلا بعد امتحان على أيدى أساتذة سالرنو، وكان هذا المرسوم أول اعتراف رسمى بجامعة سالرنو[١٩٦] .

أما جامعة بولونيا فهى أهم جامعات البحر المتوسط وأوضحها من حيث النشأة والنمو، والمعروف أن هذه الجامعة جاءت وليدة نشاط الدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر، كما سبق أن شرحنا بالتفصيل، وإذا كانت هناك مدارس أخرى للقانون وجدت فى روما ورافنا وبافيا فى القرن الحادى عشر - أى قبل ظهور مدرسة بولونيا - فإنه من الثابت أنه لم يقدر لإحدى هذه المدارس أن تنمو لتصبح جامعة ذات شهرة واسعة، كما حدث لمدرسة بولونيا [١٩٧]، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الطبيعة حبت بولونيا بميزة جغرافية كبرى، هى وقوعها عند ملتقى الطرق ومفترقها فى شمال إيطاليا، مما جعلها مكانا صالحا لالتقاء العلماء وطلاب العلم [١٩٨]، وقد عرفت بولونيا فى القرن الحادى عشر بدراسة الفنون الحرة، ولكن شهرتها فى دراسة القانون لم تلبث أن ذاعت فى القرن الثانى عشر على أيام ارنريوس، وبفضل هذه الشهرة قصدها طلاب العلم من مختلف الأنحاء البعيدة، وإن كان عهد ارنريوس نفسه لم يشهد قيام جامعة بالمعنى الذى نعرفه[١٩٩] .

وهذه الجموع الغفيرة من الطلاب المغتربين. لا سيما الوافدين من وراء الألب،

---

(194) Idem: vol. 1, p. p. 76 - 77.

(195) Idem: p. 82.

(196) Idem: p. p. 82 - 83.

(١٩٧) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ٢٥.

(198) Rashdall: op. cit., vol. 1,. p. 117.

(199) Idem: p. 141.

أصبحوا بمثابة النواة الأولى التى نشأت منها جامعة بولونيا، ذلك أن هؤلاء الطلبة أخذوا - بحكم رباط الغربة الذى ربط بينهم - ينظمون أسباب المعيشة لأنفسهم ويعملون على حماية مصالحهم. فكونوا جاليات ونقابات تحت رئاسة أعضاء منهم، واستطاعوا عن طريق هذه النقابات أن يحددوا أسعار المأكل والمأوى والكتب، وغير ذلك من التنظيمات الهامة التى تعتبر خطوة حاسمة على طريق التنظيم الجامعى (٢٠٠).
وسرعان ما أصبح لهذه النقابات نوع من التحكم والسيطرة على هيئة التدريس من الأساتذة، وذلك لحماية مصالح الطلاب قبلهم، واستخدموا فى ذلك سلاحا قويا هو تهديد أى أستاذ لا يمتثل لرغباتهم بالانقطاع عنه وعدم حضور محاضراته، ولما كان دخل الأستاذ متوقفا على مقدار ما يحصل عليه من طلبته، فإن مستوى معيشته صار مرتبطا بمصير العلاقات بينه وبين نقابة الطلبة، مما جعل رئيس هذه النقابة هو الرئيس الفعلى للجامعة (٢٠١). وقد دفع ذلك بعض الكتاب المحدثين إلى التعبير عن جامعة بولونيا بأنها كانت «جامعة طلبة»، كما ذكر باحث آخر أن هذه الروح استمرت فى الجامعات الإيطالية حتى اليوم، إذ ما زال الطلبة الإيطاليون حريصين على أن يكون لهم صوت مسموع فى إدارة شئون جامعاتهم(٢٠٢) على أن أساتذة بولونيا - هم الاخرون - سرعان ما أحسوا بضرورة الاتحاد لحماية مصالحهم، فألفوا نقابات خاصة بهم، ووضعوا شروطا لمنح أجازة التدريس والسماح لأى عضو جديد بالدخول فى نقابة هيئة التدريس، وذلك لتحديد عددهم(٢٠٣).

ومن هذين النوعين من النقابات - نقابات الأساتذة ونقابات الطلبة - نمت النظم الجامعية وتطورت فى أوربا العصور الوسطى، ويرجح أن نقابات الطلبة فى بولونيا كان عددها أربع نقابات فى أول الأمر، ولكنها اختزلت إلى نقابتين، إحداهما تضم الطلبة الوافدين من بلاد ما وراء الألب، والثانية تضم الطلبة الوافدين من الجهات الواقعة جنوبى الألب، وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر أخذت النظم الخاصة

(200) Haskins: The Renaissance, p. 389.

(201) Eyre: op. cit., vol. 3, p. 330.

(202) Haskins: The Rie of universities, p. 16.

(203) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. 147.

بجامعة بولونيا تنمو نموا سريعا، وإن كانت لا توجد وثيقة محددة تقرر تاريخا معينا لتأسيس تلك الجامعة[٢٠٤]، وكل ما نعرفه فى هذا الشأن هو أن فردريك الأول منح طلبة جامعة بولونيا بعض الامتيازات سنة ١١٥٨. وأهمها أنه إذا أذنب أحدهم فإن محاكمته تكون أمام لجنة من أساتذته. ولما كان من المستحيل أن يعترف الإمبراطور بهيئة غير منظمة، فإنه من المعقول أن يكون المشجع للإمبراطور على ذلك الاعتراف هو أن نظم جامعة بولونيا قد تبلورت فى ذلك الوقت، وصارت لها برامجها ولوائحها[٢٠٥].

وهنا نشير إلى أن جامعة بولونيا غدت أما لعدد من الجامعات فى جنوب أوربا، مع ملاحظة أن واحدة من بنات جامعة بولونيا لم تولد فى القرن الثانى عشر، إذا استثنينا العلاقة بين جامعة بولونيا وجامعة مونتبليه، وعلى الرغم من أن جامعة مونتبليه هذه اشتهرت بالطب واللاهوت والآداب، إلا أنها تفوقت أيضًا فى دراسة القانون، حيث نزح إليها حوالى ١١٦٦ أحد رجال مدرسة بولونيا واسمه بلاكنتبوس Placentius [٢٠٦]، ولايهمنا فى هذه العجالة من أمر جامعة مونتبليه أو غيرها من الجامعات التى قامت بجنوب أوربا فى القرن الثالث عشر، سوى أن غالبيتها أستقت معظم نظمها من جامعة بولونيا وسارت على هديها، لاسيما فيما يتعلق بالعناية بالدراسات القانونية.

على أنه إذا كانت بولونيا قد غدت أما لبقية الجامعات الأوربية فى حوض البحر المتوسط، فإن باريس أصبحت هى الأخرى أما لجامعات شمال أوربا وغربها، وقد يكون من الصعب تتبع نشأة جامعة باريس، لأن هذه المدينة وجدت بها فى القرن الثانى عشر - على عصر ابيلار - ثلاث مدارس، هى: مدرسة نوتردام، ومدرسة سانت فيكتور St. Victor ومدرسة سانت جنيفيف Ste. Genevieve [٢٠٧]. والمعروف أن شهرة ابيلار وحدها جذبت كثيرا من طلاب العلم إلى باريس، حتى اكتظت طرقاتها

---

(٢٠٤) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ٤٤ وما بعدها.

(205) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. p. 143 - 146.

(206) Idem: vol. 2, p. 128.

(207) Idem: vol. 1, p. 276.

بالطلاب الذى استدعت كثرتهم زيادة الأساتذة، وعن هذا الطريق وحده يمكن ربط نشأة جامعة باريس بشهرة ابيلار وشخصيته[٢٠٨] . وقد ذكر حنا سالسبورى ـ الذى درس على أبيلار فى باريس بين سنتى ١١٤٠-١١٦٣ ـ أن أبيلار كان واحدا من مجموعة ضخمة من كبار الأساتذة الذين زخرت بهم باريس، ولعل هذا مما جعل أحد الكتاب المحدثين يقول بأن باريس أصبحت مدينة الأساتذة، أو أول مدينة للأساتذة عرفتها العصور الوسطى[٢٠٩]، وهؤلاء الأساتذة ـ مثل الطلاب ـ وفدوا من شتى أنحاء أوربا.

وفى ذلك الجو الحافل بالأساتذة والطلاب والحياة العلمية النشطة، لانجد سوى قليلا من التنظيمات الجامعية الأساسية. حتى اسم «جامعة» لانعثر عليه قبل القرن الثالث عشر عندما ورد سنة ١٢٠٨ فى رسالة للطالب الذى أصبح فيما بعد البابا أنوسنت الثالث، على أننا يجب أن نذكر دائما فى تاريخ النظم أن الاسم لا يظهر عادة إلا بعد مولد المسمى. ولذلك نستطيع أن نتتبع بعض المظاهر الجامعية فى باريس فى اواخر القرن الثانى عشر، على الرغم من عدم ظهور اصطلاح «الجامعة» فى ذلك الوقت [٢١٠]، أما أهم هذه المظاهر فكان تجمع مواد الدراسة فيما يشبه الكليات، فى الوقت الذى أخذ الطلبة يعيشون على هيئة جاليات أو أروقة، تضم كل جالية أبناء الإقليم أوالبلد الواحد. ومن المعروف أن جامعة باريس نشأت من مدرسة الكتدرائية، ولعل هذا هو السبب فى أن أمين الكتدرائية «Chancellor» ظل مدة طويلة يشغل مكان الرئاسة فى الجامعة فى مرحلة نشأتها الأولى، كما كان هو وحده الذى يمنح مؤهل التدريس Licentia docendi [٢١١]، ولما كان التطور الجامعى جاء تدريجيا وبطيئا. فإننا لا نستطيع تحديد تاريخ معين نقول أن مدرسة باريس خلعت فيه عن نفسها صفتها الكتدرائية واتخذت صفتها الجامعية الخالصة، هذا إلى أننا لا نستطيع تحديد زمن معين لتأسيس جامعة باريس، لأن هذه الجامعة ـ مثل يرها من الجامعات

---

(٢٠٨) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ١٦ – ١٨ ، ٥٢.

(209) Rashdall:op. cit., p. 288.

(210) Haskins: The Renaissance, p. p. 380 - 382.

(211) Taylor: The Medieval Mind., vol. 2, p.p. 3 - 4.

الأولى فى العصور الوسطى ـ ظهرت نتيجة للنمو والتطور، لا للإنشاء والتأسيس، وكل ما هنالك هو أننا نرى هيكل جامعة باريس يتكون فى أواخر القرن الثانى عشر عندما أنشأ أعضاء هيئة التدريس فيها نقابة خاصة بهم. ومع أن أمين الكتدرائية ظل خارج تلك النقابة إلا أن رأيه استمر يؤخذ به دائما قبل السماح لأى فرد جديد بالتدريس فى الجامعة(٢١٢). ويمكن أن ترجع الآثار الأولى لنقابة أساتذة جامعة باريس لسنة ١١٧٠، ومنذ ذلك الوقت أخذ نفوذ تلك النقابة فى الازدياد حتى صارت هى المهيمنة فعلا على شئون الجامعة، ومن ثم طالبت بأن يكون رئيسها ـ لا أمين الكتدرائية ـ هو المدير الفعلى للجامعة(٢١٣).

ثم حدث فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر أن أخذت الامتيازات التى حصلت عليها جامعة باريس فى الازدياد، واختلفت هذه الامتيازات فى روحها وطابعها عن تلك التى حصل عليها زملاؤهم فى الجامعات الإيطالية. فرجال العلم فى المدن الإيطالية مثلوا طبقة منفصلة عن رجال الكنيسة، ولذلك حصلوا على معظم امتيازاتهم من الحكام العلمانيين أو من أهالى المدن وسلطاتها، أما فى فرنسا فظلت النظرة إلى جميع الطلاب والأساتذة فى المدارس الكنسية على أنهم من رجال الدين، ومن ثم أصبح من حقهم أن يتمتعوا بالامتيازات نفسها التى تمتع به رجال الكنيسة(٢١٤) وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى حصل طلبة جامعة بولونيا بإيطاليا من الإمبراطور فردريك الأول على حق محاكمتهم أمام أساتذتهم ـ كما سبق ـ إذ بطلبة فرنسا يتطلعون إلى الحصول على ذلك الحق، ولكن من البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١)(٢١٥).

وترجع أول وثيقة رسمية اعترفت بوجود جامعة باريس إلى سنة ١٢٠٠، عندما منح فيليب أوغسطس بعض امتيازات للطلاب عقب ثورة عنيفة قاموا بها(٢١٦). لذلك يميل البعض فى اتخاذ السنة السابقة بداية لتاريخ جامعة باريس، مع أن الجامعة

---

(٢١٢) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ٦١ – ٦٢.

(213) Eyre: op. cit., p. 330.

(214) Rashdall:op. cit.,vol . p. 290.

(215) Idem: p. p. 290 - 291.

(٢١٦) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ٥٧.

(217) Haskins: The Rise of Universities. p. 22.

وجدت فعلا قبل ذلك التاريخ (٢١٧). ولم يرد فى الوثيقة السابقة اصطلاح «جامعة» ولكنها أقرت قيام هيئة من الطلاب والأساتذة تعهد الملك برعايتهم وحمايتهم وفى سنتى ١٢٠٨، ١٢٠٩ صدرت أولى المراسيم التى حددت الزى الأكاديمى ونظام المحاضرات، كما اعترفت البابوية فى عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بذلك المجتمع الجامعى الجديد، وبحقه فى أن يدير شئونه بنفسه (٢١٨). على أن استكمال سلطان جامعة باريس تطلب من أساتذتها أن يدخلوا فى صراع عنيف مع أمين الكتدرائية ، الذى اختار أن يظل محتفظا بهيمنته على كثير من الشئون الجامعية. وفى هذا الصراع الطويل اختارت البابوية أن تقف إلى جانب قوة المستقبل، فأيدت الأساتذة ووافقت على الحد من سيطرة أمين الكتدرائية على الجامعة(٢١٩). وهكذا أخذت البابوية تتوسع فى منح الحقوق والامتيازات لجامعة باريس بين سنتى ١٢١٥- ١٢٣١، مما أدى إلى استكمال استقلال الجامعة عن الكتدرائية ورجالها، ولم تلبث أن أصبحت باريس أم الجامعات الغربية فى القرن الثالث عشر، بل إن إمبراطور القسطنطينية اللاتينى (٢٢٠) أرسل سنة ١٢٠٥ يطلب معونة جامعة باريس ، وبصفة خاصة فى ميدانى الفلسفة واللاهوت، وإذا كانت جامعة باريس قد غدت قبلة رجال العلم فى أوربا (Mecca Scholars) - على قول أحد الباحثين - فإن ذلك جعل من فرنسا زعيمة الحركة الفكرية فى أوربا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر(٢٢١).

أما الابنة الكبرى لجامعة باريس فى الغرب الأوربى فكانت أكسفورد التى غدت بدورها أما لبقية الجامعات الإنجليزية، ولا نستطيع بالضبط معرفة العوامل التى جعلت من أكسفورد مكانا مختارا لقيام أولى الجامعات الإنجليزية فى أواخر القرن الثانى عشر، لأن أكسفورد لم تكن عندئذ من أمهات المدن الإنجليزية لتفوز بهذا الشرف، وربما كانت لندن أو يورك أو ونشستر أو كانتربورى أحق بهذا الشرف ، لا سيما وأنها

---

(218) Rashdall:op. cit., vol. 1,. p. p. 300 - 303.

(219) Idem: p. p. 304 - 314

(٢٢٠) تعرف الإمبراطورية التى قامت فى القسطنطينية عقب استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ بالإمبراطورية اللاتينية، لأن أباطرتها كانوا من أمراء الغرب.

(221) Eyre:op. cit., vol.3, p. 332.

كانت جميعا مراكز لكتدرائيات هامة، ولكن يبدو أن الموقع الذى حظيت به مدينة أكسفود أثر فى قيام الجامعة بها (٢٢٢)، ويظن بعض الكتاب أن اختيار هنرى الثانى ملك إنجلترا أكسفورد مكانا مختارا لإقامته كان له بعض الأثر فى قيام أولى الجامعات الإنجليزية فيها(٢٢٣).

ومهما يكن الأمر فإن جامعة أكسفورد لم تكن وليدة جامعة كتدرائية مثل جامعة باريس، وكل ما هنالك هو أن كثيرا من الأساقفة ورجال الدين الإنجليز اعتادوا السفر إلى الخارج فى القرن الثانى عشر لتلقى العلم. وعند عودتهم إلى وطنهم حاولوا أن يقيموا نوعا من التعليم العالى يشبه ما شاهدوه فى الجامعات التى قامت فى صلب القارة، وبخاصة فى فرنسا. وساعد على هذا الاتجاه هنرى الثانى الذى قام بدور راعى الحركة الفكرية فى بلاده، وشجع كثيرا من رجال الفكر، مثل بطرس بلوا الذى عاد إلى إنجلترا سنة ١١٧٣، وماستر فكاريوس الذى حاول إدخال دراسة القانون الرومانى بإنجلترا سنة ١١٤٩، وحنا سالسبورى الذى درس فى باريس وعاد إلى إنجلترا سنة ١٢٥٠ ليصبح محور النشاط العلمى مدة ثلاثين سنة(٢٢٤).

ويبدو أن أكسفورد استفادت من حادث استدعاء الطلبة الإنجليز الذين يدرسون فى باريس سنة ١١٦٧، فاحتضنتهم عند عودتهم، حتى أدى وجود ذلك العدد من طلاب العلم ورجاله إلى قيام جامعتها، ومما يدل على تقدم الحياة العلمية فى أكسفورد حوالى ١١٨٠ كثرة مجلدى الكتب وناسخيها مما لا يتوفر إلا فى البيئات العلمية، كذلك روى جير الدوس كامبر نسيس Giraldus Cambrensis أنه عندما زار أكسفورد حوالى سنة ١١٨٤ قرأ أحد مؤلفاته على هيئة محاضرات عامة، واستغرقت قراءته ثلاثة أيام فى حضرة جمع كبير من الأساتذة وطلاب العلم(٢٢٥). ولكن إذا كان اسكندر نكام ذكر فى كتاب له فى أواخر القرن الثانى عشر اسم أكسفورد إلى جانب باريس وبولونيا ومنتبليه وسالرنو، إلا أنه لم يذكر شيئا عن نظام جامعة أكسفورد(٢٢٦)، وكل ما نستطيع أن

(٢٢٢) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ١٢٣ – ١٢٤.

(223) Stubbs: Seventeen Lectures, p. p. 163 - 164.

(224) Rashdall:op. cit., vol. 1, p. p. 321 - 324.

(225) Idem: vol. 2, p. 341 & Vol. 3, p. 25.

(226) Idem: vol. 3, p. 28.

نقوله فى هذا الموضوع هو أن الجامعات الإنجليزية قامت وفقا لنظم الجامعات الأوربية وبخاصة جامعة باريس (٢٢٧).

أما عن المناهج وطرق التدريس فى جامعات القرن الثانى عشر فلا نستطيع أن نتكلم عنها سوى كلاما عاما، لأن اللوائح والنظم الجامعية لم تكن قد اكتملت بعد فى ذلك الوقت المبكر، فمن ناحية التدريس اعتمدت محاضرات الأساتذة إلى حد كبير على النصوص، مع اشتمال المحاضرات على قدر غير قليل من البحث والمناقشة(٢٢٨). وكان الأساتذة فى أول الأمر يلقون محاضراتهم فى مساكنهم أو فى قاعات يستأجرونها لهذا الغرض، نظرا لعدم وجود مبان خاصة بالجامعات أو قاعات خاصة بالدرس، أما برامج الدراسة فقامت فى تلك المرحلة المبكرة على أساس الفنون السبعة الحرة. ففى النحو ظلت مؤلفات برسكيان ودوناتوس المراجع الأساسية، مضافا إليها بعض دراسات حول الشعراء ورجال البلاغة القدماء(٢٢٩)، أما المنطق فاتسعت دراسته بظهور المنطق الجديد لأرسطو ثم بظهور غيره من كتابات أرسطو، لاسيما فى الميتافيزيقا، وفى الحساب والرياضيات استمر الاعتماد على كتاب بيوثيوس إلى أن ظهرت مؤلفات اقليدس والموجز الذى وضعه العرب لأبحاث بطليموس السكندرى فى الفلك، وفى القانون صارت موسوعة جستنيان أساس تعليم القانون المدنى، ومراسيم جراشيان أساس تعليم القانون الكنسى، أما دراسة الطب فبقيت فى القرن الثانى عشر تعتمد على كتابات جالينوس وأبقراط، فضلا عما ظهر من تراجم مبكرة لكتب العرب فى ذلك العلم، هذا فى حين ظل الكتاب المقدس وكتاب بطرس لمبارد بمثابة المرجعين الأساسيين فى تعليم اللاهوت(٢٣٠).

وخلاصة القول أنه إذا كانت الجامعات الأوربية قد تكاثرت حتى بلغت فى أواخر العصور الوسطى أكثر من ثمانين جامعة (٢٣١)، أثارت نشاطا حضاريا وفكريا ضخما،

---

(227) Idem: p. 49.

(٢٢٨) سعيد عاشور، الجامعات الأوربية ، ص ٣٧ وما بعدها.

(229) Rashdall:op. cit., vol. 3,. p. 35.

(230) Haskins: The Renaissance, p. p. 392 - 393.

(231) Rashdall: op. cit., vol. 3,. p. 341.

فإن الفضل فى كل ذلك يرجع إلى القرن الثانى عشر، الذى شهد مولد أولى الجامعات الأوربية، والذى هيأ لها مجالا علميا واسعا بفضل النهضة الكبرى التى ظهرت فى غرب أوربا فى ذلك القرن.

الفن القوطى:

على أن نشأة الجامعات لم تكن المظهر الوحيد لروح الابتكار والتجديد التى امتازت بها النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر، وإنما تجلت هذه الروح واضحة فى ميدان آخر هو الميدان الفنى، ذلك أن فن العصور الوسطى بلغ أرفع آياته فى القرن الثانى عشر بظهوره فى قالب جديد يعرف باسم الطراز القوطى.

وقد ظهر الطراز القوطى نتيجة لتطور الطراز الرومانسكى الذى سبق أن تكلمنا عنه. وهذا التطور إنما جاء وليد عوامل شتى ومؤثرات عديدة دينية واجتماعية واقتصادية وفكرية، ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل التى أدت إلى مولد الفن القوطى ما كان فى ذلك العصر من زيادة الاتصال بين الشرقيين العربى والبيزنطى من جهة والغرب اللاتينى من جهة أخرى، مما جعل الاتجاهات الشرقية تبدو واضحة فى الفن القوطى. هذا إلى ما يبدو فى ذلك الفن من مظاهر معبرة عن دماء جديدة، هى دماء العناصر الشمالية من الجرمان(٢٣٢) . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأن الفارق بين الطرازين الرومانسكى والقوطى هو أن الأول نظر إلى الخلف، فاستمد أسسه وقواعده من روما وبيزنطة، فى حين نظر الطراز القوطى إلى التطورات الجديدة التى ألمت بالعالم الغربى نتيجة لقيام ممالك الجرمان ونتيجة للاتصال بالحضارات الشرقية(٢٣٣) .

والواقع أن غرب أوربا شعر منذ القرن الرابع بالحاجة إلى مبان قوية جميلة ، ولكن الشعور بالحاجة وحده لايمكن أن يحقق الرغبة، ما لم تتوافر عوامل التنفيذ من مال واستقرار ونشاط فكرى وحماسة دينية، لأن فن العمارة فى العصور الوسطى ارتبط إلى حد كبير بالمؤسسات الدينية ، ومن الواضح أن هذه العوامل كلها تهيأت فى القرن الثانى عشر، عندما توافر المال نتيجة للنشاط التجارى، والاستقرار بعد انتهاء

(232) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages: p. p. 61 - 62.

(233) Cam. Med. Hist., vol. p. 559.

غارات الفيكنج، والنشاط الفكرى فى تلك النهضة الزاهرة التى سبق أن استعرضناها، وبذلك لم يبق غير الحماسة الدينية، ولعل خير ما يعبر عن الحماسة الدينية فى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر هى الحروب الصليبية التى شهد ذلك القرن مرحلة حاسمة من أهم مراحلها، وقد صور لنا هيمو Haymo مقدم أحد الأديرة فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر، مدى الحماسة الدينية فى ذلك القرن، فقال أن النساء والرجال - من العامة والنبلاء - كانوا يربطون بالحبال ليسحبوا العربات المحملة بالأحجار والأخشاب ولوازم البناء لإقامة كتدرائية شارتر فى القرن الثانى عشر، والكل فى هدوء وسكون شامل لا يقطعه إلا صوت الترتيل الدينى(٢٣٤).

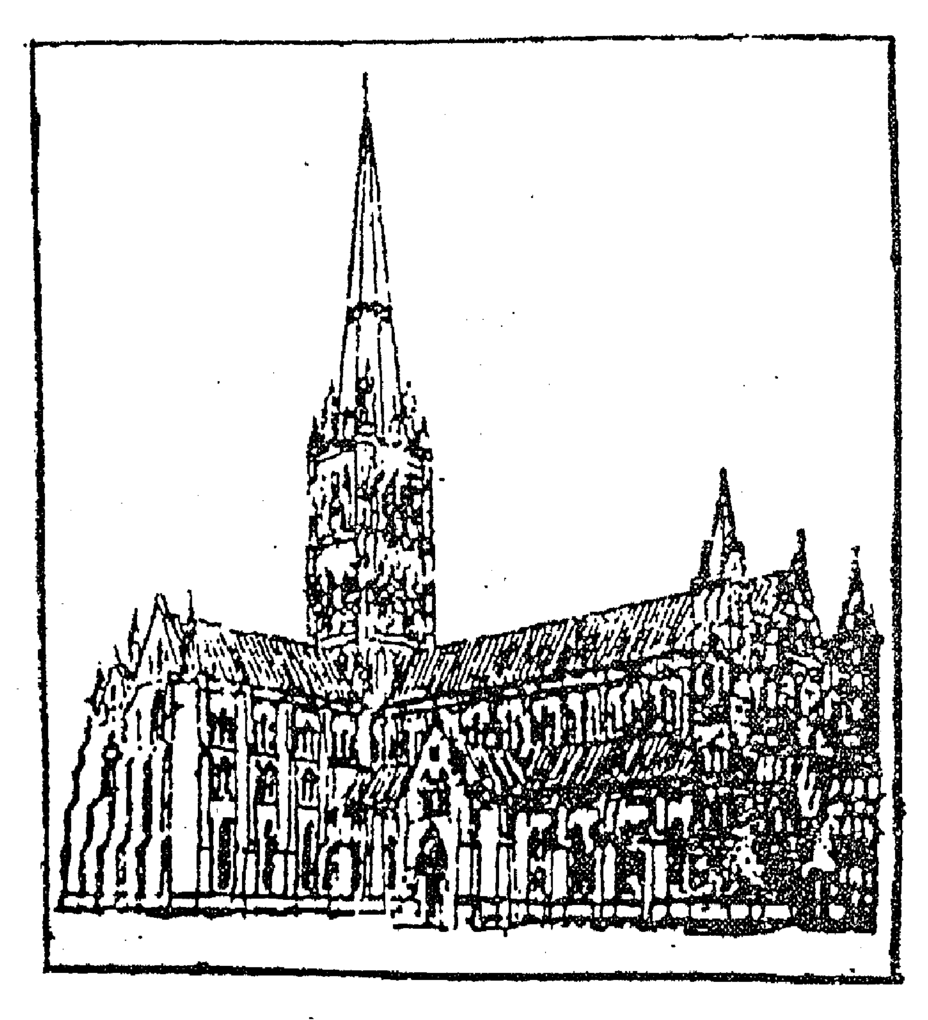
ولكن إذا كان الطراز القوطى امتدادا للطراز الرومانسكى، فما صلته بالقوط؟ ولماذا نسب هذا الفن إليهم؟ الواقع أنه لا توجد أية صلة تربط بين القوط والطراز المعروف باسمهم، ويقال أن أول من سمى ذلك الطراز باسم القوطى هو فاسارى Va-sari (١٥١٢ - ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو، وأحد فنانى عصر النهضة بإيطاليا، ويعلل الدافع إلى ذلك بأن فنانى ذلك العصر نظروا إلى فنون العصور الوسطى نظرة احتقار وازدراء فلم يجدوا أسوأ من نسبتها إلى القوط، الذى كرههم الإيطاليون واعتبروهم مسئولين عن فساد الآثار الرومانية الجميلة عندما احتلوا إيطاليا فى أواخر القرن الخامس(٢٣٥)، فالغرض من نسبة هذا الفن إلى القوط كان الحط من شأنه وإظهار رجال النهضة الإيطالية له أنه بربرى همجى، ولكنه فى الواقع اسم على غير مسمى، لأن القوط أبرياء منه وهو برىء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب(٢٣٦).

---

(234) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 771 - 772.

(235) Leight : History of World's Art, p. 222.

(236) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 771.



رسم تخطيطى لتكدرائية سالسبورى

ويرى بعض الباحثين أن العناصر الأساسية التى حولت فن العمارة من رومانسكى إلى قوطى أخذت تظهر فى شمال إيطاليا منذ منتصف القرن الحادى عشر تقريبا، عندما نجد بعض الأديرة التى شيدت فى ذلك العصر، وقد ظهر بها شيء من خصائص العمارة القوطية (٢٣٧). ولكن من الواضح أن مميزات تلك العمارة لم تظهر واضحة إلا حوالى منتصف القرن الثانى عشر، وكان ذلك فى الأجزاء الشمالية من فرنسا، ومنها انتشر ذلك الطراز إلى بقية أنحاء أوربا(٢٣٨).

(237) Idem: p. 763.

(238) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages, p. 69.

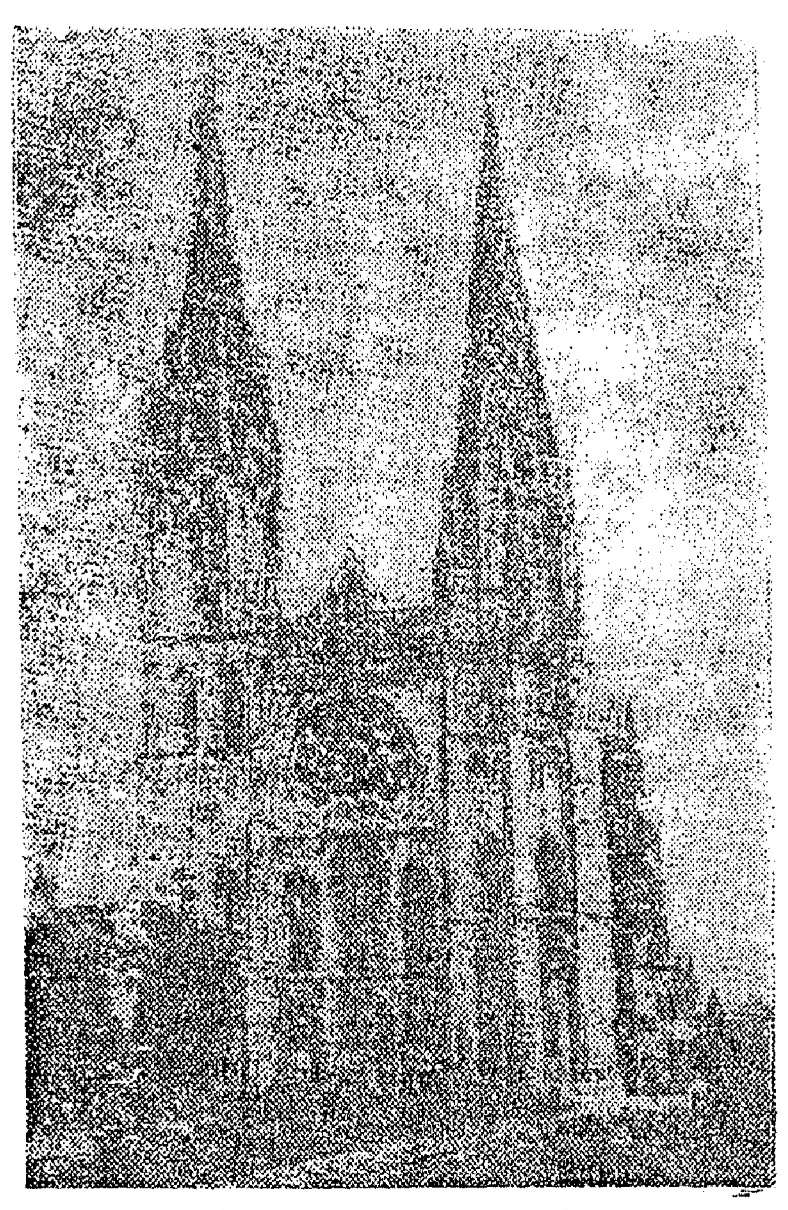
ولم يكن البناء القوطى عملا فنيا رائعا فحسب، بل أيضاً عملا هندسيا بارعا من حيث المحافظة على توازن البناء ومراعاة ثقله والمهارة فى استخدام العقود والاكتاف، وانتقاء الخامات الكفيلة بحفظ توازن المبنى . وهكذا نجد العمارة القوطية تنفرد بعدة خصائص أساسية، منها استعمال الأضلاع المتقاطعة الأقواس Griosse d'ogive، واستعمال العقود السائدة Arc boutant لدعم القبوة، هذا عدا ابتكار زخارف من طراز جديد سنتكلم عنها فيما بعد(٢٣٩) ومن هذا يبدو أن أهم ما يميز الكنيسة المشيدة على الطراز القوطى عن تلك المشيدة على الطراز الرومانسكى، هو أن الأولى امتازت بجدرانها الرقيقة وعقودها المدببة، فى حين جاءت الثانية سميكة وعقودها نصف دائرية، كذلك أمتازت الكنيسة القوطية بارتفاعها وعلوها الذى ساعد عليه رقة جدرانها، فى حين أن زميلتها الرومانسكية قليلة الارتفاع رغم علو برجها(٢٤٠) . ولما كان ارتفاع الجدران فى الطراز القوطى مع إقامة قباب وأبراج فى أعلى البناء يتطلب تقويتها عن طريق زيادة سمك الجدران، فإن المهندسين حلوا هذه المشكلة عن طريق إقامة سواند وأكتاف معلقة Flying buttresses (٢٤١) . وهذه الأكتاف تبنى فى الجهات المضادة للحوائط كى تساعدها على تحمل الأثقال الواقعة عليها، مما مكن من ازدياد ارتفاع القباب فى الكنائس القوطية حتى بلغ ارتفاع قبة حصن نوتردام أكثر من مائة قدم، على أن ارتفاع البناء على ذلك الوجه تطلب اتساع الفتحات والنوافذ لتيسير الإضاءة داخل الكنيسة، ومن ثم امتازت الكنيسة القوطية بالنوافذ العالية المرتفعة بارتفاع البناء، والتى كثيرا ما كانت تقسم إلى أقسام طولية تفصل بينها حواجز رفيعة من الحجر. وقد جرت العادة أن تحلى الكنائس القوطية بصف أو أكثر من النوافذ (Clerestory) ولم يكن من الضرورى أن تكون النوافذ متراصة بعضها فوق بعض، إنما جاءت فى أوضاع مختلفة حسب الحاجة إليها، دون رعاية لتناظرها(٢٤٢) .

(239) Lethaby: The Medieval Art, p. p. 116 - 119 & Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 763 - 764.

(240) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 764 - 765.

(241) Briggs: Architecture, p. 93 & Lethaby: Med. Art, p. 120.

(242) Lethaby: Med. Art, p. p. 130 - 133.



واجهة كنيسة قوطية فى فرنسا

وفيما عدا ذلك أمتازت الكنائس القوطية بالأبراج Spires والشرفات Tracery التى زينت واجهاتها، واشتهرت أبراج الكنائس القوطية بطرفها المدبب حتى أصبح من الممكن التعرف على ذلك الطراز عن بعد بأبراج البناء ذات القمم المدببة، أما مداخل الكنائس فكانت كبيرة واسعة نتيجة لرقة الجدران وكثرة الممرات، وإن كانت أبوابها صغيرة لا تتناسب مع اتساع الممرات وارتفاع البناء. وقد حليت مداخل الكنيسة بتماثيل القديسين والأعمدة المزركشة، فى حين فصلت ممرات الكنيسة بعضها عن بعض سلسلة من الأعمدة فى المبانى القوطية، وإن كان أغلبها على هيئة ناقوس منكس تكسوه زخارف تمثل أوراق النبات وأغصان الأشجار، وكذلك أمتازت القواعد التى ارتكزت عليها تلك الأعمدة بجمال هيئتها وتنوع أشكالها.

أما الزخارف القوطية فكانت على جانب كبير من الروعة، هذا وإن كانت روح الطراز القوطى ومميزاته تبدو فى فنه المعمارى أكثر منها فى فنه الزخرفى(٢٤٣) وقد كثر فى تلك الزخارف استعمال الزجاج الملون المنقوش المؤلف بالرصاص وروعى فى ذلك الزجاج أن يكون غالبا على هيئة وحدات صغيرة تستعمل فى رسم قصة دينية مقتبسة من الإنجيل أوغير ذلك(٢٤٤). ولم تقتصر الزخرفة على نوافذ الكنائس وإنما امتدت إلى الأكتاف والأعمدة والعقود.

ويرتبط جزء هام من الزخرفة القوطية بالنحت وأنواعه المختلفة. وتبدو أكثر أنواع النحت فى حشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية والتماثيل الخزفية وتماثيل القديسين، وهكذا أدى الإكثار من استخدام النحت فى زخرفة الكنائس القوطية إلى سمو فن النحت وتحرره من القيود التقليدية القديمة(٢٤٥). كذلك روعى فى زخرفة ظاهر الكنيسة أن تقسم وجهاتها إلى أقسام رأسية تمتد على الأبواب والنوافذ والأبراج والعقود العمياء التى تزين واجهة الكنيسة، وهنا نلاحظ أمرين، أولهما: أن خطوط الزخرفة الرأسية كانت أكثر شيوعا من الخطوط الأفقية فى الفن القوطى، وثانيهما: أن خصائص العمارة القوطية ذاتها استخدمت أيضاً فى تزيين المبانى وزخرفتها، ومن ذلك أن أشكال العقود المدببة كثيرا ما استخدمت فى زخرفة الأبواب وستائر غرف الترتيل..إلخ.

ومن الواضح أن الفن القوطى الذى انتشر فى أوربا وأصبح طراز العمارة والزخرفة السائدة فى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر، لم تتشابه تفصيلاته فى جميع البلدان الأوربية، وإنما اختلفت هذه التفصيلات من بلد إلى آخر حسب ظروف البيئة والأوضاع السائدة فى كل بلد. ففى إيطاليا مثلا استخدم الرخام الأبيض الملون نظرا لوفرته، فى حين استعملت فى فرنسا وإنجلترا الأحجار الصخرية والمحببة، واستعمل الحجر الجيرى فى ألمانيا، كذلك اختلفت نسبة الفتحات والنوافذ بين شمال أوربا وجنوبها، ففى إيطاليا وجنوب فرنسا ـ حيث الشمس ساطعة ـ استخدمت

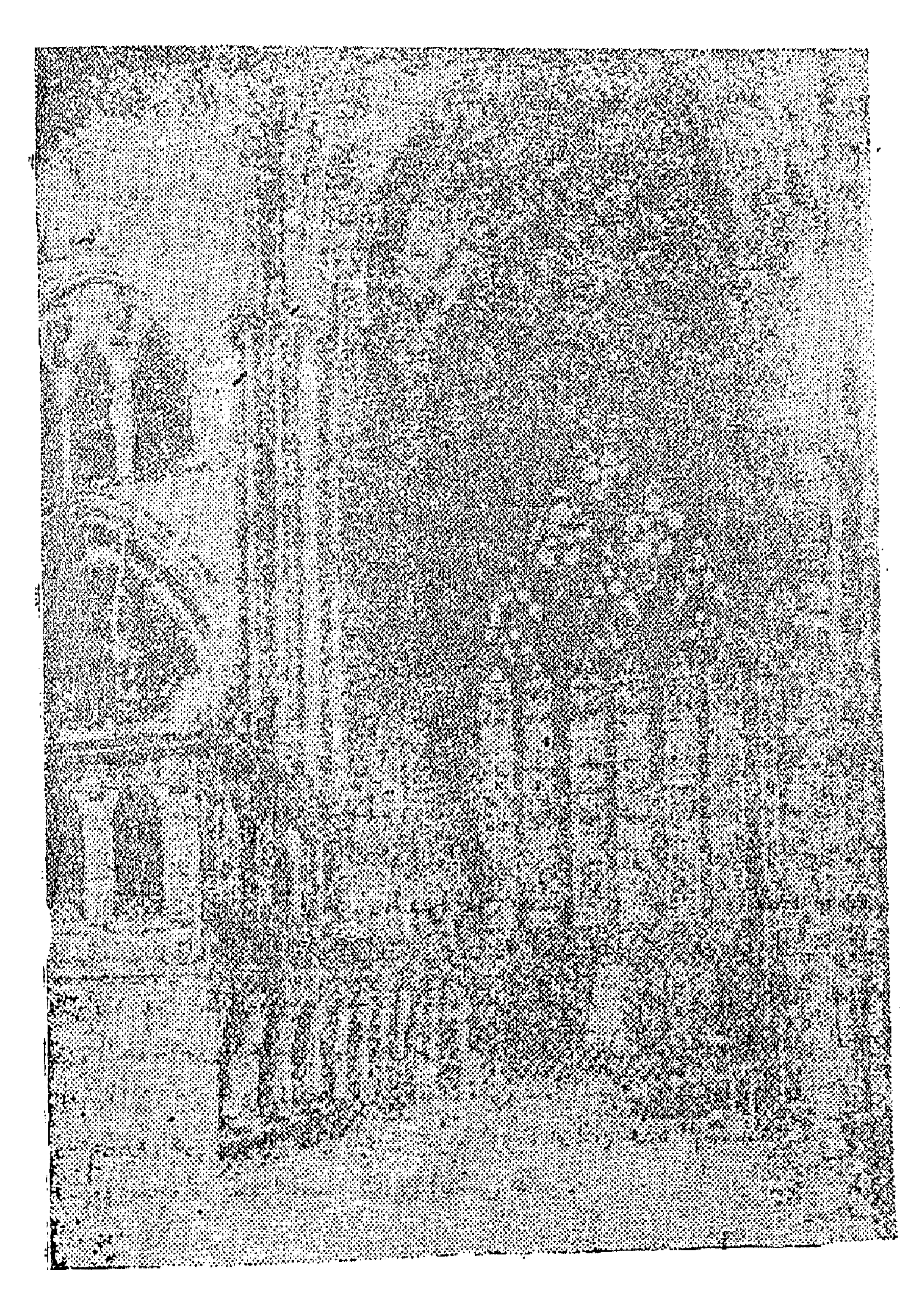
(243) Briggs: op. cit., p. 93.

(244) Lethaby: Medieval Art, p. p. 132 - 135

(245) Idem: p. p. 160 - 171 & Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 567.



نموذج لزخارف نافذة قوطية من الزجاج المعشق بالرصاص



كنيسة قوطية من الداخل

الكرانيش والبواكى لتهيىء قدرا كافيا من الظل، فى حين أن البلاد الشمالية - حيث تزداد السحب - أكثرت من الفتحات الواسعة لتمكين الضوء من الدخول، كما راعوا شدة انحدار السقوف اتقاء للأمطار والجليد. وهكذا أخذ الطراز القوطى يتشكل فى كل بلد من بلدن أوربا متخذا خصائص مميزة. هذا وإن اتفقت جميعا فى الخصائص العامة التى تميز ذلك الطراز عن غيره من الطرز الفنية(٢٤٦). ولا نستطيع أن نتتبع فى هذا المجال خصائص الفن القوطى بالتفصيل فى كل بلد من بلدان غرب أوربا، لأن هذه الخصائص لم تظهر فى وضوح إلا بعد انقضاء القرن الثانى عشر.

ويبدو أن ازدهار الفن القوطى منذ القرن الثانى عشر جاء مصحوبا بنشاط كبير فى مختلف النواحى الفنية. فبالإضافة إلى ما ذكرناه من تقدم فن النحت، وزخرفة المبانى، واستعمال الزجاج الملون فى عمل رسومات جميلة، انتشر التصوير الذى كان حتى ذلك الوقت مقصورا على زخرفة الكتاب المقدس، فانتقل إلى زخرفة الجدران وإلى عمل لوحات ناطقة للقديسين أظهرتهم أقل جمودا وأكثر مرونة. هذا بالإضافة إلى زخرفة المخطوطات وتزيينها برسوم زاهية تجمع بين الرقة والجمال. كذلك ظهر الاهتمام - لا سيما فى إنجلترا - بصناعة الأثاث والتفنن فى زخرفته عن طريق النقش والحفر، وصحب ذلك المهارة فى صناعة المعادن، سواء صياغة الحلى أم صنع الثريات والحواجز الكنسية التى صنعت من المعدن أو الخشب وحليت ببعض الأحجار الثمينة.

أما الموسيقى ، فأهميتها واضحة فى العصور الوسطى لارتباطها بمباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس(٢٤٧)، وقد ظلت الموسيقى الغربية شبه بدائية وسطحية فى أنغامها وألحانها حتى عصر الحروب الصليبية، عندما أخذ يظهر فى القرن الثانى عشر التوافق والانسجام بين الألحان والأنغام. ومما ساعد على ذلك التقدم الذى أحرزته كتابة النوتة الموسيقية منذ القرن الثانى عشر، حتى صار فى الإمكان تدوين مختلف الأصوات، ومراعاة التوزيع الموسيقى على الآلات المتباينة سواء القديم منها أو ما استجد فى ذلك القرن.

---

(٢٤٦) انظر الباب العاشر فى هذا الجزء.

(247) Pirenne: La Civilisation Occidentale, p. 201.

الباب الرابع عشر
النهضة الإيطالية

أوربا بين عصرين :

سبق أن ذكرنا فى بداية الجزء الأول من هذا الكتاب أن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر غير طبيعى، على الرغم من أهمية هذا التقسيم لدراسة التاريخ(١) حقيقة أن الفوارق بين العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة تبدو فى كثير من الأحيان واضحة جلية، ولكن من التعسف أن نضع فواصل تاريخية محددة بين كل عصر وآخر، لأن التطور التاريخى يأتى تدريجيا دون أن يخضع لحدث معين أو يتحدد بيوم أو سنة أو قرن ، وكل من هناك هو أنه توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ، وفى هذه الفترة نرى بعض بشائر العصر الجديد وقد أخذت تشق طريقها وسط معالم العصر السابق.

وعصر النهضة هو الذى يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة(٢) : فهو العصر الذى نختتم به دراستنا لتاريخ العصور الوسطى، وفى الوقت نفسه نبدأ به دراسة تاريخ أوربا العصور الحديثة، وفى كلتا الحالتين لايمكن تحديد بداية زمنية دقيقة لهذه النهضة، ولكن من الممكن القول بأن بذورها ظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لتبلغ أشدها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ثم تستمر ذيولها فى صورة حركات الإصلاح الدينى والنزاع المذهبى فى القرن السادس عشر(٣). وبعد ذلك ينتهى عصرالنهضة - أو فترة الانتقال - لنجد أنفسنا فى عصر حديث يختلف فى معالمه ومثله وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليه عالم العصور الوسطى.

والواقع أنه يصعب على الباحث حصر جميع أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة، وإنما نستطيع أن نبرز ثلاثة عناصر أساسية كبيرة تجعلنا نشعر فعلا بالفارق

---

(1) Cam. Med., vol. 8, p. 803 & Cam. Modern. Hist., vol. 1, p. 1.

(2) Symonds: Renaissance in Italy, vol. 1, p. 1.

(3) Idem: p. 7.

بين العهدين[٤]. أما الجانب الأول فيبدو في أن العصور الحديثة عرفت الدولة كوحدة سياسية تقوم على أساس الشعور القومي الذي يربط بين أبناء الأمة الواحدة، فالأمم الحديثة كالأمة الأسبانية أو الإنجليزية أو الإيطالية لم يتم تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى إلا في أواخر عصر النهضة. وبينما ظل المفكرون السياسيون في العصورالوسطى متأثرين بتقاليد الإمبراطورية الرومانية العالمية وفكرة الكنيسة العالمية أيضًا، ومن ثم اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيمان هما البابا والإمبراطور ليعبر الأول عن السلطة الدينية،ويعبر الثاني عن السلطة الدنيوية؛ إذا بالعصور الحديثة تتنكر لكل هذه المبادئ وتنادي بأن لكل دولة كيان سياسي مستقل يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها، ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض فضلا عن تعصبهم لوطنهم[٥].

والفارق الثاني بين العصور الوسطى والحديثة هو أن الأولى لم تتخذ الفرد وحدة أو أساسا للبناء الاجتماعي[٦]، فالفرد في العصور الوسطى لايمثل الخلية الأولى في بناء المجتمع، وإنما تتمثل هذه الوحدة في الجماعة، سواء كانت هذه الوحدة الضيعة الاقطاعية أو كانت القومون - وهي المدينة ذات الكيان السياسي المستقل - أو كانت النقابة التي تنظم مصالح أبناء الحرفة الواحدة، وبعبارة أخرى فإن الفرد كان لا شيء في العصورالوسطى، في حين كانت الجماعة هي كل شيء، ولم يكن هناك مجال أمام الفرد في العصور الوسطى لإظهار نشاطه وكفايته؛ اللهم إلا إذا انتظم في سلك الكهنوت فعندئذ فقط يستطيع الفرد المغمور أن يبرز ويظهر، ويحتل مكانة مرموقة في المجتمع، أما العصور الحديثة فقد اعترفت بحرية الفرد ومكانته وأعطته حقه كاملا في المجتمع وفي الحياة[٧]؛ حتى قيل أن أعظم ما حققته النهضة هو أنها كشفت عن العالم والفرد[٨]!.

---

(4) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. p. 516 - 517.

(5) Cam. Modern, Hist., vol. 1, p. 2.

(6) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 624.

(7) Cam. Modern, Hist., vol. 1, p. 3.

(8) Symonds: Renaissance in Italy, vol, 1, p. 1.2

أما الفارق الثالث بين العصور الوسطى والحديثة فهو انتشار الجهل والجمود فى الأولى، واتساع نور المعرفة ونطاق التفكير فى الأخرى، ولسنا نريد أن نبالغ فنحاكى البعض فى القول بأن العصور الوسطى كانت عصور ظلام وجهل على طول الخط، إذ أثبت الواقع أن ركاب الحضارة لم يتوقف فى أوربا العصور الوسطى، وأن تلك العصور لم تخل من دراسات ونهضات ووثبات حضارية(٩). بل إننا نكرر القول بأنه يمكن اقتفاء جذور نهضة القرن الخامس عشر فى أوربا القرنين الثانى عشر والثالث عشر، كما يبدو لنا من أبواب هذا الكتاب أن العصور الوسطى كانت لها حضارتها ذات الطابع الخاص التى تنفى عنها تهمة الظلام المطبق. ولكن كل ما نريد ان نثبته هو أن الكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى فى غرب أوربا. وليس بخاف أن الكنيسة كانت تفرض قيودا شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمى، حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشىء من التحرر الفكرى إلى اتهامه بالهرطقة، وبئس المصير. فالجمال إثم، والمرح وزر، والحياة عرض زائل، والجهل برهان على الخضوع لله والرضاء بأحكامه.. وهكذا حتي جاءت النهضة فسعت لتحرير العقل البشرى من هذه المعتقدات لتجعله طليقا يسبح حرا فى دنيا التأمل والجمال(١٠)، هذا بالإضافة إلى أن وسائل التعلم واكتساب المعرفة كانت محدودة وباهظة النفقات فى أوربا العصور الوسطى. فالطباعة لم تكن قد عرفت بعد، والورق لم تتوصل إليه أوربا إلا عن طريق العرب فى أواخر العصور الوسطى، ورقائق جلود الحيوانات التى استخدمت فى الكتابة كانت باهظة التكاليف؛ حتى لجأ الناس إلى محو ما على الرقائق من كتابات قديمة لإعادة استخدامها أكثر من مرة. فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الخرافات والمعتقدات الباطلة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، وقلة من عرفوا اللغة اللاتينية قراءة وكتابة - وهى لغة الأدب والعلم فى تلك العصور- أمكننا فى النهاية إدراك مدى الفارق الثقافى بين العصور الوسطى والعصور الحديثة(١١).

فعصر النهضة إذا هو العصر الذى شهد نهاية النظام الاجتماعى والسياسى الذى عرفه الغرب فى العصور الوسطى، كما أزيلت فيه القيود التى فرضتها تلك العصور على حرية الفكر والبحث. والواقع أن الجزء الأخير من العصور الوسطى شهد تغييرات

---

(9) Eyre: op. cit., p. 334.

(10) Symonds: Renaissance in Italy, vol. 1, p. 11 & vol. 2, p. 130.

(11) Loge: op. cit., p. 518.

وتطورات على جانب كبير من الأهمية؛ منها اضمحلال الإمبراطورية والبابوية جميعا[١٢]، ونمو الأمم الفرنسية والأسبانية والإنجليزية، وظهور اللغات القومية، وانهيار النظام الإقطاعي ونظام الفروسية نتيجة لنمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المدن[١٣]. هذا كله بالإضافة إلى التخلص من سيادة أرستقراطية الأمراء ورجال الدين نتيجة لارتقاء عامة الناس إلى المناصب السياسية. ونمو ملكيات قوية تعتمد على تأييد الشعب في كثير من بلاد أوربا. ولابد من أن نضيف إلى هذه التغييرات التي أدت إلى حركة النهضة وساعدت على مولدها ما تم في ذلك العصر من اختراعات واستكشافات عظيمة[١٤]. فاستخدام البوصلة والاسطرلاب وما ترتب عليهما من تقدم الملاحة البحرية، أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحري والكشف عن العالم الجديد، مما ساعد على ازدياد المعرفة واحداث ثورة شاملة في طرق التجارة في العالم اجمع. هذا بالاضافة إلى استكشاف البارود وماترتب عليه من ثورة في نظم الحرب والمجتمع، واستكشاف الطباعة، وما أدى إليه من انتشار العلم والمعرفة[١٥]، وأخيرا جاء سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليدفع كثيرا من علمائها إلى الفرار نحو الغرب حاملين معهم قسطا كبيرا من علوم اليونان وحضارتهم[١٦].

وجميع هذه التطورات تنتمي إلى النهضة وترتبط بها. وعلى ذلك يجب علينا دراستها كلها دراسة شاملة إذا أردنا الإحاطة التامة بالنهضة في كافة البلاد الأوربية، وهو الأمر الذي يخرج عن نطاق هذا الكتاب. لذلك نكتفي بالإشارة إلى أوجه نشاط النهضة بمعناها الضيق - أعني حركة إحياء الآداب والفنون - وهي الحركة التي ارتبط مولدها بإيطاليا، هذا مع اعترافنا بأن اصطلاح النهضة بمعناها الواسع لايقتصر على إحياء الآداب والفنون ودراسات القدماء من يونانيين ورومان فحسب، وإنما يمتد هذا المعنى ليشمل تغيير الآراء والمثل المعنوية والاجتماعية والسياسية التي سادت العصور الوسطى، فضلا عن نظرة الناس إلى الحياة[١٧].

---

(12) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2, p. p. 1 - 24.

(13) Idem: p. p. 142 - 155.

(14) Lodge: op. cit., p. p. 518 - 519.

(15) Symonds: Renaissance in Italy, vol. 1, p. p. 22 - 23.

(16) Eyre: op. cit., p. 287.

(17) Ibid.

إيطاليا وحركة النهضة:

والواقع أن إيطاليا تستطيع أن تفخر بأنها الدولة التى شهدت مولد النهضة الأوربية العظيمة وتولت زعامتها، وهى النهضة التى ظهرت واضحة جلية فى القرن الخامس عشر. ولا عجب ، فإن إيطاليا امتلكت عندئذ لغة قومية وجوا معتدلا وحرية سياسية ورخاء اقتصاديا، فى الوقت الذى كانت بقية الغرب الأوربى لاتزال فى حالة واضحة من الجمود والتأخر(١٨) . وفيما يتعلق بالأدب والفن، لم تشهد إيطاليا حركة إحيائهما فحسب، وإنما تعهدتهما بالرعاية والعناية حتى اكتمل نموهما وازدهرا بين ربوعها، وبعد ذلك أخذت بقية الأمم الأوربية تتلقى من إيطاليا أصول النهضة، وتطبق هذه الأصول فى ميادين جديدة كالإصلاح الدينى والاستكشافات التى تمت فى مختلف ميادين المعرفة.

وهنا نواجه مشكلتين هامتين : الأولى هى لماذا انفردت إيطاليا ـ دون غيرها من بلاد الغرب الأوربى ـ بشرف مولد النهضة الأوربية الحديثة بين ربوعها؟ والأخرى هى كيف تولد النهضة فى إيطاليا، وهى مركز البابوية والكنيسة الغربية التى عرفت طوال العصور الوسطى بالجمود والتزمت وتقييد حرية الفكر؟ أما الإجابة عن السؤال الأول فخلاصتها أن ايطاليا وعاصمتها روما ـ ظلت فى العصور الوسطى تحتفظ بقدر كبير من تراث الرومان القدماء ومجدهم، على الرغم من أنها تعرضت لغزو البرابرة وتدميرهم، شأنها شأن بقية الولايات الرومانية(١٩) . وإذا كانت روما لم تعد حاضرة إمبراطورية ضخمة كما كان الحال فى سالف الزمان، فإنها أضحت فى العصور الوسطى مركز البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى بأكمله، مما أضفى على إيطاليا مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوربية. هذا بالإضافة إلى أن موقع إيطاليا الجغرافى على جانب عظيم من الأهمية فى عصر كان البحر المتوسط مركز التجارة العالمية، وهكذا أدى النشاط التجارى ووفرة الإنتاج إلى زيادة ثروة المدن الإيطالية الشهيرة مثل البندقية وجنوة وفلورنسا(٢٠). وهل هناك شك فى أن ازدياد ثروة الأفراد

---

(18) Cam. Modern, Hist., vol. 1, p. 3.

(19) Lodge: op. cir., p. 520.

(20) Cam. Med, Hist., vol. 8, p. 219.

والجماعات تؤدى فى معظم الحالات إلى الاعتزاز بالنفس، والشعور بالقوة والسلطان، والرغبة فى تنوير الفكر والتحرر من كافة القيود والأغلال، فضلا عن حب الترف، والتفنن فى اقتناء التحف والمبالغة فى مكافأة المنتجين، مما يدفعهم إلى زيادة الإتقان والتحمس للابتكار[٢١] ؟.

وأما عن المشكلة الثانية الخاصة بأثر البابوية فى حركة النهضة الإيطالية، فخلاصة حلها أن البابوية فى أواخر العصور الوسطى لم تعد كما كانت عليه فى أوائل تلك العصور، ذلك أن البابا أضحى فى أواخر العصور الوسطى - بالإضافة إلى صفته الدينية كرأس للكنيسة - حاكما دنيويا لايختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكام الدنيويين المعاصرين: فله أراضى يحكمها، وله بلاط يعج بالأتباع والموظفين، بل إن البلاط البابوى لم يخل من المفاسد والمخازى التى ليس لها نظير فى بلاط الملوك المعاصرين والأمراء العلمانيين[٢٢]، وفى الوقت الذى أخذ المسيحيون فى شمال أوربا يستقبحون ذلك الوضع الذى أمست فيه البابوية وبلاطها ، ويستنكرون القبائح التى تردى فيها بعض البابوات، إذا بالإيطاليين أنفسهم ينظرون إلى تلك الأوضاع على أنها شيء عادى لا عيب فيه، ولايختلف عما كان عليه معظم الأمراء الإيطاليين فعلا[٢٣]. وكل ما كان يهتم له الإيطاليون حينئذ هو أن يبقى الكرسى البابوى فى روما، وأن تظل إيطاليا مركز الكنيسة الغربية، حتى تتدفق عيها الأموال التى يجمعها رجال البابا من مختلف بلاد العالم الغربى، ولم يلبث البابوات أن أخذوا يسابقون الأمراء الإيطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون، فنافسوا آل مديتشى فى فلورنسا وملوك نابلى، وهرع الأدباء والفنانون إلى البلاط البابوى طامعين فى حسن الجزاء وكرم العطاء[٢٤]. وهكذا وجد من البابوات أمثال نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) وليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) من أسهم فى بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها، بل أنه منذ وقت مبكر - يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر - ظهر فى البلاط البابوى فى أفينون اتجاه نحو تشجيع التراث الكلاسيكى[٢٥].

---

(21) Eyre: op. cit., p. 628.
(22) Cam. Med, Hist., vol. 1, p. p. 281 - 282
(23) Symonds: Renaissance, vol, 1, p. p. 292 - 295.
(24) Cam. Medern, Hist., vol. 8, p. 773.
(25) Eyre: op. cit., p. 589.

النهضة الأدبية:

ولاترجع أهمية إحياء الآداب والفنون فى ذلك العصر إلى أن هذا الإحياء أثار موجة من التقدم الفكرى قضت على الجهل والخرافات فحسب، بل إن هذا الإحياء جاء خطوة كبرى على طريق تحرير الفرد من قيود العصور الوسطى، ذلك أن الفرد كثيرا ما يجد فى الفن والأدب مجالا واسعا للتعبير عن مواهبه الذاتية والوصول إلى قمة الشهرة والمجد، دون حاجة إلى الاعتماد على شرف المولد أو الارتباط بهيئة أو جماعة معينة[٢٦]. وكان دانتى (١٢٦٥ – ١٣٢١) ـ الذى احتل مكانة بارزة عند مدخل النهضة الإيطالية ـ أول رجل عظيم فى العصور الوسطى وقف بمفرده، واعتمد على نفسه وعلى مواهبه فى الوصول إلى قمة الشهرة. دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية، ذلك أن «الكوميديا الإلهية» التى وضعها دانتى صبغت أولى اللغات الأوربية الحديثة بطابعها الأدبى، ومن ثم أصبح هذا الإنتاج بالغ الأهمية بالنسبة لإيطاليا، كما ترك أثرا عميقا فى نفوس الإيطاليين وعقولهم[٢٧]. وحسبنا أن أسمى أمنية يتمناها الكاتب الإيطالى اليوم هى أن يستخدم أسلوب دانتى ولغته، حتى أنه كثيرا ما يرجع إلى المعاجم ليتأكد من أن لفظه المختار كان مستعملا فى القرن الثالث عشر. على أن دانتى ـ على الرغم من عظمته ـ لم يكن مشبعا بالروح الحديثة، ولم يحاول أن يحرر نفسه من آراء معاصريه ومعتقداتهم ليرتفع فوق مستواهم، ففى رسالته عن الملكية (De monarchia) نراه يستسلم لآراء الفلسفة المدرسية، ويبذل مجهودا كبيرا للدفاع عن نظرية الإمبراطورية العالمية[٢٨]. وعلى ذلك قد يكون من الصواب أن نقول أن دانتى الذى يقف على عتبة النهضة ، يمثل فى الواقع آخر عمالقة العصور الوسطى أكثر منه أول رسل العصور الحديثة فى غرب أوربا[٢٩].

وبعد دانتى جاء بترارك (١٣٠٤ – ١٣٧٤) الذى أثرت قصائده الغزلية فى آداب جميع البلاد الغربية، فى حين يعتبر أول الإنسانيين الإيطاليين نظرا لحبه لأدب القدامى وشغفه بحريتهم [٣٠]. وقد عثر بترارك على خطبتين لشيشرون فى ليبج سنة

(26) Loge: op. cit., p. 522.

(27) Pirenne: La Fin du Moyen Ages, Tome 2, p. p. 196 - 201.

(28) Eyre: op. cit., p. p. 476 - 477.

(29) Symonds: Renaissance in Italy, vol, 1, p.p. 8-9.

(30) Foligno : Epochs of Itlian Literature, p. 12.

١٣٣٣ وعلى مجموعة أخرى من رسائله سنة ١٣٤٥؛ ومن ثم أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى حتى جمع ما يقرب من مائتى مخطوطة ظل يحتفظ بها أمام عينيه فى حلة وترحاله[٣١]. وقد عاصر بترارك عبقرى آخر على جانب كبير من الإلهام وقوة الابتكار - هو بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥) - الذى حاكى بترارك فى ولعه بدراسة آداب القدماء حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية فى إيطاليا[٣٢]. وكان أن أحرز بوكاشيو شهرته العظيمة من المائة قصة التى وضعها، والتى تعرف باسم «الأيام العشرة Decameron» على أساس أن سردها استغرق عشرة أيام[٣٣]. وفى هذه المجموعة من القصص يظهر بوكاشيو احتقاره لخرافات العصور الوسطى وتقاليدها البالية، كما ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمة؛ وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصور الوسطى، جديدة عليها[٣٤]. وقد استعار شوسر فيما بعد ، فى مؤلفه «قصص كانتربورى» كثيرا من الفصول والمواقف التى زخرت بها قصص بوكاشيو؛ وعن طريق شوسر تأثر بقية الكتاب فى العصور التالية للأدب الإنجليزى بنفوذ بوكاشيو.

والحق أن هؤلاء الأعلام الثلاثة - دانتى وبترارك وبوكاشيو - هم الذين أعادوا لإيطاليا حريتها الفكرية. حقيقة أن النهضة لم تكن قد بدأت بعد، ولكن ظهورهم بشر بها وجعل قدومها أمرا متوقعا فى السنوات التالية[٣٥]. وقد أعقب هؤلاء الثلاثة مجموعة من الجامعيين، وهم الذين أخذوا يتنقلون بين مختلف أنحاء أوربا - بل خارجها - للبحث عن مخطوطات القدماء وجمعها، بفضل ما صادفوه من تشجيع بعض الأمراء والبابوات مثل مدينتى كوزيمودى مدى مديتشى والبابا نيقولا الخامس[٣٦]. ومن الصعب علينا الآن تصوير مدى الخماسة التى أقبل بها هؤلاء على مهمة الجمع ، حتى لقد دفعتهم الرغبة فى اقتناء المخطوطات القديمة إلى الاحتيال

(31) Eyre: op. cit., p. 589.
(32) Eyre: op. cir., p. 590.
(33) Symonds: Renaissance, vol, 2, p. 63.
(34) Stephenson: Med. Hist., p. 588.
(35) Symonds: Renaissance, . p. 9.
(36) Eyre: op. cit., p. p. 600 - 601.

والخداع فى بعض الأحيان[٣٧]. قد ظهر من هؤلاء الجامعين فريق أدوا خدمة لا تقدر للعلم والعالم، مثل بوجيو، وفرانسسكو فليلفو، ونيقولو نيقولى مؤسس مكتبة سانت مارك فى فلورنسا[٣٨]. أما اللغة الإيطالية فى خلال تلك الفترة - أى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريبا - فكانت فى طى النسيان، لعدم ظهور كتاب كبار حينئذ - سوى بوجيو وسلفيوس - وكلاهما لم يكتب سوى باللاتينية، والواقع أن الفضل فى عدم زوال اللغة الإيطالية كلية، إنما يرجع إلى آل مديتشى فى فلورنسا، وهى الأسرة التى حرصت على تشجيع الآداب والفنون واستمالة الأدباء والفنانين، حتى جعلوا من مدينتهم «أثينا إيطاليا»[٣٩]، وحسبنا أن لورنزو مديتشى - الذى تسلم أعنة الحكم سنة ١٤٦٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره - كان يعرف اللاتينية واليونانية ، ويتذوق التاريخ والفلسفة، فضلا عن تحمسه لجميع ألوان الفنون، حتى أنه دون بنفسه مجموعة شهيرة من الأغانى بالإيطالية لتنشد فى الأعياد الشعبية، مما يوضح لنا إلى أى حد عمل هذا الأمير على النهوض باللغة الإيطالية وسط محيط متضارب من الدراسات اليونانية واللاتينية[٤٠].

ثم كان أن دخلت الدراسات الكلاسيكية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى دور جديد - خلاف دور الجمع - هو دور النقد [٤١]. فبعد أن انتهى المعاصرون من جمع أكبر قدر ممكن من التراث القديم، أخذوا يتفهمون هذا التراث ويدرسونه ويحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشاكل التى يعيشون وسطها، وليس من المبالغة أن نعترف بعظم الأثر الذى تركته هذه الدراسات فى الفكر البشرى، إذ أخذ الناقدون ورجال العلم يدرسون النصوص الاصلية للفلاسفة القدماء – مثل ارسطو – ويهملون الدراسات المدرسية التى قامت على تراجم محرفة مأخوذة عن العربية، وكان على رأس هذه الحركة لورنزو فالا فى روما ونابلى، وفشينو وبوليتيانو فى فلورنسا[٤٢]. وقد نشر لورنزو فالا مقالا ليثبت تزوير وثيقة «هبة

(37) Symonds: Renaissance, vol. 2, p. p. 98 - 103.
(38) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. p. 517 - 519.
(39) Eyre: op. cit., p. 614.
(40) Idem : p. 615.
(41) Symonds: Renaissance, p. p. 18 - 19.
(42) Pirenne: La Fin du Moyen Ages, Tome 2, p. p. 160 - 168.

قسطنطين، التى اعتمد عليها البابوات فى العصور الوسطى فى إثبات شرعية سلطانهم العلمانى، وكان فالا عندئذ فى خدمة ألفونسو ملك نابلى - خصم البابا اللدود - الأمر الذى شجع فالا على الاحتماء به، ومهاجمة النظامين الكنسى والديرى(٤٣). ولو أن الأمر اقتصر على إيطاليا وحدها، لهان شأن هذا الهجوم، ولكن الدراسات والعلوم الجديدة التى أتت بها النهضة أخذت تنتشر حينئذ فى بقية بلدان أوربا ، مما جعل فريقا من المصلحين الدينيين، على رأسهم لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) يتأثرون بروح العصر التى أثارها الناقدون ويعلنون ثورتهم على الكنيسة ونظمها البالية، وهى الحركة التى عرفت بالإصلاح الدينى.

النهضة الفنية:

وإذا كانت حركة النهضة قد بدأت بإحياء الدراسات الكلاسيكية على أيدى الإنسانيين الإيطاليين، فإنها استؤنفت بوساطة الفنيين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة، وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها(٤٤). وبعبارة أخرى فإنه إذا كان الإيطاليون أصحاب الفضل الأول فى نشأة الأدب الحديث، فإنهم يستطيعون أن يفخروا أيضاً - وعلى مقياس أعظم - بأنهم مبتكرو الفن الحديث، وبصفة خاصة فن التصوير والنحت، ذلك أن فن العمارة كان الجانب الفنى الوحيد الذى لم يتعرض للانهيار فى العصور الوسطى، والذى استطاع أهالى شمال أوربا أن يبذوا أهالى إيطاليا فيه. أما فى الرسم والزخرفة من ناحية والنحت من ناحية أخرى، فإن الإيطاليين احتفظوا بشرف إحيائها جميعا، والنهوض بها إلى مستوى الجمال والكمال، بعد أن أصبح الجمال غاية لا وسيلة، يقدس ويحترم لأنه شىء جميل، لا لأنه يعبر عن مجرد فكرة دينية(٤٥).

أما عن فن التصوير، فقد كان فى العصور الوسطى مقيدا بقواعد جعلته غير جدير باسم فن، ذلك أن الرسم الذى اقتصر على الأغراض الدينية، صار مفروضا أن يطابق الروح الدينية فى اتجاهاته؛ بحيث غدت الزخرفة تخضع لتقاليد معينة ثابتة

---

(43) Eyre: op. cit., p. p. 607 - 609.

(44) Stephenson: Med. Hist., p. 585.

(45) Symonds: Renaissance, vol. 3, p. p. 16 - 17.

تحدد موضع الرسم وطريقة معالجته، بل نوع الألوان التى يجب أن يتقيد بها الرسام فى رسمه، فإذا تغاضى الرسام عن إحدى هذه القواعد أو أهمل اتباعها فى رسمه، اعتبر ذلك خروجا عن الدين. وهكذا صارت مذابح الكنائس فى العصور الوسطى لا تكسوها إلا صور جامدة للقديسين أو لمريم العذراء، مما جعل لها أهمية تقليدية دون أن تتمتع بمستوى فنى معين(٤٦). حقيقة أن العصور الوسطى خلفت لنا تراثا ضخما من الصور والزخارف والرسومات، ولكنها لم تخلق فنانين مبرزين؛ لأن شخصية الفرد - كما سبق أن ذكرنا - اختفت وذابت وسط الجماعة التى اضطر الفرد إلى الارتباط بها، ويمكننا أن ندرك عظم الفارق إذا وازنا بين رسمين أحدهما حديث والآخر يرجع إلى العصور الوسطى، وإلى عصر النهضة يرجع الفضل فى سد هذه الثغرة الواسعة بين العصرين، إذ أخذ الفرد يتحرر تدريجيا فى ذلك العصر من قيود العصور الوسطى وأغلالها. أما أهم مظاهر هذا التطور فتبدو فى ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها، وفى تقديرهم لذات الانسان، ثم فى ضعف الاثر الدينى فى الفن، هذا كله زيادة على تقدم الأساليب الفنية ذاتها(٤٧). وتتمثل أهم التطورات الفنية التطبيقية فى إدخال التصوير الجصى (Fresco) على الجدران، واستكشاف التلوين بالزيت – الذى يرجع الفضل فيه الى الفلمنكيين –، واستخدام الألواح النحاسية وحفر الخشب وطبعه؛ وهى الأمور التى جعلت من المستطاع إخراج كثير من الإنتاج الفنى الرائع، على أن أهم تطور شهده الاسلوب الفنى فى عصر النهضة يتمثل فى محاكاة أشكال جميلة مستقاة من الطبيعة، مع الإعراض عن الصور القديمة التى تتصف بالجمود والرسوخ، وهكذا غدت دراسة تشريح الأعضاء وحركاتها المنظورة أشياء لابد منها للرسام، لأن الإنتاج الفنى لم يعد عملية نسخ آلى لقالب معين تفرضه السلطات الكنسية، وإنما أصبح تعبيرا حرا عن عقلية الفنان وعبقريته(٤٨).

---

(46) Idem, vol. 1, p. 14.

(47) Cam. Med. Hist., vol. 8, p. 779 & Symonds: op. cit., vol. 3, p. 5.

(48) Symonds: op. cit., vol 3, p. 135 .



صورة بالفرسكو لخلق آدم

وترجع بداية النهضة فى فن التصوير إلى القرن الرابع عشر عندما برزت فى هذا الفن مدينتان فى إيطاليا هما فلورنسا وسينا Siena وأول رسام فلورنسى عظيم هو كيمابو Cimabue الذى عاصره فى مدينة سينا الرسام دوتشيو Duccio (٤٩). وعلى الرغم مما نلاحظه على إنتاجهما من استمرار الجمود وعدم المرونة فى توزيع الألوان، إلا أننا نلمس فى هذا الإنتاج تناسقا بين أعضاء الجسم وجمالا فى شكل الوجه، ثم كان أن جاء بعد هذين العلمين مجموعة من الفنانين بلغوا غاية الشهرة، فظهر فى فلورنسا جيوتو Giotto (١٢٦٦ - ١٣٣٦) الذى اشتهر فى ميادين الرسم والنحت والعمارة حتى أنه وضع أساس مدرسة فى فلورنسا سمت بالمستوى الفنى سموا كبيرا، وكان جيوتو أول من أحل الرسم التعبيرى محل صور الأشكال الآدامية الجامدة التى كانت سائدة حتى ذلك الوقت(٥٠). وإلى جانب جيوتو ظهر بعض معاصرين من أعلام الرسم والزخرفة أمثال أندريا أوركاجنا Andrea Orcagna ، وأمبروجيو لورنزتى Ambrogio Lorenzetti ، وفرانجليكو Fra Angelico ولو أن الوثائق تذكر الأخير متأخرا زمنيا بعض الوقت عن سابقيه، على أننا يجب أن نشير هنا أيضاً - كما قلنا عن دانتى - إلى أن هؤلاء الأعلام ينتمون إلى الصفحة الأخيرة من العصر المنصرم أكثر من ارتباطهم بالصفحة الأولى من العصر الجديد(٥١). ذلك أنهم عبروا فى صورهم وزخارفهم عن نظريات العصورالوسطى فى الديانة والحياة البشرية، وكل ما هنالك هو أنهم أدخلوا على رسومهم تحسينات واسعة فى الطريقة والأسلوب، مع بقاء هذه الرسوم تمثل كل ما ينتمى إلى العصور الوسطى، والواقع أن هناك ثلاث صور من ذلك العصر تصور العصور الوسطى تصويرا دقيقا؛ الأولى صورة «انتصار الموت» لأوركاجنا، وهى تعبر عن الطابع الدينى المتزمت التى اتصفت به العصور الوسطى(٥٢). والثانية صورة «الكنيسة المناضلة الظافرة» التى قام برسمها تلاميذ جيوتو فى كنيسة القديسة مريم الجديدة فى فلورنسا، وهى تبرز تنظيم الكنيسة بجلاله وهيبته، وأخيرا تأتى

(49) Idem : p. 137.
(50) Symonds: op.cit, vol. 3, p. p. 138 - 143.
(51) Pirenne: La Fin du Moyen Ages, Tome 2, p. p. 225 - 228.
(52) Symonds: op. cit., vol. 3, p. 146.

صورة «الحكومة المدنية» من إنتاج امبروجيو لورنزتي ، وهي تصورالحياة السياسية العاصفة في قومون العصور الوسطى(٥٣) .

فإذا تركنا جيوتو وتلاميذه، فإننا نرى الجيل التالي من رسامي القرن الخامس عشر يعبر عن النهضة تعبيرا فنيا ناضجا، وكانت فلورنسا لاتزال تحمل لواء النهضة الفنية؛ فظهر فيها ماساشيو Massaccio الذي تعتبر رسومه الجصية على جدران كنيسة برانكاتشي Brancacci خير ما يعبر عن الخطوة الفنية التالية بعد جيوتو،وقد تأثر الفنانون الذين ظهروا بعد ذلك بهذا الإنتاج إلى حد بعيد، وبخاصة روفائيل الذي أفرد له دراسة خاصة(٥٤) . ثم خلف ماساشيو عدد كبير من الرسامين البارزين من بينهم فيلبو ليبي Filippo Lippi وساندرو بوتشيلي Sandro Botticelli ولوقا سنجنور يلي Luca Singnorelli وغيرهم(٥٥) . وربما كان الأخير أقدرهم جميعا حتى أنه يعتبر بجرأته في التصوير ودرايته بتشريح الأعضاء وازدرائه لقواعد العصور الوسطى وقيودها، منافسا لميخائيل أنجيلو.

على أن فلورنسا لم تكن الميدان الوحيد لتلك الثورة الفنية؛ إذ تجلى هذا التطور بوضوح في غيرها من المدن مثل مدينة بروجيا حيث ظهر بيتروبيروجينو، ومدينة بادوا حيث ظهر أندريا مانتجنا، وفي البندقية حيث ظهر جيوفاني وجنتيل بليني وفيتور كارباشيو، والواقع أن هذه المجموعة من الفنانين هي التي مهدت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر، مثل ليوناردو دافينشي، وميخائيل أنجيلو، وروفائيل ، وأندريا دل سارتو، وتيتيان تنطورتو، حقيقة أن هؤلاء الفنانين استمروا يسخرون مواهبهم في أغراض دينية؛ ولكنهم عالجوا هذه الموضوعات في روح إنسانية دنيوية، فجعلوا الرغبة في الكمال الفني هي الأساس ثم يأتي التعبير الديني على هامشها، هذا فضلا عما امتاز به إنتاج هؤلاء الفنانين الذين يعبرون عن النهضة في عصر نضجها، من عدم تحمس نسبي للمثل الأخلاقية، ومقدرة فائقة على التحكم في توزيع الألوان والأصباغ(٥٦) .

---

(53) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 1, p. p. 303 - 304.

(54) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 166 - 170.

(55) Pirenne: La Fin du Moyen Ages, Tome 2, p. p. 225 - 236.

(56) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 16 - 17 & 249.

ومع ذلك فإن السمو الفنى الذى امتازت به النهضة يبدو فى ميدان النحت أكثر منه فى ميدان التصوير والرسم، وإذا كان الفنانون بوجه عام قد ثاروا فى عصر النهضة ضد تقاليد العصور الوسطى وقيودها، وتحرروا من هذه القيود ليخرجوا إنتاجا أوفر جمالا وأعظم ابتكارا، فإن النحاتين بوجه خاص تأثروا إلى حد كبير- فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية - بالدراسات والنماذج الكلاسيكية(٥٧) . والسبب فى ظهور الأثر الكلاسيكى فى النحت - أقوى منه فى التصوير- واضح جلى، لأن أعلام التصوير والرسم عند اليونانيين والرومان عفا عليهم الزمن ودرس إنتاجهم ولم تبق سوى أسماؤهم، ولذلك لم يتأثر التصوير فى عصر النهضة بالروح الكلاسيكية الا تأثرا شفويا لعدم وجود نماذج يحاكيها فنانو ذلك العصر. أما فى النحت فكان الحال على العكس، لأن تماثيل اليونانيين والرومان ظلت باقية حتى عصر النهضة، وبعض هذه التماثيل بلغت درجة رائعة من الجمال والقرب من الطبيعة، مما هيأ نماذج حية ناطقة أمام فنانى النهضة، وهكذا أنجبت النهضة مجموعة من النحاتين البارعين الذين حذوا فى إنتاجهم إنتاج اليونان، وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد فى تاريخ النحت هو نيقولا البيزى Niccola da Pisano الذى شاهد أثرا يونانيا جلب إلى بيزة فأعجب بجماله وروعته، ودفعه ذلك إلى دراسة أوضاع الفن اليونانى وأساليبه(٥٨) . ومنذ ذلك الوقت عكف نيقولا على التوفيق بين حب اليونان للجمال، وبين تقاليد الفن المسيحى(٥٩) . ثم جاء بعده فى القرن التالى عدد كبير من النحاتين الذين انتمى معظمهم إلى فلورنسا، مثل لورنزو غيبرتى Lorenzo Ghi-berti الذى نحت أبواب كنيسة فلورنسا، وهى الأبواب التى قال عنها ميخائيل أنجيلو أنها تستحق أن تكون أبوابا للجنة(٦٠) . هذا فضلا عن عدد آخر من النحاتين مثل لوقا دلاروبيا، ودوناتللو ، وأندريا فروشيو وغيرهم، وبعد هؤلاء تأتى مجموعة من أعلام فن النهضة فى النحت، وعلى رأسهم بنيفنيتو شلينى (Benvenuto Cellini) وميخائيل أنجيلو (Michael Angelo) ويعتبر أولهما مثالا لمن يريد أن يدرس النزعة الفنية الخالصة غير المتأثرة باعتبارات دينية أو خلقية، وهى النزعة التى تولدت فى المراحل

---

(57) Lodge: op. cit., vol. p. p. 529 - 530.

(58) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 77 - 80.

(59) Pirenne: La Fin du Moyen-Ages, p. p. 296 - 297.

(60) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 92 - 93.

اللاحقة من النهضة، أما الثانى فكان ضد الأول على خط مستقيم، لأنه فى حين أعطى شلينى فى فنه صورة للعصر الذى عاش فيه، إذا بميخائيل أنجيلو يبرز شخصيته القوية فى إنتاجه الفنى، والواقع أن عبقرية النهضة وعظمتها بلغت ذروتها فى شخص ميخائيل أنجيلو(٦١) . وهنا يصح أن نشير إلى أن النحت يصح أن يغلب عليه الطابع اللاتينى والمظهر الوثنى أكثر مما هو الحال فى التصوير، لأن جمال الوجه لابد وأن يتبعه جمال القوام وإبراز محاسنه، دون التقيد بالأخلاقيات.

أما فن العمارة فقد شهد هو الآخر تقدما مستمرا فى عصر النهضة، وهو تقدم كانت الزعامة فيه لإيطاليا أيضاً، وقد سبق أن أشرنا إلى أن فن العمارة لم ينله إنهيار فى العصور الوسطى مثلما حدث بالنسبة للرسم والنحت، كما أن الأثر الكلاسيكى لم ينعدم فى العصور الوسطى، لأن الطراز الرومانسكى الذى انتشر فى أوائل تلك العصور قام على أسس وقواعد كلاسيكية(٦٢) . وقد خلف الطراز الرومانسكى فيما وراء الألب الطراز القوطى، حيث ظلت الكتدرائيات القوطية تعبر عن الحماسة الدينية للشعوب الجرمانية فى أواخر العصور الوسطى. ولم تلبث إيطاليا أن عرفت الطراز القوطى على أيدى المعماريين الألمان فى أواخر القرن الثالث عشر، على أن الفن القوطى فى إيطاليا اختلفت خصائصه عنه فى شمال أوربا نتيجة لظروف البيئة والمناخ، فضلا عن أن إيطاليا لم تشأ أن تتنكر تماما للطابع الكلاسيكى فى فنها(٦٣) .

ثم كانت النهضة فى فن العمارة نتيجة لإحياء التراث الكلاسيكى، مثلما كان الحال فى فن النحت، وتبدو التطورات الأولى التى جاءت بها النهضة فى العمارة فى العودة إلى الأقواس والعقود نصف الدائرية التى امتاز بها الفن الرومانسكى، ثم بعد ذلك فى استخدام الأسقف المسطحة، والكرانيش التى تعلو النوافذ والأبواب مثلما كانت عليه المبانى اليونانية والرومانية(٦٤)، وتعتبر كتدرائية فلورنسا بقبتها العظيمة التى قام فيليبو برونلسكو (Filippo Brunellesco) بإنشائها أعظم نموذج لمبانى الشطر الأول من عصر النهضة (٦٥) . ويمكن أن نتتبع هذا التطور العظيم بعد ذلك فى كتدرائية

(61) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 281 - 282.

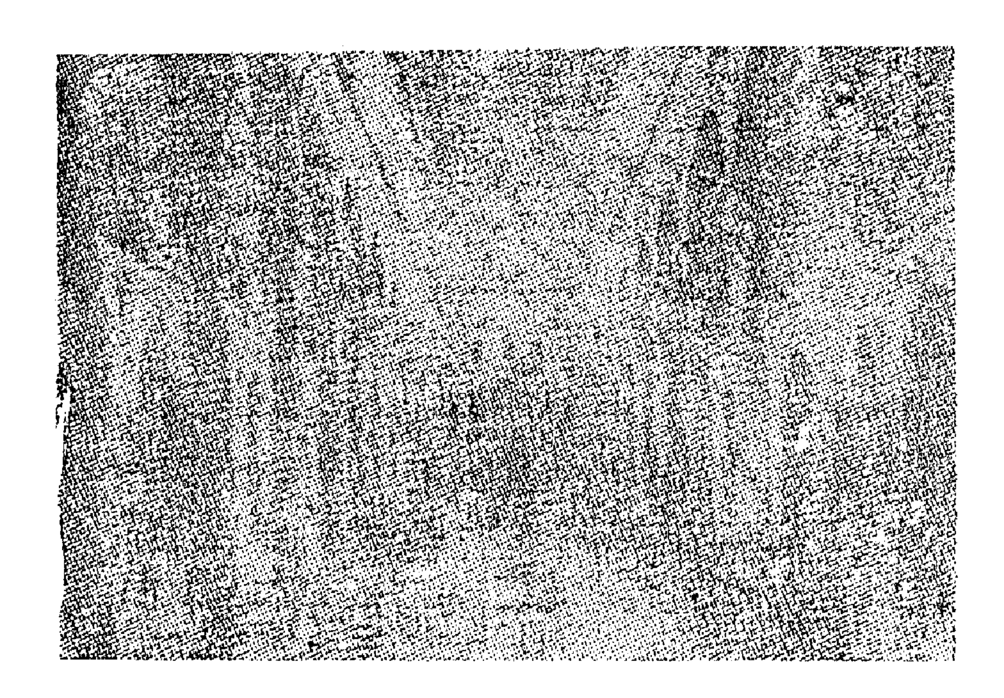
(62) Lethaby: Med. Art., p. 60.

(63) Symonds: op. cit., vol. 3, p. p. 37 - 41.

(64) Idem, p. p. 46 - 52.

(65) Lodge: op. cit, p. 531.

القديس بطرس بروما التى وضع تصميمها برامانت (Bramante) ؛ ثم بعد ذلك فى القصور التى شيدها بلاديو (Polladio) فى فيتشنز وفيرونا. ويمتاز فن العمارة فى أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالتناظر والتناسق والانسجام، الأمر الذى أدى إلى إضعاف روح الابتكار والتجديد.



أثر حركة النهضة:

وبعد، فإن حركة النهضة ـ شأنها شأن الحركات العظيمة فى التاريخ ـ حوت كثيرا من المزايا والمثالب، وكان أهم اتجاهين سادا هذه الحركة ـ لا سيما فى الشطر الأخير منها ـ هما إحياء المؤثرات الكلاسيكية فى الأدب والفن؛ ثم تحرير الفكر والفرد من قيود العصور السابقة وأغلالها. ومن الواضح أن التطرف فى كل من هذين الاتجاهين كانت له عيوبه ومخاطره. فالاتجاه الأول من شأنه أن يجعل المفكرين عبيدا للنماذج الكلاسيكية التى يحاولون محاكاتها؛ والاتجاه الثانى أدى فى حالات كثيرة إلى الإلحاد والمبالغة فى التحرر إلى حد الفوضى الاجتماعية والدينية، وقد أدى اتجاه النهضة نحو حرية البحث والاستقصاء إلى حركة الإصلاح الدينى، وهى الحركة التى لم تلبث أن انحرفت إلى اتجاه مضاد لروح الحرية التى نشأت فى الأصل عنها، ذلك أن البروتستانتية المتطرفة تعارضت فى حالات كثيرة مع الاتجاهات الإنسانية تعارضا واضحا حادا، حتى أن سافونا رولا ـ الذى يعتبر ممثلا لحركة البيوريتان فى إيطاليا ـ حرض أتباعه على أن يحرقوا صورهم وحليهم بل حتى كتبهم(٦٦). كذلك حرم البيوريتان الإنجليز حب الجمال فى الفن، لأنه اتجاه مادى يؤدى إلى فساد الروح، وهكذا لم يلبث البروتستانت ـ الذين أقاموا حركتهم على أساس حرية الفكر والعبادة ـ أن اعتنقوا مبادئ تعسفية تستهدف عدم التسامح والاستبداد.

أما عن الآثار الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم، ذلك أن ازدهار المعارف الجديدة وإصلاح الكنيسة أدى فى كل بلد إلى إنشاء مدارس وجامعات جديدة، فضلا عن التقدم بالنظم التعليمية فى المعاهد القائمة فعلا. وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمرارا، وهى إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان غرب أوربا. ولاشك فى أن هذه الوحدة التى قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردى كانت أقوى أثرا وأكثر استمرارا من وحدة قامت فى العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة.

---

(٦٦) حسن عثمان: سافونارولا، ص ١٣٦ – ١٤١. والبيوريتان ـ أو المتطهرون ـ هم فريق من المتشددين فى إصلاح الكنيسة. المتطرفين فى أسلوب تنقية الدين.

قائمة المراجع

التى تواتر ذكرها فى حواشى الجزء الثانى

Adams (G. B.):
The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066 - 1216),
London, 1905

Bailey (A. E) :
The Arts and Religion,
NewYork, 1944

Ball (W. W. R)
A Short Account of the History of Mathematics,
London, 1927

Barker (E.), Clark (G.) Vaucher (P.)
The European Inheritance (3 vols).
Oxford, 1945.

Boissonnade (P.):
Life and Work in Medieval Europe,
London 1937.

Bowle (J.):
Western Political Thought,
London, 1948

Bréhier (E.):
La Philosophie du Moyen Ages,
Paris, 1949.

Briggs:
Architecture,
Oxford, 1947.

Browne:
Arabian Medicine,
Cambridge, 1921.

Coulton (G. G.):
The Medieval Scene,
Cambridge, 1931.

Coulton (G. G.):
Life in the Middle Ages (4vols),
Cambridge, 1928.

Crump (G. G), Jacob (E. F.):
The Legacy of the Middle Ages,
Oxford, 1926.

Dampier (W. C.):
A History of Science and its Relation with Philosophy and Religion,
Cambridge, 1942.

Davis (H. W. C.) :
Charlemagne,
London, 1929.

Delambre:
Hist. de L'astronomie de Moyen Ages,
Paris, 1819.

De Wulf (M.):
Historie de Philosophie Medievale (2 vols),
Louvain, 1924.

Drapper:
A Hist. of Intellectual Development of Europe (2 vols),
London, 1846.

Evans (J.):
La Civilisation en France au Moyen Age,
Paris, 1930.

Eyre (E.):
European Civilization (Vol. 3, The Middle Ages),
London, 1935.

Fliche (A.) :
L'Europe Occidentale du 888 á 1122
(Hist du Mouen Ages, tome2),
Paris, 1930.

Foligno (C.):
Latin Thought during the Middle Ages,
Oxford, 1926.

Ganshof (F. L.):
Feudalism,
London, 1952.

Gierke (O.):
Political Theories of the Middle Ages,
Cambridge, 1927.

Gilson (E.):
La Philosophie au Moyen Ages,
Paris, 1947.

Giuzot (M.):
Histoire de la Civilisation en France,
Paris, 1868.

Harvey (J.):
The Cothic World,
London, 1950.

Haskins (C. H.):
The Rise of Universties,
NewYork, 1923.

Haskins (C. H.):
Studies in Medieval Culture,
Oxford, 1929.

Haskins (C. H.):
The Renaissance of the Twelfth Century,
Cambridge, 1928.

Hearnshaw (F. J. C.):
Medieval Contributions to Modern Civilisation,
London, 1921.

Hearnshaw (F. J. C.):
The Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers,
London, 1921.

Hearnshaw (F. J. C.):
Some Great Political Idealists of the Christian Era,
London, 1937.

Heatou (H.):
Economic History of Europe,
NewYork, 1948.

Howell-Smith (A. D.):
Thou Art Peter.
A History of Roman Catholic Doctorine and Practice,
London, 1950.

John R. Williams:
The Cathedral School of Reims in the Eleventh Century. (Speculum; A journal of Medieval Studies, vol. XXIX, 1924).

Kantorowicz (E.):
Frederick the Second,
London, 1931.

Lanson (G.):
Histoire de la Litterature Française,
Pairs, 1916.

Lavisse (E.):
Histoire de France,
Paris, 1911.

Lethaby (W. R.):
Medieval Art,
London, 1949.

Lodge (R.):
The Close of the Middle Ages,
London, 1922

Mâle (E.):
Religious Art,
New York, 1949.

Mâle (E.):
Histoire Générale du l'Art (2vols),
Paris, 1949

Morey (C. R.):
Medieval Art,
NewYork, 1942.

Painter (S.):
A History of the Middle Ages,
NewYork, 1954.

Painter (S.):
Medieval Society,
NewYork, 1955.

Pairs (G.):
Esquisse Historique de la Litterature Française au Moyen Ages,
Paris, 1907.

Pirenne (H.):
Princeton, 1939.

Pirenne (H.),
Economic and Social History of Medieval Europe,
Paris, 1947.

Pirenne (H.), Cohen (G.) Focillon (H.):
La Civilisation Occidentale au Moyen Ages du VIème au Milieu du XVè me Siècle.
Paris, 1933.

Pirenne (H.), Renaudet (A.), Perroy (E.), Handelsman (M.), Hal-phen (L.):
La Fin du Moyen Age (2 vols),
Paris, 1931.

Poole (R. L.):
Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning:
London, 1920.

Rambaud (A.):
Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'à l'année 1877.
Paris, 1877.

Rashdall (H.):
The Universities of Europe in the Middle Ages, (3 vols),
Oxford, 1951.

Renouard (Y.):
Histoire Ecclesiastique de Moyen Age.
(Revue Historique, T. CCV, 1951 & T. CCVII, 1952).

Simpson (F. M.):
A History of Architectural Development (3 vols).
Aberdeen, 1939.

Singer (C.):
From Magic to Science,
London, 1928.

Stephenson (C.):
Medieval History,
NewYork, 1942.

Stephenson (C.):
Medieval Feudalism,
NewYork, 1942.

Stubbs:
Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History,
Oxford, 1900.

Symonds (J. A.):
Renaissance in Italy (7 vols),
London, 1928.

Symonds (J. A.):
Wine, Women and Songs,
London. 1931.

Taylor (H. O.):
The Medieval Mind (2 vols),
London, 1930.

Thompson (J. W.):
The Middle Ages (2 vols),
London, 1931.

Thorndike (L.):
A History of Magic and Experimental Science (2 vols),
New York, 1929.

Ullmann (W.):
The Growth of Papal Government in the Middle Ages,
London, 1955.

Ullmann (W.):
Medieval Papalism,
London, 1948.

Vasiliev (A. A.):
Histoire de l'Empire Byzantine (2 vols),
Paris, 1932.

Vinogradoff (P.):
Roman Law in Medieval Europe,
London, 1909.

Waddell (H.):
Medieval Latin Lyrics,
London, 1942.

Waddell (H.):
Poetry in the Dark Ages,
Glasgow, 1948.

Wadell (H.):
The Wandering Scholars,
London, 1930.

Workman (H. C.):
The Evolution of the Monastic Ideal,
London, 1927.

The Cambridge Medieval History (8 vols),
Cambridge, 1936.

The Cambirdge Modern History (vol. 1),
Cambridge, 1907.

برتراند رسل:

تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) ترجمه إلى العربية ـ الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦) .

حسن عثمان:

سافونارولا (القاهرة ١٩٤٧) .

سعيد عبدالفتاح عاشور:

أوريا العصور الوسطى ـ الجزء الأول (القاهرة ١٩٨٦) .

سعيد عبدالفتاح عاشور:

الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٥٩) .

سعيد عبدالفتاح عاشور ، سعد زغلول عبدالحميد، أحمد مختار العبادى:

دراسات فى الحضارة العربية والإسلامية (الكويت ١٩٨٥) .

محمد مصطفى زيادة :

الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا (القاهرة ١٩٥٨)

يوسف كرم:

تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط (القاهرة ١٩٤٦) .

فهرس الموضوعات

القسم الثاني:

أوربا العصور الوسطى


ISBN 977-05-1464-0





The World of Words & Thoughts

www.anglo-egyptian.com